تاريخ الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

(١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)

الجزء الثاني

يحتوي على أهم مقالاته الإصلاحية التي نشرت في الجرائد ولوائحه في إصلاح التربية والتعليم الديني، ومدافعته عن الدين، ورحلته إلى الصقلية وعلى كتبه ورسائله إلى العلماء والفضلاء في الموضوعات المختلفة وعلى بعض حكمه المنثورة

جامعه

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

(١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م)

الطبعة الثانية لدار الفضيلة

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م



دار الفضيلة
للنشر والتوزيع والتصدير

الادارة : القاهرة - ٢٢ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات
مصر الجديدة ت وفاكس ٤١٨٩٦٦٥ رقم بريدي ١١٣٤١ هليوبوليس
المكتبة : ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات : دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٢٦٩٤٩٦٨ فاكس ٢٦٢١٢٧٦

﴿ فهرس الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام ﴾

(وهو جل منشآته الاصلاحية والاجتماعية والادبية)

باب المقالات

الفصل الاول

ما كتبه في عهد طلبه العلم بمصر وفيه مقالتان

صفحة

الفصل الثاني

(مقالاته فى السنة الاولى من الاهرام)

الفصل الثالث

(مقالاته الاصلاحية ، فى جريدة الوقائع المصرية الرسمية)

الفصل الثالث

(مقالات العروة الوثقى الاصلاحية)

صفحة

الفصل الرابع

(مانشر له بعد النفي من المقالات في الصحف السورية والمصرية)

صفحة

الفصل الخامس

(بعض ماكتبه في المناظرات الدينية وغيرها)

﴿ باب الرحلات العلمية التاريخية ﴾

صفحة

الباب الرابع

﴿ لوائح الاصلاح والتعليم الديني ﴾

الباب الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم ، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين • (سورة يس)

مات الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده) ولم يمت بل هو حي بآثاره ، التى هي مقبس أنواره ، مات الموتة الطبيعية ، وحي الحياة العقلية الروحية فهو لايزال كما كان ، قبل أن يغيب عن الميان ، تنقل أقواله ، وتذكر اعماله ، وتكتب معارفه ، وتشكر عوارفه ، ولا غرو فان للعلماء والحكماء فى هذه الدنيا حياتين — حياة جسدية محدودة تبتدىء بيوم الولادة وتنتهي بيوم الوفاة ، وهي الحياة الحيوانية التي يشاركهم فيها سائر الناس بل سائر الحيوان — وحياة عقلية روحانية غير محدودة وهي تبتدىء بظهور ثمرات عقولهم النافعة لامتهم أو لكل من يجنيها من الناس وتدوم مادام الزمان ، وبقي من المناظرين في آثارهم إنسان ، وقد كان الاستاذ الامام من خير هؤلاء العلماء ، وأفضل أصحاب هذه الحياة من الحكماء ، تشهد له بذلك آثاره المرقومة في وجوه الصحائف ، ومآثره المرسومة في ألواح القلوب ،

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

يسفر لك هذا السفر من تاريخ هذه الحياة عن هذا النابغة العبقري وهو

لايزال تلميذا يقتبس أنوار الحكمة من أستاذه السيد جمال الدين، ويفيض منها على عقول المستعدين : بما يكتب من المقالات ، في فلسفة التربية والصناعات ، وآونة يحبر الفصول الانشائية ، ويجلي المعاني المصرية في أثواب الاسجاع الحريرية ، ويزفها كالخرائد ، على منصات الجرائد ، داعيا الى استقلال الفكر ، وتناول علوم العصر ، حاثا على ترقية الامة ، حاضا على تجديد مجد الملة ، آمرا بالاتحاد على ترقية الاوطان ، ناهيا عن التعصب الذميم بين المختلفين في الاديان ، فهذا مثال طور الطلب والتحصيل من حياة الرجل العقلية ، يبتدىء في الكتاب بمقالاته التي كتبها وهو في عهد طلبه للعلم بالازهر الشريف وينتهي بحكمه المأثورة ، ودرره المنثورة

ثم يمثله لك في طور آخر . وهو تارة بين أرباب الرياسة ، يرشدهم الى طرق الادارة والسياسة ، ويهديهم سبيل الرشاد ، لترقية الرعية وعمران البلاد ، وتارة يشرف على الامة بالوعظ والتعليم ، ويسلك بها صراط الحياة المستقيم ، ببيان غوائل السرف وفوائد الاقتصاد ، وتقويم النفوس بمقاتل الفضائل وأحاسن الآداب ، بعد تطهيرها من لوث الخرافات ، ومساوي التقاليدوالعادات ، يهبط على الفلاح في حرثه فيخاطبه بما يفهم ، ويعرج بطالب الحكمة الى أفقه فيعلمه مالم يكن يعلم ، — وهذا هو المثال الاول بطور العمل ، من الحياة المعنوية للرجل ، تجليه لك مقالاته في جريدة الحكومة الرسمية ، وجل عمله فيها خاص باصلاح حال البلاد المصرية ،

ثم يجليه لك مع أستاذه في الديار الاوربية ، متحدين على إرشاد جميع الشعوب الاسلامية ، السيد الحكيم يقترح ويدبر ، والاستاذ الامام

يكتب ويحرر ، يدعوان الى العروة الوثقى التي لا انفصام لها ، ويجمعان القلوب على الوحدة وكانا أحق بها وأهلها ، هنالك تتجلى لك روح القرآن ، هابطة من سماء الحكمة والعرفان ، مؤيدة بالعزة والسلطان ، تطوف بتلك العروة البلاد ، وتصافح قلوب أهل الاستعداد ، فتحييها حياة جديدة ، وتجذبها الى عيشة سعيدة ، هنالك ترى الالهام الالهي يمد بتأثيره العلم الكسبي ، فيصيبان مواقع الاقناع من العقل ، ويبلغان مواضع التأثير من النفس ، فلا يقرأ القارىء ما في العروة من بيان حال المسلمين ، وأسباب ما أصيبوا به من البلاء المبين ، وما تطب لدائهم وتصف من دوائهم ، الا وينثني أسير البرهان ، مملوك الوجدان بالاذعان ، مندفعا الى العمل بذلك البيان ، بالجنان واللسان والاركان ، وذلك طور مستوى القوة ، وكمال الفتوة ، ومنتهى علو الهمة ، وبيع النفس والوقت للملة والامة

ثم يظهره لك رابضا في الديار السورية ، يعمل لاصلاح الاسلام باصلاح الدولة العثمانية ، أو مقيما في الديار المصرية ، يبين لاولي الامر طريق الاصلاح بالتربية الدينية ، وهو في القطرين يتكلم عن فهم ثاقب ، ويرمي عن فكر صائب ، يبين طبائع البلاد والساكنين ، ويجمع بين مصلحة الحاكمين والمحكومين ، ويهديهم الى الطريق القويم ، في نظام التربية والتعليم ، معرضا باستعداده لتنفيذ العلم بالعمل ، مصرحا بضمان تحقيق الامل ، وفي ذلك ما فيه من اعتماده على الله ، وثقته بالقوى والمواهب التي آتاه ، يلوح لك ذلك في لوائح الاصلاح وما فيها من اشراع مناهج الفلاح

ثم يبرزه لك في طور المبارزين ، للطاعنين على الدين المبين ، فيتراءى لك أن قلمه أمضى من الحسام ، وكلمه أنفذ من السهام ، فهو بهما يكر ويصول ،

ويجندل من المجادلين الفحول ، ولا ينثني الا والحق غالب على أمره ، والباطل مغلوب يأرز الى جحره ، وحسبك من ذلك رده على مسيو هانوتو في قوله في طبيعة الديانتين الاسلامية والمسيحية ، ثم رده عليه في مسألة الجامعة الاسلامية

ثم يريكه يجوب الاقطار ، ويقطع أجواز البحار ، للنظر في آثار الاولين ، واستخراج العبر منها للآخرين ، فتراه في صقلية مرة يتصفح الصحف والاسفار ، ويستنطق العاديات والآثار ، ويقرأ مانقش على الجدران بالعربية ، لتحقيق المسائل التاريخية ، ومرة يبحث عن الاخلاق والعادات ، وينقب من المنشآت والمستحدثات ، يتردد بين الاديار والكنائس ، والمقابر والمدارس ، ثم يزف ما استفاد الى أمته ، فيما كتب عن رحلته

ثم يكشف لك عنه الحجاب ، وهو يراسل العلماء والكبراء والكتاب ، فتارة يتلو عليك من كتبه الى حزب المصلحين ، وأهل البصيرة من علماء المسلمين ، ما تخشع له القلوب ، وتتحدر من وقعه الشؤون ، فكأنك منه وقد عاد بك الاسلام ، الى عصر النبي عليه الصلاة والسلام ، فرأيت نفسك تذرف غيرة على الدين ، وتفيض حزنا على ماحل بالمؤمنين ، فلم يبق لها هم الا أن تكون كلمة الحق هي العليا ، وكلمة الباطل هي السفلى ، أو كأنك معه في عصر الراشدين ، وكأنه معك أمير المؤمنين ، يصول على الارواح بمواعظه الصادعة ، ويختلب الالباب ببلاغته الرائعة ،

ومرة يشنف مسامعك باللؤلؤ والمرجان ، من رسائل الوداد الى الاصدقاء والخلان فيمثل لك الادب الباهر ، واللطف الساحر ، ويصور لك الوفاء في أجمل صوره ، والاخلاص في أجل مظاهره ، والصدق والحب على البعد والقرب ، ويريك من ذلك الرجل الحزين على أمته ، المستغرق في عمل

الاصلاح للملة ، أديبا ظريفا ، ونديما لطيفا . حسن الاماليح مليح الافاكيه

حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت ... بشدة البأس منه رقة الغزل

وآونة يقرئك مما كتب الى المؤلفين بالعربية ، أو المترجمين للكتب الاجنبية ، مايرفع من اقدارهم ، ويشب من نارهم ، وما يشحذ غرار همتك ، ويزجي ركاب عزيمتك الى أن تكون من زمرتهم ، وتساهمهم في مثل خدمتهم

وأحيانا يسمعك من تعازيه للمحزنين ، ومواعظه للمرزوئين بالاقربين ، ماتحلو به مرير الصبر ، ويرغب فيما عند الله من المثوبة والاجر ، ويترك القلوب مفثوءة ثائرة ، قد سكنت قدرها الفائرة ، وأنشأت تشيع الاحزان ، وتستقبل السلوان ،

ثم يختم لك ذكرى هذه الحياة الروحية ، والآثار العقلية بشذرات من الحكم المنثورة ، والايات المأثورة ، فترى اجمالا ينبيء عن تفصيل ، وقليلا لا يقال له قليل ، كأنه صورة مصغرة لتلك الروح الكبيرة ، أو عناوين لتلك الكتب المسطورة ، على أن الكتاب كله نتف من أقواله ، وانموذج من أعماله ، وإن اثاره في النفوس لاعظم من آثاره في الطروس فهو كحي في الاخرة بما قدم من عمل ، حي في الدنيا بما ترك من اثر ، يمثل حياته هذا الكتاب الناطق وينشر خبرها الصحيح مريدة الصادق

محمد رشيد رضا

منشيء المنار

(تنبيه) تزيد هذه الطبعة على الاولى عدة مقالات ورسائل وحكم منثورة ، وحذفنا منها رسائل الواردات لقلة من يفهمها ولرجوع الاستاذ عن كثرتها وقد بلغت الزيادة مع هذا ٩١ صفحة

باب المقالات

يدخل ماكتبه من المقالات ونشر فى الجرائد فى ثلاثة فصول (أولها) ماكتبه فى عهد طلبه للعلم بالازهر ولدى السيد جمال الدين الافغاني (ثانيها) مانشره بعد دخوله في طور العمل وتصديه لاصلاح الحكومة والامة بمصر وهو مانشره فى جريدة (الوقائع المصرية) الرسمية (ثالثها) ماكتبه بعد نفيه من مصر وتصديه مع أستاذه وصديقه السيد جمال الدين الافغانى للاصلاح الاسلامي العام وهو مانشره في جريدة (العروة الوثقى) التي انشئت فى (باريس) (رابعها) مانشر بعد ذلك فى الصحف المصرية والسورية

الفصل الاول

ما كتبه في عهد طلبه للعلم بمصر وهو أول عهده بالانشاء الذي عرف به في عالم الصحف : وعندنا منه مانشر في أعداد متفرقة السنة الاولى لجريدة الاهرام الاسبوعية من العدد الخامس الذي صدر في ١٤ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ الى العدد «٤١» وهي السنة التى نال فيما يليها «أي سنة ١٢٩٤» شهادة العالمية من الازهر ، وبعض مانشر في جريدة مصر التي كانت لسان السيد جمال الدين ومريديه وتلاميذه وهو مقالتان نجعلهما فاتحة المقالات وهما في الحقيقة للسيد وليس للشيخ منهما الا العبارة:

المقالة الاولى

فلسفة التربية

في ليلة الاحد الماضي (١) انعقد درس الاستاذ جمال الدين الأفغاني، وانتظم في سلكه جم غفير من نبهاء طلبة العلم وفضلائهم، وكثير من الافندية مستخدمي الدواوين. بحضر هؤلاء وأولئك، شنف المسامع بمقال جليل في شأن تربية الامة وما يلزم أن يسلك من سبلها، ولما فيه من عظم الفائدة رغبت في نشره في الجرائد الوطنية (٢) تعميماً للفوائد، وبياناً لما انطوى عليه من حسن المقاصد، قال ما معناه:

إذا وجه العقل نظر الاعتبار الى الاجسام الحية بالحياة النباتية أو الحيوانية أو الانسانية علم أن قوام حياتها بتفاعل العناصر الداخلة في قوامها، تفاعلا متناسباً بحيث لا يتميز أحد تلك العناصر بالغلبة على باقيها، غلبة تقتضي بظهور خواصه وتسلطها على خصائص البقية، فبذلك التناسب يتم للبدن الحي ما يسمى بالمزاج المعتدل الحاصل لروح الحياة، فان غلب أحد العناصر على سائرها، واضمحلت خواص بقيتها فيه، انحرف المزاج وخرج عن حد الاعتدال، واستولى المرض على الجسم، وكما يكون الاختلال وفساد البنية بتغلب بعض العناصر على ما سواه منها. كذلك يكون بمغالبة المزاج للحوادث الخارجية وغلبتها عليه، كالبرد الشديد المذهب لروح الحرارة الغريزية، والحر الشديد الموجب للاحتراق، وتحلل الرطوبة الضرورية المنتهي اليه اليبس نذير الموت والفناء

ومن ثم وضعوا علوم النباتات والحيوانات والطب البشري والبيطري، ليبحث في تلك العلوم عما به يحفظ التوازن بين البسائط التي يتركب منها الجسم

---

(١) كان ذلك في ١١ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٦ أول يونيو «حزيران» سنة ١٨٧٩م

«٢» نشرها في جريدة مصر التي كانت تطبع في الاسكندرية وكانت مظهر افكار السيد ومجلى حكمته وميدان اقلام مريديه

ومحترز من تسلط الحوادث الخارجية عليه ، ويعاد به المزاج الى حالة الاعتدال إن خرج عنها لتتم حكمة الله تعالى في بقاء الانواع إلى آجالها المحددة بحكم الحكمة الأزلية . فالنباتيون يعينون الاراضي القابلة للزراعة والغراسة لكل نبات ، ويحددون الفصول الملائم هواؤها لنموه ، ويوضحون مواد التسميد ، وغير ذلك مما لابد منه في تربية النباتات — وكذلك الاطباء يبحثون عن مواد الاغذية وماذا يجب أن يتخذ منها لكل مزاج ، ومضار الاهوية ومنافعها ؟ ويقفون بتجاربهم الصادقة على الادوية النافعة لرد البدن الى حالة الصحة وآلات العلاج المفيدة حتى تحفظ بذلك على البدن صحته ، ويرجع اليها إن انحرف عنها .

ولن يكون الطبيب طبيباً يترتب عليه غايته حتى يكون على علم بالتاريخ الطبيعي وعلوم النباتات ليعلم خواصها ، ويميز نافعها من ضارها . وعلى بصيرة من اختلاف الامزجة ومقتضياتها ، وما يلائم كل واحد على حسبه ، وخبيراً بعلل الامراض وأسبابها وكيفياتها من شدة وضعف ، وتاريخها من قدم وحدوث ، حتى يعالج كلا بما يليق به . فان جهل من ذلك شيئاً كان فقده خيراً من وجوده . فان الطبيب الجاهل رسول ملك الموت ، إذ بجهله يستعمل من الأدوية ماعساه يهيج المرض ، ويعين من الأغذية مايساعده على قسوته ، فيفضي ذلك الى هلاك المريض . وقد كان بدونه محتمل الشفاء بمقاومة الطبيعة لولا مساعدة الجاهل وعونه ، وكما يلزم للطبيب أن يكون عالما بجميع ما قدمنا يجب أن يكون شفيقاً رحيما صادقاً أميناً ، لايكون قصارى عمله ما يناله من جعل المعالجة . فانه إن كان قسياً عديم الرأفة أو كان خائناً فلربما صار آلة في أيدي أعداء المريض يستعملونه لهلاكه بالقائه السم في الادوية مثلا ، أو إهماله في العلاج بما يقدمونه اليه من العرض الفاني . وكذلك إن قصر همه على ما ينال من الدينار والدرهم ، فانه إن كان على تلك الصفة لم يكترث بحال المريض مادام يوفى أجر عمله ، فان هلاك قد نال مايزيد عن مكافأته ، وإن امتد المرض زاد الايراد بتوارد الاوقات ، فعدمه أيضاً خير من وجوده

وكما أن روح الحياة البدني انما يستقر حيث تجتمع أصول متضاربة ينشأ من

تغالبها مزاج معتدل كامل، وبغلبة أحدها يفسد التركيب ويذهب الروح الحيوي من حيث أتى . كذلك روح الكمال الانساني إنما يكون حيث تجتمع أخلاق متضادة وملكات متخالفة ، يقوم من تضادها وتخالفها حقيقة الفضيلة المعتدلة التي هي ركن لبيت سعادة الانسان ، وعليها مدار حياته الفاضلة ، فان تغلب أحد الخلقين على الآخر ، فسد نظام الفضيلة ، واستحكمت الرذيلة ، وبات شقيا سيء الحال ، وسقط في مهواة التعب والعناء ، المفضيين الى الحين والهلاك .

ألا ترى أن النفس الانسانية لابد لها من خلق الجرأة وخلق المخافة ، وهما متضادان ، ومن مقاومتهما على وجه معتدل بحيث يستعمل كلا فيما يليق به من المواقع ، تتحقق الشجاعة التي لو فقدت بتغلب المخافة لكان فاقدها عرضة لتعدي جميع الحيوانات عليه ، ولم يستطع عن نفسه دفاعا ، وكانت حياته تحت خطر يتهدده في جميع أوقاته . ولو أن الجرأة تغلبت على المخافة حتى ذهب أثرها كانت تهوراً وعدم اكتراث بالمهالك لحق ولغير حق، بدون تبصر ولا مراعاة حكمة ، فيلقي بروحه في مهاوي الملكة بلاطائل يعود على نفسه أو وطنه

وكذلك لابد من خلق الامساك والبذل ، وهما متخالفان متعارضان، يتقوم من تغالبهما في النفس فضيلة السخاء ، وهي البذل في موضع الاستحقاق إذا اعتدلا . ولو أن الامساك تغلب على ضده حتى اضمحل فيه لأمسك عن قضاء لوازمه الضرورية ، فلا يأتي باللائق من الأغذية والألبسة مثلا، فيضر ببدنه، ولم يوف بحقوق مشاركيه في المعيشة كزوجته وولده ، أو في التعامل كجيرانه وأهل بلده ، فيقع الشقاق بينهم ، ويتأدى به الى شقاء دائم ، وغير ذلك من مفاسد البخل التي لاتنحصر . ولو تغلب البذل لأنفق جميع ما بيده في المفيد وغير المفيد حتى يصبح فقيراً فلا يجد ما ينفقه في ألزم لوازمه فيهلك

وهكذا جميع الملكات الفاضلة الانسانية إنما هي واسطة لطرفين متضادين لابد من ظهور أثر كل منهما على نسبة معتدلة، وبغلبة أحدهما على الآخر يختل نظام الفضيلة ، ولا محالة ينهدم بيت السعادة دنيوية كانت أو أخروية ، ولا يسعنا المقام لتفصيل ذلك . وكما يقع العناد بتغلب أحد الضدين على الآخر في النفس

يقع أيضاً بتغلب أمر خارج عن مزاج الفضيلة كغلبة التربية الفاسدة المغذية للعنصر الفاسد بمخالطة ذوي الملكات الرذيلة والغرائز الناقصة ، وانفعال النفس بحركاتهم وسكناتهم وتقليدها لأعمالهم ، وتقلدها بعاداتهم ، أو باستماع إغواء ذوي الاهواء ، وتمويهات أرباب الاغراض الفاسدة الدنيئة ، المذيعين للافكار الرديئة ، المؤيدين للعقائد الباطلة ، التي ينبعث منها سوء الاخلاق المؤدي الى فساد المعيشة . فللنفوس علل وأمراض كما للابدان ذلك

ومن ثم قد وضعت علوم التربية والتهذيب لتحفظ على النفس فضائلها وتردها عليها ان اعتلت وانحرفت عنها الى جانب النقص والاعوجاج ، كما وضع الطب ولوازمه لحفظ صحة البدن كما بينا — فالحكماء العمليون القائمون بأمر التربية والارشاد ، وبيان مفاسد الاخلاق ومنافعها ، وتحويل النفوس من حالة النقص الى حالة الكمال ، بمنزلة الاطباء ، وكما لزم للطبيب أن يكون عالماً بالتاريخ الطبيعي والنباتات والحيوانات وعلل الامراض وأسبابها ودرجاتها من شدة وضعف ، كذلك يلزم للحكيم الروحاني طبيب النفوس والارواح إذا رقي منبر الارشاد أن يكون عالما بتاريخ الامة التي قام بارشاد أبنائها وتاريخ غيرها من الامم أيضاً وأن يكون مطلعا على درجات ترقيها ودركات تدنيها في جميع الازمان ، وأن يسبر أخلاقها بمسبار الحكمة ليعلم أسباب أمراضها النفسية ، ويقف على درجات الداء وتمكنه فيهم وأنه حديث أو قديم ، قوي في النفوس أو ضعيف ، وما هو العلاج اللائق بكل صنف ، وكما أنه يجب على الطبيب البدني أن يكون على علم تام بمنافع الاعضاء وغاياتها كذلك على الطبيب الروحاني ان يكون عالماً بمنافع الاخلاق ومضارها على طبق ما في نفس الامر الواقع ، وكما يلزم أن يكون الطبيب شفيقاً رحيما صادقا أميناً ، لا ينظر الى الدنايا ، ولا ينحط الى المقاصد السافلة ، كذلك على النصحاء والمرشدين أن يكونوا من ذوي الاستقامة والفضيلة مرتفعي الهمم ، أولي مقاصد عالية ، لا يبيعون الفضيلة بحطام الدنيا ، ولا بالتقرب والتزلف الى الامراء والكبراء .

أولئك هم المرشدون الحقيقيون فان رزقت الامة بمثلهم فبشرها بالسعادة ،

وإن رزئت بمطببين لا أطباء، بأن صعد على منابر النصح فيها الجهلة والاغبياء، والسفلة والادنياء ، فأنذرها بالعناء والشقاء ، فان المرشد الضال والنصوح الجاهل يودع النفوس رذائل الاخلاق باسم أنها فضائل ، ويغرس فيها جراثيم الشر باسم أنها أصول الخير ، ولربما كان مقصده حسناً ولا يريد الا خيراً ، ولكن جهله يعميه عن سلوك طريقه ، ويبعده عن اتخاذ وسائله ، فتقع الارواح في الجهل المركب ، وهو شر من الجهل البسيط ، فان ذا الثاني على باب الفضيلة لا يلبث ان فتح له أن يلجه ، وصاحب الاول قد بعد عن المقصد بمراحل ، واستتر تحت نقع الرذيلة ، واعتقد ذلك ظلا ظليلا ، فلا يمكن العدول عما وقع فيه الا بعد مكابدة شديدة وعناء طويل ، فلا ريب كان عدم هؤلاء المرشدين خيراً من وجودهم ، وكذلك إن كان خائناً أو دنيئاً ينحط الى سفاسف الامور أو عدم الشفقة والانسانية ، فانه يتخذ النصيحة سلما للوصول الى أغراضه الفاسدة ومطالبه الذاتية ، فلا يبالي أوقع الافراد في خير أو شر ، صفت النفوس أو تكدرت ، ارتفعت الآداب أو انحطت ، صحت الارواح أو اعتلت ، فيكون آلة بيد الاشرار وأولي الاهواء، يستعملونه في فساد الامة والعشيرة لقضاء أوطارهم

ألا وأن القائمين بأمر الارشاد يحصرون في قبيلين، قبيل الخطباء والوعاظ ، وقبيل الكتبة والمصنفين ، ومنهم أرباب الجرائد ، فان كانوا على نحو الاوصاف الكاملة اللازمة لمقامهم هذا كما تقدم ، فقد استحقوا التعظيم والاحترام والتبجيل والاجلال ، واستوجبوا الشكر والثناء من كل قلب مخلص ، وقاموا بخدمة أوطانهم وأبناء بلدتهم ، وإلا استحقوا الرفض والطرد والابعاد ، ووجب على من يهمهم أمر الاصلاح أن يقذفوا بهم من البلاد كي لا يفسدوها بمرضهم الوبائي الذى لا يقتصر ضره على المبتلي به ، بل يتعداه بالسراية الى كل ما سواه

المقالة الثانية

فلسفة الصناعة

قد عاد حضرة الاستاذ الفاضل ، والفيلسوف الكامل، السيد جمال الدين الأفغاني الى التدريس بعد فترة تزيد مدتها عن سنة . فابتدأ حفظه الله يقرأ شرح إشارات الرئيس ابن سينا في الحكمة العقلية ، وهو كتاب جليل يحتوي من هذا العلم أصولا جليلة ، غرست أصولها في بلاد المشرق من مدة تقرب من ألف سنة ، إلا أنها نبتت فروعها في المغرب ، واجتنيت ثمارها لغير غارسيها ، ولم تزل في بلادنا على كليتها وإجمالها لم تخرج نتائجها العقلية من حد(١) القوة الى الفعل — إلا أن هذا السيد الفاضل قد جمع في تدريسه بين تدقيق الشرقيين ، وبسط الغربيين ، يجمع الى الاصول فروعها ، وإلى المقدمات نتائجها ، والى المجملات تفاصيلها ، بانياً جميع أقواله على البراهين الثابتة والحجج القويمة . ولما كانت دروسه العالية عظيمة الفوائد ، جمة الثمرات للعموم . رأيت من الواجب قياما بالخدمة الانسانية أن أودع بعضها قوالب العبارات اللائقة بها ، وأنشر طيب وفدها في صحف (الجرنالات) لتعم الفائدة، والله يتولى التوفيق

بين حفظه الله وأثبت أن الانسان نوع من أنواع الحيوانات الأرضية (لا كما يزعمه أرباب الأوهام كالصينيين وقدماء الفرس من أنهم من أبناء السماء فليتذكر من له فطنة) وأنه قد أتى عليه حين من الدهر وهو على مقربة منها ، ينشأ نشأتها ، ويسير في عيشه سيرتها ، يتفيأ ظلال الاشجار ، ويستكن في الجحَرة والاوكار ، ليس له شعار ولا دثار (ولكن خفيف أشعار) يقتات بنباتات وثمرات تحضرها له القدرة الالهية ، على يد القوى الطبيعية ، لا تمسها يد صناعية ، ولا تربية أجنبية ، ليس له من المكر والتحيل إلا مالا يداني فيه

(١) لعل الكلمة حيز بتشديد الياء فانها هي المستعملة في هذا المعنى ولفظ الحد صحيح فيه

الثعلب ، ولا من العلم والتدبير إلا ما يبعثه على الغدو لطلب قوته من الاعشاب وثمار الاشجار، والرواح للاستكنان في كن يواريه عن أعين الحيوانات العادية ، والفرار من المكاره الحسية ، كما تفر الشاة من الذئب ، والارنب من الثعلب . ولم يكن له من رفعة القدر مايجلسه على كرسي سلطنة الوجود ، ويقيمه متحكماً في كل موجود ، ويدعوه للحكم بأنه خلاصة العالم ومنتهى سير الحقائق وعماد عالم الكون ، وأن جميع البسائط والمركبات إنما خلقت لأجله ، والكواكب السيارات إنما تتحرك لخدمته ، بل كان ضعيفاً عاجزاً جاهلا حافياً عاريا بزعجه كل حادث ، وتستفزه كل نبأة ، ويتهيب من كل شكل وهيئة ، والشاهد على ذلك ماتحكيه لنا أحوال الامم التي كأنها قريبة عهد بالانسانية في جنوب أفريقيا والقبائل المستمرة (١) في قمم الجبال والاجم والغابات البعيدة عن العمران البشري المعروف ، الذين لم تضطرهم الحاجات ولم تسقهم الضرورات الى الانتقال من مكان الى مكان ، فانهم لم يزالوا على سذاجة الحيوانية وبساطة الفطرة ، لايفهمون خطابا ، ولا يحسنون جوابا ، إلا ما كان متعلقاً بضرورة الحياة ، كجلب قوت بسيط ، ومدافعة عاد من الحيوانات ، وجميع ما يعده الانسان المتمدن كمالا وإنسانية فهم بعيدون منه ، عارون عنه ، مع بعد تاريخهم وامتداد زمن وجودهم على سطح الارض

الا أن مبدع الكون جلت قدرته لما اختص هذا النوع من بين الأنواع الحيوانية بخاصة العجز والفقر والحاجة ، حيث جعل جميع لوازم حياته خارجة عنه ، لاتحصل الا بالتحصيل ، وليس تحصيلها الا بعد الكد والعناء : وهبه قوة عاقلة كلية التصرف ، عامة القبول ، ووكل تربية هذه القوة الى تعليم مدرسة الوجود الكلي ، فكان لكل نبات وحيوان ، بل لكل موجود مشهود حق الاستاذية وسابق الفضل على نوع الانسان ، فاسترشد بأعمالها ، واهتدى بآثارها ، والتقط درر الحكم من فعلها وانفعالها ، وتدرج في ذلك شيئاً فشيئاً ، تارة يخطيء وتارة

«١» استمر الرجل : جاز وذهب واطرد ومضى على طريقة او حالة واحدة وهو المراد هنا

يصيب ، وطوراً ينجلي له الحق وآخر عنه يغيب ، مرة تعوقه العوائق القدرية والارادية عن إدراك الحقائق والوصول اليها ، وأخرى تجذبه الجواذب اضطراراً للوقوف عليها ، حتى وصل الى ماتراه من أحواله الغريبة وآثاره العجيبة

ثم بين حفظه الله كيف كان يتقلب الانسان في سيره هذا ويقطع عقبات المصاعب، ويخترق حجب الجهالات، منقاداً في جميع ذلك لقائد الحاجة والضرورة يأتمر أمره ويتبع سيره ، تارة يتدرج الى الكمال فيقعده مقعد رئاسة الكون وسلطنة الوجود بما يرشده اليه من التفنن في الفنون واختراع الصنائع ، وأخرى ينحط به الى قعر جحيم الاوهام ، ويقذف به في جب الخرافات ، ويكبله بقيود الاعتقادات السخيفة . ويغل يديه بسلاسل العادات والافكار الرديئة ، على أن جميع اعتقاداته الفاسدة الباطلة إنما نشأت له من قياس حوادث الكون وظواهره على ما يصدر عن ذاته (الشريفة) حيث جعل لها غايات تحاكي غاياته على تفصيل طويل في ذلك ، مستشهداً في تبيانه بشواهد أحواله الآنية المشهودة، مستدلا بجميع أعماله المنقولة المعهودة

وانه في جميع مراتبه لم يكن ليقيم ظهره بين الموجودات الا بدعائم الصنائع التي هدته الى اختراعها تلك القوة العاقلة الكاية ، لتكون له عوضاً عما سلبه من اللوازم الضرورية والحاجية والكمالية التي منحت لغيره من الحيوانات بأصل الفطرة . وليس ذلك بخاف على ذي شعور ، فان صنعة الحياكة مثلا قائمة مقام القوة السامكة للجلود الغليظة المفرزة للأشعار والاوبار الواقية لما أحاطته من صولة البرد والحر بل القائمة مقام ترس يحفظ جوهر بدنه من تمزيق عادية غيره . وصناعة الحديد والاسلحة منزلة منزلة القوة المولدة للمخالب والبراثن والانياب للسباع والضباع وعوادي الطيور . وهكذا بقية الصنائع ، وما لم يقم منها مقام ضروري أو حاجي قام مقام كمالي على ما يتضح لك بعد

واذا كانت الصنائع هي قوام هذا النوع وعليها مدار بقائه في أي مرتبة كانت رأينا من الواجب أن نعرف الصناعة ونقسمها الى أقسامها الاولية على

ما قرره الحكماء الاقدمون ، وأوضحه الفلاسفة المتأخرون ، ليتبين شرف كل صناعة على وجه الاجمال فنقول :

الصناعة قوة فاعلة راسخة في موضوع مع فكر صحيح نحو غرض محدود الذات . فالقوة منشأ الأثر مطلقاً ، فعلا كان أو انفعالا . فالمعلم مثلا ذو قوة الفعل ، والمتعلم ذو قوة الانفعال ، إلا أن قوة التأثر والقبول لا تعد صناعة ، ومن أجل ذلك قيدت بالفاعلة ، وليست كل قوة فاعلة صناعية مالم تكن تلك القوة راسخة في موضوعها تصدر عنها أعمال مستمرة على وجه منتظم. فالقوة الحالية التي تعرض آناً وآنات ثم تزول ليست منها في شيء ، وما لم يكن فعلها تحت سلطان الفكر فلا تدخل في مفهوم الصناعة كالانفعال الطبيعية من إحراق النار وتمديد الحرارة وتجميد البرودة وما شاكل ذلك . فان لم يكن الفكر صحيحاً كفكر السوفسطائي المنكر لبديهيات العلوم ، أو كان نحو غرض غير محدود الذات كأعمال الجدلي الذي أخذ على نفسه أن لا يقر قولا لقائل أيا كان ، حقاً أو باطلا ، فليس له حد يقف عنده ، بل قوته متوجهة الى معارضة مقابله . فان كان نافياً ، كان هو مثبتاً ، وإن كان مثبتاً كان هو سالباً ، فليس بصناعة

ثم ان من نظر في عالم الوجود الكلي علم علم اليقين إنه وإن وقع كثير من صوره وكائناته تحت قوى طبيعية كقوى النمو والجذب والدفع ، أو قوى إحساسية كقوى طلب الغذاء مثلا في الحيوانات ، أو الهرب مما يؤلم الجثمان ، إلا أن عامة أفعاله واقعة على ترتيب عقلي محكم . ونعني بالترتيب العقلي ما يكون مبنياً على مراعاة الغايات والحكم وفوائد الكمال التي تعود على نظام الكل وتبقى ببقائه فان العقل على خلاف الحس إنما ينظر الى الكلي الباقي أولا ثم يتدرج منه الى الجزئي لا العكس

وإن واضع هذا النظام العام قد خول الانسان من قوة العقل مالم يخوله غيره ، وجعلها محور صلاحه وفلاحه ، إن وجهها صوب وجهتها الحقيقية ، فان استعملها لغايات طبيعية أو حسية أي قاصرة على موضوعها المودعة فيه لا تفيد سواه ، كأن يطلب بها تنمية بدنه أو جلب ما يلائم ذائقته أو نهامته وما يشبه

ذلك ، فقد أضاع تلك القوة العالية الشريفة ، وسلخ عنها ثمرتها ، وانحط الى درجات الحيوانات ، بل النباتات التي لم تمنح تلك المنحة الجليلة ، وأما من حفظ نفسه من السقوط وأمسك عليها حق تلك الخاصة أعني العقل ، فهو الذي ينظر الى كلية العالم الكبير ، فيعلم أن نوع الانسان وسائر الانواع من لوازم كماله أو متمماته ، فيتوجه نحو حفظ ذلك الكمال، ويوقن أن نوع الانسان لايحفظ بقاؤه في عالم الوجود الا بحفظ أشخاصه على التعاقب ، كما نبأنا اللطيف الخبير بما أودعنا من القوى المولدة والمصورة ، ويتحقق أن حفظ أشخاصه وأفراده انما يكون بالاجتماع والالتئام لما لكل فرد من كثرة الحاجات التي يضيق نطاق وسعه عن أن يأتي عليها في الازمنة المتطاولة مع اضطراره الى جميعها في الآن الواحد ، كما تراه في مواد الاغذية التي لاتحصل الا بزراعة وحصاد ودرس ثم طحن ثم عجن وخبز وطبخ وهلم جرا . وجميعها أيضاً يتوقف على صناعات كثيرة من حدادة ونجارة ونحوهما ولوازم الاكتساء من العرى ، وضروريات المدافعة والمكافحة مع ضواري الحيوانات ، كل ذلك لايكون الا بأعمال تستفرغ أجل الشخص الواحد في تعلمها فضلا عن تحصيل غايته منها ، فكيف به أن يستقل وهو محتاج الى ثمرات جميعها يوما بيوم ، بل ساعة بساعة ، فلا بد من التعاون في الاعمال فيعتاض كل عن ثمن عمله بثمرة عمل الآخر . فيكون المجموع الانساني كبدن ذي أعضاء ، يعمل كل عضو منه للبدن لتكون عاقبته لنفسه . إذ لو طلب الاختصاص — مع أنه لابقاء له الا في ضمن المجموع — فقد طلب فقد نفسه من حيث لايشعر ، فاذا علم جميع ذلك وضع نفسه عضواً حقيقيا وركناً ثابتاً يقوم بأداء عمل يعود على كلية الافراد أولا من طريق كليتهم ، ويعود الى شخصيته ثانياً .

ومبدأ هذا العمل فيه هو الذي نسميه بالصناعة، فمن لم يكن ذا عمل حقيقي يفيد المجتمع الانساني، ويعين على انتظام الهيئة الكلية ،فهو كالعضو الأشل لافائدة منه على البدن الا تكلف حمل ثقله مع عدم التألم من إزالته . فالاولى إبانته وقطعه ، بل إن كان لايعمل ويسعى الى بقية الافراد في عدم العمل كالاباحية الذين يعتقدون أنه لاملكية لأحد في مال ولا عرض ، حيثما جاءوا أكلوا ، أو شبقوا

واقعوا ، ويبثون أفكارهم بين أفراد النوع ليقتدوا بأعمالهم ، ويسيروا بمثل سيرهم ، فيتركون الاعمال اتكالا على مابيد الغير حيث إنه مباح لهم ، فان تغلبت أفكارهم بطلت الصنائع وذهب مابيد الغير وما بأيديهم ، فيحتاجون الى الضروري من الاقوات وغيرها ، ولا يجدون فيهلكون (١) .

فأولئك كالأمراض السارية مثل الجذام والزهري لابد من قطع العضو المؤف « المصاب » بها وإلقائه في النار لئلا يتعدى ضرر مرضه الى سائر البدن ومن هذا القبيل الفساق والفجار وان لم يكونوا اباحيين فان أعمالهم قد تكون قدوة لغيرهم فيأتي من ضررهم ماأتى من أولئك فينبغي أن يعاقبوا ويؤدبوا ويحال بينهم وبين أعمالهم هذه بكل ماممكن وان كان بالتعذيب حتى يستقيموا أو لا يقيموا

ومن الناس من مثله مثل الأمراض الغير السارية والاعضاء الزائدة كمن أصيبوا بالآفات المانعة لهم من تعاطي الاشغال كالكسحاء والبله والمعاتيه فلا بد أن يتحمل ثقلهم ان لم يمكن استشفاؤهم فرارا من ألم القلب عند اختزالهم واقتطاعهم، لما لهم من العذر القائم، اذ أن مدبر الكون قد حرمهم عطاء العقل أو عطل فيهم آلات خدمته فهو غير مطالب لهم بأداء فروضه أو قضاء حقوقه، الا أن الحق الأعلى قد بث في النفوس وأودع في القلوب النفرة الشكاية من هؤلاء. وأولئك الذين لم يقوموا بالواجبات التي تقتضيها منهم صورة الانسانية، فهم مبغوضون في النفوس، مطرودون من زوايا القلوب ، ساقطون عن نظر الاعتبار، بل هم ملعونون من أنفسهم أيضاً اذ يجد كل واحد منهم من نفسه عند مايخلو بها أنه خسيس منحط الدرجة رديء العاقبة، وان كان شقاؤه يغلب عليه فيما بعد، فانظر الى حكمة ربك كيف تنبه الغافل، وتؤيد العاقل، ولكن أكثرهم لا يعقلون

وأما ذوو البطالات ومن رفضوا الأسباب ووكلوا أنفسهم الى التوكل الكاذب

---

(١) قد ظهر بعد الحكيمين الافغاني والمصري صنف من غلاة الاشتراكية الشيوعية يسمون البلاشفة ويسمى مذهبهم البلشفي أو البلشفية تغلبوا على قيصرية الروسية فخربوا عمرانها وأفسدوا أديانها وقضوا على ارواح الملايين من أهلها ، ثم شرعوا يبثون دعايتهم في العالم كله وهم أولى بما قاله الحكيم في الاباحية

اذ لم يتحققوا معنى التوكل وظنوا أنه عبارة عن معارضة سنة الله التي قدخلت في عباده ودعوا ذلك تبتلا وانقطاعا عن عالم الظاهر، مع أخذهم لكشكول التكفف، وخلعهم لجلباب التعفف، فهم بمنزلة شعر الابط لا ينشأ عن تكاثفه سوى عناء الحك واستجلاب بعض العفونات ان لم يتعهد بالتطهير، ويستحب ازالتهم وتنقية الهيئة الاجتماعية من درنهم، فان بلغ من أمرهم أن يتخذوا ذلك أمراً يدعى اليه وذهبوا في الناس يحولون وجوههم عن الاعمال، ويقلدون أعناقهم سبح المكر والحيلة، ويسربلونهم بسرابيل التمويه والتزوير، ويغرونهم بتأبط هراوة الشر واقتناء قدح الطمع، يودعون نفوسهم أخلاق الشيطان من حب الرئاسة الكاذبة وطلب الدنيء من الدنيا من كل وجه والحقد والحسد والعداوات وغير ذلك ويحجبون ذلك بأستار من التلبيس (غير المنتظم) ثم يوصونهم أن أخرجوا أيديكم من تحت تلك الاستار طالبين انتهاب أموال الناس والاستئثار بثمرات اكتسابهم باسم أنهم وأنهم وأنهم (كما ترى) وجب إلحاقهم بالاباحيين وتحتم على كل ذي شعور من بني النوع أن يسعى لقطع دابرهم واستئصال شأفتهم، كيلا يفسدوا أفكار العامة وأعمالهم، ويعود ويل ذلك كله على العامة والخاصة معاً، وبالجملة حيث تبين أن لا قوام للانسان الا بالصنعة، فمن أخل بوظائفها أورامها بالنقد. فقد عمد الى هدم بنيان الانسانية، فعليها أن تطرده من أبوابها، وتمحو اسمه من كتابها

أقسام الصنعة وشرفها

ثم ان الصنعة على التعريف المتقدم تنقسم الى أقسام، إما نافعة ضرورية أو غير ضرورية، واما أن تكون كثيرة النفع أو قليلته أو متممة لفعل الطبيعة أو مزينة له، فالقسم الاول كالحدادة لأنها مما يحتاج اليه جميع الصناعات العملية. والثاني كقصر الثياب مثلا. والثالث هو مايكون الغاية منه نفع الانسان لا غير كالحكمة التي هي مقننة القوانين وموضحة السبل، وواضعة جميع النظامات، ومعينة جميع الحدود، وشارحة حدود الفضائل والرذائل، وبالجملة فهي قوام

الكمالات العقلية والخلقية ، ومن هـذا القسم الحكومة العادلة ، والرابع (أي الذي هو خير بالواسطة) كالزراعة والكتابة ، فان لها غايات سوى نفس الانسان لكنها تؤول اليـه . والخامس (وهو الكثير النفع) كالتجارة والتجارة مثلا . والسادس كصناعة الصـيد وما شاكلها . والسابع كعلم الطب المتمم لأفعال القوى الحيوانية المساعد لها على اتمام وظائفها . والثامن كالصباغة والنقش والتلوين وغير ذلك

ثم إن شرف كل صناعة وكل فن بعموم موضوعه وشمول غايته ، وأن أعم الاقسام موضوعا هو صناعة الحكمة لما بينا من أنها الباحثة عن كل ما يلزم للانسان اتخاذه في أعماله وأفكاره وأخلاقه ، فهي أشرف الصناعات والحدادة ، وان كانت عامة لكنها من الحكمة بمنزلة الخادم المنقاد من السيد الحاكم الآمر اهـ



الفصل الثاني

ما كتبه في جريدة الاهرام أيام كان مجاوراً في الازهر وهو أول كتابته الانشائية في الجرائد ومن قرأ هذه المقالات وما يأتي بعدها يتجلى له كيف كانت بداية الاستاذ الامام وكيف ترقى الى تلك النهاية الحسنة الخاتمة. وعندنا منها . ولدينا منها خمس مقالات

المقالة الاولى

تقريظ الاهرام

جاء في العدد الخامس للسنة الاولى من جريدة الاهرام الاسبوعية الصادر في ٢ ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٧٦ الموافق ١٤ شعبان سنة ١٢٩٣ ما يأتي:

وردت الينا هذه الرسالة من قلم العالم العلامة والاديب الفهامة الشيخ محمد عبده احد المجاورين بالازهر فأدرجناها بحروفها :

الى حضرة الهمام الكامل سليم أفندي محرر جريدة الاهرام

انه لما نظر لدى كل قاص ودان ، واشتهر بين بني نوع الانسان ، أن مملكة مصر كانت في سالف الزمان مملكة من أشهر الممالك ، وكعبة يؤمها كل سالك وناسك ، اذ كانت قد اختصت بتربية العلوم ، وبث المعارف المتعلقة بالخصوص والعموم ، وانفردت بالبراعة في الصنائع ، والابتكار في أنواع البدائع ، فكان أبناء العالم اذ ذاك ينتدون نداها ، ويستجدون جداها ، يستمطرون من الغيث قطراً ، ويستمدون من المحيط نهراً ، فكان التمدن فيها كهلا ، حين كان عند غيرها طفلا ، ولا زالت كذلك حتى زها فيها التمدن وأعجب ، اذ رأى الطالبين تنسل اليه من كل حدب ، وأن ملوك الارض خدام عتبته ، وتيجان

الكيانين تحت قبضته ، فاستكبر واعتلا ، ولكؤوس الراحة اجتلا ، فاقصته الى ممالك الغرب ، ليذوق مرارة الشغب أو اللغب ، ويتربى بذلك ويتأدب ، فبدا بتلك الممالك غريباً ، ونادى معلما فوجد مجيباً ، وتناوشته أيدي الجاحدين ، ولفحته أقوال المنكرين ، ولا زال يحتمل أنواع المتاعب ، ويقاسي مستعصيات المصاعب ، الى أن بلغ بها أشده ، وملك رشده ، وسار فيها شرقا وغربا ، وخامر ألباب القوم حباً ، فعم انتشاره ، وبدت آثاره ، وتلألأت أنواره ، واذ تحلى بحلل الجمال ، وتتوج بتاج الكمال ، وقضى مدة السباحة ، وباء بغاية الراحة ، استدار الزمان كهيئته ، ورجع الامر الى بدايته ، وقفل التمدن الى مسقط رأسه ومقر تربيته ، فورد ديار مصر ورود الاهلي ، وتمكن بها تمكن الاصلي ، فاستقبلته الديار بغاية المسرة ، وأكرمت مثواه وأعظمت أمره ، واستردت ما كانت فقدت ، وأدنت ما كانت انأت ، وأحلته محل القرب ، وأنزلته سوداء اللب ، فقام يؤدي حق خدمتها ، ويوفي شكر كرامتها ، فنظر الى ماكان أبداه في تلك الازمان ، من شواهق البنيان ، التي كم بلغت الاسباب ، وحيرت الالباب ، وانبأت بما فيها عن براعة بانيها ، ونطقت بفيها ، ان آيات الكمال فيها ، فلما أعجب بالمثال ، حداه حادي الكمال ، لأن ينسج على هذا المنوال ، فانشأ لنا جريدة الاهرام المؤسسة على أحكم قواعد الاحكام ، الكافلة بارشاد المسترشدين ، وتنبيه الغافلين بما فيها من المباني الرقيقة ، والمعاني الدقيقة ، والافكار العالية ، المؤيدة بالبراهين الشافية ، القائمة بنشر العلوم ، بين العموم ، فيالها من جريدة أسست قواعدها في القلوب ، وامتدت مبانيها لكشف الغيوب ، تنادي بمقالها وحالها : حيّ على الفلاح ، وهلموا الى موارد النجاح ، لاتقفوا عند صورة المبنى ، ولكن تجاوزوا عنه الى المعنى ، تلك أهرام أشباح ، وهذه غذاء أرواح ، تلك ظواهر صور ، وهذه دقائق عبر ، تلك مساكن أموات ، وهذه لسان سر السماوات ، نعم أين ذلك الزمان ، من هذا الآن ، الذي قد سطعت فيه شموس العرفان ، ونشأ فيه بنو الانسان نشأة أخرى ، وتقلب في فنون الحقائق بطنا وظهراً ، فحقيق أن تكون أيامنا غير أيامهم ، وأهرامنا غير أهرامهم ، وأين الذي تفنيه الرياح

والامطار ، من الذي لاتوهنه توالي المدد والاعصار ، فان مقره العقول العاليات، والنفوس الزكيات ، التي لا يتناولهـا الفنا ، ولا يتذلها العنا ، فبخ بخ بمنشيها ، وطوبى لقاريها ، فمن الواجب على ذوي الالباب أن يجتنوا جناها، وأن يستطلعوا بسر معناها ، فيبوؤا بأنوار الحكمة ، وينقلبوا بفضـل من الله ونعمة . فانه ليس شيء لدى العاقل أبهى من حقيقة يكشفها ، ولا ألذ من حكمة يصادفها ، هـذا ايجاز في مزاياها ، بسم الله مجراها ومرساها ،اه

(يقول جامع الكتاب) هذه بداية ،تشير الى ماعرفنا من الغاية ، فالتصور يدل على استعداد الخيال،وناهيك بمجاور أزهري للعلوم العصرية ميال ، لاينكر منه المنتهي من إنشائه الآن،الا تحري السجع الذي كان منتهى البراعة في ذلك الزمان

المقالة الثانية

الكتابة والقلم

وجاء فى اهرام السنة الاولى ايضاً مانصه وقد نشر في عدة اعداد اولها الثامن

وردت الينا هذه الرسالة من قلم العالم العلامة الاديب الشيخ محمد عبده أحد المجاورين بالازهر وموضوعها في أن فن القلم والـكتابة من اللوازم الضرورية ليس للعالم عنها مندوحة في تعيشهم الحقيقي :

إن مما انبسطت به أيدي الضرورات ، وأنتجته مقدمات الحاجات، انشاء لسان القلم ، نائباً عن المتكلم فيما يتكلم ، وذلك أنه لما اقتضى النظام الآلهي أن يخلق الانسان محتاجا في أن يقوم بدنه مدة ما مع حد ما من الراحة، الى أن يتخذ مما خلق الله له في الارض مالم يكن حاصلا، وأن يكون منه مالم يكن كائناً، بحسب الخلقة الاصلية، ركب فيهم القوة النطقية، واللطفية الفكرية ، التي بها يكون ترتيب مايحتاجون الى اتخاذه من المطعم والمشرب والملبس والمسكن . فقادتهم الفكرة الى اتخاذ الصنائع وآلاتها ، على حسب استدعاء الحاجات ومقتضياتها ،واضطرهم ذلك الى الاجتماع بتفصيل لسنا الآن بصدده، وانه وان صح أن يقوم كل شخص

بعمل من الاعمال والبراعة فيه بالآلات البدنية ، فليس في قوة كل أحد أن يكون مخترعا مبتكراً لما يحتاج اليه أرباب الاعمال في أعمالهم من اللوازم الضرورية ، أو الادوات التسهيلية ، أو لما به يكون صلاح ذات بينهم في المعاملات ، وفصل الامر بينهم عند الخصومات ، على مايقتضيه انتظامه الاجتماعي الانساني بتفصيل لسنا الآن بصدده أيضاً ، بل ذلك انما يقوم به أرباب الفكرة الوقادة ، والفطنة النقادة

ومن البين أن مجرد صفاء الجوهر لا يكفي في ترتيب الأثر عليه ، بل لا بد في ذلك من أعماله وتربيته وإعداده لذلك الامر العظيم وتخليته عن جميع الاشغال سواه ، فان القوة الواحدة لا تكفي على البراعة لامور متعددة فاحتيج اذن الى اتخاذ أرباب التعاليم ليقوموا لهم بالعلم والارشاد الى طريق العمل ، ويقوم أرباب الاعمال باخراج ذلك من القوة الى الفعل ، فقام كل بواجبه ، واعتاض كل من صاحبه ، وكان نسبة أرباب التعاليم الى أولياء الاعمال نسبة الاب الشفيق ، والحفي الرفيق ، ليس لهم فكر الا في ترقيهم ، ولا نظر الا فيما يكون سببا لاسعادهم وأساساً لراحتهم ، واذ رأوا ذلك منهم تحققوا مالهم من الفضيلة ، وانتضلوا للقيام بشكرهم بكل حيلة ، فاشتغلت اذ ذاك أفكارهم ، وارتفعت أنظارهم ، واتسعت دائرة المعرفة ، وغدت آيات الحقائق منكشفة ، فعسر عليهم حفظ ما أسسوه ، وعظم عليهم أن يؤدوه كما أبدوه ، لكثرة المقدمات ، وتشتت الجزئيات ، وصعوبة ماتحتاج اليه القواعد ، مما لا يقوم بحفظ الكثير فضلا عن الواحد ، فاحتاجوا أيضاً الى اتخاذ مابه تحفظ أفكارهم بحيث يرجعون اليه عند النسيان ، ويذكرهم لدى البيان ، فطفقوا يتخذون صوراً من الاحجار ، وأخشاب الاشجار ، تحكي بالمناسبة عما يريدون ، وتنطبق على مايقولون ، لتكون اشارة للعارفين ، وحجاباً على أعين الجاهلين ، وكان ذلك كافياً لنقطة من الزمان

ثم لما شيدت مباني العرفان ، وانتشرت المعارف بين بني الانسان ، وغصت الارض بالعلوم ، وسيرت فيها سير النجوم ، صعب عليهم الحفظ بالتصوير ، والتبس الامر على السميع البصير ، فألجئوا بالاضطرار الى حفظ ذلك بالارقام العلمية ، الحاكية عن الحروف اللفظية ، القابلة في الرسم للتأليفات الغير المتناهية

بدون أدنى التباس بين أشكالها، كما لايحصل الالتباس بين الالفاظ عند تأديتها، فكان القلم لسانا آخر للمتكلم، الا أن ما نطق به اللسان الحقيقي عرض سيال، وما نطق به القلم جوهر لايزال، فلصاحبه عند الذهول أن يرجع اليه، ولغيره من أهل لسانه أن يعول عليه فسهل عليهم بذلك حفظ آثارهم وبث أفكارهم، وفرغوا من شغل عظيم، ووضع عنهم وزر جسيم، كان يعوقهم عن كثير من التعاليم، وكان من ذلك أن حفظ قول القائلين من جيل الى جيل، على نحو ما نال من اجمال وتفصيل، فكان بذلك أفكار الازمنة المتتالية مجتمعة فى نقطة واحدة، وكذلك أفكار أهل زمان واحد، على ما فيها من الشوارد، بدون اشتباه في ذلك، فحصل لذلك التعاون في الافكار، وايقاد سرج الاستبصار، فان أفكاراً كثيرة تقدمت أو تأخرت، بمنزلة لجنة قد انعقدت، للارتئاء في حقيقة أمر خفيت، والناظر الناقد بمنزلة رئيس الجمعية يرجح بين الاقوال، ويرى بنور بصيرته ما اليه أمر كل آل

فكم من وهم فاسد عنه اندفع، وكم من محال جاز وجائز امتنع، وكم من نور له بين تلك الآراء لمع، فكان له مكنة أن يمشي في ضوء مصباحه، وأن يضرب بسلاحه لطلب صلاحه، فوضع القواعد، وأقام الشواهد، ورمى بالقذى في عين الجاحد، فارتقت العلوم الى ذراها، وارتبط أولاها بأخراها، وركض العالم فيضوءها، واستقوا من هاطل نوءها، وعاد مثل الاول والآخر، في هذا العمل الفاخر، مثل جماعة تألبوا على إقامة بيت بالاشتراك، وكافوا كلا على حسب حاله من المكنة والادراك، أن يأتي بماله بال في إقامته، أو دخل في استدامته، أو ما يكون موجباً لحسن الترتيب، أو اتقان التركيب. فمنهم من ميز زواياه، ومنهم من فصل جوهره عن خباياه، ومنهم من أسس قواعده، ومنهم من أقام شواهده. وهكذا كل يسعى لتشييده، واقامة حدوده، واحكام قوائمه، واظهار علائمه، الى أن يتم بيت المعارف، الذي هو أمان لكل خائف، وهو حرم الله الذي من دخله كان آمنا، وعرشه الذي من استوى عليه كان بالعزة قمنا، وكل ذلك بسر سير القلم الذي به علم الانسان مالم يعلم، وجمع الكل

في صعيد واحد ، ونادى فلباه كل قاصد . فهذا إيجاز في شانه ، ويسير من بيانه ، في تسيير العلوم وارتقائها ، وتسهيل اقتباسها وابدائها

ثم لما عظم أمر المعاملات التجأوا الى التعامل بالنسيئة ، واحتاجوا الى حفظ وجه التعامل خوفا من النفوس الجريئة ، وكثرت وجوه الاعتداء من الأحزاب والشعوب ، والتجؤا الى الاصلاح كيلا يبيدهم اللغوب ، وكان ذلك لا يستقيم الا بحفظ معاهدات ، تنعقد بينهم لمنع الاقتراحات ، ولا يتم ذلك الا بأن يحفظ ماوقع اتفاق عليه ، على الوجه المرضي بينهم ليمكن الرجوع عند الاحتياج اليه ، فلم يوجد لذلك مستودع أمين ، ولا حصن مكين ، لايداع هذه المعاني ، الا ما يشيده القلم من المباني ، فكان القلم هو الشاهد العدل ، والحكم الذي عليه المعول ، ولولاه لم تحفظ حدود ، ولم يوثق بعهود ، ولم ينل المحق حقه ، بل يتسع المجال للمبطل وتبعد الشقة

ولما انتشر نوع الانسان في أقطار الارض ، وبعد ما بينهم في الطول والعرض ، مع مابينهم من المعاملات ، ومواثيق المعاقدات ، احتاجوا الى التخاطب في شؤونهم ، مع تنائي أمكنتهم وتباعد أوطانهم ، فكان لسان المرسل اذ ذاك لسان البريد ، وما يدريك هل حفظ ما يبدىء المرسل وما يعيد ؟ وان حفظ هل يقدر على تأدية مايريد ؟ بدون أن ينقص أو يزيد ، أو يبعد القريب أو يقرب البعيد ، فكم من رسول أعقبه سيف مسلول ، أو عنق مغلول ، أو حرب تخمد الانفاس ، وتعمر الأرماس ، ومع ذلك كان خلاف المرام ، ورمية من غير رام ، ولم يكن في كلام المرسل مايثقله بهذه الاوزار ، ولا من نفسه مايشعل شرر هذه النار ، فوقعت الندامة ، وضرب الويل خيامه ، فالتجؤا الى استعمال رقم القلم ، ووكلوا الامر اليه فيما به يتكلم ، فكان مبلغاً أوعى من سامع ، وهاجعاً أسرى من لامع ، وقنوعا أغلب من طامع ، وصامتاً أنطق من ممانع ، فأدى القول كما سمع ، وحكى الصنيع كما صنع ، وأتى على المراد ، من فاسد أو سداد ، بل ربما كان أوعى للمقالة من القائل ، وأحفظ للأمانة من المالك الحامل ، فهو حينئذ حقيقة اللسان ، وغيره مجاز عنه في البيان . فكم من معاتب

تنفر النفوس من عتابه ، ان هو أعتب في خطابه ، ولكن إن رقم أتى بالرقيق ، ونادى نداء الشفيق ، فاستبدل الشقيق بالمشاق ، ورفع العنا ووضع الوفاق ، فهو ان تكلم كام ، وان رقم شفى الالم ، وكم من مؤدب فيه ، لايستطيع تحريك فيه بما يخفيه ، لايفيد المستفيد ، ولا يوافي مرام المستعيد ، ولكنه ان أجرى القلم ، نطق بالحكم ، وحج وأفحم ، وحل وأبرم ، وأسس وأحكم ، فهو وان لم ينطق بلسانه ، قد نطق بيراعه وبنانه ، فلم تعده فضيلة البيان ، وان عضلته عصبة اللسان . وكم من خطيب نجيب ، ورقيب حسيب ، ان تكلم أقلق ، وأطبق وأغلق ، وان كتب أعجب ، ورغب وأرهب ، وقرب وأبعد ، وجمع وأفرد ، وأوقد نيران الانفة ، وعقد روابط الالفة ، وأتى برقيق التشبيه ، ودقيق التنبيه

ومن أجل آثار القلم ، اذ يعد من أعظم النعم ، ومن اللوازم ألزم ، الجرائد (والجرنالات) التي هي أمل عظيم لترقي الملل ، وانتظام أمور الدول .

أما الاول فلأنها توقف الملل على خصائصها ، الموجبة لنقائصها ، وتوضح لهم أسباب الترقي ، وما به يكون التوقي ، وتنشر بينهم أخبار غيرهم من سلفهم وجيرانهم ، وما به كانت عزة ملة وذلة أخرى ، وأي الامور لهم بالتمسك أحرى ، وتشوه لهم وجه القبيح ان ارتكبوه ، وتعظم لهم أمر الجيل ان تركوه ، فتشرح مفاسد العادات التي هم عليها كالجهالة ، والتكاسل عن الصناعة ، والرضا بالفقر ، مع التردي برداء الكبر ، والتمسك بالخرافات ، وفاسد الاعتقادات ، وجمع كلمة النفاق ، وشق عصا الوفاق ، وغير ذلك من قبائح الافعال ورذائل الاخلاق ، وتقدم لديهم مصالح الفضائل كاتساع دائرة الافكار ، والتنقير على مافي العالم من دقائق الاسرار ، والحث على الاشتغال بالصنائع ، والاهتمام في ترقي البدائع ، وطلب العيشة الراضية ، مع اليد العليا والهمة العالية ، والنظر في آراء الاوائل نظر الناقد ، والتمسك بما قطع به البرهان في باب العقائد ، كيلا يفوت كثير من الكمالات ، ويفقد عظيم من اللذات ، وتبث بينهم أفكاراً تكون سبباً لتنوير البصيرة ، وتطهير السريرة ، وتحرك فيهم حمية الغيرة ، فينتبهون بذلك من غفلاتهم ، ويستيقظون من سناتهم ، ويلتفتون الى مصالحهم ، ويقلعون عن

قبائحهم ، فيطلبون الخير ، ويجتنبون الضير ، ويرتفع من بينهم الجور ويوضع العدل ، وتطلع فيهم شمس المعارف ، وينسلخ عنهم ليل الجهل ، وينالون من الراحة والرفاهية مالا يحصر ، ويستولون من عظائم الامور على مالا يصح أن يذكر ، وان أدركه أرباب النظر

وأما الثاني فلأنها لسان سر السياسة فتنبيء عن نتائجها في الآن بل في الآت ، وتوازن بين الدول وقواها ، وتحقق النسب بين أضعفها وأقواها ، وتبين ما في نظامهم من الاختلاف ، وما في أفعالهم من الاعتلال ، ونتائج ما أبدوه من أسباب النجاح ، ومواد الاصلاح ، وحفظ الارواح ، وارتياح الاشباح ، وما انثنت عليه صدور السلاطين ، من عدل يزين وظلم يشين ، وترشدهم الى مايجب أن يسلك فيما استولوا عليه ، وما يؤول أمرهم ان سلكوا غيره اليه ، وتغري وتحذر ، وتبشر وتنذر ، فاذ ذاك ينتبه الغافلون ، ويحترس المستيقظون ، ويقوم الضعف المتلافي ، ويطلبون اللحاق بالملاصق والمتجافي ، ويهرع المختلون لسد خللهم ، وابراء عللهم ، وتخفيف أثقالهم ، ويرتدع الظالمون ، ويغتبط المقسطون . وذلك كله مع تنائي الاقطار ، وتباعد الاسفار . فالقول الواحد يبلغ الجميع في قليل زمان ، وكأنما القائل والسامع في مكان ، فيعتضد البعض بالبعض في الخروج من الذلة ، وشفاء الغلة . وانما مثل صاحب (الجرنال) مثل خطيب قام على منبر العالم وأمسك بيده صور اسرافيل ، ونادى بالحقير والجليل ، فنفخة تحيي ونفخة تميت ، وعظة تصيب وأخرى تفيت . فمن الواجب على كل ذي دراية ، أن يكون له بمطالعة هذه الصحائف غاية ، ليكون على بصيرة في أمره ، ومصيباً في سيره ، نائلا لخيره ، حذراً من شره ، متحركا نحو المعالي ، طالباً ماتهتز اليه العوالي ، ويقف على خفيات الحقائق ، ورقائق الدقائق ، ويخرج الى فضاء المعرفة ، ويطلق من غل الجهالة والسفه ، إن هذا الا بامداد مداد القلم ، وجريانه في ميدان تربية الامم ، والا فأين اللفيانت ، من بلاد تبت . وأين فارس ، من بلاد هند وفارس ، إذ يقوم عليهم رقيباً ، وفيهم خطيباً ، يعظهم بالموعظة الحسنة ، ويحذرهم غرة السنة . ولقد ينبئنا ما انجر اليه علم أمر العالم في سيره ،

وليس له مكنة أن يعدل عنه الى غيره ، بأن صار القلم محتاجاً اليه في أدنى المهمات، وأهون الملمات ، وخصما في جميع المنازعات ، وحكمًا لدى المحاكمات ، حتى لم يبق للسان الا محاورات قليلة ، وموارد أخطارها غير جليلة ، فاقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم

المقالة الثالثة

المدبر الانساني والمدبر العقلي الروحاني

وجاء في العدد ١١ منها الصادر في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٧٦ — ١٤ ذي الحجة سنة ١٢٩٣ مايأتي وتتمته في ع ٢٣

﴿ وردت الينا هذه الرسالة من قلم جناب العالم العلامة ﴾

﴿ الشيخ محمد عبده أحد أهل العلم بالجامع الازهر ﴾

إن النظر في الآثار الانسانية على اختلافها بحسب الخصائص الشخصية، وائتلافها في الغايات النوعية ، ينبئنا بأن الحقيقية الانسانية تشتمل على مدبرين عظيمين (أحدهما) المدبر الحيواني مع مايستتبعه من جميع الاحساسات الظاهرة والباطنة (والآخر) هو المدبر العقلي الروحاني الكلي . ولكل واحد منهما — اذا لوحظ وحده بقطع النظر عن صاحبه — غاية يطلبها ، وحدود في سيره لايجاوزها . فالمدبر الحيواني ليس له من غاية سوى حفظ تركيب الحيوان الى حد معلوم ، والى زمن مخصوص ، فهو منوط باللوازم الكافلة لهذا الغرض من جلب ماتقوم به البنية ، ودفع مافيه مضرة أولها عنه غنية ، على قدر الامكان ، حتى يتقوم هذا المزاج سالما مدة ما من الزمان ، وذلك أيضاً هو حال سائر الحيوانات العجم. يرشدك الى ذلك التأمل في آلاتها البدنية ، وآثارها الحياتية . فان حيوانًا من الحيوانات لم يكن لتتوجه ارادته ، الى سوى مايقوم بدنه ، أو دفع مايعترى عليه مما يوهنه ، فان رجليه لم تكن تسعى الا لطلب المرعى أو للهرب

من قاصد ايلام ، أو للاستقاء من حر أوام ، أو ليوقع سفاداً، ليتخذ لهمن نوعه أولاداً ، بل لاشعور له بهذا الاخير ، وانما هو ليدفع عن بدنه ما كان يناله بالتأخير ، ولا سكنت الا للاستراحة من تعب ، أو ليأوى حيث أعياه الطلب، ولا تحركمنه خيال ، لغير ماذكرنا على أي حال . فهذا مطمح نظره، وقصارى أمره في سيره . وليس له في هذا السير سوى خدمة الطبيعة ، ومساعدتها باتمام تركيب العالم العنصري ، واستبقاء أنواعه ، واستكمال آثاره البسيطة . فقد علمت أن الانسان في هذا مشارك لغيره من الحيوانات ، وليس يمتاز فيه عنها بشيء من جهة من الجهات

وأما المدبر العقلي فهو من حيث هو ليس له من غاية سوى كشف المعمى، وان بعد المرمى ، على وجه لا يلحقه فيه الريب ، ولا يتطرق اليه أدنى عيب ، والتحلي بالملكات الفاضلة ، والتنزه عن الصفات غير الكاملة ، وذلك بأن يأخذ بالقسط ، ويقف على الحد الاوسط ، فيما يجب أن يقع من تصرفاته ، مع اغياره أو في حد ذاته ، وأن يفيض على الغير مما استفاد ، أو أن يضع النجاح ويرفع الفساد ، ويقرر قواعد الوفاق ، ويقلع أساس التفرق والشقاق ، وكل ذلك على مقدار قوته ، وما يملكه من مكنته . فهو السابح في بيداء الوجود ، ليميز الواقع من المفقود ، ويقف على أصول الكون ، وما نشأ عنها لونا بعد لون، ويكشف عن وجوه الاسرار براقع الآثار . فلا يدع مدينة الا قرع بابها ، وطعم طعمها واستقى شرابها ، ولا حسناء الا كشف نقابها ، ورشف رضابها ، ولا عميقاً الا وقف على قراره ، ولا مرتفعاً الا أتى عليه بمعياره ، وعلى هذا المنوال حتى يصبح وقد استغنى عن العالم بصدره ، واكتفى عن مخبريه بخبره ، وأضحى خلقاً جديداً ، وعلى كل شيء بذاته شهيداً ، وانطوت في وحدته الكائنات ، واتحدت في ذاته المختلفات

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

فحينئذ يضع موازينه ، ليحكم قوانينه ، فقد عرف النافق من الكاسد ، وميز الصحيح من الفاسد ، فيأخذ بما استطاب ، ويدع ما منه استراب ، فلا يدع

شاردة من الفضائل الا اقتنصها ، ولا ناشزاً من المكارم الا قص قصصها ، ولا دفيناً من المحاسن الا أبرزه ، ولا خليطاً الا أماط عنه مايشوبه وأفرزه ، ولا نقيصة الا أولاها النفار ، وولاها الادبار ، فلا يدنيه ميله من السفاسف ، ولا يقصيه عزمه عن المعالي وان دونها القواصف ، فلا يكاف ثقل العار ، ولا يستنكف الأخذ بالثار ، واذا دعت اليه داعية الحق ، وان جل الخطب واتسع الخرق ، وحينئذ يستميح مسامع أمثاله ، ليمدهم من نواله ، ويغرس فيهم أشجار النجاح ، ليجتنوا منها ثمار الفلاح ، ويجنبهم ريبة الاختلال ، ويضع لهم مايعبرون عليه في لجج الاشكال ، وهذه هي الآثار التي قد امتاز بها الانسان عن سائر الحيوانات ، فلا ريب كان المدبر العقلي هو الانسان بالحقيقة

هذا ما لكل من المدبرين على حدته ، الا أن سير الوجود قد اقتضى أن يكون مجموعهما طبيعة واحدة ، وهي الحقيقة الانسانية ، وان يقع الوسط بينهما على وجه محكم ، حتى أن الاتحاد بينهما ربما يتوهم ، وأن يكون كل منهما محتاجاً الى الآخر في ابداء عماله وبلوغ كماله ، وهاك الشاهد: فانا قد بينا أن المقصد الاعلى للعقل ، انما هو استكشاف أسرار الوجود ، وابراز ما استتر في عالم الشهود ، وذلك مقام لايعلوه كعبه ، ولا يأتي عليه عناؤه وتعبه ، عند استبداده بذاته ، وصرف الوجهة عن آلاته ، بل الطريقة المثلى في ذلك ، والمسلك الوحيد من بين المسالك ، هو استعمال هذه الآلات الجسدانية ، ليتوصل منها الى مايتطلبه من الدقائق الخفية . فانها تقدم اليه من صور الكائنات مالم يكن يحضره ، ولم يكن يبلغه خبره ، فانا لو فرضنا أن العقل قد فطر على أحسن الفطر ، ونشأ على غاية من صفاء الجوهر ، ولكنه لم يستعمل حس البصر ، فهل كان يتمكن من استقبال وفد الضياء ، أو استطلاع سكان الفضاء ، حتى يحدد دائرة أو رانوس ، ويهاجم العقرب بالقوس ، ويجمع بين الاسد والثور ، على الجوار بلا تعد ولا جور ، ويعين ما لبدرنا من المنازل ، وأين حوت ليالي وصله وهجره نازل ، ويعين سير الكاتب ، ويستكشف ما نال المشتري من العجائب ، وينبي عن ذي الحلقتين ، ويحقق ما بين السماكين ، ويقف على ما لشمسنا من التدبير ،

وأن يضرب بسلاحه لطلب صلاحه . فوضع الشواهد ، وأقام القواعد ، ورمى بالقذى من عين الجاحد ، وفوائد السمع سوى هذه كثيرة

وكذلك حاسة الشم قد قدمت اليه أنواع المشمومات ، وحاسة الذوق أنواع المطعومات . وحاسة اللمس أرشدته الى مبدأ الصلابة واللين . فأرشده كل ذلك للبحث في أسرار هذه الاختلافات وأسبابها ، وعللها الفعالة وعلاقاتها بها . وذلك باب من العلم عظيم ، وخطبه جسيم . ولو أن المدرك العقلي فينا وقف على نقطة واحدة ، واتخذ له متبوءاً على حدة ، هلا كان يفوته كثير من المعلومات ، ويعوزه الاطلاع على جم من الكائنات ، بلى فلا بد من الانتقال من أين الى أين ، والايغال في البون والبين ، والاستبصار فيما يراه كيلا يعود بخفي حنين ، فتحتم عليه لنيل كمال الأرب ، تحريك كثير من الآلات البدنية نحو الطلب ، والا فليس يدرك الا نزراً ، ولا يحمل الا وزراً . شعر

إن العلى حدثتني وهي صادقة فيما تحدث أن العز في النقل
لو كان في شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل

فقد تنورت من هذا أن ليس للعقل عن شيء من هذه الآلات غنى ، ولا لأشجاره دون سقيها جنى

هذا هو الاضطرار العقلي الى الحيوان في كمالاته الادراكية ، وجدير بأن يكون كذلك في كمالاته العملية ، كالاقدام والاحجام ، لربط وثام ، أو تقرير نظام ، أو دفع عار ، أو تأنيس نفار ، أو وضع عدالة ، أو إنقاذ من ويل جهالة ، أو إغاثة ملهوف ، أو مواصلة مشغوف ، وغير ذلك مما يجب أن يكون العالم عليه ، ولا راحة للكون الا بأن يصار اليه . وكذلك الحيواني في الانسان ، مضطر الى العقلي في بقائه مدة ما من الزمان . فان الانسان لما شغفته عرائس الاكوان حبا ، ودعته لوصلها : هلم قربا ، تنكب عن مقامه ، وأسرع في إقدامه ، فبرز اليها قبل أن تنسج له أيدي القدر لباساً يقيه ، أو تصنع له نعلا يحتذيه ، بها ترفده من حدة الناب ، وقوة المخلاب ، مابه يتخلص من مهاجمه ، وينتصف من مقاسمه ، ولم تهبه من القوة الطبيعية ، مايتعيش معه بمطلق النباتية ، فكان

ويكتسون ثياب النحول ، ويعترضون حد السيف المسلول ، يجوبون القفار ، راكبين متون الاسفار ، ، يتوسدون مالا يتوسد ، ويأكلون ويشربون مايزهد، وذلك كله ليستكشف الواحد منهم ارتفاع جبل من الجبال، أو ليستبين أن سلسلة جبال قد أخذت في امتدادها كم من الاميال ، أو ليعلم أن مقاطعة على كم تحتوي من أفراد الانسان ، أو أنهم يتدينون بأي دين من الاديان ، فهؤلاء قد هجروا أوطانهم ، وأتعبوا أبدانهم ، لتحقيق أمر جزئي خطره في ذاته يسير ، وان كان مايترتب عليه من الآثار في جملة العالم كثير ، ويبصر أن كثيراً من الناس قد امتلك خزائن من الاموال ، وتحصن بقلاع من فرسان الرجال، بحيث يكون له مكنة من الراحة التامة البدنية ، واقتناء جميع اللذائذ الحيوانيـة ، ومع ذلك ينتحل نحالة الفكرة ، وينتف لحية نفسه كرة بعد كرة ، يتمثل اليـه الحور والولدان ، فيغض عنهم ساحبا ذيل النسيان ، وربما غفل الزمن الطويل عن غذائه الذي به دوام قوته واستحكام بنائه ، وانكب على النظر فيما بين أوراق الدفاتر ، ليقف على أفكار الاوائل والاواخر ، ويضع قسط الميزان بين الآراء ، كأنما يحاكم بين الاسكندر ودارا، حتى اذا أخذته الحيرة يرى ولهاحيرانا، وثملاسكرانا قد اكتفى بسلاف الشراب ، واستغنى بمحادثة العقول عن مسامرة الاحباب ، ويقرع أقداح الكلام ، من قرع جامات المدام ، واذ قذفت به أمواج بحر الوله الى ساحل المعرفة، وانقشعت عنه ظلمات الاوهام وأسفر له صبح الحق، انتبه الى رمقه، والغذاء حرقه ، وحسبك ماروى عن نيوتن الفيلسوف المشهور ذلك حيث استغرقته الفكرة ، مع أن الجوع كان قد بلغ معه قدره ، طلب الطعام فلم يجد فأمر أن يصنع له البيض فانه أسرع الى النضج من غيره فأتى له بقدر فيه ماء وأوقدوا تحته النار وأتى له بالبيض ثم قالت الخادمة له اذا غلا القدر فألق البيض فيـه فأخذ بيضة ينتظر بها غليان القدر وكانت الساعة بيده ليعلم مقدار الزمن الباقي لدرسه ، فلما غلا القدر ألقى الساعة في القدر ظانا أنها البيضة ، ثم أخذ ينظر الى البيضة ليعلم مقدار الزمن من حركة زلالها ، ويكتشف الواقع من صفائها ، فأتت الخادمة وهي تظن أن الفيلسوف قد قضى عمله ، وبلغ من الغذاء أمله ، فوجدت

الساعة في القدر دائرة بين الهبوط والصعود ، والركوع والسجود ، كسكران أطربته ألحان القانون والعود، أو ناسك حركته أهوال ذلك اليوم المشهود ، وأحوال غيره من أمثاله مشهورة ، وفي الكتب مسطورة ، وبالجملة فان كون البحث في دقائق العلوم وكشف معميات الامور ، مما يشغل الانسان عن نفسه فضلا عن حسه ، أمر محقق قد قر في نفوس العموم حتى لايصح أن ينكر اذا لم يجده كل شخص من نفسه

ويرى ويسمع أن من الناس من يقوم بنشر فضيلة من الفضائل ، أو تبيان حق في مسئلة من المسائل ، ينتضل سيف لسانه ، ويستميل عقول الغافلين بسحر بيانه ، فيتعوذون من سحره بتمائم الانصراف ، ويغمدون عضب لسانه في اغماد الاجحاف ، قائلين (شعر)

من ذا الذي من غينا يخرجنا نحو العلى والحق من يرشدنا

ويجرعونه في ذلك كؤوس الاحن ، ويطلبون الراحة من عنائه بالاجلاء على الوطن ، وهو مع ذلك لاينثني عنانه ، ولا يسكن في طلب اسعادهم هيجانه ، وليس يهمه في ذلك قرع الصفاح والسنان ، ولا استفزازه من مكان الى مكان ، ولكن أن يقبل المستعدون سجال فيضه ، وأن يرى أزهار غرسه في صالح أرضه ، ومن أولئك رجال لايحصى عددهم ، ولم ينقطع الى الآن مددهم ، ويرى ويعلم أن كثيراً من الناس يريق دم جميع اللذائذ ، دون حماية لائذ ، ولا يحتمل ثقل العار ، وإن دونه جبال النار ، وحسبك ماتراه من لاعبي نحو الشطرنج والنرد اذ يصرف أحدهم فكرته ويبذل همته في أن يحوز قصب السبق في ميدان الغلبة بحيث لو أتى اليه محبوب كان دائم المماطلة ، وقد دعته داعية الرأفة للمواصلة ، لايلتفت اليه ، ولا يعطف ميله عليه ، وكل ذلك حذراً من أن يلحقه عار المغلوبية ، مع أنها غلبة وهمية ، لاتكترث بها النفوس الابية فضلا عن الدنية ، فما ظنك بعار يلحق صاحبه الشناعة ، ويذهب بيهائه ويكشف قناعه ، خصوصاً إن أودع بطون الدفاتر ، ليكون عبرة من الاول للآخر ، فهنالك يخلع لباس حب الحياة عن نفسه ، ويضع خوذة شرف الانسانية على رأسه ، حتى يتخلص مما

خقه ، أو يلحق بمن سبقه ، وهو في ذلك يتلذذ بطعنات السنان ، كأنها غمزات حور وغلمان ، ومن هؤلاء كثيرون ، وأنتم بهم عالمون ، فمن هذه الجهة يظن بل يوقن أن ليس المقصد الاعلى ، والغاية القصوى ، من هذه النشأة الانسانية ، سوى التحلي بهذه الفضائل المعنوية ، واقتناء تلك اللذائذ الروحانية ، ولا محالة يذهب الى أن الانسان يأكل لان يعيش ، ويعيش لان يرى ، ويرى لان يعقل ، ويعقل لان يكمل ، وهذا هو النظر الادق ، والقول الاحق

فان قال قائل : أن جميع ماذكرته ثابت لاينكر ولكن جميع ما يرتكبه أولئك الذين عددتهم من ترك اللذائذ البدنية ، وميلهم نحو مازعمت من الخصائص العقلية ، ليس لاستكمال اللذة الثانية لذاتها . بل لتكمل لهم الاولى بجميع جهاتها ، فان أرباب العلوم . قد علموا أن لاتنال الرفاهية والراحة . ولا يستوفى جميع مايتقوم به البدن سالما عن جميع الآفات الا بالعلوم والمعارف وكثرة التجارب ، فيشقون في تحصيلها ، ليسعدوا بنيل عاقبة أمرها . وان الذين قد استبوا راحتهم في نشر أفكارهم وبث فضائلهم لم تكن داعيتهم الى ذلك سوى حب الرياسة ، ليستعبدوا غيرهم ويتخلصوا مما كانوا ينالونه من الذل والتعاسة . وإن أرباب الهمم العالية لم يجيروا المستجير . ولم يحفظوا ذمار العشير . الا خوفا من أن يمتد اليهم عند التساهل في حواشيهم يد المتغلبين فيتمكنون من نواصيهم فيمنعونهم من لذاتهم الجسمانية . ومقتضيات حياتهم البدنية . وبالجملة مانشرته فهو إما لنيل لقمة ، أو دفع لكمة .

فأقول مجيباً : دقق النظر ياهذا في أحوال الذين بذلوا أرواحهم في طلب الكمالات العقلية مع ايقانهم إما بفوت هذه اللذائذ الحسية . أو قطع عرق الحياة بالكلية . الذين لم يكن مسعاهم سوى نيل المكارم والفضائل . وكل ما دون ذلك فهو له من الوسائل . فانه لو كان لهم غاية سوى تلك الكمالات لماتوا دونها ولم يتجاوزوها الى أضدادها ، بل في أحوال غيرهم . فانك قلما تجد انسانا لايفدي بلذة بدنية لنيل روحية . والتي أن عددت لك أصنافهم الدانية التي لاتنحط درجة أفرادها عن ذلك على اختلافها يطول المقال ويتسع المجال .

نعم اننا لاننكر أن كثيراً من الافراد يتخذ المقاصد ومبادي .ولم ينالوا من الانسانية سوى المشابهة في الارجل والايادي . اشربوا في قلوبهم عجل الشهوات، ووسموا جميع الآثار الانسانيــة بالمقدمات . وتـكالبوا تـكالب الذئاب على الفريسة، وأن مثلهم في نيلها بما ذكر مثل المختلس، يتزيا بزي أرباب الامانة كيلا ينفر منه الأمين ولا يحترس .فان بني نوعهم لو يقفون على مقاصدهم الدنية ، لم يرفدوهم شيئاً مما تهواه تلك الهمم الارضية . الا من هم على مشربهم ، وارتضعوا من ثدي أمهم .

ومنهم من رسب في أرض حيوانية بالمرة . ولم يوجه طرفه نحو سماء الانسانية بنظرة . فمثله كمثل الحمار يركبه كل راكب ، ليمده بعلف دائب .وهذا مع ما قبله سواء في القصد . وشركاء في المصدر والمورد . لامنتهى لحركاتهم سوى مآرب حيوانية بل نباتية . فلا يصح لأحد منهم أن يرى نفسه أرقى من ثعلب يروغ من المحارب .ويحتال في التوثب على ضعيف الدجاج والارانب . ومع كل ذلك لاتقبل نفسي أنهم مجردون من اللذائذ الروحانية ، وإن غلبتهم على ذلك دناءتهم ، وانحطت بهم طبيعتهم . ولا أمل أنهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ،وتستشيط نفوسهم والآلام غضباً أن أندادهم في أعراضهم جهلوا .بدون أن يلحظوا في ذلك تلك اللذات ، أو يكون لهم اليهـا التفات .

ثم إني أنشدك الله أيها الحكيم. الا ماتقلدت الانصاف في التحكيم .وانبأتني على من ترتبت الآثار التي توقن أنها من خصائص الانسان، كتمهيد دلائل العرفان ، التي قد استخدم بها ما في العالم من جماد وحيوان ، واستنقذ بها أبناء عالمه من ربقة التكليف ، الى فضاء ليس فيه مزعج ولا مخيف ، وفي ظل من أنت ترفل في ثياب الفخار ، تحكم ماتريد وتفعل مما تشاء وتختار ؟ لاشك في أنك تحكم بان تلك آثار أولئك الذين قد بذلوا حياتهم في نيل الفضائل والمعارف ، وأجهدوا أنفسهم في بثها مع ماصادمهم من أنواع المخاوف ، وجعلوا تلك الغايات نصب أعينهم حيثما ذهبوا ، ومنتهى سيرهم رغبوا أو أرغبوا .قائلا كل واحد منهم (شعر)

ولست بنظار الى جانب الغنى   اذا كانت العلياء في جانب الفقر

وهل سمعت أن ملة قد ارتقت الى صلاح حال ، أو تنعم بال ، الا بعد أن خضب ثراها بدماء أولئك الفضلاء ، واختطف عقاب جورها نفوس هؤلاء النبلاء ، ثم بعد يرتعون في مروج حميتهم ، ويختالون في ثياب عزغيرتهم ، فهل كان ذلك يحصل الا بايثار لذة واحدة ، على لذائذ متعددة ، بل غير متناهية ، وهي لذة الفضيلة ، والصفات الجليلة ، فهي خاصة الانسان التي عنها ينشأ آثاره

فاذن لاجرم ينقسم الانسان الى قسمين قسم أخلد الى أرض الحيوانية فغايته غاياتها يقوم بدنه مدة ثم ينفلت من الحياة لايبقى له أثر ، ولا يسمع له خبر ، وقسم قد ارتقى الى ذروة الانسانية فنهج المنهج العقلي الذي قدمنابيانه، وأيدنا برهانه ، فكلما قوي في فطرة الشخص جانب الانسانية ، كان ميله نحو التصرفات العقلية ، ، يأنف الظلم ، ولا يجازف في الحكم ، ولا ينتحي نحو الغدر ، ولا يحتمل صدمات القهر لغير الحق ، بل تركض خيله في أرض العدالة ، لرفع آثار الجهالة ، ودفع معرة النذالة ، يأخذ بالبرهان ، ولا ينكص اذا استحكم البيان ، وذلك لاالى حد مخصوص ولا في مكان مخصوص ولا في زمان مخصوص ، نعم الاقرب الى البحر أولى بمائه ، والسوى انما ينال من فضل استغنائه ، ومن ثم ترى أن أهل قارة أوربا لما ارتقت لديهم المعارف الى ذراها ، وبلغت فيهم الكمالات قصاراها ، وألقت الرياسة اليهم زمامها ، وفوضت السياسة اليهم أحكامها ، وأصبح نور العقل في أحيائهم يتلالا ، وسنا الفضل في أقطارهم يتعالى ، تسابقت هممهم الى بث مقتضيات الانسانية ، في نواحي الكرة الارضية ، واستئصال مادة التوحش ، وتطهير الارض من خصال التبربر ، وما استعصى عليهم في ذلك من عويصات الموانع ، أنفذوا اليه قامعاً من كتائبهم أي قامع

الا أن منهم من يتخذ هذه الفضائل اسما ، ويتقلدها رسما ، لتكون آلة لاعمالهم ، وسلماً لسوء آمالهم ، خصوصاً الملك الكبير ذا الارض الواسعة ، والاقطار الشاسعة ، الذي قد منح أهل مملكته تمام الحرية ، حتى إنه لايبيح لهم أن تدرس العلوم الفلسفية ، في مدارسهم الرسمية ، بل الاهلية ، بل إن أراد أحدهم أن يتبصر ،

اتخذ له كمينا وتستر ، وأولى أهـل ملته من مقتضيات الحنو والشفقة ، ماتنفطر منه قلوب أهل الرأفة والرقة ، خصوصاً أهل دينه الكاثوليك الذين مزقهم كل ممزق ، ونفى كثيراً منهم الى حيث لا يخاف ولا يفرق ، وما ترك وسيلة الى الاسترقاق الا أقامها، ولا ذريعة الى استعباد غيره الا قص قصصها ، كيف لا وقد تقلد رتبة البطركية ، التي هي مقدمة رتب الالوهية ، فقام بمأموريته المقدسـة ، ليؤدي بعض ماأسسه ، وكتبه على نفسه من القيام بحقوق الانسانية والتهافت على تقويم الحق، على الوجه الاحق الاليق ، فأوقد نيران الفتنة في بيوت أهـل دينه الفقراء المحتاجين الى رعاية دولتهم ليجردهم من ذل الشوكة والقوة، ويلبسهم عز الضعف والمهنة، وينقذهم من ربقة الحرية التي قد نالوها حيث هم على حفظ عهودهم عاكفون ، وعلى أصلاح أحوالهم الداخلية متألبون ، يتدالون على دولتهم تدلل المعشوق على العاشق وينالون منها ما ينال الولد من والده أو الحبيب من محبه الصادق ، وليستخلصهم من كل ذلك الى فضاء عدله الذي قد بسط غطاءه على أنفاس أهـل مملكته ، وبحبوحة الحرية التي قد استعبد بها أبناء ملته ، وقد صادقه على ذلك جل الممالك القاسطة ، لما لكل واحد منهم من ساقطة ، ينتظر بها الالتقاط ،وبذلك الملك المقدس في نيلها يكون الارتباط،وهم في ذلك ينادون باللانسانية ، وياللحقوق المدنية ، وتترنم منهم الخطباء على منابر الظلم والاجحاف، بتلاوة آيات الاقلاع عن الالحاد واقتناء شرف الانصاف ،

وإني لست الآن معهم في ميدان المحاكمة حتى أنبئهم أنه قد فعل ذلك بأبناء دينهم بل أبناء أوطانهم ، وهم بمرأى من ذلك ومسمع ، مالا يصح في مثل هذه الايام أن يسمع ، وقد سودت بذلك وجوه الصحف، ومع ذلك لم يتحرك فيهم عرق الحماسة ،ولا فتحوا في ذلك سجلات السياسة ، وان أمثال أولئك الكمل لا يليق بهم مع هذه الدعوى التي بها منعوا بيع الرقيق قضاء لحق المساواة أن يجعلوا تلك الرأفة والرقة خاصة ببعض المقاطعات ، أو منحصرة في جهة من الجهات ، بل كان من الواجب أن ينظروا من وراء حجاب الى خيوه وخوقند ، كما نظروا جهاراً الى الصرب والجبل الاسود ، فأني لو تكلمت في هذا يطول أو يجيبني

عجيب بأنهم الى الآن لم يبلغوا حد الكمال ، حتى يفعلوا أفعال الرجال ، ولا يتحرشون بحرش المغتال ، وللانسان كمال سوي ماهم فيه ، وتلك التي نتوسم فيها العظم مباديه ،

ولكن أعجب لجعل المسئلة شرقية وغربية ، فان العاقل يتفرس في ذلك أسراراً خفية ، تنبئنا عنها التواريخ القديمة والحديثة ، وتحكي ماكانت تفعله القياصرة بالاكاسرة ، والاكاسرة بالقياصرة ، حيث كل من الشرقيين والغربيين مع سعة أوطانه ينتهز الفرصة للوثوب على الآخر . فهذا حقد بالميراث ، جدير بالاكتراث ، الا أنه لما جمعت الشوكة أسبابها وتوجهت نحو المغرب وتركت الشرقيين بحمى يثرب ، قويت من الغربيين المهاجمة ، وبطلت من الشرقيين آثار المقاومة ، فبات عدو بلا معادي ، ومبارز لاتصده الدواعي والعوادي ، فخفي الامر على غير بصير ، وذهب على غير خبير ، وما أوصل الشرقيين الى هذا الحد سوى تفرق الآراء ، واختلاف الاهواء ، حتى إن بعض الناس ممن لايبالى بهم ، يتهللون بسوء أحوالهم ، ويبتهجون اذا بشروا بتسلط أعدائهم ، وماذاك الا من تداني الهمم ، وتراكم الظلم ، والوقوع في حفرة الحيوانية ، والانحطاط عن درجة الانسانية ، حيث فقدت منهم الغيرة والحمية ، وذلك بدل أن ينبذوا في مثل هذه الاوقات جميع التعصبات الدينية ، والاختلافات المذهبية ، لحماية أوطانهم ووقايتها من وطأة أعدائهم ، الذين لايرومون من الاستيلاء علينا يامعاشر الشرقيين الا توسعة ممالكهم ، والتمكن من استعبادنا بالدخول تحت حوزتهم ، لنكون لهم خزينة عند الافتقار ، وترسا يقون به أوطانهم ورجالهم مما عسى يبرزه الاستقبال وبعد ذلك يكون عاراً علينا أي عار ، يذهب بهاؤكم ، يتشفى منكم عدوكم وينهدم بناؤكم ، وينقطع من العزة رجاؤكم ، أنتم يامعشر الشرقيين أبناء وطن واحد ، متشاركون في المنافع والمضار وسائر المقاصد ، لايمس أحدكم خير الا نال الآخر منه مثل مانال صاحبه ، ولا توجه اليه خير الا وهو الى الآخر يتعاقبه ، فما لهممكم تضاءلت ، وخطباؤكم تمثلت

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قرَّ عيناً بالاياب المسافر

ولم تخاطبوا عدوكم من صميم فؤادكم

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى اليك ليوث الغاب من كل جانب

واذكروا إذ تسطر أحوالكم في صحف الرجال، ويستقبل بها ما يأتي من الاجيال، فان أنتم أبرزتم حميتكم، ورعيتم حق وطنكم ،الذي منه ابتدئتم وفيه سكنتم ،ودافعتم عنه ببذل الارواح فضلا عن حسن المقال، وبالجملة سلكتم مسالك الرجال لاتهوس الأطفال، ، فتلك مآثر انسانية، تنالون بها مجدكم وفخاركم، وتمتلكون سعدكم ،وحلية يختال فيها من تعقبونه بعدكم، وإلا فالعار والشنار لاحق بكم، وليس إلا أن يحثى تراب الذل في وجوه أعقابكم ،وانظروا الى أحوال سلفكم، لتكون مرآة لأحوالكم . فان قال قائل

ان الديانات ألقت بيننا إحنًا وأودعتنا أفانين العـداوات

فكل واحد منا يتوقد من صاحبه، لمخالفته له في مذهبه، ومناوأته إياه في مشربه ،فكيف تميل تلك القلوب لرفع الشقاق، وجمع كلمة الاتفاق، والتخلص من خسة النفاق ؟ فنجيبه :إن مثلنا في ذلك مثل أخوين تولدا من بطن واحـد وأصل واحد قد يقع بينهما بعض المنازعات المنزلية، والمناوشات المعاشيـة، فيأخذ كلا منهم ماشاء من الغيرة والحمية، ويكاد أن يفتك كل بالآخر ومع كل ذلك انهما عند اقتراح أجنبي على أحدهما يقوم الآخر بنصرته، ولا يحجم عن رد تبعته، فتلك العداوات الجزئية، لا يصح لدى العاقل أن تضر بمصالحنا الكلية، وعلى فرض أن لو عدت تلك المزاحمات شيئا يذكر، وأمراً يصح اليه النظر، فما أشنع حال من ينتقم بيد الغير ،ويلحق نفسه وعقبه عار السفاهة والضير، أين أنتم من تيمستكايس اليوناني الذي بعد ماصنع المكايد مع دارا وهزمه، وجاهد ماجاهد في حماية وطنه، أقصاه اليونانيون وطردوه، وأجمعوا أمرهم على أن يقتلوه، فالتجأ الى دارا يستنجده مما اعتراه فاعظم منزلته وأكرم مثواه، ثم إن دارا طلب منـه أن يحشد جيشاً على اليونانيين فقال وجهني الى أي مكان، قاص أو دان، سوى بلاد اليونان، فانها وطني ومقر تربيتي، لاترضى همتي، بان أقدمها لغير أمتي، وإنه وإن كان أهل اليونان طردوني ولكن تراب اليونان

ماصنع معي قبيحاً . فلما أغلظ عليه دارا في الطلب ، نادته هواتف الانسانية إن ذلك من الموت أصعب ، فاختار الموت على الحياة ، وتناول السم ومات ، ألا فانتبهوا من سنة الغفلة ، واتخذوا لكم من الانسانية ظلة ، ومن الفضائل خلة واحذروا ، وبالحمية الوطنية اتقوا واعتصموا اه

(جامع الكتاب) : ليتأمل القراء آراء هذا الرجل التي كتبها منذ ستين سنة وهو مجاور في الأزهر يجدها عين ما انتهى اليه بحث المحققين من عقلاء الشرقيين بعد مكابدة الاحداث واختبار أوربة بعد كتابة ذلك المجاور الازهري لها قبلهم بنصف قرن . أه من تعليقات الطبقة الثانية

المقالة الرابعة

العلوم الكلامية والدعوة الى العلوم العصرية

نشرت في العدد ٣٦ وأعداد بعده من جريدة الاهرام قالت:

﴿ وردت الينا هذه الرسالة من قلم جناب العلامة الاديب الفاضل ﴾

﴿ الاريب الشيخ محمد عبده أحد أهل العلم بالجامع الازهر ﴾

كلما تناسينا عهد جاهلية العرب ، وما كان من مقتضيات الجهالة في تلك الحقب ، ومنينا أنفسنا باننا صرنا في نشأة أخرى ، وتقدمنا الى الأمام بعد أن كنا الى القهقرى ، واستصبحنا بمصباح الآمال ، في ليل الضلالة والاختلال ، وهمت أفكارنا ، بتحصيل ماسبقنا اليه غيرنا ، تذكرنا حوادث الايام بانا لا زلنا في أول نقطة من ذلك الزمن الاول ، بل كان ذلك على تنزل منه الى أسفل ، وتثني آمالنا ، عن تقدم أهالي أوطاننا . فمن أعجب مارأيناه في هذه الايام ، أن بعض طلبة العلم الكرام ، الذين قد بذلوا جهدهم في التحصيل ، وخلعوا ثياب أوزار البطالة والتعطيل ، وافتدوا براحتهم لتنوير بصيرتهم ، قد تحركت الى المعالي همته ، ودعته الى التفنن غيرته ، فأخذ في دراسة بعض الكتب المنطقية

والكلامية ، التي كان قد صنفها بعض أفاضل الملة الاسلامية . لما أنه قد علم كما هو الواقع أن العلوم المنطقية إنما وضعت لتقويم البراهين ، وتمييز الافكار غثها من السمين ، وتبيين كيف تتركب المقدمات لانتاج المطلوب بعد البيان ، وأي مقدمة يصح أن تؤخذ في البيان وأيها يجب أن يقذف ويطرح . فهذا علم حقيق بان يتخذ سلماً لجميع العلوم ، ولا يعدل عن طلبه الا جهول ظلوم ، والعلوم الكلامية ، إنما هي احكام لتأييد القواعد الدينية ، بالادلة العقلية القطعية ، حتى يحق لمارس تلك العلوم أن يقتبس نور تلك المطالب من تلك البراهين ، ويقنع بذلك الطالبين ويردع المنكرين ، على وجه لا يكون فيه إثبات الشيء بنفسه ، ولا تنزيل العقل عن درجته في إدراكه وحسه . فلما سمع بذلك بعض أحبائه ، وأصفيائه وأقربائه ، الذين يؤثرون خيره ، ولا يرتضون ضرره ، اهتز لذلك واضطرب ، وأعجب كل العجب ، وأخذه من الحزن على ذلك الطالب ماشاء الله أن يأخذه ، وأوسع لذلك الطالب النصيحة ، ويالها من فضيحة أي فضيحة ، قائلا كيف تدرس علوم الضلالات ، حتى تقع في الشبهات ، الا فارتدع ، وبحالتك اقتنع ، وكن كما كان الاب والجد ، وجدّ فيما كانوا عليه فمن جدّ وجد ، فأجاب الطالب المسكين سؤله ، وطوى سجل علمه ونشر جهله ، ومع ذلك لم تدعه ألسنة حساده ، المتألبين على عناده ، ولم يزالوا مصرين على سفه الكلام ورمي سهام الملام ، يقولون الى الان : إنه في ضلاله القديم ، لم يميز بين المنتج والعقيم ، والمخدوش والسليم . حتى إن بعض ذوي (الجهل) من أهل بلاده ، المخلصين في وداده ، الساعين في إسعاده ، وشوا بهذا الطالب الى والده ، وأفصحوا له القول بشأن ولده ، قائلين ان (الرجل) منا اذا سمع ان ولدك يشتغل بالعلوم ، تتناوله أيدي الهموم (يقوم) ولا يهنأ له طعام ولا شراب ، ويبيت ليله في اضطراب ، ويظل نهاره في اكتئاب ، أسفا على هذا المسكين كيف ترك جهالتنا ، ولم يعمل على مثالتنا ، ألم تعلم ان الانسان كلما قوي في العلم اجتهاده ، وبدا له رشاده ، يتزلزل اعتقاده ، فكيف بك وهو ثمرة فؤادك ، وأرشد أولادك ، فتحرك في والده عرق الحمية ، وأسرع ذاهباً الى مصر المحمية ، ليرى هل صح الخبر ، أو كذب الناقل وفجر ، فوصل الى ولده في الساعة الثالثة من

الليل ، ومن آن وصوله أخذ ينذر ولده بالثبور والويل ، ان كان لتلك الاقاويل صحة ، فأجابه الطالب ان ذلك من كذب الناقلين ، وبغي الحاسدين ، واني من يوم سعيت في منعي ، وقطع نفعي ، لم تقرعيني بنظرة في رياض تلك العلوم ، ولم أشف قلبي بأخذ منطوق منهاولا مفهوم ، فلم يصدقه حتى تمسك بالحبل المتين ، وأحلفه بالله رب العالمين ، ان الناقل كذاب ، وانه في أمره غير مرتاب ، فحلف وهو الصادق في حلفه ، وكيف لا وقد حفته المكاره من بين يديه ومن خلفه ، فلما أيقن أبوه بكذب مانقل اليه ، حمد الله وأثنى عليه ، وأصبح من غده ، متوجها الى بلده ، فانظر الى هذا الرجل مع كثرة انشغاله ، واحتياجه لساعة ينظر فيها الى أحواله ، كيف ترك الأهم ، وصرف الدرهم ، وتقض انقضاض السهم ، وأقدم إقدام الشهم وماذاك الا لحادث أقلقه ، وشناعة عظيمة خاف أن تلحقه ، وداهية دهياء قد استفزته من أرضه ، وبأس شديد طلب التخلص من حلوله بركضه ، فان سألت ماهذا الامر الفظيع ، والحادث البسع البشيع ، قال ان ولدي يتعلم المنطق والكلام ، ويتخلص من قيد جهل قد أخذ بالنواصي والاقدام ، وانظر الى هذه الحماسة والغيرة التي قد دعتهم الى التعاضد والتناصر ، والنخوة التي قد حركتهم على التكاثر ، للتخلص من هذا الحادث الملم ، وانقشاع هذا الليل المدلهم ، بغاية الحرارة الناشئة عن صدق طوية ، وخلوص نيــة ، فتبا لهذه العقول ، وبئست عواقبها وما اليه أمرها يؤول

ان دام هذا ولم تحدث له غير لم يبــك ميت ولم يفرح بمولود

واني لأتعجب من هؤلاء الاخوان في الوطن ، وأرباب البصائر والفطن كيف مالت بهم الحرارة الى الهبوط ، حتى آل أمرهم الى السقوط ، وياعجبا اذا لم نصرف الفكر في تقويم البراهين وتسديدها ، وكيفية الوقوف على الحقائق وتحديدها ، ففي أي شيء نصرفه ، فانه ان ضل عن ارشادنا ، وغاب سدادنا ، فهل بشيء سوى الدليل نعرفه

ألا وإن هذا أمر غني عن البيان ، ويكل عن الافصاح به اللسان ، مع أن هذه العلوم ليست الا ما يقرأ في سائر جوامع المسلمين في مشارق الارض ومغاربها

حتى الآن في نفس الاستانة يقرأ في مساجدها كثير من كتبها . وقد قال الاكابر من المحققين كالامام الغزالي وفخر الدين الرازي وغيرهم : إن تعلم هذه العلوم من فروض الاعيان (١) وأطبق جميع العلماء على أنها من فروض الكفاية خصوصا في مثل هذه الازمان ، التي قد وقع فيه اختلاط الناس من سائر الاديان ، فانه من البين أن ما يؤخذ عن الآباء ، وبلغناه ألسنة الاقرباء ، ان لم يؤيد بالبراهين ، نالته أقوال الملحدين ، وأدحضته شبه الجاحدين ، فيصبح وقد وهى بنيانه ، وانحط شانه . أو لم تطلع هؤلاء المساكين على ما كتبه شيخ الاسلام في استانبول الى الرجل الجرماني الشهير الذي قد أسلم في هذه الايام إذ يقول له: نحن لا نتجنب وزن عقائدنا بالميزان المسمى بالمنطق ، ولا نقبل اعتقاداً يناقض العلوم المتعارفة (كالمبرهنة) في فني الحساب والهندسة ، من أن الكل أعظم من الجزء ، وأن الشيء لا يكون غير نفسه ، وأن الشيء الواحد لا يكون واقعا وغير واقع في آن واحد . وأمثالها من العلوم المتعارفة ، وهي البديهيات الاولية أو الاولوية على ما في الباب الرابع من معيار سداد (النظر) حتى لو كان حديث أو آية كذلك أي تغاير العلوم المتعارفة لأولناه . اه

وليت شعري اذا كان هذا حالنا بالنسبة الى علوم قد أرضعت ثدي الاسلام وغذيت بلبانه ، وتربت في حجره ، وتقلدت في ايوانه ، من زمن يزيد عن ألف سنة ، وتناولتها أيدي الخلص منا ، وتناقلتها عنهم الألسنة ، فما حالنا بالنسبة الى علوم جديدة مفيدة ، هي من لوازم حياتنا في هذه الازمان ، وكافة عنا أيدي العدوان والهوان ، وأساس لسعادتنا ، ومعيار لثروتنا وقوتنا ، لا بد لنا من اكتسابها ، وبذل المجهود في طلبها . فبالاولى نضع أصابعنا في آذاننا إن ذكرت ، ونهاجر من كرة الارض اذا سماؤها انشقت . وأن مثل

(١) لعل الغزالي قال ذلك في بعض كتبه المنطقية أو الكلامية التي الفها في بدايته ثم جزم بانها من فرض كفاية . وقد صرح اخيرا بان من آمن بظواهر القرآن وما كان عليه السلف ومات ولم يعرف شيئا من مصطلحات علم الكلام ودلائله لا يسأله الله عنها ولا ينقص من دينه شيء يجهلها الخ وكتبه جامع الكتاب للطبعة الثانية

هذه النفرة لو كانت في عهد المتوكل العباسي ، عند ما كانت الامة بغرور وسواسي ، وقوة متوهمة ، تحصنها من تعدي الامم المتقدمة ، أو في زمن المماليك والكولمان ، وغيرهم ممن تملك هذه الاوطان ، حين كانوا في ذروة التوحش ، لا يهتدون الى مابه يدبرون أمورهم في التعيش ، وكانوا حائرين في تيه الخيالات والاوهام ، وقد اخذ بجميع إحساساتهم جور الحكام ، ولم يكن بينهم وبين غيرهم من الامم اختلاط ، إذ كانوا في حفرة الانحطاط ، لكان (١) لا يأخذنا العجب ، بل نضيف ذلك الى السبب ، ونلتمس لهم العذر في ذلك ، إذ قد عميت عنهم جميع المسالك ،

وكنا نؤمل أن المبنج يفيق بشم روح النوشادر ، وأن هؤلاء يهتدون اذا ارتفعت الموانع وأقبلت البشائر ، ويقومون من غفلتهم اذا قام من يوقظهم ، ويخرجون عما هم فيه اذا نادى بهم من يعظهم ، ولكن ذلك الامر منهم في زمان جرى فيه سيل العلوم ، حتى عم أنحاء الكرة على العموم ، وهم فيه غرقى من حيث لا يشعرون ، ووقع فيه الارتباط بيننا وبين الامم المتمدنة ، ورأينا ما هم عليه من الاحوال الحسنة ، وظهر لنا التوازن بينها وبين أحوالنا المجنة (٢) كثروتهم وفاقتنا ، وعزتهم وذلتنا ، وقوتهم وضعفنا ، وقدرتهم وعجزنا ، وصولتهم وانهزامنا ، وغير ذلك من المزايا والرزايا التي لا تعد ، وبها يعتد ، بل في زمان خرج فيه العلم من الاذهان الى الاعيان ، وتنزل من مرتبته الروحانية ، وتحلي في الصور الجسدانية ، وفتح لنا رياضه ، وهيأ للغرس غياضه ، وأصبح يجول بيننا في علاه ، وينادي بأرفع صوت وأعلاه : ألا من سائل فأعطيه ، ألا من فقير فأغنيه ، ألا من طالب سلطان فيناله ، ألا من محارب عدوان فنحدد نصاله ، ألا من حيران في غسق الضلال ، يمن على نفسه بنظرة لسنانا المتعال . ونحن بمسمع من نداه ، ومرأى من سناه ، لكن صمت الآذان وعميت الابصار (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم *

(١) هذا جواب قوله : لو كانوا في عهد المتوكل الخ (٢) لعلها المهجنة من هجنه بالتشديد اي عابه .

مكان يوجد الحمقى والأغبياء ، وأرباب الجهالات والاشقياء . وذلك لا ينافي حكم الغالب ، فأجيبه بأن هذه ليست أول قارورة كسرت ، ولا أبدع واقعة وقعت ، ولكن ذلك أكثر من الكثير ، وأمره فاش بيننا شهير ، خصوصا من الطائفة الشريفة التي تعد بمنزلة روح لهذه الامة ، فانهم الى الآن لم ينظروا الى أنفسهم ولا الينا بعين الرحمة ، ولم يروا لهذه العلوم فائدة ، تعود عليهم أو على أبناء ملتهم (بعائدة) ولكن اشتغلوا بما ربما كان أليق بزمان قد أفلت كواكبه ، وطويت صحفه وولت ركائبه ، غير ملتفتين الى أننا أصبحنا في خلق جديد ، قد طرحتنا الايام بديننا وشرفنا في بادية ، قد غصت بآساد ضارية ، كل منا يطلب ثأره ، ويطلب شن الغارة . فان كنا من آحاد تلك الآساد فقد وقينا أنفسنا وديننا ، والا فاما أن نطرح ديننا وننجو بأنفسنا ، وإما أن نبيد عن آخرنا ، بسوء الجهل وضلال الطريق ، مع أن ملاك الامر بأيدينا ، فعلينا أن ننظر الى أحوال جيراننا من الملل والدول ، وما الذي نقلهم عن حالهم الاول ، وأدى بهم الى أن صاروا أغنياء اقوياء ، حتى كادوا أن يتسلطوا علينا بأموالهم ورجالهم إن لم نقل قد تسلطوا بالفعل . فاذا حققنا السبب وجب علينا أن نسارع اليه حتى نتدارك مافات ، ونستعد لخيرنا فيما هو آت . وها نحن بعد النظر لا نجد سببا لترقيهم في الثروة والقوة الا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم حتى قادتهم الى رشادهم ، فتنوروا خيراتهم فاكتسبوها ، ومضراتهم فنكبوا عنها وتركوها ، فاذاً أول واجب علينا هو السعي بكل جد واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا

أليس من البين أنه لا دين الا بدولة ، ولا دولة الا بصولة ، ولا صولة الا بقوة ، ولا قوة الا بثروة . وليس للدولة تجارة وصناعة ، وانما ثروتها بثروة أهاليها ، ولا تمكن ثروة الأهالي الا بنشر العلوم فيما بينهم حتى يتبينوا طرق الاكتساب . فان ذلك أمر قد خفي على ذوي الالباب فضلا عن غيرهم ، كيف لا وقد ولت أزمنة كان التحارب فيها بالاخشاب والنبال ، والسهام وخزف الجبال ، وما أشبه ذلك مما كان يمكن استحصاله بزهيد القيم . وحضرنا زمان نضطر فيه الى المراكب المدرعة ومدافع المتراليوز والكروب ، وبنادق الابرة ، وغير ذلك

من الاسلحة التي تجددت وستجدد فيما بعد ، فان الشر الذي هو محط عناصر الانسان لايزال يرشده ويقوده نحو اختراع أمثال هذه الآلات المهلكة لهذا النوع ، فانهم حتى الآن قد جعلوا العالم بيت نار وهم قائمون على عبادتها وخدمتها بكل جد وإخلاص . وكيف نتمكن من حفظ ملتنا ودولتنا وديننا من شرر هذه النيران بدون أن يكون عندنا مايماثلها إن لم نقل مايزيد عنها ؟ وهل يمكن استحصالها بالخرز والخزف أو بداني الحرف ؟ كلا بل لا بد من أن تؤتى البيوت من أبوابها ، وتطلب المسببات من أسبابها ، فلابد من البحث عن وجوه الاكتساب ، من وجه الصواب ، والاستضاءة بنور المعرفة ، والتبري عن مرافقة السفهاء ،

وليس من يرشدنا الى ذلك الا أبناء هذه الطائفة فانهم أرواحنا ، وقائدو أشباحنا ، حيثما توجهوا توجهنا ، وفي أي وقت على أي شيء عرجوا عرجنا ، وان من حقهم ان يقوموا لحث الجمهور على اقتناص تلك العلوم وبيان فوائدها ، وما يترتب عليها من المنافع وعلى عدمها من المضار ، ووجه احتياجنا اليها ، ولعمر الله قد كان ذلك خير الاعمال وأحبها عند الله لان اعلاء كلمة الحق وحفظ بيضة الاسلام مقدم على جميع الشعائر ، فانه بعد زوال الرأس ، لا يبقى لسائر البدن الا الرمس ، كما هو بين عندهم ، وغير خاف عليهم .

ولا تظنن أني أقول : أن توانيهم عن مثل هذا المسعى على علم منهم بلزومه ، لرقة في دينهم ، حاشا لله . بل إنهم لم يلتفتوا الى لزومه ، وأنه أهم مايهم ، وأوجب ما يجب . ولو أنهم التفتوا اليه ، وحققوا الامر على ما هو عليه لقاموا بارشاد الناس اليه على قدم وساق ، وضاقت المساجد بخطبائهم ووعاظهم . وحث الاهالي وتحريضهم على استحصال ما هو أساس لحفظ دينهم ، على ما هو المعهود منهم من الهمة فيما يكون مقويا لشوكة ديننا وصولته ومحافظتهم على بقاء عزته وقوته . ومن لي بأن ينتبهوا الى هذه النكتة ، وأنه لابد لهم من الالتفات الى هذه اللوازم البتة ، كي يمنوا علينا بحسن النظر ، ويعينوا لنا حد الخير والشر ، فانا لا نسمع الا مقالهم ، ولا نرمق الا أحوالهم ، بل لا نسمع إلا بآذانهم ، ولا نبصر إلا بأبصارهم ، ولا نذوق إلا بذائقتهم ،

ولا تتكلم الا بألسنتهم ، كيف لا وهم الارواح ، ونحن الاشباح . وهم النسمات ونحن الارواح . حيثما مالوا ملنا . وما مالوا مللنا . نعم اننا نحتاج زيادة على هذه المدارس الى مدرسة عمومية تتكفل ببيان هذه المسئلة وهي ان العلم نافع والجهل ضار ، وافصاح الفرق بين غسق الليل ورابعة النهار ، بل هي ألزم من جميع اللوازم فانه مالم تتوفر الرغبة في شيء لا يتحقق الاقدام عليه بل يكون مبتذلا عند النفوس ، مرموقا بعين اليؤس ، تشمئز منه الطباع ، وتنفر منه الاسماع ، وان هذه المسألة أي ان العلم نافع لنا ، والجهل مهلك لأرواحنا وأبداننا ، مسألة صارت عندنا من أدق النظريات ، يحتاج في بيانها الى كثير من المقدمات ، والحجج والبينات ، مع ماينضم الى ذلك من الاعتبارات كالترغيب . والترهيب . والتمثيل والتقريب . والاجمال والتفصيل والايجاز والتطويل . على حسب اختلاف مراتبنا في القبول . وعلى الله تمام المسئول

المقالة الخامسة

وجاء في العدد ٤١ من هذه السنة مانصه :

التحفة الادبية

انه حينما كانت هم أرباب الفطن النقادة ، والفكر الوقادة ، (من أهل) العربية في أوج كمالها ، وأفلاك سعاداتها في منازل اقبالها ، كانت الامة تباهي سائر الامم برجالها العقلاء السياسيين ، وفلاسفتها المستبصرين ، وتختال بينها عجباً بما لها من الثروة والقوة ، والعز والفتوة ، وسطوع شمس المعارف في أفق ديارهم ، وانجلاء غيوم الجهالات عن وسط سمائهم ، حيث كانوا قد استووا على منصات الكمال في التعقل والتبصر على حسب ما كانت عليه درجة العلم في ذلك الوقت . وبينما اللغة العربية تباهي سائر اللغات باتساعها وإحاطتها بدقائق (المعاني) التي كان يبديها العرفاء من المتكلمين بها ، وكانت متحلية متزينة بحلية الاصطلاحات العلمية كاصطلاحات الطبيعيات والالهيات والرياضيات والطب وغير ذلك من

سائر الفنون ، وكانت قريرة العين بتلك الحلية والزينة وازديادها وانتظامها على حسب مرور الأزمان (إذ) فترت تلك الهمم وتنزلت الى حضيض الانحطاط لموانع قد اعترضت سيرهم وصدتهم عن التقدم في مدارج السعادة والكمال وأوقفتهم (عند حد) لم يتجاوزوه ، بل أرجعتهم الى مقام كانوا قد تقدسوا عنه وتركوه

تلك الامة (كان) ما كان لها من الشان ، وبدأ أمرها بعد التمام في النقصان ، وسلبت تلك اللغة الشريفة ما كان لها من الحلي والزينة ، وأمست للصغار والابتذال رهينة ، وتقدم سائر الامم في اكتساب المزايا التي كانت لتلك الامة وحسنت هيئاتهم الاجتماعية ، ونالوا من الثروة والرفاهية ، وتحلت ألسنتهم بالعلوم والمعارف ، وديارهم بالبدائع وبهي الزخارف ، وتطاولت ألسنتهم بالفخار على لساننا ، وباهت رجالهم في السياسات والافكار رجالنا ، فلما قرع آذان أبناء الامة العربية سهام الملام ، قام فيهم قائم الغيرة والحمية وآلوا على أنفسهم أن لا يألوا جهداً في استرجاع مافقدوه رغماً لتلك الموانع ، وقسراً لحركات هاتيك القواطع ، فنشأ فيهم من بذل الهمة في استحصال العلوم واللغات وبرعوا في ذلك وترجموا الى لغتهم العربية الكتب من جميع الفنون كالطبيعة والكيمياء والطب والجيولوجيا وغير ذلك من الفنون المفيدة فتجلت لغتنا في حليها ، وبدت ترفل في ثياب زينتها

الا انه لم يوجد فيهم من يعنى بعلم السياسة وتاريخ سير التمدن حتى يمن على اللغة العربية بأن يودعها دقائق معانيه ، ويقلدها لآلئ مبانيه ، حتى قام بهذا الامر العظيم جناب الفاضل الاديب ، واللوذعي الاريب ، الذي يغنيك رؤية أثره ، عن عطر ذكره ، الخواجا حنين نعمة الله خوري فتبرع لأبناء العرب ولغتهم بترجمة كتاب جليل في هذا الموضوع لم يسبق سابق بمثاله ، ولم ينسج ناسج على منواله ، وهو ما ألفه الوزير الشهير كيزو فانه كتاب قد جمع فيه من نتائج السياسيات ، ماتحار فيه ألباب أرباب الرياسات ، حقيق بأن يسمى سبيل النجاة ، ومادة الحياة ، وهو الكتاب المسمى بالتحفة الادبية . واني لا أستطيع أن أذكر من مزايا هذا الكتاب فوق ما أفاده حضرة الاستاذ الاكرم ، والفيلسوف الاعظم ، الذي تشرف بذكر اسمه مسامع القاصي والداني ، جناب السيد جمال الدين الأفغاني ، وهاك ما قال :

« لاريب ان كل انسان طالب للسعادة بطبعه ، وهارب من الشقاء بوسعه ، فجميع حركاته وسكناته انما هي لاستحصال تلك الغاية وان سعادة الانسان انما تقوم بسعادة ملته وأهالي وطنه ، فإنه عضو من أعضاء الملة ، ولا شك في أن العضو يشقى بشقاء سائر الاعضاء ويتألم بآلامها الا أن يكون أشل عديم الاحساس ، فأعظم سعادة تطلب انما هو سعادة الامة والملة التي نشأ الانسان فيها الا أن للوصول الى هذه السعادة المطلوبة طرقا وعرة السلوك وربما ضل فيها الطالب فوقع في نقيض المقصود وتردى في حفرة الشقاء ، فكان من الواجب على كل انسان أن يأخذ الأهبة ويمتحن جميع السبل ويتخذ أعظم الوسائل لنيل هذا المطلب الجليل

ومن المعلوم ان المستبد برأيه كثيراً مايعرض له الخطأ بل قلما تقع منه الاصابة فأحسن الطرق وأولاها بالسلوك هو الطريق الذي قد امتحنته أيدي التجربة وترتبت عليه تلك النتائج في عالم الاعيان، وها نحن (أولاء) لا نشك في أنه قد حصل لأهل أوربا تقدم ووصول الى الغاية المطلوبة في هذا العالم وكان ذلك نتائج مقدمات ترتبت قياساً صحيح النتيجة حتى أوصلتهم الى هذا المطلوب ، فلا بد لكل انسان ان يبحث عن تلك المقدمات التي انتجت سعادة أولئك الامم حتى يستعملها في إيصال أهالي ملته ووطنه إلى مثل مانال غيرهم ، حتى يسعد بسعادة ترابه الذي نشأ فيه، والوزير كيزو قد جمع في كتابه هذا جميع الشروط والاسباب والوسائل والآلات التي كان لها المدخل في سعادة الاورباويين والعناصر التي تكون منها ذلك المزاج اللطيف، بحيث ما أبقى شاردة إلا اقتنصها ، ولا خفية إلا إلى العيان أبرزها، وأحكم بيانها ، فعلى عالم الانسانية أن يشكر له هذا الصنع البديع وعلى أبناء العرب خاصة ان يقوموا بشكر مترجمه الفاضل، فانه قد بالغ في تهذيب العبارات، وتحقيق الاشارات، حتى أتى على المرغوب من إيضاح معاني ذلك الكتاب بألفاظ رقيقة عذبة المذاق ، متسقة المساق ، تتسابق معانيها إلى الاذهان ، وتبرز دقائقها في عالم العيان، فكان حقيقاً بأن يجعل قلادة في عنق كل واحد من أبناء هذه الامة العربية. فعلى أبناء أوطاننا وأهالي لغتنا العربية أن يعرفوا له هذا الجميل الجليل، ويبذلوا الهمة في مطالعة هذا الكتاب العظيم الشأن ودراسته ، والاخذ بسيرته والسير على طريقته ،

حتى تستنير عقولهم ، وتندفع إلى المعالي هممهم ، ويعضدوا بذلك مقصد هذا الفاضل ، فانه لم يكن له بغية في هذا العمل سوى ترقية هذا الفن في أبناء هذا الوطن ، فليؤيدوه بالهمة والنشاط في ذلك ، وليقتدوا به في النهوض إلى مثل هذا الصنيع المفيد ، فان بيت السعادة محتاج إلى أركان كثيرة ومما يرشدك إلى أنه لم يرم شيئاً سوى نفع أبناء الوطن وانه محب صادق لخيراتهم أنه لما رأى ان بعض أهل العلم من الازهر قد نشر بعض مقالات على الطرز الجديد بدت منه علائم السرور والابتهاج ، وسارع إلى مدحهم والثناء عليهم ، وشكر ذلك اليهم ، فجازاه الله عنا وعن أهالي أوطاننا خيرا ، وخلد له أحسن الذكرى » محمد عبده

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ سقطت كلمات من هذه المقالة تعرف بالبداهة فوضعناها بين أقواس ، وسبق مثل ذلك في غيرها ، وهذا آخر ما رأينا للاستاذ الامام من المقالات في السنة الاولى من جريدة الاهرام وكان لا يزال مجاوراً في الازهر لم يصر مدرساً رسميا وهي تدل على انه أوتي من كمال العقل وسداد الرأي في بدايته ما لا يزال كبار علمائنا وعظماء رجالنا قاصرين عن إدراكه ، ولو عمل أهل هذه البلاد بارشاده منذ تصدى للاصلاح ونشر آرائه في الصحف لكانت مصر الآن من أعظم الامم علماً وحضارة واستقلالا وقوة ، ولكن استعداد الامة كان ناقصاً ، وما نراه الآن من التنبه والتوجه إلى العلم والعمل للامة فله ولأستاذه السيد جمال الدين الفضل الاول فيه ، وقد صرح هو بأنه لا يرجو ان يعيش إلى ان يرى ثمرة عمله ، وانه ليس إلا معداً وممهداً لمصلح يأتي بعده .

الفصل الثالث

مقالات الوقائع المصرية (الرسمية)

لما تولى الاستاذ رحمه الله ادارة المطبوعات في وزارة الداخلية ورياسة تحرير جريدة الحكومة الرسمية، أنشأ فيها قسما أدبيا لارشاد الامة لما تصلح به أخلاقها وآدابها ولغتها، فنذكر في هذا الجزء أهم ما كتبه في هذا القسم

المقالة الاولى

حكومتنا والجمعيات الخيرية (*)

ان مما تثلج به الصدور، وترتاح له النفوس، ويبعثنا على الثقة بحسن مستقبلنا، ما نراه من إقدام أبناء قطرنا على الاعمال الخيرية، وجدهم ونشاطهم في تأليف الكلمة، وضم الشمل، واتحاد المقصد لنجاح البلاد وتقدمها، وأخذهم بالوسائل الحقيقية التي تؤدي إلى ذلك وان سبقنا اليها سكان الممالك المتمدنة وبلغوا بها آمالهم من الثروة والقوة وكمال السطوة. وهي إنشاء الجمعيات الخيرية المتعددة تختلف أشكالها، وتتحد مقاصدها، وتتعدد أماكنها، وطرق سيرها، وتتفق غاياتها وفوائدها، فتكون على تنوع وظائفها بمنزلة بدن واحد ذي أعضاء مختلفة يقوم كل عضو منه بما يعود على البدن كله بالصحة والقوة، ويزيدنا أملا وثقة ما نشاهده من تأييد الحكومة السنية لتلك الجمعيات، وشد عضدها بما تبديه من المساعدات لها في كل ما يوجب ثباتها وتقدمها وتشييد أركانها وتقوية دعائمها، بما تصدره من الاوامر السامية في شأن تقريرها واعترافها بها، حتى يظهر لجلي النظر ودقيقه ان الحكومة بأقوالها وأعمالها كخطيب فصيح العبارة، لطيف الاشارة، يبث الغيرة في القلوب ويجذب الهمم من خطة الحطة، ويدعو أفراد الرعايا إلى الهدى والرشد، ويعلمهم الواجب عليهم لأنفسهم، وهو المحبة الوطنية، والالفة الانسية، والتعاون على جلب المنافع العامة

(*) نشرت في العدد ٩٤٢ من جريدة الوقائع المصرية الذي صدر في ١٤ ذي القعدة سنة ١٢٩٧ هـ ١٩ اكتوبر سنة ١٨٨٠ م

التي يشترك فيها كل واحد منهم ، ودفع بلايا الفقر والفاقة والذلة الناشئة من الشقاق والتباغض المتولدين من الجهل بحقيقة الحياة الانسانية. وصدور مثل ذلك من حكومة مصرية وان كان غريباً عجيباً إذا رجعنا إلى صفحات التاريخ في الازمان الماضية إلا أنه ليس بمكان الغرابة فى عصرنا هذا ، فإن الجناب الخديو المعظم قد عرف من عهد شبوبته بالميل إلى المعارف ، وشدة الحب لها ، والسعي في تربية الاهالي وتهذيب عقولهم ، وعلى ذلك وزراؤه الكرام أيد الله شأنهم ، ومن ذلك لانعجب اذا رأينا هذه الحكومة الجليلة مساعدة لأهل الخير ، ممهدة لهم طرق الوصول الى خير مايقصدون، بعد ماذللت لهم المصاعب الكابية التي أدركهم اليأس من تذليلها في سنين طويلة ـ بعناية خديوها الجليل وهمة دولتلو رئيس النظار (١)

وإن من أقوى البراهين على ماتقول إقبال الجناب الخديوى ودولتلو رياض باشا ناظر الداخلية الجليلة على من قدموا اليه من رجال الجمعيتين الخيريتين ، الجمعية الخيرية الاسلامية بالاسكندريه ، وجمعية المقاصد الخيرية بمصر . فقد قابلهم الجناب المعظم بصدر رحيب ، ووجه باش ، وأجاب التماس كل بأن يصير سعادة ولي العهد رئيساً عاما للجمعية المبعوث من طرفها ، وعند ماعرض قانون كل من الجمعيتين على دولتلو ناظر الداخلية الجليلة أقره واستحسنه ، وبعث الى نظارة المعارف باعترافه وقبوله ، وأصدر الأمر بتقرير كل من الجمعيتين ، وشكر صنيع كل من رجالها ، وحث على مساعدتهما في كل مابه تقدمها ، غير انه لم يغض الطرف عن مايلزم لعموم نفعهما وهو مراعاة وحدة التعليم ، وأن تكون موضوعات التعليم فيهما متحدة مع مافي المدارس الميرية ليتأتى قبول تلامذتهما في المدارس العالية ليتمتعوا بتتميم دروسهم فيها ، ونيل الشهادات الحقيقية على مااكتسبوه من الفنون ، وخص جمعية الاسكندرية باعانة نقدية يبلغ مقدارها ٢٥٠ جنيها من جانب الحكومة في كل سنة ، حيث إنها قرنت بين العزم والفعل

(١) كان رئيس النظار وناظر الداخلية لذلك العهد رياض باشا الشهير، وكان قائما بضروب من الاصلاح جليلة وكانت الجريدة الرسمية هي الحادي والسائق لكل ضرب منها

وشوهد لها أثر في العيان . إلا انه حث مندوبها على مراعاة الفقراء والايتام والاكثار منهم بالمدرسة قائلا : إن للأغنياء طرقا كثيرة في تعليم أبنائهم ، أما الفقراء فليس لهم سبيل اليه ، وإننا لو رأينا زيادة عنايتكم بالفقراء لزدناكم في الاعانة والنقدية ، ثم أكد وصيته بأن يكون التعليم حقيقيا راسخا في القلوب ، ثابتا في العقول ، لا أن يكون ظاهريا على سطوح الخيالات والاوهام . فهذا الصنيع، الجيل من هذا الوزير الجليل، يستدعى انطلاق الالسنة بالثناء عليه ،وميل الافئدة بكليتها اليه ، وما كل ذلك إلا بعناية الخديوي وحسن مقاصده ،خلد الله دولته ، ومكن في الآفاق سطوته ، وسنرى من آثار هاتين الجمعيتين مايحمد أثره ، ويخلد ذكره ، وهذا محصل ما كتب من نظارة الداخلية الى نظارة المعارف في شأن الجمعية الخيرية بالاسكندرية بتاريخ ١٢ القعدة سنة ٩٧

« ليس بخاف مانهض اليه الموفقون من أهل البر والاحسان من ذوات ووجوه الثغر السكندري في تأليف وإنشاء جمعية خيرية لتعليم العلوم واللغات المفيدة والصنائع النافعة . وقد قارنوا العزم بالفعل إذ أنشأوا المكاتب التعليمية ابتغاء مرضاة الله تعالى ، وحبا فيما يعود على الوطن بالخير . والآن قدموا لنا قانون الجمعية الدال على حسن مقاصدهم بما قرروه من إنشاء مستشفى للمرضى ، ومكتبة لمطالعة الكتب واستنساخها ، ثم دار ضيافة لمن يقدم على الجمعية . وأن يكون من شؤونها مواساة الارامل وتربية الايتام من أبناء أعضائها بعد موتهم وغيرهم ، ومساعدة من يصابون في أنفسهم وأموالهم بما يقوم بدوائهم ، وتكون رياستها العمومية في عهدة سعادة ولي العهد الاكرم . وحيث كان هذا المشروع من محاسن الاعمال العائدة بالمزايا على الوطن وأهله الدالة على جمال المقصد ، وهي مطابقة من كل وجه لأفكار الحضرة الخديوية،وعند تلاوة مفصلات القانون المحكي عنه وجد مقبول الوضع، ملائما موافقا للطبع ، فبناء على ذلك وجب قبول هذه الجمعية وتقريرها على حدتها ومعرفتها بالاسم الذي عنونت به ، ولزم تحريره لسعادتكم اخطارا بذلك لتقوموا بما ينبغي من المساعدة لها فيما يمكن به

تقدمها وحسن سيرها ، ومن طيه نسخة القانون للعلم بما اشتملت عليه ، وحفظها أساساً لذلك بالمعارف

« وحيث اشتملت هذه الجمعية على تعليم وتدريس العلوم ونشرها بالصفة التي أوضحت بقانونها ، وهذا مما يجعلها تحت سلطة المعارف وملاحظتها،فعليكم إعطاء جميع التعليمات والأوامر التي تلزم لذلك »

المقالة الثانية

احترام قوانين الحكومة وأوامرها

من سعادة الأمة (*

إنما تسعد البلاد ويستقيم حالها إذا ارتفع فيها شأن القانون ، وعلا قدره واحترمه الحاكمون قبل المحكومين ، واستعملوا غاية الدقة في فهم فصوله وحدوده والوقوف على حقائق مغزاه ، وسهروا لتطبيق أعمالهم جزئية وكلية على منطوقه الحقيقي ومفهومه، عند ذلك تحيا البلاد حياة حقيقية ، ويسري فيها روح السعادة وتهطل عليها سحائب الرحمة ، فتخصب بها أرض الثروة لكون جميع الاعمال على اختلافها حينئذ متجهة الى غاية واحدة هي النفع العمومي المنقسم على كل فرد من أفراد الرعية على التساوي كل بمقدار عمله ، وصاحب الحظ الوافر من السعادة هم العمال والمأمورون وأركان الدولة ، لأنهم مصدر الاعمال الكلية التي عليها يدور نظام البلاد ، فينالون من الثمرة على مقدار مالهم من الفضل

وليس يكفي في راحة العباد وانتظام المملكة أن توضع القوانين حاوية لكليات الامور وجزئياتها ، ثم تهمل من النظر ، وتطرح عن الفكر ، ويستمر كل ذي عمل في عمله ، يتبع فيه رأي نفسه إن خطأ وإن صوابا . فان هذه الحالة يستوي معها وضع القانون وعدم وضعه ، ولا فائدة في إبراز فصوله وأبوابه

*) نشرت في العدد ٩٥٢ من جريدة الوقائع المصرية الصادر في ٢٦ القعدة سنة ١٢٩٧-٣١ اكتوبر سنة ١٨٨٠

من عالم الفكر إلى عالم اللفظ والكتابة ، بل يكون هو والعدم سواء ، وتتساوى بلاد ارتقى فيها الفكر الشرعي إلى أعلى درجة ، مع بلاد بلغت أقصى غاية من الهمجية والتوحش ، فان نهاية أمر الجهتين هو الاختلال والشقاء . وطالما افتخرت حكومة مصر في الزمن السابق باصدار اللوائح ووضع القوانين ، وتجديد النظامات ، وتنقيح الاصول الاساسية ، وسجلت ذلك في الدفاتر ، وخلدته في بطون الاوراق ، حتى كان الناظر في ذلك يظن أن بلاداً هذا نظامها ، وذاك قانونها ، لفي غاية من السعادة والراحة ، لكنها كانت تحنو أعناقها خجلا عند ما كان يظهر من أعمالها وأعمال عمالها مايضاد القانون الذي وضعته ، ويؤدي إلى شقاء البلاد التي حكمتها ، ولا تؤاخذ على ذلك . وهذه خصلة لا يرضاها العاقل لنفسه أعني أن يعمل على خلاف مايرسم ويحدد

أما حكومتنا اليوم فلم تسمح بوضع اللوائح تحت المساند ، ولا في مستودعات الدفاتر ، ولا تحت تراب الاهمال والاغفال ، بل لا تزال همة رجالها متوجهة إلى جعل القانون عنوان العمل ، فلا تصدر حركة من آمر أو مأمور إلا على طبق ما رسمته في أوامرها العالية ، فان بقي من تلك العادة السيئة (أعني إهمال الاوامر) شيء في نفوس البعض من ذوي المناصب ، وبلغ ذلك مسامع رئيسه الأعلى وجه اليه اللوم والعتاب ، وأنذره إنذار من يؤاخذ بالذنب ويعاقب على الجرم ، وأخذته الغيرة على قانونه الذي سنه خوفا عليه من الضياع ، وعلى ثمرته من الفقدان . فان تكررت منه المخالفة أنزله عن منصبه بعد إحالة النظر في مخالفته على المجالس القضائية ، وذلك كله لحسن مقاصد الحضرة الخديوية وعنايتها باصلاح بلادها ، وبهمة دولتلو رياض باشا رئيس النظار ، وغيرته على الحق ، وتيقظه ، وسهره على تنفيذ لوائح الحكومة ومنشوراتها ، علماً منه أن أسعد البلاد ماتنفذ فيها حكم القانون ، خصوصاً إن كان ذلك القانون عادلا ، يوافق مصلحة البلاد ، وانه لا فائدة في إجهاد النفس لوضع اللوائح ، وتأسيس المنشورات إذا لم يجر عليها العمل ، ولم تكن نصب أعين العمال في جميع إجراآتهم ينظرون اليها ، ويسيرون في كل أحوالهم عليها

فرغب هذا الرئيس الجليل رغبة حقيقية في تأييد حرية العمل في هذه البلاد ، ورفع سوط القسوة الغير القانونية ، وإبطال عمله بالكلية . إذ لم يجعل لأحد من المأمورين سلطة على أحد من الاهالي ، إلا فيما يعود على البلاد بالمنفعة العامة ، كما هو شأن العدالة وحقيقة النظام ، وأعلن ذلك بالصراحة في منشورات الداخلية الجليلة مراراً ، ليعلمه الحاكمون والمحكومون معا . فيعرف الأهالي حقوقهم ممتازة ظاهرة ، فلا يسمحون بخدشها . ويعتبر بذلك المديرون ، وصغار المأمورين . فلا يسخرون أحداً في عمل من الاعمال بغير حق ، وإلا فلا يأمنون عاقبة ذلك وسوء مغبته . نعم لهم الحق في أن يسوقوا المتقاعدين عن الاعمال التي تطلبها مصلحة البلاد بسوط العدل ، الذي لا يرفع عن المهملين — وهذه صورة منشور جليل صدر من نظارة الداخلية في هذا الشأن منبئاً بغيرة دولتلو ناظرها الأفخم ، وشدة محافظته على رعاية القانون

***

أول منشور من وزارة الداخلية تسخير الناس في اعمال الحكومة

« قد علمنا مما كتب لنظارة الداخلية من مديرية الشرقية بالتلغراف : أنه أخذ جملة أنفار من أهالي مديريته ، وتوجه بهم إلى جهة شالوفة ، لاصلاح ما حدث من الخلل ، وترميم ما وقع من التهدم بجسر سكة الحديد ، في المسافة الواقعة بين هذه الجهة والسويس . ولما سئل عن إقدامه على هذا الاجراء بأمر من هو ؟ أجاب : بأنه أقدم على ذلك بناء على تلغراف ورد اليه من عموم إدارة السكة الحديد . ولما رآه من المصلحة العامة في ذلك ، مع تعهد إدارة السكة الحديد بدفع أجر الانفار . ولا يخفى أن هذا الاجراء لا ينطبق على القواعد الأساسية المتبعة ، ولا يوافق نصوص الاوامر السامية المصرحة بأنه لا يجوز تكليف الاهالي بعمل من الاعمال إلا إذا كان عائداً عليهم بالمنفعة العمومية ، كري مزروعاتهم ، وحفظ أراضيهم وبلادهم من غوائل الغرق فقط . نعم أن منفعة السكة الحديد تعد منفعة عامة ، لكن لما دائرة خصوصية ترجع اليها ايراداتها ومصاريفها . فعليها أن تتدارك جميع أعمالها من طرفها لاستعمال مأموريها

أنفسهم فيما يلزم لها ، وليس لها أمر ولا نهي على المديرين من أعمال الادارة ، ولا غيرهم فيما يماثل هذا الامر ، ولو صدر عنها ذلك فلا يصح لمدير أو من دونه أن يجيبها أو غيرها إلى ماتطلب بعد ما علم هذا الاساس المتين ، خصوصاً إن أوامر الحكومة الصادرة إلى المديرين ، ناطقة بأوضح عبارة بأن كل مأمور مكلف بامتثال أوامر النظارة التابع هو لها . فالمديرون ليسوا بتبعة لمصلحة السكة الحديد ، ولا غيرها من المصالح ، ولكنهم تابعون لنظارة الداخلية ، ولا يسوغ لهم إجراء عمل ما يشبه ذلك إلا بأمر يصدر لهم منها . فعلى المديرين والاهالي عموما أن ينتبهوا لمثل هذه القوانين الثابتة ، ويراعوها حق المراعاة ، ويعلموا أنه لاسلطة للمدير أو غيره على أحد من أهالي البلاد في عمل من الاعمال ، إلا فيما يعود اليهم بالمنافع العامة فقط ، وهو مايتقرر بالجداول في كل سنة من أعمال التطهير ، وتقوية الجسور لحفظ البلاد عند فيضان النيل ، وكل من يبدو منه أدنى مخالفة لهذه الاوامر بأن يكلف الاهالي بأداء أعمال لاتجب عليهم ، ولا هي في منفعتهم العامة المقررة في جداول العمليات ، فقد أوقع نفسه تحت خطر المحاكمة ونفوذ أحكام العدالة فيه ، ومجازاته بما يقضي به القانون . وبهذا لزم الاخطار لعموم الجهات ، ومن الجملة لسعادتكم تحذيراً من الوقوع في المخالفة »

المقالة الثالثة

حب الفقر أو سفه الفلاح (*

كان أهالي بلادنا محملين من الاثقال النقدية مالا يطيقون من ضرائب على الاراضي متنوعة متكثرة تتجدد على الدوام ، بتجدد الاشهر والاعوام ، وحرائم تفرض على الانفس وتوابعها من غير نظام ، لاتنتهي إلى غاية ، ولا تقف عند حد ، حتى بلغت بهم نهاية لايستطيعون معها الأداء لشيء مما فرض عليهم . ثم لم يكن لاقتضاء هذه الفرائض الثقيلة منهم وقت معين ، ولا قاعدة معروفة ، بل ذلك كان على حسب اشتهاء الحاكم ، وإرادته الغير مرتبة . فتارة يجبرون على على أداء جميع أموال السنة بأنواعها ، في أول شهر منها . وتارة يطالبون بأموال السنة القابلة في منتصف السنة الحاضرة ، ولا محيص لهم عن الأداء ، فان من تأخر عنه عومل بالضرب المهلك ، والحبس المؤبد ، أو انتزع منه جميع ما بيده قهراً ، وما شاكل ذلك من المعاملات الخشنة

ولا يجد للخلاص من جميع ذلك سبيلا سوى الالتجاء إلى التجار وأرباب البنوكة الذين هم كانوا أعظم أعوان الظلم في ذلك الوقت ، وأشد أنصاره . فاذا رأوا حاجة الاهالي اليهم تدللوا وتمنعوا لعلمهم أن الكرباج وراءهم ، فلا قدرة لهم على الصبر ، ولا سبيل إلى التخلص من ألم العذاب ، ولو موقتاً ، إلا بالرضاء بكل ما يرسمون عليهم من الفائدة ، فكان التاجر لايؤدي نقوده سلماً ، ولو قبل الحصاد بعشرين يوما إلا ستين فيما يساوي مائة وقت الحصاد ، فتكون الفائدة

(* نشرت في العدد ٩٦٩ الصادر في ٢٢ الحجة سنة ١٢٩٧ — ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٨٠ تحت هذا العنوان ما يأتي :

أربعين أو أزيد في الشهر الواحد ، وصاحب البنك لا يعطي إلا بفائدة عشرة في المائة ، بل أزيد في كل شهر ، ومن الناس من كان يأخذ المائة بمائتين في أربعة أشهر ، وجميع هؤلاء حاضرون أحياء نعلمهم وهم يشهدون . فكانت تلك الايام ويلا ووبالا على الحكومة والاهالي جميعاً ، وكانت سعداً وربيعاً للتجار وارباب البنوكة الغرباء الدخلاء الذين انتشروا بين أبناء البلاد انتشار الذئاب بين الاغنام. فأثقلت كواهل الفلاحين وغيرهم من الوطنيين بالديون الهائلة ، واضطرهم العجز لبيع أملاكهم ، ورهن عقاراتهم وأراضيهم ، أو الانسلاخ منها بالكلية ، فأحاط بهم الفقر ، وصاروا في أسوأ حال

والحمد لله أصبحوا في هذه الايام ، وقد خففت عنهم الاثقال ، وألغي كثير من الضرائب غير القانونية ، ووقفت المطلوبات عند حد معروف ، وضربت لتأديتها مواقيت محددة على حسب فصول السنة وما يكون فيها من حاصلات الزراعة . فتوفرت على الاهالي ثمرات أتعابهم ، وصاروا الآن لا حاجة لهم إلى بيع شيء بأقل من قيمته ، ولا بفلس واحد . فان أوقات الأداء هي أوقات اجتناء ثمرات الزراعة . ومع ذلك فالمطلوب مقسط بأقساط خفيفة سهلة الأداء لا تلجيء صاحبها إلى ارتكاب شيء مما كان يرتكب أولا ، فنمت الثروة نموا لم يكن يخطر بالبال ، وأيقنا ان الاهالي سيثبتون على املاكهم ، ويعتبرون بسوابق احوالهم ، فيحرصون على تقدمهم في الثروة والغنى ، حتى يستردوا ماسلب من ايديهم قهراً ، ولو بأعلى قيمة واغلى ثمن ، وتأخذهم الغيرة على املاكهم واملاك إخوانهم التي اصبحت في ايدي غيرهم ، يتمتع بخيراتها ، ويتلذذ بشهي ثمراتها . فيطلبون رجوعها اليهم بدفع اضعاف قيمتها الاصلية ، كما هو شأن الاحرار ذوي الشرف والهمة ، وذلك لا يكون إلا باتباع قانون الاقتصاد والاكتفاء من اللوازم بقدر الحاجة او دونها ، حرصاً على نيل الشرف الحقيقي ، وهو تخليص املاكهم ، او حفظها من تطرق يد الغير اليها

إلا إننا نأسف كل الاسف إذ لم نظفر بهذه الأمنية ، فان الحكومة لما

ارتفعت عن كواهلهم أثقال المظالم، وخففت عنهم أحمال المغارم، فتحوا على أنفسهم بابا آخر من الفقر يلجونه باختيارهم وإرادتهم بدون قاسر ولا قاهر ، وهو باب السرف والتبذير والاكثار من لوازم الرفاهيــة والزينـــة ، وما يكسب الظهور الكاذب بلا طائل ، فرأيناهم يتفاخرون في إعداد الولائم وإتقان أشكال الزينة ، ويتنافسون في تشييد الابنية ، ويتكاثرون في الملابس وأنواع الملاذ ، لايقفون فيها عند حـد ، ولا ينتهون الى غاية (كما كانت الضرائب في الزمن السابق) وليتهم مع ذلك ينقدون في اجتلاب هذه الاشياء قيمتها الحقيقية ، ولكنهم من الجهل يشترون مايساوي عشرة بعشرين إن لم تقل بمائة ، فان ضاق إيراد أحدهم عن هذا المصرف الواسع أسرع الى البنوكة يرهن فيـه أرضه وعقاره بفائدة ليست بقليلة ، يلزم نفسه بأدائها أعواما كثيرة ، ويظنها سهلة الاداء مع أنهـا تحت شروط شديدة عليه لطيفة على صاحب البنك ، غير متدبر عاقبة الأمر ، ولا متبصر في نتائج هذه الغفلة

بلغني أن بعض الاعيان في بلادنا رهن أرضه الزراعية الخصبة على خمسة وعشرين ألف جنيه يدفعها في خمسين سنة مائة ألف جنيه وكسور . أليس هو الاحق بهذه الفائدة التي هي ثلاثة أضعاف ماأخـذ ، وهي ثمرة كسبه ، ونتيجة تعبه ، وما عليه اذا اقتصر في مصرفه ليحفظ على نفسه ذلك المبلغ بل أكثر منه، ولعمر الحق أنه لو أنفق على قدر إيراده أو نصفه لقلنا إنه مـن المسرفين . ولـكن أبي حاكم الشهوات الا أن يكلف هؤلاء الضعفاء النفوس المنحطي الافكار بما لا يطيقون، كأنهم يبرهنون بأعمالهم هذه وتهورهم في الاسراف والانفاق على أنهم ليسوا أهلا للثروة ، ولا مستحقين للغنى ، ولا يتحملون ثقل الخـير على أنفسهم ، بل يحبون أن يكونوا على الدوام فقراء متربين لايملكون شيأ ، وإن كانوا في صورة أغنياء مثرين ، ويرغبون أن يكونوا تحت ذل الدين وأثقاله إذ رسموا على ذواتهم أن تكون في قبضة ارباب الدين يتصرفون فيها وقت مايشاؤن ، ولا يعلمون أن نكبات الدهر كثيرة الورود شديدة البطش ، فربما اجتاحت زرع أحدهم جائحة سماوية (كالمعروف عندنا بالندوة أو الهيفة) أو أصيب بموت ماشيته ،

أو نزلت به حادثة غرق ، أو شرق ، أو ماشاكل ذلك من المصائب التي لامندوحة عنها ، فيعجز عن الاداء فتباع أملاكه ويصبح من الخاسرين ، ولا يبقى له سوى الحسرة في قلبه على مافرط في شأن نفسه . وكان من الواجب على هؤلاء المساكين (الاغنياء والمتوسطين) أن ينتهزوا فرصة الراحة ليعدوا فيها ماينفعهم زمن الشدة ، ويوفروا على أنفسهم شيئا من ثروتهم لتكون بفضل الله فرجة لهم يوم الكربة ، وإلا فقد دلت التجارب على أن عاقبة الاسراف حسرة تملأ القلب ، وحيرة تدهش اللب ، وسنعود الى هذا الموضوع مراراً إن شاء الله

المقالة الرابعة (*

﴿ عدنا والعود احمد الى موضوع حب الفقر أو سفه الفلاح ﴾

(٢)

الاقتصاد هو فضيلة من فضائل الانسانية الجليلة ، بل هو من أهمها مدحته جميع الشرائع وبينت فوائده ، وهو كغيره من الفضائل مركب من أمرين بذل وإمساك ، أعني أن الاقتصاد هو التوسط في الانفاق بحيث لايبسط صاحب المال يده كل البسط حتى لايبقي فيها شيئاً ، ولا يقبضها كل القبض حتى لايخرج منها شيئا ، بل ينفق من ماله على حسب حاله ، يقدم الأهم فالمهم ، فيدفع الضرورة ويقيم البنية على قدر مايناسب درجة غناه وفقره ، مع حفظ بقية من كسبه يعدها للعوارض غير المنتظرة التي قلما ينجو الانسان من ورودها عليه بغتة من حيث لايشعر . فاذا جمع الشخص بين الامساك عما لايلزمه ، والبذل فيما هو أحوج اليه ، فقد حاز فضيلة الاقتصاد التي قال فيها نبينا صلى الله عليه وسلم « الاقتصاد نصف المعيشة » والمعنى أن المعيشة تقوم بأمرين الكسب والاقتصاد في انفاق ثمرته ، فمن كسب مالا فقد حاز أحد الأمرين فان لم يحز الآخر وهو حسن

*) نشرت في العدد ٨٨٩ الصادر في ١٦ المحرم سنة ١٢٩٨ - ١٨ ديسمبر سنة ١٨٨٠

التدبير ، فقد فقد نصف معيشته ، أي فقد انهدم أحد ركني المعيشة . فان حاز الامر والثاني هو الاقتصاد ، فقد تمت له المعيشة .

وتوضيح الحقيقة في هذا الباب ان من اجهد نفسه في الاكتساب وتحصيل الاموال، ولم ينفق منها شيئا على نفسه في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه وغير ذلك من لوازم معيشته أو انفق منها قليلا جداً بحيث لا يفي بلوازمه، ولا يقضي واجباته ، فهو وإن كثر ماله وغزرت مادة ثروته ، لكنه في الحقيقة ناقص المعيشة فقير جداً . وهذا الكاسب ليس إلا بمنزلة خادم حقير مكلف بالجمع والتحصيل والحفظ ، فهو خفير فقير بيده مفاتيح الخزائن ، ولكن كأنها مملوكة لغيره لا ينال منها شيئاً ولم ينل الا التعب والشقاء لاغير . وكذلك إن تجاوز في النفقة حد الواجب بأن حدد لنفسه من الأمور ماليس بلازم وصرف جميع ما اكتسب أولا فأولا ، فانه يكون في غاية من الفقر وإن كثر الايراد جداً لانه في كل آن لا يملك من ثمرة كسبه شيئاً، فهو بمنزلة من يصب ماء في حوض فتح في قاعه بالوعة كبيرة لاتبقي شيئاً مما يصب في الحوض ، فالماء دائم السيلان لكن الحوض فارغ ، فهو في الحقيقة فقير جداً ان ألمت به مصيبة أصبح متربا في غاية الاحتياج والاضطرار يرشد الى هذا كله قوله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً)

وهذه القاعدة الجليلة مع ظهور فائدتها فى انتظام أحوال الانسان بحيث لا يعارض فيها عاقل ولا جاهل ، وترغيب الشريعة الطاهرة في اتباعها والعمل بها على ما نطقت به الآيات والأحاديث — نرى كثيراً من الناس في ديارنا منحرفين عنها كل الانحراف بعضهم يميل الى جانب الامساك بالمرة ، والبعض الآخر يميل الى جانب الاسراف بالكلية ، اما الاولون فانهم يصرفون جميع أوقاتهم في الكد والتعب والاخذ بأنواع الحيل لتحصيل الدينار والدرهم . ثم يودعون جميع مايحصلون بطن الأرض ، وترتعد يد الواحد منهم عند مايقرب من الصرة أو الوعاء المحتوي على النقود . فان وجب في ذمته لله أو للناس حق صعب عليه أداؤه فيكتسب الوزر والجرم ، وينال من الناس الاهانة والتعزير في طلب حقوقهم ، وتحيط به الضرورات بأنواعها ، ولا يدفع شيئاً منها بشيء من

ماله ، بل إن ماله المكنوز ربما كان يمكن استزادته وتنميته ، ولكنه لايرضى بذلك ، ويحب أن يدوم كما أودعه لايزيد إلا بما يضمه اليه من خارج ويقتر على نفسه فى كافة لوازمه ، فلا يحافظ على صحة بدنه ، ولا يبذل شيئا في تربية أبنائه وتهذيبهم ، وإن كان على علم بأن ذلك واجب خشية من نقص عدد النقود ، وإن كان ذا عائلة أضربها من عدم الانفاق وأهمل واجباتها وتركهم يئنون تحت آلام الاحتياج . فمثل هذا السفيه أتعس حالا من الفقير ربما يمنعه عن قضاء حاجاته العوز والاعدام ولكن هذا يمنعه عنها حب الفقر والاضطرار والتلذذ الوهمي بأن له نقودا في بيته فاذا مات تركها لا يعلم بها أحد لانه اكتنزها في اخفى الامكنة وأشدها بعدا عن الاعين فيصبح أبناؤه ومن كان في نفقته فقراء معوزين لا يملكون شيئا .فهذا الصنف من الناس خاق لان يتحرك في الهواء حركات الذرات غير الشاعرة لا يدري لاي شيء يغدو و يروح وهو عاشق للافتقار والاضطرار وملتقي في نهاية سيره مع إخوانه في الرذيلة المسرفين

وأما قسم المسرفين من أهالي بلادنا فأولئك شأنهم غريب :إذا خفت عنهم المغارم ،وأقالتهم الحكومة من المظالم ،وتوفر لدي البعض منهم شيء من النقود ولو ارتفعت أسعار المحصولات أو جاد موسمها ، ورأى بعضاً من النقود يرن في يديه، قصد إلى سوق البضائع الافرنجية (التي يعد اقتناؤها تمدنا) يشتري أخسها وأدناها بأعلى القيمة وأرفعها حلية لزوجته ، وزينة لابنته وابنه ، وبهرجة لنفسه ، يظهر بها يظنها رونقا يكسبه حلية واعتبارا،حتى يعود وقد صرف جميع ماتوفر لديه،وربما كان مع ذلك بيته مهدما يحتاج إلى البناء ،ومضجعه خاليًا من الفراش لا يستر سوى الحصير البسيط ، وزوجته التي يحليها هي المنغمسة في الاقذار ، المكلفة بأداء جميع الاعمال الخسيسة ،وليس عندها من الاوقات ماتتجمل فيه بتلك الزينة، اللهم إلا يوم المأتم والفرح ، وأبناؤه الذين حاباهم بتلك الزخرفة فاقدي التربية ، متروكين في زوايا الاهمال ،ويسره ان يراهم يلعبون ويتواثبون في مساحة بيته المفترشة بطبقات من الاتربة ، ثم إذا ازداد إيراده مرة أخرى رأيته يتفنن في الولائم وإقامة الافراح لابنائه وأقاربه تحت مصاريف متي فتحها على نفسه ، أخرجته عن طاقته ، وأنفق

فيها المثين والالوف بجلب الاشياء التالفة التي لاقيمة لها سوى العدم ، ويسره في كل ذلك انه فرح بابنه أو أخيه أو ابنته الذين لم يكتسبوا شيئاً من الفضائل

وكان الاليق بهذا المسكين أن يتخذ له من فضل الكسب معينا له في أعماله يخفف عنه بعضها ، فانماينفق على المساعدين يأتي بالربح ويفرغ صاحب الكسب لأعمال أخرى لم يكن يقدر على تعاطيها ، أو يأتي لأهل بيته بمعين على أعمالهم حتى ينالوا شيئا من الراحة ، أو يؤدب أولاده ، ويهذبهم ، على شرط أن يكون ذلك غير مستغرق كافة الكسب ، بل لا بد أن يبقى منه ذخيرة ينفقها عند حدوث الحوادث ، وينظر للعواقب نظر الحكيم ، ويكفيه من الافراح ان ابنه ختن أو تزوج في حياته بدون احتياج إلى ماهو أزيد من ذلك ، فقد رأينا كثيراً من هؤلاء المساكين تأتيهم أراضيهم بالمحصولات الجيدة ، والارزاق الوافرة ، ثم ينفقونها عند ورودها في أمثال هذه الزخارف الباطلة ، حتى إذا مضت مدة السكرة التي أتى بها الايراد ، وطرقته نائبة من موت مواشيه ، أو فساد زرعه بجائحة سماوية ، أوخسران تجارته ، أو كساد صناعته ، أوحدوث امراض أوقفته عن الاعمال ، وكيسه فارغ وبيته خال (إلا من الزخارف التي لا أساس لها) عمد إلى بيع مصوغات زوجته وأثاث بيته ورهن أملاكه أو بيعها حتى يصبح فقيراً معدماً ، وقلما مكنه الزمان من الرجوع إلى مثل حالته الاولى أو مايوازيها ، فيأخذ في الانزواء قهراً عنه ، ويخلع ثياب الفخفخة والزينة ، ويلبس رداء الخمول والفقر ، وترميه العقلاء بل وأمثاله من السفهاء ـ الذين ذاقوا مثل ماذاق او ينتظرون عاقبة ـ كعاقبته بالسفه وضعف الرأي وقلة العقل ، ويمسي ذليلا محتاجا بعد ان كان يظن نفسه غنياً عزيزاً ، فما أصعبها على النفس من حالة ، ويا ليت النقمة كانت خاصة بشخصه ، ولكنها تأتي على عائلة جسيمة ينالهم من شرها أكثر مما ناله . وهذه الحالة نراها في الكثير من أوساط البلاد وأغنيائها ، وهذا كما يضر بهم وبحواشيهم يضر أيضاً بثروة البلاد نفسها . إذ تحصر الثروة في دوائر مخصوصة عند أشخاص قليلين ، لوازمهم ليست بالكثيرة ، فتكسد أسواق الصناعة والتجارة لقلة الراغبين في الصنائع والبضائع ، أي لقلة القادرين على اقتنائها ، وتقل الرغبة في الأعمال الزراعيـة ، إذ يكون الجميع كأجراء لا يهتمون اهتمام الملاك

وإن أغنى البلاد وأسعدها هي البلاد التي توزعت ثروتها على غالب أهاليها ، ويزداد الضرر إذا وقعت الاملاك والمبيعات في أيدي الغرباء والاجانب ، الذين لا يسرنا أن نراهم واضعي أيديهم على غالب الاملاك العظيمة والاراضي الواسعة التي كانت في أيدي أبناء البلاد ، بل هذا أمر يحزن كل ذي عقل وإدراك ، ولا يغفل عنه إلا غبي دنيء ، محب للفقر والفاقة . وإننا لنخجل من حكاية هذه الاحوال عن أهالي بلادنا ، خوفا من وقوع بصر الاجنبي عليها ، فيعرفون منا ما لا نحب أن يعرف ، لكنا نظن أنهم على خبرة من أمورنا بحيث لا يفيدنا السكوت ، ولكننا ندعو النبهاء ، بل والعلماء أن يجتهدوا في بث هذه الافكار بين عموم الناس لعلها تنجح فيهم ، ولا أراها إلا ناجحة . ونرغب إلى بعض ذوي الكلمة في بلاد الفلاحين ، بل وفي المدن أن يلاحظوا ذلك ، وينصحوا المتوغلين في الاسراف على غير قاعدة راشدة بأن يكفوا عنه ، وأن يعتدلوا في أحوالهم فذلك ، خير لهم من ضياع أموالهم

المقالة الخامسة (*

﴿ حب الفقر أو سفه الفلاح ﴾

(٣)

﴿ نعود اليه من وجه آخر غير الذي بدأنا به ﴾

خلق الانسان ولوعا بالمنفعة ، حريصاً على إحراز الفوائد ، نفوراً من غائلات الاضطرار ، يطلب لاجتلاب رزقه قريب الوسائل وبعيدها ، ويجهد النفس في توفير ثمرات الكسب ، توقياً من عوارض الاحتياج ، وطوارىء الافتقار ، وهذه فطرة ألهمه الله إياها لتكون له مخلصاً من تعاسة المعيشة التي تنشأ عن الاضطراب في حفظ الحياة ، فهو يتعب الجسم ، ويشغل الفكر ،

* نشرت في العدد ١٠٢٤ الصادر في ٢٨ صفر سنة ١٢٢٨ - ٢٩ يناير سنة ١٨٨١

ويواصل العمل ، وإن كان في ذلك مافيه من الآلام والشقاء ، ليعتاض من تعبه هذا راحة كان يعسر نيلها لولا هذه الاتعاب ، وهي الاطمئنان على النفس والوثوق بصونها من التهلكة . فترى العامل يشتغل بأشق الاعمال بياض نهاره ، ويتألم ويتضجر من صعوبة العمل ، كأنما قهره عليه قاهر ، وفي الحقيقة لاقاهر له سوى علمه بأنه لو لم يشتغل لفقد اجر الاشتغال ، وهو مادة قوته ، وقوام معيشته في مسكنه وملبسه ، وكافة ما يقي حياته من الزوال ، فيستسهل هذه الاعمال البدنية ، في جنب ما تأتي به من الفائدة الكلية ، وهي حفظ الوجود ورفع ألم الاضطرار الطبيعي ، وهو الجوع والعرى ، وتسلط القوى الطبيعية من الحر والبرد على بدنه . ومصداق ذلك مانراه من السنن المقررة في أهالي المعمورة عموما على اختلاف أصنافهم ، ومواقع أوطانهم ، يشقى كل واحد شقاء جزئياً وقتياً لينال سعادة كلية ثابتة على زعمه ، ويترك فوائد جزئية لا ثبات لها ، كلذة الراحة والبطالة ، لتحصيل فوائد أعلى وأثبت . ولو سألنا حال الصبيان في سن الرضاع لنطق بحقيقة ما قلنا ، فهل يرتاب في ذلك أحد ؟

لكننا من العجب نرى هذا الالهام الالهي (إلهام الدأب في السعي وارتكاب بعض المشقات لنيل الراحة الثابتة) قد غشيه في بلادنا سحب من الجهل ، فاستتر عن النفوس ، فعاد الناس لاينظرون إلا للغايات الوقتية ، بل الآنية التي ربما لايكون لها امتداد أزيد من آن حصولها . وذلك بعد أن نذكره عاماً في غالب طبقات الناس ، كما يشهد به العيان من ميل جميع الطبقات إلى البطالة والكسل عن تعاطي الاعمال التي يناط بها كل واحد منهم ، استلذاذاً للراحة الوقتية ، وركونهم إلى قضاء واجبات أغراضهم وشهواتهم على أي وجه كان ، لايحكم الواحد منهم قانونا ، ولا يستفتي شريعة ، طلباً لمنفعة آنية ربما أعقبها نكد يمتد مع الحياة ، نذكره كذلك خاصا في طبقة الزارعين من إخواننا الفلاحين ، فان لهم في ذلك شؤونا غريبة ، وأطواراً عجيبة ، اقتصر منها هنا على وجه واحد من وجوه انحرافهم عن الجادة المستقيمة في تحصيل أرزاقهم وحفظ حقوقهم

يعلم كل زارع علم اليقين أن الزرع لا ينبت ، والنبات لا يثمر ، والثمر لا يجود ،

إلا إذا أصاب الزرع من المياه حظه القانوني ، ويوقن أن بلادنا ليست أقطاراً يكثر فيها نزول الامطار ، فتعم المزارع بدون عمل منا ، فننال حظنا منها ونحن رقود ، وليس لنا من الأمر شيء سوى انتظار ماء السماء ، فان يبس الجو مات النبت ونزل القحط والعياذ بالله

بل يعلم حقا أن الله منح أراضينا ماء النيل روحا لنبتها وحيوانها ، وهو ميسر يأتي في مواقيت الاحتياج على سبيل الاضطرار ، حاملا من المواد المغذية للنبات ماشاء الله أن يحمل، غير أنه يحتاج إلى أعمال اليد في توزيعه على المزارع وحفظها من الزيادة المفسدة لها . فتحتم لذلك شق الترع والجداول وتطهيرها ، وإقامة الجسور والقناطر ، وما شا كل ذلك مما هو معلوم عند الفلاحين أيضاً . ويتحقق كل فلاح أن هذه الاعمال لو أهملت وكانت الجسور ضعيفة أو قيعان الترع غير عميقة إلى الحد الكافي لجلب المياه بسرعة ، أو سدت مسالك المياه من أي وجه من الوجوه الطبيعية لفسد الزرع ، إما بالغرق العام أو اليبس الكلي المعبر عنه (بالشرق) فتتعطل مادة الرزق ، ويسوء حال المزارعين على العموم

جميع هذا الذي قلناه يعلمونه حق العلم ثم تراهم مع ذلك يفرون من الاعمال العمومية التي دعت اليها ضرورة حياتهم على ماقدمنا فرار الفريسة من المفترس . وما هذا الفرار إلا ملاحظة للأتعاب الجزئية التي تنالهم من البعد عن بلادهم قليلا ، وترك بعض أعمال خصوصية في البيت ، أو أرض الزراعة، وصعوبة العمل نوعاً . على هذه الأتعاب لاتعد شيئاً بالنسبة إلى ماينشأ عنها من الفوائد ، وعن تركها من المضرات الكلية ، المؤدية إلى فقد الحياة وعموم القحط . فلو أن لهم بصيرة واعية لقسموها على أنفسهم بالتراضي ، كبيرهم يستوي مع صغيرهم في كيفية أدائها بطيب القلب وصفاء الخاطر ، استجلابا لمادة رزقه بدون أن يحتاجوا في ذلك إلى سائق يسوقهم ، أو قائد يقودهم ، خصوصاً في هذه الاوقات التي توفرت فيها الأفراد توفراً تاما بسبب ارتفاع أنواع السخرة الخصوصية التي كانت عامة البلوى في أنحاء القطر ، فكان عدد البلد الواحد الذي لايزيد عدد القادرين على العمل فيه عن مائة ، يؤخذ منه عشرون للعمل في (الجفتلك)

الفلاني المتعلق بالست الفلانية ، وعشرون آخرون الأوسية الفلانية التابعة للباشا الفلاني ، وعشرة لأبعادية أخرى وهكذا ، فربما أتى يوم من الايام لاتجد في البلاد إلا الشباب والعجائز والصبيان . أما الآن وقد علموا أن معدل المطلوب يبلغ ثمن التعداد بالتقريب ، والباقون يشتغلون بالاعمال الزراعية في الاراضي ، فلا يليق بهم التقاعد عنها ، بل من الواجب على كل واحد المسارعة والمبادرة اليها بكل ما في قوته وإمكانه ، تعاضداً وتعاونًا واتفاقا تاما على جلب هذا الخير العظيم لأنفسهم عموماً . وأي سفه أعظم من أن يعلم الشخص طريق منفعته التي لاطريق له سواها ثم يتقاعد عنها ، ويحتاج إلى من يجذبه اليها بالقوة القاهرة

فان تعللوا بأنهم لا يفرون من العمل نفسه ، ولكنهم ينفرون من الاعمال التي كانت تصدر من الحكام وتابعيهم من الضرب المؤلم والارهاق المزعج وأعمال سوط السطوة فيمن يذهب الى مواقع الاعمال العمومية ، وتكليف العامل بما لا يطاق من العمل والظلم البين وتوزيع مقاديره على حسب ميل المأمورين والمهندسين إذ ذاك الى بعض الجهات لغرض ما ، وانحرافهم عنها فيخففون عن بعض البلاد مايثقلون به كاهل البعض الآخر ، حتى ينال من هذه أيضاً مثل ما نال من تلك فيقع التوازن والتعادل بين البلاد ، لكن يقع معه الاختلال في العمل المطلوب إذ يخف العمل عن الجميع بواسطة مادفعوا من النقود ، فيقيمون الزمن المحدد ثم ينصرفون الى بلادهم بدون طائل . فهذا هو الذي يوجب النفرة والفرار من الأعمال العمومية كراهة في الذين كانوا يتولون أمرها .

فأقول لهم في الجواب عن ذلك (أولا) إن تلك الايام قد مضت وانقضت ، وهي الايام التي كان قدر الفلاح فيها مجهولا ، وكان يستعمل في الاعمال كما تستعمل الدواب والماشية لا يعلم لأي شيء يشتغل ولا لأي شخص يعمل هل لنفسه أو لغيره حتى صار يعد جميع الاعمال لغيره لا لنفسه ، أما الآن فقد عرفت الحكومة قدر رعاياها ، وتقدمت اليهم بجميع الوسائل النافعة لهم ، وسارت أوامرها الشديدة في أنحاء البلاد سيراً حثيثاً ، ناطقة بأن لا سلطة لاحد من الحكام على أحد من الناس الا فيما ينفعهم ويعود عليهم بثمرات الثروة والوقاية من موجبات الضرر وقد شاهدنا رأي العين

أن كل من ينحرف في سيره رمقته عين الحكومة التي لا تغفل حتى تحقق سوء فعله، فتأخذه بجرمه أو تضعه تحت المحاكمة كائناً من كان، وقد نشرت الجرائد كثيراً من مثل هذا . أفيليق بالزراعين بعد ما رأوا صدق عزيمة الحكومة في تعميم المنافع بينهم، وأنها تجد كل الجد في تيسيرها بأي الوسائل أن يتقاعدوا عن ماعلموه منفعة لانفسهم استحضاراً للصور الماضية، وإن كانت هائلة تنزعج منها النفوس

(وثانياً) إن الذي دعا أرباب السلطة في الزمن السابق الى التطاول عليهم إنما هو تباطؤهم عن منافعهم بتفرق الكلمة في طلب المنفعة العائدة على الجميع، فلو أنهم صدقوا جميعا في تتميم مايجب عليهم من الاعمال وكل واحد يشتغل وهو يعلم أن هذا العمل عائد اليه بالنفع كعمله في مزرعته بلا تفاوت، فهل كان يمكن لأحد أن يثقل عليه أو يخفف عنه ؟ كلا إنهم كانوا جميعاً يقدرون على ردع الظالم وتبديده لو اتفقوا على منفعتهم برفع أمره الى من فوقه وإظهار حاله الرديئة فلا يستقر قدمه بينهم . ولكن ظنهم أن العمل أجنبي للحكومة لا لهم، هو الذي بث في نفوسهم حب التخلص منه بأي الوسائل، فيتداخل كل منهم في صرفه عن نفسه بكل مايمكنه، فيقع الظلم على البعض بل الاغلب من جهة ويختل نظام الاعمال من جهة أخرى لوقوع التهاون من البعض الذي أرضى الحاكم السافل . وهذا جهل بين . فان الحكومة لاشأن لها في هذه الاعمال الا إيصال الخير الى رعاياها فهم الغاية المقصودة بثمرة العمل، فليس من العقل بعد ماتحققوا هذا المقصد في عهد حكومتنا الحاضرة وأن سلطة الباشوات (والستات) والمأمورين قد ارتفعت ولم يبق الا سلطة الحق والمساواة أن يتقاعد مكلف بعمل ما عن عمله اللهم الا أن يكون سفيهاً يستحق الحجر عليه

على اننا ننظر في أحوال الفلاحين أمراً أغرب من هذا الذي قدمنا، وهو الاعراض عن الاعمال الخصوصيــة المتعلقة ببلد واحــد كتطهير ترعة مخصوصة بأراضيه أو المحافظة على النقطة المقابلة له، فيعلم أهل البلد علم اليقين ان ترعتهم الخصوصية لو لم تطهر لتأخرت عنهم المياه، وتعطلت زراعتهم إما بتلفها كلية أو بالنقص في ثمراتها، وأن المحافظة على قنطرتها أيام النيل مثلا أمر لابد منه والا

اندفعت المياه على أراضيهم فافسدتها ، ثم أن عملية التطهير ربما لاتحتاج الى أكثر من أربعة ايام او خمسة ، ومع ذلك ترى كثيراً من البلدان يهملون المساقي الخصوصية التي لاطريق لري المزروعات سواها . فاذا جاء أوان فيضان النيل ارتوت الاراضي عن يمينهم وعن شمالهم وهم يتلهفون على نقطة من الماءفلايجدونها وكلما دعاهم داع في أيام التطهير الى العمل ، يحتج كل واحد منهم بحجة أن له شغلا خصوصياً في بيته او غيطه يمنعه من ذلك حتى تمضي الايام ويأتي وقت الندم حين لاينفع . فان لم يكن في البلد عمدة يهمه أمر زراعته لانها أكثر من زراعة الباقين ، فيلجئهم الى العمل قهراً لتعمهم الفائدة — وإن لم يبعثه الا المنفعة الخصوصية ، لكنها أوصلت الى العمومية — فهذا حالهم . فانظر الى هذه الحالة الرديئة التي نشأت من تفرق القلوب ، وانقطاع التواصل بين النفوس ، فلايهتم واحد بعمل يشترك في منفعته مع آخر ، وإن كان يتحقق الضرر لنفسه بتركه كان اشتراك الغير في المنفعة صيرها مضرة ينبغي اجتنابها ، وكان من الواجب ان الاشتراك يدعو الى التعاون والقوة بدل التهاون والانحطاط ، فكأنهم سلبوا الخواص الطبيعية التي لانسان الجبال والغابات ، وقد علمت الحكومة ذلك فأرسلت الى المديريات بالتأكيدات الشديدة لتتميم العمليات الخصوصية ، ومع ذلك لم نزل نسمع بأن بعض البلاد لم تعمل شيئاً في لوازمها الخصوصية . فكأن المأمورين يعاملون الفلاحين بما فى نيتهم ، لكن ليس هذا غرض الحكومة فالواجب على كل مأمور في جهة أن يهتم بتنجيز أعمالها الخصوصية . فقد أزف وقت العمليات العمومية ، ولا يمكن فيه قضاء عمل خصوصي والا فكل مأمور سيسئل عن جهات مأموريته ، وإن عاقبة السؤال غير مجهولة. نسأل الله أن يصلح أحوالهم ويمتعهم بنور البصيرة فيرشدون الى حسن المآل ويوفقون لخير الاعمال.

(يقول جامع الكتاب) لله در الاستاذ كاتب هذه المقالات فقد احاط في بدايته بما لم يحط به غيره الى الآن ، فان هذه المفاسد الاقتصادية لا تزال راسخة في البلاد ، ولو انها عملت بارشاده فيها لبقيت ثروتها فى أيديها ، ولما تمكن نفوذ الأجانب فيها ، ولا تزال محتاجة الى أمثال هذه النصائح ، وأين الناصحون ؟

المقالة السادسة

المعارف (*

(١)

كثر تحدث الناس في شأنها في هذه الاوقات ، وكأنهم لما فرغوا من الافكار المتعلقة بالامور المالية والادارية ، وما كان فيها من الاضطراب وتنوع الاحوال ، وتقلب الاشكال ، إذ كفتهم الحكومة أمر ذلك كله بثباتها وتبصر رجالها العقلاء ، أخذوا يلتفتون الى مابه حياتهم الحقيقية ، وعموهيتهم الاجتماعية ، وظهور شأنهم بين الناس ، وحسبانهم في عداد أهل العالم ، وهو العلم النافع الذي رأينا جيراننا من الممالك نالوا به السيادة على غيرهم ، وطفقوا يتذاكرون فيما به يكون تقدمه والوسائل الموصلة الى انتشاره في أقطاره ، موجهين آمالهم الى نظارة المعارف العمومية لانهاذات الشأن فيه . فقالوا كلاما كثيراً اذ كره كما قيل(١)

قالوا إن المدارس ينبوع هـذا الخير الجليـل (العلم) وليس له من وسيلة سواها ، ولكن تحت شروط لابد من استيفائها ـ ولسنا الآن بصدد بيانها ـ وقد افتتحت المدارس فى ديارنا منعهد المرحوم محمد علي باشا ، لكن كان اسمها غريباً على الآذان ، وحشياً عن القلوب ، يساق الناس اليها (كانما يساقون الى الموت) إذ كانوا يظنون أن الدخول في المدارس هو الانتظام في العسكرية

---

*) نشرت في العدد ٩٩٠ منها الصادر في ١٨ المحرم سنة ١٢٩٧ ـ ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٠

١) ان الآراء الآتية كلها للاستاذ رحمه الله تعالى وانما ذكرها باسلوب الحكاية عن الناس لئلا تقول نظارة المعارف ان رجال الحكومة يعيبونها ويشهرون بها في جريدتها على ان وزير المعارف متبرم من هذه المقالات وشكا الاستاذ الى رئيس النظار رياض باشا وطلب منه ان يامر بمنعها فقال بل لابد من اصلاح الخلل .. وكان ذلك سبب تاليف مجلس المعارف الأعلى للاصلاح وكان للاستاذ ما كان من العمل فيه كما بيناه في الجزء الاول من هذا التاريخ

والدخول في العسكرية هو الشقاء الدائم ، والبلاء المحتم ، وبعض الناس بعدالتنبه كانوا لايرون خطة أرفع من خطة الكتابة في ديوان أو مصلحة لما يرون للكاتب من المكانة عند الحكام ، والتصرف في الحقوق ، فاكتفوا بارسال أبنائهم الى الكتبة يعلمونهم ،حتى اذا كبروا انتظموا في سلكهم . وكانت لهم المنزلة المطلوبة بدون حاجة الى مدرسة ولا مكتب منتظم ، وبعض الناس ربما كان يعلم فائدة المدارس ، ولكن كانت توجد له أسباب تمنعه من تربية أبنائه فيها ولكنا لانبديها ، وأما في أيامنا هذه ، فقد تنبهت العقول ووقفوا على فوائد العلم وثمراته حق الوقوف ، غير أن ذلك يقضي على الآباء بتربية أبنائهم من الآن فصاعداً على الطريقة المنتظمة ، أما الشبان الذين فاتهم زمن التعليم في تلك الجهالة السابقة واشتغلوا بتحصيل مادة المعاش ، إما بالتوظف في الخدمات الميرية أو طلب الكسب من وجوه أخر ، ولهم شوق تام إلى كسب فضيلة العلم ، فلا تساعدهم أحوالهم بالضرورة على الرجوع الى التعلم في مكاتب الاطفال ، وتعطيل أسباب معاشهم ، فيود الكثير منهم أن تكون في البلاد مدارس ليلية يتداركون فيها بعض مافاتهم في الازمنة السابقة أزمنة جهل آبائهم لعلهم بذلك ينفعون أنفسهم وبلادهم بأكثر مما يقدرون عليه الآن . حتى اهتم بعض من الشبان من مدة نحو سنتين بتأليف جمعية لفتح مدرسة ليلية ، ثم عارضتهم بعض الموانع ، فلم تساعدهم المقادير على النجاح ، وكانوا في انتظار توفيق إلهي يسوق اليهم ذلك الخير حتى سمعوا بان نظارة المعارف تروم افتتاح مدرسة ليلية ، ففرحوا واستبشروا وقالوا نعمة من الله سيتمت الينا نؤدي له مزيد الشكر عليها ، ثم انقبضت نفوسهم عند ماسمعوا من شروط تلك المدرسة أن تكون دروسها باللغة الفرنساوية خاصة ولا يقبل فيها إلا من كانت عنده مبادىء الرياضيات والطبيعيات وله تقدم في اللغة الفرنساوية

وقالوا ياسبحان الله إن المدارس الليلية فى البلاد المتمدنة تقرأ فيها العلوم الابتدائية باللغة العامية مع التزام التسهيل فى التعبير والتحاشي عن ذكر الالفاظ الاصطلاحية الغريبة أو العسرة التفهيم ، وذلك لفائدتين (الاولى) أن كل من يعرف القراءة والكتابة يمكنه أن يفهم مبادىء العلوم بهذه الطريقة ، فلا تفتر

همة الذين لم ينالوا حظ التعليم في صغرهم ، وينتشر العلم حقيقة إذ لا يكون في فهمه صعوبة ،ولا يمنع الشخص عن أشغاله النهارية (والثانية) أنه اذا كان التعليم على هذا النمط تكون المسائل العلمية لقربها الى الفهم كاحدوثات تتسلى بها النفس، بل ألذ من ذلك إذ لا يدخل الرجل محفل العلم الا ويخرج بنور جديد ، فتجذب نفوس الناس الى مستملحات العلم ، فبدل صرف أوقات ليلهم الطويل في مضاجعهم يتقلبون من جانب الى جانب ، أو في بيوتهم بمحادثات لا طائل تحتها ، أو في أماكن أخرى تتحاشى عن ذكرها، يهرعون الى معهد العلم ليغذوا عقولهم ويروحوا قلوبهم ، ولم نسمع أن أمة متمدنة افتتحت مدرسة عالية وجعلتها ليلية ، فلم عدل عن هذه الطريقة الجليلة في بلادنا واخترعت طريقة جديدة ، وهو جعل التدريس في المدرسة الليلية بلسان أجنبي عن لسان البلد بالكلية لا يفهمه المتفنن منهم، ولا العامي ، والعلوم التي يقرأ بها عالية لا ابتدائية ، حتى يحرم الناس الذين هم أحوج الى التعليم وأولى به ، وهم الخدمة وأرباب الكسب المحبون لنيل فضيلة العلم ولا يستطيعون، ويتلهفون على ذلك ولا يجدون، وهو مما يوجب الاسف خصوصاً وقد تواتر على الألسنة أن غالب من قبلوا فيها أجانب (وإن كان ذلك غير صحيح ، فعندي علم اليقين بأن الاكثر وطنيون ، لكن من الذين تعلموا في مدارس الفرير ونحوها) فهل يقال بأننا تقدمنا عن تلك الممالك فترقينا حتى صارت مدارسنا الليلية أعلى من مدارسهم ، أو أيقنا بأن العامة منا والكتاب لا يستفيدون من ذلك شيئاً ، أو لاحظت نظارة المعارف أنها بذلك تستحصل في زمن قريب على أساتذة تجعلهم معلمين في مدارسها ومكاتبها. فان كان هذا الوجه الاخير قلنا أنها ستجعل (مدرسة الخوجات) نهاراً فلها أن تزيد في عدد تلامذتها ما تشاء لهذا الغرض على أنه لو سلك في المدرسة الليلية مسلك البلاد المتمدنة لتأتى لنا الوصول الى بعض هذا المقصد ، فكثير من أهل العلم كان يود أن ينتظم في تلك المدرسة ليتعلم العلوم التي فاته تحصيلها ، لكن منعه كون التدريس بلغة أجنبية وكون الدروس فوق البدايات ، وإن كان الثاني قلنا إن الاستعداد والشوق موجودان في كثير من الناس ولهم رغبة تامة في التعليم ، فكيف يصح إساءة الظن بجميع شباننا الى

هذا الحد ، وإن كان الاول قلنا الاولى أن لا نتكلم

وإنا وحق الحق لفي حاجة كاية الى أن يكون التعليم الليلي عندنا مستديماً آخذاً من البداية سهل الوسائل ميسر الاسباب بلغة بلادنا عامة أو خاصة حتى تنقطع حجة الجاهل ويبطل برهان الكاسل ، وتنبعث الغيرة في الكل اذا أقبل البعض على التعليم ، ويقع التنافس في الفضائل ، ويجد الشبان الذين استرسلوا مع هوى الشباب شغلا ، وتوبخهم الذمة ، وتلعنهم ضمائرهم اذا تركوه ، إذ لا يجدون لهم علة يتعللون بها إذ ذاك انه لابد أن يكون هذا التعليم الليلي اجباريا عاما لكل مستخدم وقارىء لم يتعلم تمام مايجب عليه في وظائفه إلا الضرورة تمنعه من مرض ونحوه خصوصاً بعد ما أعلنت الحكومة أن جميع المستخدمين في الايرادات أو التحصيلات لابد أن يكونوا من الدراية بحيث يقدرون على تحقيق القضايا وحل المشكلات بأنفسهم في مواد الجنايات والحقوق والحسابات ونحو ذلك . وهذا الاريب يستدعي أن يكون جميعهم على بصيرة تامة ، وذوي عقل وافر ، وهذا لا يمكن إلا بعد تحلية العقل بالعلوم الابتدائية التي لابد منها لكل من يريد الاستقلال في سيره

هذا حاصل أقوال الناس في شأن المدرسة الليلية التي افتتحتها نظارة المعارف قريبا ، وربما كانت تلك الاقوال صحيحة ، لكن إن صح ماقالوا فعليهم بتقديم آرائهم لسعادة ناظر المعارف ليتروى فيها ، ثم يجيبهم الى مطلوبهم إن رآه موافقا وخاليا من الموانع والمحظورات ، والا أقنعهم بأن تعميم النفع غير ممكن فحينئذ يعلمون الحق ، ويريحون أنفسهم من الجدال ، ولهم أقوال في مواضيع شتى يمنعنا من ذكرها في هذا العدد ضيق المقام ، وربما نذكرها غداً إن شاء الله

المقالة السابعة

المعارف (*

(٢)

مقالات الناس فيها وأفكارهم العمومية متنوعة ذكرنا بعضها في عدد سابق ونذكر بعضا منها في هذا العدد حفظا لمتفرقات الاقوال لعل شيئاً منها يقارن صحة فيصادف قبولا ، وليكون ذلك دليلا على تنبيه الافكار والتفات اذهان الناس الى النافع الحقيقي قالوا

نشرت نظارة المعارف الى جميع فروعها منشوراً مبسوط العبارة مشحونا بالمعاني الرفيعة ، قاضياً على نظار المدارس والمكاتب ومعلميها بوجوب التفاتهم لوظائفهم وقيامهم بواجباتهم ، مبينا لهم أن الامتحانات في العام الماضي على الطريقة الجديدة ، قد أظهرت أن في بعض المدارس قصوراً في التعليم وفي بعضها كمالا وزيادة . فاستوجب موظفو الاولى التوبيخ والانذار ، وموظفو الثانية الشكر والثناء ، فعلى الجميع من الآن فصاعداً بذل الجهد فى ارتقاء درجة التعليم بحيث تكون الاستفادة تعقلا وتبصراً ، لاحفظا ولقلقة ، وبين فى هذا المنشور كيفية التعليم وطرق التفهيم ، وأنذر من لم يحذ حذوها بوقوعه تحت مسؤلية الديوان

فانشرحت صدور العامة والخاصة بهذه التنبيهات الاكيدة ، والتعليمات المفيدة ، وقالوا لو عمل بهذا المنشور لاطمأنت نفوس الكافة الى تربية أبنائهم فى مدارسنا التي يصرف بها آلاف الجنيهات من خزينة الحكومة ليتربى بها على توالي الازمنة رجال يكونون فخر البلاد وحماة زمارها ، فقد كانت النفوس فى ريب من نجاح التعليم فيها قبل اليوم ، ولذلك كانت مدارس الفرير والانكليز والامريكان والبروسيان وغيرها عامرة بأبناء الاهالي مسلمين ومسيحيين ، ومدارسنا ليس فيها منهم العدد اللائق بشأنها ، ولم يكن ذلك الا لما أظهرته

(*) نشرت في العدد ٩٩٣ الصادر في ٢١ المحرم سنة ١٢٩٨ — ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨٠

التجربة من نجاح التعليم فى تلك وقصوره فى هذه مع مراعاة الآداب التي يفرح بها الولدان والاقارب فى المدارس الاجنبية ، وإغفالها فى مدارسنا لكن (الحمد لله) تلك أيام قد خلت . فان التفات سعادة ناظر المعارف الى كيفية التعليم وتشديده فى أن تكون على وجهها الحقيقي مما يفيد الآمال ويقويها

ألا أنهم يتساءلون فيما بينهم بسؤالات كثيرة منها قولهم : هل حصلت المكافأة الحقيقية لمن أظهر الامتحان اجتهادهم من النظار والمدرسين ، وهي مكافأة الدينار والدرهم . فان مكافأة الشكر والثناء ، وإن كانت واجبة وهي من أجل المكافأة وأجلها ، ولها تأثير في جلب الرغبات وتقوية العزائم ، لكنها لا تلتصق بالقلب التصاق النقود والمساعدة المعاشية . فان من ضاق عليه العيش وكانت حاجاته أكثر من إيراده لاتنفك عنه الوساوس ، ولا يبارح ذهنه الاضطراب ، وتغلب منغصات الحاجة وآلامها على الفرح الذي أنعشه عند ما سمع كلمة الثناء عليه . ثم ذلك ينقص من اجتهاده ، ويحط من همته ، بل ربما أورث خللا في كيفية تأديته لوظائفه ، خصوصاً إذا رأى غير المجتهد مماثلا له في الرزق ، وأوفر راتباً منه . ولقد صدق القائل : النقص من الرواتب نقص من الاعمال ، لكن المنشور لم يذكر فيه حصول تلك المكافأة ، مع أن المسموع أن ميزانية المدارس كانت قابلة لذلك ، ونظارة المالية تسمح باستغراقها ، بل تود لو يزاد فيها

وقولهم : هل جميع من نشر عليهم هذا المنشور الجليل يدركون الغرض منه حق الادراك ، وإذا أدركوه فهل يوجد عندهم من القوة العملية والتدرب على الطرق الجديدة ما يؤهلهم لاجرائه والسير بمقتضاه ؟ بحيث تحصل الغاية منه بمجرد نشره ، أو أن الكثير منهم محتاج لأن يتعلم تلك الطرق ويتمرن عليها ، والبعض ربما لا يمكنه ذلك ، حتى ولا التعليم . وهل امتحن المعلمون والنظار كما امتحنت التلامذة ؟ وعلم المستعد منهم وغير المستعد بوجه الدقة والضبط ، حتى إذا وجد منهم من لا يليق لوظيفة أنزل عنها ورزقه على الله ، ومن يليق لأعلى منها رفع إلى ما يستحق لتوجد الرغبة الحقيقية أولا ، وتخشى عواقب الجهل والاهمال ، ويتوفر على المعارف زمان تجرب فيه المعلمين مرة أخرى ، ويكون

كله خساراً على التلامذة المساكين . ولا تقصد بالامتحان إلا السؤال في الفن الذي يعلمه ، فاذا تبين أنه يمكنه الاحاطة بمسائله ، ولو بمراجعة الكتب على وجه السهولة عد عارفا ، ثم طلب الالقاء والتدريس وكيفية التفهيم ، فرب عالم لا يستطيع البيان

يقول الناس : إنه يوجد بين المعلمين أشخاص فضلاء نجباء ، عارفون بفنونهم ، قادرون على تأديتها بالوجه اللائق ، لكن يوجد بينهم آخرون ألفوا بعض الطرق العتيقه ، وتعودوا عليها ، فلا يستطيعون بعد طول الزمن التحول عنها ، وإن كانوا علماء بفنونهم ، والبعض منهم يستطيع تأدية القواعد علماً ، ويعجز على تمرين المتعلم عليها عملا ، والبعض يوجد خالياً من الأمرين ، يهزأ به التلامذة ، ولا يوقرون أستاذيته ، كل ذلك يزعمون مشاهدته بالعيان ،

ويوجد بين المعلمين صنف من النبهاء لا يحب أن يجهد نفسه في التعليم ، ويكتفي في درسه بحكاية بعض ما وقع له في يومه أو ليلته ثم ينصرف ، فهل تعينت هذه الاوصاف في أربابها ، واعترف للفاضل بفضله ، وعرف الناقص مقدار نفسه ، وأنزل كل منزلته ؟ هل اختارت نظارة المعارف لاجراء هذا المنشور أشخاصا من العرفاء كل في فن مخصوص ليطوفوا على المكاتب الابتدائية والمدارس الخصوصية . ولا يكون لهم عمل سوى هذا ليقفوا على أحوال تلامذة جميع المدارس في كل أسبوع أو خمسة عشر يوماً مثلا ، ويقدموا جميع ما يرونه من الملاحظات على وجه الدقة التامة ، فان رأوا نقصاً عرفوا سببه ، ومن أي الجهات منبعه . فان كان اعوجاجا في طريق التعلم أرشدوا المعلم بأنفسهم ، وبينوا له الطريق مرة بعد أخرى ، فان اعتدل والا اعتزل ، ويكون أولئك الاشخاص تحت مسئولية شديدة اذا ظهر فيما بعد نقص ، ولم يكونوا نبهوا عليه ، فان ذلك يبعث الغيرة وينشط الاجتهاد في المعلمين وغيرهم ، وتكون حركة المدارس في خط مستقيم يوصل الى المقصود بأقرب الطرق المؤدية اليه ، ويسهل تدارك الخلل اذا ظهر وازالة النقص اذا طرأ

هل دققت نظارة المعارف في معرفة أخلاق النظار والاساتذة الذين

وضع الاطفال في كفالتهم ؟ يدبرون أمورهم، ويرشدونهم الى كمالهم ، وفصلت بين صاحب الاخلاق الفاضلة ، والافكار المستقيمة ، والعفة والنزاهة ، والغيرة على نفع من وكل أمرهم اليه ، وأداء ماوجب في ذمته ، حتى يكون حاله وكماله درساً آخر ، يعطى للتلامذة في كل يوم ، فتنطبع هذه الكمالات في نفوسهم بأشد من انطباع صور المعلومات في عقولهم ، وهو المعنى المقصود من التربية ، وبين من لاخلاق له ، بأن يكون أحمق أو دنيئاً أو عديم الغيرة والذمة ، أو رديء الافكار، ونحو ذلك من الذين تكون معاشرة التلامذة لهم موجبة لتلوثهم بالرذائل ، وتكون كلماته في الدرس ممزوجة بسم الفساد ، فتميت أذهانهم ، وتكون عاقبة أمرهم ، إما جهلا وقد ضاع الزمان وولى الشباب، وإما علماً صناعياً مصحوبا بشرور تعود على صاحبها بالشقاء ، وياليتها تكون قاصرة عليه ، ولكن تتعدى الى غيره بحكم العادة المستمرة ، وعند الفصل بين الفريقين بارشاد الرقباء النبهاء ، ذوي الفراسة والخبرة بأحوال العالم وأخلاقهم ، والامانة في الخبر ، والصدق فيه ، يميز الخبيث من الطيب ، ويبحث عن المستقيمين على قدر الطاقة في أنحاء البلاد ، لتفوض اليهم تربية الاطفال والشبان، ليكونوا رجالا ينفعون أنفسهم وحكومتهم التي تصرف عليهم المصاريف الكثيرة ، أملا بحصولها على رجال تقيمهم في وظائفها الكثيرة ، يؤدون واجباتها بالضبط والامانة

يقولون : إنه لاشك في كون الكتب الموجودة في العلوم العربية مثلا ليست أساليبها سهلة المأخذ على التلامذة ، ولا موافقة لطريقة التعليم في المدارس من اشتغال التلميذ بفنون كثيرة في زمان واحد ، وإنه يلزم ايجاد طريقة جديدة في التأليف ، وازالة كثير من الصعوبات التي عاقت كثيراً من الناس عن التعليم . فهل حصلت العناية بتصنيف تلك الكتب ؟ وان حصلت فبمن نيط تصنيفها ، وهلا شكل مجلس للنظر في مثل تلك التسهيلات ، ودعي اليه أعضاء ممن لهم سعة في الفكر والاطلاع على الطرق القديمة والجديدة ، ويكون لهذا المجلس حق في

تعيين الكتب التي ينبغي تدريسها في أي الفنون ، حتى يتأتى إجراء ذلك المنشور السابق على وجه الكمال

من المحقق أن سعادة عبد الله باشا فكري وكيل عموم المدارس في سفره الى الجهات البحرية قد رأى أموراً كثيرة تستحق الالتفات ، وطلب من نظارة المعارف أشياء مهمة لابد من تقريرها ، والاسعاف بها ، فهل أجيب طلبه؟ وحصلت المذاكرة في تلك الآراء القويمة التي أبداها ، حتى يفرغ من تنفيذ مقتضاها الى البحث في غيرها من الجهات القبلية

هذه جملة من سؤالاتهم سردناها للاحاطة بها ، وانا نجيب عن ذلك بأن نظارة المعارف هي أعلم بما يجب عليها من جميع ذلك ، وأنها لاتغفل شيئاً مما تعلمه نافعاً ومفيداً . ومن اليقين أنها لاتشرع في شيء ثم تتركه يتم بنفسه بدون مراقبة . فالبتة قد أعدت لمقاصدها وسائل . إذ تعلم أن زماننا هذا لايرى فيه الا الأثر الظاهر ، ولا يؤثر عن رجاله الا الاعمال الحقيقية .وأما صدور الاوامر والنطق بالالفاظ العالية بدون ترتب فائدة عليها . فقد مضى وقته ، وأن الآمال متعلقة برجال تلك النظارة العرفاء الاجلاء ، كسعادة ناظرها الاكرم الحريص على تقدم العلم ، والغيور الرفيع الهمة سعادة وكيلها عبد الله باشا فكري ، والبصير الحاذق وكيل المكاتب الاهلية حضرة علي بك فهمي ، ونرى من أعمالهم ما يرفع جميع هذه الاوهام ، ويفتح للمعارف في عصرنا هذا تاريخاً جديداً ، فهذه هي الفرصة التي نرى فيها الحكومة العالية مساعدة على نشر المعارف وتأييدها ، فعلينا أن لانضيعها

المقالة الثامنة

المعارف (*

(٣)

من المحقق ان نظارة المعارف قد اهتمت وعزمت على فتح مدرسة ليلية تقرأ فيها العلوم الابتدائية لتكون عامة النفع شاملة الفوائد ، يذهب اليها الرجال الذين شغلهم الكسب والضرورات المعاشية نهاراً عن التعليم مع رغبتهم فيه ، وميلهم اليه ، ولهم من أوقات الليل الطويل فرصة لا يضيعونها إذا افتتح مثل هذه المدرسة إلا في تعلم ما ينفعهم ويزيدهم نوراً وبصيرة ، وسيكون التدريس فيها باللغة العربية التي هي لغة بلادنا ، ويقرأ فيها درس باللغه الفرنساوية يكون قاصراً على تعليم اللغة لاغير ، يبتدأ فيه من الهجاء الفرنساوي إلى نهاية مايلزم ان يتعلم في تلك اللغة . أما دروس اللغة العربية فمنها ماهو خاص بتعليم قواعد اللغة ، ومنها مايكون في بعض علوم أخر نافعة من آداب وتاريخ أحوال الامم ، وتاريخ طبيعي ، وبعض مبادىء الرياضة (فيما سمعت) بحيث لا تنقص عن تلك المدرسة التي سبق منا الكلام عليها المسماة بمدرسة الخوجات الليلية في جوهر ما يقرأ بها وان كانت تختلف عنها بأن هذه تكون لغة التعليم فيها وطنية وتلك اجنبية ، وهذه آخذة من البدايات وتلك آتية من النهايات ، وهذه يكون معظم نفعها بل كله للوطنيين ، وتلك لا نتوسم فيها ذلك إلا ببرهان ، وهذه الاختلافات وان كانت عظيمة لكنها لا تضر في المقصود

ومما ينبغي ذكره انه ثبت في أذهان بعض الناس ان مجرد تعلم اللغات الاجنبية يعد فضيلة يسعى اليها ، ويهتم بشأنها ، مع أن اللغة في ذاتها لا فضيلة فيها ، ولا يصح أن تجعل غاية تقصد ، وإنما هي وسيلة لما احتوت عليه تلك اللغة من العلوم والآداب والافكار التي ربما لا تكون مبسوطة في اللغة الوطنية كما هي واضحة في اللغة الاجنبية ، فطالب تعلم اللغة الفرنساوية مثلا إذا لم تكن عنده مبادىء علوم

---

*) نشرت في العدد ٩٩٧ الصادر في ٢٦ المحرم سنة ١٢٩٨ - ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٠

وملكة إدراك في بعض الفنون التي يطلب التفنن فيها لا يعد مصيباً في طلبه إلا إذا طلب معها تعلم تلك المبادىء حتى انه عند بلوغه إلى حد الاقتدار على فهم اللغة يتيسر له الوصول إلى الفائدة المقصودة فلا يصح بناء على ذلك أن يكون التعلم والتعليم الليليين قاصرين على اللغات فقط ، بل يلزم أن يكون معها بعض مبادىء العلوم كما عزمت عليه نظارة المعارف الجليلة التي لا نزال نرى مساعيها في تقدم أبناء البلاد وبث روح العلم فيهم تأتي من النجاح بما يخلد لسعادة ناظرها ووكيلها طيب الذكر والثناء

وبافتتاح هذه المدرسة يفحم المجادلون ، وتبطل حجة اللائمين، الذين أنصبوا إلى البحث في المدرسة الليلية وفوائدها ، وما يعود على البلاد منها ،ونشرنا وجوه أنظارهم فيها في بعض أعدادنا السابقة ، فكان هذا العمل من نظارة المعارف برهاناً فعلياً لا جدلياً يقنع الناظرين ، ويفحم المخاصمين ، ويذهب بتعللات المتعللين ، ومطالباً لأصحاب تلك الافكار بالبرهان الفعلي أيضاً وهو توجه الهمم إلى التعلم ، وإفراغ الجهد في تحصيل ثمرات العلم حتى تظهر فوائد هذه الأثر، وأنا على يقين من أن المستخدمين وغيرهم من ذوي الكسب الذين يعرفون قدر المعارف ويقدرونها حق قدرها يجيبون نظارة المعارف إلى طلبها كما أجابتهم إلى طلبهم، ويكون لجريدة الوقائع المصرية شرف الإخبار بخير الاخبار ، وأجر التنبيه، على الامر ومافيه

المقالة التاسعة

التربية في المدارس والمكاتب الميرية (*

من المعلوم البين ان الغرض الحقيقي من تأسيس المدارس والمكاتب والعناية بشأن التعليم فيها إنما هو تربية العقول والنفوس وإيصالها إلى حد يمكن المتربي من نيل كمال السعادة أو معظمها مادام حياً وبعد موته ، ومرادنا من تربية العقول إخراجها من حيز البساطة الصرفة والخلو من المعلومات ، وابعادها من التصورات والاعتقادات الرديئة ، الى أن تتحلى بتصورات ومعلومات صحيحة ، تحدث لها ملكة التمييز بين الخير والشر والضار والنافع ، ويكون النظر بذلك سجية لها ، أي يكون النور العقلي نفوذ تام يفصل بين طيبات الاشياء وخبائثها ، وهذا هو الركن الاول في المدارس والمكاتب ، ومرادنا من تربية النفوس ايجاد الملكات والصفات الفاضلة في النفس وترويضها عليها ، وإبعادها عن الصفات الرذيلة ، حتى يكون المتحلي بها ناشئاً على مايوافق قواعد الاجتماع البشري ولوازمه ومتعوداً عليه ، وهذا هو الركن الثاني ، وإذا فقد أحد الركنين بطلت الفائدة المطلوبة ، أو قلت جداً ، ولنترك البرهان على ذلك الى علم كل انسان به ، فإذا اجتمع للشخص هذان الامران كان انسانا له أن يطلب ماينفعه ، ويبعد عما يضره ، فيدخل في أي أبواب الكسب في الدنيا والآخرة اذا رآه موافقا لاستعداده وفي قوته النهوض به ، فيختار من العلوم والصنائع مايشاء ، ويبرع فيه بكل رغبة وغيرة حتى يصل الى ماتمكنه القوة منه ، ولا يتأتى منه الاهمال فيه لوجود الباعث من ذاته ، وهو غيرته وتصوره للغاية الذي لا يفارقه

وأما ان كان الشخص ضعيف الادراك ، أو فاسد الاخلاق ، وان كان عالماً بجميع علوم الدنيا ، فلاريب أن يكون شقياً في نفسه ، وسببا في الشقاء لغيره ، ولاتغني عنه المعلومات شيئا بل ذهب بعض الحكماء إلى انه لا ينال العلم من أي نوع كان حقيقة

*) نشرت في العدد ٩٥٧ من الوقائع الصادر في ٣ ذي الحجة سنة ١٢٩٧ — ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٨٠

الا بعد تحلي النفس بالصفات الجميلة التي منها بل أعظمها حب الكمال الذي هو الداعي الحقيقي الى طلب العلم والبراعة فيه وان أول مبدأ يجب أن يكون أساسا لتحلية العقول بالمعلومات اللطيفة ، والنفوس بالصفات الكريمة، هو التعاليم الدينية الصحيحة أعني ترغيب القلوب بما يرضي الخالق وإرهابها مما يغضبه ، ثم يؤتى بالرغيبة التي يراد حث النفس عليها على حقيقتها المقصودة للشارع بحيث لا تخرج عن مكارم الاخلاق التي حصر الشارع علة بعثته فيها كما قال عليه الصلاة والسلام « إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » ويؤتى بالامر المنفور منه كذلك على وجهه ، ثم يقال ان ذاك يرضي الله وهذا يغضبه ، وذلك لا يتأتى نجاحه إلا بعد أن تكون القلوب الساذجة قد ملئت خشية من الله وتعظيما للجلاله ، وتبجيلا لمقام ألوهيته السامي ، بحيث لو ذكر اسم الله عند شيء ، خفق قلب السامع ، واضطربت جوارحه خشية منه ورهبة ، فيكون ذلك سبباً لاقدامه على ما يرضيه من الفضائل ، ونفرته عما يغضبه من الرذائل ، فهذا هو أسهل الطرق وأقربها للتربية والتهذيب ، فان الطفل في صغره ، بل والشاب في أول بلوغه ، يعسر عليه لقلة التجربة ان يفهم مضار الاشياء ومنافعها من حيث هي بطريق العقل الصرف خصوصاً مما يتعلق بالصفات النفسانية التي يكثر فيها التضارب يستحسن منها عند شخص ما يستقبح عند آخر وبالعكس ، وايداع مثل ذلك في القلوب إنما يكون بتعويد الأبدان العبادة ، وتذكر جلال الله بالركوع والسجود ومعرفة العقائد الدينية السليمة ، فهي الاساس لكل ذلك ، وطالما تشوقت النفوس لان تكون التربية في المدارس على هذا النمط المفيد الذي عول عليه جميع الامم المتمدنة في مبادىء تعاليمهم فان من تتبع قوانين التعليم في الممالك الاوروباوية رآها بأسرها موجبة للابتداء بالتعاليم الدينية والاستمرار عليها إلى ما يزيد عن ست سنوات تقريباً ، ولكن لم تسمح الحوادث السابقة بنيل هذا الغرض لأسباب نضرب عن ذكرها صفحا

والآن رأينا نظارة المعارف العمومية وجهت عنايتها إلى ذلك ، وطلبت تجويده والاهتمام بشأنه من المعلمين والنظار ، وان لا يهملوا فيه كما أهملوا في سابق الامر ، وشددت عليهم في ذلك كل التشديد ، حتى أوجبت على الاساتذة ان يقوموا برسوم العبادة حق القيام أمام التلامذة ، ويدعوهم لذلك ان كانوا مسلمين

وأما المسيحيون وغيرهم من ذوي الاديان الأخر فلا يكافون بذلك أصلا ، بل هم على حريتهم ، فلها الشكر على هذا المقصد الحسن ، غير انه يلزم انلا تكون هذه العبادات والتعليمات الدينية صوراً يابسة لاروح فيها كعبادة الجاهلين، بل يجب ان تكون معنوية حقيقية تخرق حجاب الغفلة ، وتتمكن في باطن الادراك، وتبعث في الاشخاص روحا من الحياة يشهد آثره الناس أجمعون ، وعلى نظارة المعارف ان تلاحظ التعليمات الدينية التي يلقيها المعلمون حتى لا تكون محشوة بأنواع من التحريف المضاد لحقيقة الدين كما جرت به عادة كثير من المعلمين الذين يظهرون بصورة العلماء وءان كانوا في الحقيقة من أردإ الجهلاء فان ذلك يخل بالمقصود من التربية ، ويضر بتقدم التلميذ في كثير من الفنون التي يلزمه تحصيلها (وسنعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى عند الاقتضاء) وهذه هي صورة منشور المعارف إلى جميع نظار المدارس والمكاتب

منشور نظارة المعارف

« قد علم من جداول الامتحان العمومي المقدمة الى ديوان المعارف وما معها من النتائج والملحوظات المعروضة من طرف حضرات رؤساء الامتحان وأعضائه ان بعض المكاتب لم يحصل فيها الاعتناء بتعليم قواعد الاسلام المندرجة في المادة الخامسة والعشرين من كتاب التمرين حسب المقرر في الصحيفة الثالثة من ترتيب دروس المكاتب الأهلية والمدارس الملكية الابتدائية ، مع ان معرفة قواعد الاسلام بالنسبة لأطفال المسلمين من أهم مايلزم الاعتناء به ، ولا يجوز اغفاله في حال من الأحوال مطلقا ، فيلزم تدريسها للتلامذة بمعرفة (خوجات) القرآن مع حسن تفهيمها وتعليمها لهم بحيث يحفظونها عن ظهر القلب ، ويفهمون معناها فهما جيداً ، ويعرفون كيفية أدائها على أكمل وجه في الفرقة المقرر عليها قراءتها في الترتيب المذكور ، وهي الفرقة الثالثة من كل مكتب ، ومذاكرتها لهم كل سنة في كل فرقة يترقون اليها حتى لاينسوها ، واذا كانت تلامذة فرقة من الفرق المتقدمة على الفرقة الثالثة لم يسبق لها قراءتها فى تلك الفرقة يجدد لهم تدريسها وتعليمها كما ذكر فى الفرقة

التي هم بها بمعرفة (خوجة) النحو ، إذ من بعد الآن لا يرخص بترقي التلامذة من فرقة الى أعلا منها من ابتداء الفرقة الثالثة الى أعلا فرقة الا بعد التحقيق بالامتحان من معرفتهم للقواعد المذكورة حفظا وفهما وعلماً وعملا ، ويكون من أخل بشيء من ذلك من الخوجات المنوطين به تحت المسئولية الشديدة ، ويشترك معه في هذه المسئولية ناظر المكتب أو المدرسة اذ يتحتم عليه رعاية القيام بما ذكر ، ويجعل لذلك (خانة) مخصوصة في جداول الامتحان العمومي والامتحانات التي تحصل في أثناء السنة ويعطى فيها (نمرة) كسائر الدروس ، وكل هذا بالنسبة لأطفال المسلمين خاصة ، وعلى خوجات القرآن الشريف والنحو حث التلامذة على الصلاة من السن الذين يؤمرون بها فيه شرعاً مع دوام وعظهم في ذلك وترغيبهم فيه ، وتحريضهم عليه ونهيهم وزجرهم عن تركها والتكاسل فيها ، وعلى ناظر المكتب رعاية ذلك وترتيب أوقات الدروس على وجه يوجد فيه وقت لأداء الصلاة مع الحث منه التلامذة عليها وحملهم على أدائها جماعة مأمومين بأحد خوجات القرآن الشريف أو النحو في المحل المعد للصلاة بالمكتب أو المدرسة ان كان موجوداً ، فان لم يكن موجوداً ففي مسجد قريب ، فان لم يكن بالمكتب أو المدرسة محل للصلاة ولم يوجد مسجد قريب فعلى الناظر المبادرة بالعرض الى الديوان عن تحديد محل للصلاة مع ارسال رسمه ومقايسه وتكاليفه ، ومع أداء الصلاة في موضع يستحسن لذلك ولو في حوش المكتب أو المدرسة موقتاً إلى أن يتم إنشاء المحل المطلوب . واذا لزم تدارك حصيرة للصلاة أو أكثر على حسب عدد التلامذة وسعة المحل يبادر كذلك بالعرض للديوان عن اللازم مع بيان اقياس المطلوب ، وقد كتب بما ذكر الى النظار عموماً ، وهذا لحضرتكم للاجراء على الوجه المشروح بغاية الاهتمام والحذر من التهاون فيه بعد الآن ي؟

المقالة العاشرة

وخامة الرشوة (*

ورد من مديرية الجيزة في ١٩ الحجة سنة ٩٧

«قبض على أشخاص من ناحية كومبره معهم أربع زكايب ملح براني بها ٥٠٧ أقة و ٢٤٠ درهما بواسطة مندوبي المديرية بارشاد متعهد المصلح بناحية بولاق الدكرور ، فدفعوا للمتعهد والمندوبين ٣٠٠ قرشاً وكسوراً على وجه الرشوة ، فورد المبلغ للخزينة ، وهاهو اللازم جار لاتمام التحقيق ومحاكمة الاشخاص ومبيع الحمير التي كانت حاملة للملح لتورد أثمانها للميري حسب المنشورات في هذا الشأن » اه

قد تقرر في عقول جهلة العوام أن الرشوة هي السبب الوحيد للخلاص من أية جريمة يرتكبونها ، فيقدم الواحد منهم على مايخالف الاصول المتبعة ، أويخل بالامن والسكينة ، أو يهتك حرمات الحقوق ،اتكالا على مايضمره في نفسه من أن الرشوة كافية للنجاة عن العقاب ، أو الحصول على غرضه بأي وجه كان ، وقد غلب على عقول العامة أن كل صاحب وظيفة ميرية أو غير ميرية لايصح أن يقضي أمراً في مصلحته لاحد إلا بالرشوة ، ولذلك يرون أنه من الوجوب على من التمس إنجاز أى عمل يتعلق بمصلحته أن يقدم الى صاحب الوظيفة رشوة تبعثه على مباشرة ذلك العمل غير ملتفت لما تطالبه به واجبات المصلحة التي انطبقت بذمته على أجر يتقاضاه في رأس كل شهر ، ولذلك صار أمر الرشوة بينهم من قبيل العوائد التي لاتشمئز منها طباعهم ، ولا يستنكرها أحد منهم ، بل كادت أن تكون من الوسائل المحمودة لنجاح المقاصد ودفع الغوائل ، ومن الناس من تكون حقوقه بينة جلية الثبوت خالية عن عناد خصم أو تدليس محتال

*) نشر في العدد ٩٨٤ في يوم الاثنين ١١ المحرم سنة ١٢٩٨ — ١٣ دیسمبر سنة ١٨٨٠

ولا يكتفي بذلك في اقتضائها ، فيسارع الى الرشوة يدفعها لمن يرجع اليه تخليص حقه غنيمة باردة ، وقد ينهره الحاكم العفيف ولا يرضى بقبولها وهو من سفهه يتوسل ويتضرع اليه في قبولها منه لظنه أن لانجاح بدونها ، وليس ذلك الا لرسوخ تلك العادة الشنيعة المضرة بالدنيا والدين في طباع أدنياء الهمم تقرباً لذوي المناصب ، وتذللا خبيثاً لايجوزه الشرع ولا قانون البلاد ، وتنفر منه نفس كل ذي إحساس انساني، مع أن حفظ الاموال من الضياع فيما لاينبغي ، وصرفها في وجوهها الضرورية كالمطالب الميرية والنفقات اللازمة ، أليق بفعل العقلاء ، وأصون لحرمات القانون ، وأبعد في طريق السلامة من الوقوع تحت أعباء المعاقبة والتهلكة ، وأحسن طريقة لردع أرباب الشره والخسة ، إذ لو كف كل ذي حق عن أداء الرشوة واعتصم بالطريق الاقوم ، وخضع للاحكام الحقة لتحصل على حقه بدون أن يرى من خصمه أدنى محاولة أو مراوغة الا بالحق ، وبدون أن يقع في عناد من بيده زمام الحكم وتشبطه طمعاً في ما يأخذه منه .

على ان أي متوظف كان وإن بلغ ما بلغ من الزهد والعفة ، فلا أظنه يمتنع عن تناول مايقدمه الغير اليه بالرغبة والرجاء خصوصا اذا أكثر التردد مع ظهور الحق له . فاذا مد يده اليها تعود شيئاً فشيئاً حتى يرتشي في الحق والباطل ، وبالرهبة بدل الرغبة ، فالعلة الأولى في فساد أخلاق بعض المتوظفين هو رغبة ذوي اليسار في ارشائهم بدون تأمل ، فيعودونهم على ذلك وحينئذ فما يلحق الراشي من اللوم أشد مما يلحق المرتشي ، وإن كان كل منهما مجرما لأن الاول ضيع ماله واسترسل مع الجبن وضعيف الوهم في مقام يستوي فيه الحاكم والمحكوم عليه أمام القانون ، وأمال المرتشي لأخذ الرشوة ، وقوى طمعه ، ودله على الشره ، وكلف نفسه بما لم يكلف به

ومن غوائل الرشوة مارأيناه في الزمان السابق يحصل كثيراً بين الخصماء حيث يبذل الواحد منهم مايدخل تحت طاقته من الاموال رشوة بالغة مابلغت في سبيل إعنات خصمه والحصول على غرضه . وإن زادت النفقات عن الحق الواقع فيه الخصام أضعافا مضاعفة ، ومثل ذلك كثير لايمكن الشرح أن يأتي على

بعضه ، وهذه الحادثة المتقدمة تشهد بالتقريب لما قلناه . فان مادفعه الاشخاص المقبوض عليهم من الرشوة يقرب من ثمن الملح الذي كان معهم ، فلو أنهم اشتروه على الطريقة المألوفة لما وقعوا في الخسائر الجمة وأثقال المحاكمة ، ولكان ذلك أقرب الى وفرة الكسب ، وأسلم للمال والنفس ، ولكنهم ظنوا أن الزمن الحاضر هو السالف ، والحكومة هي هي . فسهل عليهم أن يتعدوا الحدود ظنا منهم أن الرشوة تقيهم من عواقب أعمالهم ، وقد خاب ظنهم بتيقظ المتعهد والمندوبين وأمانتهم

ومن العجب بل مما يتأسف عليه غاية الاسف أن الاهالي مع علمهم بأن الحكومة تنادي بمنشوراتها وأوامرها واجراآتها الفعلية بأن لا يستقر في وظائفها سوى ذوي الاستقامة والعفاف ، وأنها تبادر الى عقاب المرتكبين ولو بالمظنة ، نرى البعض منهم بل الكثير لايزال يطلب حقوقه بتلك الطريقة الفظيعة السلوك التي سكنت في أفئدة الناس بطريق السريان من الازمنة السالفة (وصعب على الانسان مالم يعوّد) أليس كان من الواجب على الاهالي أن ينتهزوا هذه الفرصة (فرصة العدل وحفظ القانون) ويقوموا في طلب حقوقهم بمقتضى القوانين والمنشورات التي سهر في انشائها وتنقيحها أولو الامر طلبا للعدل ورغبة في الانصاف ، ويتفق أهالي كل جهة على أن لا يدفعوا لذي وظيفة شيأ من الاشياء ، بل يسلمون أمورهم الى القوانين تحكم فيهم بما انطوت عليه . فان الحاكم اذا لم يكن له ميل الى أحد الجانبين لغرض كهذا الغرض الخبيث ، فلا يرى سبيلا ولا يجد من نفسه داعية إلا الى الحكم بالقانون . فان أخطأ ، فقد جعلت المجالس القضائية درجات ثلاثا يستأنف في كل منها النظر في القضايا من أي نوع

لانشك في أن سلوك طريق الاستقامة أهدى وأقوم وأفيد للعموم والخصوص وأحكم ، وأما تلك الطرق العتيقة فهي قريبة العطب شديدة الخطر لانرى لمرتكبها نجاة خصوصاً في هذه الاوقات التي أصبح بصر الحكومة فيها حديداً ومن توارى تحت التستر وقتا ظهر بعار الفضيحة في آخر نسأل الله الهداية والتوفيق لأرشد طريق

المقالة الحادية عشر

العفة ولوازمها (*)

سبق أننا أدرجنا في جريدتنا فصلا معنونا بالرشوة ووخامتها بينا فيه أن هذا الداء المميت لروح العدل ، المفسد لمزاج النظام ، أزمن في طباع الاهالي من زمن بعيد ، حتى ظنوه صحة ، وحسبوه حالا لازمة لهم ، وصاروا يعدونه من نوع المعاملات السائرة بينهم ، ويجازفون فيه بأموالهم مع عدم التبصر والتدبر ، وانتفاء الموجب والمقتضي ، ولا يقتصرون في أداء نقودهم وعروضهم لأرباب الوظائف (إن قبلوا منهم) على حالة الضرورة ، وربما يؤدون على طريق الرشوة مايساوي الحق المطلوب أو يزيد عليه ، وهذا يعد من سفه الرأي وقلة العقل ودناءة الطبع . وكان من الواجب على أرباب الحقوق أن يعلموا أن الوظائف ليست للموظفين مجانا ، بل كل متوظف فله مرتب على حسب أهمية عمله في وظيفته ، يصرف له ذلك المرتب من خزينة الحكومة ، التي هي خزينة الأهالي حقيقة . فلا حق لمتوظف أيا كان أن يأخذ (بارة) من أحد من الناس في مقابلة عمل من الاعمال ، بل كل ماأخذه فهو سحت . وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم « كل جسم نبت من السحت فالنار أولى به » أو كما قال . وقد أجمعت الشرائع الالهية على لعن الراشي والمرتشي ، وأطبقت القوانين السياسية والقضائية على وجوب العقاب والطرد ، والخزي واللعنة على كليهما أيضاً

غير أن كلامنا في ذلك الفصل لم يكن موضوعه أن الموظفين يتعاطون هذا الامر على العموم ، بل صرحنا فيه بأن من الحكام العفيف الذى ينهر راشيه ويبعده . وكيف يصح التعميم مع علمنا عين اليقين أن في رجال الحكومة وموظفيها الاعفاء المنزهين ؟ ولولا هم لما استقامت الاعمال ، وانتظمت الاحوال ، وهم معروفون بين الناس ، تشهد لهم أعمالهم ، وتنشرح صدورهم ، وتثني عليهم

* نشرت في العدد ٩٩٥ الصادر في ٢٤ المحرم سنة ١٢٩٨ - ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨٠

سرائرهم عند ما يحسون من أنفسهم الاستقامة ، وسلامة الذمة ، حتى كأني بالرجل العفيف منهم عند مايخلو بنفسه ، ويدخل الى مخدعه ، يحدثه ضميره وخواطره بأنه الرجل المستقيم ، الذي عرض عليه حطام الدنيا والنفيس من الذهب والفضة وربما كان محتاجا اليه ، ومع ذلك كف يده عن أخذه ، وترفع عن مد كف يد الخيانة لاستلامه ، حفظا لشرفه ، وصونا لقدره عن الانحطاط والسقوط من أعين العقلاء بل والسفهاء إذا ذكر عنه أنه ارتشى ، ومراقبة للأحكام الالهيه ، والعهود الانسانية . فعند مايرى لنفسه هذه المزية الشريفة يطير فرحا وهو وحده ، وتكون صداقته سميراً ومحدثا له ، ينسر بموافقتها وملازمتها ، ويتحكم في نفسه سلطان الافتخار ، الحق الذي لايعارضه فيه أحد فأمثال هؤلاء (الاعزاء الوجود) هم عماد الملك ، وقوام النظام . وإن دوائر حكومتنا متشرفة بهم ، بخلاف أولئك الساقطي الهمة ، الفاسدي الأخلاق ، الذين يقبلون مايقدم اليهم من أرباب الحاجات ، قليلا كان أو كبيراً ، أو يطلبون ذلك منهم بصريح أقوالهم ، أو بتعطيل أشغالهم ، إذ يقول الواحد منهم لصاحب الحاجة : إن شاء الله يكون قضاها . فاذا جاءه مرة ثانية قال : اذهب إلى غد ، فان جاء في الغد عبس في وجهه وقال : إن عندي أشغالا أهم من شغلك ، ونحو ذلك من المماطلات ، وصاحب الحاجة مضطرب الفؤاد ، حريص على نيل مقصوده . فان كانت فيه غفلة عن المعنى المقصود أخذ المتوظف يكني ويلوّح ويعرض ، حتى ينتبه الطالب الى الغرض ، فيبذل مايقصر به على نفسه مدة الطلب ، ولولا جهله مافعل . فهؤلاء الأشرار ، وإن استتروا تحت ذيل الحيل والخداع يوماً ، فلا بدّ أن تنشر في الجو روائحهم الكريهة ، وربما غضت عنهم الأبصار زمناً ، لكن لابد من نفوذ أشعتها اليهم في آخر اليوم فاذا أدركتهم كانت يد السطوة ضاربة على أبدانهم وأموالهم ضربة الحق التي لاتفلت ، ولعلهم بقبيح سيرتهم ، ومخالفتهم لمقتضى الطبيعة ، وشدة حرصهم على إخفاء هذا الأمر الشنيع ، تراهم إذا خلوا بأنفسهم يتذكرون ماصنعوا من الحيل لالتهام الأموال ، وأنها طرق غير منضبطة تحت قاعدة ، فربّ صاحب حاجة ذكي نبيه ، يشكو

أمره لمن فوقه ، وربّ رقيب من طرف الحاكم اليقظ يطلع على وجوه حيله ، وربّ ناقد بصير رأى صاحب الحاجة سائراً الى بيته ، وربّ حرّ غيور يبصر الهدية وهي طارقة باب منزله ثم يأخذ يعلل نفسه بأن تلك الاشارة كانت غامضة على الحاضرين والناظرين ، وذاك كان خفياً على المراقبين ، وهكذا تستولى عليه الأفكار السيئة ، والأوهام الخبيثة ، فيبيت مضطرباً خائفاً مرعوبا ، لكن شقاءه يحتم عليه الرجوع الى قبيح صنعه ، فخبث السريرة يكون بمنزلة منكر ونكير ، يحاسبه ويعاقبه على ما فرط منه ، خصوصاً وان قلبه وعقله في كل وقت يحدثانه بأن هذا مضاد للانسانية ، منافر للطبيعة ، إذ لولا ذلك لما حافظ على إخفائه كالسرقة والنصب ، بل يحرص على كتمانه أكثر من ذلك ، فان عاره أشد ، وجرمه أعظم ، وكفى بهذا عقابا وعذابا لو كان له عقل وبصيرة ، طهر الله من أمثال هؤلاء دوائرنا ، وقطع من الكون دابرهم

وإنه ليسرني ويملأ قلبي ابتهاجا ما سمعته من أن كثيراً من المتوظفين تكدروا من قولنا في ذلك الفصل ، على أني لأظن أن المتوظف وإن بلغ ما بلغ من الزهد والصلاح يمتنع عن أخذ ما يقدم اليه بطريق الرجاء ، خصوصاً مع ظهور الحق لصاحب التقدمة الخ ، خوفا على أنفسهم من الدخول تحت هذه الكناية ، فيمسهم ولو بطريق الوهم شيء من عار هذا الوصف الشنيع أعني أخذ الرشوة على أي وجه كان ، فان تكدرهم هذا برهان على نزاهتهم وعفتهم ، وحبهم أن لا ينتظموا في سلك المتصفين به ولو في مفهومات الألفاظ على وجه بعيد ، وهذا غاية في المحافظة على الشرف والنفرة من هذا النقص الذي موت الانسان خير من أن يتصف به ، لكني أقول : لو دققوا النظر لما تكدروا من هذه الجملة لوجهين (الأول) الاستثناء المتقدم في صدر العبارة والمفهوم من السياق (والثاني) أن منطوق جملتنا صادق فيمن يقدم اليه ، ويسكت حتى يحصل الرجاء ، وإنني أعلم أن العفيف لا يتجاسر أحد على أن يقدم اليه شيئاً متى اشتهر عنه ذلك ، ولو اتفق أن أحدا بذل له رشوة ولم يقبلها ، فلا يصح له السكوت عليها ، بل عليه أن يخبر في الحال جهة الاختصاص به حتى يعاقب الراشي ، وتضاف الرشوة

الى جانب الديوان ، فيكون بذلك قد برهن على استقامته بأجلى الأدلة وأوضحها . وأما إن سكت على ذلك ، واكتفى بالمنع من جهته ، فاني أراه موضعاً لقولنا في الجملة السابقة : فان كثرة الرجاء تلين الحديد اذا كانت في أمر يتكلف الشخص فيه مشقة . فما ظنك اذا كانت في اتصال منفعة الى المرجو ، وإنه ليعجبني جدا ما ذكر في قانون العقوبات من قوانين المحاكم ، الجاري عليها العمل في بلادنا في باب الرشوة منه ببند ١٠٧ حيث قال فيه : المتوظف أو المأمور الذي قدمت له أو أعطيت له عطية أودعه بشيء ما لأجل التوصل الى الغرض السابق ذكره (أداء عمل من أعمال وظيفته ، ولو كان العمل حقا أو لامتناعه عن عمل من الاعمال المذكورة ولو كان يظهر له أنه غير حق) ولم يخبر بذلك فوراً جهة الاقتضاء يجوز أن يحكم عليه بالعقوبات المقررة في حق الرشوة اه

على أن هذا الانذار لو لم يكن مثبتاً في القانون لوجب أن تثبته الذمة والغيرة فان من عرض عليه شيء على سبيل الرشوة اذا كان غيوراً وجبت عليه المبادرة بطلب مجازاة من عرض عليه لوجهين (الوجه الاول خصوصي) وهو الانتقام من الشخص الذي ظن السوء في هذا المتوظف ، بل جزم بنقصه وعدم شرفه حتى أقدم على إرشائه ، فهو حقيق بأن ينتقم منه (والثاني عمومي) وهو أنه اذا عوقب الراشي لسبب إخبار المتوظف ، وشاع ذلك بين الناس ، يقع الرعب في قلوبهم ويخافون من أن يقدموا شيئاً لمتوظف خشية أن يخبر كما أخبر ذاك ، فيقع الراشي تحت العقاب ، فيكف أرباب الحاجات عن البذل خوفا ، حتى لو مد المتوظف يده طالباً الرشوة لظن صاحب الحاجة أنها حيلة لايقاعه في الخطر ، هذا من جهة ذوي الحاجات . وأما من جهة أرباب الوظائف فانهم متى سمعوا أن فلانا أخبر براشيه ، وظهر اسمه ، وانتشر ذكره ، خصوصاً إذا ترتب على ذلك رفعة قدره ، اقتدوا به لينالوا مثل مانال في ظهور الشرف والفخار ، فيمتنعوا عن قبول الرشوة ، بل يتسببون في إضافة أموال جمة الى بيت المال ، ويقع التنافر والتسابق في فضيلة العفة والاستقامة . وقد بلغنا أن بعضاً من الموظفين أخبر الجهة الموظف من طرفها بما وقع من مثل ذلك ، لكن بمبالغ زهيدة ، ربما

يسمح بها الخاطر لاظهار العفة ، فينال شرفها بقيمة زهيدة ، ولم نسمع بأن موظفاً أخبر جهة عمومه بمبلغ وافر من تلك المبالغ التي كنا نسمعها ، وهي التي يعد التعفف عنها تعففاً حقيقيا ، ومع ذلك فانا نشكر المتزهد عن القليل والكثير

وربما يتوهم بعض ذوي الاستقامة أن في الأخبار ضرراً بالراشي وفضيحة له . فالستر عليه أولى ، فهذا الوهم خطأ صرف ، لأن الله تعالي جعل فى العقاب حكمة بالغة ، وهو ردع النفوس الشريرة عن الشر ، حتى يقل الشر أو ينقطع قال الله تعالى (ولكم فى القصاص حياة ياأولي الألباب) والمعنى أن قتل القاتل وإن كان فيه إعدام لنفس واحدة لكن يرتدع بسببه أشخاص كثيرون ، ربما كانوا يقدمون على قتل كثير من الناس، إذا لم يعلموا أن جزاءهم القتل، فترتب على قتل القاتل حفظ نفوس كثيرة ، فكان فى القصاص الذي هو موت حياة ، وأن الشفقة والرأفة على من استحق العقاب غير جائزة ، بل مخالفة لأمر الله . فقد قال فى سياق حد الزاني والزانية (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) وهكذا الذمة والالهام الالهي المودع فى طبيعة النوع البشري يرشدنا إلى ذلك أي أن الواجبات الانسانية تطالبنا بأن من اقترف سيئة تخل بنظام العدالة ، وتؤدي الى مفسدة عامة كالرشوة ، وجبت علينا المبادرة لطلب عقابه ، فان فيه صلاحا له بعدم عوده ، وردعا لغيره . وبالجملة فانا نؤمل من ذوي الاستقامة أن يكونوا قدوة للناس، ودعاة الى مثل أخلاقهم ، وذلك لا يكون الا بظهور آثارها وإجراء مايوجب التنافس فيها ، والمسابقة في ميدانها ، وان داء الرشوة وإن كان لاريب يظهر أثره على المبتلى به ، فيكون ممقوتا ، وإن اجتهد فى إخفائه باظهار عوارض أخرى يظنها تحجب ما انطوى عليه أو أخذ العهود والمواثيق على من يقدم اليه هذا السحت ، لكن لايظهر رسما على وجه مطرد حتى تظهر المجازاة عليه ، وتعرف عند العامة والخاصة ، فتتعود الأنفس تصور عاقبته الا بطريقة اخبار المتوظف عمن يرشيه ، فانها تظهر لنا شطر المقصود ، والمراقبة والتيقظ يظهران الشطر الثاني (عند عدم الاستقامة) وإنا نسأل الله تعالى أن يكثر فى بلادنا عدد هؤلاء المستقيمين النزهاء ، ويمحق أولئك المجرمين الأشقياء .

المقالة الثانية عشرة

القوة والقانون (*)

قبل الكلام على خصائص هذين الركنين لهيئة الوجود الانساني نريد أن نبين حقيقة كل منهما ليكون القارئ على علم بما يلقى اليه بعد ، فلا يخطئ الغرض، ولا يجاوز المرمى ، ولا تلحقه شبهة توقعه في ظلام الحيرة وغيهب التردد

أما القوة فلا نعني بها الا ما يستعمل لجلب الملائم ودفع المكروه ، سواء كان من شخص واحد ، أو جماعة متآلفة ، أو شعب من الشعوب ، أو أمة من الأمم ، وسواء كانت آلة تحصيل الملائم ودفع المعاند هي القوة البدنية مجردة عن سواها ، كما تراه في السباع الضارية ، والحيوانات الكاسرة ، أو هي منضمة الى السيوف القاطعة ، والآلات المحرقة ، وغير ذلك مما يستعمله الانسان في مواطن الغلبة والصيال

أما القانون فهو الناموس الحق الذي ترجع اليه الامم في معاملاتها العمومية وأحوالها الخصوصية ، وهيئتها النفسية أعم من أن يكون متعلقاً بروابط الممالك وعلائقها ، أو منوطاً بالسياسة الداخلية ، كالادارة المدنية ، والتدابير المنزلية ، أو باحثاً عن الأخلاق الفاضلة ، وما ينبغي ان يتحلى به الانسان منها ، وما يجب أن يبتعد عنه من أضدادها ، وسواء كان في أمة واحدة أو أمم متعددة

وهاتان الحقيقتان هما موضوع كلامنا الآن . أما القوة فكانت شرعة الامم الغابرة ، والشعوب السالفة ، وقت ان كان الانسان جبلي الطابع ، لا يمتاز عن غيره من أنواع الحيوانات إلا بالفصل المميز ، أعني قابلية النطق المجرد عن نور المعارف ، وشعار التمدن ، فكانت له الحاكم الفيصل ، يرجع اليها في تحصيل غرضه ونيل مطلوبه ، وباختلافها وتفاوتها اشتداداً وضعفاً ، وتقدماً وتقهقراً ،

(*) نشرت في العدد ١٠٣١ الصادر في ٨ ربيع الاول سنة ١٢٩٨ - ٧ فبراير سنة ١٨٨١

كانت يختلف الأمم وقتئذ فى الشرف والضعة والسطوة والفقر والغنى من غير نظر الى شيء من وسائل تلك الوجوه مهما كانت طرائقها ، فكان الرجل يمتاز بين قومه بصفة الاقدام والجراءة ، وكثرة السلب والنهب ، والبطش والفتك ، وكانت القبيلة التي هي أشهر القبائل فى هذه الصفات تعرف بالمجد الأثيل ، والشرف الباذخ ، والمكانة العالية ، فيدين لها مجاوروها ، وتخضع لسطوتها كل أمة قرع أسماعها ما هي عليه من علو المنزلة ، وشدة الأنفة ، وقوة الشمم ، وتساق اليها الهدايا من تخوم الأقطار وشاسع البلدان ، وتأتيها الغنائم أفواجا ، يقتادها رجالها الأبطال ، من ساحات الصدام والنزال ، ولم تزل الأزمان الغابرة محكومة بسلطان القوة ، تقلب الأمم على جمر الخوف والاضطراب ، وتضرب بصولجانها جراثيم القلوب الضعيفة ، تلقي بها فى مهاوي الذل والهوان ، حتى خضعت لها الأمم ، ودانت لها الشعوب ، وصارت هي الديان المسيطر علي كل شيء ، فاذا تمت لقوم تبعتها السلطة التامة ، والحكم المطلق ، فيتسلطون بقدر مكنتهم على ماشاء الله من الشعوب والقبائل ، ويتخيرون واحداً منهم سلطانا أو ملكا قد امتاز بالتهور والجراءة ، وجلالة المنظر والنضارة يملكونه زمام الحكم والسلطة . ثم ينتخبون من عشائرهم رجالا يعدونهم حفاظ الملك وأرباب النجدة ، والنصرة على العدوّ ، والعدّة لفتح الممالك والأمصار ، ويتسلطون بهؤلاء على بقية من هم تحت سلطانهم بالرهبة والقساوة ، لئلا يتملصوا من ربقته ، فيذعنون للمكهم قهراً لا طوعا ، وينظرونه مقتاً لا حباً ، ويحملون اليه الخراج وهم صاغرون ، وذلك دون مراعاة طرق عادلة ، أو أحكام مؤسسة على أصول المساواة ، واستعمال الشفقة والرحمة ، بل بحسب ما تقتضيه القوة التي سفكت الدماء ، وذللت الشعوب ، وانتهكت حرمات الأمم ، وسجنت حرية الانسان في مطمورة الرق والاستعباد

هذا ما ولدته القوة في تلك الأعصار الخالية ، التي كانت مشحونة بظلمات الجهالة ، مسربلة بجلابيب الغباوة ، مغمورة في بحار الوحشية . وما أظن تلك الشريعة المشار اليها كانت خاصة بأمة من الأمم ، أو صنف من أصناف البشر ،

بل كانت عامة بين أبناء الانسان على اختلاف أجناسه ، وتباين مواطنه ، فكنت ترى عامة القبائل وكافة الشعوب مقسمة الى ممالك متعددة ، وإمارات متباينة ، تجول فيها يد القوة ، ويحكمها مجرد الرهبة ، ويطويها الخوف ، وينشرها الفزع ، ويشملها الاضطراب والاختلال ، وتتبادلها أيدي السلب ، يبيت ضعفاؤها غير آمنين على أنفسهم ، ويصبح أقوياؤها غير مطمئنين على حياتهم ، فانبعثت في قلوب هؤلاء الأوزاع الذين ضربتهم يد السطوة بعصا القوة علة الضعف ، ودبت فيها سخائم الحقد ، فاختلفت الأغراض ، وتباينت المشارب ، وتفرقت القلوب ، وتنوعت وحدة الانسان الحقيقية الى أنواع ، لايجمعها سوى جامعة الحيوان الناطق ، وتبدلت فطرته السليمة الى أخلاق لامناسبة بينها وبين جوهره المقدس الشريف

ولقد تمكنت سطوة القوة في قلوب أولئك الشعوب ، وارتسمت صورها في مخيلاتهم ، وانسحبت معانيها الى ذاكراتهم ، وصارت محفوظة في خزانة حافظاتهم ، قائمة نصب أعينهم ، حتى توهموها مقلب القلوب والأحوال ، حافظ القوى والأكوان ، اليها مرجع الحوادث ، وعليها تدبير النوازل والكوارث ، فاحتسبوها المدبر في المكونات بأجمعها ، وصوروا تماثيل على صور مختلفة وأنواع متباينة ، تشير ظواهرها الى القوة ، وتؤدي هيآتها معاني العظمة والسطوة ، ووضعوها في أماكن عباداتهم ، ليؤدوا لها فرائض السجود والركوع ، ويقربوا اليها القرابين من نوع الانسان وأنواع الحيوان ، وهذه أصنام العرب والصين والعجم ، وآثار قدماء المصريين ، وآلهة اليونانيين ، المصنوعة على أشكال الحيوانات العادية ، والملوك العانية يشرح التاريخ أحوالها فلا داعي الى الاسهاب في تفاصيل شؤونها ، ومن تتبع تواريخ هذا الانسان الوحشي بامعان وتبصر ظهر له أن القوة هي التي دوخت قوى الانسان السلمية وبددتها وأحدثت به من القبائح ماأحدثت ، ولولا أن القانون كسر سورتها ، وذلل صعوبتها ، لما أشرق نور الحق على صفحات الوجود ، ولا تمتع الانسان في الازمان الأخيرة بلذة الراحة والسعادة ، فالحق للقانون لاللقوة

وبينما الانسان تائه في أغوار الاستعباد في هاتيك الازمنة أزمنة القوة والاستبداد ، والجور والعبث والفساد ، ليس له حق يصان ، ولا عرض الا ويهتك ويهان ، اذ أشرقت عليه قرائح الذين جادت بهم مراحم الفضل ، وعرفوا بمناهج الخير ، فأبصر من طلائع أفكارهم مايهديه الى سبيل الرشاد ، ويوقظ فكرته الى التماس الصواب من أبواب السداد ، فعلم أن القوة هي منحة جليلة ، ونعمة كبيرة ، يستعين بها على حاجاته الضرورية ، ولوازم معيشته المرضية ، قد عززها الله تعالى بالاتحاد والائتلاف ، حتى اذا عجز الفرد الواحد عن مالا طاقة له به من نفائس المطالب ، وجلائل الرغائب ، استعان بعشيرته ، ثم بقبيلته ، ثم بأمته التي يجمعها دين أو ملك ، ثم بجميع أفراد نوعه ، وأن القوة إن لم تكن على قانون لاتتعداه ، وخط لاتتخطاه ، بان استعملت على أي وجه وفي أي زمان أو مكان لاينال ثمرتها المحبوبة وغايتها المطلوبة ، فأسف على ما كان ، ونزع من رقدة الغفلة يحاول لها هذا النظام المعبر عنه بالقانون ، فكان نوراً يهتدي به ، وقائداً وشيداً يسلك بالانسان الى ماأهله له من الكرامة والنعيم ، فاتبع سبيله المهتدون ومال عن سنته الضالون

أما الانسان الذي ساعده التوفيق بالانقياد لأحكام القانون فانه حفظه باطنا وظاهراً ، وتمسك به غائباً وحاضراً ، حتى صار ركنا من لوازم حياته ، وعدة لمقاصده وغاياته ، وملهج لسانه في بكره وعشياته ، الى أن عرف به واجباته الحقوقية ، وفرائض معيشته العمومية والخصوصية ، وأمن به من مصائب الظلم ونوازله ، والجور وغوائله ، واطمأن به على نفسه وعرضه وماله ، فسكن قلبه بعد الاضطراب ، وقرت عينه برياض الامن والامان ، وتولد فيه أمل حمله على إدمان العمل ، فأعمل فكرته الخامدة ، وأجرى حركته الراكدة ، ولازال يرتاد مواطن العلم ومعاهده ، ويقتنص بحبالة الاستكشاف كل فائدة ، ويستعمل قواه في حل المبهمات ، ويستطلع ببصيرته ما خفي من مجهول الكائنات ، الى أن حداه العلم الى معترض الاختراع والابداع ، فطار على جناح البخار بدل الشراع ، واستخدم النار لقضاء الاوطار ، واستعمل البرق على بعد الديار رسول الأخبار ، وجعل

المدافع والقنابل ليبيد بها مضاديه ومعانديه ، وانغمس في النعيم مطعما ومشربا وملبسا ومسكنا ، إلى غير ذلك مما أتيح له من محاسن الحضارة ، ولطائف الرفاهة والنضارة ، ولا زال يضرب في تخوم البلاد ، ويذلل بقوة عزمه أخلاق العباد ، الى أن أصبحت البسيطة في قبضة زمامه . ولا غرو فان فائده الاتحاد والائتلاف ، وباعثه الوفاق لا الاختلاف ، وهو الآن كما بدأ يحافظ على القانون بانسان مقلته ، ويصرف في حراسته مايدخل تحت قوته ، فانه ملاك سعده ، وأساس مجده ، ومنتهى جده

أما الذي ضرب عن القانون صفحا ، وطوى عنه كشحا ، فهو هو على رذالة أخلاقه ، وبساطة أفكاره ، يصبح مضغة تحت أضراس الظلم ، ويمسي كرة لصولجان البغي ، فليحيي صاحب القانون على بساط النعمة الهني

فيأيها الذين ينحرفون عن القوانين ، ويعدلون عن طرق النظامات لغرور وقتي ، ارفقوا بانفسكم واعتبروا بمن يماثلكم في الصورة الانسانية ، وانظروا اليهم كيف عظموا القوانين ، ورفعوا شأن الحقوق ، فاصبحوا في غاية من القوة والعزة فانهضوا لمجاراتهم في الصدق إن كنتم تعقلون ، وإياكم والتمادي فيما تسوله النفوس من الاغترار بظاهر من السلطة ، فللايام تغلب وتقلب ، لكن صراط الحق واحد وسالكه لا يضل ، إن عثر يوما استقام أعواما . وأما طرق الاعوجاج فهي وعرة خطرة كثيرة الغوائل ، سالكها معارض لمدبر العالم سبحانه وتعالى في أحكامه ، فانه عز شأنه قد أقام الكون بنظام الحكمة ، ورتب لكل شيء حدودا هي سور بقائه ، وسياج دوامه ، فان خرج عنه انحدر الى مهاوي العدم والفناء ، ومن تأمل الكون الاعلى وما فيه من الكواكب والشموس والاقمار ، ثم نظر الى العالم الأسفل وما احتوى عليه من نبات وحيوان ، يشهد في الجميع لكل نوع منها قانونا خاصا في سير وجوده ، تقوم البراهين القاطعة على أنه لو انحرف عنه لحكم عليه سلطان القهر الآلهي بالعدم والانقلاب ، وأنه بباهر حكمته قد جعل للهيئة الانسانية حدودا عامة هي الشرائع وقوانين الآداب التي تحدد سير الانسان في معيشته الخاصة نفسه ، أو معاملته مع غيره ، وقد أودعها العلماء والحكماء بطون

كتب التهذيب والتربية البشرية بعد أن نطقت بها الشرائع الآلهية ، وقد شهدت التجارب بالاخبار المتواترة عن الأمم الماضية ، والمشاهدة الحالية في الاوقات الحاضرة ، أن من تخطى حدود هذه الحقائق رماه القهر الآلهي بسهام لا يخطيء مرماها ، فالقانون هو سر الحياة وعماد سعادة الأمم . وأن القوة لا تأتي بثمرتها الحقيقية إلا اذا عضدت باتباع الشرع والقانون العام الذي أقر العقلاء بوجوب اتباعه

فكيف يصح لذي شوكة أو صاحب سلطة أن يغتر بعد رؤيته هذه البراهين الباهرة بقوته ، أو يعجب بصولته ، ويدع الأمور لأرادته ومشيئته ، ويزدري ماللقانون من حفظ القوة ونمو الثروة في من هم تحت إمرته ، فيفعل ماتسول له نفسه ، ويأتي كل مايسوقه اليه حسه ، فيسري الاهمال في طبقات رجاله ، ويجارون حاكمهم في عوائده وأخلاقه ، وتصير الأموال لديهم مباحة ، والحقوق مبتذلة ، والاعراض منتهكة ، ووسائل الربط والضبط معطلة ، وعقد المواثيق والعهود محللة ، فيكثر فيها وليه غوائل الخسران ، وتنمو به جوائح البهتان ، حتى تصير أفراد المحكومين أخلاطا رعاعا لا فرق بين كبيرهم وحقيرهم الا بوفرة الشهوات ، والتمكن من وسائل اللذات ، مع توافق في الفطرة ، وتشابه في الغريزة ، ولا يطول عليهم ذلك العهد حتى يصبح الحاكم محاطا بجم غفير من الغرماء ، يتجاذبونه بايد طالما تقدته من خزائنها ماظنه نزراً يسيراً في جانب أسرافه وتبذيره ، وهو على كاهل الاهالي حمل ثقيل العبء لا تقدر أن تقله ، وتمسي عمارية البلاد تنعي محاسن صبحتها أربابها طوامس المعالم مظلمة الأطراف ، ليس فيها سوى نعاب البوم وهمس الهوام ، وحينئذ لا تسل عن العاقبة ، فانها أسر ونهب وبئس المآل

ذلك مايولده الغرور بالقوة والاعجاب ، بالسطوة وترك القانون الذي عليه سعادة العباد وخصب البلاد . فاذا أرادت تلك الامة التي تصرف ذوو البغي والغرور فيها على خلاف القانون أن تعيد لها مجدها الاثيل وعزها الاول ، فلا بد لها من إعادة شأن القانون فتشيد منه ماهدمته يد الغرور ، وبددته سطوة الفجور ، وتأخذ الوسائل النافعة لاستمالة قومها الى التمسك بعراه ، وتتابع رشده

وهداه ، ولا تبارح الحيل والتدابير لهذا الغرض ، وما كان أغناها عن الاصلاح بعد الافساد ، والتعمير بعد التخريب ، ولكنها باعت القانون بثمن بخس ، فكان جزاؤها أن تشتريه بنفوسها العزيزة ، ودمائها الشريفة، حيث عرفت ماهي القوة وهو القانون . ولنا في هذا الموضوع كلام يأتي بعد إن شاء الله تعالى .

(يقول جامع هذه المنشآت) ان إنشاء هذه المقالة أعلى من كل ما قبلها ، وان السجع فيها غير متكلف ولا ملتزم ، فارتقاء أسلوب الاستاذ كان سريعاً ولكن قد سبقه ارتقاء معارفه وأفكاره كما يرى القارىء من أول مقالاته

المقالة الثالثة عشرة

ما أكثر القول وما أقل العمل (*

إن من أخس الأوصاف وأدناها أن يقول الانسان مالا يفعل ، وأن يدل غيره على ماضل هو عنه ، وأن يعيب على الناس مالا يعيبه هو على نفسه، وذلك أن من كانت هذه صفته فهو جاهل من وجه ومعترف بنقصه من وجه آخر . وخبيث المقصد دنيء الهمة من الوجه الثالث .

أما جهله فلأنه اذا ادعى بما ليس فيه من علم أو فضل مع كون الناس لا يرون أثراً ظاهراً لعلمه أو فضله بمعنى أنه لم يؤلف تأليفاً نفيساً مثلا ينتفع به عموم الناس، ويعترف بنفاسته ما فيه العقلاء والمبصرون من أي أمة، ولم يكشف حقيقة، ولم يحل مشكلة، واعتقد أن سامعيه يصدقونه فيما يدعيه ، فقد جهل أن النفوس مجبولة على تطبيق المسموعات على المشاهدات وواقع الأمر ، فان لم تجدها مطابقة رمت بها في وجه قائلها ، فتنقلب دعواه مقتا عليه ، ويسقط من قلوب الناس أجمعين ، إذ لم يروا له أثراً

*) ونشرت في العدد ١٠١٢ الصادر في ١٤ صفر سنة ١٢٩٨ — ١٥ يناير سنة ١٨٨١

يفيدهم سوى أنه يخبر عن نفسه بأوصاف لاحقيقة لها ، وكذلك اذا أرشد الى غاية هو متوجه صوب ضدها . ويظن أن الناس يسترشدون بارشاده ، فهو لامحالة مطبق الغفلة ، مركب الجهل ، إذ لا يعلم أن الافعال تؤثر في النفوس أضعاف ما تؤثر الاقوال . فان القول عند النفس يحتمل التصديق والتكذيب ، فتتردد في مفهومه ، فلا يقودها الى العمل إلا بعد تكرار وتذكار . أما الفعل فهو أمر مشهور ينطبع فى النفس أشد انطباع ، فتندفع اليه خصوصاً إن كانت فيه لذة معجلة ، وإن عاب على غيره وصفاً هو موجود فيه ، فقد جهل أن ذكره لعيب الغير ينبه الاذهان للنقص القائم بنفسه . فان المتكبر مثلا اذا ذم الكبر في غيره ، فقد ذم نفسه من حيث لا يشعر ، فهو جاهل بنفسه ، وبما يعود عليها وهو ظاهر .

وأما اعترافه بنقصه وعجزه فلأنه لم يصدر منه ذلك أي الدعوى بما ليس فيه ، وترغيب الناس فى مالا يرغبه لنفسه ، أي فيما ليس بمتصف به ، بل هو منحرف عنه وماذكره لمثالب الغير وهي فيه إلا لأجل أن يبين للسامعين كماله وفضله ، يظهر لهم وصوله لما يهديهم اليه ، وخلوه من النقص الذي يلوم عليه الغير حتى يعظموه ويقوموا له بقضاء بعض حاجاته ، حيث علم أن الكمال الذي يدعيه هو مناط التعظيم وجلب المنافع ، وكأنه بذلك ينادي على نفسه بانه لم يبلغ من ذلك شيئاً ، لأنه لو بلغ الكمال الذي يدعيه لكانت نتائج ذلك الكمال ناطقة برفعة قدره ، شاهدة بعلو مقامه ، سواء ادعى ذلك عن نفسه أو لم يدع ، وسواء نقص غيره أو كمل ، ولم يكن هناك داع لمدحه لنفسه أو ذمه لغيره ، بل تكون آثار فضله فاعلة في النفوس جاذبة لها اليه بذاتها ، فمن تكلف الاطراء على نفسه بوصف من الأوصاف الفاضلة أو رام اظهار كماله بالحط من قدر غيره فذاك معترف بانه خال من الفضيلة حيث لم تشهد له الحقيقة ، فاضطر الى النداء بالكذب ليقنع السامعين بانه كذلك .

وأما خبث مقصده ودناءة همته فلأن من هذه صفته لا يريد أن يكون ذا فضيلة قط . ولا يبتغي الوصول الى كمال ، ولكنه يطلب عيشاً حيثما اتفق . فاذا جلس الى بعض البسطاء أو غيرهم طلب التلبيس على عقولهم ليقرر في نفوسهم

أنه بالصفة التي يذكرها عن نفسه أو يرشد اليها ، وأنه خال من العيب الذي يسب به غيره ، ليوقروه فيكتسب منهم مساعدة على بعض أغراضه الخسيسة أو يستفيد منهم حطاما يسد به بابا من أبواب نهمته وشرهه . فهو في ذلك بمنزلة المشعبذين أو المختلسين أو السارقين ونحو ذلك من كل ذي حيلة خسيسة لجلب الأموال . ولا يختلف عن هؤلاء الا بالاسم فقط حيث يقال إنه غش الناس بحكاية الكذب عن نفسه وهو المسمى في عرفنا (بالفشر ويقال لصاحبه فشار)

فالقول الذي لا يعضده الفعل يحسب من اردإ الأوصاف وأقبحها لأنه يشعر بوجود أوصاف تشهد البداهة بقبحها . ومن الأسف أن هذا الوصف يوجد في كثير من أهالي بلادنا ، بل في الغالب منهم ، بل لا يوجد القائل الفاعل إلا قليلا جداً (وإننا نخجل من تسجيل مثل ذلك في الجرائد . ولكن أي فائدة في إخفاء عيب فينا عرفه الغير منا، فحق علينا أن نذكر به لعلها تنفع الذكرى)

اننا إن طرقنا المجالس الخصوصية في بواطن البيوت والاندية العمومية في الاماكن العامة لا نعدم قائلا عن نفسه انه قرأ من العلوم معقولها ومنقولها وطالع الكتب العالية ، ووقف على المباحث الجليله ، وكشف بواطن الدقائق الخفية ، واستطلع الاسرار . وكان مع ذلك مشهوراً في زمن الاشتغال بالفطنة والذكاء ، وتوقد الفكر وقوة الحافظة ، ونحو ذلك ، وآخر يقول إنه بلغ من الاقتدار على الاقناع في الجدل ، والافحام عند المخاصمة ، وتفهيم الطالب عند الاستفادة، حداً لا يصل العالمون الى غباره ، وإن له من طرق الاقناع والافهام مالا يتيسر لغيره معرفتها، وإنه يحيي بكلامه الاذهان الميتة ، ويحشر اليها صور المعلومات ، ويودع فيها أسرار الكائنات ، ولو سألت كل واحد من الذين يظن فيهم وصف العلم والتعليم لرأيته يحدث عن ذاته بكل الذي قلناه ، ويقول لو كان الناس يسلكون هذا المسلك الذي أسلكه لانتشر العلم وعمت المعرفة

لكننا اذا رجعنا الى الواقع ونفس الامر رأينا أن التآليف والتصانيف مفقودة وإن وجد منها شيء كان ناقصاً إما من جهة المعنى وإما من جهة اللفظ بحيث لاتدل عبارته على ماقصد منه فيكون كعدمه . والطالبون للعلوم على

اختلافهم قاصرون عن إدراك ماأضاعوا عمرهم فيه . ودليلنا على ذلك احتياجهم دائما الى غيرهم وعدم قدرتهم على الاستقلال بعمل يعملونه في نفس العلم أو الصناعة التي تعلموها ، فتارة يحتاجون الى الاجانب وأخرى الى بعض من الوطنيين (وربما نبين هذه الجملة في وقت آخر)

ومن الناس من اذا ذاكرته في المنافع العامة والمصالح الكلية أخذ يشرح غوامضها ويبين الواجب فيها ، والطرق الموصلة الى جلب النافع ورفع الضار ، والوسائل المؤدية الى تقويم حال الأمم وارتفاع شأنها من رفع منار العدالة ، وبث روح العلم وتقرير المساواة وما شاكل ذلك ، ثم اذا فوض اليه أمر من تلك المصالح رأيته أبعد الناس عن الخير وأقربهم الى الشر ، واستنكف عن المساواة ، واستهجن معنى العدالة ، وإن كان يعبر عن نفسه بلفظها، وسار مع أغراضه وشهواته ، وجعلها قانوناً يتبع ، ويعد كل ذلك حقا ، وهو في درجة وعظه الاولى لم يخجل ولم يتلعثم له لسان في النصح ودعوى معرفة الحق ، ولو أن أحداً عارضه بحق في أي جزئية عقب ترغيبه في قبول النصح والمساواة لرأيته يتذمر ويتضجر ، ويود أن يفتك بمن يناقضه في بعض آرائه ، ويهدي اليه نصحاً في بعض أعماله

ومنهم من يقول ان كل مصيبة ألمت بالنوع الانساني لم يكن منشؤها الا التباغض والتحاسد ، وتفرق الكلمة والميل الى المنافع الشخصية، وعدم الاكتراث بالمنافع العامة ، ونحو ذلك من الاقوال الصحيحة المسلمة . ولو أنك لاقيت كل يوم ألف شخص لرأيته يقر بذلك ويعترف به مدعياً أنه يميل في كل الميل الى الاتحاد والائتلاف . وانما تأتي النفرة من غيره ، ثم لو أتى اليه مطالب بحق في وقت المذاكرة لرأيته يعد هذه المطالبة أمراً كبيراً ، وإن كانت بغاية من اللطف والانسانية ، والتوى من الغيظ التواء الثعبان . ولو دعي الى اغاثة ملهوف أو ازالة مكروه عن بعض اخوانه أو الداخلين تحت أمرته رأيته يتعالى ويتعذر . أو يتمنع ويستكبر ويقول : ليس هذا من خصائصي : ولو طلب الى تأسيس أمر خير يفيد الزراعة أو الصناعة ، أو يساعد على التربية الحقة ، وجدته يستصغر ذلك

ويسفه آراء الطالبين ويقول : ماذا يعود على شخصي من ذلك ومالي وللعامة؟ دعهم في شأنهم يرزقهم الله من غيري. كأن جنابه يظن أن المحبة والاجتماع والالفة التي يدعيها ويميل اليها يجب أن تكون له من الغير لافي مقابلة منفعة ، ولاجزاء لدفع مضرة ، بل لابد أن ينفعه الناس وهو لاينفعهم ، وما أجهل أمثال هؤلاء السفهاء وأضل رأيهم (ومن العجيب أنهم كثير جداً)

ومنهم من يرشد الى العدل ويدعو الى الانصاف . ولكن اذا عرض له حق في طريق منفعة خاصة له داس الحق برجله طلبا للوصول الي غايته . وكأنه يعد ذلك من طريق الانصاف الذي يدعيه ، أو أضرب عن النصح والارشاد الى وقت آخر

ومنهم من ينتقد على الظلمة ومرتكبي الجرائم ، وفاسدي الادارة ، وسيء التدبير ، ثم تراهم واقعين فيما ينتقدونه على الغير ، كأن محل الانتقاد أن يكون الفعل صادراً عن سواهم ، وأما اذا كان صادراً عنهم ، فقد اكتسب الحسن من ذواتهم المقدسة . فامثال هؤلاء الذين ذكرتهم لا يعرفون في العالم قبيحاً ولا حسناً ، ولا صحيحاً ولا فاسدا ، وانما هي ألفاظ ورثوها نطقا ولم يتفهموها حق الفهم ، وألفوا استعمالها في مواقع مخصوصة ، فهم يستعملونها كما سمعوها بدون أن يعلموا لها حقيقة ، أو يقفوا لها على مرمى وحقيقة أمرهم أنهم جهلاء أنذال عديمو الشرف الانساني حقيقة ، ووجودهم في الهيئة الاجتماعية شؤم عليها ، وهم في رتبة الحيوانية الاولى لايعترفون بالحقائق الثابتة ، بل لايرون حسنا الا مايصل الى احساساتهم الظاهرة من اللذائذ الوقتية . فاذا مضى وقتها ذهلت أذهانهم عنها ، ولايتنبهون لحسنها الا اذا وردت عليهم مرة أخرى وهكذا . ولا يرون قبيحاً الا مايصل الى ادراكاتهم من المؤلمات الوقتية كذلك ، فاذا زال ألمها غفلوا عنها كأنها لم تمسهم . فان رأوها لاحقة بغيرهم لم يعدوها مؤلمة ، ولم ينظروا اليها نظر الاسف المستنكر ، فيختلف عندهم حسن الشيء وقبحه بالاضافة الى أنفسهم تارة والى غيرهم تارة أخرى . وليس عندهم صورة ثابتة لماهية الحسن وماهية القبيح ، ولا حقيقة النافع أو حقيقة الضار ، وانما هي أهواء وهم يعبرون عنها بالالفاظ المطنطنة

كالمصلحة العامة والمنفعة العمومية ، والخفرق الوطنية ، وما شاكل ذلك من المحفوظات الخالية عن المعاني يلوكونها بألسنتهم ، ومع ذلك فهم لا يسلمون من شر ما يقولون وما يفعلون ، فجهلهم لامحالة يعود عليهم بعاقبة بئس العاقبة

ولكنا لانحب ذلك ، ونود أن يكون الفعل أكثر من القول ، وأن يكون كل شخص من أبناء بلادنا صغيراً كان أو كبيراً مجداً في نيل الفضيلة الثابتة ، التي يلهج بتحسينها وإجراء مقتضاها ، حتى تكون بذاتها شاهداً عدلا على أهلية صاحبها لما يقول : وتنتشر الأعمال الصالحة المنطبقة على الشرائع والقوانين ، فتسير المصالح على صراط مستقيم ، وينال كل شخص حظه الحقيقي من ثمرات أتعابه الآتية على وجه منتظم ، فيعود النفع على العامة والخاصة . وأما الفخفخة وكثرة اللغو فانها من شدة العجز لاتعيد ولا تبدي. وسنعود الى هذا الموضوع مرة أخرى عند الفرصة إن شاء الله

المقالة الرابعة عشرة

منتدياتنا العمومية وأحاديثها(*)

وعدنا فيما سلف بنشر ما ألفناه من الأحاديث وما عكفنا عليه من الأقاويل في مجامعنا الاعتيادية ، ومحافلنا المتتابعة ، مما هو عقبات في طريق تقدمنا ، وظلمات متكاثفة في وجه إنتظام هيئتنا الاجتماعية ، وحواجز دون الوصول الى محجة الرشاد ، وانتهاج خطة السداد ، وإن خاله الكثير منا تمدنا ، وزعمه السواد الأعظم من شعار الأدب ، وعلائم الذوق والترف . وقد أردنا الآن أن نتكلم على هذا الموضوع ، وفاء بما وعدنا فنقول :

إن أحاديث الأمم تدور على محور أفكارها ، إذ اللسان هو المترجم عما يختلج بالضمير من الصور المحفوظة والمعاني المتخيلة على اختلاف أشكالها ،

(*) نشرت في العدد ١٠٤٣ الصادر في ١٠ ربيع الاول سنة ١٢٩٨ — ٩ فبراير سنة ١٨٨١

وتنوع فنونها . فباختلاف صنوف البشر في المعارف والأمزجة ، تتباين مفاوضاتها وأحاديثها ، وتتشعب مجادلاتها ومحاوراتها ، وان تواريخ الأمم الغابرة ، وحوادث الملل الحاضرة ، لترشدنا الى ذلك بأجلى بيان . فهذه الامة العربية في صدر الاسلام وقبيله ، لما مال عنصرها الى التحبب في خلق الجرأة ، وحملتها شهامة النفس على الجولان في ميادين الغزو والفتوح ، قصرت أحاديث رجالها على ما يتعلق بحرب ماضية ، ومعركة آتية ، تعقد مجالسها على ذكر جياد الخيل ومحاسنها ، شارحة معايب الأقواس وأوتارها ، منتقلة الى الكلام عمن اشتهر من رجالها بالاقدام والظفر والبسالة والانتصار ، وقصائدهم الشعرية مشحونة بأوصاف الحماس ، وخطبهم النثرية موقوفة على مدح النزال والبراز ، وبقيت هكذا أحاديثهم ، الى أن ضعفت تلك الحواس ، واستعيض عنها بالميل الى الراحة والانغماس في النعيم ، فتولد فيهم من ذلك المحبة والعشق ، ولهجت شعراؤهم بأوصاف الغزل بعد الحماس ، وبنعت الحاجبين والخصر ، بعد الاسهاب في وصفي القوس والوتر

وهذه أمة اليونان لما كانت ديارها مهد الحكمة ، ومطلع شموس العرفان ، دارت أحاديث قومها في المجامع على تحديد العلوم ، وتبيين مهايا الأجناس والفصول ، يطلب الواحد منهم منزل صديقه ليتحاور معه في كيفية انتاج الأقيسة المنطقية مع تغاير أشكالها ، فيطول بينهما الحديث ، وهما بين مثبت وسالب ، ومعترض ومجيب . وهذا في حال كون المجالس الاخرى غاصة بجماهير النبلاء فئة تغوص في البحث عن أمزجة المواد وعناصرها ، وأخرى تطلق عنان اللسان لاستكناه حركات الأفلاك ومراكزها . فاذا عقدوا عزائمهم على المزايلة والانصراف ، ودعتهم أوقات أحاديثهم ، شاكرة لهم على ما أودعوا فيها من تقرير المسائل ، وإماطة الحجاب عن كثير من المشكلات والمعضلات ، واستقبلتهم الأيام بوجه باش وثغر باسم ، فرحة بما سيكون لها في بطون التواريخ ، مرسوما بمداد الثناء على صفحات الأعصار والدهور ، لما ستبرزه فيها أفكار هؤلاء القوم الى عالم الوجود من المطالب العالية المؤيدة بالبراهين الصحيحة والحجج السديدة ،

وهذا مع محافظتهم وقت المحاورة والجدال على رعاية الآداب ، وحرمة قوانين المباحثة

وهذه أمم أوربا تشعبت مجالسها ، وتنوعت مواضيعها ، تحمل الينا الجرائد من أخبارها ما لا نكاد نصدقه ، لولا علمنا بوفرة معلوماتهم ، وكثرة مخترعاتهم . فيوماً نسمع بأن ذوي الشركات التجارية اجتمعوا للمداولة فيما يلزم اتخاذه لإنشاء بنك مالي ، يكون مركزه فى احدى الممالك الاسيوية مثلا ، فتطول بينهم المخابرة فى ذلك ، ويعلو صوت الخلاف بين أعضائها ، فمنهم من يرجح إنشاءه فى الأملاك الفلانيـة من تلك القارة ، محتجا بأن فلاحي تلك الديار يقترضون النقود بفوائد باهظة لاحتياجهم وشدة فقرهم ، فتكون الثمرة أجزل ، والربح أوفر ، مما لو أنشيء هذا البنك فى احدى الديار الافريقية التي أصبحت لخصب تربتها ، ووفرة حاصلاتها ، وأخذ الأموال الأميرية منها بتقسيط عادل لاتحتاج الى استقراض من مالنا ، بل ربمـا اذا دامت لها هذه الحال يتوفر لها كثير من ايراداتها التي تقتدر بها على انجاز مشروعات عمومية ، حتى تصير بذلك معادلة لأعظم ممالك أوربا فى الثروة واليسار ، فيجاوبه الآخر قائلا : ان الأجدر بنا أيها الشريك أن نعدل عن انشائه فى أي مركز من مراكز آسيا مطلقاً الى اتخاذه بديار مصر . وأما ما قيـل من أن تخفيف الضرائب عنها مع حسن تربتها وكثرة ايراداتها يجعلانها غنية عن الاستقراض ، فذلك انما يكون لو رجع فلاحها عن سرفه وسفهه ، والا فما دام على هذه الحال فانه يكون أبداً مثقلا بديوننا ، يقرع أبوابنا آناء الليل وأطراف النهار ، ولو أثمرت أرضه ذهباً ، وعوفي من جميع الضرائب سرمداً . فانه على ما يقال رهن عند أحد البيوت فيها مايجاوز العشرين في المائة من أطيانها ، تأمينا على ما أخذ منه من النقود في مدة لاتزيد عن العام كثيراً . فيستحسن الحضور بيانه ، وتختم الجلسة بالعزم على الشروع فيما قصدوا ، ليدركوا من الربح مثل من سلفوا

وبينما هم كذلك ترى فئة أخرى تتروى في مد سكك حديدية في احدى الايالات المشرقية : وإنشاء أسلاك برقية فوق البحار وتحتها تسهيلا للمواصلات التجارية ، وإحكاما للعلاقات الدوليـة . وأخرى مجتمعة لتتخير من بينها نبيلا

يكون رسولا من قبلها عند رجال إحدى البلاد ، فيعقد معها شروط التزام مصالح عديدة ، وأراضي فسيحة ، ومياه عذبة ، ما كانت أهل تلك الديار في حاجة الى التزامه .

وترى على مقربة من هذه الفئات جماهير متألبة ، وجماعات متضافرة ، يحسنون صنع الخطابة ، ولا يجهلون تاريخ الخلقة ، يقلبون العالم بين أصابعهم ، ويقطعون وجه البسيطة في أقل من لمح البصر وهم جلوس يتحادثون ، يعينون أوقات الفرص الملائمة للاستيلاء على تلك الجزيرة أو هذه الامارة ، أو ذلك الأقليم ، يستطلعون الرسائل المتوالية الورود من أبناء جلدتهم المنبثين في أنحاء المعمورة لاستكشاف خبايا القبائل والشعوب التي هم بين ظهرانيهم يذللون المصاعب ، ويمهدون طرق الاستيلاء والفتوح . ونحن عن كل ذلك غافلون ، نواصل الليل بالنهار في اللهو واللعب ، بلغت منا الخرافات والهذيانات مبلغاً جسيما حتى استحوذت علينا فأنستنا ذكر الحقائق النافعة والمصالح المهمة . وصارت تلك الأخلاط الفاسدة كملكات للنفس يتعسر زوالها الا بذهاب الأرواح والأشباح، تعقد عندنا المجالس ولكن على ذكر أنواع الخمور والمسكرات، يطرب المجتمعون فيها بذكر أوصاف الغيد الحسان . ويصرفون ثلثي الليل على قهاويهن (كذا اصطلح . والا فهي مواضع رجس ودنس) يشربون فيها من المواد الممزوجة بالعقاقير المسمة قدراً لاتسوغه طباع الوحوش الضارية ولا الاسود الكاسرة . وفي خلال ذلك يتشاقون ويتخاصمون حيث إن كلا منهم يفضل مألوفه من ذلك على مألوفات أصحابه ، ويعدد أوصافه ، ويذكر محاسنه . ويشرح مزاياه: من حورعيون ، ورقة خصور ، وعذوبة منطق، وما شاكل ذلك. ويحتج عليه بأن فلانا لا يبيت في ذلك المخدع . ولا يطأ ذلك الموضع حتى يدفع عشرين أو ثلاثين جنيهاً وما شابه ذلك . والآخر يناقضه وينافسه ويروم اقناعه في مقام الجدل . ولا يروق لهم الحديث الا اذا انتقلوا الى القذف في شرف من بينه وبينهم جامعة ديوانية، أو علاقة مجاورة منزلية . أو لا هذه ولا تلك . وانما هدتهم شهرة ذكره الى معرفته . فيرمونه بالجبن وعدم الذوق لكونه نزيه النفس

يأنف من سلوكهم، ويرمونه بغلظ الطبع والتقشف ويسمونه (نطعاً) وهم في خلال ذلك يهزؤن ويسخرون ويضحكون بصوت جهوري (ولا يبكون وهم سامدون) يتبارون في ميادين البذاء، واستحضار كل ماقبح وخبث من الألفاظ، وهو المسمى عندهم (تنكيتاً) فقسموا الألفاظ العرفية أبواباً وفصولا ليستعملوها في هزلياتهم السخيفة، حتى كثرت الفصول وتنوعت المواضيع، واذا تبارى اثنان منهم في باب منها استداما ساعة أو أكثر، وهما مع الحضور في خلال ذلك يرفعون أصواتهم بالضحك المزعج، فمن عجز منهما قبل صاحبه أوسعوه توبيخاً وصفقوا للمنتصر اعلانا بظفره، وأجلسوه مكانا عليّـا، ويسمونه المعلم الماهر، وهذه فئة غير قليلة في المدن، وأكثرها من أبناء الأغنياء عديمي التربية

وأما مجالس ذوي الكمالات من أهل المدن، فانها ان اتفق وتجردت عن الحديث في منكر، فهي لاتخلو عن حشو، فانه على الأقل لابد أن يتشرف المجلس ولو زمناً قليلا بحلول الغيبة أو النميمة المرافقتين لنا، مراقبة الشخص لظله الا اذا سمحت الصدفة، وكان زمن المجلس قليلا جداً لايسع سوى التحية دون ردها، وأنهم لن يستطيعوا أن يبرهنوا على خلاف ذلك، فاني قائل: اذا لم يجلسوا مستديمين الصمت، ومنصرفين كذلك، فبماذا ينطقون؟ هل ينطقون بعلم شرعي وقد جهلوه أو تجاهلوه؟ أم بعلم صناعي وقد عادوه، أم فن طبي وقد تناسوه، أم حديث عن منفعة عمومية وقد أغفلوها، أم استفسار عن حوادث سياسية وقدزعموا الاشتغال بها عبثاً. فاذاً لاسبيل الا الاشتغال بألعابهم المعتادة كالشطرنج والنرد (الطاولة) وغيرهما من أصناف الملاعب، وإنها دون ريب لتحملهم الى أسوأ ممـا فروا منه كما هو مشاهد. نعـم يوجد بيننا بعض الأذكياء الذين يتحدثون عن المعارف والسياسة، ولكن فضلا عن كونهم نزراً يسيراً، فان أعمالهم غير منطبقة على ما يقولون، لكونها جملا حفظوها من غير أن يعقلوا لها معنى، أو لكونها أموراً اجمالية ضيقة المجال لم يبحثوا في تفاصيلها هذه هي المجالس المنزلية

وأما المجالس التي تعـقد على قهاوي الشـعراء أو الحشاشين المحرفين فلا

نستطيع تفاصيل ما فيها من العجائب والأحاديث الجنونية لكثرتها ، وتشعب مسالكها ، سيما حديثهم فيما يتعلق بالجن والشياطين ، أو خرافات المعاتيه والمجانين ، كما اننا نكتفي في الكلام على منتديات الأرياف بأنها وإن قيل فيها ما يتعلق بالزراعة ومصالحها . ولكن لا تخلو من كلمات تدل على تمكن الحسد والحقد في أفئدتهم ، وأن العداوة والبغضاء راسختان في ضمائرهم ، بحيث يعسر زوالهما ، وهذا مع مساواة غالبهم لأهل المدن في البغي والفجور ، وأن بعض عمد البلاد أسوأ حالا وأقبح عملا من أهل المدن كما هو معروف

فهذه أحاديثنا في مجالسنا ، وتلك أقاويل غيرنا في مجامعهم ، سردناه لذوي النقد والبصيرة ، معرضين عن كثير مما نتفوه به وقت اجتماعنا ، ولعلنا نذكره وقتاً ما ، اذا رأينا لهذه البزرة أوراقا يانعة ، وثماراً طيبة . فيقوى فينا ضعيف الأمل ، ويحيي ميت الرجاء ، ونشمر عن ساعد الاجتهاد ، ونطلق لسان العظة داعين الى طرق النجاح . وإنا لنخشى أن تقابل هذه الجملة بمثل ما قوبلت به أخواتها من قبل ، كأن يقول زيد : ما كتبت هذه الجملة الا للتنديد على أقوالي ، ويظن مثله عمرو ، فيصرفونها عما وضعت لأجله من خالص النصح ومحض الارشاد من غير أن تناط بشخص مخصوص أو فئة معينة . فالملحوظ فيها كسابقاتها الخلق من حيث تعلقه بالأفراد أيا كانت كما هو الشأن في جميع المواعظ والنصائح العمومية ، لا المرء المخصوص المتصف بتلك الأخلاق حتى تكون تنديداً وطعناً . فعسى أن لا نسمع بعد بمثل تلك التصورات من أحد من الناس . ويعلموا أن ما كتب وسيكتب صادر عن نفوس تسعى في تهذيب الأخلاق ما استطاعت ، ويسرها أن ترى أبناء الديار رافلة في حلل من الكمالات ، متحلية بالعزة والفخار ، حقق الله آمالنا ، وختم لنا بحسن مآلنا

المقالة الخامسة عشرة

ميل الانسان الى الزواج (*

وعدنا في أحد أعدادنا الماضية أن نتكلم في المصائب التي عرضت من تزوج النساء المتعددات عند مخالفة حكم الشرع في أمرهن . فالآن نوفي بما وعدنا ، بادئين بتمهيد نتبعه بالمقصود فنقول :

لما كان من لوازم حفظ النوع الانساني المعرض للفناء والزوال التناسل والتوالد ، أودع الحق سبحانه في طبيعة الانسان قوة شهوية تدعوه الى الاقتران ، وتحمله على طلب الازدواج كسائر أنواع الحيوانات

غير أن الانسان يمتاز عن سائر الحيوانات بقوة مذكرة ، يستحضر بها ما شهده في الماضي ، فيطلبه إن كان لذيذاً ، استحصالا لمجرد اللذة ، وله حرص بالطبع على المدافعة عن كل ما يروم جلبه لنفسه من أن تمسه يد الغير ، ويدافع عنه ما استطاع كل من حاول مشاركته فيه . ثم إن هذا التمييز العقلي دعاه لأن يطلب من الأزواج ماهو أبهى في المنظر ، وأنعم في الملمس ، وأسلم من الآفات والمشوهات ونحو ذلك ، فلا يسمح لأحد بمقتضى الحرص الذي نسميه غيرة أن يشاركه فيه ، ويدفع ذلك بكل ما يمكنه ، حتى القتل والجرح ، وهذا بخلاف باقي الحيوانات ، فانها وإن كان يغار ذكرها على أنثاها وقت طلبه لها ، لكنها لحيظات وتنقضي ، فاذا سافدها انقضت الغيرة بانقضاء الشهوة . والانسان لفكره ليس كذلك ، بل يلازم الحرص في جميع أحواله خوفا على المستقبل

ومن المعلوم ان تلك القوة وهذه الخواص منتشرات في جميع الأفراد البشرية فكل واحد منهم يطلب صرف شهوته مع من اتصف بالجمال وسلم من الآفات، حالة كون كل واحد منهم يطلب الاستئثار به ، ويدافع الغير عنه لما

---

*) نشرت في العدد ١٠٥٥ الصادر في ٧ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨-٧ مارس ١٨٨١

قدمناه من الأسباب ، وزد على ذلك ان الانسان في حاجة إلى التعاون بالضرورة وهو في فطرته لاينظر إلى التعاون بجميع أفراد الانسان فلا بد له من تعلق خاص يوجب عقد التعاون الخاص ، فلو ترك الانسان مسترسلا مع شهوته من غير ان تقيد طرق استعمالها بقانون يحفظ ثمرتها ، ويكفل سلامة نتيجتها ، لاختل عقد نظام الانسان ، وفسدت أركان سعادته ، ولم يصن وجوده عن غائلة الزوال وعاديات الفناء ، وذلك من وجوه :

(الأول) ان النسوة اذا أبيحت لكل ذكر من الرجال ، وأبيح لكل أنثى ان تقترن بكل زوج في أي وقت لاشتعلت نار الغيرة في أفئدة كل واحد من البشر ، وسارع كل إلى مدافعة من يروم الاشتراك معه ولو أدى ذلك الى سفك دماء الطالبين والطالبات

(الثاني) ان المرأة عاجزة بالطبع عن القدرة على جلب لوازم معيشتها ودرء المكروهات عن ذاتها ، خصوصاً في أزمنة الحمل وعقب الولادة وسني الرضاع ، وما لم يعلم الرجل اختصاصه بها لايسعى في القيام بحاجاتها ، والمدافعة عن حقوقها فتضيع وتضيع ذريتها

(الثالث) وهو أعم من هذا : أن الرجل لايخاطر بنفسه في تحمل الأتعاب واقتحام الشدائد ، طلباً للحصول على وسائل المعيشة ، إلا اذا رأى صبية وعيالا هم عالة عليه في أمور معيشتهم ونوال مآربهم ، يؤدي اليهم ما استطاع من الرزق وقت قدرته ، مؤملا فيهم أنه اذا وهنت قواه بعد عنايته بتربيتهم اذا كبروا ، يعوضون عليه أتعابه السالفة ، وتسوءهم مصيبته ، ويفرحون بثروته وسعادته ، بل لو لم تكن له زوجة وذرية تختص به ، وتعد نسبته اليها كنسبة الجسد للروح ، لما أمكنه الادخار لنفسه من قوته . فان ادخار العيش الذي هو من لوازم الانسان موقوف على عناية الزوجات والأبناء ، وتوجه القلوب منهم الى مساعدة هذا الكاسب العاني ، فهو يجتهد للايجاد ، وهم يهتمون بحفظ الموجود ، وكل ذلك مفقود اذا اختلطت الأنساب ، وجهلت الأصول ، بل لو اختلط النسب لم تتوجه همة رجل للسعي في تربية ولده فيستأصل الموت أفراد النوع في أوائل أعمارهم

فظهر من ذلك أن سعادة الانسان في معيشته بل صيانة وجوده في هذه الدار موقوفة على تقييد تلك الشهوة بقانون يضبط استعمالها ، ويضرب لها حدوداً يقف كل شخص عندها ، وتوجب الاختصاص بين الزوج والزوجة فيمتنع التعدي ، ثم يظهر منه التعلق الخصوصي بين كل شخص وزوجته ، وكل زوجة وبعلها ، فيسعى كل لخير من اختص به حيث إن سعيه لكل البشر غير ممكن ، بل هو بعيد عن الافكار البسيطة الغالبة على أفراد النوع البشري ، وقد أتت الشرائع المنزلة بما يكفل هذا الأمر . وإن اختلفت مظاهره بالنسبة الى اختلاف طبائع الأمم لما طرأ عليها من تقلبات الاجيال والاعصار ، ولم تبح للرجل أية امرأة يريدها الا اذا كانت خالية عن الازواج وتيقن فراغها من الحمل وخلوها عن جميع الموانع التي تخل بهذا الاختصاص وطاب العقد عليها والاجابة منها ، أو وليها بالقبول بمحضر جماعة من الناس تذيع هذا الأمر لتكف الناس عن ارادتها اذا علموا أنها خصت برجل يقوم بحاجاتها ويدرأ عنها أي مكروه، وأمرت الطرفين بحسن المعاشرة ، ونهت عن ارتكاب أي أمر يخل بنظام الاجتماع المنزلي الذي لا تتم سعادة العائلة الا برعاية حرمته والمحافظة على حقوقه، كالقيام بواجبات وحاجات كل واحد من أفرادها، وحسن الاقتصاد في المعيشة ، وأن ينظر كل واحد الى مصلحة العائلة نظره الى مصلحته الخصوصية ، وبعبارة أظهر ليس عنده أمر يعد مصلحة الا اذا كان يوجب لعائلته الثروة والتقدم ، وينقلها من خطة الشقاء الى درجات السعادة والهناء

فتبين من ذلك أن الشهوة الحيوية المغروسة في الانسان لم تكن مقصودة لذاتها بل هي آلة لنيل الانسان مآربه التي لا يستطيع المقام بدونها، كبقائه في عالم الوجود يتعاون على جلب المنافع ودفع المكروه بزوجته وأولاده وأخيه وعمه ونحو ذلك ممن ارتبط معه بالرابط المعروف بصلة النسب والقرابة الذي يعد من اقوى الروابط الانسانية التي لولاها لاختل نظام الوجود الانساني بالمرة كما هو ظاهر، ولما كان التعاون على المصالح المعاشية والاتحاد والتآلف وجمع الكلمة من ثمرات الزواج لم يبح بالاجماع أن يقترن الرجل باخته أو عمته أو ابنته لأنه يضيق تلك

الفوائد ويقلل من الثمرات فضلا عن كونه في نظر الاطباء يوجب العقم وانقطاع النسل . فلذلك أوجبت الشريعة أن يكون الزواج من عائلتين ليحصل الارتباط بينهما بعلاقة المصاهرة بل لا بد أن يقع الاقتران من بيتين (١) ليجتمع العائلتان على مصلحة واحدة وتصيران بالمصاهرة كجسم تعددت أعضاؤه فيقوم كل عضو بما فيه مصلحة الكل وتتجاذب صلات المصاهرة ورابطة النسب مصالح القبائل المتفرقة وتجعلها متجهة الى كعبة الاتحاد والائتلاف ، فيستريح الناس من ألم الشقاق ، ووخامة البغض والعناء . وأما العائلة الواحدة فيكفي في ارتباطها العلاقة النسبية .

هذا ما أتت به الشرائع ونطقت به علماء الدين وأوضحته العقلاء في حكمة الزواج والاقتران بقطع النظر عن كونه بواحدة أو متعددة اقتصرنا عليه الآن وسنشفعه في صحيفة غد ببيان ماجاءت به شريعتنا من إباحة الزواج باربع من النسوة وجواز مفارقتهن بالطلاق مع بيان ماكان عليه السلف الصالح في معاشرة زوجاتهم وما نحن عليه الآن من سوء معاشرتهن وعدم العدل بينهن وحصول ضد المقصود إذ يكون الزواج موجباً للعداوات وتفريق الشمل بدلا عن المحبة وجمع الكلمة كما أوجبته الشريعة . وليس لنا غرض من ذلك سوى تبيين الحق وتوضيح الصراط المستقيم .

(١) لا ندري أكان الاستاذ (رح) يفرق بين كلمتي البيت والعائلة في هذا المقام أم يعدها مترادفين ولاحد كل منهما وحكم الشريعة في الزواج من غير الحلال من الاقارب الاستحباب عن الاكثر بل ماروي فى الاغتراب في النكاح والنهي عن القريبة لايصح مرفوعا بل هو أثر عن عمر (رض)

المقالة السادسة عشرة

حكم الشريعة فى تعدد الزوجات (*

قد أباحت الشريعة المحمدية للرجل الاقتران بأربع من النسوة إن علم من نفسه القدرة على العدل بينهن ، وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة قال تعالى (فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) فان الرجل اذا لم يستطع إعطاء كل منهن حقها اختل نظام المنزل وساءت معيشة العائلة إذ العماد القويم لتدبير المنزل هو بقاء الاتحاد والتآلف بين أفراد العائلة ، والرجل اذا خص واحدة منهن دون الباقيات ولو بشيء زهيد كأن يستقضيها حاجة في يوم الاخرى امتعضت تلك الاخرى وسئمت الرجل لتعديه على حقوقها بتنزلفه الى من لا حق لها وتبدل الاتحاد بالنفرة والمحبة بالبغض ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وجماعة الصحابة رضوان الله عليهم والخلفاء الراشدون والعلماء والصالحون من كل قرن الى هذا العهد يجمعون بين النسوة مع المحافظة على حدود الله في العدل بينهن . فكان صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصالحون من أمته لا يأتون حجرة إحدى الزوجات في نوبة الاخرى إلا باذنها

من ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يطاف به وهو في حالة المرض على بيوت زوجاته محمولا على الاكتاف حفظا للعدل ، ولم يرض بالاقامة في بيت إحداهن خاصة ، فلما كان عند احدى نسائه سأل في أي بيت أكون غداً ، فعلم نساؤه أنه يسأل عن نوبة عائشة ، فأذنّ له في المقام عندها مدة المرض فقال « هل رضيتنّ » فقلن نعم ، فلم يقم في بيت عائشة حتى علم رضاهن . وهذا الواجب الذي حافظ عليه النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي ينطبق على نصائحه ووصاياه فقد روي في الصحيح أن آخر ما أوصى به صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم

*) نشرت في العدد ١٠٥٦ الصادر فى ٨ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨

لاتكلفوهم مالا يطيقون . الله الله في النساء فانهن عوان في أيديكم — أي أسراء — أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله » وقال « من كان له امرأتان فمال الى احداهما دون الاخرى — وفي رواية ولم يعدل بينهما — جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل » وكان صلى الله عليه وسلم يعتذر عن ميله القلبي بقوله « اللهم هذا (أي العدل في البيات والعطاء) جهدي فيما أملك ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك » (يعني الميل القلبي) وكان يقرع بينهن اذا أراد سفراً

وقد قال الفقهاء يجب على الزوج المساواة في القسم في البيتوتة باجماع الأئمة وفيها وفي العطاء أعني النفقة عند غالبهم حتى قالوا يجب على ولي المجنون أن يطوفه على نسائه . وقالوا لا يجوز للزوج الدخول عند إحدى زوجاته في نوبة الأخرى إلا لضرورة مبيحة غايته يجوز له أن يسلم عليها من خارج الباب والسؤال عن حالها بدون دخول . وصرحت كتب الفقه بأن الزوج اذا أراد الدخول عند صاحبة النوبة فأغلقت الباب دونه وجب عليه أن يبيت بحجرتها ولا يذهب إلى ضرتها إلا لمانع برد ونحوه . وقال علماء الحنفية ان ظاهر آية (فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) ان العدل فرض في البيوتة وفي الملبوس والمأكول والصحبة لا في المجامعة لافرق في ذلك بين فحل وعنّين ومجبوب ومريض وصحيح . وقالوا ان العدل من حقوق الزوجية ، فهو واجب على الزوج كسائر الحقوق الواجبة شرعاً إذ لا تفاوت بينها ، وقالوا إذا لم يعدل ورفع إلى القاضي وجب نهيه وزجره ، فان عاد عزّر بالضرب لا بالحبس وما ذلك الا محافظة على المقصد الأصلي من الزواج وهو التعاون في المعيشة : وحسن السلوك فيها

أفبعد الوعيد الشرعي ، وذاك الالزام الدقيق الحتمي ، الذي لا يحتمل تأويلا ولا تحويلا ، يجوز الجمع بين الزوجات عند توهم عدم القدرة على العدل بين النسوة فضلا عن تحققه ؟ فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملنا على جمعهن الا قضاء شهوة فانية ، واستحصال لذة وقتية ، غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفاسد ومخالفة للشرع الشريف ، فانا نرى انه ان بدت لاحداهن فرصة للوشاية عند الزوج في حق الأخرى صرفت جهدها ما استطاعت في تنميقها واتقانها وتحلف بالله انها

لصادقة فيما اقترت (وما هي الا من الكاذبات) فيعتقد الرجل انها أخلصت له النصح لفرط ميله اليها ، ويوسع الأخريات ضربا مبرحا وسبا فظيعاً ، ويسومهن طرداً ونهراً من غير أن يتبين فيما ألقي اليه ، اذ لاهداية عنده ترشده الى تمييز صحيح القول من فاسده ، ولا نور بصيرة يوقفه على الحقيقة ، فتضطرم نيران الغيظ في أفئدة هاتيك النسوة وتسعى كل واحدة منهن في الانتقام من الزوج والمرأة الواشية ويكثر العراك والمشاجرة بينهن بياض النهار وسواد الليل ، وفضلا عن اشتغالهن بالشقاق عما يجب عليهن من أعمال المنزل يكثرن من خيانة الرجل في ماله وأمتعته لعدم الثقة بالمقام عنده فانهن دائما يتوقعن منه الطلاق إما من خبث أخلاقهن أو من رداءة أفكار الزوج . وأيّاً ما كان فكلاهما لا يهدأ له بال ولا يروق له عيش

ومن شدة تمكن الغيرة والحقد في أفئدتهن تزرع كل واحدة فى ضمير ولدها ما يجعله من ألد الأعداء لأخوته أولاد النسوة الأخريات فانها دائما تمقتهم وتذكرهم بالسوء عنده وهو يسمع وتبين له امتيازهم عنه عند والدهم وتعدد له وجوه الامتياز . فكل ذلك وما شابهه ان ألقي الى الولد حال الطفولية يفعل فى نفسه فعلا لا يقوى على ازالته بعد تعقله فيبقى نفوراً من أخيه عدوّاً له (لا نصيراً وظهيراً له على اجتناء الفوائد ودفع المكروه كما هو شأن الأخ)

وان تطاول واحد من ولد تلك على آخر من ولد هذه وان لم يعقل ما لفظ الى كان خيراً أو شراً لكونه صغيراً انتصب سوق العراك بين والدتيهما وأوسعت كل واحدة الأخرى بما فى وسعها من ألفاظ الفحش ومستهجنات السب (وان كنّ من المخدرات فى بيوت المعتبرين) كما هو مشاهد فى كثير من الجهات خصوصاً الريفية واذا دخل الزوج عليهن في هذه الحالة تعسر عليه اطفاء الثورة من بينهن بحسن القول ولين الجانب اذ لا يسمعن له أمراً ولا يرهبن منه وعيد لكثرة ما وقع بينه وبينهن من المنازعات والمشاجرات لمثل هذه الأسباب أو غيرها التي أفضت الى سقوط اعتباره وانتهاك واجباته عندهن أو لكونه ضعيف الرأي أحمق الطبع فتقوده تلك الأسباب الى فض هذه المشاجرة بطلاقهن جميعاً أو طلاق من هي عنده أقل منزلة فى الحب ولو كانت أم أكثر أولاده فتخرج من المنزل

سائلة الدمع حزينة الخاطر حاملة من الأطفال عديداً فتأوي بهم إلى منزل أبيها ان كان . ثم لا يمضي عليها بضعة أشهر عنده إلا وتراه سئمها فلا تجد بداً من رد الأولاد إلى أبيهم ، وان علمت ان زوجته الحالية تعاملهم بأسوإ مما عوملوا به من عشيرة أبيها ، ولا تسل عن أم الأولاد إذا طلقت وليس لها من تأوي اليه ، فان شرح ماتعانيه من ألم الفاقة وذل النفس ليس يحزن القلب بأقل من الحزن عند العلم بما تسام به صبيتها من الطرد والتقريع يئنون من الجوع ويبكون من ألم المعاملة

ولا يقال إن ذلك غير واقع فان الشريعة الغراء كلفت الزوج بالنفقة على مطلقته وأولاده منها حتى تحسن تربيتهم وعلى من يقوم مقامها في الحضانة إن خرجت من عدتها وتزوجت — فان الزوج وإن كلفته الشريعة بذلك ، لكن لا يرضخ لأحكامها في مثل هـذا الأمر الذي يكلفه نفقات كبيرة الا مكرهاً مجبوراً . والمرأة لا تستطيع أن تطالبه بحقها عند الحاكم الشرعي إما لبعد مركزه فلا تقدر على الذهاب اليه وتترك بنيها لا يملكون شيئاً مدة أسبوع أو أسبوعين حتى يستحضر القاضي الزوج ، وربما آبت اليهم حاملة صكاً بالتزامه بالدفع لها كل شهر ماأوجبه القاضي عليه من النفقة من غير أن تقبض منه مايسد الرمق ، أو يذهب بالعوز ، ويرجع الزوج مصراً على عدم الوفاء بما وعد لكونه متحققاً من أن المرأة لا تقدر أن تخاطر بنفسها الى العودة للشكاية لوهن قواها واشتغالها بما يذهب الحاجة الوقتية ، أو حياء من شكاية الزوج . فان كثيراً من أهل الارياف يعدون مطالبة المرأة بنفقتها عيباً فظيعاً ، فهي تفضل البقاء على تحمل الاتعاب الشاقة طلباً لما تقيم به بنيتها هي وبنيها على الشكاية التي توجب لها العار ، وربما لم تأت بالثمرة المقصودة . وغير خفي أن ارتكاب المرأة الأيم لهذه الاعمال الشاقة ومعاناة البلايا المتنوعة التي أقلها ابتذال ماء الوجه تؤثر في أخلاقها فساداً وفي طباعها قبحاً مما يذهب بكمالها ، ويؤدي الى تحقيرها عند الراغبين في الزواج ولربما أدت بها هذه الأمور الى أن تبقى أيماً مدة شبابها تتجرع غصص الفاقة والذل ، وإن خطبها رجل بعد زمن طويل من يوم الطلاق ، فلا يكون في الغالب إلا أقل منزلة وأصغر قدراً من بعلها السابق ، أو كهلا قلت رغبة النساء فيه ،

ويمكث زمناً طويلا يقدم رجلا ويؤخر أخرى خشية على نفسه من عائلة زوجها السالف . فانها تبغض أي شخص يريد زواج امرأته وتضمر له السوء إن فعل ذلك، كأن مطلقها يريد أن تبقى أيما الى الممات رغبة في نكالها وإساءتها ان طلقها كارهاً لها . وأما اذا كان طلاقها ناشئاً عن حماقة الرجل لاكثاره من الحلف به عند أدنى الاسباب ، وأضعف المقتضيات كما هو كثير الوقوع الآن اشتد حنقه وغيرته عليها ، وتمنى لو استطاع سبيلا الى قتلها أو قتل من يريد الاقتران بها

وكأني بمن يقولون إن هذه المعاملة وتلك المعاشرة لا تصدر الا من سفلة الناس وأدنيائهم . وأما ذوو المقامات وأهل اليسار فلا نشاهد منهم شيئاً من ذلك فانهم ينفقون مالا لبدأ على مطلقاتهم وأولادهم منها ، وعلى نسوتهم العديدات في بيوتهم ، فلا ضير عليهم في الاكثار من الزواج الى الحد الجائز والطلاق اذا أرادوا ، بل هو الأجمل والأليق بهم اتباعاً لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم « تناكحوا تناسلوا فاني مباه بكم الأمم يوم القيامة » وأما مايقع من سفلة الناس فلا يصح أن يجعل قاعدة للنهي عما كان عليه عمل النبي والسلف الصالح من الأمة خصوصاً وآية (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) لم تنسخ بالاجماع . فاذاً يلزم العمل بمدلولها مادام الكتاب

نقول في الجواب عن هذا : كيف يصح هذا المقال وقد رأينا الكثير من الأغنياء وذوي اليسار يطردون نساءهم مع أولادهن فتربى أولادهم عند أقوام غير عشيرتهم لايعتنون بشأنهم ولا يلتفتون اليهم ، وكثيراً مارأينا الآباء يطردون أبناءهم وهم كبار مرضاة لنسائهم الجديدات ، ويسيئون الى النساء بما لا يستطاع حتى إنه ربما لايحمل الرجل منهم على تزوج ثانية الا إرادة الاضرار بالاولى وهذا شائع كثير . وعلى فرض تسليم أن ذوي اليسار قائمون بما يلزم من النفقات لايمكننا الا أن نقول كما هو الواقع إن انفاقهم على النسوة وتوفية حقوق الزوجية من القسم في المبيت ليس على نسبة عادلة كما هو الواجب شرعاً على الرجل لزوجاته . فهذه النفقة تستوي مع عدمها من حيث عدم القيام بحقوق الزوجات الواجبة الرعاية كما أمرنا به (الشرع الشريف) فاذا لاتمايز بينهم وبين الفقراء

في أن كلا قد ارتكب ماحرمته الشرائع ونهت عنه نهياً شديداً ، بخصوصاً وإن مضرات اجتماع الزوجات عند الاغنياء أكثر منها عند الفقراء كما هو الغالب . فان المرأة قد تبقى في بيت الغني سنة أو سنتين ، بل ثلاثا ، بل خمساً ، بل عشراً لايقربها الزوج خشية أن تغضب عليه (من يميل اليها ميلا شديداً) وهي مع ذلك لاتستطيع أن تطلب منه أن يطلقها لخوفها على نفسها من بأسه ، فتضطر الى فعل ما لايليق . وبقية المفاسد التي ذكرناها من تربية الابناء على عداوة اخوتهم ، بل وأبيهم أيضاً موجودة عند الاغنياء أكثر منها عند الفقراء ، ولا تصح المكابرة في إنكار هذا الأمر بعد مشاهدة آثاره في غالب الجهات والنواحي ، وتطاير شرره في أكثر البقاع من بلادنا وغيرها من الاقطار المشرقية

فهذه معاملة غالب الناس عندنا من اغنياء وفقراء في حالة التزوج بالمتعددات كأنهم لم يفهموا حكمة الله في مشروعيته ، بل اتخذوه طريقا لصرف الشهوة واستحصال اللذة لاغير ، وغفلوا عن المقصد الحقيقي منه. وهذا لاتجيزه الشريعة ولا يقبله العقل . فاللازم عليهم حينئذ إما الاقتصار على واحدة اذا لم يقدروا على العدل كما هو مشاهد عملا بالواجب عليهم بنص قوله تعالى (فان خفتم أن لاتعدلوا فواحدة) وأما آية (فانكحوا ماطاب لكم من النساء) فهي مقيدة بآية فان خفتم (١) وإما أن يتبصروا قبل طلب التعدد في الزوجات فيما يجب عليهم شرعاً من العدل وحفظ الألفة بين الاولاد ، وحفظ النساء من الغوائل التي تؤدي بهن الى الاعمال غير اللائقة . ولا يحملونهن على الاضرار بهم وبأولادهم ، ولا يطلقونهن الا لداع ومقتض شرعي شأن الرجال الذين يخافون الله ويوقرون شريعة العدل ، ويحافظون على حرمات النساء وحقوقهن ، ويعاشرونهن بالمعروف ويفارقونهن عند الحاجة . فهؤلاء الافاضل الاتقياء لالوم عليهم في الجمع بين النسوة الى الحد المباح شرعاً . وهم وإن كانوا عدداً قليلا في كل بلد وأقليم ، لكن أعمالهم واضحة الظهور تستوجب لهم الثناء العميم ، والشكر الجزيل وتقربهم من الله العادل العزيز

(١) جملة وأما آية الخ معترضة بين التقسيم والآية واحدة

المقالة السابعة عشرة

خطأ العقلاء (*

(١)

إن كثيراً من ذوي القرائح الجيدة اذا أكثروا من دراسة الفنون الادبية ومطالعة أخبار الأمم وأحوالهم الحاضرة تتولد في عقولهم أفكار جليلة ، وتنبعث في نفوسهم همم رفيعة ، تندفع الى قول الحق ، وطلب الغاية التي ينبغي أن يكون العالم عليها ، ولكونهم اكتسبوا هذه الافكار وحصلوا تلك الهمم من الكتب والاخبار ومعاشرة أرباب المعارف ونحو ذلك تراهم يظنون أن وصول غيرهم الى الحد الذي وصلوا اليه وسير العالم بأسره أو الامة التي هم فيها بتمامها على مقتضى ماعلموه — هو أمر سهل مثل سهولة فهم العبارات عليهم ، وقريب الوقوع مثل قرب الكتب من أيديهم ، والالفاظ من أسماعهم ، فيطلبون من الناس طلباً حاثا أن يكونوا على مشاربهم ، ويرغبون أن يكون نظام الأمة وناموسها العام على طبق أفكارهم . وإن كانت الأمة عدة ملايين وحضرات المفكرين أشخاصاً معدودين ، ويظنون أن أفكارهم العالية اذا برزت من عقولهم الى حيز الكتب والدفاتر ، ووضعت أصولا وقواعد لسير الامة بتمامها ينقلب بها حال الامة من أسفل درك في الشقاء الى أعلى درج في السعادة ، وتتبدل العادات وتتحول الاخلاق ، وليس بين غاية النقص والكمال إلا أن ينادي على الناس باتباع آرائهم

تلك ظنونهم التي تحدثهم بها معارفهم المكتسبة من الكتب والمطالعات وإنهم وإن كانوا أصابوا طرفا من الفضل من جهة استقامة الفكر في حد ذاته وارتفاع الهمة ، وانبعاث الغيرة ، لكنهم أخطأوا خطأ عظيما من حيث إنهم لم

(*) نشرت في العدد ١٠٧٩ الصادر في ٥ جمادي الاولى سنة ١٢٩٨ — ٤ ابريل سنة ١٨٨١

يقارنوا بين ماحصلوه ، وبين طبيعة الامة التي يريدون إرشادها ، ولم يختبروا قابلية الاذهان ، واستعدادات الطباع للانقياد الى نصائحهم واقتفاء آثارها . ولو أنهم درسوا طبائع العالم كما درسوا كتب العلم ، ودققوا النظر في سطور أخلاقه وعاداته الحقيقية الواقعية التي اقتضتها حالة وجوده ، بل لو قارنوا بين الحوادث المسطرة في الكتب . وتبينوا كيفية انتقال الأمم من بداياتها الى نهاياتها لعلموا أن الأمم في أحوالها العمومية كالاشخاص في أحوالها الخصوصية ، بل ان الاحوال العمومية هي عبارة عن مجموع الاحوال الخصوصية . وليست الامة مثلا إلا مجموع أفرادها : وليس حال الهيئة المركبة من تلك الافراد إلا مجموع أحوال هاته الافراد

فعلى من يريد كمال أمة بتمامها أن يقيس ذلك بكمال كل فرد منها ويسلك في تكميل العموم عين الطريق التي يسلكها لتكميل الواحد . هل يسهل على صاحب الفكر الرفيع أن يودع في عقل الطفل الرضيع ، أو الصبي قبل رشده ، وقبل أن يتعلم شيئاً من مبادىء العلوم تلك الافكار العالية التي نالها بالجد والاجتهاد وكثرة المطالعات ؟ كلا بل لو أراد أن يجعل شخصاً من الاشخاص على مثل فكره احتاج الى أن يبدأ بتعليمه القراءة والكتابة ، ثم مبادي الفنون السهلة التحصيل ، ثم يتدرج به شيئاً فشيئاً حتى ينتهي بعد سنين عديدة الى بعض مطلوبه ، ثم هو في خلال ذلك محتاج الى أن يحصر أعماله ويقيدها بقيود من الترغيب والترهيب ، وأن يراقب حركاته في أعماله خوفا من اختلاطه بفاسدي الاخلاق والافكار ، أو المائلين الى الكسالة والبطالة ، أو ورود موارد الشهوات ، ونحو ذلك من الملاحظات التي لابد منها . فان اختل شيء من الترتيب في التعليم بأن قدم الاصعب على الاسهل مثلا ، أو أهمل ملاحظة أعماله وأحواله ، اختلت التربية وذهبت الاتعاب سدى ، واستحال صيرورة حال ذلك الشخص مماثلة لحالة مرشده

ولو أنه أراد تحويل أفكار شخص واحد وهو في سن الرجولية هل يمكنه أن يبدلها بغيرها بمجرد إلقاء القول عليه ؟ كلا إن الذي تمكن في العقل أزمانا لا يفارقه إلا في أزمان ، فلابد لصاحب الفكر أن يجتهد أولا في إزالة الشبه التي

تمسك بها ذلك الشخص في اعتقاداته ، وذلك لا يكون في آن واحد ، ولا بعبارة واحدة ، ولكن بعبارات مختلفة في التقريب ، بعضها سهل المأخذ قريب المنال ، والبعض أرقى منه ، وبعضها خطابي ، والآخر برهاني، وما شابه ذلك - فان لم يتخذ تلك الوسائل في إرشاده امتنع عليه مقصوده ، بل ربما جرّه نصحه إلى الضرر بنفسه . تلك هي الحالة المشهودة التي لا ينكرها أحد . ثم إن نجاحه في تغيير فكر واحد مع كل هذا الاجتهاد موقوف على أن صاحب ذلك الفكر الفاسد لا يعاشر ولا يخالط في خلال تعلمه إلا مرشده صاحب الفكر السليم . فان كان يخالط غيره ممن يؤيد فكره الأول طال الزمن ، وربما لم ينجع فيه الارشاد . وأظن أن هذا يعترف به كل من مارس الأخلاق والعادات

إن كان هذا حال شخص واحد إذا أردنا إصلاح شأنه في صغره أو كبره مع أنه يسهل ضبط أعماله وأحواله ، والوقوف على كنه أوصافه ، ودرجات تقدمه في المقصود وتأخره فيه . فما ظنك بحال أمة من الأمم تختلف عناصرها ، وتتباين شعوبها ، فمن الخطأ بل من الجهالة أن تكلف الأمة بالسير على ما لا تعرف له حقيقة أو يطلب منها ما هو بعيد من مداركها بالكلية ، كما أنه لا يليق أن يطلب من الشخص الواحد ما لا يعقله أو ما لا يجد اليه سبيلا

وإنما الحكمة أن تحفظ لها عوائدها الكلية المقررة في عقول أفرادها ، ثم يطلب بعض تحسينات فيها ، لا تبعد منها بالمرة . فاذا اعتادوها طلب منهم ما هو أرقى بالتدريج ، حتى لا يمضي زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة إلى ما هو أرقى وأعلى من حيث لا يشعرون — أما إذا وضع لهم من الحدود ما لم يصلوا إلى كنهه ، أو كلفوا من العمل ما لم يعهدوه ، أو خولوا من السلطة ما لم يعودوه ، رأيتهم يتخبطون في السير لخفاء المقصود عنهم ، وضلال الرأي فيما لم يكن يمرّ على خواطرهم ، فيمكن أن يخرجوا عن حالتهم الأولى ، لكن الى ما هو أتعس منها بحكم الاستعداد القاضي عليهم بذلك

مثلا اننا نستحسن حالة الحكومة الجمهورية في أمريكا واعتدال أحكامها ، والحرية التامة في الانتخابات العمومية في رؤساء جمهورياتها وأعضاء نوابها

ومجالسها ، وما شا كل ذلك . ونعرف مقدار السعادة التي نالها الأهالي من تلك الحالة ، ونعلم أن هذه السعادة إنما أتت لهم من كون أفراد الأمة هم الحاكمين في مصالحهم بأنفسهم ، لأنهم أرباب الانتخاب ، وإنما رؤساء الجمهوريات ، وأعضاء المجالس نواب عنهم في حفظ تلك المصالح والحقوق التي رأوها لأنفسهم ، وتتشوق النفوس الحرة أن تكون على مثل هذه الحالة الجليلة ، لكننا لانستحسن أن تكون تلك الحالة بعينها لأفغانستان مثلا ، حال كونها على ما نعهد من الخشونة ، فانه لو فوض أمر المصالح الى رأي الاهالي لرأيت كل شخص وحده له مصلحة خاصة لايرى سواها ، فلا يمكن الاتفاق على نظام عام ، ولو طلب منهم أن ينتخبوا مائة نائب مثلا لرأيت كل شخص ينتخب صاحبا له أو نسيبا أو قريبا ، فربما ينتخبون آلافا مؤلفة ، ثم لاينتهي الانتخاب إلى المرغوب أصلا ، لوقوف كل واحد عند انتخابه الأول . ولو وكل اليهم انتخاب رئيس للحكومة ، لانتخبت كل قبيلة رئيسا منها ، ثم يقع الهرج بين الرؤساء ، وهكذا حال الأمم التي تعودت على أن يكون زمامها بيد ملك أو أمير أو وزير يدير أعمالها بدون أن يكون لها دخل في رؤية مصالحها لايمكن أن يطلب منها الدخول في أعمالها العامة ، وإلا فسدت . فاذا أردنا إبلاغ الأفغان مثلا إلى درجة أمريكا فلا بد من قرون تبث فيها العلوم ، وتهذب العقول ، وتذلل الشهوات الخصوصية ، وتوسع الأفكار السكاية ، حتى ينشأ في البلاد مايسمى بالرأي العمومي ، فعند ذلك يحسن لها مايحسن لأمريكا

ويا عجبا هل الشخص الذي توارث العوائد عن آبائه وأجداده ، ومرن عليها من مهده إلى كهولته ، وتعود تفويض مصلحته إلى إرادة غيره ، يصح أن يطلب منه في زمان واحد خلع بجميع ذلك ، ويلقى اليه زمام مصلحته ؟ وهو في جميع عمره لم يفكر فيها ؟ إن هذا لخطأ ظاهر

ولكون أرباب الأفكار منا يرومون أن تكون بلادنا — وهي هي — كبلاد أوربا — وهي هي — لاينجحون في مقاصدهم ، ويضرون أنفسهم بذهاب أتعابهم أدراج الرياح ، ويضرون البلاد بجعل المشروعات فيها على غير أساس صحيح ،

فلا يمر زمن قريب الا وقد بطل المشروع ، ورجع الأمر إلى أسوأ مما كان ، فيفوت الزمان وهم على حالهم القديم ، وكان لهم إمكان أن يكونوا على أحسن منه ، فمن يريد خير البلاد فلا يسعى إلا في إتقان التربية ، وبعد ذلك يأتي له جميع ما يطلبه إن كان طالباً حقاً بدون اتعاب فكر ، ولا اجهاد نفس . وفي الكلام بقية أذكرها فيما بعد هذا العدد

المقالة الثامنة عشرة

كلام في خطأ العقلاء

(٢)

تولى أمر هذه البلاد (المصرية) أناس في أزمنة مختلفة ، تظاهر كل منهم بأنه يريد تقدمها ونقلها من حالة الهمجية (على ما يزعم) الى حالة التمدن التي عليها أبناء الأمم المتمدنة ، وجعلوا الوسيلة الى ذلك أن تنقل عادات أولئك الأمم المتمدنين وأفكارهم وأطوارهم الى هذه البلاد ، وظنوا أن تقليدنا لعاداتهم ، وأخذنا الآن بأفكارهم اليومية ، وتشبهنا بهم في الأطوار ، كاف في أن نكون مثلهم ، وأن استلامنا لتلك العادات وتلقينا لتلك الأفكار أمر غير عسير

لم ينظروا في الاسباب والوسائل التي توصل بها أولئك الأمم الى هذه الحال التي هم عليها حتى يعتدوا مثلها أو قريباً منها لترقي هذه البلاد ، بل ظنوا أن هذه الغاية من الممكن أن تكون بداية ، مع أن ما نرى عليه جيراننا من الممالك الغربية لم يصلوا اليه الا بعد معاناة أتعاب ، ومقاساة مشاق ، وسفك دماء شريفة ، وثل عروش ملك رفيعة ، وكانوا في كل ذلك يقربون من المقصود تارة ، ويبعدون عنه أخرى ، كما يرشدنا اليه تاريخهم ، حتى بدلت الحوادث الدهرية

*) نشرت في العدد ١٠٨٢

طبائع الأهالي ، وغيرت أخلاقهم ، ونبهت الضرورات أفكارهم ، وهذبت المخالطات الجهادية والتجارية عقولهم

إن بداية التقدم الأوربي في الحقيقة كان في نفوس الأهالي وأفراد الرعايا: علمتهم الحروب الصليبية سير البر والبحر ، وخالطوا فيها الأمم الشرقية أجيالا وطمحت أنظارهم لمغالبتهم ، فدققوا في سبب قوة الشرقيين (التي كانت لهم اذ ذاك) وبحثوا في أحوالهم فرأوا لهم عادات جميلة ، وفيما بينهم أفكار سامية ، ورأوا في دوائر أعمالهم اتساعاً ، وأيدي الصناعة والاكتساب مطلقة الحرية . ولذلك كان الغنى والعز مستوكراً أقطارهم ، فأخذ أهالي أوربا عند ذلك في تقليدهم ، لا في البهارج والزخارف ، بل في أسبابها والموصلات اليها ، وهي توسيع نطاق الصناعة والتجارة ونحوهما من وجوه الكسب ، فكان ذلك أساساً للعمل ، وقر في النفوس ، وثبت في العقول ، وبنوا عليه ما شاؤا

ولو تأملنا تاريخ سير التقدم الأوربي لرأينا أسباب التقدم يجمعها سبب واحد ، وهو إحساس نفوس الأهالي بآلام صعبة الاحتمال من ظلم الاشراف (النبلاء) وغدر الملوك ، وضيق وجوه الاكتساب ، ونفرة دينية(١) على المسلمين الذين استولوا على حرمهم المقدس . وهذا الاحساس هو الذي دعا الأنفس الكثيرة العدد إلى الخروج من هذه الآلام ، فطلبوا لذلك أسبابا متنوعة ، أقواها التعاضد والتعاون على ترويج وسائل الكسب ، وافتتاح أبواب الرزق ، فكانت تعقد لذلك المحالفات والمعاهدات ، وتتألف له الجمعيات ، فكان جرثومة تقدمهم أمراً منبثاً في غالب الأفراد ، ومحرزاً في أغلب العقول ، وهو نشاط الأهالي في اجتلاب الثروة ، وطلبهم لحرية العمل لينالوها ، ورفضهم لتلك التقييدات التي كانت تمنعهم من طلب حقوقهم الطبيعية ، ثم تدرجوا فيه ، ينتقلون من حال الى

«١» النفرة بالضم من نفر «كضرب» نفراً و «كقعد» نفوراً يتعدى بمن اذا كان بمعنى الاعراض والانقباض كنفرت المرأة من زوجها والاسم النفار — وبالى اذا كان بمعنى النهوض الى الزحف للقتال . فقوله النفرة على المسلمين اما اصله من المسلمين او محرف في الطبع عن النعرة بالعين المهملة وهي بضم النون وبالفتح ما للعجب والكبرياء في النفس من الشمور

حال — والأصل ثابت لا يتغير — حتى عم التغير جميع العوائد والمشارب والقوانين ، ولم يكن ذلك كله الا من حرص الأهالي أنفسهم على الخروج من الآلام التي كانوا يشعرون بها في كل لحظة من حياتهم ، ويتوارث هذا الشعور وذلك الحرص أبناؤهم من بعدهم

أما عقلاؤنا فقد وجهوا نظرهم الى حالة التمدن الحاضرة والاهالي على غير علم منها بأنفسهم ، فاستلفتهم العقلاء اليها لكن لا بتحريك غيرتهم الى العمل اختياراً أو ألجأتهم اليه اضطراراً وتسهيل الطرق لهم حتى يسير من جميع عناصر البلاد وطبقاتها أشخاص مختلفون في الافكار والأحوال إلى تلك البلاد المتمدنة ويشهدوا عاداتها وأحوالها ويهتم العقلاء منهم بالبحث عن أسباب السعادة وموجبات الشقاء اهتمام المضطر الذي يطلب خلاص نفسه من هلاك يتوقعه ، بل جلبوا اليهم كثيراً من أبناء تلك البلاد تظهر عليهم الرفاهية ، وترى عليهم آثار النعمة ، يتكلمون بما لا يفهم ، ويتفكرون فيما لا يعقل ، فشادوا بيننا أبنية وزينوها بما لم نكن نعهده من أنواع الزينة ، وجلبوا الينا من مصنوعاتهم ماراق منظره ، وطاب مخبره ، لكننا لم نشهد مصنعه ، ولم ندر منبعه ، ورأيناهم يتزينون بهذه اللطائف التي تذهب الحزن وتشرح الخواطر ، ويتنافسون فيها ، فأعجبتنا حالهم هذه وقال لنا العقلاء كونوا مثلهم ، والحقوا بهم في هذه السعادة ، ثم صاروا أئمة لنا في العمل ، فأخذنا نتشبه بهم ، لكن فيما رأيناه وهو الزينة والبهرجة غير باحثين عن كون ذلك هو الذي يلحقنا بهم في الحقيقة أم لا

ومن ذلك ترى أفكار الغالب منا دائما عند مايجد فرصة الاقتدار موجهة إلى تشييد الأبنية وتجويد وضعها ، وإتقان ترتيبها وتزيين واطنها وظواهرها ، والتوسع في لوازم المآكل والمشارب وآلاتها وأوانيها ، والتفنن فيها ، وجلب ما هو أغلى ثمنا وأدخل في النظر وأجلب للأنس ، والتأنق في الملابس ومحاذاة الأوربيين فيها ، ومحاولة ان تكون على النمط الأعلى عندهم ، وعلى هذا النحو تفننا في أنواع المفروشات وتأنقنا في اقتنائها من أنواع مختلفة مما غلا ثمنه ، وارتفعت عن الطاقة قيمه ، وتنافسنا في ذلك كتنافس أسلافنا في افتتاح البلاد

وتملك الحصون ، وبالجملة فقد سلكنا مسالك المتمدنين في ثمرات تمدنهم التي جعلوها من زوائدهم ، فأسرفنا في الانفاق ، وصار الناظر لملابسنا ومساكننا، والذائق لمطاعمنا ومشاربنا، يشهد بأننا في ذلك بحمد الله متمدنون فقد اشتركنا معهم في ثمرات التمدن ، أي ماينتهي اليه حال المتمدن من طلبه للتمتع باللذائذ وركونه لترويح النفس وتخفيف أتعابها

لكن من تأمل حقيقة الأمر علم ان مثلنا في ذلك كمثل الدجاجة رأت ان الأوزة تبيض بيضا كبيراً فطلبت ان تبيض مثلها فأجهدت نفسها في أن يكون ذلك غير عارفة ان ذلك لا يكون الا باستعداد (أي بأن تكون أوزة) فحبست نفسها واستعملت قوتها الدافعة حتى انشق منها ماانشق ، وتمزق منها ماتمزق ، فان افراطنا في تقليد الأوربيين ومجاراتهم في عاداتهم التي نظنها تفوق عاداتنا البسيطة فعل في نفوس غالب الأغنياء منا فعلا غريباً صرف نظرهم الى اللذائذ واستكمال لوازم الترف والنعيم ، وأحدث في نفوسهم غفلة عما يحفظ ذلك عليهم بل يوجب ازدياده لديهم وهو الوقوف على الطريق المستقيم الموصل الى اكتساب المجد الحقيقي والشرف الذاتي الذي يتبعه الغنى والثروة والراحة المستتبعة للذة الحقيقية والنعيم الباقي في الحياة وبعدها ومن هذه الجهة (جهة الغفلة عن روح الثروة وحياتها وهو التمدن الحقيقي أعني الاحساس بوجوه اللذائذ والآلام والتنشط في طلب وجوه الكسب المتنوعة وطلب الأمنة على تلك الوجوه ومراعاة الحقوق والواجبات الطبيعية والشرعية) فارقوا الأمم المتمدنة فصح ان يطلق عليهم أنهم في غاية التمدن مع انهم إما في بدايته وإما قبلها بكثير ، وحق لهم ذلك فانهم رأوا أبواب اللذات مفتحة قبل أن يجدوا عقلا يقدرلهم مايلزم منها وما لا يلزم

كل ذلك نشأ من جلب تلك العوائد الترفهية إلى بلادنا وطلب التحلي بها بدون ان نحوز مايوصلنا اليها من أنفسنا وليتنا قبل أن نشيد بيوتنا بالارتفاع الشاهق والترتيب المحكم ، ونزينها بأنواع النقوش والفرش والاثاثات، أبقيناها على بساطتها ، وشيدنا في عقولنا الهمم الرفيعة والحمية التي لاتمتد اليها الأيدي ، وأحكمنا طرق سيرنا في حفظ حقوقنا ، ورتبنا في مداركنا جميع الوسائل والمعدات التي تحفظ

علينا ماوجدنا ، وتجذب الينا مافقدنا ، وزينا نفوسنا بالفضائل الانسانية والشرعية من رحمة بالضعفاء ، ورفق بالملهوفين ، وغيرة على البلاد ، وأنفة عن الصغار

لعمر الله لو قدمنا هذه الزينة الجوهرية على ذلك الرونق الصوري لكان العالم بأسره ينظر الينا نظر الراهب الخائف ، أو يرمقنا بلحظ المعظم المبجل ، وكانت معيشتنا البسيطة أوقع فى نفسه من معيشته الرفيعة ، وكان ذلك سهلا لو ان الزاعمين فينا حب الترقي والتقدم ساروا بنا من البدايات ، وحجبونا عن النهايات ، حتى لانراها إلا من أنفسنا فنطلبها لا لأنها أعجبت النظر ، ولكن لأنها بنت الفكر ونتيجته ، وكانوا يعلموننا محاذاة المتمدنين فى أصول أعمالهم ، لافى زوائدها ، فكنا بذلك نصل الى ماوصلوا اليه فى زمن أقل بكثير من الزمن الذي نالوا فيه مانالوا ، لكن مافات الوقت ونحن الآن فيه ، فعلينا بالعمل ، غير مقتصرين على مجرد الأمل

المقالة التاسعة عشرة

كلام فى خطأ العقلاء (*

(٣)

لسنا ننكر ان بلادنا كانت فى الأزمان السابقة تحت تصرف أقوام خشنين لا يعلمون للخلقة غاية إلا وجودهم الشريف ، وكانوا يعدون أفراد الأهالي انعاماً خلقت لهم يستعملونها كيفما يريدون (كما كان ذلك شأن سائر الامم غربية وشرقية) فارغموا أنف الطبيعة ومحوا أنوار الالهام الفطري الذي وضعه الله في نفوس عباده لفهم منافعهم ومضارهم حيث وقفوا سداً حصينا بين كل شخص ومنافعه ، فاستأثروا بجميع ثمرات الأعمال ، فلا يعمل العامل وله أمل بأن يجني ثمرة عمله ، فانه عندما تبدو الثمرة يسرع حاكمه إلى قطفها ، وكانت حياته معقودة بغضب ذاك الحاكم ورضاه ، فان رضي عنه فهو في أمن عليها ، وان غضب عليه فهو

*) نشرت في العدد ١٠٩٢ الصادر فى ١٩ ابريل سنة ١٨٨١

ان عاش كمريض بلغ به المرض غايته ينتظر الموت في كل لحظة ، فيكون في حالة تسليم مطلق (خائف على حياته مستسلم لقضاء حاكمه) وبالجملة لم يكن لأحد من الأهالي حركة اختيارية ناشئة عن فكره الخاص به في تحصيل منفعة أو درء مضرة ، بل كانت أعماله تابعة لارادة سيده الحاكم ، وكان يعتقد أنه وما ملكت يداه حل للآمر عليه ، وليس لتصرف ذلك الآمر حد يجب ان ينتهي اليه ، وهذه حالة يصعد بها تاريخ هذه البلاد أجيالاً كثيرة إذا استرسلنا في طلب مبدئها قد نصل اليه وقد لا نصل ، وبذلك الاسترقاق الظاهري والباطني فنيت الارادة ، ومات الاختيار ، وطفىء نور الفكر بالمرة

وكان من جملة التقييدات العنيفة التي وضعها أولئك المتسلطون الحجر على أهالي المدن وغيرها في الأعمال والأقوال الشخصية ، حتى كانوا من شدة التضييق ، يستعملون طريقة يقال لها الكبسة وهو : أن يهجم رجال الضابطة على بعض الأماكن ليلا ليقبضوا على من يظن بهم الاجتماع على فسق ، كفحش بالنساء ، أو شرب المسكرات وما شاكل هذا ، فان وجدوا شيئاً من ذلك ساقوا من يجدونه الى حيث يستوفي عقاباً أليما . وكذلك وضعوا في الأفواه لجاماً من الرهبة ، فلا يكاد ينطق الناطق بكلمة في مطلب علمي ، أو تجادل في حال شخص الا ويرمي بكفر وزندقة ، أو طعن في حاكم ، وله عند ذلك الويل الذي لا مخلص منه ، كل ذلك سمعنا بعضه بالنقل ورأينا بعضه الآخر بالعيان

فتلك كانت حالة تعيسة يجب على عقلائنا أن ينتحلوا كل وسيلة لتخليص رقاب العباد منها ، فرزق الله هذه البلاد بأناس خالطوا الأمم المتمدنة ، وطالعوا أحوالها ، ورأوا ما عليه أهلوها من إطلاق الارادة وحرية الاختيار ، فطلبوا لبلادنا أن تكون في أحوال أهاليها الشخصية على مثال سكان تلك البلاد المتمدنة ، لكنهم أول ما بدأوا به أن أباحوا (ما أقبحها من إباحة) لكل شخص أن يعمل فيما يخص نفسه بارادته ، ويتكلم فيما هو مقصور على ذاته بمقتضى فكره ، وشرطوا في ذلك شرطاً (ما أنفسه من شرط) وهو أن تكون تلك الأعمال والأقوال غير متعلقة بارتباطاته مع حاكمه ، فان كانت كذلك فدونها ضرب

الرقاب ، أو سكن الحبوس ، أو الجلاء عن الأوطان ، وسموا تلك الاباحة حرية ، ونادوا بها على الألسنة الظالمة ، فكان حاصل تلك الحرية أن لاجناح على من ارتكب أي جريمة ، وتطبع بأي خلق ، حسناً كان أو سيئاً ، وذهب الى اي مذهب ، صحيحاً كان أو فاسداً ، وإنما عليه أن يكون تحت أمر الحاكم ليس له حق في أن يمنع عنه مطلوبا ، أو يستقضي منه مسلوبا أيا كان ، فلم يجعلوا للسلطة حداً معيناً ، وهو الذي نسميه بالقانون ، الذي يعرفه كل أحد فيقف عنده ، بل أبقوها علي ما كانت عليه ، وجعلوا تلك الحرية غطاء على هذا الاستعباد ، فهم في الحقيقة لم يقلدوا الامم المتمدنة في إطلاق الارادة من جهة الارتباطات العمومية الثابتة ، فهذا خطأ من وجه إن كان لهم مقصد إصلاح ، وظلم إن كانوا متعمدين هذا التقييد ،

ثم إنهم قلدوها في الأحوال الجزئية الشخصية ، مع علمهم أن البلاد غير معتادة على مثل هذه الحرية فيها ، فلذلك اندفعت الناس الى انتهاب الشهوات ، وهتكوا حرمة الوقار ، وتهالكوا على شرب المسكرات في بلادنا الحارة الى الحد الذي لا يبلغه إلا الأوربيون في بلادهم الباردة ، وكثرت لذلك الخانات ومخازن الشراب المهلك للعقول والأبدان ، ثم تولعوا بما يتبع السكر من اللهو واللعب ، وتنافسوا في الحظوة عند النساء الباغيات ، واتسع الأمر في ذلك حتى صارت المداعبة والملاعبة بين النساء والرجال في الطرق والشوارع ، وتعدى ذلك المرض المعدي الى الحرائر فذهب الكثير منهن الى حيث يبتغين ، وافتضحت بذلك بيوت شريفة ، وكلما طلبت لذلك منعاً ، أو رمت له دفعاً . قال المولع : هذه حرية ، فضاع شأن الآداب ، وانحطت قيمة الشرف والوقار ، حيث أصبح أبناء الاغنياء وذوي المقامات يتسابقون الى التهور في هذه الأحوال الرديئة ، ويدعون اليها من دونهم ومن فوقهم (الا قليلا) ويصرفون فيها مالا يقدر من النقود (وسأجعل لذلك موضوعا خاصاً) وكاد فساد الأخلاق يسري الى كثير من طبقات الأهالي — هذه نتائج حرية ذلك العمل

وأما نتائج حرية الفكر (التي يزعمونها) فكانت خاصة بالاعتقادات

والمشارب الدينية ، فأخذ كثير من الناس يجهر بين العامة بألفاظ تناقض دينه الذي ولد فيه . فان قيل له : خفض من صوتك ، وأجمل في قولك ، فما كل الناس يرضاه ، قال : إننا في زمان الحرية . على أن أفكاره التي يذهب اليها في مخالفة دينه ليست بأفكار مرتبة مبنية على مبادىء ربما يقال إنه اتخذها مشربا ، بل ألفاظ حفظها من معاشريه لو سئل عن معناها أو طلب منه أي وهم ساقه اليها لعجز عن التعبير ، والتجأ الى التهوّس ، ورمى من يخاطبه بالجهل والخشونة حيث لم يوافقه على مشربه الفاسد . ثم يتخذ هذه الخزعبلات الاعتقادية التي يظنها تنوراً وتبصراً ، ذريعة لاستباحة القبائح ، واستحلال المحظورات . ولقد رأيت شخصاً ينكر ألوهية الخالق والعياذ بالله ثم يسأل عن حكمة المعراج ! ومنهم من ينكر النبوات ، ويعتقد بالشياطين! وما أشبه ذلك . فهؤلاء من الجهل بمكان لا يعلوهم فيه حيوان فضلا عن إنسان

فهذه الحرية البتراء التي رمانا بها عقلاؤنا لم تدع لها أثراً يحمد . وإن كان الأوروباويون يحرصون عليها ، فان استعداد بلادنا لم يكن ملائما لمثل هذا الاطلاق، الذي هو في الحقيقة عين الرق والاستعباد . فان الجاهل الذي لم يتعود على تصريف إرادته وأعمال اختياره إذا أطلق له العمل وقع في أشد من الرق وأضر من العبودية . نعم إنه عتق من أسر الضابطة وغل الجزاء(١) ولكن شهواته الخبيثة تبيعه بأبخس الأثمان الى الاسراف والبطالة والكسل ، وجميع أنواع الشرور ، وتودعه سجن الفقر ، وتغله بطوق الذل والعار . ويا ليته بقي تحت سيادة القانون يسوسه حتى في أعماله الشخصية . فالكبسة على ما كان فيها من الخطر على الأنفس والأموال وشناعة الصورة لو أحسن فيها القصد لكانت أولى وأفضل الى زمن تتقدم فيه التربية ، فيكون لكل شخص زاجر من نفسه ، فترتفع الكبسة بذاتها ، ويذهب الناس أحراراً بطبعهم ، وما كان ذلك بعسير ولا محتاج الى زمن طويل . وما ضرنا الا التقليد على غير تبصر بحال البلاد واستعدادها

فتلك الحرية التي سموها إطلاق الفكر قد عتقت صاحبها من قيد العقل

---

(١) المراد بالضابطة شرطة الحكومة وبالجزاء عقوبتها

وأسلمته الى الجهل الأعمى ، فهو يتصرف به كيف مايقتضي من المضرات ، ولو أنه بقي تحت سيادة العقل ، يسوسه المهذبون ، ويقوده المتبصرون ، حتى يعلم من أين تؤتى الأفكار ، وبأي الوسائل يوفى العقل حظوظه الحقيقية ـ لكان ذلك خيراً وأبقى ، ولم يكن يحتاج الا لتخفيف يسير في شناعات المتعصبين ، وتعيين دائرة منتظمة ، يردد الكلام بين محيطها الى زمن معين حتى تستقيم العقول ، فتضرب لنفسها حداً تقف عنده ، ولكننا طلبنا أن نكون على مثال الأوربيين في عوائدهم حتى المضرة بأخلاقنا وأعمالنا وأفكارنا

وياليت العقلاء منا في الزمن السابق اقتدوا بالبلاد المتمدنة في الأزمان السابقة عند إرادتهم تأييد الاستقلال حقيقة ، حيث بدأوا بالمجالس البلدية ، فكان يمكنهم أن يصنعوا لأهل البلاد قانوناً بسيطاً ينطبق على عوائدهم وأحوالهم ويقرب فهمه من إدراكاتهم ، ثم يفوض الى أهل كل بلد أن تنتخب منها عدداً معيناً ليقوم بالفصل بينهم على مقتضى هذا القانون ، ثم يصنعوا مثل ذلك في المدن على حسبها ، ويذهب أشخاص من العارفين الى القري والمدن ، ليفهموا أولئك مواد القانون السهل البسيط ، ويدربوهم على كيفية العمل به ، ثم لايزالوا على المراقبة أزماناً ، فلا تمضي مدة حتى يكون جميع الأهالي عالمين بما يجب عليهم ولهم ، فتنمو فيهم القوة ، وتحيا فيهم روح الاختيار كما كانت عليه الجمعيات ببلاد ايطاليا وفرنسا وغيرها في مبدأ تمدنها ، ثم يتدرجوا في القوانين الى أرقى مما وضعوا أولا مع تفهيمه وتعليمه لجمهور الأهالي ليعلموه فيقفوا عند حده

وكان في ذلك غنية عن القوانين الضخمة التي لايفهمها إلا الراسخون في العلم ، وهي محفوظة بين دفات الكتب وصدور بعض من النبهاء ، لكن الاهالي أنفسهم الذين قد وضعوا هذه القوانين لهم غير عالمين بها ، فكيف يطلب منهم أن يعملوا بمقتضاها ؟ (إن هذا لشيء عجاب) ! غير أن العقلاء منا يقولون : لابد أن نكون مماثلين لأوربا في القوانين والعادات رغماً عن الحق الذي يقضي علينا بأن نكون خاضعين لأحكام بقعتنا ، وما تقتضيه طبيعة موقعنا الذي نشأنا فيه ، ولن يكون ذلك أبداً

وأننا نخشى لو تمادينا في هذا التقليد الأعمى، واستمر بنا الأخذ بالنهايات الزائدة قبل البدايات الضرورية الواجبة أن تموت فينا أخلاقنا وعاداتنا ، وأن يكون انتقالنا عنها (لو انتقلنا) على وجه تقليدي أيضاً فلا يفيد ، لكن الوقت لم يفت بعد ، فعلى من يريد بنا خيراً أن يذهب بنا طريقاً قويماً ، ولا أراه الا نشر القوانين (وإن كانت طويلة صعبة المنال في وقتنا هذا ، وما لا يدرك كله لا يترك كله)(١) إنما لا يكتفي بنشرها على لسان الجرائد ، فان قارئيها قليل، ولا بارسال المنشورات الى عمد البلاد ، فان كثيراً منهم قلما يفهم اذا قرأ ، ولكن لابد من تشكيل جمعيات في القري والمدن لتفاهم القوانين واللوائح والمنشورات والا ضاعت الحقوق ، وكثرت المشاكل ، وصعب كبح صغار المأمورين عن الاجراآت المضرة بالحكومة والاهالي معاً . ثم وضع حدود قويمة للأعمال الشخصية والأخلاق والتصرفات ، فان إصلاح الأخلاق والأفكار والأعمال من أهم واجبات البلاد ، وبدونه لا يمكن إصلاح شيء من أمورها ، وليس بجائز أن يجعل في درجة أقل من درجة قوانين حفظ الضبط والربط

ومركز النظر في جميع ذلك نبهاء البلاد وذوو الشأن فيها ، فعليهم إن كانوا صادقين فى الوطنية أن يبذلوا الجهد في طلب ذلك ، والقيام بما يلزم ، وإلا فانهم مقلدون فقط والله أعلم

(١) المنقول المحفوظ : مالا يدرك كله ، لا يترك قله .

المقالة العشرون

ابطال البدع من نظارة الاوقاف العمومية (*

عرض الى نظارة الأوقاف العمومية من شيخ خدمة مسجد سيدنا الحسين رضي الله عنه في تاريخ ٣ذي القعدة ما مفاده: أن مجلس ذكر السعدية الذي ينعقد بذلك المسجد في كل يوم ثلاثاء لا يذكر فيه اسم الله الا مصحوبا بضرب الباز (نوع من الطبل ذي الصوت المزعج معروف) ولما في ذلك من تشويش الأسماع، نبهنا عليه مراراً بابطال هذه العادة وأن يذكروا الله ذكراً مجرداً عن الطبل فلم تثمر التنبيهات أدنى ثمرة، وحيث إن الزائرين لضريح الامام الحسين وطلبة العلم وجهوا اللوم والاعتراض على هذه العادة يقولون: إنها من المحرمات شرعاً، ويجب على الحاكم منعها بموجب صدور الأمر بابطاله، فكتب من نظارة الأوقاف العمومية الى حضرة فضيلتلو شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية ما معناه:

قد تبين من إفادة شيخ خدمة مسجد سيدنا الحسين ما ذكر فيها، وحيث إن النظر في ذلك مختص بسيادتكم بعثنا بها اليكم لافادة الحكم الشرعي فيها. فوردت إفادة حضرة الاستاذ شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية الى ديوان الاوقاف ناطقة بأن ضرب طبل الباز (أي ونحوه) في المساجد مما لا يسوغ شرعا فعلى ديوان الاوقاف أن يتخذ الطرق لمنعه، ثم زاد حضرة الاستاذ في حاشية وقيمه أن ذلك ليس مختصاً بالباز، بل هو عام في كل ما أوجب تشويشاً على المصلين حتى صرح أئمة العلماء بأنه يحرم رفع الصوت بذكر الله في المسجد اذا ترتب عليه التشويش. وكذلك كل ما يترتب عليه اجتماع من لا يليق اجتماعه بالمسجد كاختلاط الفتيان بالفتيات ومزاحمتهم ومكاتفتهم معهن في المساجد المحترمة.

*) نشرت في العدد ٩٥٨ الصادر فى ٤ ذي الحجة سنة ١٢٩٧

فصدر أمر نظارة الاوقاف الى مأموري أوقاف المحروسة بالزام كل مأمور بمنع وقوع مثل ذلك في المساجد التابعة لقسمه ، وأرسلت الى كل منهم صورة الافتاء المحرر من قبل حضرة شيخ الجامع الازهر ونبهت عليهم بالاطلاع عليه ، وفهم ماأودعه من الحكم الشرعي والسير على مقتضاه ، وأخذت التعهدات القوية على خدمة المساجد وأم المراقبة والتيقظ لمنع أي لفظ يوجب تشويشاً على المصلين ، أو اخلالا بحرمة المساجد اتباعا لنصوص الشريعة الغراء أهـ

وهذه طلائع خير تبشرنا بحياة الشريعة الحقة والسنة القويمة ، وبانتصار جيش نور الهدى على كتائب ظلم البدع والضلالة ، إذ وجه أولوا الامر منا نظرهم الى تخفيض شأن البدع وإزالتها . فلنشكر همة سعادتلو ناظر الاوقاف العمومية على عنايته بشأن الشرع الشريف واهتمامه باحترام أماكن العبادة وصيانتها عن وقوع اللهو وسيء الافعال . ونثني كل الثناء على حضرة سيادتلو شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية الذي لاتأخذه في الحق لومة لائم ، ولا يبالي في نصرة دين الله بكثرة عدد الجاهلين . فلقد نسمع بعضاً من الجهلة بل عدداً وافراً منهم يقول هذه سنة وجدنا عليها آباءنا ، وأخذ العهود علينا باتباعها أشياخنا ، وطبعت على حبها قلوبنا ، وتمرنت على القيام بها أعضاؤنا . فكيف يصح أن يحكم علينا بتركها، إن هذا لشيء عجاب : تلك حججهم الواهية كحجج غيرهم من المبتدعين يهدرون دم الشريعة طوعا لأغراضهم وتنفيذاً لأحكام عاداتهم ولبئس ماكانوا يصنعون، ويأبى الله الا أن يحق الحق على يد نصرائه الذين يفضلون تأييده على مدحة تصدر من جاهل لاتغني من الجاه شيئاً

ولا يتوهمن مطلع على أمر نظارة الاوقاف أن المنع خاص بالباز وطريقة السعدية ، أو بالطبل على العموم ، بل هو صريح في عموم كل فعل يوجب تشويشاً على مصل أو اخلالا بحرمة مسجد ، فيدخل في المنع طريقة المغاربة المنسوبة للسيد عبد السلام الاسمر (كذباً وافتراء) ومن شعائر أبناء تلك الطريقة اتخاذ طبول متنوعة ، بعضها مستطيل على شكل المدفع يحملونه على أعناقهم وقت الذكر وله صوت أشبه بصوت المدفع أيضاً ، وبعضها مستدير (يعرف بالطار) الا أنه كبير

ينشأ من ضربه صوت عنيف يصم الآذان ، ولا يجتمعون للذكر الا وفي مركز دائرتهم موقد نار ليشدوا عليها جلد الطبل لتزداد ضخامة الصوت . فاذا قاموا الى الذكر غضوا شناعة أصوات الطبول الكثيرة بضجتهم المزعجة يجأرون بألفاظ لامدلول لها ، وعند مايشتد خمر الاوهام في عقولهم يهيمون هيام المعاتيه، ويتجرد البعض منهم عن ثيابه ، ويأخذ جذوات من النار ويدخلها في فيه ويلامس بها بدنه إظهاراً للكرامة وحاشا أن تكون — من الكرامة — كل ذلك مع حركات شديدة واختباط غريب . ومن عاداتهم أن يأتوا بمثل هذا العمل في مسجد سيدنا الحسين بمولده ، فيجتمع عليهم الناس ، ويزدحم المتفرجون ، ويشوشون أذهان الزائرين . وهذا حظهم ولا يعلم أية سنة تبيح أمثال هذه المنكرات التي يجريها الجهلة في بيوت الله المعظمة ، ولا يخرجه من حكم المنع أيضاً مايفعل من نحو ذلك بأضرحة الاولياء رضي الله عنهم وإن لم تكن مساجد لمنافاتها الأدب الواجب في حقهم . على أن الشريعة المطهرة مانعة من أن يقرن ذكر الله بآلات لهو على العموم بدون استثناء ، خصوصاً وأنه لايشك عاقل في أن قصدهم بضرب الطبول وتوقيع الذكر على نغماتها إنما هو اللهو والطرب الممنوعان شرعاً يرشد لذلك تضاحكهم وتلاعبهم في نفس محافلهم الموقرة ، وتهافتهم فيها على مالا يليق بشأن العبادة ، ولو كلف أحدهم أن يهتف بذكر الله مرة ، وهو وحده لم تسمح نفسه بذلك ، ولكن يحركه الى هذا الذي يسميه ذكراً حب الطرب والميل الى اللعب وأقبح شيء في هذا الباب اعتقادهم أن طاعة شهواتهم هذه طاعة لله نعوذ بالله من الزيغ .

ولا ريب أن علماءنا رفع الله قدرهم سيفرحون بمنع هذه البدع فرحا شديداً ويرجون من عدالة الحكومة إزالة أمثالها مما تنكره نصوص الشرع ، ويعاب على العقول السليمة أن تقره ، ويشمل حكم المنع أيضاً الازدحامات التي تكون بالمساجد الشهيرة في أيام تعرف بالحضرات كيومي الأحد والاربعاء بمسجد السيدة زينب ويومي السبت والثلاثاء ويوم عاشوراء بمسجد سيدنا الحسين ، إذ يختلط فيه النساء والرجال على هيئة ينكرها الشرع والطبع جميعاً ، ويجري فيها من الفعال القبيحة مالا يليق ذكره . ولا يدع الازدحام مكانا لمصل يصلي فيه ، ولئن وجد المكان

فقلما يستطيع أداء الاركان بدون تشويش فيها . فهذا الأمر الذي أصدرته نظارة الاوقاف متبعة فيه افتاء شيخ الاسلام حفظه الله يعتبر أساساً جليلا لمنع كثير من البدع ، وقد فتح به باب من الخير لابد من الوصول الى غايته إن شاء الله وسيسري ذلك من القاهرة الى بلاد الارياف ، فعلى الناهجين لطرق البدعة أن يعدلوا عنها قبل أن تمسهم يد الحق فيجبرون على العدول غير مشكورين

(يقول جامع الكتاب) كان الاستاذ رحمه الله يسعى لدى الحكومة بابطال هذه البدع والمنكرات ولطلب الفتاوى التي يعتمد عليها . ثم ينوه بذلك في الجريدة الرسمية ويمدح العاملين

المقالة الحادية والعشرون

تفبير رسمي (*

بطلان الدوسة

أطلقنا في بعض أعداد جريدتنا السابقة من عهد قريب (١) لسان الشكر والثناء للجناب الخديوي وهيئة الحكومة المصرية الحاضرة وللسيد البكري على عنايتهم بابطال بدع كثيرة ليست من الدين في شيء ، بل هي مناقضة للدين المحمدي على خط مستقيم . ومن أفظع تلك البدع بدعة الدوسة ، وهي أن ينطرح الناس على الارض مصطفين أحدهم لجنب الآخر ، ثم يعلو أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحداً بعد واحد حتى ينتهي الى آخرهم ، وهم مسلمون من أهل الايمان قد أمر الله بتكريمهم وحرم إهانتهم إلا لحد أو تعزير شرعي ، بل قد نطق الكتاب العزيز بتكريم بني آدم على سائر الحيوانات مطلقاً . فكيف بالمؤمنين وهم أشرف هذا النوع ، وقد جعلهم الله في الدرجة الثالثة من عزته

(*) نشرت في العدد ١٠٣٨ الصادر في ١٦ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨

(١) كتب ذلك في عدد ١٠٣٥ الصادر في ١٣ ربيع الاول اذ ذكر أبطال الدوسة من حفلة المولد النبوي وكان قد مهد لمثل ذلك وسعى له سعيه

سبحانه وتعالى فقال : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فهل يليق بعدهذا أن يطرح المؤمن الشريف مهانا على التراب ليطأه حافر من البهم ، وقدنهت الشريعة الغراء عن إهانة أجساد الاموات فضلا عن الاحياء

وانا لنعلم علم اليقين ان حضرة مولانا (سيادتلو)شيخ الجامع الازهرومفتي الديار المصرية قدوقع لديه هذا الأمر — أعني ابطال الدوسة — موقع الاستحسان لعلمه أنها كانت من المنكرات الشرعية ، وكان يتمنى التفات الحكومة الى ابطالها وهو متشكر من الحكومة التي أقرت السيد البكري على إزالتها ، ولما عاد الجناب الخديوي للمذاكرة معه في هذا الشأن بيّن حفظه الله ما في هذه البدعة من المحظورات الشرعية كاهانة المؤمنين والتعرض للخطر فانه لا يؤمن أن تفلت رجل الحيوان الضخم كالحصان الذي يركبه الشيخ للدوسة فترض عضواً يابساً أوتبتك عضواً رخواً ويكون فيه تلف المصاب ، وان التعرض للخطر من المحظورات الشرعية المحرمة الارتكاب ، فأمره الجناب الخديوي أن ينبه على بعض المشايخ ليبينوا ذلك للعامة ، حتى يقتنعوا بحرمة هذه البدعة ، وقد نبه سيادته على كثير من الوعاظ والمدرسين ، وأوعز اليهم أن يشرحوا للعامة حقيقة الأمر ، ويوقفوهم على ان أمثال هذه البدع مما لا أصل له في الدين (على ان أصل الدوسة فيما تقول العامة كانت كرامة للشيخ يونس بأن يدوس حصانه على آنية من الزجاج ولا تنكسر ، وهي مرة واحدة ، فكيف تبدل الزجاج بالانسان ، وصارت عادة مستمرة؟ نعوذ بالله)

وكذلك سرّ كل السرور بذلك حضرات العلماء الأعلام أيدهم الله ، فانهم متضلعون من الأدلة النقلية والعقلية الناطقة بفضل المؤمنين وتحريم امتهانهم خصوصاً ، وان الدوسة وأمثالها من البدع لم يرد لها نوع مشابه ولا مماثل في السنة النبوية الغراء حتى يلتمس أحد موافقتها للشرع ولو بطريق التشبيه على بعد . وأما دعوى انها من الكرامات فهي باطلة عند أهل السنة والجماعة ، فانهم نصوا في كتب التوحيد على ان من شروط الكرامة ان لا تصير عادة يتعاطاها من يريد اظهارها على حسب إرادته فان صارت كذلك كأكل النار وضرب السلاح والدوسة

ونحوها التي يتعاطاها كل من (يأخذ عهداً على طريقة الرفاعي أو السعدي) أو (يتولى مشيخة السعدية) أيّا كان فلا تكون من قبيل الكرامة ، بل تعد من الحيل المذمومة ، ومن أجل ذلك قد بادر السيد البكري وساعده أهل الشرع والعقل على ابطال هاته البدع المضرة بالدين والدنيا

فما يتفوه به العامة الجهال الذين لا يعرفون ما الشرع وما الانسانية ، ولا يميزون الحسن والقبيح من ان هذه عادة قديمة ، فكيف يسوغ ابطالها يعد من الهذيان الذي لا طائل تحته ، فان العلماء الشرعيين على العموم شاهدون بأن الدوسة ونحوها من البدع المنكرة فهل يريد الجهال بجهلهم أن يغيروا شرع الله او يرومون ان العلماء يتحاشون عن إنكار البدع خوفاً من جهل الجهلاء ؟ أولا يعلم الجاهلون ان مصر بل وغيرها من البلدان قد حدث فيها من البدع المضرة بالدين ما كاد يذهب ببهجة الشريعة وأن ذلك كان تبعاً لأهواء الأمراء السالفين ، وان العلماء في الأزمان السابقة كانوا لا يستطيعون إعلان الحقيقة خوفاً من سطوة الظالمين، أما الآن وقد نظر الجناب الخديوي ورجال حكومته إلى الاصول الدينية بعين الاحترام ، فلا يخشى العلماء لومة لائم في إنكار المنكر ، وإقرار المعروف ، فليس على الجاهلين بالأصول الشرعية إلا أن يتعلموا خيراً لهم من ان يصادموا أوامر الدين الحق التي اتفق عليها العلماء ، وغضب الله ورسوله على كل من خالفها ، فان المصائب لم تصب علينا، ولم تصل أيدي الغدر والفجور الينا، إلا من يوم نبذ المسلمون أمور دينهم وراءهم ظهريا ، ولم يلتفتوا إلى حقيقة الشرع ، ولم يقفوا عند حدوده القويمة ، بل زادوا فيه أموراً ظنوها منه ، وهي ليست منه في شيء ، وان بطلان هذه العادة السيئة ليس إلا مفتاحاً لبطلان عادات كثيرة وسنرى البدع الضلالية تبطل شيئاً فشيئاً حتى يرجع الأمر إلى الكتاب والسنة ، ومذاهب الأئمة الراشدين ، هدانا الله للاقتداء بهم، وسنعود إلى الكلام في أمثال هاته البدع مراراً أخرى ان شاء الله تعالى

المقالة الثانية والعشرون

الدوسة (*

تقدم لنا الكلام على مايتعلق بهذه العادة المخالفة لأحكام الشريعة ونواميس الطبيعة الانسانية وأظهرنا ماشملنا من الافراح وماعمنا من المسرات عندما توجهت عناية الجناب العالي الخديوي إلى تطهير معالم الدين من دنس البدع ومستقبحات العادات المنابذة لقواعده القويمة الاساس الواضحة البيان واستضاءت بمشكاة نوره عزيمة حضرة الحسيب الاستاذ السيد البكري فاعلن أمره في السنة الاولى من تولية نقابة الأشراف (سنتنا هذه) ببطلان الدوسة وإلغائها كلياً من جميع الموالد والاحتفالات ، وقد رأينا بداية اتباع هذا الامر في مولد النبي صلى الله عليه وسلم الذي أقيم في سنتنا الحاضرة في العاصمة وجميع مدن القطر وبنادره . فتيقنا أن جيوش البدع الضالة قد انهزمت طلائعها ، وأن أنوار القواعد الشرعية أخذت تسطع في آفاق بلادنا فتطهر مرآة العقل من رجس الخرافات ، وتحفظ هيكل الانسان (الذي كرمه الله) من وطئه بمناسم الحيوانات ، ورجونا أن يثل عرش كثير ممن أعماهم الجهل وأضلتهم الشهوات

فبينما نحن نستنشق خبراً ينبيء بابادة تلك البدعة ، او يشعر بزجر أولئك المشعوذين وتأديب المخرفين . إذ سمعنا الآن أن نفراً ممن ألفوا تلك العادات استفزتهم مصالحهم الخصوصية ، وتحركت حميتهم للمحافظة على عوائدهم البالية، والتمسوا من حضرة الحسيب النسيب السيد البكري أن يبيح لهم إعادة الدوسة في مولد الشيخ يونس المدفون بجهة باب النصر (الذي روي عنه أن الزجاج صف أمام مناسم حصانه فركبه ومر عليه من غير أن يصاب بكسر أو يعتريه اختلال) محتجين على حضرة السيد المشار اليه في طلبهم هذا بأن الدوسة فضلا عن أنها

*) نشرت في العدد ١٠٧٨ الصادر في ٤ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ — ٣ ابريل سنة ١٨٨١

من كرامات أحد الاولياء (الشيخ يونس) فانه عمل بها منذ زمن طويل بمحضر كثير من العلماء الاعلام والسادة الفضلاء ، ولم يبد من واحد من حضراتهم معارضة أو تنديد بها ، ومضت تلك الازمان المديدة عليها ينقلها الخلف عن السلف ، فلا يصح بطلانها الآن اتباعا لسنة الآباء والاجداد ، ومحافظة على العادات والمشارب .

فاسفنا لهذا الخبر ووقفنا ننتظر ماسيكون من إجابتهم وترددنا بين أن ندحض ماقام بخيلاتهم من الشبهات التي جسمها لهم حب الصالح الخصوصي ، أو نقتصر على ماشرحناه من ذلك في بعض الاعداد السالفة ، ولكن لعلمنا بأن تلك العادة وما شابهها متمكنة في أفكار كثير من العامة وبسطاء الادراك ، فلابد وأن يكون طلب تلك الفئة ملائما لمذاق الجاهلين باحكام الشرع منهم، ترجح عندنا أن نذكر شيئاً مما يتعلق بطلبهم دفعا لأوهام بعض العامة الذين ربما يوقرون أولئك البسطاء الملحين على إعادة البدع وإن كنا على يقين من أنهم لايجابون لما طلبوه فنقول

اذا صح ماعزوه الى الولي الشهير الشيخ يونس من أنه ركب الحصان وداس به على ألواح الزجاج ولم تنكسر ، فتلك كرامة خصه بها المولى عز وجل ، وذلك لايفيد إباحة الدوسة بمعنى أن تصف الرجال منكبين على وجوههم متلاصقي الاكتاف يطأ ظهورها حيوان من العجم لم نشم من سيمته كرامة ، ولم نتبين من حافره منهاج الصالحين ، ويمشي أمامه وخلفه نفر من حاشيته وجم من المتفرجين وكلهم يطؤن بنعالهم أجساماً أعلى قدرها الحق في كتابه العزيز ، ولكن سوت بينها وبين العناصر الصلبة شرذمة الجاهلين ، ولو توسعنا في تلك الرواية غير الموثوق بها ، وقلنا إن ذاك الولي وطأ بمناسم فرسه ظهور الآدميين أيضاً ، ولم يلحقهم من ذلك ضرر ، فهذا انما كان (لو وقع) إظهاراً لأمر خارق للعادة على يد رجل من المتقين ، ولا يستلزم جواز وطيء أجسام الرجال بحوافر الخيل ونعال العامة من الناس بحيث يكون ذلك عادة يقع في كل زمان ومكان . فانه لايكون من باب الكرامات في شيء فضلا عما فيه من انتهاك حرمة الانسان وتعريضه للخطر والمضرات

وأما وقوعها في الازمان السالفة بمحضر العلماء والافاضل بهذه الصفة التي كانت عليها الآن فلا يستدل به على جوازها . وذلك لأن نصوص الشرع الشريف تكلفنا بالنظر في البدع والمستحدثات في الدين من حيث انطباقها وعدمه على المباحات . فان كان وجودها مخالفاً لتلك النصوص (القرآن الشريف والاحاديث الصحيحة وقول الائمة المجتهدين) أو يترتب عليها ما يخالفها كانت من المحرمات ووجب نهي فاعليها مهما طال عليها المدى في أي وقت وأي مكان وسواء نهي عن فعلها العلماء السابقون أو قضت عليهم ظروف أوقاتهم بعدم إذاعة النهي عنها وإلا فتكون من الملحقات بالمباح

وحيث إن هذه البدعة التي كلامنا الآن فيها (الدوسة) موجبة لانتهاك حرمة الانسان المنصوص على تكريمه ومظنة للخطر المنهي عن التعرض له شرعاً ولا تنطبق على قواعد الشرع الشريف ، سيما وإن عملها تحت اسم كرامة من كرامات الاولياء مما يؤدي بالعقول الى سوء الظن بالمتقين والصلحاء ، فهي لهذه الأسباب من المحرمات التي يجب التضافر على إزالتها من صفحة الوجوه وإن أتى عليها دور غير قليل من الزمان وهي متسلطة على عقول الجاهلين ، بل التي طال الزمن على وجودها يجب الاهتمام بازالتها بكل ما أمكن من الوسائل خشية أن تعتقدها العامة من المعالم الدينية ، ولا يخفى ما في ذلك من المضرات التي توجب اشتباه الحق بالباطل ، والخبيث بالطيب

وأما سكوت العلماء عن إزالتها وقت مشاهدتهم لها في تلك الايام الخالية فليس ناشئاً إلا عن تسلط الخرافات والبدع في أفكار معاصريهم من العامة ويأسهم من أن تساعدهم ولاة أمورهم على بطلانها لعدم اهتمامهم بشؤون معالم الدين والمحافظة على سلامته من الاوهام والبدع . فلو طلبوا إذ ذاك إزالتها لم يجدوا سميعاً لدعوتهم ، ولا ظهيراً يعضد مقاصدهم من أولي الحل والعقد فضلا عن أن عامة الناس تسلقهم بألسنة الجهالة وترميهم بالخروج عن الدين

أما الان وقد رزقنا أميراً يهمه أمر الدين ويسعى ما استطاع في تشييد معالمه وتثبيت أركانه ، فلا غرو اذا رأينا الفضلاء من العلماء والاتقياء من الصلحاء

يتسابقون في وعظ العامة وزجرهم عن الاقدام على اعتناق البدع والتهافت على الخرافات المفسدة لكمال العقل ، والطامسة لنور البصيرة (وقد رأينا من حضراتهم هذه الفعال المكافين بها شرعاً رأي العين) فان ذلك من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهم يثابون عليها إثابتهم على الفروض العينية والواجبات . (وقد نشرنا من مدة ماكان من جناب الاستاذ مفتي الديار المصرية وشيخ الجامع الازهر من التنبيه على الوعاظ والمدرسين ببيان هذه العادة السيئة ومخالفتها للشريعة ، وكفى بهذا إقناعاً للمتعصبين)

فلتعلم اذاً أهل البدع والخرافات أن نجوم طلاسمهم قد أفلت ، واستعيض عنها ببزوغ شموس الحق ومصابيح الارشاد إلى طرق الدين القويم ، فليريحوا أنفسهم من طلبات لاتعود عليهم إلا بالخيبة والنكال ، وليعودوا نفوسهم على التمسك بعروة الشرع والاستضاءة بنور الحق . فانه عما قليل تنقشع ظلماتهم عن قلوب العامة ، فلا يصغون لكلماتهم المبهمة ، ولا يعبؤن باعمالهم الشعوذية ، ذلك خير لهم من أن يحاولوا إعادة البدع الضالة التي صار رجوعها متعسراً ، بل متعذراً

ولنا أمل قوي في أن غيرة حضرة السيد البكري وميله إلى تعزيز شأن الشرع والمحافظة على دعائمه لاتسمح له باجابة طلب هؤلاء الناس ، بل يحثهم على العدول عن هذا الأمر الذي لايوافق مذاهب السنة ، ولا ينطبق على قواعد الشريعة (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)

المقالة الثالثة والعشرون

ماهو الفقر الحقيقي في البلاد (*)

(١)

ان أرضنا خصبة طيبة التربة ، ينبت فيها غالب النباتات التي تزرع على وجه المسكونة ، وهواؤها ونباتها في غاية الجودة ، يصلحان لتغذية كافة الحيوانات البرية ، وبنوها أصحاب كد ونصب ، وذوو صبر على العمل وجلد على التعب ، فهي من هذا الوجه عالم برأسه ، غنية مثرية ، لاتفنى كنوزها ولا تفرغ خزائنها ، وأنها بما تأتي من الثمرات لقادرة على حفظ ناموسها وتقوية شوكتها ، بل أن تكون سلطتها مبسوطة الى أقطار أخر

ولكن ليس كل هذا الذي ذكرته بكاف وحده في الغنى والثروة والعزة والشوكة وان كان من كليات أسبابها ، بل لابد أن ينضم اليه حسن استعمال هذه الأسباب الجليلة ، ورشاد الرأي في استخدامها ليوضع كل شيء في موضعه الطبيعي ، وتستعمل كل وسيلة لما يناسبها ، فان ضلت الآراء وساء الاستعمال ، فهذا هو الفقر المدقع الذي يعسر علاجه ، وماذا تصنع الوسائل المهيئة اذا لم تجد من يستعملها فيما هي وسيلة له . وأي شيء تفيد الفرص اذا لم تصادف من ينتهزها وهل يقطع السيف الصقيل بلا بطل ؟ كلا فما فقر البلاد الا قلة الراشدين فيها ، وما غناها الحقيقي الا كثرة المهتدين

فان سألنا سائل هل في بلادنا كثير من أولئك الذين هم غنى البلاد اذا وجدوا ، وهم فقرها اذا فقدوا . قلت : مع الأسف :لا،إنهم قليل ، نخشى اذا انقضي دورهم أو قضى أجلهم أن لا يوجد بدلهم ، والبرهان على ذلك أن الرجال تعرف بالآثار الثابتة في البلاد التي تدوم بدوامها أو على الأقل أجيالا وأحقابا ، وأن ذوي الآثار الحقيقية في بلادنا التي أثمرت ثمراً جناه أبناء الأوطان ،

(*) نشرت في العدد ١٠٧٣ الصادر في ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٢٩٨ - ٢٨ مارس سنة ١٨٨١

وتمتعوا بلذته مع الثقة بدوامه ، هم قليلون جداً ، بل ينحصرون في أوائل مراتب الأعداد ، وأن النفوس الطيبة تعرفهم ، وهم أيضاً يعرفون أنفسهم

الزراعة على حالها القديم لم يوجد منا من يضع طريقة لزيادة الحاصلات أو تسهيل العمل وتخفيف المشقة ، بل حصل فيها النقص بفقدان كثير من الانواع التي كانت تزرع في الأزمان البعيدة كالكتان والسمسم وغيرهما ، والاقتصار على بعض أصناف قليلة ، والصناعة قد انحطت درجتها عما كانت عليه من نحو ستين سنة ، وأظن هذا لايحتاج الى البيان ، والتجارة لم تتغير حالتها عما كانت عليه يوم صارت مصر مصراً ، وبيوت التجارة الواسعة من أبنائها قليلة جداً ، إن لم نقل مفقودة بالنسبة لبلاد أخر ، ورجال العلم ومصابيح الفضل لانراهم إلا قليلا ، إذا أردنا أن نعددهم لانحتاج الى زيادة عن عقد الأصابع ، بل ربما تقف دونها بكثير ، والمترشحون لاستلام إدارة المصالح العمومية التي هي أساس العمران ، وأداؤها حق الواجب لها على وجه العدل ، وطريق الحق الذي لايخامره الباطل ، اللهم الا خطأ نادراً هم أيضاً كسابقيهم ، نعم يوجد عندنا من لهم استعداد للتمرن والتعلم ، وشاهدنا على ذلك الآثار والعيان

على أن أولئك الأفاضل من رجال المعارف أو المحنكين في السياسة والادارة إن كانوا في هذا الوقت كثيراً ، فليس في البلاد أساس حقيقي يوجب أن يتأثرهم من بعدهم حتى لا تنقطع سلسلة الصالحين ، بل إن كانوا وجدوا فبالصدفة والاتفاق ، ثم ينثرهم الزمان ، فلا يطول الا وقد أتى عليهم بحكمه القضاء المحتوم ، وهيهات أن يأتي هذا التراب بأمثالهم . فمثل البلاد وهؤلاء الفضلاء (إن كانوا) كمثل عاجز نبش في أرض قفر ، فوجد فيها كنزاً يكفي لنفقته مدة معينة ، فاذا مضت تلك المدة فقد المال واستسلم المسكين لأحكام الصدف ، والغالب على حاله أن يموت جوعاً ، فيكون فريسة لذئب أو طعمة لكلاب

والسبب في ذلك عندنا عدم سريان روح التربية الشرعية العقلية التي تجعل إحساس الانسان بمنافع بلاده كاحساسه بمنافع نفسه ، وشعوره باضرار وطنه كشعوره باضرار ذاته ، إن لم نقل تجعل الاحساس الاول أقوى من الثاني ،

وتزيد في إحساس الانسان بمنافعه ومضاره . ولا أتكلم فيها الآن ، فان لي في مقالي هذا مقصداً سواها . فبلادنا من هذا الوجه فقيرة وا أسفاه

(تلك آثار السابقين من الذين وسد اليهم أمر البلاد فجعلوها بأهوائهم ألعوبة ، وتولوا أمرها فصيروها بسيء تصرفاتهم أعجوبة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله) — إن جميع النبهاء في أوطاننا يوافقوننا على هذا الذي قلناه ، ويشاركوننا في الأسف على مثل هذه الحال أعني فقر البلاد من الرجال ، والدليل على ذلك أن غالبهم اذا ذاكرته في مثل هذا الموضوع رأيته ينطق بأنه قد بذل كل الجهد في الوصول الى ما انتهى اليه من درجات الفضل ، ويتأسف على أن بقية الناس لم يلحقوه ، فهذه منهم شهادة على أن الفضل قليل وبنوه مثله

فان سألنا سائل : هل من مانع يحول دون وضع ذاك الأساس أساس المجد والعزة ؟ أعني به أساس التربية الحقة . وهل يوجد عنه صارف سوى الغفلة والانحطاط هم الأفراد من الناس الذين يجب عليهم طلبه والمحافظة عليه قلت : لا إننا كنا في الزمن السابق نتعلل في إغفال مصالحنا وإغماض الجفن عن رؤية نور الهداية بالخوف من ظلم الحكومة ، وكان لنا بعض الحق في ذلك ، فان السلطة في تلك الازمان كانت ضاربة على العقول والأفكار حجباً من الرعب والخشية ، فان غاياتها من التصرف في الحقوق بما تشاء ونفوذ الكلمة ، واستيفاء الاغراض ، وقضاء الأوطار الذاتية لايمكن إلا مع جهل المحكومين وعمائهم حتى لايعرفون حقا فيطلبونه ، ولا باطلا فيدفعونه

وهي وإن أدخلت في البلاد أسماء كثيرة كاسم المدارس والمكاتب والمعارف والعلوم والتمدن والحرية والقوانين والنظامات والأوامر واللوائح ، وما شاكل ذلك ، إلا أنها كانت بدون مسميات ، بل تطلق عليها هذه الأسماء مجازاً بعيداً ، وانما كانت تجلب على النظر والسمع صوراً خيالية اذا امتحنها العقل ذهبت أوهاما ، فلم تكن في تلك الأيام سعة لفاعل خير أن يفعله ، بل لو ظهر أحد في ذلك الوقت من غير حواشي المتسلطين بأن له ثروة يريد أن ينفق منها في سبيل خيري أصبح لا يجد نفسه ولا ماله ، فهذه كانت أعذارنا في الأزمان

السابقة ، ولو دققنا فيها لرأيناها حجة علينا لا لنا ، فكيف الاعتذار ؟

لكننا فى هذه الايام والحمد لله قد أصبحنا في مأمن من هذا . لو تحققت حكومتنا أن لأحدنا كنوز الارض لم يسعها إلا المحافظة على روحه وماله ، ولكانت حريصة على ازدياد ثروته ، ولئن طلب الانفاق جهده في الأعمال الخيرية لجدت هي في مساعدته ، وتسهيل الوسائل الى بلوغ مقصده ، ولو أبصرت شعاع فكر بدا من أي عقل لسارعت الى تقويته حتى يكون شمساً منيرة ، وإن تنشط أقوام من رعيتها الى الاجتماع والتألف والاتحاد لغاية محمودة كبث علم أو إذاعة فضل رأيتها تقيم لبيت الألفة أعمدة ، وتوطد له أركانا ، وتحيط به سوراً منيعاً ، كما شهدنا ذلك منها رأي العين في شأن الجمعيتين الخيريتين في القاهرة والاسكندرية ، بل وفي سائر الجمعيات الخيرية الوطنية ، وبالجملة فان الحكومة قد أطلقت عنان العمل لكل طالب حق ، وقاصد صلاح ، وراغب فلاح ، فليس من جهة الحكومة هذا المانع ، فبطل ذلك التعلل

فان سأل سائل أليس في البلاد ذوو ثروة وأولوجاه تحوم عليهم الأفكار وتتوجه نحوهم القلوب ، وتنجذب اليهم النفوس ، ولهم من الاستطاعة مايمكنهم من الأعمال الجليلة ، التي تكون عنواناً لمجدهم ، وسياجا حافظاً لناموسهم ، ورفعة شأنهم ، فتحركهم الغيرة ، وتبعثهم الحمية على انضمام بعضهم إلى بعض ، وبذل الزائد من فضلات أموالهم فى سبيل حفظ الشرف فى أبنائهم وأعقابهم على ما هو شأن العقلاء فى سائر أقطار الدنيا

قلت: إني أجيبك عن هذا السؤال غداً إن شاء الله وإن غداً لناظره قريب

الجواب (١)

نعم يوجد كثير من ذوي الثروة واليسار ، وهم المتمتعون بخير البلاد ، وهم الذين ينبغي لهم أن يطلبوا لها رفعة الشأن ومنعة الجانب ، لأن الأعين الغادرة محلقة اليهم ، طالبة انتزاع ما بأيديهم ، وأن تسلط الدخلاء (٢) عليها ،

«١» جاء هذا الجواب بعد عدة أعداد لكثرة المواد الرسمية «٢» يعني الاجانب

وتلاعب الأيدي المتغلبة بأمورها، يضر بأولئك الأغنياء أولا وبالذات ، ولا يضر غيرهم من الفقراء الا ثانياً وبالعرض ، بل ربما لا يصل الضرر الى الفقراء الذين هم صنف العملة والصناع أصلا ، فان الأنظار لاترمق الا ذوي الاعتبار فهم منتهى الاطماع

فان سأل سائل: ألا يحب أولئك الأغنياء أن يطمئنوا على أنفسهم وأموالهم؟ ألا يبتغون أن تثبت قاعدة العدل فيهم وفي أعقابهم من بعدهم ؟ ألا يعلمون أن الزمان قد انقلب وضعه ، وتغير طبعه ، فصارت السلطة الخشنية لادوام لها ، وأن الطرق البسيطة التي اعتدناها لكسب المال وحفظ الناموس أصبحت غير كافية لحفظ ما حصلناه ، ولا لتحصيل ما فقدناه . أو لم ينظروا الى الأيدي الغريبة كيف تتلاعب فيما بينهم طلباً لاختلاس أرواحهم من أبدانهم ؟ وأن جحافل المكر والدهاء قد زحفت عليهم ، ولن يدفعها الا حرس الحزم والبصيرة؟ ألا يعقلون أن التغالب فى هذه الاوقات أصبح معظمه ان لم أقل جميعه تغالب الأفكار والآراء ؟ فالامة ذات البسطة فى الأفكار ، والمهارة في المعارف، هي الأقوى سلطاناً ، والأقوم سياسة ، وهي الغالبة على سواها من الأمم . أفلم يبصروا أنه لامعنى لشدة البأس في أيامنا هذه ؟ ألا تدرع الحكمة وتبطن الدهاء؟ ألم يقفوا على الأسباب التي أعدها غيرنا من جيراننا لنيل أعلى مراقي المجد في أوطانه ؟ ثم اندفع الينا لا ندري ماذا يريد أن يصنع بنا ؟ فان عقلوا جميع ذلك أفلا يفقهون أنهم ان لم يكونوا نصراء لجيش العلم أصبحوا على شفا الخطر؟

قلنا : بلى أن اختلاطنا بالأمم الاوربية سنين عديدة أظنه علمنا أسباب الضعف ووسائل القوة ، وعرفنا مقدار المدنية ودرجة الخشونة ، فلا يكاد أحد من أولئك الذين نحدث عنهم الا وقد وقف على الشيء من ذلك . وكثيراً ما نسمعهم يتحدثون به على أطراف ألسنتهم ، ويلوكون أمثال هذه المباحث فيما بين أشداقهم ، كأنهم يعلمونها حق العلم

لكن لا تتحرك نفوسهم مع ذلك الى ابراز الآثار ، وطاب ماعلموه صلاحا بالفعل دون القول ، كل واحد منهم يطلب الخير ، ولكن لا يحب أن يكون

البادىء به ، بل يريد أن يبدأ الغير ، ثم هو يتبعه ، فان كانوا كذلك فلا بادىء ولا تابع ، وكأني بهم على احدى حالتين اما أن جميع الحوادث التي مرت على رءوسهم لم تكسبهم معرفة ، ولم تحرك فيهم غيرة ، فذلك غاية الجهل نعوذ بالله واننا نعزهم عنه ، واما انهم علموا و تفقهوا و لكن استولى اليأس على نفوسهم فذلك ليس من شأن العقلاء ، فان القنوط من رحمة الله كفر

هذه أيامنا نسمع فيها طنين الأماني صادراً من القادرين على بلوغها لكنهم يطلبونها من غير وجهها ، فيعز عليهم منالها . يروم كثير من الناس خصوصاً من ذوي الاقتدار أن يكون ميزان العدل منتصباً لا يميل حبة ولا مثقالا ، ولكن على شرط أن لا يؤخذ منهم ما يجب عليهم ، وان لا يكلفوا بعمل يطلبه العدل ويحكم به القانون ، يودون أن تنتشر العلوم في أطراف البلاد حتى يعم نورها كل نقطة من بسيطها لكن على شرط أن لا يكون لهم فيها مدخل لا ببذل نقد ولا تجشم عمل ، ويرغبون أن يكون المأمورون وعمال الحكومة من ذوي الاستقامة والجد والاجتهاد ، ومراعاة المصلحة العامة ، لكن بدون أن يقف واحد منهم على باب مدرسة ، ولم يخطر بباله ماهي المصلحة العمومية ، ولم يجد من نفسه إحساساً بحلاوة الاستقامة ومرارة الاعوجاج وان ذلك لمن المحال البين ، وبالجملة فطالب الاصلاح منا لا يرضى لنفسه أن يخطو خطوة واحدة في سبيل تحصيله ، بل يحب ان يأتيه الاصلاح ساعياً اليه ويحدق نظره نحو الحكومة يطالب منها ان تخلق خلقاً جديداً ، مع ان سنة من قبلنا ومن معنا في عصرنا ان يسعى أفراد الأمة وبلاؤها في جمع الكلمة وبذل الدينار والدرهم وتعاضد الافكار والاعمال على تحصيل ما يطلبون بأسبابه ووسائله الحقيقية بدون توان في العمل ولا فتور في الهمم

فعلى الأغنياء منا الذين يخافون من تغلب الغير عليهم وتطاول الأيدي الظالمة اليهم أكثر من الفقراء ان يتألفوا ويتحدوا ويبذلوا من أموالهم في سبيل افتتاح المدارس والمكاتب واتساع دوائر التعليم حتى تعم التربية وتثبت في البلاد جراثيم العقل والادراك ، وتنمو روح الحق والصلاح ، وتتهذب النفوس ويشتد الاحساس بالمنافع والمضار ، فيوجد من أبناء البلاد من يضارع بني غيرها من

الأمم فتكون عند ذلك معهم في رتبة المساواة ، لهم مالنا ، وعليهم ماعلينا ، وعلى الحكومة في جميع ذلك أن تسن قوانين التعليم ، وتلاحظ أحوال المعلمين والمتعلمين

أفلم يعتبروا بالجمعيات الأوربيـة التي لم يكن أعضاؤها إلا الزارعين والصانعين والتجار كيف يبلغ ايراد الواحدة منها نحو ثلاثين مليونا من الجنيهات وبعضها أكثر وبعضها أقل ، وجميع ذلك يصرف في بث المعارف والعلوم واتساع دائرة الصنائع والفنون ، وتقوية روح التربية الحقة التي لا شأن للبلاد إلا إذا تحلى ابناؤها بحلاها

أيظنون انه يمكن لهم نوال شرف أو حفظ ناموس إلا إذا جاهدوا في سبيل الاصلاح بأموالهم وأنفسهم وأنشأوا الآثار الظاهرة التي يحق لهم بعدها الافتخار بأنهم عرفوا مصلحة أنفسهم حقيقة فطلبوها من طريقها المألوف

ان شأن الحكومة ليس الا أن تطلق للناس عنان العمل فيعملون لأنفسهم ما يعلمونه خيراً لها ، فان أية حكومة قيل انها عادلة حرة لم يكن لها إلا انها أباحت للناس أن يدخلوا في أي باب من أبواب المنافع ويطلبوا الخير الحقيقي بكل وسيلة صحيحة، فاذا لم يكن في الناس خصوصاً الكبراء من يهمه أمر مصلحته، وبقاء شرفه وناموسه ، فسفه منه أن يطلب من الحكومة مالا يطلبه هو لنفسه من نفسه

اني بالاختصار أوجه كلامي هذا إلى الاغنياء الذين يتكلمون كثيراً فيقولون : لو ياليت : لوما كان : وما أشبه ذلك من أدوات الشرط والتمني ثم ينفقون النفقات الجسيمة فيما يسمونه بأنفسهم لهواً وفخاراً كاذباً، ولا يبذلون درهماً أوان بذلوا فشيء يسير جداً يقدر عليه أفقر الناس في المطلوب الذي يعدونه عظيما

وانهم يعلمون ان عدل الجاهل ظلم ، فان صدر منه بطريق الصدفة لا عن مقصد ، فلابد له من الخبط فيظلم ، وان غناه فقر ، فانه أتى من البخت الاتفاقي ولابد يوما ان يختل سيره فيفتقر ، وان كمال الجاهل نقص ، فانه طلاء على حائط خرب عما قليل يكشط ويتناثر منه التراب ثم يتهدم

فقر الجهول بلا علم إلى أدب فقر الحمار بلا رأس إلى ذنب

لا نصدقهم فيما يقولون من انهم يحبون العدل ويرغبون الاصلاح ويعرفون خير

أنفسهم وبلادهم ، بل ولا يصدقهم أحد أبداً إلا إذا برزوا إلى ميدان العمل فحينئذ نعترف لهم بكل مايدعون ، ونؤدي لهم جزيل الشكر كما يحبون ويشتهون ، أما الكلام فقد شبعت منه الآذان وأفعمت به القلوب والسلام

المقالة الرابعة والعشرون

وضع الشيء في غير محله(*)

هو تصرف مضر يدعو اليه الجهل بالعواقب أو عدم الاكتراث بما يترتب عليه من المضار ، وانا نذكر من أمثاله بعض الأوضاع الالهية التي ألهمنا الله حكمتها ، وأرشدنا بالفطرة إلى فائدتها ، ثم أقام لنا من الحوادث برهاناً على المضار التي تأتي من سوء التصرف فيها ، والعدول بها عن وضعها

ان الله تعالى يهب للكثير من عباده أو كلهم قرائح جيدة شديدة النفوذ في الحقائق وفطنة زائدة سريعة الانتباه الى الدقائق ، ذلك لان تكون هذه المنحة عدة لصاحبها ، وآلة للوقوف على مخبآت الامور ، والوصول من المقدمات الى النتائج ، ومن المشهودات الى ماوراءها من الخفيات ليحرز من المنافع ماشاء الله أن يحرز ، ويحذر من المضرات ماربما يكون خبيئاً له في ضمن مايتصوره نافعاً فيعيش بهذا النور سعيداً يعلم الخير فيقتنيه ، ويبصر الشر فيتقيه

لكن من الأسف ان كثيراً من أرباب هذه المنح مع احساسهم من أنفسهم هذه الصفة الجليلة فيهم (أعني شدة الادراك وجودة القريحة) ينحرفون بها عن هذا الوضع الحق فيستعملون تلك الآلة الرفيعة للوصول الى غايات ساقطة حتى من نظرهم أيضاً ، فترى البعض من أولئك الأذكياء يعمل فكره ، ويقلب نظره ، ليدبر حيلة في استمالة غيداء ، واستعطاف هيفاء ، أو يجد وسيلة للحظوة عند ذات قد يهزأ بالأسل ، وأعين غنية عن الكحل بالكحل ؛ ويبذل هذا الجوهر النفيس في منافسة الأنداد في ذلك ومغالبتهم وإلقاء العداوة والبغضاء بين المحبوب وبين

(*) نشرت في العدد ١١٠٥ الصادر في ١ جمادي الثاني سنة ١٢٩٨ - ٧ مايو ١٨٨١

طالبيه ، وما شابه ذلك من الامور الدقيقة التي تحتاج (والحق يقال) الى صرف زمن واعمال فكر ، كما يشهد بذلك المجربون ، غير ان هذه الأمور مع دقتها لاداعي اليها ، والاتعاب التي تصرف فيها تفوق بألف ضعف اللذة التي تنال منها، وهي معلومة يخجل الانسان بعد نيلها من جميع ما كان استعمله لها قبل ذلك

وزيادة عن الاتعاب التي هي خسارة محضة لاربح فيها يفوت صاحب الادراك وقت غالي الثمن عاليّ القيمة يطالبه باغتنام فوائده وانتهاز فرصه ،وهو في غفلة عنه بهذا اللهو ، بل العناء الذي حتمه على نفسه بنفسه ، فيمضي عليه من جميع المنافع تعرض نفسها على فطنته وذكائه ، فيحول عنها وجهه فتدبر عنه عازمة على أن لاتعود اليه قاطبة . هذا هو الذي يزعج كل فطن ذكي يلتفت إلى ماضيه فيجده خاليًا من المنافع الثابتة التي كانت تبقى عدة لمستقبله ، ويعدها العقلاء منفعة أو شرفا حقيقيًا ، ويرى بعض من كان دونه أصبح أرفع وأرق وأملك لناصية الدهر منه ، فيتقلب على جمر الاسف خصوصًا اذا طرقه الزمان بطارقة المصائب ، فينتبه كأن لم يكن ذا انتباه، ولكن يصعب عليه بعد ذلك أن يوجد قوة أوهنها في أعمال باطلة الى ماأعدت له من الاعمال الحقيقية . فاذاطلب لنفسه بعد ذلك مايطلب العقلاء من أسباب السعادة رأى تلك القريحة قد صدأت ، والفكرة طمست بما خيم عليها من تلك الصور الكثيفة ، فيجتهد كل الاجتهاد لاماطتها عنه ليخلص من ظلماتها المكدرة . وكأنه لايستطيع أن يعيدها الى صفاتها الاولى ، ويكون له من لوم السريرة وتوبيخ العقل مايكفي في تعذيبه وتعنيفه حتى يتدارك مافاته ويملك زمام الاعمال المستقيمة ، ويرشد مع الراشدين

خصوصًا اذا كان من أبناء الذوات أو الاغنياء ، أو موظفي الحكومة ، أو من شابههم من الذين تحكم عليهم مكانتهم بان يكونوا أسرع الناس الى الجسد ، وأقربهم الى الحق ، وأحرصهم على نيل الشرف لحفظ الاسم الاول على رفعته ، والاستزادة من إعلاء صيته وشهرته ، ولما يراه صاحب الشرف من أنه أحق وأولى بعلو الشأن والعظمة في الانفس من غيرهما . فهذا الوجدان منه يبعثه على أن يكون أعلى وأجل من غيره فيما به الرفعة والشأن في كل زمن على اختلاف

الاحوال وتقلب الهيآت وهو الكمال الادراكي ، والفضل الذي ينشأ عن صحة الادراك . فهذا هو الأمر الثابت الذي يمكن للانسان أن ينال به جميع رغوباته سواء صلحت أحوال العالم أو فسدت ، بخلاف من يفوته هذا الكمال . فان أمره موكول الى اختلال الاحوال وفسادها ، فما دام النظام مختلا ، والعدل ضائعاً ، والحق مستوراً ، فهو يؤمل التقدم وعلو المنزلة . فان لمع بارق من الحق أواستقام أمر النظام ، وأخذ في التصرف بالعدل ، اصبح هذا الذكي النبيه في زاوية من الاهمال ، وأهدر شأنه وعد في الآحاد السافلة

هذا كله اذا اقتصر في تصرفه على استعمال قوة القريحة في غير موضوعها ، وبقي حافظاً لجرثومة هذه القوة (القوة والادراك)

فان أضاف الى سوء التصرف سعياً في إطفاء نورها من أصله بأن عكف على معاطاة الارواح المسكرة والجواهر المخدرة من أنواع الخمور والحشيش والافيون والمعاجين والجوارش ونحو ذلك . فقد أضاع هذا النور الالهي الذي أودعه الله فيه ، وانقطع الامل من عودته الى ما كان عليه . فان مزاج عضو الادراك يختل بتعاطي هذه المهلكات ، فلا يعود للقوة مركز تقوم عليه . فان ظن أنه يدرك في بعض الاحيان سراً ، أو يفهم خطاباً أو يرد جوابا ، فليعلم أن ذلك ماهو إلا بقية تعلق خفيف لتلك القوة الشريفة ببدنه المعتل ، وأنه لو لم يكن يتناول هذه المضرات لكان الباقي عنده أضعاف مايجده من نفسه بكثير ، وإن الذي منحه الله من هذا السر اللطيف كان عطاء جزيلا فجعله نزراً قليلا

خصوصاً وان الانهماك في قرع الأكواب والتهالك على الشراب مما يستدعي زيادة للسهر بالليل ويتبعها فتور البدن واستيلاء الوخامة بالنهار ، ويقتضي تماديا في الملاهي والهذر ، ويفتح على الانسان باب الزهو واللعب ، ويستلزم رفع الحجاب عن السر ، وكشف ستار الحياء ، وعدم المبالاة بما يصدر عن الجوارح من الحركات والسكنات ، ويستوي فيه الضار والنافع ، فيختلط به الأمر ، ويكتسب صاحبه ذكراً سيئاً بما يفعل من الامور الخسيسة التي لا يشعر بها حال ضياع الفكرة واستيلاء السكرة ، ثم يزداد الوصف الاول وهو سوء التصرف الى

حد يهدم الشرف ، ويحط من القدر ، حتى عند أدنياء الناس وأخسائهم، وذلك أن يفرغ مابقي من فطنته في انتخاب كلمة تضحك الحاضرين وحركة تطرب الناظرين ، وبدل أن يستعمل مخيلته في تشخيص الاحوال الواقعية وتقريب الحقائق الى الاذهان ، وتنوير الافكار بما يبتدعه من حسن التصور يستعملها في ثلم الاعراض الطاهرة يخيل حال عالم أوصفة فاضل ، ثم يبرزها على صورة بشعة وحالة مستنكرة ، فيعجب ذلك جلساءه ، لكنه يغضب ذمته وسريرته ، ولا يرضى به مابقي من عقله

فان تمادى به هذا الحال أزماناً حتى عرفته العامة ، ووقف عليه الخاصة ونظر اليه بعين الازدراء ، من الفضلاء والعقلاء (وإن بقي مبجلا في أعين أصحابه فهذا لاينفعه بشيء) ثم استمر على ذلك ولم يجد لنفسه رادعا عنه من نفسه . فهذا هو الذي يخشى على الهيئة الاجتماعية من وجوده فسدت طبيعته ، وانقلبت فطرته، وعميت بصيرته ، حتى لايدرك هذا الذي تقول أيضاً، فبئست الحال حاله، فعلى حكومة البلاد أن تقتفي أثره ، وتضع لمن يكون على هذه الشاكلة قانوناً صعباً يخيف القلوب وإن لم تكن واعية ، ويزعج الخواطر وإن لم تكن حاضرة، ويؤثر في العقول وإن لم تكن سليمة، وإلا فان هذه أمراض خبيثة سريعة الانتشار لاسيما اذا بدأت في الخاصة، فانها لاتلبث أن تسري فيما بين العامة

المقالة الخامسة والعشرون

الكتب العلمية وغيرها (*)

تنقسم المؤلفات المتداولة في أيدي المصريين الى أقسام متفاوتة بتفاوت أميال المطالعين سواء كانت هذه الاميال غريزية أو مكتسبة من طوارىء التربية وعوارضها . وهذه الاقسام كما اختلفت في الشهرة والخفاء ، وكثرة التداول بين يدي الكثير من الناس وفي منتديات المشتغلين بمطالعتها ، ومحافلهم الخصوصية والعمومية

(*) نشرت في العدد ١١٠٩ الصادر في ١٢ جمادي الثانية سنة ١٢٩٨ — ١١ مايو سنة ١٨٨١

فمنها الكتب النقلية الدينية وهي مابين فيها مسائل الدين سواء كانت من الاصول كعلم الكلام أو الفروع كالعبادات والمعاملات . ومن هذا القبيل كتب التفسير والحديث ، وكتب الاخلاق المأخوذة من قواعد الدين ككتاب الاحياء لحجة الاسلام الغزالي ، وهذا القسم نرى من المشتغلين به في بلادنا عدداً كثيراً نبغ منهم الافاضل والاماثل وكثرت فيهم المؤلفات وانتشرت بالنسخ والطبع في غالب الجهات

(ومنها) الكتب العقلية الحكمية وهي مايبحث فيها عن الحقائق الوجودية، وأحوالها ولوازمها على قدر الطاقة البشرية . وهذا القسم نادر الوجود في بلادنا والمشتغلون بكتبه أقل من القليل ، بل إنه لم يطبع منه في مطابعنا الانزر يسير من فروعه كبعض كتب في الطبيعة والكيمياء والطب والرياضة غير صحيحة العبارات والكتب الموجودة منه عند البعض من الناس كلها ، إما بالنسخ وإما بالطبع الاجنبي ، ولا تشترى إلا بالثمن الجسيم

(ومنها) الكتب الادبية ، وهي مايبحث فيها عن تنوير الافكار ، وتهذيب الاخلاق . ومن هذا القبيل كتب التاريخ ، وكتب الاخلاق العقلية ، وكتب الرومانيات ، وهي المخترعة لمقصد جليل كتعليم الادب وبيان أحوال الأمم ، والحث على الفضائل والتنفير من الرذائل ، ككتاب كليلة ، ودمنة ، وفاكهة الخلفا ، والمرزبان ، والتليماك ، والقصة التي تترجم في جريدة الاهرام وغيرها من بقية المؤلفات . وهذا القسم كثير التداول في المدن والثغور ، ويكثر فى أبناء وطننا وجود البارعين فيه المشتغلين بدراسته ، العاكفين على مطالعته

(ومنها) كتب الاكاذيب الصرفة وهي مايذكر فيها تاريخ أقوام على غير الواقع ، وتارة تكون بعبارة سخيفة مخلة بقوانين اللغة . ومن هذا القبيل كتب أبو زيد وعنتر عبس ، وابراهيم بن حسن ، والظاهر بيبرس ، والمشتغلون بهذا القسم أكثر من الكثير ، وقد طبعت كتبه عندنا مئات مرات ونفق سوقها، ولم يكن بين الطبعة والثانية إلا زمن قليل

ومنها كتب الخرافات وهي تارة تبحث عن نسبة بعض الكائنات الى

الارواح الشريرة المعبر عنها بالعفاريت ، وتارة تتكلم فى ارتباط الحوادث الجوية والآثار الكونية ببعض الاسباب التي لامناسبة بينها وبين مازعموه ناشئا عنها ، وتارة تثبت مالا يقبله العقل ولا ينطبق على قواعد الشرع الشريف . ومن هذا القبيل مايعرف عند الناس بعلم الروحاني وعلم الكيميا (الكاذبة) وكتب الوفق وكتب الحرف والزايرجات وذلك ككتاب أبو معشر ، والكواكب السيارة ، وشمس المعارف الكبرى والصغرى ، وكتاب الحرف المنسوب للحكيم هرمس والبرهتية وشرحها والخلخلوتية وشرحها ، والجلجلوتيةوشرحها ، ودعوةالسباب ودعوة القمر بشروحها ، وكتب المنادل واستحضار الخادم والرسائل التي يذكر فيها أمر الكتابة بالمحبة والبغض ، وعقد الرجل عن الجماع وإرسال الهواتف والتسليط بالرجم على البيوت وغير ذلك مما لايحصيه القلم . وهذا القسم قداشتغل به فى ديارنا كثير من الناس ، ونبغ منهم الدجالون والمحتالون ، وطبع من كتبه عندنا مايخرج عن حد الحصر بالقلم واللسان،

واذا تمهدت هذه المقدمات فنقول :

قد كانت جميع هذه الكتب بأصنافها تطبع في مطابع المحروسة بدون استئذان ولا تقييد ، ثم من عهد قريب (على عهد وزارتنا الحاضرة) صدرت الأوامر بأن لايطبع كتاب في إحدى المطابع إلا بعد الحصول على رخصة تجيز الطبع ، وحجر في أثناء ذلك علي طبع ما يخل بالديانة أو السياسة ليس إلا ، وكان يصرح بطبع غير ذلك من أصناف القسمين الأخيرين (هما كتب الاكاذيب الصرفة ، وكتب الخرافات) على أنهما ليسا مما يخل بالدين ، ولا مما يناقض السياسة ، ولذلك كثر طبع الكتب في هذين القسمين حتى انتشرت في سائر جهات القطر ، واشتغل بمطالعتها كثير من الأهلين ، فاذا شب الولد ومالت نفسه الى المطالعة في الكتب لم يجد أمامه الا أصناف هذه الكتب الكاذبة أو الخرافية ، فيجهد نفسه في قراءتها ، فيشيب وهي بين يديه ، ويموت وهو معتقد لما فيها من الأضاليل ، ونجم عن ذلك انغماس الغالب في ظلم الجهالات ، وانحطاطهم عن درجات الكمالات ، وهذا من أضر المؤثرات فى تأخر البلاد وبقائها في حفر

الهمجية والاخشيشان . ولهذا قد وجهت الحكومة السنية عنايتها الى تطهير البلاد من هذه الأمراض المعدية السريعة الانتقال ، فصدرت أوامر نظارة الداخلية الجليلة بالحجر على طبع الكتب المضرة بالعقول ، المخلة بالآداب ، وهي كتب القسمين الأخيرين . فمن الآن فصاعدا لا يرخص لأية مطبعة أن تطبع من هذه الكتب شيئاً ، ومن يتعد ذلك يجاز بأشد الجزاء . وستؤخذ الاحتياطات اللازمة لمنع الاختلاس في هذا الشأن ، فعلى الذين يميلون الى مطالعة مثل هذه الكتب لتسلية النفس وترويح الخاطر أن يستعيضوها بغيرها من الكتب المفيدة الصحيحة . فمن كانت رغبته متجهة الى كتب (أبو زيد) وما معها من الكتب كعنترعبس وغيرها أن يستبدلها بكتب التاريخ الصحيحة ، كتاريخ المسعودي وتاريخ (إظهار أنوار الجليل)لحضرة رفاعة بك ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ، وتاريخ الدولة العلية ، وكتب القصص الأدبية المترجمة في أعداد الاهرام والقصة التي طبعت في مطبعة العصر الجديد ، وهي المعنونة بالانتقام ، وغيرها من بقية الرومانيات العربية الأصل ككتاب (كليلة ودمنة) وما ماثلها من الكتب التي جعلت على ألسنة الطيور والحيوانات ، وعلى من كانت فيه بقية من حب كتب الخرافات المعبر عنها بالريحاني أوغيرها من كتب الوفق والتنجيم أن يقلع عنها ، ويشغل نفسه بما يرى منه الفائدة ، وإلا فأي فائدة عادت الى من صرف نقوده وأباد بصره وأراق ماء وجهه فى طلب الكيميا الكاذبة ، وهو لم ينظر منها مايجعله عوضاً لهذه المصاريف وتلك المشقات . وأي عائدة رجعت على من حفظ العزائم ، وأجهد نفسه في حفظ أسماء الشياطين ، وأتعب عقله وبدنه فى الخلوة لاستخدام العفاريت ؟ إنا لم نر لكل ذلك من فائدة ولا عائدة ، بل رأينا أن المشتغلين بذلك كله يحسبون من الدجالين ، ويعدون مع المحتالين ، وأن العاقل لا يرضى لنفسه أن يشار اليه بأنه من إحدى هاتين الطائفتين اللتين صب عليهما المقت ، ولحقهما غضب الله والملائكة والناس أجمعين . وحينئذ فمن الواجب على كل عاقل أن يترك كل هذه الكتب الخرافية ، ويتباعد عنها على قدر الامكان وأن يشغل أوقاته بمطالعة الكتب الحقة ، ككتب الديانة المطهرة ، وكتب

الآداب والفضائل وتهذيب الاخلاق ، وكتب التواريخ الصحيحة وكتب العلوم الحقيقية ، فانها أنفع للنفس ، ويرى المشتغل بها فائدتها فى أقرب زمن على أسهل وجه بدون أن يلحقه جزء من مائةمن تلك المشقات ، ولا أن يلتجيء إلى إضاعة الأموال فيما لا يفيد

وفى ظني أن كل هذا مما يقع عند إخواننا الوطنيين موقع القبول والاستحسان ، فان كل واحد منهم يذهب الى ماذهبنا اليه ، ويرى مارأيناه . وسنعود إلى هذا الموضوع مرة ثانية إن دعت الحال ، ثم نأتي على ما جرت به عادة الكثير في اعتقاد الخرافات ، ونبين تأثيرها في النفوس ، ودرجتها عند أهل المدن والأرياف ، ونفصل الأصناف المتعارفة منها عند العامة ، وبالجملة نذكر كل ما يتعلق بهذا الموضوع في أعداد صحيفتنا على الاطراد إن شاء الله

المقالة السادسة والعشرون

انحراف القوانين بانحراف أحوال الامم (*

﴿ عدنا إلى الكلام في القانون حسبما وعدنا ﴾

إن المبدع الأول جل شأنه أودع في الانسان قوتين عملية ونظرية ليتوصل بهما الى كماله المخصوص به ، وربط إحداهما بالاخرى ، فجعل كمال الاولى متوقفاً على كمال الثانية ، فصار الانسان مفطوراً على طلب النظريات والوقوف على الحقائق قبل أن يباشر عملا ما ، فان العمل لا يقصد إلا اذا كان له من النتائج ما يبعث على مباشرته ، وليس كل عمل ينتج الفائدة المعتد بها ، بل لا بد أن يكون على نهج مخصوص — ولا جرم أن تصور النتيجة ، ومعرفة أساليب العمل مما يناط بقوة النظر ، فاذا كملت جاء العمل على أحسن الوجوه ، وكانت الفائدة أعظم ، والغاية أكمل

ومن هذا صار كل إنسان حريصاً على استكمال النظريات أولا وبالذات

*) نشرت في العدد ١١٤٢ الصادر في ٢٢ رجب سنة ١٢٩٨ - ١٩ يونيه سنة ١٨٨١

ليهتدي بها الى مناهج أعماله التي يقارفها للحصول على كمال حياته ، ويميز النتائج على اختلاف درجاتها في النفع ليضع بأزاء كل واحدة منها عملا مخصوصاً ، مرتبا على وجه معلوم ، أقرب فائدة ، وأسهل تناولا ، وأحكم وضعاً

فعلوم الانسان هي عبارة عن الحدود التي بها الفوائد النافعة ، ويضبط بها طرق الأعمال الموصلة الى تلك الفوائد ، حتى لايخبط في سيره ، ولا يختلط عليه النافع والضار ، فيقع في الشقاء وتنتابه أيدي البلاء

وحيث إن أحوال كل أمة تابعة لمعلوماتها على نسبة بينهما كنسبة العلة والمعلول ، فهي انما تتخذ لأعمالها حدوداً ، وتختار لأوضاعها قوانين بحسب قوتها في النظر ورتبتها في الفكر ، بحيث لا تخرج وقتاً من الأوقات عما تسنه سجيتها من التقاليد والأخلاق ، الا اذا أتاحت لها الفرص الارتقاء الى درجة أعلى في النظر وأرقى في الفكر

ولما كانت القوانين مناط ضبط الأعمال لتكون منتجة لجلائل الفوائد ، وهي ثمرة الأعمال النظرية ، وخلاصة الأبحاث الفكرية ،صارت قوانين كل أمة على نسبة درجتها في العرفان ، واختلفت القوانين باختلاف الأمم في الجهالة والعلم

فلا يجوز حينئذ وضع قانون طائفة من الناس لطائفة أخرى ، تباينها في درجة العرفان أوتزيد عليها فيه ، لأنه لا يلائم حالة أفكارها ، ولا ينطبق على عوائدها وأخلاقها ، والا لاختل نظامها ، والتبس عليها سبيل الرشد ، وانسد دونها طريق الفهم ، وحسبت الصحيح فاسداً ، والصواب خطأ ، وحرفت الأوضاع ، وبدلت وغيرت ، فيقلب عليها دواء غيرها داء ، وذلك لقصر نظرها ، وعدم درايتها بوجوه تلك القوانين ، وما هي الداعية لها والحاجة اليها ؟ فان الحاجة هي الاستاذ المرشد والمعلم الأول ، متى علمها الانسان حق العلم صار حريصاً عليها ، مقيداً بها ، فلا يخالف مادعت اليه وقضت به . واذا كان وضع القوانين بين قوم داعيته حاجتهم اليها ، فلا تسمح لهم ظروف الأحوال بمخالفتها أما من لم تدعهم الحاجة اليها فلا يرونها من الضروريات ، فلا لوم عليهم اذا نبذوها ، ويكون تكليفهم بها من قبيل التكليف بالمحال ، بل الأجدر بهم أن

يعلموا أولا ماهي الحاجة ليستووا مع غيرهم في العالمية، ويتحدوا معهم فيما يترتب عليها

وقد جرت عادة المشرعين في كل زمان أن يراعوا في وضع القوانين درجة عقول الذين يراد وضعها لهم ، حتى لاتكون مبهمة عليهم ، فلا يتيسر لهم فهمها ولا معرفة الغرض منها ، وأن يلاحظوا العوائد والأخلاق ملاحظة تامة ، فلا يخرجون في تأسيس القوانين عما تقتضيه من الشدة والتخفيف ، فربّ طائفة من الناس ينفع فيهم الزجر الخفيف ، ويردعهم الوعيد بالجزاء الهين ، اذا كانت طباعهم سهلة الانقياد ، ونفوسهم شريفة ، وحواسهم سريعة التأثر ، فهؤلاء لايسن لهم من القوانين الا ما كان منطبقاً على أحوالهم ، فلا يكافون بالقوانين الصارمة لأنها تضر بهم ، شأن من يتجاوز في استعمال الدواء الحد المخصوص

مثلا اذا فرض أن واحداً ممن وصفناهم فعل مايستوجب العقاب ، وكان السجن بالنسبة اليه أمراً يؤثر في طبيعته ويؤلم نفسه على مابها من العزة ولطف الحاسة ألما شديداً ، ويشق على نفوس عشيرته وأهل وطنه أن يقال : فلان سجن لجناية كذا ، بحيث يكون وقوع ذلك لواحد منهم من أكبر الزواجر عن اقتراف الذنب الذي وقع منه ، فيكون الحكم على هذا المجرم حينئذ بما هو أعظم من ذلك ، كالنفي والطرد والأعمال المتهنة الشاقة ظلما بيناً ، لأن ذلك ربما يفضي به الى الموت العاجل ، ويؤثر في نفوس عشيرته وبني جلدته انقباضاً مستمرّاً ، وحقداً أبدياً ، لعلمهم بخطأ الحكم ، وظلم الحاكم . وليس بعد ذلك الا أن تتقد نيران الفتن ، وتلتهب حمية الغضب بين هؤلاء الناس ، وتكون عاقبتهم شرّاً ، أو تخمد النفوس وتذل الطباع ، وتنعدم الشهامة من الأفراد ، وبئست العاقبة هذه

وربّ أمة فطرت أفرادها على الغلظة ومجافاة الرقة ، وكانت بواطنهم منطوية على الخسة والسفالة ، ونفوسهم بعيدة عن خصال الشرف . فهؤلاء لايردعهم عن غيهم ، ولا يصدهم عن موارد بهتانهم ، الا القوانين الصارمة ، المؤسسة على الجزاآت الشديدة ، فمن الخطأ البين أن يعامل مذنبهم بالسجن مثلا اذا كانت نفسه تستخف ما هو أشد منه عقابا . فان الغرض من وضع القوانين انما هو

مجانبة مايخل النظام ، ويبدد هيئة الاجتماع ، ويضر بالمصالح الشخصية والمنافع العمومية ، فاذا لم تكن مؤدية لهذا الغرض ، فليست الا مجرد تكاليف ألقيت على كواهل الناس ، بل لاتعد الا توسيعاً لدائرة المفاسد واكثاراً للمظالم

وانا شاهد على ما ذكرناه حالة بلادنا من قبل ، فقد مرّ على أهلها زمن كانوا فيه همجاً لايعرفون صالح نفوسهم لتمكن الجهل منها وقتئذ ، فكانوا لايعتدون بالزراعة مع توفر أسبابها ، وصلاحية الأراضي لها ، وكان الملاك لايعرفون قيمة مايمتلكونه منها ، فيودّ الواحد منهم أن لو انتقلت أملاكه لشخص آخر حتى لايكلف بأداء مافرضته عليه الحكومة من المطالب ، ولا يقيم في بلده مدة تناله فيها أيدي الحكام ، فكان أهالي البلاد يهاجرون منها الى بلاد أخرى خوفا على نفوسهم من الزراعة ، والأخذ بوسائل الغنى والثروة ، فاضطرت الحكومة وقتئذ أن تلزم الأهالي أمتلاك الأراضي وزراعتها ، ورتبت على المخالفين قوانين صارمة تشتمل على مواد العقاب الشديد ، فاذا جاء الوقت الذي تطالب فيه الحكومة بالمطالب الأميرية امتلأت السجون من بقايا الذين هاجروا من البلاد ، وراج سوق الكرابيج ، فكنت ترى الأهالي كافة مابين فار من بلده ، ومودع في السجن ، وموجع بالضرب ، وكان لخراب البلاد وعمارها أوقات معينة في السنة لاتتعداها ، واستمرت على هذه الحالة السيئة أمداً طويلا الى أن توطدت نفوسهم على العمل ، وتمهدت لهم طرق الزراعة ، ودخلت في دورجديد بما أتيح لها من المعدات التي سهلت طرقها ، وثبتت الأهالي في البلاد وأخذوا خطة واحدة في فلاحة أراضيهم ، غيرمبالين بمطاليب الحكومة لكونهم ابتدأوا يعلمون أهمية الزراعة ويعظمونها ، ويتنافسون في حاصلاتها ، فتبدلت القوانين التي كانت تتخذها الحكومة لزجر الفلاح عن الفرار ، وإهمال الزراعة ، والتقاعد عن الآداء نوعا من التبدل ، ثم تبادلتهم الأيدي الظالمة أمداً ليس بقصير ، ولكنهم لم يزالوا ثابتين على أملاكهم ، فسئموا سوء المعاملة ، واشتاقت نفوسهم الى قانون عادل ينتظم به أمر الأداء ، فساقت لهم يد العناية الالهية من لدن الحكومة التوفيقية من أسس لها قانونا عادلا في هذا الشأن دخلت به مصر

في عصر جديد ، وارتفع من بين أهلها صوت الكرباج ، وبدل جزاء التأخير عن أداء المطاليب بما لا يحط من شرف الانسان ، ورتبت المصالح العامة على قوانين لا تخالف مشرب أهل البلاد بوجه يغاير القوانين السالفة ، وذلك مرتب على تغاير الحالتين ، وتباين المشربين أولا وآخراً ، فلو جعل جزاء التأخير في الزمن السابق هو انتزاع الأرض من يد مالكها ، لكان احب شيء اليهم هو التأخير ليستريحوا من كتابة اسمهم في دفتر الملاك ، وكان هذا الجزاء ثوابا عندهم في الحقيقة لا عقابا ، لكنه الآن أصبح من أشد العقاب

وقد آن لحكومتنا أن تعطف عنان النظر الى قوانين المجالس القضائية لتجعلها مناسبة للحالة الراهنة ، فتختار منها مالا يصعب فهمه ، ولا تحتمل عباراته معنيين أو جملة معان ، ولا تكون مواده من قبيل القواعد العمومية التي تنطبق أحكامها على جملة من الجزآت لكثير من الجنايات المتباينة ، حتى لا تكون القوانين نفسها ذريعة لأرباب الأغراض الفاسدة ، فيلعبون بالحقوق كما يشاؤن ، مع أن من بأيديهم أزمة القوانين ليسوا في رتبة المشرعين الذين يستنبطون مما يحتمل خلاف الظاهر أو من القواعد العمومية الحكم المنطبق على حقيقة الأمر والواقع ، على أن أرباب الحقوق منا ليسوا منزهين عن الشكوك والظنون الفاسدة ، فربما أساؤا الظن بمن يكون بريئاً عن الخطأ والخيانة مع خفاء الحكم من نفس المواد القانونية ، وعدم انكشاف النص منها ، وذلك يؤدي الى حرصهم على استئناف التحقيق أولا وثانياً فيطول الأمر وتتعطل المصالح ، وتزيد النفقات ، وتشتد الضغائن ، وتتسع أبواب المفاسد مع كثرة الوقائع والمشاكل ، كما هو حاصل في بلادنا الآن . فيجب حينئذ أن تكون مواد القوانين نصوصها صريحة ظاهرة الاحكام منطبقة على كافة الوقائع مفصلة الابواب سهلة التراكيب

أما القوانين التي كانت متناولة في بلادنا حتى اليوم فانها (مع كونها قاصرة مجملة غير بينة الاساليب) ليست مضبوطة ولا معروفة عند الناس ، بل بعضها يعرف بالقانون الهمايوني ، وبعضها يسمى باللوائح ، وبعضها يدعى بتعليمات الحقانية والبعض يقال له قرار الخصوصي ، والبعض الآخر منشور الأحكام ، والبعض

الأمر العالي الصادر في تاريخ كذا ،وهكذا مما لا يحصى عدده، ولا يمكن لأحد ما حصره ، فكيف يعقل أن يكون هذا التشديد (لعلها التشتيت) قانوناً يقف العالم عند حدوده ، على أنهم لو علموه لما تصوروه ، لكونه غريباً عن أحوالهم ، بعيداً عن مداركهم

فمن الواجب إصلاح هذا الخلل البين الذي أضاع الحقوق وأضر بالأمن ، ومن اللازم الاسراع به ، وعدم تفويت الوقت وإضاعة الزمن في الاقوال التي لاطائل تحتها ، ويلزم أن تكون القوانين مستوفاة جميع القيود والشروط ، ولا يحال فيها على المنشورات ولا اللوائح ، تسهيلا لضبط الأحكام وتطبيقاً لها على مقتضى الحال ، وأن تكون منطبقة على حالة الأهالي ودرجة إدراكهم ليمكنهم دركها والعمل بمقتضاها كل على حسبه ، وإلا كانت حبراً على ورق ، فقد تقرر في مدارك العلماء والسياسيين من سابق ولا حق أن المشرعين وواضعي القوانين يضطرون دائما الى مراعاة العوائد والاخلاق ليتمكنوا من تأسيسها على وجه عادل نافع ، بل ان أحوال الأمم بنفسها هو المشرع الحقيقي ، والمرشد الحكيم النظامي ، وان القوة الحاكمة تابعة لقوة رعاياها ، فلا تخطو الاولى خطوة إلا اذا كان لها من الثانية سائق الى ماخطت اليه ، نعم لا ننكر أن اعداد الوسائل والمعدات منوط بالقوة الحاكمة ، فهي تلزم بها رعاياها كرهاً أو اختياراً لكن على قدر طاقة المحكومين ، فاختلاف هيئات الحكومات وتبدل قوانينها تابع لما تقضي به حقوق الوطنية التي هي في الحقيقة حالة الرعية . فان انتقال حكومة فرنسا مثلا من الملكية المطلقة الى المقيدة ثم الى الجمهورية الحرة لم يكن بارادة أولي الحل والعقد فقط ، بل المساعد الاقوى حالة الاهالي وارتقاع أفكارهم وتنبه إحساساتهم لطلب الرقي الى أعلى مما هم عليه فتغلبوا على جميع القوى الغريبة التي كانت تحول بينهم وبين الوصول الى مطلوبهم من معرفة الواجبات الحقيقية على أنهم لم يصلوا الى هذه الغاية الشريفة إلا بعد قطع العقبات التي هي دون الوصول اليها إذ بدون ذلك لا يمكن أن تنال الغاية ، ولا يدرك المطلوب

وحيث كانت تلك الوسائل وهذه المعدات من مزالق الافهام والعقول كانت

معرفتها ، والحصول عليها بذاتها في غاية الصعوبة ، فربما يقع في وهم طائفة من الناس أنهم تهيئوا لأن ينتقلوا الى خطة أرقى في المدنية والنظامات القانونية — وليس الأمر ماتوهموه — فيتقهقروا الى الوراء بأن يعمدوا الى جعل التشريع حراً والمشاركة في التأسيس مباحة ، وليسوا آمنين من دسائس الاغراض ، ولا متمكنين من الوسائل التي تهيئهم لهذا الأمر ، فيفشو فيهم داء الاختلاف ويلحقهم دخل العناد فلا يهتدون إلى الصواب ، ولا يبرمون رأياً ، ولا يبتون حكماً ، ويمضون الزمن فى قيل وقال ، فتفوتهم ثمرة الحزم ، وتضيع مصالحهم ، ويصدق فيهم المثل (من عجل بشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه)

وبالجملة فليست هيئة النظام المدني لأمة من الناس سوى صورة المادة الملكات التي اكتسبتها أفرادها من مألوفاتها وعوائدها التي نشأت عليها سواء كانت ممدوحة أو مذمومة ، وان اختلاف قوانينها فى معارج صعودها ومدارك هبوطها لا ينفك عن هذه الملكات مهما تغيرت أصنافها وتبدلت شئونها وهذا ماجعل عقلاء الناس يجتهدون أولا في تغيير الملكات وتبديل الاخلاق عند مايريدون أن يضعوا للهيئة الاجتماعية نظاما محكما فيقدمون التربية الحقيقية على ماسواها ليتسنى لهم أن يحصلوا على هذه الغاية ، بل يجعلون في نفس القوانين النظامية فصولا وأبواباً تضبط الاخلاق ، وتحفظ الملكات الفاضلة وتكون حداً تقف عنده النفوس في أعمالها ، وتلتزمه الاشخاص في سيرها حتى تنتقل الاعمال من حالة التكليف الى حالة العادة والملكة فتصبح الاخلاق فاضلة والعادات حسنة ، وتسير الأمة في طريق الاستقامة إلى خير غاية .

المقالة السابعة والعشرون

تأثير التعليم في الدين والعقيدة (*)

من المعلوم الذي لايشتبه فيه أن أرباب المذاهب والاديان على العموم، وإن اختلفت عقائدهم، وتنوعت مشاربهم، يحترمون اعتقاداتهم ويجلونها وينزلونها من العلو أعلى منزلة، ويدافعون عن حرمتها ببذل الاموال، وفناء الارواح، حتى ان صاحب العقيدة الثابتة في دينه ليموت بالسيف قطعاً، وبالنار حرقاً، وبالحجر رضّاً، ولا يتحول عن عقيدته وذلك ظاهر . فان كل دين يرشد متقلديه الى أن الدنيا فانية، وأن هناك داراً باقية، نعيمها يفوق كل نعيم، وشقاؤها يهون دونه كل شقاء، وكلاهما أبدي لاينقطع، فالرجاء والخوف يدفعانه الى الموت على أى وجه كان دون التحول عن عقيدته التي يرى النعيم جزاءها، والجحيم عقاب العدول عنها

ثم ان التخالف بين العقائد يحكم على كل صاحب عقيدة برفض نقيضها ودحض كل حجة تخالفها وتقضي عليه بأن يرى جميع مخالفيه فيها من الاشقياء الهالكين حيث ان النجاة مربوطة بعقيدته، والهلاك معقود بمخالفتها، وذلك يلزمه بمقتضى الطبع أن يسعى جهده في نشر عقيدته وتمكينها في القلوب، وتثبيتها في النفوس لأحد أمرين

(الاول) سوء الظن بمن يخالفه في العقيدة وخوفه من أن يسعى في ضرره لانتقاض الرابطة الاعتقادية بينهما، فهو يسعى في ضم جميع الناس الى نفسه في الاعتقاد حتى يكون واسطة فى الاتحاد على التعاون والانتفاع الذاتي والأمن من المضار، وأن صاحب العقيدة لهذا السبب لايألو جهداً، ولا يؤخر سعياً،

(*) ونشرت في العدد ١١٨٦ الصادر في ١٤ رمضان سنة ١٢٩٨ — ٩ أغسطس سنة ١٨٨١

ولا يترك وسيلة توصله الى الاكثار من الموافقين له في الاعتقاد حتى تتوفر له المنافع ، ويكونوا له عونا على دفع الأخطار

(الثاني) الشفقة الانسانية ، فان الذي يعلم أن عقيدته تأتي لمعتقدها بسعادة أبدية ، وأن جاحدها لا بد أن يصيبه الشقاء السرمدي ، ويعلم أن بني الانسان كلهم إخوة ، أبناء أب واحد وأم واحدة ، يجب على كل منهم أن يسعى طاقته في نفع الآخر ، كل هذا يحمله على أن يرق ويرحم الذين يخالفونه في الاعتقاد فتأخذه عليهم الشفقة والرحمة ، فيدعوهم الى أن يكونوا على مثل اعتقاده لينجوا في الناجين ، ويستعمل كل حيلة لانقاذهم من الاعتقادات التي يظنها مضرة بهم مهلكة لأرواحهم بعد مفارقة أبدانهم

ولهذا نرى أرباب المذاهب والأديان منتشرين في كل جهة ، ضاربين في كل أرض ، يطلبون انتشار مذاهبهم وبث معتقداتهم بكل ما يمكنهم من الوسائل ، فمنهم من يستعمل الخطابة والوعظ ، ومنهم من يستعمل الكتابة والتصنيف ، ومنهم من ينشىء المدارس والمكاتب للتعليم ، وهذا القسم الأخير هو الأكثر عدداً ، والأنجح سعياً . فان العقول في سن الصغر ساذجة ، والأذهان خالية ، وهي مستعدة لقبول ما يرد اليها من الأفكار ، قابلة للتأثر والانفعال ، بما يطرأ عليها من صور الأعمال والآراء والأحوال ، خصوصاً اذا كان جميع ذلك صادراً من شخص تكبره النفس وتعظم قدره مثل الاستاذ والمؤدب والمربي ، فمتى وجد الولد صغيراً في حجر مهذبين ومعلمين يربون عقله ويغذون روحه بغذاء علومهم ومعارفهم ، فلا ريب تؤثر فيه أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم ، وتنطبع في نفسه صور ما هم عليه ، فأيّاً كان آباؤه وأسلافه الأولون لا يحفظ عقائدهم ، ولا هيئات أحوالهم ، بل يتشكل عقله ولبه بالأشكال التي يفيضها عليه مهذبوه ومعلموه أيّاً كانوا ، فان خالفت مذاهبهم مذاهب آبائه وأسلافه فلا شك في تحول مذهب الولد وانحرافه الى مذهبهم لتأثير أحوالهم عليه خصوصاً وقد بينا فيما سبق أن كل ذي دين يميل بالطبيعة الى بث دينه ، وإعلاء كلمة اعتقاده . فأي مكتب أو مدرسة يتولى التعليم فيها رسل ديانة أو

رؤساء مذهب ، بل ذوو عقيدة ثابتة في أي دين كان أو مذهب ، فلا شك أن حالهم وقالهم يؤثر في اعتقاد الولد ومذهبه ، ويزداد التأثير بطول المدة وحسن المعاملة والبراعة في طرق التأثير على حسب حال أولئك المعلمين ومشربهم ، لا فرق في جميع ذلك بين دين ودين ومذهب ومذهب ، وجميع هذا لا لوم فيه على صاحب الدين أو المذهب ، فالذي دعاه اليه إما حب المنفعة والأمن من الضرر ، وإما الشفقة والرأفة على عباد الله بحسب اعتقاده الذي يراه يقيناً لا ريب فيه ، بل ان هذا التغيير الذي يظهر في اعتقاد التلامذة من تأثير حالة معلميهم ومهذبيهم قد يحصل بدون قصد من المعلمين ، بل بحكم السريان والعادة من طول المعاشرة وكثرة الممارسة

وعلى هذا حال المدارس المنتشرة في أقطارنا المصرية التي أسسها وأنشأها رسل الطوائف الدينية لم يكن الغرض منها التعيش والاكتساب ، وانما الغرض منها نشر العلوم ، وبث أنوار التمدن (على مايقولون) كمدارس الفرير الامريكان والانكليز وغيرها . فاننا وان فرضنا أنه لاغرض لهم في إنشائها ، وصرف المصاريف الزائدة عليها الا نشر العلوم وتقدم المعارف فقط ، لكن حيث ان رؤساءها ينسب كل واحد منهم الى مذهب من المذاهب المسيحية ، فالرئيس منهم ليس بملزم أن يفرق هيئة التعليم في مدرسته بحيث يجعل لكل قسم من التلامذة كتباً خاصة توافق مذهب التلميذ وديانته ، ولا أن يجعل التعليم في كتب تختص بمذهب غير مذهبه لايعرفها ، وإن عرفها فربما لا يفهمها ، ولا يرى من الواجب عليه استحضار معلمين عارفين باصطلاحات الكتب الدينية المؤلفة في مذاهب أخر ، فهو على حسب معرفته وميله الطبيعي يعين للتعليم كتباً توافق مشربه ، ولذلك نرى في جميع تلك المدارس كتب التمرين والاملاء والمطالعة مما يوافق مذهب رئيس المدرسة ومشربه الديني ، فالبروتستانت يروجون بين التلامذة كتب مذهبهم والكاثوليك يقرؤنهم ما يوافق مشربهم وهكذا — فالتلامذة على اختلاف مذاهب عائلاتهم يقرؤن كتباً واحدة ، توافق مشرب مؤسس المدرسة خاصة ، فاذا طال بهم زمن التعليم في مدرسة منسوبة للبروتستانت

مثلا ، فلا شك أن عقائدهم تتحول بالتدريج من المذهب القبطي أو الكاثوليكي أو الدين الاسلامي الى مثل عقائد البروتستانت ، ومثل ذلك يكون في مدارس الكاثوليك ، أو فى المكاتب الدينية الاسلامية ، كمكاتب الفقهاء مثلا أو مدرسة الأزهر ، فان المتعلم فيها إن كان صغيراً لاشك تحول عقائده أيا كانت الى الدين الاسلامي بتأثير الكتب فيه ، فضلا عن تأثير هيئات العبادة وأحوال المعاشرين وأفكارهم التي تؤثر في العقول من حيث لا تشعر ، وكل هذا لالوم فيه على أرباب المدارس والمكاتب أصلا ، فانهم لم يعملوا شيئاً الا بحسن النية وصدق القصد ، وليس لهم من غرض سوى إفادة العموم على حسب اعتقادهم

غير أن عزة العقائد على النفس كما بيناه في صدر مقالنا هذا تثبت في الآباء غيرة قهرية على عقائد الأبناء ، فاذا شعر الوالد بأن ولده تحول عن عقيدة عائلته أدنى تحول ، طار عقله وانبعث الى طلب الانتقام ممن تسبب في ذلك بكل حيلة ، وحدث في عائلة الولد من الاضطراب ما عساه يحدث تشويشاً في العموم وقلقاً في الأفكار . ومن ذلك ما حدث من مدة سنوات : أن أحد أولاد مصطفى افندي المنشاوي ــ واسمه أحمد فهمي ــ كانت تربيته وتعليمه في مدرسة الامريكان البرتستانتية ، وبعد مضي ثماني عشرة سنة من عمره أظهر التمذهب بالمذهب البروتستنتي ودعا أباه واخوته الى موافقته على عقيدته الجديدة ، وكان لهذه المسئلة قصة هائلة لم تزل يتحدث بها الناس حتى اليوم ، وتداخلت فيها الحكومة وقنصلاتو أمريكا ، وانتهى الأمر بفقد الوالد ولده ، حيث سافر الولد الى جهة لايعلمها والده ، وهو باق في حسرة فراقه ، يتقلب على جمر القلق حتى الآن خصوصاً مع ما يراه فى هذا الأمر من العار الذي يلحقه ويلحق عائلته أجيالا

وقد ذكرنا بهذا الموضوع وهذه الحادثة حادثة أخرى تشبهها في النوع ، وقعت فى هذه الأيام ، وهي : أن أحد أولاد حسن افندي الحكيم من رجال الحقانية كان تلميذاً في مدرسة الفرير بالقاهرة مدة طويلة ، ثم انتقل منها إلى مدرسة الطب ، غير أن المودة كانت لم تزل بينه وبين رؤساء المدرسة ، وبعد أن أقام في تعلم الطب سنتين تغيب من مدة أسابيع ، ولم يعلم أين ذهب ، ولم

يهتد والده الى السبب، حتى أخبر أخ له صغير بأنه رأى رقيما من رؤساء المدرسة مبعوثا الى أخيه المتغيب ، يعينون له فيه يوم السفر فقط بدون زيادة ، وبعد البحث والتدقيق علم أنه في مدرسة الفرير في الاسكندرية ، غير أن المسألة لم تتضح حتى الآن كل الوضوح

فهذا أمر أفزع والده وعائلته ، وأوقع بهم من المصائب ما لم يكن في حسابهم ، غير أن اللوم في جميع ذلك على الآباء خاصة ، حيث يرسلون أبناءهم قبل كمال الرشد الى المدارس التي يتولى التعليم والادارة فيها معلمون على غير مذهبهم أو غير دينهم ، ويقيمون بينهم الأزمنة الطويلة ، يتلقون عنهم الأفكار والتعاليم من كل نوع حتى تنطبع أفكار المعلمين وملكاتهم في طباع التلامذة ونفوسهم

فمن الواجب على كل شخص يخاف على دينه أو مذهبه ، سواء كان مسلماً أو مسيحياً أو يهوديا ، وسواء كان قبطياً أو أرثوذكسياً أو بروتستانتيا ، أو غير ذلك من المذاهب أن لا يبعث بأولاده وهم صغار ، لايعقلون ولا يفهمون إلا ما يلقى اليهم من المعلم والمؤدب الى مدارس يتولى التعليم فيها والادارة من ليسوا على مذهبه أو دينه ، ومن تساهل في ذلك ثم تغير اعتقاد أبنائه ، وانقلبت مذاهبهم الى مذاهب أخرى فلا يلومنّ إلا نفسه

وأما من لا يلتزم اعتقاداً خاصاً ، ولا يرى لنفسه مذهباً معيناً، فله أن يرسل أولاده في أي سن الى أي مدرسة ، إذ لا يبالي بأي تغيير يحدث في عقولهم ، ولا تتفاوت عنده أشكال التربية وصورها ، فجميعها لديه سواء

وبالجملة فانا نقول : إن كل صاحب اعتقاد يخاف عليه ويحرص على بقائه ويحب ذلك لأولاده ونسله ـ فأول واجب عليه تمكين اعتقاده في عقول أولاده بحفظهم عن مخالطة من يخالفه في العقيدة ، وهم في سن الصغر ، فاذا بلغوا رشدهم ، وعقلوا عقائدهم ، وصاروا في أمن من تأثير أفكار الغير فيهم ، فلا بأس باطلاق سراحهم ، يعاشرون من شاؤا ، ويستفيدون العلم ممن يريدون ، ومن أهمل في ذلك فهو المهمل في أمر عقيدته ، العديم الغيرة في حفظها . وسنعود الى هذا الموضوع عند مايرد الينا تفصيل الحادثة الاخيرة، وما انتهى اليه الامر فيها

المقالة الثامنة والعشرون

بقايا مسئلة تأثير التعليم في العقيدة (*)

نوهنا في أحد أعداد جريدتنا سابقاً بتغيب ابن حسن أفندي الحكيم بما أغراه بعض رؤساء المدارس الاجنبية واستهواه عن عقيدته ، وفيما يقال إنهم رغبوا السفر به إلى الجهات الخارجة عن القطر المصري حسب ماوجهونه ، وإن كفر بذلك نعمة الوالد والوالدة وجحد إحسانهما اليه بالتربية البدنية ، وما أنفقا من كسب الايدي عليه لتكميل تربيته النفسية ،وجرح قلوبهما بفراقه وهو عزيز لديهما ولهما فيه من الآمال مايسهل نصبهما في تهذيبه وتعليمه

وأشرنا في ذلك الى أن حضرة والده الوله المحزون على ماأصابه توجه الى الاسكندرية مستقصياً خبره فبلغنا بعد ذلك أنه بعد شدة الفحص ودقة البحث لم يعثر عليه ، فرجع إلى المحروسة في حالة اليأس ، فأشير عليه بتقديم تقرير إلى قنصلاتو دولة فرنسا يشكو فيه رؤساء تلك المدارس الذين أغووه وأغروه بفراق والده وارتكاب العار الشنيع الذي لايخصه بل يعم العائلة بتمامها كما وقع لسابقه ، فحرر تقريراً بذلك وذهب إلى الاسكندرية لهذا الغرض . فارتقبنا ورود خبر عن هذه الحادثة الى أن ورد الينا من أحد أصحابنا بالاسكندرية رقيما يفيد أن الوالد فاز بوجود ولده قبل اختطافه بأيد طالما طالت الى مثل هذا العمل (التفريق بين الوالد والولد) ولنورد عبارة هذا الرقيم ببعض تلخيص فمنها تتضح حقيقة المسئلة قال صاحبنا بعد الديباجة :

إن نجل حضرة حسن أفندي الحكيم الذي نوهتم بذكره في أحد أعداد الوقائع في الاسبوع الماضي قد أحضره خاله من الميناء الغربية باسكندرية (محل وجود الوابورات البحرية) وعلم من كلامه (كلام الفتى) أنه كان متغيباً جهة الرمل (بالاسكندرية) يدارس مع أحد الاساتذة بعض فصول علمية . وأنه لما

(*نشرت في العدد ١١٩٧ الصادر في ٢٩ رمضان سنة ١٢٩٨

علم بما ذكرته عنه الجريدة الرسمية أخذته الغيرة الدينية والحمية الاسلامية، وحضر قاصداً خاله ، ولم يكن له علم بان والده بالاسكندرية . ولما قيل له انه موجود بهذه المدينة يقاسي من أجله الهموم والغموم سعى اليه وقابله وقبل يديه واظهر له الخضوع والطاعة ، وأبان له أنه حريص على دينه المحمدي ، وأنه لايرغب عنه ولم يحمله على التغيب إلا حب العلوم وتشوقه لاتمام علم الطب لشدة شغفه به ، ثم ان والده أخذ يلاطفه ويعده بما يميل اليه ، وبأنه سيهتم في توجيهه إلى أي جهة يريدها من الجهات الاوربية حتى آنس منه الامتثال ؛ وقد حملته الغيرة على أن يكتب الى الجريدة الرسمية بنفي مانسب اليه إلا أن والده رغب إليّ أن أكتب اليكم بذلك لتذكروه في أحد أعداد الوقائع اه

غير أني كنت أحب أن يكتب إليّ هذا الفتى بنفسه ليكون هو الكاشف عن ضميره بتعبيره ، وأرجو أن يكتب الينا بشيء من الفصول العلمية بأي عبارة كانت لننشرها تحت اسمه ويكون له الفضل ، ونؤدي له على ذلك الشكر

ولنعد إلى أصل الموضوع فنقول : ان عبارة هذا الرقيم فى الحقيقة وافية بكشف الواقع ، وأنه لم يخرج عن حد مانوهنا به سابقاً إلا أنا نضرب عن بيان وجوه ذلك صفحاً . فقد ظهر لنا وتحقق أن هذا الفتى النجيب قد حفته العناية الآلهية بارضاء والده الحنون الشفوق والابتعاد مما يلحق به وبوالديه وعائلته من ألم الحزن والأسف ، إذ يلم بوالديه مالا يقدر من الاحزان على فراقه وبعده ويحيط به نفسه الغم والهم كلما لاحظ فى فكره أو خطر بباله حالة أبويه ، وما وصل أمرهما اليه، إذ توبخه ذمته ويلعنه ضميره، كلما تذكر الاحسان السابق منهما اليه مع إساءته اليهما وهو قادر على مكافأة الاحسان بالاحسان ، فنحن نشكر له هذا الانتباه ونحمده على تلك الغيرة الدينية ، بل الحمية الانسانية، ونوصيه بمراعاة حرمة الوالدين التي جعلها الله تعالى فى الرتبة تالية للاقرار بربوبيته ووحدانيته إذ قال تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احسانا)وقال تعالى (وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) وبأن يعظم قدر الاحسان الذي أسدياه اليه صغيراً وهو فاقد القدرة والارادة ووالياه بالبر، حتى صار رجلا ذا قدرة على الكسب ، واختيار وإرادة في الخير والشر ، فقد قرن الله شكر الوالدين

بشكره في أمره فقال تعالى (ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك اليّ المصير)

وعلى هذه الوصايا المقدسة وردت الكتب السماوية بأسرها ولا ريب أن هذا هو الذي يمحو عنه كل شيء لحقه من تلك الاشاعة التي ظهر آخر الأمر على ضدها ، وفقه الله تعالى لحسن الطوية ، وفقه عقله بنور المعرفة ، ليسعى في إرضاء والديه وتسكين خواطرهما قياماً بأمر الله في جميع كتبه ، على لسان جميع رسله

والأمل بعد هذا أن لا يتغيب عنهما إلا باذنهما سواء كان لمدارسة العلوم أو اكتساب أي فضيلة كانت حرصاً على برهما ، ثم اننا نعيد انذار الآباء هداهم الله بأن لا يسلكوا بأولادهم في التربية مسالك توجب لهم قلق الفكر ، وتشويش البال ، وأن لا يبعثوا بأبنائهم الى المدارس الاجنبية التي تغير مشاربهم ومذهبهم حتى يأذن الله تعالى بمنع التعلم الديني في جميع مدارس العالم ، فتكون المدارس قاصرة على العلوم غير الدينية والصنائع ، ويكون للدين مواضع مخصوصة لتعليمه والتربية بمقتضاه . وهذا خصوصاً في مثل أقطارنا أبعد من مجيء الالف على رأس المائة. على أن ماسبق منا نشره في الاعداد الماضية يقتضي بأن نفس المعاشرة تؤثر في العقيدة فلا يؤمن على الاطفال من تغيير المذاهب الااذا ارتفع استحسان الشخص المعتقد ، واستوى جميع الاعتقادات عنده ، وهذا محال مادام الدين ديناً ، فليتنبه من ينبه ، ولينته الآباء ان كانوا يعقلون

(يقول جامع الكتاب) ان الاستاذ رحمه الله نبه الغافلين عن مدارس دعاة النصرانية بألطف العبارات وأبعدها عن اثارة تعصبهم وتعصب أنصارهم وتلاميذهم واحتجاج ساستهم وجرائدهم في زمن لم تكن الحرية فيه راسخة في البلاد ، والصواب أن جميع مدارسهم ومستشفياتهم لم تنشأ الا لأجل نشر دينهم وجذب الناس اليه والمسلمون لايزدادون إلا غفلة وعمي عما يكيد لهم الكائدون ، ولا يزالون يلقون بأفلاذ أكبادهم الى مدارس الدعاية والتبشير فان كان من يتنصر منهم نادراً فمن يخرج ملحداً أو معطلا ليس بنادر ، وكلاهما يكون ممزقاً لشمل أمته مقطعاً لروابط ملته وبها يكون خادماً لأعدائها من حيث لا يشعر

المقالة التاسعة والعشرو ن

نيل المعالي بالفضيلة

عثرنا في جريدة المقتطف على فصل مفيد يحكى تاريخ الجنرال غارفيلد رئيس جمهورية الولايات المتحدة في أمريكا . فكان هذا التاريخ شاهداً على ما للرجل من وفرة العلم وكثرة التجربة ، وتقلبه في الاعمال النافعة لبلاده، ودليلا على ما البلاد أمريكا من التقدم في المدنية ، حيث ان فضل الرجل عندهم يعرف ويشهد لهم به فلا يحول بينه وبين مايؤهله له استعداده وضاعة أصوله ، أو خمول عشيرته ، أو فراغ يده من النقود ، أو حقارة مسكنه ، أو خشونة مأكله ، فجميع هذه الظواهر التي لادخل لها في جواهر الرجال ليست معتبرة عندهم ولا هي المدار في ارتقاء مراتب الشرف والسيادة ، وقد استفيد من هذا التاريخ أن هذا الرجل لم يصل الى ماوصل اليه بلزوم أعتاب الكبراء ، ولا الوقوف خلف أبواب الامراء ، ولم يرفعه الى منزلة الرياسة العظمى صفاء لون الوجه ، ولا حسن تركيب الخلق ، ولا توسطه في منافع من هم أرفع منه منزلة ليجذبوه من حضيض حطته إلى أوج رفعتهم . وهكذا يرتفع أبناء الأوساط والآحاد من الناس في البلاد المتمدنة بالصفات الفاضلة ، وسعة المعلومات ، وبذل الجهد فيما يعود على البلاد بالخير والفائدة

وهذا (هو) الذي يبعث كل فرد من أفراد الأمة على الجد في كسب الفضائل الحقيقية ، واستعمال العقل الانساني فيما خلق لأجله من إصلاح أحوال المعيشة وسعادة الدارين ، وسلوك طرق الرشاد ، واستخدام جميع الوسائل الآلهية التي أعدها الله تعالى لمنافع خلقه ، ووهب لهم إدراكا يتمكنون به من اجتناء منافعهم منها

*) نشرت في العدد ١٢٢٣ الصادر في ٨ القعدة سنة ١٢٩٨ - ١ اكتوبر سنة ١٨٨١

فأرباب الثروة وذوو المقامات الرفيعة يعلمون أن المناصب وارتفاع الشؤون انما تنال بالفضائل التي ألهم الله بها عباده وهداهم اليها على لسان من اختصهم بمزايا الادراكات السامية ، ودلهم عليها بالحاجات والضرورات بما ساقه اليهم من حوادث الكون التي هي خير أستاذ ماهر للعقول الانسانية ، والنفوس البشرية ، وجعلها قواما لسعادة المعيشة ، وركناً شديداً لبيت الحياة ، وهي الفضائل التي دونت لها كتب العلماء والحكماء ، وأثبتها الصديقون والسياسيون في مؤلفاتهم ، ويجمعها طلب النفع الخاص من طريق الفائدة العامة ، أي الوقوف في السعي لكسب المعيشة عند حد ماينفع الجمعية المعنونة باسم واحد كمصر أو الشام أو أمريكا أو ينفع عموم نوع الانسان ، ولا يجلب ضرراً على أحد من المجتمعين لافي العاجل ولا في الآجل ، إلا أن يتوقف عليه نفع جميعهم ، ويتبع هذه الفضيلة الكلية عدة فضائل هي أصناف وأنواع لها ، وكل واحدة منها أصل لفضائل لاتنحصر إلا بالذوق الظاهر ، والفكر الدقيق ، ويلزم لنيلها كلها اتساع دائرة العقل في المعلومات ، ومقارنة الحوادث بعضها ببعض في السير المدني ، ونسبة كل منها الى الآخر في المنفعة والمضرة حتى يتيسر للشخص حسن الطلب على النحو الذي يبناه ، ويتبع هذا الواجب نشاط في العمل المفيد للفرد والمجموع ، واحتمال لكثير من المشاق المتعبة في أوقات ، وإن أعقبها راحة دائمة ، ثم يعقب ذلك تحلّ بصفات كثيرة ، وتخلّ عن أغراض جمة . تسمى الاولى باسم الفضائل وتعنون الثانية بعنوان الرذائل . فاذا تيقن الأعلون من الناس أن لارفعة ولا ثروة إلا بحوز هذه الفضائل دأبوا في تحصيلها ، وبذلوا الجهد في المحافظة عليها ، فيسعدون بما يستفيدون ، ويسعد غيرهم بما يفيدون ، إذ يحرصون على التفنن في العلوم والصنائع التي يحتاجها غيرهم ، فيطلبها منهم بالثمن الذي يرغبون ويجتهدون في منع كل ضرر يخشى وقوعه لهيئتهم الاجتماعية التي هم أعضاؤها الرئيسة فتطلبهم الافراد للسيادة عليهم جزاء لهم بحسن خصالهم ، وجميل فعالهم

وأما الوضعاء من الناس وذوو الانساب الحقيرة ومن لااسم لهم فانهم يعلمون أن هذه الصفات الفاضلة تسوق الى السعادة ، وأن من لاقدر لهم ولاتعلم أسماؤهم

لخمول ذكرهم ، وحجب ستارة الفقر ، والاعدام شواخصهم عن أعين الناظرين يعلو ذكرهم ، وتتوجه الافكار الى معرفتهم ، والقلوب الى احترامهم ، وتطلبهم المنازل الرفيعة وهم في مساكنهم الحقيرة ، فيجـدون ويجتهدون في اكتساب مايؤهلهم ويعدهم للحاق بمن سبقهم فى الاعمال النافعة والاوصاف الفاضلة لينالوا من رفعة الشأن مثل مانال السابقون ، وبذلك تكون الأمة على اختلاف طبقاتها فى حركة صعود دائما . فان الغني وذا الجاه لايريان حافظ غناهما وجاههما أو الاستزادة منهما إلا المحافظة على منابع الخير من ذاته ، والبعد عن قواذف الشر ومطارح الضر ، والفقير وخامل الذكر لايجد سبيلا الى الغنى ونباهة الاسم الا المبادرة الى أسبابه الحقيقية ، وهي التشبه بالنبلاء والوجهاء الذين لم ينالوا النبالة والوجاهة الا بالفضائل الحقيقية فى التحلي بتلك الفضائل حتى يصبح نبيلا وجيهاً مثلهم ، فتقوى فى الأمة دعائم العمران ، وتثبت فيها أصول السعادة التي وضعها الله تعالى لتحسين حالة الانسان فى حياته ، ووقايته من الخطر الذي يتوقع أن يحل به ، وعند ذلك تكون للأمة الاحوال التي نسميها بالرفاهية والعزة والسطوة والقوة والشوكة والغنى والثروة والرئاسة والسياسة وغير ذلك من الصفات التي تمدح بها ويعلو شأنها

وهذا بخلاف مايوجد في كثير من البلاد التي لاعناية لها بشأن الفضائل فلا ينظر فيها الى الشخص من حيث حليته الباطنة وزينته العقلية ، ولكن أهاليها ينظرون الى الرونق الظاهر والحلية الصورية ، ويعدون الاعراض الساقطة في المنزلة الاولى من الاعتبار ، فلا ينزل الواحد فيها منازل الشرف الا اذا كانت له من أبيه أو من متبوعه جهة الشرف ، ثم ان صاحب الجاه والشأن الرفيع لايسقط من مقامه . فان جاهه هو الحافظ له ، وشأنه هو الذي يقدم أبناءه وحواشيه الى مثل مقامه ، وإن كان فاقداً لكل فضيلة وخالياً من كل صفة إنسانية ، فتكون الطبقات في مثل هـذه البلاد على الدوام ثابتة أفرادها على حال واحد في أزمنة كثيرة . فالفقراء يبقون على فقرهم ، والأغنياء يدومون على غناهم ، وقليل أن يصير الفقير غنياً ، ويلزم لذلك تمكن الاستبداد والظلم في

نفوس الطبقات العليا وثبوت جرثومة العبودية والذل في قلوب الطبقات السفلى ، وفي مثل هذه البلاد قد ينال بعض المستضعفين ، وآحاد الناس ، ومن لا شأن لهم رفعة شأن أو علو مقام ، ولكن لا من أسبابه الطبيعية التي سنها الله في خلقه بل بوسائل التذلل والمداجاة وإظهار العبودية لمن فوقه ، ولزوم أعتابهم ، والوقوف على أبوابهم ، أو بأن ينتصب لجلب منافعهم الخاصة . فاذا داوم على ذلك أزمانا رقوا له وأخذوا بيده فدرجوه في مراقي الشرف سلماً بعد سلم حتى يلحق بهم ويعد في حاشيتهم ، فيشرف بمثل شرفهم ، فبهذه الوسائل تنحرف القلوب وتميل الافكار عن الجادة المستقيمة ، ويدخل الناس في هذه الطرق فتعدم الرغبات في الفضائل ، بل تغفل الاذهان عنها بالكلية فلا تتوجه إلا الى تلك الرذائل

غير أن هذه الوسائل وإن أفادت في بابها وأتت بالغاية المطلوبة منها ، لكن لا يمضي زمن قليل حتى تسقط الأمة بتمامها ، وينتهي بها الحال الى الخراب ويعم الشر جميع الافراد

فهنيئاً للبلاد التي تعرف فيها الحقوق لأربابها ، ويدخل لها السعادة(١) من أبوابها ، وإنا ننشر هذا الفصل التاريخي ليستفيد منه المطالعون .

«١» لعل الاصل : و يدخل لها السعاة – جمع ساع – او تدخل لها السعادة – الخ على ان تذكير فعل السعادة جائز هنا

المقالة الثلاثون

العلم وتأثيره في الارادة والاختيار (*

﴿ لأحد المفكرين المشتغلين بالعلوم العقلية قال : ﴾ (١)

سألني أحد الأفاضل عن سلطة الفكر والتعقل عن الارادة ، وسلطة الارادة عليهما ؟ فلم أجد بدّاً من المذاكرة معه في هذه المسئلة ، وتوضيح ما وصل اليه عقلي نقلاً عن العلماء المحققين ، واستنباطاً من كلامهم ، ولظني أن في ذلك نوعاً من الفائدة لقراء جريدة الوقائع رأيت من اللائق نشره على لسانها حكاية لآراء العلماء ، وما أداهم اليه التدقيق في هذه المسئلة ، ولا بدّ قبل الكلام في الفكر والتعقل من تقديم مقدمة في العلم ، ولا نتكلم في العلم من جهة ما نقول ويقول المرشدون من أنه نور العالم الانساني ، وشمس وجوده ، وروح حياته ، وأنه وسيلة التقدم في المدنية ، وكمال الحقيقة الانسانية ،وهو سيف القوة، وينبوع الثروة ، وما شابه ذلك من الاوصاف الحقة التي أجمع عليها العقلاء، بعد أن صدر به النطق الالهي على لسان الرسل والأنبياء ، والصديقين والأصفياء . فان هذه الأوصاف إنما تثبت للعلم من جهة أنه مطابق للواقع ، ومثال للحقائق الثابتة ، وحاك عن الأوضاع الالهية في عالمنا الوجودي . أما كلامنا الآن فهو في مطلق الادراك المعبر عنه بالشعور الذهني الذي يشمل جميع التصورات والتصديقات من حيث هي

اختلفت كلمة العلماء في مسمى لفظ العلم، فمنهم من قال: أنه الصور المنطبعة في النفس آتية من طرقها المعلومة (الحواس الخمس) أو حاصلة من تأليف بعض تلك الصور الآتية مع بعض آخر . ومنهم من قال : انه انفعال النفس بتلك

---

*) نشرت في العدد ١٢٧١ الصادر في ١١ المحرم سنة ١٢٩٩ - ٣ سبتمبر سنة ١٨٨١

(١) المقالة بطولها له رحمه الله ولكنه أراد أن ينظر في هذا البحث المهم لذاته

الصور أي التأثر الذي يحصل فيها بورود الصور عليها . ومنهم من قال غير ذلك من كونه نسبة بين العالم والمعلوم ، مجهولة الحقيقة أو اتحاد العالم بالمعلوم ، الى غير ذلك من الأقوال التي لاحاجة بنا الى ذكرها ، لكن القولين الاولين هما الأقرب الى العقل ، والأشهر في التمثل ، ويكاد الخلاف بينهما يكون لفظياً ، لاتفاقهما على أن النفس المدركة تنطبع فيها الصور ، فهي متأثرة بها ، إلا أن الخلاف في كون العلم هل هو الصورة نفسها ، أو تأثر النفس وانفعالها بها ؟ والأقرب للحقيقة هو الرأي الثاني ، وهو مايرشد اليه الوجدان الذي يدركه كل متعقل من نفسه

فالعلم بناء عليه انفعال في هذا الجوهر المدرك الذي تخفى علينا حقيقته ، لكنا نعرف آثاره ، وهو الروح الحيوي ، والقوة المودعة في المخ والأعصاب من الحيوان ، أو المعبر عنه بالنفس الناطقة في الانسان . فالضياء الذي قال العلماء أنه يحمل الصور الى الباصرة مثلا ، ليس المراد أنه ينقل صور المرئيات كما ينقل أحدنا الشيء من المكان الى البصر فيودعها فيه . إذ هذا من المحالات الأولية . فان صورة الشيء الذي نراه لاتفارقه بالضرورة ، بل المراد أن الضياء للطفه عند مروره على الصور والاشكال يتشكل بها ، فيكون أيضاً بنفسه قد حدث فيه شكل يشاكل هيئة مامر ، وانطبق عليه على حسب حالة الانطباق ، ولما فيه من الحركة السريعة المستمرة ، ينعكس الى البصر بشكله ، فيؤثر في الروح اللطيف (أشد لطفاً من الضياء بكثير) المودع بالحكمة الالهية في مركز الادراك بمثل ما تأثر الضياء من المرئي عند انطباقه عليه . وهكذا يقال في تموج الهواء بالنسبة الى المسموعات ، وفي الملموسات والمشمومات والمذوقات يتأثر الروح المنبث فى الأعصاب الادراكية من نفس الكيفيات التي تتصل به ، فيحصل فيها مثل هيئتها التي خالطته

فالعلم والادراك أثر فى الجوهر الدرّاك يحدث فيه من المؤثرات الأخر المحيطة به كسائر الآثار التي تحدث فى الأشياء من اتصال بعضها ببعض ، وانفعال كل منها بما فى الآخر من الكيفيات والصفات التي يمكن أن ينفعل بها

كالحرارة يكتسبها الماء عند اقترابه منها ، والماء يكتسب شكل الأناء عند وضعه فيه ، وما شابه ذلك

وهذا الأثر بحكم الوضع الالهي الذي لا تصل الى كنهه العقول يثبت فى جوهر المدرك ، مستتبعاً جميع لوازمه التي لاتفارقه ، فصورة الانسان مثلا يتشكل بها الروح على هيئتها التي تشكل بها الضياء ،وهي فى مكانها المخصوص ، ووضعها المعين ، فكما صارت تلك الصورة فى الروح يكون فيه أيضاً حيزها ومكانها التي كانت حالة فيه عند الرؤية ، ومقدار البعد بينها وبين الأشياء التي أحاط بها الضياء وأتى بها معها ، وبالجملة فان الشيء يكون فى العقل كما هو فى الوجود مع كافة لوازمه وتوابعه على حسب ما اتصف به الموصل ، وما قبل الروح المدرك بحكم استعداده الفطري ، حتى ذهب كثير من المحققين إلى أن الحقائق بنفسها موجودة بذاتها في العقل كما هي موجودة في الخارج لما رأوه من التماثل التام بين صورة العلم والمعلوم ، فكأن عالم الادراك وما يوجد فيه هو بعينه عالم الشهود وما احتوى عليه . وكما أن حركة الموجودات في العالم الخارج عن نفوسنا تدعو الى اتصال بعضها ببعض ، فيتألف منها أجسام على نمط منتظم أو غير منتظم يكون لها من الخواص والصفات بعد تألفها ما لم يكن لها قبل التألف ، فان حركة الاجزاء الغذائية مثلا وانضمامها الى البدن الانساني أو الحيواني يكسبها من صفات الحياة ما لم يكن لها قبل اتصالها بالبدن ، كذلك حركة الجوهر المدرك فينا تفضي الى انضمام بعض الاشكال الادراكية فيه الى بعض آخر فيتألف منها شكل ثالث يكون له من الخواص العقلية في ذلك الجوهر مالم يكن للشكلين الأولين ، ونريد من الاشكال أنواع الحركات الحادثة في جوهر الروح فان انضمام بعضها الى بعض يحدث أنواعا أخر من الحركة

وكما يرى في عالم الشهود أن بعض أجزاء العالم يجذب بعضاً وبعضها يطرد بعضاً آخر لتمام مناسبة أو تمام منافرة بينهما ، كذلك بعض المعلومات في العقل اذا حصل يوجب انضمام معلوم آخر اليه أو انفصاله عنه ، وفي كلا الحالين أحدث في النفس أثراً جديداً ، ومن ذلك تذكر الشيء بعد الذهول عنه لوجود

ما يلائمه أو يضاده بالكلية ، وقد يكون في الحالين مع سرعة تارة ، ومع بطء تارة أخرى ، كما يحصل ذلك في الموجودات المشهودة بلا فرق ، ومعنى هذا أن تأثر جوهر الادراك بحالة قد يوجب تأثره بحالة أخرى لرابطة بين التأثرين ، سواء كانت تلك الرابطة ناشئة عن المناسبة أو المعاكسة

ومن المعلوم المقرر عند كل عاقل أن هذا الجوهر الروحي هو المتسلط على الأبدان التي صارت باستعدادها الطبيعي مظهراً لآثاره ، بمعنى أن حركات هذا الروح في أجزاء الأبدان توجب مطاوعة تلك الاجزاء له ، فهذه التأثرات والانفعالات التي تحدثها فيه حركات الموجودات الواصلة اليه ، توجب في هذا الروح حركة مخصوصة على حسبها ، شأن سائر المؤثرات الطبيعية العادية ، وبحكم حركة هذا الروح تتحرك الأجسام والأبدان بآلاتها المخصوصة على ترتيب ونظام مخصوص يشبه حركة الروح الناشئة عن تأثرها ، وهذا ما نسميه بالحركة الارادية ، وهي التي يندفع بها البدن الى طلب شيء أو الهروب منه عند العلم بملاءمته أو منافرته ، أي عند انفعال الذهن بصورته مع لازمها الذي هو الملاءمة أو المنافرة حسب الشكل الذي حدث في الجوهر الروحي المعبر عنه بالذهن — يتحرك في الأجزاء المعدة لحركته فيها ، فتتحرك هي أيضاً بحركته ، إما طلباً وإما هربا (جذبا أو طرداً)

وقد يتعارض أثران في الجوهر المدرك الذي هو الروح ، وبعبارة أخرى قد تختلف صورتان علميتان في العقل (إحداهما) تقتضي اندفاع الروح وحركته نوعا من الحركة (والأخرى) تطلب نوعا آخر منها فيقف ، وهي حالة التردد ، فاذا عرض من الآثار الادراكية أو الصور العلمية ما يقوي أحد الاثرين تحرك الى ما يوافقه ، وإلا فهو في مركز الوقوف ، ويبقى أثر ضعيف في الادراك للصورة المرجوحة عند ما يغلب على الروح أثر الصور الاخرى

فالارادة إنما هي تابعة للأثر العلمي في الروح الادراكي أو هي صورة أخرى لذلك الأثر ، بل الفعل الصادر عن الروح في البدن أعني الحركة البدنية نفسها إنما هو ظهور الأثر الادراكي في الروح ، فيكون حاصل القول أن المتصل

بالروح أثر فيها أثراً وهو العلم أوجب حركتها في أجزاء البدن ، فكان عنها حركة البدن نفسها ، وإن شئت قلت : تشكل الروح ، وهو في الاجزاء بشكل ما اتصل به ، فظهر ذلك الشكل بعينه في الأعضاء بالحركة الفعلية ، وهذا ما يقول العلماء إن الارادة تنزّل العلم ، والفعل تنزّل الارادة . ومعناه أن حقيقة الأثر واحدة ظهرت في الأشياء المتعددة بمظاهر مختلفة

وقد يكون تأثير الادراك في أعضاء البدن وأجزائه والمواد التي يتركب منها خارجا عن الطور الذي نسميه بالارادة ، وذلك كفعله في الدم عند ما ينتقش بصورة فعل منافر ، وفي الامكان دفعه ، فيفور الدم ويغلي ، وينتشر في جميع العروق ، ويدور فيها دورة غير اعتيادية ، فاذا اشتدت الدورة تحرك البدن الى الايقاع بمن صدر عنه الفعل غير الملائم ، وهذه هي الحالة التي نسميها حالة الغضب ، فان تأثير الأمر المغضب في الدم ليس في حد الارادة والاختيار ، وإن كان التحرك للايقاع واقعا تحت الارادة، لكن ربما اذا أمعنا النظر نجده خارجا عنها، وإنما نعده داخلا تحتها عند ما نلاحظ أن عندنا أثراً علمياً آخر يدافع طلب الانتقام ، ويرد النفس عنه ، وهو صورة عاقبة الفعل الانتقامي وما يخشى من خطرها ، فلوجود هذا الأثر عند الغضب نحسب الحركة الغضبية حركة إرادية ، وإلا فالغضبان يحس من نفسه أنه مغلوب لادراكه

ومثل ذلك تصور العاشق وصل المعشوق ، فانه يفعل في الدم حركة وفي القلب خفقانا ، خصوصاً إذا كان المعشوق بمرأى منه ، وبمشهد من أعماله ، ويتبع ذلك ارتعاد خفيف في الأعصاب والأربطة البدنية ربما يفضي الى الرعشة ، وليس هذا التأثر داخلا تحت الارادة ولا هو منها في شيء ، ولكن قد يتبعه فعل إرادي مثل الفعل الذي يتبع الغضب ، وإنما يعتبر الفعل إراديا ما إذا كان ناشئاً عن إدراك آخر ، سواء كانت المنازعة على وجه المدافعة أو المقابلة ، ومرادنا من المقابلة تصور الشيء وضده ، وترجيح غايته على غاية الضد كتفضيل الحياة على الموت عند تصورهما

وقد يفعل الادراك في الدم وقفة وانقباضاً ، ربما يؤدي الى الجمود وفقد

الحياة كما نشهده فيمن فجع بموت ولده أو صديقه ، أو تصوّر خطراً وخطباً جسيما . فان قوة هذا الأثر الادراكي وفعلها في جوهر الادراك قد تتسلط على الدم فتردّه من العروق بحركة جوهر الروح وشدة انقباضه ، أو توقف دورته ، وربما ينشأ عن ذلك موت المفجوع والآيس ، ويتبع ذلك من الأعمال الارادية قبل ذهاب الحياة سكون أو تحرك غير منتظم . وقد يؤدي إدراك من الادراكات — كتصوّر أمر مخيف — إلى ذهاب الادراك ، وسلب الشعور بالكلية ، وهو مايعبر عنه بالاغماء والغشي ، وذلك لاستيلاء أثر الصورة المخيفة على الجوهر المدرك في البدن ، فلا يسعفه سواها ، فتضمحلّ جميع الانفعالات المعبر عنها بالادراكات ، وتفنى في نوع هذا الادراك والانفعال الشديد

وهذه الأحوال التي نجدها من أنفسنا ترشدنا بلا شبهة إلى أن التأثر الادراكي من الانفعالات الطبيعية التي تتأثر بها الجواهر اللطيفة من الضياء والكهرباء وغيرهما ، وإن ماينشأ عن التأثر الادراكي إنما هو كيفيات تتبع الحالة التي صار عليها الجوهر المدرك بعد التأثر الذي عرض عليه أي ما نسميه علماً وإدراكا

المقالة الحادية والثلاثون

الملكات والعادات

إن هذا الجوهر الروحاني المتعلق بأبداننا الذي يتأثر من كل واصل اليه وينفعل أشكالا من الانفعال لكل متصل به يأخذ بتوارد أنواع التأثرات هيئات مخصوصة تثبت فيه ، مستتبعة لوازمها حتى تصير كأنها من أصل خلقته لكثرة ما وردت عليه ، وهي التي نسميها ملكات إدراكية وعلوما ثابتة في النفس لا تزايلها ، ويتبعها السجايا والطبائع والأخلاق النفسانية ، الملائمة لتلك الملكات الادراكية ، ويلزمها الأفاعيل البدنية المعبر عنها بالعادات

فليست الأخلاق والعادات إلا توابع ومستلزمات للعلم والادراك الذي هو أثر في جوهر الروح يتبعه الأثر الفعلي ، فان عرض للنفس مؤثر أو وقف

على أبواب الادراك وارد غريب عن ملكاتها السابقة ، وبعيد عن الهيئات الادراكية التي أخذ الجوهر شكلها عسر على الذهن إدراكه ، وتعسر على النفس فهمه ، ومانعت الأعضاء البدنية أثره ، فهذه الأخلاق والملكات ناشئة عن كثرة توارد الانفعال النفسي الادراكي من نوع واحد ، حتى صارت هيئة للنفس تصدر عنها الافعال الجزئية الملائمة لها ، كلما عرض عليها أثر جزئي من نوع الهيئة الكلية ، فسجية الكرم مثلا ثبتت في نفس الكريم ، لكثرة انفعال عقله وإدراكه بصور الغايات الشريفة التي تتبع الكرم ، والفوائد الجليلة التي يكتسبها باذل المال ، أو باذل الهمة في سد حاجات المحتاجين ، فبتكرار هذه الصور والادراكات على العقل ، وصدور الأثر الارادي عنها ، وطول الزمن على ذلك تمكنت في النفس هيئة مخصوصة إدراكية ، وهي اليقين الذي خالط الروح بأن الكرم جميل مفيد ، ويتبعها انطباع النفس بالنهي (كذا) التام لحركة الاعطاء ، وإيصال الخير إلى من يحتاج اليه . فاذا أخطر ببال الكريم وصاحب هذه السجية التي تولدت فيه عن انتقاش نفسه بصورة فائدتها فعل لبخيل مناع للخير ، رأيت عقله يبعد عن إدراك هذا الفعل ويجد من روحه انقباضاً وتعاصيا عن الانفعال به ، بل يجد جوهر عقله يطارد هذا الانفعال الذي تجلبه إحدى الحواس ، أو يذكر به راوي العمل وحاكيه ، فاذا كلف صاحب هذا الخلق بأن يعمل عمل البخلاء ، رأى من نفسه بعد الاباية الادراكية والمصادرة العقلية انحطاطا بدنيا وارتباطا في الأعضاء حتى كأنه يجد عاقداً يعقد كل طرف بآخر ، ومانعاً يمنعه من نفسه عن تحريك عضلاته ، بل يحس من ذاته كان القوة المحركة إلى هذا العمل الخبيث ، فاقدة (كذا) بالكلية .

وهكذا يقال فيمن تعودت نفسه إدراك غوائل الفقر والحاجة ، وتكاثر عليها الانفعال بصورة العجز والضعف عن الكسب ، وتهيأ جوهره الادراكي بصورة الانخذال والانهزام من صدمات الحوادث ، فهذا الذي أحاط بادراكه جميع المزعجات ، تراه قد رسخ في قوته الروحية أشكال من هذه الانفعالات ، وانطبعت نفسه ، ومبادىء الحركة فيه على الميل إلى مايلائم إدراكه الثابت ، فهذا الراسخ

هو ملكة العلم بفوائد البخل والامساك عنده ، وهذا المنطبع سجية البخل ، وعنها تصدر الارادة بالأفاعيل الناقصة التي هي عنوان هذه الملكة وتلك السجية ، ولئن ذكر لصاحبها طرف من أحاديث البر والاحسان ، وما ينشأ عنها من الفوائد لمن تحلى بهما ، رأيته ينفر من ذلك نفور الوحش ، ويطلب سد أبواب الادراك على نفسه حتى لا يتكدر خاطره ويتألم بهذه الصور الرديئة المستبشعة

من جملة هذه الملكات التي ترتكز في جوهر النفس المدركة ملكات الصناعة كالكتابة والادارة والرسم والحدادة والنجارة ، وغير ذلك من أنواع الصنائع التي ترتسم في ذهن المدرك صورها الآتية اليه من إحدى الحواس ، مقترنة بما يلزم تلك الصنائع من الفوائد والثمرات التي يجتنيها العامل فيها ، وتارة لا تأتي اليه صورة الصناعة من طرق الحاسة ، ولكن يضطره الاحساس المؤلم العارض له من المؤثرات الجوية الى طلب الخلاص منه ، فيندفع إلى التأمل في الموجودات المحيطة به لعله يجد منها ملجأ ، فينفعل بصور منها على هيئات مختلفة انفعالا يلائم الانفعال الأصلي ، أعني طلب الخلاص من الألم ، فيتحرك للعمل فيها على غير انتظام ، ولا حالة تمام وكمال في مبدأ الأمر ، ثم يلجئه ركوز الفائدة المقترنة بهذه الهيئة ، ولزوم الحاجة لمداومة الأعمال فيها إلى جبر الأعضاء والآلات البدنية على حركات واهتزازات خاصة ، إن كانت الصناعة بدنية حتى تلين تلك الأعضاء ، وتكون في غاية المطاوعة لهيئة الروح المدرك ، أعني أنها تكون في حركاتها مثالا لما ارتسم في الروح من الهيئة التي رآها أو لمسها مثلا مع لازمها من الفائدة والغاية الملائمة حيث أثر ارتسامها في الروح أثراً خاصا ، وبه سرى في الأعضاء على هيئة وكيفية خاصة ، ويصعب أول الأمر أن تكون على طبق ما ارتسم من كل وجه ، ولكن باستحكام الأثر ومداومة العمل تنطبع الهيئة بتمامها في الأعضاء كما انطبعت في مركز الادراك ، ومثل ذلك الهيئة المخترعة التي دعت الضرورة الى ارتسام الذهن بها

فان كان العمل غير بدني كالادارة والسياسة مثلا من الاعمال الفكرية التي لا يراد من العامل فيها سوى تأليف صور فكرية معقولة تنطبق على الواقع ، ويمكن

بالسهولة الاجراء على مثالها وهو مانعبر عنه في اصطلاحا لحكومة بالتنفيذ، فملكتها إنما تثبت في العقل ، وتنطبع في الروح ، حتى تكون كهيئة فطرية له كما في سائر الملكات بتوارد صور كثيرة مختلفة الانواع والأشكال من صور المضار والمنافع والمصالح والمفاسد ، ثم يوجد عنده انفعال وتأثير بغاية وداعية تبعثه على المقارنة بين تلك الصور والحركة في تطلاب لوازمها الكامنة فيها . فاذا استحكمت هذه الغاية في النفس صيرت الروح كالبحر المائج والاشكال العلمية أمواجه، أو كالضياء لاينفك عن الحركة يؤلف بين عدد من الصور ، ثم يفرق بينها ، ثم يجمع بين المتفرقات في نقطة ، ولا تسكن له حركة حتى يستقر في ملتقى المنافع ، وهي الصورة المنطبقة على غايته الملائمة له ، أي التي تأثر وانفعل بها فانبعث لطلبها بحكم ذلك الانفعال . وفي مبدأ الأمر لاتأتي هذه الحركات بالمطلوب على وجه السرعة ، لكن متى استحكم في الروح الأثر الباعث على هذا العمل الفكري استمرت الحركة العقلية مرة تحاذي الغاية ، وأخرى تنحرف عنها ، فتحفظ الانحراف أثراً يبعدها عنه مرة أخرى حتى يكون الاتجاه الى وجهة الطلب كطابع جبليّ فيها . وهذا إجمال في القول ربما نأتي على تفاصيله فيما بعد

ومن تأمل حال سير الانسان بل طريق ترقيه وتدنيه في أعماله واختلاف عاداته وأخلاقه واعتقاداته وكافة شؤونه ، وأنه قلما يتفق جيلان من الناس بل قبيلتان ، بل فخذان على استحسان شيء أو استقباحه ، بل اذا تنزلنا إلى النظر في الجزئيات رأينا هذا الاختلاف بين كل شخص وشخص حتى المولودين في بيت واحد ، هذا يستحسن شيئاً، وذاك يستقبحه ويستهجنه ، ومن يدقق نظره في ذلك يوافقنا على أن هذه الاحوال الادراكية التي تتبعها الملكات والاعمال التي نسميها بالعادات . إنما منشؤها الانفعال من المؤثرات الخارجية التي تختلف على الشخص باختلاف موقعه وما يحيط به من مؤثرات الطبيعة ، ومن يكتنفه من أبناء جنسه ، وما ينشأ عليه من نوع المأكل والمشرب ، والملبس والمسكن ، وما يطرق أذنه من الاصوات ساذجة ولفظية مستعملة ومهملة ، وما يراه من الصور والاشكال متعاقبة بعضها أثر بعض ، وما يذهب اليه إدراكه من جميع

ذلك مستعقباً ومستتبعاً لوازمه . فان جميع ذلك يتشكل به الروح المدرك ويكون هيئة فيه ، وما تكرر منه ثبت شكله فيه ، أي انطبع الروح بطابعه ، أي صار الروح على ذلك الشكل فهو في حركته الطبيعية يكون على ذلك المثال وهو ما نعني من تقرر الملكة وثبوت العادة . وما لم يتكرر يذهب أثره بغلبة بقية الاشكال عليه

ويعرف العلماء الملكة بهيئة راسخة في النفس تصدر عنها الافعال بدون فكر ولا روية ، وليس مرادهم من كونها بدون فكر ولا روية أنها غير إرادية بالمرة ، أو أنها رمي بدون رام ، تارة يخطيء ، وتارة يصيب ، ولكن مرادهم أن الروح ينطبع عليها . فالارادة موجهة الى ما يكون على مثالها بدون احتياج الى جولان بين الصور وترجيح بعضها على بعض ، وبعد تمكن الملكة في النفس وانطباع الفكر أو الاعضاء على محاذاتها في الحركة يكون من الصعب بل ربما كان من المتعذر أن يتحول الانسان عنه إلا بقاهر تشتد وطأته على النفس فيوصل اليها من المؤلمات أو يخيل لها من المخوفات مايؤثر فيها أثراً قوياً يلويها عن الأثر الأول ويقودها الى الأثر الجديد ، ثم يستمر ذلك أزماناً وإن شئت قلت أجيالا حتى تضمحل الهيئة الأولى ، وتثبت الهيئة الاخرى . ومن ذلك الحديث الشريف « اذا سمعتم أن جبل كذا انتقل من مكانه فصدقوا واذا سمعتم أن فلانا تحول عن خلقه فلا تصدقوا » (١) يشير بذلك الى صعوبة الانتقال عن الاخلاق والعادات الثابتة من تلقاء النفس بدون أن يضطرها لذلك قاسر أو زاجر ، وهيهات أن ينال المطلوب مع ذلك

ومما يرشد الى أن تكرر الانفعال على النفس يحدث فيها هيئات فكرية وعملية ماحكاه عبد الوهاب (لعله عبد اللطيف) البغدادي من حوادث سنة ٥٩٥

١) تتمته « فانه يصير الى ماجبل عليه » وهي نص في مراد الاستاذ رحمه الله تعالى ولعله كان نسيها عند الكتابة او وقف عند المتداول على الالسنة . والحديث عزاه السيوطي في جامعه الى احمد عن ابي الدرداء وسكت عليه على ان سنده منقطع فهو من رواية الزهري عنه وهو لم يدركه . واني اراه لايشبه كلام النبي « ص » وان كان معناه صحيحا

هجرية في مصر أن شدة القحط وفقد المطعومات في الديار المصرية بذلك الوقت اضطر بعض الناس لأكل بعض آخر لسد الرمق وإلهاء كلب الجوع ، وفشا ذلك فاستبشعته النفوس ونفرت منه حتى إن بعض الناس انزعج لهيئة أكل الانسان فمات من بشاعة المنظر ، ثم لما عم ذلك غالب الافراد زالت البشاعة شيئاً فشيئاً حتى صار من المألوفات أن يأكل الرجل أحد أقربائه ، والمرأة ابنتها أو أحد أقاربها ، وكانوا يطبخون لحم الآدمي بالتوابل والبهارات كما يطبخون لحم الحيوان . فانظر إلى الانفعال الذي حدث في النفس من غائلة الجوع كيف غلب على الاعتقاد وكان في غاية الاستحكام ، وانقلب القبيح حسناً ، إلا أنه بعد زوال العارض عاد الاعتقاد الأول الى مكانه لارتفاع الضرورة لكن لم يعد الى حالته الأولى على وجه الكمال إلا بعد أزمان

نظن أنك التفت فيما ألقينا اليك من المقدمات السابقة إلى أن العلم والادراك الذي يستولي على الارادة إنما هو الانفعال بالصور الواردة الى الروح الدرّاك اذا قارنها الانفعال بصور الغايات اللازمة لها ، ملائمة لذي الروح أو منافرة ، ولا يتحرك بها الروح على هيئتها الثابتة فيه منبثاً في الاعضاء أو ما يجافي مركزه الفكري لينفعل بصور مركبة من الانفعالات البسيطة أو المركبة ، إلا اذا لم يعارضها انفعال يلوي الروح إلى ضد الحركة التي تطلبها تلك الانفعالات ، إذ عند المعارضة لا يكون للهيئة الأولى تمام الثبوت والركوز في النفس ، ومتى قوى ارتسام الصورة الادراكية وتغلب على سائر الادراكات الأخرى ، وكان الارتسام بمطلوب أو مهروب منه اندفع الروح إلى الحركة كما مر بك بيانه . وعن ذلك تكون الاعمال التي باستمرارها تثبت الملكات أو العادات

ويوجد علوم يسميها أرباب الاصطلاح علوما وأرى لهم في التسمية حقاً لأنها نوع من التأثرات النفسية الادراكية ، وإن كانت لا أثر لها في باب الادراك يصح اعتباره إلا من وجه أنها أشكال مؤلفة من خواطر النفس لا غير ، وهي ما تخيله التعاليم والالفاظ الموضوعة بازاء معان يمثلها المعلمون للذهن بالتمثيل والتشبيه ويقربونها الى الجوهر الدرّاك بتذكير بعض المألوفات ، فيحدث منها في

المخيلة أنواع من الاشكال بسائط ومركبات ، أي يتشكل الجوهر الدرّاك بهيئات تناسب التقريبات التعليمية تحضر عنده بالتذكر وضم بعض المذكورات إلى بعض . وذلك كما يوصف للأعمى هيئة الافلاك والكواكب وحركاتها ، ويمثل له ذلك بكرة الصبيان موضوعة في مستديرات(١) كمحيط الغربال إلا أنها في السعة على نحو كذا وفي التدوير على كيفية كذا الخ الأوصاف

وكما يقرب للبخيل حقيقة الكرم وكيفية بذل الحق لصاحبه ومنحه لمستحقه ، وصرف ثمرات الكسب فيما يؤثل المجد ، ويعلي شأن الحسب وأشباه ذلك . فانه يتمثل في ذهنه هيئة مركبة من مجموع الأوصاف التي كانت بسائطها ثابتة فيه ، وإنما التعريف أحدث هيئة اجتماعها مسماة باسم واحد هو الكرم مثلا الا أنها لاتجاوز المركز الادراكي ، فهي ترتسم فيه من حيث التمثيل والتعليم . فان تواردت عليها الاشباه والمذكرات من وجه التعليم والتذكر بقيت ثابتة ، ويقال لمن هي عنده أنه عالم بتلك الصفة وقادر على تعليمها كما أخذها على النحو الذي حضرت به عنده . ومن ذلك كل مايتعلمه الشخص من القواعد العلمية قصد أن يتعلقها أي أن توجد في جوهر روحه صور مؤتلفة على نوع خاص من الائتلاف ، وترجع الى وجهة واحدة في الجنس كعلم النحو، وعلم العروض مثلا، أو فن الاخلاق والسياسة

وقد يحصل عند الشخص من ذلك شيء يسمى بالملكة ، لكنه ليس من نوع الملكات التي بينا كيفية حدوثها عند النفس فيما سبق من الكلام ، وإنما هو نوع من رسوخ تلك الصور في المدركة بحيث اذا وجد جزئي من الجزئيات يرد على الذهن من الخارج ، فربما يتنبه المدرك الى كون هذا من نوع بعض الصور ، وليس من نوع البعض الآخر . ويكون لصاحب هذه الملكة أنه يولد في عقله من هذه الانفعالات انفعالات أخرى تحاكيها محاكاة تامة أو غير تامة ، ويطابق بين الأصل وما تولد عنه كل ذلك في عقله لايراعي فيه الانطباق على الواقع ، أو عدم الانطباق ، فان لاحظ ذلك فهو على شريطة أن لايباين الأصل الذي تلقاه ـ فهذا إنما هو نوع من حركة الروح على مركز واحد حركات متشابهة أو

(١) أي في أطر «جمع إطار» مستديرات

متعاكسة . ومن تأمل في المسائل الاختراعية التي استولدها بعض علماء الفنون العقلية ، وذهبت عقولهم خلفها ، فاستحدثوا لها في أذهانهم لوازم لم يقفوا فيها عند حد تبين حقيقة ماقلنا ، فمثل هذا النوع من العلوم لا يؤثر في الارادة شيئاً سوى أنه يحولها الى إجابة الفكر فيه ، فلا يكون له هم الا تأليف الاشكال العقلية وتفريقها ، وهذا نوع من تسلط الارادة على الادراك بعد تسلطه عليها

مثلا الذي درس علم التهذيب لقصد الوقوف عليه ليس الا بعد أن صار كهلا بين قوم بعيدين عن التهذب ، وتلقفت احساساته من أحوالهم ماانطبع عليه روحه الدراك وسرى به في الدم والعروق ، وجرت به الاعمال العضوية ، ومرنت عليه حتى صارت في النفس ملكة وللبدن عادة ، وحفظ جميع ماحوته الكتب الشهيرة في هذا الفن . فان قواعد الفن وصور أصوله تكون جاثمة في مركز الادراك وأشكالها ثابتة فيه ، لكنها حيث لم تقترن بغاية هذا التحصيل وهو العمل ، وانما كان القصد مجرد العلم حتى يمكنه أن يعلمه ويلقيه كما تلقاه — فان العقل والنفس يقفان به عند هذا الحد فقط . فاذا انضم الى ذلك غايته وهي أن يقدر على تأليف جمل منه وفصول يعبر عنها باللسان أو بالكتابة تحرك الروح في لسانه ، وتضامّت الاشكال في مخيلته على الترتيب الذي يريد في عقله فيتمكن من ذلك بالتعويد حتى يصير هذا النوع من العمل ملكة له ، وتكون الارادة تابعة للادراك هذا النوع من التبعية

ومثل هذا من يتعرف أعمال العبادة المسيحية وهو مسلم أو بالعكس لا لقصد العمل ، ولكن لقصد أن يتكلم أو يكتب مايدل على تلك الاعمال وفروعها ، فالارادة تابعة للانفعال الادراكي بالداعية والباعث الى الحركة . فان كانت الداعية مجرد التصور وقفت عنده أو انضمام الترتيب والتأليف في الالفاظ والارقام تجاوزت الى هذه الغاية ، وهي الى هذا الحد لا تفيد في حال الشخص وصفاته الحقيقية التي هو بها جزء من هذا الوجود شيئاً يعتد به ، وأرباب هذه الحالة يعرفون في الاصطلاح باللفظيين تشبيهاً لعلومهم باشكال الهواء والأصوات المقطعة المسماة بالالفاظ لا أثر لها إلا بالعرض

ومن ذلك الذين يتكلمون كثيراً بالحكم العالية والأصول النظامية الجليلة لكنهم في أعمالهم لايراعون شيئاً مما يقولون ، وما ذلك إلا لكون تصوراتهم إنما هي تأليف أشكال خيلها لهم الممثلون والمقربون فوجد لتأثر أذهانهم بها نوع من الارتياح للطف الاشكال المؤلفة منها في حد ذاتها . فانبسطت نفوسهم لاستثباتها ، وانضم الى ذلك احساسهم باجلال الناس لمن ينظمها في سلك العبارات أو الأرقام فوجهوا الارادة إلى ذلك فلم ينالوا سواه . وعلى هذا المثال من يعرف قواعد النحو بالتمثيل والتقريب إلا أنه اذا قرأ لايتذكر شيئاً منها ، واذا كتب جال قلمه خارجا عن دائرتها ، وأولئك هم المبتدئون الواقفون على عتبة التعليم . ولا يصح أن يقال لهم بالحقيقة عالمون بشيء مما يقولون ولو علم النحوي مثلا قواعد النحو حق العلم ، أو عرف السياسي أصول السياسة كمال المعرفة وانطبع بها روحه الدراك على النحو الذي أسلفنا لتبع ذلك الانفعال غايته . فان الغاية من الأصل المدرك التي ماوضع الأصل الا لها من لوازمه لاتفارقه ، فعدم تمكنها في النفس دليل عدم تمكن الأصل نفسه فيها ، ومتى تمكنت الغاية انطلق الروح في الآلات العلمية لتحصيلها فيعوج في السير ويستقيم حتى ينطبع شكل الأصل وغايته في الروح المنبث في كافة الاعضاء ، فتصدر لذلك الأعمال تابعة للأصل الثابت بدون عسر وهنالك تمام العلم وكماله ، أفلا يرى أن مدرس السياسة عند مايقبض على زمامها لاجراء العمل بما علم يلتبس عليه الحال الواحد لايدري يطبقه على أي أصل من الاصول الثابتة عنده ، أليس هذا جهلا بنفس الاصل حيث لم يقف على نوع جزئياته؟ لكنه بعد التطبيق وظهور العاقبة الحميدة يجد من نفسه أنه فتح له باب جديد من العلم ، وكذلك ان حدث منه أثر رديء فهذا الارتباك الاول والرشاد الثاني شاهدان على نقص الادراك قبل تمكن الملكة النفسية والاعمال التعويدية وكماله بعد تمكنهما . ومن هذا القبيل أحوال كثير من الناس يزعمون أنهم يعتقدون شيئاً ويعلمونه حق العلم ، بل ويدافعون عنه ، ولكنهم يعملون على خلاف مايقتضيه مع زعمهم التيقن بأن النجاة في اتباعه ، والهلاك في العدول عنه ، وقد تبين أنهم في الحقيقة لايعلمون

الادراك الراسخ في النفس الذي يكون هيئة ثابتة لها ، وملكة تصدر عنه الافعال بدنية كانت أو فكرية لها أثر واقعي لامجرد الأثر التصوري هوالمعروف في الاصطلاح بالاعتقاد، لأنه بانطباعه في جوهر الروح المدرك كأنه عقد في النفس بحيث يعسر انحلاله وزواله ، والنفس بكثرة مزاولته وتكرار انفعالها به قد اعتقدته وارتبطت به ، وما عدا ذلك هو المخيل والموهوم يحوك في النفس وتظهر صورته فيها عند عروض مذكراته ، وموجبات انفعال النفس به ، فاذا هب الروح لحركته الذاتية بورود الموجب رأيت المعتقد قد احتوى على الروح فتحرك به وتوجه إلى وجهته ، وزال ذلك الموهوم كأن لم يكن، وانما مثل الموهوم في النفس مع المعتقد كمثل جسم غريب حل في شكل الشعلة المخروطي فأثر في انحرافه عن المخروطية فاذا قويت الشعلة حتى أحرقته عادت الى تمام الشكل ، ولا يحصل انحراف الشكل إلا عند عروض عارض آخر ، فالصور الاعتقادية في الروح تكون كالاشكال الطبيعية ، وما دونها لا يؤثر فيها أثراً حقيقياً ثابتاً ، وفي ذلك يقول نبينا صلى الله عليه وسلم « لا يزني الزاني وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن » (١) ولست أريد تفصيل ذلك

تأمل إلى من جلس أمام منبر الخطابة يستمع الوعظ بكل إنصات ، ويهز رأسه هزة الهائم بجميل مايسمع ، وتارة يذرف الدمع من عينه لما حاك في نفسه من الانفعالات الروحية التي أحدثتها مذكرات الخطيب ، ويكون ذلك الوعظ في تخفيض شأن الدنيا وتهوين أمر الحياة ، وأن كل طويل فيها قصير ، وكل سرور فيها مشوب بمكدرات وشرور ، وأن لاغنيمة فيها سوى مايقدمه العاقل بين يديه من طيبات الأعمال ليكسب بها نعيما مؤبداً ، حتى إذا انفض المجلس وانتشر القوم لطلب الرزق، رأيت ذلك الباكي وهو يتقرب إلى موارد الشهوات، ويدنو من مساقط الدنيئات ، ويستعمل لذلك أنواع الحيل التي طبعتها في جوهر إدراكه فواعل الاحتياطات التي ألمت به ، أو وردت عليه صورها ملمة بغيره

«١» هو جزء من حديث رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما وفيه تقييد النفي بقوله « لا يزني الزاني » حين يزني وكذا حين يسرق وحين يشرب أي الخمر

مع العجز عن افتتاح طرق الكسب من وجه يلائم مقال الواعظ ، ويتفق مع إرشاد المرشد ، فيكون عمله على ضد ما يزعم اعتقاده ، حيث إن هذه الطرق لم تألف إحساساته ، ولم تنتقش في مداركه على النحو الذي يبث الروح في الأعضاء ، فيحركها على مشاكلة تلك الرسوم الجميلة .

فقد وضح لنا من هذه الآثار التابعة للادراك أن الصور التعليمية التي تحضر الذاكرة دائما أو في بعض الأحيان غير مصحوبة بالغاية العملية لا تعد في الحقيقة معتقدات ، وإنما هي مخيلات تظهر في جوهر النفس عند عروض المذكرات فقط . ثم لا يترتب عليها أثر حقيقي في جوهر الروح يثبت فيه، ولكن ينشأ عنها أعراض وقتية

تبين من هذا الذي أوردناه من التقريبات في باب تأثير الادراك في الارادة أنه يعم جميع الادراكات والارادات ، سواء كانت مطابقة للصواب ، جالبة السعادة الحقيقية ، مانعة من الشقاء أو لم تكن كذلك ، وان ذلك لتابع لما يصل إلى المدرك من المؤثرات الخارجية التي تحدث فيها آثاراً تناسب هيئتها التي وصلت بها اليه ، ولم يخرج في ذلك الانفعال الادراكي عن سائر الانفعالات الطبيعية إلا من حيث الكيفية والنوع المخصوص ، فاختلاف العادات والملكات والاخلاق والاعمال في النوع الانساني ، تشهد لنا بناء على تلك المقدمات السابقة أن منشأها هو اختلاف الآثار الواردة على مركز الادراك من الأكوان الطبيعية المكتنفة بالمدرك وعوارضها ، وهذا الاختلاف إما أن يكون لتباين الحوادث ، وتخالف الطبائع الخارجة من حيث الخلقة الأصلية والوضع الالهي . وإما أن يكون لاختلاف حالة المدركين أنفسهم في قبول التأثرات من جهة الاستعداد المجبول عليه جوهر الادراك

أما الوجه الثاني أعني اختلاف الآثار لاختلاف الاستعداد الممنوح بأصل الخلقة لجوهر الادراك ، فهو يأتي من حيث التركيب الجسماني ، والعناصر الداخلة فيه ، والوضع الذي أبدعته يد القدرة الالهية عليه . فعناصر التركيب البدني وجودتها ورداءتها ووضعها فيه ، وكيفية تأليف الأعضاء ، ونسب الأجزاء بعضها لبعض — مما له دخل في ظهور الجوهر الادراكي بآثاره ، وبعبارة أخرى

في شدة انفعاله بالمؤثرات الواردة عليه وضعفه ، وفي قوة استثبات الصور المنفعل بها ، وضعف تلك القوة ، وغير ذلك من صفات الادراك التي لا تخفى على مدرك. وهذا الدخل مما لا يشك فيه

وأما الوجه الأول أعني اختلاف الآثار بواسطة تباين الحوادث ، وتخالف الطبائع الخارجة عن ذات المدرك ، فهو يظهر من اختلاف العادات والأخلاق والادراكات باختلاف الأقطار والبقاع ، وتنوعها بتنوع أحوال التربة والجو الذي تنشأ وتنمو فيه ، ويمتاز بعضها عن بعض بتميز حالة التعيش ، وطرق اكتساب الرزق ، ووقاية الوجود من الخطر والاحساس من الألم التي تستدعيها طبيعة الأراضي . فالذي يقتضيه كسب الرزق الضروري لحفظ الحياة من طريق الصيد البري ، وتدعو اليه المحاماة عن النفس بمدافعة الوحوش الكاسرة والسباع الضارية ،أو يبعث اليه التأثر من شدة البرد ، ويبوسة المنشأ ، وجدب المكان ، كل ذلك غير ذلك الذي يقتضيه كسب الرزق من طريق الزراعة ، والفرار من المهلكات بالاستكنان في بعض الأكواخ لسهولة الارض وخلوها من المفترسات ، وبعدها عن المؤثرات الجوية الشديدة ، وتوسطها في الحر والبرد ، وما يلائم ذلك من موجبات السهولة في تطلب الارزاق ، فان تأثر الجوهر الدراك بالأخطار الأولى يبلغ من الشدة مبلغًا يحدث فيه سرعة الحركة الروحية التي تتبعها الحركة البدنية على أنحاء توصل إلى المطلوب أعني التخلص من تلك الأخطار ، وبتكرارها وكثرة تواردها على النفس تودع فيها ملكة عملية تصدر عنها الأعمال على ذلك النحو المتقدم.مثلا إذا نشأ الانسان فيأرض جبلية كثيرة الغور والنجد ، غزيرة الغابات ، وعرة المسالك ، قليلة الخصب ، تسكنها أنواع الحيوانات المفترسة ، ومع ذلك تكون في جو شديد البرد كثير الصواعق سريع التقلب . فلا ريب أن الانفعالات التي تعرض على إحساساته من هذه الأشياء المكتنفة به ، وكثرة ماتدعوه إلى المقاومة والمصادمة ، واحتمال المصاعب في دفع المصائب ، وتجشم المشاق ليتخلص بها من المهلكات ونحو ذلك — تجعل في الأعضاء قوة على العمل ، ثم ترسخ منها في النفس ملكة الشجاعة والاقدام ،

وتتجه بذلك قوة الادراك إلى البراعة في الكر والفر ، وفنون الدفاع والهجوم ، وتثبت فيها ملكة الحذر والتيقظ ، وملكة النشاط في السعي لطلب المعيشة ، وملكة الثبات في العزائم ، وملكة حب التآلف والاجتماع للتعاون على دفع المضار وجلب المنافع المشتركة . وملكة القسوة والتهاون بالدماء ، وعدم الاكتراث باتلاف النفوس وإزهاق الأرواح . وملكة الغضب الشديد الذي يحمل صاحبه على شدة الانتقام . وملكة الغدر التي تتولد دائما من الاضطراب وعدم الاطمئنان للحوادث . ويتبع هذه الملكات ملكات أخرى . ويتبع الجميع عادات وأفعال تناسبها

وهذا بخلاف ما إذا نشأ في سهولة العيش ، وخصب الأرض ، وهشاشة التربة ، وخلوها من الغابات ، واستواء سطوحها . واعتدال هوائها . وصفاء جوها . وخلوها من الحوادث المخيفة . فان ذلك لايحدث في النفس إلا صوراً لطيفة تتبعها ملكة اللين والمساهلة والكرم وحسن الطاعة وسلامة النية والنزاهة عن الضغائن . والبعد عن الطمع . والرضا بالقليل . وما يتبع ذلك من الصفات التي لاتتخلف عن مناشئها الواقعية إلا بالطوارىء العرضية التي نذكرها فيما بعد فانتظرها

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ : إن الاستاذ وعدهنا بإتمام هذه المقالات الفلسفية التي نشرت في خمسة أعداد . وقد تصفحنا سائر أعداد الوقائع المصرية التي صدرت بتوقيعه فلم نجد فيها هذه التتمة . ولعله شغل عن أمثال هذه المباحث الدقيقة في الفلسفة بحوادث الثورة العرابية التي نجمت في تلك الأيام ، واضطر لمقاومتها كما علم من بعض ماسبق ، ويعلم من المقالات الآتية في الشورى وغيرها

المقالة الثانية والثلاثون

الحياة السياسية

تقرر فيما سلف أن لابد لذوي الحياة السياسية من وحدة يرجعون اليها، ويجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجراً صلداً، وأن خير أوجه الوحدة الوطن لامتناع الخلاف والنزاع فيه، ونحن الآن مبينون بعون الله ماهية هذا الوطن وبعض ما يجب على ذويه

الوطن في اللغة محل الانسان مطلقاً، فهو والسكن بمعنى: استوطن القوم هذه الأرض وتوطنوها أي اتخذوها سكناً، وهو عند أهل السياسة مكانك الذي تنسب اليه، ويحفظ حقك فيه، ويعلم حقه عليك، وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك. ومن أقوالهم فيه: لا وطن إلا مع الحرية. وقال لا برويير الحكيم الفرنساوي: لاوطن في حالة الاستبداد، ولكن هناك مصالح خصوصية ومفاخر ذاتية، ومناصب سمية. وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين: المكان الذي فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية

وهذا الحد الروماني الأخير لاينقض قولهم: لاوطن إلا مع الحرية، بل هما سيان. فان الحرية إنما هي حق القيام بالواجب المعلوم، فان لم توجد فلا وطن لعدم الحقوق. والواجبات السياسية وإن وجدت فلا بد معها من الواجب والحق، وهما شعار الأوطان، التي تفتدى بالأموال والأبدان، وتقدم على الأهل والخلان، ويبلغ حبها في النفوس الزكية مقام الوجد والهيمان

أما السكن الذي لا حق فيه للساكن، ولاهو آمن (فيه) على المال والروح، فغاية القول في تعريفه انه مأوى العاجز، ومستقر من لايجد إلى غيره سبيلا، فان عظم فلا يسر، وإن صغر فلا يسوء. قال لابرويير السابق الذكر: ما الفائدة

(*) نشرت في العدد ١٢٦٧ الصادر في ٦ المحرم سنة ١٢٩٩ - ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨١

من أن يكون وطني عظيما كبيراً ، إن كنت فيه حزيناً حقيراً ، أعيش في الذل والشقاء خائفاً أسيراً

على أن النسبة للوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة بأهداب الشرف الذاتي ، فهو يغار عليه ويذود عنه كما يذود عن والده الذي ينتمي اليه ، وإن كان سيء الخلق شديداً عليه .ولذلك قيل في مثل هذا المقام :إن ياء النسبة في قولنا مصري وانكليزي وفرنسوي ، هي من موجبات غيرة المصري على مصر ، والفرنساوي على فرنسا ، والانكليزي على انكلترة ، فأنكر ذلك بعض الناس ، وكان في الأمر لاشك سوء فهم أو سوء افهام

وجملة القول ان في الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه أن تكون حدوداً (الأول) أنه السكن الذي فيه الغذاء والوقاء والأهل والولد (والثاني) أنه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية ، وهما حسيان ظاهريان (والثالث) أنه موضع النسبة التي يعلو بها الانسان ويعز ، أو يسفل ويذل ، وهو معنوي محضاً

فاذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصري حب الوطن من كل هذه الوجوه ، فهو سكنه الذي يأكل فيه هنيئاً ، ويشرب مريئاً ، ويبيت في الأهل أميناً ، وهو مقامه الذي ينسب اليه ، ولا يجد في النسبة عاراً ولا يخاف تعييراً ، وهو الآن موضع حقوقه وواجباته التي حصلت له بما أوضحناه من دخوله في دور الحياة السياسية

وللحب على أهله شروط محفوظة عند الأذكياء ، مجهولة عند المدعين الأغبياء ، فما تنفع فيه الشكوى ، ولا تقدم لصاحبه دعوى ، إلا ببيان من الواقع وشاهد من الفعل ، وما أحسن ما قيل :

دلائل الحب لا تخفى على أحد كحامل المسك لايخلو من العبق

وله مراتب مناسبة لموضوعه ، موافقة لمنشأه ، فهو في الكرامة كريم ، وفي النبالة شريف ، وفي المآثر حميد ، وفي العز والمجد رفيع ، وفي الوطن جامع لكل هذه الصفات ، فان قيل في حب الحسان

أحبك حباً لو تحبين مثله أصابك من وجد علي جنون
لطيفاً مع الأحشاء أما نهاره فدمع وأما ليله فأنين

فقل في حب الأوطان :

أحبك حباً لو تحبين مثله أصابك منه يا ديار تغير
شديداً مع الاشواق أما نهاره فسعي وأما ليله فتفكر

ولقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطني عن ذوي الحقوق والواجبات في مصر وإلباسهم جميعاً لباس الجهالة والذل ، ولكن أبت الحوادث إلا أن تثبت لنا وجوداً وطنياً ورأياً عمومياً ولو كره المبطلون . على أن منهم فئة لايزالون يؤلمون أسماعنا بما يكررون من سفساف القول، من مثل اننا تعودنا احتمال الظلم والحيف ، وألفنا الخدمة والرق ، فلن يستقل لنا رأي ، ولن نهتدي سبيل الحرية، كأنما هم لايعلمون أن أهل الغرب أجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف أعصاراً وكانوا في قديم الأيام على ضروب من الرق ، وانخفاض الجناح ، وأن العالم بأسره كان فريقين أحراراً يظلمون، وعبيداً يطيعون. أولم يكن في بلاد الفرنسيس من قبل هذا العهد صنوف من الرقيق يشتغلون في الأرض لغيرهم ، ويباعون كما تباع العجماوات . أولم يقل كاتبهم فولتير في وسط المائة السابقة : لايزال في بلادنا ستون ألفاً أو سبعون ألفاً عبيداً للرهبان

فما بال هذه العادة لم تمنع الفرنسيس من الوصول إلى ما أدركوه من رفعة المقام،وإن يروا أمثال تيارس وجريفي وغامبتا في أبناء الذين كانوا من قبل عبدانا أرقاء،

ولئن كان من فضل هذه المائة أن يكتب في صدر تاريخها تحرير أرقاء العصر السالف . فلقد رجونا وحقق الله هذا الرجاء أن يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا أرقاء في هذا العصر ، وحسن ذلك ابتداء ، وحسن ذلك ختاما

المقالة الثالثة والثلاثون

الشورى (*

نتكلم عليها من جهة وجوبها عقلا على الحاكم والمحكوم معًا فنقول : خلق الانسان محاطا بالشهوات ، مكتنفًا بالاميال ، مقيدًا بالأغراض ، فهو أسيرها تدفعه إلى مقتضياتها ، وتجذبه إلى لوازمها ، بحيث تكون جميع قواه آلات لها تحركها بما يناسبها ، وتستعملها فيما يلائمها ، فلا يتصوّر حسنًا إلا ما تستحسن ، ولا يتخيل جميلا الا ما تستجمل. وهذا أمر يكاد أن يكون طبيعيًا فطريا ، لا يمكن الانسان أن يغالبه ، ولا أن يتخلص منه . وإن أمكن في بعض الأحيان تقليل سطوته وتحديد سلطته . على أن هذا أيضًا ليس في وسع كل أحد ، ولا في طاقة كل شخص فلا يستطيعه إلا من كبرت همته ، ولا يقدر عليه إلا من ذكت فطنته حتى يتمكن من ردع تلك الدوافع وكبح تلك الجواذب بما يتخذه من الوسائل المختلفة حسب اختلاف المقاصد والذرائع المتنوعة حسب تنوع الغايات

وحيث كانت هذه الدوافع والجواذب قوية لدى أولي الأمر لاقتدارهم على مقتضياتها ، وتمكنهم من لوازمها ، كانوا مضطرين إلى مغالبتها ومقاومتها بما يتيسر من الوسائل المؤدية الى ذلك ، حتى يتمكنوا من النهوض بما وسد اليهم من رعاية مصالح العباد. وليس من وسيلة إلى ذلك الا مشاورة العارفين العالمين بطرقها ، فان للرأي العام في مغالبة الأهواء مالا يخفى من القوة . ولذلك ترى أن الانسان ربما مال الى شيء ولكن يمنعه من معاطاته علمه بأن الرأي العام

*) نشرت في العدد ١٢٨٩ الصادر في ٥ صفر سنة ١٢٩٩ - ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨١ ونشرنا في الطبعة الاولى مقالة قبل هذه عنوانها « الشورى والاستبداد » ثم أخبرنا صاحب الدولة سعد باشا زغلول الذي كان من محرري جريدة الوقائع انها له وانه لم يضع اسمه في آخرها لأن الاستاذ كان أمر جميع المحررين بترك وضع امضاآتهم في ذيول مقالاتهم

لا يستحسنه . وأيضاً فالانسان الواحد قاصر وان بلغ ما بلغ من اتساع نطاق الفكر عن أن يحيط علماً بمصالح عامة ، خصوصاً اذا كانت مصالح أمة كبيرة ، فانها حينئذ تكون بمنزلة الفنون المتنوعة المختلفة التي يعجز الانسان الواحد أن يستوعبها ويستوفيها اطلاعا

وقد يتنبه بعض الناس من أنفسهم لهذا الأمر ، ويعلمون أنهم لو تركوا أنفسهم وشأنها فربما استرسلت مع شهواتها ، ومالت مع أغراضها ، ووقفت دون الصواب حجابا ، فيجتهدون في منع ذلك بأن يستنصحوا الناس ويسترشدوهم ويستهدوهم، استعانة منهم بآرائهم على كشف الحجاب ،ورفع النقاب عن وجه الصواب . وهؤلاء هم القوم الذين صفت سرائرهم وطابت نفوسهم ، فلا يرون حسناً إلا ما وافق الصواب ، ولا جميلا إلا ما طابق الحق . ومن هذا يتبين وجوب الشورى على الحاكم

وأما وجوبها على المحكوم فيتبين مما أقول: قد علمت أن الواحد وإن بلغ من علوّ الفكر ورفعة الذكاء مكاناً علياً ، قاصر عن الاحاطة بمصالح الأمة . وحينئذ يلزمها إذا ألقت اليه مقاليد مصالحها أن تمده من آرائها بما يقتدر به على النهوض بواجباتها والقيام بحقوقها ، فليس من الانصاف أن تلقي على كاهله أعباء هذه المصالح الجسيمة وتتخلى عنه . ثم اذا رأت ما لا بد منه من التقصير وجهت اليه سهام اللوم ، بل يجب عليها مساعدته بما تراه موافقاً لوجه الصواب . ثم إذا وجدت منه تقصيراً فيما اختص به كان لها حينئذ أن تلوم ، وكما لا يصح أن تتخلى عنه في الأعمال البدنية العمومية مثل حمى البلاد ممن يريدها بسوء ، بل لا بد من مساعدته فيها ، وإن لم تفعل فقد قصرت فيما وجب عليها ، كذلك لا يصح التخلي عنه في الأعمال الفكرية العمومية ، فان كونها فكرية لا يسلب عنها الجسامة المقتضية للتشارك فيها . وهل من العدل أن تترك الأمة حاكمها بين أعمال مهمة مختلفة الأنواع ، متشابهة الألوان ، يصعب على أي مخلوق كان وحده أن يقوم بأعبائها ثم اذا رأت منه تقصيراً بحسب ما يبدو لأول النظر بادرت إلى تعنيفه ؟ لعمري لو فعلت ذلك انها إذاً لمن الظالمين

وأن لنا على صحة ماقدمنا من الأدلة لدليلا فيما فعل سيدنا عمر وقومه رضي الله تعالى عنهم ، حيث قام بينهم خطيباً فقال : أيها الناس من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه الخ(١) إذ ليس معنى تقويم الاعوجاج في هذا إلا التنبيه على الحق، والارشاد إلى الطريق المستقيم ، فما يدل على وجوب التشاور على الحاكم هو طلب عمر رضي الله عنه تقويم اعوجاجه ، وما يدل على وجوبه على المحكوم هو إجابة الصحابي بقوله : والله الخ .. فانه لايجوز استعمال القوة الا بعد الاعذار بالارشاد والهدى

ولقد رأى خديوينا الأفخم حفظه الله مثل ما رأى سيدنا عمر مما قضى بالتشاور ، وأن بلاده قد كثرت بها خصوصاً في هذه الأيام مواد الاعمال ، واختلفت مواضيع المصالح ، وتنوعت أسباب المنافع . إذ لا يخفى أن هذه البلاد قد امتازت عما سواها بكثرة الأعمال الداخلية المختلفة اختلافا كليا بحيث يناسب بعض البلاد منها مالا يناسب البعض الآخر، فندب رعاياه الى التشاور حرصا منه على الاقتداء بالسلف الصالح ، كما هو شأنه حتى في الأمور الجزئية الخاصة ، فضلا عن الامور الكلية العامة ، وعلماً منه بما وراء التشاور من الفوائد الجليلة ، والمنافع الجزيلة

وكأني بمن يقول : ان لنا فيما كان عليه السلف من طريقة التشاور لغنى عن سلوك هذه الطريقة الحالية . فأقول في جوابه: ان هذه الطريقة الحالية قد صارت دون سواها ذات الوقع العظيم والتأثير القوي في النفوس بما اتصفت به من كونها مناطاً للعدل ، ومظهراً للاستقامة في سائر الممالك . وحينئذ فالغاية المقصودة من التشاور لاتترتب الا عليها . وأما طريقة السلف فقد كانت كافية في الغرض

«١» تتمة الاثر : فقام رجل او اعرابي فقال : والله لو وجدنا فيك عوجا لقومناه بسيوفنا . فقال عمر : الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم عوج عمر بسيفه ولم يكن عمر «رض» هو السابق إلى مطالبة الامة بحقها في السيطرة على الخلفاء والامراء بل كان السابق الى ذلك ابو بكر «رض» في خطبته الاولى بعد المبايعة بالخلافة اذ قال فيها : أما بعد فقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فاذا استقمت فأعينوني ، واذا زغت فقوموني — وكتبه محمد رشيد رضا

لما أنها هي المستعملة في زمنهم . على أن هذه الهيئات ليست الا وسائل غير مقصودة لذاتها . فاذا انقطعت الرابطة بينها وبين الغايات كانت مهملة غير مقصودة ، وتحول القصد الى ما صار بينه وبين الغاية ارتباط ووفاق

المقالة الرابعة والثلاثون

الشورى والقانون (*)

قد أسلفنا فيما سبق من أعداد الجريدة أن القوانين تختلف باختلاف أحوال الأمم ، وبينا الأسباب الموجبة للاختلاف ، وضربنا لذلك أمثالا لتقريب المطالب من الأذهان ، وأن ذلك صريح في أن القوانين متعددة وأصنافها متنوعة لتفاوتها بحسب الغرض المقصود منها : أعني ضبط المصالح ، وفتح سبل المنافع ، وسد طرق المفاسد . والآن نريد أن نبين أقربها للغرض ، وأبعدها عن مساقط الاهمال ، وأمنعها عن عبث الجهل والأغراض ، فنقول :

ان القانون الصادر عن الرأي العام هو الحقيق باسم القانون المقصود بالبيان ليس الا . وبيانه : أن الاجتماع بين أمة من الناس في مبدأ أمره لا يكون له داعية سوى الصدفة ، أو أسباب أخرى قهرية لا تخرج عن الطوارق التي تلم بالانسان فتلجئه الى ملجأ من نوعه يستعين به على دفعها ، فاذا استتب الاجتماع وسكن الأمن في قلوب المجتمعين ، وانقطع كل منهم فى الأسباب التي توصله الى لوازم المعيشة ، نزع فيهم حب المسابقة في كل مايتنافس فيه كل حي ، وتولد من ذلك شدة الطمع والشره ، وجر الأمر الى الحسد والبغض والبطر فأصبحوا وهم في مكان واحد ، متباعدي المقاصد ، أشتات القلوب ، لا يبالي أحدهم بافتداء مصلحته بمصلحة الآخر بأي طريق سلك ، ونسي رابطة الاجتماع وواجب

(*) نشرت في العدد ١٢٩٠ الصادر في ٦ صفر سنة ١٢٩٩ — ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨١

الاشتراك في الوطن ، وتناول أشدهم عضداً مقاليد الحكم عليهم ، وبث فيهم أعوانه وأنصاره بدون قاعدة تربط الأعمال وتبين الحدود . فحينئذ لا ترى لاثنين منهم رأيين متوافقين ، ولا قصدين متطابقين ، بل لانرى الا نفوساً شاردة ، وأغراضاً متباينة ، تسوقهم عصا الظلم ، وتجمعهم دائرة الغرم ، فهم في هذه الحالة ليس لهم وجهة تربط أعمالهم وتوحد مقاصدهم ، بحيث تكون محوراً لدائرة أفكارهم ، وغاية تنتهي اليها حركاتهم في كافة أمورهم اذا مانزل بهم من دواعي الاضطراب ، وأسباب تبلبل الألباب ، جعل لكل منهم شأناً خاصاً به فلا يفكر يوما ما في حقوق الاجتماع ونسب الارتباط ، فكأنه أمة وحده ، مقطوع العلائق بغيره ، فلا يتصور أن يكون لهم حينئذ رأي عام يجمعهم

واذا استمرت بهم هذه الحال زمناً طويلا فسدت طباعهم ، وتبدلت أخلاقهم الى ملكات رديئة تحملهم على البطالة والكسل ، وتكلهم الى الآمال العاطلة ، والأماني الكاذبة ، وتورثهم الخول والذل والفتور ، فاذا توالت عليهم الحوادث وعلمتهم أسفار الأخبار طرفا من سير الأمم . تذكروا أنه قد كان لهم من حقوق الاجتماع مايسوقهم الى العيش الرغد ، ويصون عناصرهم الشريفة من لوث الخسة ودناسة الاتضاع ، فتهم نفوسهم بتقويم دعائم الاجتماع على أصولها التي تطالبهم بها طبيعته ، فتمانعهم تلك الأخلاق التي نشأوا بها ممانعة تضعف منهم قوة العمل ، فكلما قويت فيهم دواعي الاجتماع اشتدت كراهتهم للتقاعد عن الأخذ بالوسائل ، ولفتت نفوسهم تنفض عنها درن(١) الملكات الفاسدة ، وتوفرت فيهم بواعث الأعمال المختلفة ، وأصبحت المقاصد متجهة الى غاية واحدة ، وهي المعاضدة على حفظ الهيئة الاجتماعية ، فعند ذلك ترى من لم تهزه الشفقة منهم على المنافع العامة ولم يفقه حقيقتها يوما يفضلها على غاياته الخاصة ، ويعلمها حق العلم بدون أن يتلقى درسها من معلم ، فان الحاجة هي الاستاذ الذي لا يضيع تعليمه ، ولا يخيب إرشاده

«١» انما ينفض الغبار وأما الدرن وهو الوسخ فيغسل غسلا فالظاهر انه سقط من الكلام مشبه بالغبار كالكسل لمرتبة زواله فلعل اصله : تنفض عنها غبار الكسل وتغسل درن الملكات الخ

ومن هنا ينشأ بين الناس ما يعبر عنه بالرأي العام ، وهو الأساس الذي بدونه لا يمكن أن تتوجه الكلمة في أمر ما يراد التداول فيه ، ونقطة التلاقي التي تجتمع بها أطراف الأفكار المتشعبة ، وتنمحي فيها الأغراض المتعددة ، إذ ليست في الحقيقة أغراضاً ذاتية وإن تلبست بصورها ، وإنما هي طرق متخالفة تؤدي الى مقصد لا يخرج عن الرأي العام ، وسالكوها بلغوا درجة الاجتهاد ، وكل عامل للامة مسخر لانتقاء أقرب الطرق الخالية عن أعباء الكلفة كما يشهده من وقف على مشارب القدما والمتأخرين من السياسيين ، حيث يتفرقون أحزاباً ، وينصبون حلبة الجدال في البحث عن الصالح العام

فاذا بلغت أمة من الناس هذه الدرجة من التنوّر ، وأصبحوا جميعاً على رأي واحد في وجوب ضبط المصالح ، وتقييد الأعمال بحدود مقدسة ، تصان ولا تهان ، اندفعوا جميعاً الى طلب هذه الحقوق الشريفة ، بدون أن يخشوا لومة لائم ، ولا يكتفون دون أن يروا بين أيديهم قانوناً عادلاً لائقاً بحالهم ، منطبقاً على أخلاقهم وعوائدهم كافلاً بمصالحهم ، يرجعون اليه في أمر المساواة والأمن على العباد والبلاد ، ولا يعجبهم أن يكلوا وضعه لواحد منهم يتولاه بنفسه ، إذ الواحد لا يتأتى له أن يشخص مصالح الجميع مع تباينها . وهذا أمر ينبني عليه صحة القوانين وما يترتب عليها من الفوائد ، ولا يمكنهم أن يباشروا وضعه جميعاً إذ فيهم من تمنعه موانع قوية عن ذلك ، فلم يبق إلا أن ينتخبوا منهم نواباً بقدر الحاجة للقيام بهذا الواجب من كل جهة ، ومن كل ذوي حرفة ، ليكونوا جميعاً على علم بأحوال موكليهم عموماً وطبائع أمكنتهم .

فاذا أتموا هذا القانون على وجه كامل شامل بعد البحث الدقيق — وإن استغرق عملهم أمداً — كان هو القانون المعول عليه علماً وعملاً . أما علماً فلأن أحكامه كلها صارت معلومة لدى أفراد الناس جميعاً لأن من وضعها هم نوابهم . ولا يخفى أن نفس المنوب عنهم لا يغفلون طرفة عين عن كل أمر من أمورهم ، يشرع النواب في المداولة فيه ليقفوا على طريق الجدال في كل مبحث ، ويعلموا ما تم عليه الرأي فيه على أن صحف الأخبار ، التي لا يخلو منها قطر من الأقطار ، تتكفل بنشر

المفاوضات والأحكام في كل مسئلة ، فتكون هي السفراء بين مجلس النواب وبين الرعايا على اختلافهم ولا يضر عدم العلم لأفراد منها كالسوقة والرعاع والعملة وإن كثروا ، فانهم كالآلات الصماء ، الموقوفة على الأعمال البدنيـة ليس إلا ، فتبين من ذلك أن العلم بأحكام القانون الذي يضعه جماعة النواب لا بدّ أن يتحقق بين الأفراد ، فبعد إتمامه لا يحتاج الأمر إلى المدارسة فيه الا لمن هو حديث عهد به . وأما عملا فلأن القانون عادل منطبق على المصالح ، ومثله حقيق بأن يرسم في صفحات القلوب ، خصوصاً وأن واضعيه هم النواب ، والنائب لسان المنوب عنه ، فكان من وضع الأمة بتمامها ، وتلك حجة عليهم بأنهم جميعاً متعاهدون عليه ، سيما وأنهم هم الذين تقاسموا بالايمان على الأخذ بالأحسن من كل شيء نافع ، وأن قلوبهم طويت على المحافظة على الرأي العام ، وأنهـم جميعاً سائرون إلى غاية واحدة ، فكيف بعد هذا كله يتركون القانون حبراً على ورق بدون علم ولا عمل؟

فقد وضح مما ذكرناه أن أفضل القوانين وأعظمها فائدة هو القانون الصادر عن رأي الأمة العامّ أعني المؤسس على مبادىء الشورى، وأن الشورى لا تنجح إلا بين من كان لهم رأي عام يجمعهم في دائرة واحدة، كأن يكونوا جميعاً طالبين تعزيز شأن مصالح بلادهم ، فيطلبونها من وجوهها وأبوابها . فما داموا طالبين هذه الوجوه فهم طلاب الحق ونصراؤه ، فلا يلتبس عليهم بالباطل ، ولا لوم عليهم اذا لم يأت مطلوبهم على غاية ما يمكن من الكمال . فان الحصول على أقصى المراد يستحيل أن يكون دفعة واحدة، كما قضت حكمة الله تعالى في خلقه أن الشيء لا يبلغ حده في الكمال إلا بالتدريج ، بل اللوم كل اللوم أن يضرب الطالب صفحاً عن مطلبه ويقصر في السعي ويرضى بحالته فيقف عندها وقد هيأ الله له الاسباب ومهد له الوسائل ، إذ ذلك ضرب من الجهل المركب القبيح الذي يجعل صاحبه أدنى درجة من الحيوانات العجم

وأن استعداد الناس لأن ينهجوا المنهج الشوري غير متوقف على ان يكونوا متدربين في البحث والنظر على أصول الجدل المقررة لدى أهله ، بل يكفي كونهم هصبوا أنفسهم وطمحت أبصارهم للحـق وضبط المصالح على نظام موافق

لمصالح البلاد وأحوال العباد ، ولا يتوهم أن القانون العادل المؤسس على الحرية هو الذي يكون منطبقاً على الاصول المدنية ، والقواعد السياسية في البلاد الاخرى انطباقا تاماً ، فان البلاد تختلف باختلاف المواقع وتباين أحوال التجارة والزراعة وكذلك سكانها يختلفون في العوائد والاخلاق والمعتقدات الى غير ذلك ، فرب قانون يلائم مصالح قوم ولا يلائم مصالح آخرين فينفع أولئك ويضر بهؤلاء ، إذ على مؤسس القوانين أن يراعي أخلاق الناس على اختلاف طبقاتهم وأحوالهم وطبيعة أراضيهم ومعتقداتهم وكافة عوائدهم ليتسنى له أن يحدد مصالحهم ، ويربط أعمالهم بحدود تجر اليهم جلائل الفوائد ، وتسد عليهم أبواب المفاسد ، وحينئذ لا يسوغ لارباب الشورى أن يجاروا غير بلادهم في سن القوانين ، بل عليهم أن يجعلوا أوضاع بلادهم وأحوال الاهالي الحاضرة نصب أعينهم حتى يتهيء لهم حينئذ أن يرسموا مالا بد منه من الاحكام الملائمة . فاذا أمعنوا النظر ودققوا في البحث وطلبوا الحق حيث كان وان من صغير ، وكان هذا المقصد السائق للجميع على البحث والتنقيب ، انفتحت لهم عيون المسائل ، وسهلت عليهم صعاب المطالب ، وحومت أفكارهم على ما كان يحسب أبعد خطوراً بالبال ، فتغلغل أفكارهم في ماوراء ذلك من الامور التي لايكاد يكشف الحجاب عنها في مبدأ الأمر حتى يصلوا على مباد أولية يتخذونها قواعد كلية لما يرد عليهم من الابحاث ، كأن يستعملوا قاعدة القياس والحكم على النظائر والاستدلال بالاصل والعادة والعرف وأمثال ذلك في محاورتهم بعد أن صارت لديهم من المسلمات الاولية ، وقد كانت في بداية الأمر من الغوامض التي يحتاجون في حلها الى نظر وبحث ، وهكذا يتدرجون من الوسائل الى المقاصد ، ثم ينساقون من المقاصد التي لديهم بديهية المبادي إلى مقاصد أعلا وأسمى حتى يثبت قدمهم في الشورى كل الثبات

ومما تقدم سرده تعلم أن أهالي بلادنا المصرية دبت فيهم روح الاتحاد ، وأشرفت نفوسهم منه على مدارك الرأي العام ، وأخذوا يتنصلون من جرم الاهمال ، ويستيقظون من نومة الاغفال ، وقد مرت عليهم حوادث كقطع الليل المظلم ، ثم تقشعت عنهم فطالعوا من سماء الحق ما كحل عيونهم بنور الاستبصار ،

حتى اشرأبت مطامعهم إلى بث أفكارهم في ما يصلح الشأن ، ويلم الشعث ، ويجمع المتفرق من الامور ، ليكونوا أمة متمتعة بمزاياها الحقيقية ، فهم بهذا الاستعداد العظيم أهل لأن يسلكوا الطريق الأقوم طريق الشورى والتعاضد في الرأي . فقد أزف الوقت ولم تسمح لهم ظروف الاحوال بأن يتأخروا عن سن قانون يراعى فيه ضبط المصالح على وجه ملائم يتبادلون فيه الافكار الحرة ، والآراء الصائبة ، فلذا أجمعوا رأيهم على تأليف مجلس الشورى ممن لهم دربة ودراية تامة بشؤون البلاد ، وصدرت الاوامر السامية بانتخابهم نوابا حسب ماقضت به نواميس الحرية ، وانشرحت صدور الناس عامة بهذا ، واستبشروا بما يكون من عاقبة هذا المسعى الجليل سيما وقد عهدوا من الحضرة الخديوية ارتياحا تاما لما يؤيد شأن البلاد ويعلي كلمة الوطن . ولنا أمل لايخيب في أهل البلاد وحضرات النواب فهم أجل من أن يعدلوا عن طريق النجاح ، أو يكون سعيهم إلا في حب الاصلاح ، وهذه هي خطوة نعدها إن شاء الله في سبيل تقدمنا فاتحة الالطاف

المقالة الخامسة و الثلاثون

التمرد والاعتياد

حصول صورة الشيء في النفس علم ، وميلها الى طلبه أو تركه إرادة ، والتصميم على أحد الأمرين عزم ، وليس بعده الا الطلب بالفعل أو الترك ، والترك لايحمل النفس كبير مشقة سوى الوقوف على كون المتروك من الامور التي تكلف بها النفس تكليفاً ضرورياً أو كمالياً كان من الامور المباحة أو المحظورة . فاذا وقفت على حقيقته انصرفت عنه انصرافا

وأما الطلب فهو أحد الأمرين الذي يحمل النفس عنائين أحدهما يتعلق بها

نشرت في العدد ١٤٠٠ الصادر في ١٦ جمادي الآخرة سنة ١٢٩٩ – ٤ مايو سنة ١٨٨٢

من جهة قوتها الفكرية ، والثاني من جهة القوة العملية المودعة في أعضاء البدن، والاول مقدمة الثاني وسابق عليه ونسبته اليه لدى أرباب الحل والعقد ورجال النقد نسبة الأمرين المتضايفين لايوجد أحدهما بدون الآخر

أما الاول فهو البحث في أصل الطلب واستقصاء مايعود منه على الطالب أو غيره من المنافع والتنقيب عن الوسائل التي توصل الى الغاية بلا مشقة ولا فوات منفعة ، وتقدير الاعمال إزاء الفائدة لتكون المنفعة مساويةعلى حكم التبادل في الاعمال البشرية ، أو زائدة عنها على أصل التفاضل وذلك كله إنما يكون بعد أن تعرف نسبة الطلب الى غيره من المطالب ليترجح عما سواه بخاصية من الخواص حتى لايلزم على الشروع فيه الترجيح بلامرجح .هذاشرح حال العناء الاول . . ليس بعده الا الشروع في العناء الثاني عناء الاعمال البدنية

أما فوائد الاعمال فهي وان كانت جزئياتها غير قابلة الدوام والاستمرار اذ هي نتيجة أعمال متجددة وكل متجدد فنتائجه كذلك ، ولكنها تقبل الدوام بكليات أنواعها دواماً غير مطلق والطالب لايستغني عن هذه الفوائد وقتاً من الاوقات ، وكيف يستغني مع أن الحامل له على العمل حاجته الى فوائده سواء كانت من الضروريات أو الكماليات فهو محتاج الى دوام الفوائد ودوامها يتوقف على دوام الاعمال وهو أمر موقوف على العامل ، وليس ادمانه العمل المطلوب في موضوعنا هذا أمراً من لوازم وجود ذاته فيحتاج الى صفة زائدة تقضي عليه أن يكون دائم العمل بقدر الحاجة ، وليس احتياجه كافياً لهذا الاقتضاء ، إذ ربما تحققت الحاجة بدون أن يتحقق دوام العمل ، وإلا لم نسمع بذكر التهاون والكسل والاهمال وما شاكلها. على أن الحاجةمتفاوتة ، فما كان منها في الدرجة الاولى درجة الاضطرار البحت فهو بنفسه كاف لادمان العمل بخلاف ما كان منها في الدرجات الثانوية فما فوق،والصفة القاضية بالادمان أي المتممة لعلته هي التمرن والاعتياد

وبعبارة أوفق بالغرض : إن مالا تدعو اليه الحاجة أصلافي زمن من الازمان قد تدعو اليه في زمن آخر لا لسد الاضطرار البحت ، بل للمزاد عنه من الحاجات

الثانوية كالكماليات والمحسنات ، وقد تدعو اليه بعد زمن طويل أو قصير لسد الاضطرار البحت ، فلا يجد الانسان عنه فراراً فيتكلفه مقهوراً مقسوراً يتصور المنفعة على بعد ، ولكنه غائب في دهشة آلام الاعمال التي لم يتكلفها يوماً من الايام لولا حكم الصروف والحادثات التي تقلبه على بساط القهر تقلب العصفور في يدي الطفل ، فلا يزال يحس بالالم ويدمن العمل حتى يهون عليه شيئاً فشيئاً إلى أن يزول الألم بالكلية ، ولا يجد إلا عملا بدون ألم . فاذا مضت برهة بعد الابتداء يحس من نفسه بعض الميل الى العمل فكأن الألم الاول استحال الى ضده (على حكم تلاقي الطرفين) ويجد منه باعثاً طبيعياً اليه ، وهكذا يزداد الميل ويشتد العشق حتى لا يميل به الكسل يوماً ما الى إهمال العمل ، وهذا هو المقصود من التمرن والاعتياد .

أما كون الشيء ربما يكون ضرورياً في وقت دون وقت ، فالأمر فيه وإن كان على ما أظن لا يحتاج إلى البيان غير أني بحكم الحاجة لتوضيحه لبعض الناظرين أقول :

إن الانسان من حيث هو مفكر لا يقف عند حد محدود فيما يتعلق بلوازم حياته وهو في ذاته غير مكلف بكل فرض مطلوب يعده من قبيل التمدن أو الحضارة أو الترف في المعيشة أو غير ذلك ، بل يكفيه ما يسد الرمق من القوت ويقيه الحر أو البرد من اللباس ، ويكنه وقت الايواء من البيوت ، غير أنه لما تأنق في هذه الضروريات بعض التأنق ، ورأى أنها تقبل التحسين شيئاً فشيئاً أخذ على نفسه أن لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له جأش ، حتى يستخرج من دائرة الامكان كل ما تتأدى اليه فكرته ، فجد واجتهد واستطلع بقوته النظرية خواص العناصر فحسبها عند ما اكتشف منها معدات تساعده على غرضه أنها لم تخلق الا له فتسلط عليها بصفة التحليل والتركيب حتى فتح أبواب التجارة والزراعة والصناعة ووصل الى ما وصل اليه الآن وهو في هذا السير الطويل يتحمل أثقالا على أثقال كلما وصل منه الى درجة ظنها آخر الدرجات وحسب نفسه فيها غريباً ، فيتخذ نتائج تقاليدها الغريبة زينة شأن كل أمر غريب نادر الوجود ، إذ كل نادر

عزيز قال الشاعر

سبحان من خص القليل بعزه والناس مستغنون عن أجناسه
وأذل أنفاس الهواء وكل ذي نفس لمحتاج الى أنفاسه

فاذا توطنت نفسه على هذه الغرائب زمنا استزاد منها حتى يبلغ بها حد الكثرة فيستعملها في لوازمه الضرورية في كافة أحواله ، ولا يخص بها وقتاً دون وقت، إلى أن تصير من قبيل الأمور المعتادةالتي لا يستغني عنها بحيث يعتبر كل ماكان أقدم منها وفي درجة قبلها من التقاليد ساقطاً عن درجة الاعتبار وغير جائز الاستعمال ، ويتوهم أن استعماله في الحالة التي وصل اليها يزري بمقامه المنيف، ويحط بمقداره الشريف ، ولا يتذكر أنه هو هو الانسان أيام كان يقتات بسائط النبات ، ويستتر بأوراق الاشجار ، ويأوي الكهوف والأغوار ، فبان بما ذكر أن الشيء قد يكون ضرورياً في وقت دون آخر

ومن وجه آخر نقول انا اذا سبرنا أخبار الأمم نعلم يقيناً أن الهيئة الاجتماعية البشرية ماوصلت إلى درجة من درجات التمدن والحضارة في وقت من الأوقات دفعة ، بل لابد كما يشهد العيان أن تسبق أمة من الأمم إلى غاية في المدنية .فاذا نظرت إلى جارتها وقد بقيت في مركزها متأخرة عنها والانسان(قتل الانسان ماأكفره) بحكم الحيوانية مطبوع على التعدي والشره ، فتفاخرها بما يدهش العقول ويبهر النواظر من صناعاتها الغريبة ،وأوضاعها الجميلة ، فترمقها تلك بعين الذاهل المندهش ، وتتوهم أن ضعفها واقعي فتنقبض نوعاً من الانقباض . فاذا توسمت هذه فيها الانكماش والذعر (الخوف) أخذت تهددها بما تقلب عليها من ضروب الحيل والدهاء ، وبما تتظاهر به من قوة الجند وكثرة العتاد ، فتقف تلك وقفة الحائر المتفكر إلى أن يرشدها التأمل إلى أن هذه ماوصلت الى ماوصلت إلا بالعلم والعمل المتوقفين على الكد والاجتهاد ، فتندفع وراء الجد بحكم الاضطرار، حتى تصل الى ماوصلت اليه أو تكاد ، غير أن تلك أيضاً بعد أن تذوق لذة التقدم ، وتنسيها سكرة التيه طعم الذل الذي كانت تقاسيه تحت رهبة جارتها الأولى تعامل الأمة المجاورة لها أيضاً بمثل ماكانت تعامل به في مبدأ

الأمم حتى تضطرها كذلك الى أن تركب متن الاجتهاد في السير وراء من تقدمها . وهكذا كلما دخلت أمة من باب كافت به من يجاورها من الأمم حتى تنتظم الأمم جميعاً في سلك واحد في هذا الباب ، ولكن حيث إن حب التسابق طبيعة في الناس ، فلا تراهم يقفون لدى نقطة ، بل متى وصلوا إلى حد مامن حدود التقدم ، فلا يمضي زمن طويل حتى يقال إن أمة كذا انتهزت فرصة عظيمة وفتحت بابا من أبواب التقدم عاد عليها بالنماء في الأموال والانفس والثمرات ، وبأن مجاوريها يخشون بأسها ، ويرقبون حركاتها ، فتضطرب الهيئة الاجتماعية البشرية من هذا النازل الذي لم يكن في الحسبان ، ولا تسكن خواطر بقية الأمم والممالك حتى ينساقوا الى هذه الخطوة التي خطاها غيرهم على غفلة منهم وهم كارهون. فبان أن الأمم قد يحتاجون في زمن مالا يحتاجونه في آخر ، فصدق القول أن الشيء قد يكون ضرورياً وقد لايكون

وما ذكرناه من التقلبات والتنقلات يحكي حال الجمعية الانسانية من يوم أن تفرقت شعوباً وقبائل يتخالفون في العوائد والاخلاق ، فيتنافسون ويتحاسدون على النقير والقطمير ، ويغلب عليهم حب الذات والميل إلى الخصوصيات ، فيدعون أنهم أجناس شتى ، ولا يزال حالهم كذلك يتقلبون على جمر الشحناء ويعذبون بعوامل البغضاء ، فتارة ترمي بهم الاطماع في مخالب التكلف ، ومشاق التنقل من حال الى حال ، فيضطربون لهذا الأمر اضطراباً ، وينقبضون منه انقباضاً ، وآونة يلقي بهم الجهد الجهيد بعد أن يروا من الصعوبات ألوانا في وادي الراحة عند مايصلون الى نقطة التمرن والاعتياد ، ولكنها نقطة غير ثابتة كما أن درجات تقدمهم غير متناهية ، فلا يزالون يترددون من التعب الى الراحة حتى يرجعوا إلى المجرى الطبيعي ، فيلتئمون بعد التفرق ، ويرفعون عن أعينهم حجاب هذا التشتت

ويا ليت شعري ماهو النازل الذي حل بالانسان فغير معالمه الطبيعية ، وبدل أخلاقه السلمية ، وحل رابطته النوعية ، وإلا فعهدنا به — إن لم نقل إنه من أم وأب تسليما جدلياً — فهو من نوع واحد يشف مرآه عن الوحدة التامة الناطقة بأن الانسان

من جرثومة واحدة نشأ عنها عائلة واحدة حواها بسيط واحد ربطتها عادات وأخلاق متحدة الصفة ، ولقد رمزت تعاليمه الحاضرة — التي منها وهو أكبرها تعميم المواصلات وتأكيد الروابط بين الممالك وحركة الاجتماع والتألف — الى هذا السر المكنون ، وبشرتنا المحافظة العامة على دعائم السلام والراحة العموميين حفظاً لحقوق الانسان وصوناً لذمة الشرف بان الحركة العمومية موجهة الى النقطة الاولى وكلما قربت إلى المركز زادت سرعتها شأن كل حركة طبيعية ، ولقد أثرت هذه الحال تأثيراً خفياً في الجم الغفير من عقلاء الناس فمالوا إلى خدمة الانسانية من غير أن يتعصبوا لجنس ولا دين ولا مذهب . فاذا رجع الانسان إلى مركزه الطبيعي لاترى الجمعية البشرية بعد إلا كساكني منزل واحد يرتفقون بمنافعه على السواء ، ويجدون من بركات الارض مايكفيهم مؤنة التعب ويكفهم عن الشقاق والعناد ، اذا أصاب قبيل منهم منفعة عادت على الجميع بدون اختصاص على حكم تبادل الاعمال . واذا نزل بقبيل نازل توجه الكل إلى انقاذه مما ألمّ به ، وساروا جميعاً على وفق القانون الطبيعي المودع في فطرة الانسان ، يهديه اليه من علم الطير النياحة ، ومرنه على السباحة ، ثم لاترى فيهم إذ ذاك مايحتاج معه الانسان الى كلفة وعناء بل لاترى إلا أعمالا جارية على منهج السهولة منهج التمرن والاعتياد

المقالة السادسة والثلاثون

التمرن (*

ما وصلت اليه أمة الا وحط عن كاهلها جميع الأتعاب والبلايا والاضطهادات والرزايا ، ولا رقي اليه شعب إلا وأمن غائلة الاعنات والاعتساف ، وتحصنت أعماله من جائحة السلب والاعتداء ، فصاحبه هو الساكن في منازل الرغد والهناء ، واللابس حلة الاسعاد ، نقول ولا مغالاة في الحق : إنه هو الضامن لتوطيد

*) نشرت في العدد ١٠١٧ الصادر في ١٩ صفر سنة ١٢٩٨ — ٢٠ يناير سنة ١٨٨١

أركان العمران، والكفيل بتشييد دعائم الاجتماع . كيف لا وهو الحقيقة الجامعة لكل فرد من أفراد الكمالات ؟ من غير فرق بين أن يكون أدبياً أو ماديا ، حسياً أو معنويا ، فالتفنن في الصنائع فصل من فصوله . والتسابق في ميادين العلوم باب من أبوابه ، والتجافي عن مواضع النقيصة جزء منه ، والتجمل بالأخلاق الفاضلة نبذ من جواهره . فاذاً لا بدع إذا قلنا إن صاحبه هو السعيد ، والواطىء بنعله غرف النعيم ، جد في طلبه من أدرك نتيجته من الأمم ، فجنى ثمره اليانع ، تراه يتقلب على بساط العز ، ويتدرج في معارج الاجلال والجمال ، عمرت دياره بعد أن كانت قاعا صفصفاً بالأبنية العالية ، وتزينت بالأسواق الفسيحة ، والصنائع العديدة ، وصارت محط رجال السياسة ، ومطمح أنظار النبلاء : ضاق بسيطها عن القيام بنفقاته الواسعات ، فطار على جناح العلم يستطلع بقاعا ربتها الجهالة ، وثلمتها يد البغي ، ليكون فيها هو الوارث بعد بنيها ، يستخرج منها الكنوز بحكمته ، ويفجر منها الينابيع بقدرته ، ليجني وأهلها الغارسون ، ويقضي وهم المطيعون ، تسمع أهل تلك الديار صدى صوته في العشي والابكار ، والغدو والآصال . ولكن يغالطون الحس ، ويكابرون بانكار البداهة ، ويسلون أنفسهم بأن هذا الأجنبي لا سطوة له ولا حكم ، وإنما هو غريب دعته الحاجة للتجول في البلاد لطلب الرزق . ثم تحدثهم خواطرهم بأننا أرفع شأناً من أولئك الغرباء ، وأسبق منهم يداً في المدنية ، ولئن تأخرنا عنهم حيناً من الزمن لكنا لحقنا بهم في انتظام الهيئة وحسن السلوك ، وهذه قصورنا المشيدة ، وثيابنا الملونة ، وقدودنا المجملة ، وأطعمتنا المتنوعة، تشهد بأننا قوم غمسنا في الترف ، وحظينا بالثروة ، ونهجنا الصراط المستقيم

يحسبون تلك الأوهام حقائق تجعلهم من ذوي النعمة واليسار ، والعزة والكمال ، اعتماداً على كونها سنة الأمم المثرية ، والشعوب المتنورة ، وأيم الله إنها بالنسبة الى أولئك البسطاء لداعية الفقر المدقع ومجلبة الشر . وإن هذه الصور الظاهرية التي يظنونها تمدنا كسحابة حشيت بالصواعق ، يتوهم الغافل من بريقها ولمعانها أنها تأتي بوابل ينعش البقل ، ويحيي الموات ، ولكن اذا حل الأجل

أمطرت ما يذهب بالحياة ، ويبـدد الأجسام . وذلك لأن الأمم المتمدنة وإن أنفقت الأموال الكثيرة في تشييد القصور ، وتزيين الملابس، وتحسين الأثاث، إلى غير ذلك من المصارف ، فانما يكون على نسـبة مخصوصة من ايراداتهم ، الحائزين لها بالكد والتعب في إبراز المصنوعات الجميلة ، والمخترعات الجمة التي تكسب صاحبها في قليل من الزمن ثروة واسـعة ، وقدراً رفيعاً ، ولا يجيزون الانفاق من رأس المال الا اذا مست ضرورة لامحيص عنها . ومع ذلك فنفقاتهم هذه لا تتجاوز حد اللزوم ، ولا تخرج عن دائرة احتياجاتهم ، فكلها مؤسسة على قاعدة جلب المصلحة ودفع الحاجة . تدخل منزل الرجل منهـم فترى غرفه ومخادعه مشغولات بأمتعته وبضائعـه ونقوده ، وليس فيها قدر شبر عمّر لغير حاجة حتى حديقته ، ولا يشتري ثوبا له أو لزوجته وأولاده إلا بقـدر العوز ، وحلي آل بيته ثلاثة أرباعه من النحاس ، مهما كثرت ثروته ، وليس في اصطبله سوى عربة أو حمار للركوب ، لايجمع بينهما الا نادراً ، وفرشه وغطاؤه لايخرج عن نوعي القطن والصوف كثيابه

وأما أهل تلك الديار الذين يزعمون أنهم قوم متمدنون (وهم في ذلك مخطئون) فقد ركبوا الشطط ، وحملوا أنفسهم مالا يطيقون من النفقات الباهظة ، يصرف الواحد منهم آلافا من النقود في سبيل تعمير أرض فسيحة ، وربمـا كفاه مالا يبلغ العشر من مساحتها ، ويفرشها من أعلى أنواع الفرش ، ويزينها بأبهج أصناف الزينة، فتبقى غرف المنزل بلا ساكن، يعلو التراب على مافيها من الأثاثات والفرش المغطاة بالفضة والذهب حتى يبيدها ، وربما لا يستعملها مرة في العام ، يتختم في أصبعه بما تجاوز قيمته عقد الألوف من الفرنكات ، ولدى زوجته من الألماس والجوهر ما يكفي ربحه لنفقات بيته أو يزيد ، لو استعمل ثمنه في شيء يتجر به (اذا كان ممن يفقهون) الى غير ذلك من المصارف التي يضيق بنا المقام عن تفصيلها ، وما حمله عليها سوى الطيش والانهماك في الشهوات ، والسفه المفرط الذي بلغ مرتبة الجنون . فان رجعنا الى سيرهم في طرق جلب المنافع ، وتخفيف أتعاب المعيشة ، وتحسين وسائل الاكتساب ، رأيناهم واقفـين على

نقطة واحدة من آلاف من السنين . فايراداتهم الآن واقفة عند الحد الذي كانت عليه قبل أن كانوا يسكنون المنازل المصنوعة من اللبن الأخضر، المفروشة بقصب (الحلفاء) المفروشة(١) بقضبان شجر (الجميز) وجذوع النخل ، مكتفين من الثياب بما يستر البشرة ، ومن الطعام بما يذهب النهمة ، فمزروعاتهم الآن هي على ما كانت عليه في تلك الأيام لم تتغير أشكالها ، ولم تتبدل أصنافها . نعم قد زادت حاصلاتها نظراً للتسهيلات التي ربما أجريت في طرق الري، ولكن هذا النموّ لا يعادل في الحقيقة الضعف الذي يلم بتجارة أبناء البلاد ، فقد كان يوجد قبل ورود الغريب اليهم في القرية الصغيرة أشخاص عديدون يتجرون في جميع أصناف المزروعات ، وغيرها من الأقمشة والمأكولات ، ويربحون من ذلك أجراً عظيما ، أما بعد ذلك فلا ترى بنيهم الا يتضوّرون جوعاً ، وينئون تحت أحمال المشقات لبوار التجارة وكسادها ، واختصاصها بيد النزيل . ويتبع ذلك سقوط صنعة التجارة والحدادة والحياكة ، وغيرها من الحرف اللاتي نسختها مستحدثات الامم المتمدنين ، وربما ينتهي بهم الأمر لو استمروا على الجهالة والسفه الى خلوّ أيديهم من الزراعة أيضاً ، لوجود من يحسنها سواهم ،

ولا عجب بعد هذا اذا رأيناهؤلاء السفهاء واقعين في وهدة الفاقة والاضمحلال، يئنون تحت أثقال الديون التي تستغرق جميع ما في حوزتهم من الأملاك ، وهذا ما يجعلهم حقراء أذلاء في قبضة الدائن الذي يكونون رهنوه أملاكهم يتصرف فيهم بما يريد ، فيلاقون منه شيئا لا تقدر على تحمله النفوس ، ولا تستطيعه الطباع ، وربما كان الدائن من سفلة قومه ، والمدين من أعيان بلاده ، ولا تغني عنه يومئذ قصوره العالية ، ولا ثيابه المزركشة ، ولا أثاثاته الخزية والحريرية ، فضلا عما يعتريه من البلبال ، وكثرة الوساوس والأفكار ، يبيت ليله يتقلب على الفراش ولا تقلبه على جمر الغضا ، يقدر محصولات زراعته قبل بذرها ، وينسبها لمقدار المطلوب في ابان الحصاد ، فاذا وجدها على قدره حصل له نوع من الاطمئنان ، ذاهلا عما عساه يحدث من الغرق أو الشرق أو الأندية

«١» تكرر هنا لفظ المفروشه ولعل إحداهما محرفة عن المعروشه أو المسقوفة

المتساقطة من الجو ، حتى اذا حلّ الاجل ولم يجد لديه ما يفي المطلوب لاصابة الزرع بأحد الأسباب التي ذكرناها ضرب كفًا على كف ، واسود وجهه ، وساءت حالته ، وتسوّل الناس ليكفلوه عند عميله إذا لم يف ما عناه بازهن ، فلا يجد مجيباً ولا نصيراً . لعمر الحق إن المفترش للحصى المتوسد الحجر الصخر ، المستكن في منازل الحيوانات ، المتكفف في معيشته ، خير من هؤلاء الناس ، الذين لا يقر لهم قرار ، ولا يهدأ لهم بال (ومما يسوءنا ان نراهم أكثر من الكثير في بلادنا) أهذا ما حسبوه تمدنا ، وزعموه نعيما مقيما؟ بل أنه هو الشقاء الابديّ ، الجالب للفقر المدقع والعذاب الاليم

هذه مشاربهم في الأحوال المعشية ، تحزن المحب ، وتفرح قلب الرقيب ، ولعلمنا بأن تلك الحالة لا يرضاها الشرع ولا القانون ، لم نقصر في النصح فيما مضى ، ولم نقصر في البيان الآن — وسنأتي بعد على هذا الموضوع كما أتينا عليه سابقًا ، مبينين علة الميل الى الانهماك في السرف الذي نعده تمدنا ، ونتبعه إن شاء الله بشرح بعض ما ألفناه من العادات المستهجنة في الأفراح والمياتم ، والموالد والضيافات . وبيان ما نتحادث به في منتدياتنا مما هو عقبات في طريق تقدّمنا ، ونموّ ثروتنا ، مفردين في البيان كل موضوع على حدته ، إنذاراً من سوء عاقبته ، لعلنا نعتاض بما هو خير منه ، فنستبشر بانتهاجنا صراطا قويمًا ، وطريقًا مستقيما ، وما ذلك على الله بعزيز

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ قد كان ينبغي أن توضع هذه المقالة بين مقالة (ما أكثر القول وما أقل العمل) ومقالة (منتدياتنا العمومية وأحاديثها)

وهذا ما علمناه من مقالات الاستاذ في جريدة الوقائع المصرية الرسمية . وله فيها كتابة أخرى في ضروب من الاصلاح كان يكتبها بمناسبة الاخبار والحوادث ،

الفصل الثالث

مقالات العروة الوثقى

الاسلامية

أنشئت جريدة العروة الوثقى فى باريس وصدر العدد الاول منها في ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ وكان مدير سياستها الفيلسوف العظيم السيد جمال الدين الأفغاني ورئيس تحريرها فقيدنا الاستاذ الامام (رحمهما الله تعالى) فالآراء والافكار فيها كانت مشتركة بين هذين الحكيمين والمحرر لجميع مقالاتها هو الثاني، وهاؤم فاتحة العدد الاول منها وهو

المقالة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

(ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير) هذا ما تعده العناية الآتية من قول الحق، متعلقا بأحوال الشرق، وعلى الله المتكل، في نجاح العمل،

خفيت مذاهب الطامعين أزمانا ثم ظهرت، بدأت على طرق ربما لا تنكرها الانفس ثم التوت، أوغل الاقوياء من الأمم في سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيداء الفكر، وسحروا ألبابهم حتى أذهلوهم عن انفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام، وبلغوا بهم من الضيم حداً لا تحتمله النفوس البشرية

ذهب أقوام إلى ما يسوله الوهم، ويغري به شيطان الخيال، فظنوا أن القوة الآلية وان قل عمالها، يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وان اتفقت

آحادها ، بل زعموا أنه يمكن استهلاك الجم الغفير ، في النزر اليسير ، وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان، فان تقلبات الحوادث في الازمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه ان ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت في سواد أمة عظيمة ونسيت تلك العشيرة اسمها ونسبتها فلم يجز في زمن من الأزمان امّحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها في العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة، وان بلغت القوة أقصى ما يمثله الخيال .

والذي يحكم به العقل الصريح ويشهد به سير الاجتماع الانساني من يوم علم تاريخه الى اليوم أن الأمم الكبيرة إذا عراها ضعف لافتراق في الكلمة ، أو غفلة عن عاقبة لا تحمد ، أو ركون الى راحة لا تدوم ، أو افتتان بنعيم يزول، ثم صالت عليها قوة أجنبية، أزعجتها ونبهتها بعض التنبيه ،فاذا توالت عليها وخزات الحوادث وأقلقتها آلامها فزعت إلى استبقاء الموجود ورد المفقود، ولم تجد بداً من طلب النجاة من أي سبيل وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية وهي ماتكون بالتئام أفرادها ، والتحام آحادها ، وان الالهام الالـهي والاحساس الفطري والتعليم الشرعي ،ترشدها إلى ان لاحاجة لها إلى ماوراء هذا الاتحاد وهو أيسر شيء عليها.

ان النفوس الانسانية وان بلغت من فساد الطبع والعادة مابلغت اذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم إلا إلى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الامكان فاذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس الى قواها ،واستأسد ذئبها، وتنمر ثعلبها والتمست خلاصها، ولن تعدم عند الطلب رشاداً .

ربما تخطيء مرة فتكون عليها الدائرة لكن مايصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك مافرط والاحتراس من الوقوع في مثله فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة . وان الحركة التي تبعث لدفع مالا يطاق اذا قام بتدبيرها قيم عليها ومدبر لسيرها ،لا يكفي في توقيف سريانها أو محو آثارها قهر ذلك القيم واهلاك ذلك المدبر ،فان العلة مادامت موجودة لا تزال آثارها تصدر عنها، فان ذهب قيم خلفه آخر أوسع منه خبرة وأنفذ بصيرة، نعم يمكن تخفيف الأثر أو إزالته بإزالة علته ورفع أسبابه

جرت عادة الأمم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها في الأخلاق والعادات والمشارب، وإن لم يكافها بزائد عما كانت تدين به لمن هو على شاكلتها،فكيف بها إذا حملها مالا طاقة لها به ، لا ريب أنها تستنكره ، وان كانت تستكبره ، وكلما أنكرته بعدت عن الميل اليه ، وكلما بتعدت منه بجهة كونه غريباً تقرب بعضها من بعض، فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغريب

ان مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسي الأمم ما بينها من الاختلاف فى الجنسية والمشرب، فترى الاتحاد لدفع مايعمها من الخطر ألزم من التحزب للجنس والمذهب،وفى هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية الى الاتفاق أشد من دعوتها اليه للاشتراك فى طلب المنفعة . أبعد هذا يأخذنا العجب اذا أحسسنا بحركة فكرية فى أغلب أنحاء المشرق في هذه الايام ؟ كل يطلب خلاصاً ويبتغي نجاة وينتحل لذلك من الوسائل والاسباب مايصل اليه فكره على درجته من الجودة والافن، وان العقلاء في كثير من اصقاعه يتفكرون في جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل

بلى ، كان هذا أمراً ينتظره المستبصر وان عمي عنه الطامع وليس في الامكان اقناع الطامعين بالبرهان ولكن مايأتي به الزمان من عاداته في ابنائه بل ما يجري به القضاء الآلهي من سنة الله في خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون

بلغ الاجحاف بالشرقيين غايته ، ووصل العدوان فيهم نهايته، وأدرك المتغلب منهم نكايته ، خصوصاً في المسلمين منهم ، فمنهم ملوك أنزلوا عن عروشهم جوراً ، وذووا حقوق في الامرة حرموا حقوقهم ظلماً ، وأعزاء باتوا أذلاء ، وأجلاء أصبحوا حقراء ، وأغنياء أمسوا فقراء ، وأصحاء أضحوا سقاماً ، وأسود تحولت أنعاماً ، ولم تبق طبقة من الطبقات الا وقد مسها الضرُ من افراط الطامعين في اطماعهم ، خصوصاً من جراء هذه الحوادث التي بذرت بذورها في الاراضي المصرية من نحو خمس سنوات بأيدي ذوي المطامع فيها

حملوا الى البلاد مالا تعرفه فدهشت عقولها ، وشدوا عليها بما لا تألفه فخارت

ألبابها ، وألزموها ماليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها ، وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع ، فكانت الحركة العرابية العشواء ، فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين ، فاندفع بهم سيل المصاعب ، بل طوفان المصائب ، على تلك البلاد ، وظنوا بلوغ الأرب ، ولكن أخطأ الظن وهموا بما لم ينالوا

لم تكد تخمد تلك الحركة في بادي النظر حتى خلفتها حركة أخرى ، وفتح باب كان مسدوداً ، وقام قائم بدعوة لها المكانة الاولى في نفوس المسلمين ، بل هي بقية آمالهم ، ولا ندري الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة . وربما يوجد من يدري أن مسببيها في حيرة من تلافيها ، نعم إنهم غرسوا غرساً إلا أنهم سيجنون أو هم الآن يجنون منه حنظلا ، ويطعمون منه زقوماً . لاجرم هذه هي العواقب التي لامحيص عنها لمن يغالي في طمعه ، ويغلغل في حرصه ، ولو أنهم تركوا الأمر من ذاك الوقت لأربابه ، وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به ، والقادرين عليه العارفين بطرق مدافعته ، أو اقتناء فائدته ، لحفظوا بذلك مصالحهم ، ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة ، بدون أن تزل لهم قدم ، أو ينكس لهم علم

غير أنهم ركبوا الشطط ، وغرهم ماوجدوا من تفرق الكلمة وتشتت الاهواء ، وهو أنفذ عواملهم وأقتلها ، وما علموا أنه وإن كان ذريع الفتك إلا أنه سريع العطب ، وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحدة يسدد لقلوب المعتدين ، فان بلاء الجور اذا حل بشطر من الأمة وعوفي منه باقيها ، كانت سلامة البعض تعزية للمصابين ، وحجاب غفلة للسالمين ، يحول بينهم وبين الاحساس بما أصاب اخوانهم ، أما اذا عم الضرر ، فلا محالة يحيط بهم الضجر ، ويعز عليهم الصبر ، فيندفعون الى ما فيه خيرهم ، ولا خير فيه لغيرهم

ان الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموماً ، إن مصر تعتبر عندهم من الاراضي المقدسة ، ولها في قلوبهم منزلة لايحلها سواها نظراً لموقعها من الممالك الاسلامية ، ولأنها باب الحرمين الشريفين . فان كان هذا الباب أميناً كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع ، وإلا اضطربت

أفكارهم وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الاسلامية

إن الخطر الذي ألم بمصر نفرت له أحشاء المسلمين ، وتكلمت به قلوبهم ، ولن تزال آلامه تستفزهم ما دام الجرح نغاراً . وما هذا بغريب على المسلمين ، فان رابطتهم الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة . وما دام القرآن يتلى بينهم ، وفي آياته ما لا يذهب على أفهام قارئيه ، فلن يستطيع الدهر أن يذلهم .

إن الفجيعة بمصر حركت أشجانا كانت كامنة ، وجددت أحزانا لم تكن في الحسبان ، وسرى الألم في أرواح المسلمين سريان الاعتقاد في مداركهم ، وهم من تذكار الماضي ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ، ولا نأمن أن يصير التنفس زفيراً ، بل نفيراً عاما ، بل يكون صاخة تمزق مسامع من أصمه الطمع

إن أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتائب له في فتوحاته الا المداهاة ، ولا فيالق يسوقها للاستملاك سوى المحاباة ، ولا أسنة يحفظ بها ماتمتد اليه يده إلا المراضاة ، يظهر بصور مختلفة الألوان ، متقاربة الأشكال ، كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم ، ومثبت مراكز الامراء ومسكن الفتن ، ومخلص الحكومات من غوائل العصيان ، وواقي مصالح المغلوبين ، فكان أول ما يجب عليه ملاحظته في سيره هذا أن لا يأتي من أعماله بما يهتك هذا الستر الرقيق الذي يكفي لتمزيقه رجع البصر ، وكر النظر . وأن يتحاشى العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها اذا حنقت خنقت ، وليس له أن يغتر بعدم مكنتهم ، وهو يعلم أن الكلمة اذا اتحدت لا تعوزها الوسائط ، ولا يعدم المتحدون قوياً شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته ، وأن المغيظ لايبالي في الايقاع بمناوئه أسلم أو عطب ، فهو يضر ليضر ، وإن مسه الضر

الا أن غشية النهم ذهبت بعقول المنهومين ، ووقرت أسماعهم عن حسيس الهمسات المتراسلة من الهند الى مكة ، ومن مكة الى مصر ، والكرير(١) الممتد

(١) الكرير صوت في الصدر كصوت المختنق او المجهود وقد استعارها هنا للمراسلات الخفية الصادرة عن شدة ضغط العدواني الاجنبي . ولا يوجد في لغات العالم كلمة أليق بهذا المقام وأحسن موقعا وأشد تأثيرا فيه من هذه الكلمة وهي من الدلائل على ان البلاغة تكون في المفردات كالمركبات لكن عند وقوعها في التركيب

من مصر الى مكة ، ومن مكة إلى الهند ، وكانها تتلاقى بين تراقي المغرورين بقوتهم ، المسترسلين في جفوتهم

إن الرزايا الاخيرة التي حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط ، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها ، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم ، مع ملاحظة العلل التي أدت بهم إلى ماهم فيه ، فتقاربوا في النظر ، وتواصلوا في طلب الحق ، وعمدوا إلى معالجة الحق وعلل الضعف ، راجين أن يسترجعوا بعض مافقدوا من القوة ، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسنًا يسلكونه لوقاية الدين والشرف ، وإن في الحاضر منها لنهزة تغتنم ، واليها بسطوا أكفهم ولا يخالونها تفوتهم ، ولئن فاتت فكم في الغيب من مثالها ، وإلى الله عاقبة الامور

تألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار خصوصًا البلاد الهندية والمصرية ، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ، ويوحدون كلمة الحق في كل صقع ، لاينون في السعي ، ولا يقصرون في الجهد ، ولو أفضى بهم ذلك إلى أقصى ما يشفق منه حي على حياته

ولما كانت بدايتهم تستدعى مساعدة من يضارعهم في مثل حالهم ، رأوا أن يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم ، ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالي أوربا ، وكتبوا على أنفسهم النظر في أمر السلطة العامة الاسلامية وفروض القائم بها . وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ومناط اليقين ، وفيها موسم الحجيج العام في كل عام ، يجتمع اليه الشرقي والغربي ، ويتآخى فى مواقفها الطاهرة الجليل والحقير ، والغني والفقير ، كانت أفضل مدينة تتوارد اليها أفكارهم ثم تنبث الى سائر الجهات ، والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل

ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر ، وأقرب الى الظفر ، يستدعي أن يكون للداعي في كل قلب سليم نفثة حق ، ودعوة صدق ، طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم ، بين من خفي عنه شأنهم من إخوانهم . واختاروا أن يكون لهم في هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم ، وهو اللسان العربي ، وأن تكون

في مدينة حرة كمدينة باريس، ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم، وتوصيل أصواتهم إلى الأقطار القاصية ، تنبيهاً للغافل ، وتذكيراً للذاهل، فرغبوا إلى السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني أن ينشيء تلك الجريدة ، بحيث تتبع مشربهم ، وتذهب مذهبهم، فلبي رغبتهم ، بل أدى حقا واجبا عليه لدينه ووطنه ، وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها ، فكان ما حمل الاول على الاجابة حمل الثاني على الامتثال ، وعلى الله الاتكال في جميع الأحوال

الجريدة ومنهجها

سيأتي في خدمة الشرقيين على ما في الامكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك مافات ، والاحتراس من غوائل ما هو آت

ويستتبع ذلك البحث في أصول الأسباب ومناشيء العلل التي قصرت بهم إلى جانب التفريط والبواعث التي دفعت بهم الى مهامه حيرة عميت فيها السبل، واشتبهت بها المضارب ، وتاه فيها الخرّيت (١) وضل المرشد، حتى لا يدري السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة، والمزعجات المدهشة، والمدهشات القاتلة

وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التي شغلت أوهام المترفين ، ولبست عليهم مسالك الرشد ، وتزيح الوساوس التي أخذت بعقول المنعمين ، حتى أورثتهم اليأس من مداواة علاتهم وشفاء أدوائهم، وظنوا أن زمان التدارك قد فات ، وأن العناية بلغت حدها

وتحاول إشراب الأفهام أن لا حاجة في الوصول إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة ، تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم . وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة إنما عرض من الادبار عن المطلوب وهو تحت الجناح ، ويكفي في الوصول اليه عطفة نظر، وقطع بعض خطوات قصيرة

(١) الخريت بكسر الخاء وتشديد الراء الدليل الحاذق بخرت الارض وهو معرفة طرقها ومضايقها

وأن الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الاصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ، وهي ما تمسكت به أعز دولة أوربية وأمنعها (١) ولا ضرورة في ايجاد المنعة الى اجتماع الوسائط ، وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الاخرى ، ولا ملجىء للشرقي في بدايته أن يقف موقف الاوربي في نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك ، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقراً أعجزها وأعوزها

وتنبه على أن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة ، هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية . فان فقد التكافؤ لم تكن الرابطة الا وسيلة القوي لابتلاع الضعيف . وتجعل إهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة ، المدبج بأشكال المجاملة ، شفافا ينم عما وراءه ، وتنقب عن المسالك الدقيقة ، التي يسري بها الطامعون في دياجر الغفلات

وتهتم بدفع مارمي به الشرقيون عموما والمسلمين خصوصاً من التهم الباطلة التي يوجهها اليهم من لاخبرة له بحالهم ، ولا وقوف على حقائق أمورهم ، وابطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون الى المدنية ما داموا على أصولهم التي فاز بها آباؤهم الأولون .

ولا تهن في تبليغ الشرقيين مايمسهم من حوادث السياسة العمومية ، وما يتداوله السياسيون في شؤونهم ، مع اختيار الصادق ، وانتقاء الثابت

وتراعي في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة في أفرادها ، وتأييد المنافع المشتركة بينها ، والسياسات القويمة التي لاتميل الى الحيف والاجحاف بحقوق الشرقيين

ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين اليها ، والعاملين عليها ، لاتظهر اذا أدلجوا ، ولا تنجد اذا غوروا . وتذهب مذاهب الرشد ، وتصيب

«١» يريد الدولة الروسية التي جمعت كلمة شعوبها وعنيت بجعلهم امة حربية مسلحة أحدث آلات القتال وآخذة بأحدث نظمه اقتباسا ومحاكاة لمن سبقوها بالعلم والاختراع والصناعة

بحول الله مواقعه عند من سبق في أزلي علم الله هدايته . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

وترسل الى الذين نعرف أسماءهم مجانا بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير ، والغني والفقير . ومن لم يصل الينا اسمه فما عليه الا أن يكتب الى ادارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل اقامته على النهج الذي يريده والله الموفق

المقالة الثانية

الجنسية والديانة الاسلامية (*)

إن استقراء حال الأفراد من كل أمة واستطلاع أهوائها يثبت لجلي النظر ودقيقه وجود تعصب للجنس ونعرة عليه عند الاغلب منهم، وأن المتعصب لجنسه منهم ليتيه بمفاخر بنيه ، ويغضب لما يمسهم حتى يقتل دون دفعه بدون تنبه منه لطلب السبب ، ولا بحث فى علة هذا الوجدان ، حتى ظن كثيرون من طلاب الحقيقة أن التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية، إلا أنه يبعد ظنهم مانراه فى حال طفل ولد في أمة من الأمم ، ثم نقل قبل التمييز الى أرض أمة أخرى وربي فيها الى أن عقل ولم يذكر له مولده فانا لانرى في طبعه ميلا اليه ، بل يكون خالي الذهن من قبله ، ويكون مع سائر الاقطار سواء ، بل ربما كان آلف لمرباه وأميل اليه ، والطبيعي لايتغير . ولهذا لانذهب إلى أنه طبيعي ، ولكن قد يكون من الملكات العارضة على الأنفس ترسمها على ألواحها الضرورات . فان الانسان في أي أرض له حاجات جمة ، وفي أفراده ميل إلى الاختصاص والاستئثار بالمنفعة اذا لم يصبغوا بتربية ذكية . وسعة المطمع اذا صحبها اقتدار يطبعها على العدوان ، فلهذا صار بعض الناس عرضة لاعتداء بعض آخر ، فاضطروا بعد متازلة الشرور أحقاباً طوالا الى الاعتصاب بلحمة النسب على درجات متفاوتة

(*) نشرت في العدد الثاني من العروة الوثقى بتاريخ ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١

حتى وصلوا الى الأجناس فتوزعوا أمماً كالهندي والانجليزي والروسي والتركاني ونحو ذلك ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحمة قادراً على صيانة منافعه وحفظ حقوقه من تعدي القبيل الآخر . ثم تجاوزوا في ذلك حد الضرورة كما هي عادة الانسان في أطواره فذهبوا الى حد أن يأنف كل قبيل من سلطة الآخر عليه علما بأنه لابد أن يكون جائراً اذا حكم، ولئن عدل فان في قبول حكمه ذلا تحس به النفس ، وينفعل له القلب ، فلو زالت الضرورة لهذا النوع من العصبية تبع هو الضرورة فى الزوال كما تبعها في الحدوث بلا ريب ، وتبطل الضرورة بالاعتماد على حاكم تتصاغر لديه القوى، وتتضاءل لعظمته القدر، وتخضع لسلطته النفوس بالطبع ، وتكون بالنسبة اليه متساوية الاقدام، وهو مبدأ الكل، وقهار السموات والارض . ثم يكون القائم من قبله بتنفيذ أحكامه ، مساهماً للكافة فى الاستكانة والرضوخ لأحكم أحكم الحاكمين . فاذا أذعنت الأنفس بوجود الحاكم الأعلى وأيقنت بمشاركة القيم على أحكامه لعامتهم في التطامن لما أمر به، اطمأنت في حفظ الحق ودفع الشر الى صاحب هذه السلطة المقدسة ، واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة إليها ، فمحي أثرها من النفوس ، والحكم لله العليّ الكبير

هذا هو السر فى إعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ورفضهم أي نوع من أنواع العصبيات ماعدا عصبيتهم الاسلامية . فان المتدين بالدين الاسلامى متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عن جنسه وشعبه ، ويلتفت عن الرابطة الخاصة إلى العلاقة العامة ــ وهي علاقة المعتقد ــ لأن الدين الاسلامي لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق الى الحق ، وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى الى عالم أعلى ، بل هي كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد ، وبيان الحقوق كليها وجزئيها، وتحديد السلطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات ، وإقامة الحدود ، وتعيين شروطها ، حتى لا يكون القابض على زمامها إلا من أشد الناس خضوعاً لها ، ولن ينالها بوراثة ولا امتياز في جنس أو قبيلة أو قوة بدنية ، أو ثروة مالية ، وانما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ورضا الأمة . فيكون

وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم المقدسة الآلهية التي لاتميز بين جنس وجنس، واجماع آراء الأمة. وليس للوازع أدنى امتياز عنهم إلا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفاع عنها

وكل فخار تكسبه الانساب، وكل امتياز تفيده الأحساب، لم يجعل له الشارع أثراً في وقاية الحقوق، وحماية الارواح والاموال والاعراض، بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة، فهي ممقوتة على لسان الشارع والمعتمد عليها مذموم، والمتعصب لها ملوم، فقد قال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية »(١) والاحاديث النبوية، والآيات المنزلة متضافرة على هذا، ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة في التقوى - اتباع الشريعة - (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) ومن ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الازمان على اختلاف الأجيال من لاشرف في جنسه، ولا امتياز له في قبيله، ولا ورث الملك عن آبائه، ولا طلبه بشيء من حسبه ونسبه، وما رفعه الى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع، وعنايته بالمحافظة عليه.

وإن بسطة ملك الوازعين في المسلمين كان يسديها اليهم على حسب امتثالهم للأحكام الالهية واهتدائهم بهديها، وتجردهم من الاعتلاء الشخصي، وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره فى أبهته ورفاهة معيشته، وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد، رجعت الأجناس الى تعصبها، ووقع الاختلاف وانقبضت سلطة ذلك الوازع

هذا ماأرشدنا اليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم الى الآن لايعتدّون برابطة الشعوب وعصبات الأجناس. وانما ينظرون إلى جامعة الدين، لهذا ترى العربي لاينفر من سلطة التركي، والفارسي يقبل سيادة العربي، والهندي يذعن لرياسة الافغاني، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض. وإن المسلم في تبدل حكوماته لايأنف ولا يستنكر مايعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى

(١) رواه ابو داود من حديث جبير بن مطعم مرفوعا

قبيل مادام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهباً مذاهبها . نعم اذا نبأ في سيره عنها ، وجار في حكمه عما نصت عليـه ، وطلب الأثرة بما ليس من حقه انصدعت منه القلوب ، وانحرفت عن محبته الانفس ، وأصبح وإن كان وطنياً فيهم ، أشنع حالا من الاجنبي عنهم (١)

إن المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الأديان بالتأثر والأسف عنـد مايسمعون بانفصال بقعة اسلامية عن حـكم اسلامي بدون التفات إلى جنسها وقبيلها ، ولو أن حاكما صغيراً بين قوم مسلمين من أي جنس كان تبع الأوامر الالهية وثابر على رعايتها ، وأخذ الدهماء بحدودها ، وضرب بسهمه مع المحكومين في الخضوع لها وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة لأمكنه أن يحوز بسطة في الملك وعظمة في السلطان . وأن ينال الغاية من رفعة الشأن في الاقطار المعمورة بارباب هذا الدين ، ولا يتجشم في ذلك اتعاباً ، ولا يحتاج إلى بذل النفقات ، ولا تكثير الجيوش ، ولا مظاهرة الدول العظيمة ، ولا مداخلة أعوان التمـدن وأنصار الحرية . ويستغني عن كل هـذا بالسير على نهـج الخلفاء الراشدين والرجوع إلى الاصول الاولى من الديانة الاسلامية القويمة . ومن سيره هذا تنبعث القوة وتتجدد لوازم المنعة .

أكرر عليك القول بأن السبب هو أن الدين الاسلامي لم تكن وجهته كوجهة سائر الاديان الى الآخرة فقط ، ولكنه مع ذلك أتى بما فيه مصلحة العباد في دنياهم ، وما يكسبهم السعادة في الدنيـا والتنعيم في الآخرة . وهو المعبر عنه في الاصطلاح الشرعي بسعادة الدارين ، وجاء بالمساواة في أحكامه بين الاجناس المتباينة ، والأمم المختلفة

ابيضت عين الدهر وامتقع لون الزمان حتى أصاب أن بعضاً من المسلمين على حكم الندرة يعز عليهم الصبر ، ويضيق منهم الصدر ، لجور حكامهم وخروجهم

«١» آخر امثلته رجوع العرب الى عصبيتهم الجنسية وانقباضهم من الترك حين شرعوا يعيزون أنفسهم من حيث انهم ترك ... بعد ان ظلوا قروناً لا ينفرون من سلطة الترك اذ كانت باسم الاسلام لا باسم «الحاكمية التركية الملية»

في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية ، فيلجؤن للدخول تحت سلطة أجنبية ، على أن الندم يأخذ بارواحهم عند أول خطوة يخطونها في هذا الطريق ، فمثلهم مثل من يريد الفتك بنفسه حتى اذا أحس بالألم رجع واسترجع . وإن بعض مايطرأ على الممالك الاسلاميـة من الانقسام والتفريق إنما يكون منشأه قصور الوازعين وحيدانهم عن الاصول القويمة التي بنيت عليها الديانة الاسلاميـة ، وانحرافهم عن مناهج أسلافهم الاقدمين . فان منابذة الاصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة أشد مايكون ضررهما بالسلطة العليا ، فاذا رجع الوازعون في الاسلام إلى قواعد شرعهم ، وساروا سيرة الاولين السابقين لم يمض قليل من الزمان إلا وقد آتاهم الله بسطة في الملك ، وألحقهم في العزة بالراشدين من أئمة الدين ، وفقنا الله للسداد ، وهدانا طريق الرشاد

المقالة الثالثة

ماضي الامة وحاضرها وعلاج عللها (*)

(سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)

أرأيت أمة من الامم لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم انشق عنها عماء العدم ، فاذا هي بجمبة كل واحد منها كون بديع النظام ، قوي الاركان ، شديد البنيان عليها سياج من شدة البأس ، ويحيطها سور من منعة الهمم ، تخمد في ساحاتها عاصفات النوازل ، وتنحل بأيدي مديريها عقد المشاكل ، نمت فيها أفنان العزة بعد ماثبتت أصولها ، ورسخت جذورها ، وامتد لها السلطان على البعيد عنها والداني اليها ، ونفذت منها الشوكة ، وعلت لها الكلمة ، وكملت القوة ، فاستعلت آدابها على الآداب ، وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها ،

(*) نشرت في العدد الثالث من "العروة الوثقى في ٢٩ جمادي الاولى سنة ١٣٠١

وأحست مشاعر سواها من الامم بأن لا سعادة إلا في انتهاج منهجها، وورود شريعتها، وصارت وهي قليلة العدد كثيرة الساحات، كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل.

وبعد هذا كله وهى بناؤها، وانتثر منظومها، وتفرقت فيها الاهواء، وانشقت العصا، وتبدد ماكان مجتمعاً، وانحل ما كان منعقداً، وانفصمت عرى التعاون، وانقطعت روابط التعاضد، وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها، ودار كل في محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه لايلمح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية، وهو في غيبة عن أن ضروريات حاجاته لاتنال إلا على أيدي الملتحمين معه بلحمة الامة، وأنه أحوج الى شد عضدهم من تقوية ساعده، والى توفير خيرهم من تنمية رزقه، وكأنه بهذه الغيبة في سبات يخيله الناظر اليه صحوا، وذبول يظنه المغرور زهواً، وأخذ القنوط بآمال أولئك المدهوشين فابادها، وحدثت فيهم قناعة التهم، والرضا بكل حال، ولئن تنبه خاطر للحق في خيال أحدهم، أو استفزه داع من قلبه الى مايكسب ملته شرفاً، أو يعيد لها مجداً، عده هوساً وهذياناً أصيب به من ضعف في المزاج، أو خلل في البنية، أو حسب أنه لو أجاب داعي الذمة لعاد عليه بالوبال، وأورده موارد الهلكة، أو صار من أقرب الاسباب لزوال نعمته، ونكد معيشته، ويحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالا من اليأس، فتغل يداه عن العمل، وتقف قدماه عن السعي، ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل مافيه خيره وصلاحه، ويقصر نظره عن درك ماأتى أسلافه من قبله، وتجمد قريحته عن فهم ماقام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ماكسبوا، وقيما على ماأورثوه لاعقابهم، ويبلغ هذا المرض من الأمة حداً يشرف بها على الهلاك، ويطرحها على فراش الموت فريسة لكل عاد، وطعمة لكل طاعم.

نعم رأيت كثيراً من الامم لم تكن ثم كانت، وارتفعت ثم انحطت، وقويت ثم ضعفت، وعزت ثم ذلت، وصحت ثم مرضت، ولكن أليس لكل علة دواء؟ بلى وأسفا ماأصعب الداء، وما أعز الدواء! وما أقل العارفين بطرق العلاج!

كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها، وهي لم تفترق إلا لأن كلا عكف على شأنه؟ استغفر الله ، لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالا به ، ولكنه صرف اشؤون غيره وهو يظنها من شؤون نفسه ، نعم ربما التفت كل الى ماهو في فطرة كل حي من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه ، وهو لايدري من أي وجه يحصلها ، ولا بأية طريقة يكون في أمن عليها ؟ كيف تبعث الهمم بعد موتها ، وما ماتت إلا بعد ماسكنت زمانًا غير قصير إلى ماليس من معاليها ؟ هل من السهل رد التائه الى الصراط المستقيم ؟ وهو يعتقد أن الفوز في سلوك سواه، خصوصاً بعد ما استدبر المقصد ، وفي كل خطوة يظن أنه على مقربة من الحظوة ؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه ، المبتهج بأحلامه ، وفي أذنه وقر وفي ملامسه خدر ؟

هل من صيحة تقرع قلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحاؤها ، وتتناءى أطرافها ، وتتباين عاداتها وطبائعها؟ هل من نبأة تجمع أهواءها المتفرقة ، وتوحد آراءها المتخالفة ، بعد ماتراكم جهل وران غين ، وخيل للعقول أن كل قريب بعيد ، وكل سهل وعر ؟ أيم الله أنه لشيء عسير ، يعيا في علاجه النطاسي ، ويحار فيه الحكيم البصير . هل يمكن تعيين الدواء إلا بعد الوقوف على أصل الداء ، وأسبابه الأولى والعوارض التي طرأت عليه ؟ ان كان المرض في أمة فكيف يمكن الوصول الى علله وأسبابه إلا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من تنقل الاحوال وتنوع الاطوار ؟ أيمكن لطبيب يعالج شخصاً بعينه أن يختار له نوعاً من العلاج قبل أن يعرف ماعرض له من قبل فى حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض ؟ وإلا فان كثيراً من الامراض تتولد جراثيمها فى طور من أطوار العمر ، ثم لاتظهر إلا فى طور آخر، لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها .

كلا إنه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد سنو عمره محدودة ، وعوارض حياته محصورة ، فكيف بمن يريد مداواة ملة طويلة الأجل وافرة العدد ؟ لهذا يندر فى أجيال وجود بعض رجال يقومون باحياء أمة أو

ارجاع شرفها ومجدها اليها ، وإن كان المتشبهون بهم كثيرين وكما أن المتطبب القاصر في الامراض البدنية لايزيدعلاجه المرض إلا شدة، لولامساعدةالاتفاق والصدفة ، بل ربما يفضي بالمريض إلى الموت- كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الامم على غير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها ، ووجوه العلة فيها وأنواعها ، وما يكتنف ذلك من العادات ، وما يوجد في أفرادها من المذاهب والاعتقادات ، وحوادثها المتتابعة على اختلاف مواقعها من الارض ، ومكانتها الاولى من الرفعة ، ودرجتها الحالية من الضعة ، وتدرجها فيما بين المنزلتين. فان أخطأ طالب اصلاحها في اكتناه شيء مما ذكرنا تحول الدواء داء، والوجود فناء، فمن له حظ من الكمال الانساني ، ولم يطمس من قلبه موضع الالهام الالهي، لايجرأ على القيام بما يسمونه تربية الأمم واصلاح ما فسد منها وهو يحس من نفسه أدنى قصور في أداء هذا الامر العظيم علماً أو عملا . نعم يكون ذلك من محبي الفخفخة الباطلة ، وطلاب العيش في ظل وظائف ليسوا من حقوقها في شيء

ظن أقوام في هذه الازمان أن أمراض الامم تعالج بنشر الجرائد ، وأنها تكفل أنهاض الهمم، وتنبيه الافكار، وتقويم الاخلاق. كيف يصدق هذا الظن وإنا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لايقصدون بما يكتبون إلا نجاح الأمم مع التنزه عن الاغراض؟ فبعد ماعم الذهول ، واستولت الدهشة على العقول ، وقل القارئون والكاتبون. لاتجد لها قارئاً ، ولئن وجدت القاريء فقلما تجد الفاهم ، والفاهم قد يحمل مايجده على غير مايراد منه لضيق في التصور، أو ميل مع الهوى، فلا يكون منه إلا سوء التأثير، فيشبه غذاء لايلائم الطبع فيزيد الضرر أضعافاً . على أن الامة اذا كانت في درك الهبوط . فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع مافيها مع قصر المدة ، وتدفق سيول الحوادث؟ إن هذا وحقك لعزيز .

ويظن أقوام آخرون أن الامة المنبثة في أقطار واسعة من الأرض مع تفرق أهوائها وأخلادها إلى مادون رتبتها بدرجات لاتحصر ، ورضاها بالدون من العيش ، والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا مشربها ، بل لمن كان

خاضعاً لسيادتها ، راضخاً لأحكامها ، مع هذا كله يتم شفاؤها من هذه الأمراض القاتلة بانشاء المدارس العمومية دفعة واحدة في كل بقعة من بقاعها ، وتكون على الطرز الجديد المعروف بأوربا ، حتى تعم المعارف جميع الأفراد في زمن قريب . ومتى عمت المعارف كملت الأخلاق ، واتحدت الكلمة ، واجتمعت القوة . وما أبعد ما يظنون ؟ فان هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوي قاهر ، يحمل الأمة على ما تكره أزمانا حتى تذوق لذته وتجني ثمرته ، ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائباً عن سلطته في تنفيذ ما أراد من خيرها ، ويلزم له ثروة وافرة تفي بنفقات تلك المدارس وهي كثيرة . وموضوع كلامنا في الضعف ودوائه ، فهل مع الضعف سلطة تقهر ، وثروة تغني ؟ ولو كان للأمة هذان لما عدت من الساقطين .

فان قالوا : يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات ، وافقناهم على الامكان لولا ما يكون من طمع الأقوياء حتى لايدعون لهم سبيلا ، لأن يستنشقوا نسيم القوة ، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر ؟ .. على أنا لو فرضنا مسالمة الدهر ، ومنحت الأمة مدة من الزمان تكفي لبث تلك العلوم في بعض الأفراد ، والاستزادة منها شيئاً فشيئاً ، فهل يصح الحكم بأن هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية ، وأن ما يصيبه البعض منها يهيؤه للكمال اللائق به ، ويمكنه من القيام بارشاد الباقي من أبناء أمته ؟ واعجبا كيف يكون هذا وإن الأمة في بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها ! ؟ وكيف بذرت بذورها ؟ وكيف نبتت واستوت على سوقها وأينعت وأثمرت ؟ وبأي ماء سقيت ، وبأي تربة غذيت ؟ ولا وقوف لها على الغاية التي قصدت منها في مناشئها ، ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات ، وإن وصل اليها طرف من ذلك ، فانما يكون ظاهراً من القول لا نبأ عن الحقيقة . فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الأفراد بها ، وسوقها إلى أذهانهم المشحونة بغيرها ، يقوّم من أفكارهم ، ويعدل من أخلاقهم ، ويهديهم طرق الرشاد في إفادة إخوانهم . لعل الأقرب أن ناقلي تلك العلوم — وهم من أمة هذا شأنها مع ما ينعكس اليهم من الأوهام

المألوفة فيها ، وما رسخ في نفوسهم على عهد الصبا ، وما يعظمونه من أمر الأمة التي تلقوا عنها علومهم — يكونون بين أمتهم كخلط غريب لايزيد طبائعها إلا فساداً

ماذا يكون من أولئك الناشئين في علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم ، ولو صدقوا في خدمة أوطانهم ؟ يكون منهم ما تعطيه حالهم ، يؤدون ماتعلموه كما سمعوه ، لايراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الأمة وطباعها ، وما مرنت عليه من عاداتها ، فيستعملونه على غير وضعه ، وابعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه ، وغفلتهم عن آتيه ، يظنونه على ما بلغهم هو الكمال لكل نفس ، والحياة لكل روح ، فيرومون من الصغير مالا يرام إلا من الكبير ، وبالعكس ، غير ناظرين إلا إلى صور ماتعلموه ، ولا مفكرين في استعداد من يعرض عليهم وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد ؟ أو يزيدها على مابها أضعافا ؟ وما هذا الا لكونهم ليسوا أربابها ، وإنما هم لها نقلة وحملة . فهؤلاء الصادقون إلا من وفقه الله منهم بعنايته الالهية يكون مثلهم كمثل والدة حنون يلذ لها غذاء ، فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها في اللذة ، وسنه سن اللبان لايقبل سواه ، فيسرع اليه المرض ، وينتهي به إلى التلف ، فتكون منزلتهم من الأمة منزلة الآلة المحللة ، يشتتون بقية الجمع ، ويبددون أخريات الالتئام إن كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط فهؤلاء المغرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها ، وما قصدوا إلا خيراً إن كانوا مخلصين ، ويوسعون بذلك الخصاص (الخرق في باب ونحوه) حتى تعود أبوابا ، ويباعدون ما بين الضفاف ، حتى تصير ميادين لتداخل الأجانب تحت اسم النصحاء ، وعنوان المصلحين ، ويذهبون بأمتهم إلى الفناء والاضمحلال وبئس المصير

شيد العثمانيون والمصريون عدداً من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا اليهم مايحتاجون اليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب ، وكل مايسمونه تمدنا ، وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة ، وسير الاجتماع الانساني . هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ هل صاروا

أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد ؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة ؟ هل نجوا بها من ورطات ما يلجئهم اليه الأجانب بتصرفاتهم ؟ هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور ؟ هل نالوا بها من المنعة ما يدفع عنهم غارة الأعداء عليهم؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف في الافكار حداً يميل عزائم الطامعين عنهم ؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية ؟ فهي تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتطلبها ، وإن تجاوزت محيط الحياة الدنيا، وإن بادت في سبيلها خلفها وارث على شاكلتها كما كان في كثير من الامم

نعم ربما يوجد بينهم أفراد يتفيهقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شا كلها ، ويصوغونها في عبارات متقطعة بتراء ، لا تعرف غايتها ، ولا تعلم بدايتها ، ووسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بسمة أخرى على حسب ما يختارون ووقفوا عند هذا الحد ، ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل اليهم من العلم، فقلبوا أوضاع المباني والمساكن، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون ، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم ، وعرضوها معرض المباهاة ، فنسفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم ، واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره ، فأماتوا أرباب الصنائع من قومهم . وأهلكوا العاملين في المهن لعدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ما تستدعيه تلك العلوم الجديدة والكماليات الجديدة، لأن مصانعهم لم تتحول الى الطرز الجديد ، وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد، وثروتهم لا تسع جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة ، وهذا جدع لأنف الأمة ، يشوه وجهها ، ويحط بشأنها ، وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها

علمتنا التجارب ونطقت مواضي الحوادث بأن المقلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء اليها ، وتكون مداركهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس ، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم ، واحتقار من لم يكن على مثالهم ، شؤماً على أبناء أمتهم ، يذلونهم

ويحقرون أمرهم ، ويستهينون بجميع أعمالهم وإن جلت ، وإن بقي في بعض رجال الأمة بقية من الشمم ، أو نزوع إلى معالي الهمم ، انصبوا عليه وأرغموا من أنفه ، حتي يمحي أثر الشهامة ، وتخمد حرارة الغيرة ، ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ، ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم

أقول ولا أخشى لوماً : لو كان في البلاد الأفغانية عدد قليل من تلك الطلائع عند ما تغلب على بعض أراضيها الانكليز؟ لما بارحوها أبد الآبدين . فان نتيجة العلم عند هؤلاء ليست إلا توطيد المسالك ، والركون إلى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم ، فيبالغون في تطمين النفوس ؟وتسكين القلوب ، حتى يزيلون الوحشة التي قد يصون بها الناس حقوقهم ، ويحفظون بها استقلالهم . ولهذا لو طرق الأجانب أرضاً لأية أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدومهم، ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم كأنما هم منهم، ويعدون الغلبة الأجنبية في بلادهم مباركة عليهم وعلى أعقابهم

***

فما الحيلة وما الوسيلة ، والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها، والعلوم الجديدة لسوء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها ، والوقت ضيق والخطب شديد ؟ أي جهوري من الأصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات ؟ أي قاصفة تزعج الطباع الجامدة ، وتحرك الأفكار الخامدة ؟ أي نفخة تبعث هذه الأرواح في أجسادها ، وتحشرها إلى مواقف صلاحها وفلاحها؟ الأقطار فسيحة الجوانب ، بعيدة المناكب ، المواصلات عسرة بين الشرقي والغربي والجنوبي والشمالي ، الرؤوس مطرقة إلى ما تحت القدم أو منغضة إلى ما فوق السماء ، ليس للأبصار جولان الى الأمام والخلف واليمين والشمال، ولا للأسماع إصغاء ، ولا للنفوس رغبات ، وللأهواء تحكم ، وللوساوس سلطان .

ماذا يصنع المشفقون على الأمة والزمن قصير ؟ ماذا يحاولون والأخطار محدقة بهم ؟ بأي سبب يتمسكون ورسل المنايا على أبوابهم ؟

لا أطيل عليك بحثاً ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان ، ولكني أستلفت نظرك الى سبب يجمع الأسباب ، ووسيلة تحيط بالوسائل : أرسل طرفك إلى نشأة الأمة التي خملت بعد النباهة ، وضعفت بعد القوة ، واسترقت بعد السيادة ، وضيمت بعد المنعة ، وتبين أسباب نهوضها الأول ، حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل ، فقد يكون ما جمع كلمتها ،وأنهض همم آحادها، ولحم ما بين أفرادها ، وصعد بها إلى مكانة تشرف منها على رؤوس الأمم ، وتسوسهم وهي في مقامها بدقيق حكمتها ، إنما هو دين قويم الأصول ، محكم القواعد ، شامل لأنواع الحكم ، باعث على الألفة ، داع إلى المحبة ، مزك للنفوس ، مطهر للقلوب من أدران الخسائس ، منوّر للعقول باشراق الحق من مطالع قضاياه ، كافل لكل ما يحتاج اليه الانسان من مباني الاجتماعات البشرية وحافظ وجودها ، وينادي بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية .

فان كانت هذه شرعتها،ولها وردت ، وعنها صدرت. فما تراه من عارض خللها ، وهبوطها عن مكانتها ، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريا، وحدوث بدع ليست منها في شيء ، أقامها المعتقدون مقام الأصول الثابتة ، وأعرضوا عما يرشد اليه الدين وعما أتى لأجله ، وما أعدته الحكمة الالهية له ، حتى لم يبق منه الا أسماء تذكر ، وعبارات تقرأ . فتكون هذه المحدثات حجابا بين الأمة وبين الحق الذي تشعر بندائه أحيانا بين جوانحها . . . . فعلاجها الناجع انما يكون برجوعها الى قواعد دينها ، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته ، وإرشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق ، وايقاد نيران الغيرة ، وجمع الكلمة ، وبيع الأرواح لشرف الأمة ، ولأن جرثومة الدين متأصلة في النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة ، والقلوب مطمئنة اليه ، وفي زواياها نور خفي من محبته ، فلا يحتاج القائم باحياء الأمة الا الى نفخة واحدة يسري نفثها في جميع الأرواح لأقرب وقت . فاذا قاموا لشؤونهم ، ووضعوا أقدامهم على

طريق نجاحهم ، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم ، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الانساني . . . . . ومن طلب اصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه ، فقد ركب بها شططا ، وجعل النهاية بداية ، وانعكست التربية ، وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ، ولا يزيد الامة الا نحساً ، ولا يكسبها الا تعساً .

هل تعجب أيها القارىء من قولي إن الأصول الدينية الحقة ، المبرأة عن محدثات البدع ، تنشىء للأمم قوة الاتحاد ، وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة ، وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف وتنتهي بها الى أقصى غاية في المدنية !؟ ان عجبت فان عجبي من عجبك أشد ! ! هل نسيت تاريخ الامة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات ، واتيان الدنايا والمنكرات ، حتى اذا جاءها الدين فوحدها وقواها وهذبها ، ونوّر عقولها ، وقوّم أخلاقها ، وسدّد أحكامها . فسادت على العالم ، وساست من تولته بسياسة العدل والانصاف . وبعد أن كانت عقول أبنائها في غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نبهتها شريعتها وآيات دينها الى طلب الفنون المتنوّعة والتبحر فيها . ونقلوا إلى بلادهم طب بقراط وجالينوس ، وهندسة أقليدس ، وهيئة بطليموس ، وحكمة أفلاطون وارسطو ، وما كانوا قبل الدين في شيء من هذا ، وكل أمة سادت تحت هذا اللواء إنما كانت قوتها ومدنيتها في التمسك بأصول دينها . .

وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك ، وافتتاح الأقطار ، وطلب السيادة على الأمصار ، وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم ، وارتفاع النفوس عن الدنايا وبعد الغايات ، وعلو المقاصد هي التي هذبت أخلاقهم ، وقومت أفكارهم ، وكفتهم عن معاطاة الرذائل وخسائس الامور وسوافلها . ثم بعد ما مضى زمان من نشأتها أصابها من الانحطاط ما أصابها . فبيان أسباب الخلل فيها وعلاته نفرد له فصلا مستقلا في عدد آخر إن شاء الله وهو الموفق للصواب

المقالة الرابعة

النصرانية والاسلام وأهلهما (*)

﴿ مقابلة بينهما في طلب العزة والسيادة نشرت بالعنوان الآتي ﴾

﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾

خلق الله الانسان عالما صناعيا ، ويسر له سبيل العمل لنفسه ، وهداه للابداع والاختراع ، وقدر له الرزق من صنع يديه . بل جعله ركن وجوده ، ودعامة بقائه . فهو على جميع أحواله من ضيق وسعة ، وخشونة ورفاهة ، وتبد وحضارة ، صنيعة أعماله : أقواته من معالجة الارض بالزراعة أو قيامه على الماشية، وسرابيله وما يقيه الحر أو البرد والوجى من عمل يديه نسجاً أو خصفاً ، وأكنانه ومساكنه ليست الا مظاهر تقديره وتفكيره . وجميع ما يتفنن فيه من دواعي ترفه ونعيمه إنما هي صور أعماله ومجالي أفكاره ، ولو نفض يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان وبسط أكفه للطبيعة ليستجديها نفساً من حياة لشحت به عليه ، بل دفعته الى هاوية العدم ، وهو في صنعه وابداعه محتاج الى أستاذ يثقفه وهاد يرشده . فكما يعمل لتوفير لوازم معيشته وحاجات حياته يعمل ليعلم كيف يعمل ، وليقتدر على أن يعمل . فصنعته أيضاً من صنعه . فهو في جميع شؤونه الحيوية عالم صناعي كأنه منفصل عن الطبيعة ، بعيد من آثارها ، حاجته اليها كحاجة العامل لآلة العمل . هذا هو الانسان في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه.

دعه في هذه الحالة وخذ طريقاً من النظر إلى أحواله النفسية من الادراك والتعقل والأخلاق والملكات والانفعالات الروحية تجده فيها أيضاً عالماً صناعياً:

(*) نشرت في العدد الرابع من العروة الوثقى الذي صدر في ٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ الموافق ٣ ابريل سنة ١٨٨٤

شجاعته وجبنه ، جزعه وصبره ، كرمه وبخله ، شهامته ونذالته ، قسوته ولينه ، عفته وشرهه ، وما يشبهها من الكمالات والنقائص جميعها تابع لما يصادفه في تربيته الأولى . وما يودع في نفسه من أحوال الذين نشأ فيهم وتربى بينهم، ومرامي أفكاره ، ومناهج تعقله ، ومذاهب ميله ،ومطامح رغباته ، ونزوعه الى الاسرار الالهية ،أو ركونه الى البحث في الخواص الطبيعية . وعنايته باكتشاف الحقيقة في كل شيء ، أو وقوفه عند بادىء الرأي فيه وكل مايرتبط بالحركات الفكرية ــ إنما هي ودائع اختزنها لديه الآباء والأمهات، والاقوام والعشائر والمخالطون

وأما هواء المولد والمربي ونوع المزاج ، وشكل الدماغ ، وتركيب البدن وسائر الغواشي الطبيعية فلا أثر له في الأعراض النفسية ، والصفات الروحانية ، إلا ما يكون في الاستعداد والقابلية ،على ضعف في ذلك الأثر . فان التربية وما ينطبع في النفس من أحوال المعاشرين وأفكار المثقفين تذهب به كأن لم يكن أودع في الطبع . نعم إن أفكاراً تتجدد ، ومعقولات من أخرى تتولد ،وصفات تسمو ، وهمما تعلو ،حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين . ويظن أن هذا من تصرف الطبيعة لا من آثار الاكتساب ، ولكن الحق فيه أن ثمرة ماغرس ونتيجة ما كسب ، فهو مصنوع يتبع مصنوعا . فالانسان في عقله وصفات روحه عالم صناعي

هذا مما لا يرتاب عليه العقلاء والسذج ، ولكن هل تذكرت مع هذا أن الاعمال البدنية ، إنما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية ، وأن الروح هي السلطان القاهر على البدن ؟ أظنك لا تحتاج فيه الى تذكير ، لأنه مما لا يعزب عن الأذهان — إنما قبل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين ، ولا أظن منكراً يجحدها :

إن الدين وضع إلهي ،ومعلمه والداعي اليه البشر ،تتلقاه العقول عن المبشرين المنذرين، فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحي، ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين ، وهو عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب ، ويرسخ في الأفئدة ، وتصبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات ، وتتمرن

الأبدان على ما ينشأ عنه من الأعمال عظيمها وحقيرها ، فله السلطة الاولى على الأفكار وما يطاوعها من العزائم والارادات ، فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به بدنها . وكأنما الانسان في نشأته لوح صقيل ، وأول ما يخط فيه رسم الدين . ثم ينبعث إلى سائر الأعمال بدعوته وإرشاده ، وما يطرأ على النفوس من غيره ، فانما هو نادر شاذ ، حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندمال

*

وبعد هذا الموضوع بحثنا الآن الملة المسيحية والملة الاسلامية ، وهو بحث طويل الذيل . وإنما نأتي به على إجمال ينبئك عن تفصيل : إن الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والمياسرة في كل شيء ، وجاءت برفع القصاص وإطراح الملك والسلطة ، ونبذ الدنيا وبهرجها ، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها ، وترك أموال السلاطين للسلاطين ، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية ، بل والدينية — ومن وصايا الانجيل : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر — ومن أخباره أن الملوك انما ولايتهم على الأجساد وهي فانية . والولاية الحقيقية الباقية على الأرواح وهي لله وحده.

فمن يقف على مباني هذه الديانة، ويلاحظ ما قلنا من أن الدين صاحب الشوكة العظمى على الافكار ، مع ملاحظة أن لكل خيال أثراً في الارادة يتبعه حركة في البدن على حسبه . يعجب كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي ! المنتسبين في عقائدهم اليه . فهم يتسابقون في المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورفه العيش فيها ، ولا يقفون عند حد في استيفاء لذاتها ، ويسارعون الى افتتاح الممالك ، والتغلب على الاقطار الشاسعة ، ويخترعون كل يوم فنا جديداً من فنون الحرب ، ويبدعون في اختراع الآلات الحربية القاتلة ، ويستعملها بعضهم في بعض ، ويصولون بها على غيرهم ، ويبالغون في ترتيب الجيوش وتدبير سوقها في ميادين القتال ، ويصرفون عقولهم في إحكام نظامها حتى وصلوا غاية صار بها الفن العسكري من أوسع الفنون وأصعبها ، وإن أصول دينهم صارفة لعقولهم

عن العناية بحفظ أملاكهم ، فضلا عن الالتفات الى طلب غيرها

الديانة الاسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة ورفض كل قانون يخالف شريعتها ، ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها . فالناظر في أصول هذه الديانة ، ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل، يحكم حكمًا لا ريبة فيه بأن المعتقدين بها لابدّ أن يكونوا أول ملة حربية في العالم ، وأن يسبقوا جميع الملل الى اختراع الآلات القاتلة ، وإتقان العلوم العسكرية ، والتبحر فيما يلزمها من الفنون — كالطبيعة والكيمياء وجر الاثقال والهندسة وغيرها — ومن تأمل في آية (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة) أيقن أن من صبغ بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة ، وطلب كل وسيلة إلى ما يسهل له سبيلها ، والسعي اليها بقدر الطاقة البشرية ، فضلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه . ومن لاحظ أن الشرع الاسلامي حرّم المراهنة إلا في السباقة والرماية انكشف مقدار رغبة الشارع في معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليها . ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الأوقات ، إذ يراهم يتهاونون بالقوّة ، ويتساهلون في طلب لوازمها . وليست لهم عناية بالبراعة في فنون القتال ، ولا في اختراع الآلات ، حتى فاقتهم الأمم سواهم فيما كان أول واجب عليهم ، واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات ، وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفيهم واستكانوا لها ، ورضخوا(١) لأحكامها . ومن وازن بين الديانتين حار فكره كيف اخترع مدفع الكروب والمتراليوز وغيرهما بأيدي أبناء الديانة الاولى قبل الثانية ؟ وكيف وجدت بندقية مرتين في ديار الأولين ، قبل وجودها عند الآخرين ؟ وكيف أحكمت الحصون ، ودرعت البواخر، وأخذت مغالق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم ، دون أهل الغلبة والحرب ؟

لم لا يحار الحكيم وإن كان نطاسياً ؟ لم لا يقف الخبير البصير دون استكناه

« ١ » وضع هذه الكلمة هنا مما سبق الى قلم الاستاذ من انشاء الجرائد ، والصواب أن يقال خضعوا أو خنعوا — وأما الرضوخ فمعناه العطاء القليل

الحقيقة ؟ هل القرون الخالية والأحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في نفوس المستمسكين بعراهما ؟ هل نبذت كل ملة من الملتين عقائد دينها ظهريا من أجيال بعيدة ؟ هل انتضر النصارى في دينهم على الأخذ بشريعة موسى ، واقتفاء سيرة يوشع بن نون ؟ هل تخللت بعض آيات الانجيل من حيث يدرى ولا يدرى بين الخطب والمواعظ التي تتلى على منابر المسلمين ، أو ألقي شيء منها في أماني معلميهم وناشري شريعتهم عند مايتربعون في محافل دروسهم ؟ هل تبدلت سنة الله في الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ هل استبدت الابدان فيهما على الأرواح ، أو وجد للأرواح دبير سوى الفكر والخيال ، أو انفلتت الأفكار من سلطة الدين ، أو تعاصت النفوس عن الانتقاش بنقشته ، وهو أول حاكم عليها وأقوى مؤثر فيها ؟ هل تتخلف العلل عن معلولاتها ؟ هل تنقطع النسب بين الأسباب ومسبباتها ؟ ماذا عساه يرشد العقول الى كشف المساتير وحل المعميات ؟

أينسب هذا إلى اختلاف الأجناس. وكثير من أبناء الملتين يرجعون الى أصول واحدة، ويتقاربون في الأنساب الدانية ؟ أينسب هذا إلى اختلاف الأقطار ، وكثير من القبيلين يتشابهون في طبائع البلدان، ويتجاورون في مواقع الأمكنة ؟ ألم يصدر من المسلمين وهم في شبيبة دينهم أعمال بهرت الابصار وأدهشت الألباب ؟ ألم يكن منهم مثل فارس والعرب والترك الذين دوخوا الممالك واستووا على كرسي السيادة فيها . كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية أشباه المدافع ، فزع لها المسيحيون ، وغابوا عن معرفة أسبابها — ذكر ملكلم سرجم (انكليزي) في تاريخ فارس أن محموداً الغزنوي كان يحارب وثني الهند بالمدافع ، وكانت هي السبب في انهزامهم بين يديه (سنة ٤٠٠) من الهجرة ، وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئاً منها . فأي عون من الدهر أخذ بأيدي الملة المسيحية فقدمها الى مالم يكن في قواعد دينها ؟ وأي صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخرتهم عن تعاطي الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم ؟ مقام للحيرة

وموضع للعجب ! ويظن أن لابدّ لهذا التخالف من سبب ، نعم وتفصيله يطول . ولكن نجمل على ما شرطنا :

إن الدين المسيحي انما امتدّ ظله وعمت دعوته في الممالك الاوربية من أبناء الرومانيين ، وهم على عقائد وآداب وملكات وعادات ورثوها عن أديانهم السابقة ، وعلومهم وشرائعهم الاولى ، وجاء الدين المسيحي اليهم مسالما لعوائدهم ومذاهب عقولهم ، وداخلهم من طرق الاقناع ومسارقة الخواطر لا من مطارق البأس والقوة ، فكان كالطراز على مطارفهم ، ولم يسلبهم ماورثوه عن أسلافهم . ومع هذا فان صحف الانجيل الداعية الى السلامة والسلم لم تكن لسابق العهد مما يتناوله الكافة من الناس ، بل كانت مذخورة عند الرؤساء الروحانيين ثم ان الاحبار الرومانيين لما أقاموا أنفسهم في منصب التشريع ، وسنوا محاربة الصليب ، ودعوا اليها دعوة الدين ، التحمت آثارها في النفوس بالعقائد الدينية ، وجرت منها مجرى الاصول ، ولحقها على الأثر تزعزع عقائد المسيحيين في أوربا ، وافترقوا شيعاً ، وذهبوا مذاهب تنازع الدين في سلطته ، وعادا وميض ماأودعه أجدادهم في جرائيم وجودهم ضراماً ، وتوسعوا في فنون كثيرة ، وانفسخ لهم مجال الفكر فيها ، وكانت براعتهم في الفن العسكري ، واختراع آلات الحرب والدفاع مساوقة لبراعتهم في سائر الفنون

أما المسلمون فبعد أن نالوا في نشأة دينهم ما نالوا ، وأخذوا من كل كمال حربي حظا ، وضربوا في كل فخار عسكري بسهم ، بل تقدموا سائر الملل في فنون المقارعة ، وعلوم النزال والمكافحة ، ظهر فيهم أقوام بلباس الدين وأبدعوا فيه ، وخلطوا بأصوله ماليس منها ، فانتشرت بينهم قواعد الجبر ، وضربت في الأذهان حتى اخترقتها ، وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال . هذا الى ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع ، وما أحدثه السوفسطائية الذين أنكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر ، ولا تثبتها الحقائق ، وما وضعه كذبة النقل من الأحاديث ينسبونها الى صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ، ويثبتونها في الكتب وفيها السم القاتل لروح الغيرة ،

وأن مايلصق منها بالعقول يوجب ضعفاً في الهمم ، وفتوراً فى العزائم . وتحقيق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة ، خصوصاً بعد حصول النقص فى التعليم ، والتقصير فى ارشاد الكافة الى أصول دينهم الحقة ومبانيه الثابتة التي دعا اليها النبي وأصحابه . فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم الا منحصرة في دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة . لعل هذا هو العلة في وقوفهم ، بل الموجب لتقهقرهم ، وهو الذي نعاني من عنائه اليوم ما نسأل الله السلامة منه

إلا إن هذه العوارض التي غشيت الدين ، وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته وإن كان حجابها كثيفاً لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يحرموها بالمرة تدافع دائم وتغالب لاينقطع ، والمنازعة بين الحق والباطل كالمدافعة بين المرض وقوة المزاج . وحيث إن الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم ، ولا يزال وميض برقه يلوح في أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة، فلابد يوماً أن يسطع ضياؤها ويقشع سحاب الاغيان. وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل ، وإمامهم الحق وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ، ومغالبة المعتدين ، وطلب المنعة من كل سبيل لايعين لها وجهاً ، ولا يخصص لها طريقاً ، فاننا لانرتاب في عودتهم إلى مثل نشأتهم ، ونهوضهم الى متاضاة الزمان ماسلب منهم ، فيتقدمون على من سواهم في فنون الملاحمة والمنازلة والمصاولة حفظا لحقوقهم ، وضناً بأنفسهم عن الذل ، وملتهم عن الضياع ، والى الله تصير الأمور .

المقالة الخامسة

انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك (*

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)

إن المسلمين شدة في دينهم ، وقوة في إيمانهم ، وثباتا على يقينهم ، يباهون بها من عداهم من الملل ، وإن في عقيدتهم أوثق الاسباب لارتباط بعضهم ببعض ، ومما رسخ في نفوسهم أن في الايمان بالله وما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين . ومن حرم الايمان فقد حرم السعادتين ، ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء ، وهذه الحالة كما هي في علمائهم متمكنة في عامتهم ، حتى لو سمع أي شخص منهم في أي بقعة من بقاع الارض عالما كان أو جاهلا أن واحداً ممن وسم بسمة الاسلام في أي قطر ومن أي جنس صبا عن دينه رأيت من يصل اليه هذا الخبر في تحرق وتأسف يلهج بالحوقلة والاسترجاع ، ويعد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به ، بل وعلى جميع من يشاركه في دينه ، ولو ذكرت مثل هذه الحادثة في تاريخ وقرأها قارئهم بعد مئين من السنين لا يتمالك قلبه من الاضطراب ، ودمه من الغليان ، ويستفزه الغضب ويدفعه لحكاية ما رأى كأنه يحدث عن غريب أو يحكي عن عجيب .

المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل في ولايتهم من البلدان ، وكلهم مأمور بذلك لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدين في الجنس ولا المختلفين فيه ، وهو فرض عين على كل واحد منهم إن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام . ومن

*) نشرت في العدد الخامس من جريدة العروة الوثقى في ١٤ جمادى الاخرة سنة ١٠٣١ و ١٠ إبريل ١٨٨٤

فروضهم في سبيل الحماية وحفظ الولاية بذل الاموال والارواح، وارتكاب كل صعب ، واقتحام كل خطر ؛ ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم في حال من الاحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم ، وبالغت الشريعة في طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حد لو عجز المسلم عن التماص من سلطة غيره، لوجبت عليه الهجرة من دار حربه — وهذه قواعد مثبتة في الشريعة الاسلامية يعرفها أهل الحق ، ولا يغير منها تأويلات أهل الاهواء وأعوان الشهوات في كل زمان .

المسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة ، وما يفرض عليه الايمان، وهو هاتف الحق الذي بقي له من إلهامات دينه، ومع كل هذا نرى أهل هذا الدين في هذه الايام بعضهم في غفلة عما يلم بالبعض الآخر ، ولا يألمون لما يألم له بعضهم ، فأهل بلوجستان كانوا يرون حركات الانكليز في أفغانستان على مواقع أنظارهم ، ولا يجيش لهم جاش ولا تكون لهم نعرة على اخوانهم ، والافغانيون كانوا يشهدون تداخل الانكليز في بلاد فارس ، ولا يضجرون ولا يتململون ، وإن جنود الانكليز تضرب في الاراضي المصرية ذهاباً وإياباً تقتل وتفتك ، ولا ترى نجدة في نفوس اخوانهم المشرفين على مجاري دمائهم ، بل السامعين لخريرها من حلاقيمهم، الذين احمرت أحداقهم من مشاهدها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم

تمسك المسلمين بتلك العقائد وإحساسهم بداعية الحق في نفوسهم مع هذه الحالة التي هم عليها مما يقضي بالعجب ويدعو إلى الحيرة ، ويسبق إلى بيان السبب فخذ مجملا منه : إن الافكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدركات والوجدانيات النفسية وإن كانت هي الباعثة على الاعمال وعن حكمها تصدر بتقدير العزيز العليم ، لكن الاعمال تثبتها وتقويها وتطبعها في الانفس وتطبع الانفس عليها حتى يصير مايعبر عنه بالملكة والخلق ، وتترتب عليه الآثار التي تلائمها .

نعم أن الانسان انسان بفكره وعقائده إلا أن ماينعكس الى مرايا عقله من

مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير ،فكل شهود يحدث فكراً وكل فكر يكون له أثر في داعية ، وعن كل داعية ينشأ عمل ، ثم يعود من العمل إلى الفكر ، ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الاعمال والافكار ، مادامت الارواح في الاجساد ،وكل قبيل هو للآخر عماد .

إن للاخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها فى الاعتصاب والالتحام لولا ماتبعث عليه الضرورات ، وتلجىء اليه الحاجات ، عن تعاون الانسباء والعصبة على نيل المنافع ، وتضافرهم على دفع المضار ، وبعد كرور الايام على المضافرة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذاً يصرفه فى آثارها بقية الاجل ويكون انبساط النفس لعون القريب ، وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جارياً مجرى الوجدانيات الطبيعية ، كالاحساس بالجوع والعطش والري والشبع ، بل اشتبه أمره على بعض الناظرين فعده طبيعياً . فلو أهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها ، ولم تدع ضرورات الحياة فى وقت من الاوقات إلى مايمكن تلك الصلة ويؤكدها ، أو وجد صاحب النسب من يظاهره فى غير نسبه أو ألجأته ضرورة الى ذلك ، ذهب أثر تلك الرابطة النسبية ، ولم يبق منها إلا صورة في العقل تجري مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات . وعلى مثال ماذكرنا في رابطة النسب وهي أقوى رابطة بين البشر يكون الأمر في سائر الاعتقادات التي لها أثر في الاجتماع الانساني من حيث ارتباط بعضه ببعض . اذا لم يصحب العقد الفكري ملجيء الضرورة أو قوة الداعية الى عمل تنطبع عليه الجارحة وتمرن عليه ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلا من أشكالها ، فلن يكون منشأ لآثاره ، وإنما يعد في الصور العلمية له رسم يلوح في الذاكرة عند الالتفات اليه كما قدمنا .

بعد تدبر هذه الاصول البينة ،والنظر فيها بعين الحكمة ،يظهر لك السبب في سكون المسلمين الى ماهم فيه مع شدتهم في دينهم ،والعلة في تباطؤهم عن نصرة اخوانهم وهم أثبت الناس فى عقائدهم ، فانه لم يبق من جامعة بين المسلمين فى الأغلب إلا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال ،وانقطع التعارف بينهم

وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل ، فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس اليها لا تواصل بينهم ولا تراسل ، فالعالم التركي في غيبة عن حال العالم الحجازي فضلا عمن يبعد عنهم ، والعالم الهندي في غفلة عن شؤون العالم الافغاني وهكذا ، بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ، ولا صلة بجمعهم إلا مايكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة بين أحدهم وآخر . أما في هيئتهم الكلية فلا وحدة لهم ، بل لا أنساب بينهم وكل ينظر الى نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسه .

كما كانت هذه الجفوة وذاك الهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين . أليس بعجيب أن لا تكون سفارة للعثمانيين في مراكش ولا لمراكش عند العثمانيين ؟ أليس بغريب أن لا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين في الشرق ؟

هذا التدابر والتقاطع وارسال الحبال على الغوارب عم المسلمين حتى صح أن يقال لا علاقة بين قوم منهم وقوم ولا بلد وبلد الا طفيف من الاحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم ، وربما يتعرفون مواقع أقطارهم بالصدفة إذا التقى بعضهم ببعض في موسم الحجيج العام وهذا النوع من الاحساس هو الداعي إلى الأسف وانقباض الصدر إذا شعر مسلم بضياع حق مسلم على يد أجنبي عن ملته ، لكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعاضدته . كانت الملة كجسم عظيم قوي البنية صحيح المزاج ، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه فتداعت للتناثر والانحلال وكاد كل جزء يكون على حدة وتضمحل هيئة الجسم .

بدا هذا الانحلال والضعف في روابط الملة الاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضي الله عنهم . كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة إلى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان ، ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت الى أقسام خلافة عباسية في بغداد ، وفاطمية في مصر والمغرب ، وأموية في أطراف

الأندلس . تفرقت بهذا كلمة الأمة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلافة الى وظيفة الملك ، فسقطت هيبتها من النفوس، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون اليه من وسائل القوة والشوكة ولا يرعون جانب الخلافة .

وزاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكيزخان وأولاده وتيمورلنك وأحفاده وإيقاعهم بالمسلمين قتلا واذلالا حتى أذهلوهم عن أنفسهم فتفرق الشمل بالكلية وانفصمت عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعاً، وانفرد كل بشأنه وانصرف الى مايليه، فتبدد الجمع الى آحاد، وافترق الناس فرقاً كل فرقة تتبع داعياً إما الى ملك أو مذهب، فضعفت آثار العقائد التي كانت تدعو الى الوحدة، وتبعث على اشتباك الوشيجة، وصار مافي العقول منها صوراً ذهنية تحويها مخازن الخيال وتلحظها الذاكرة عند عرض مافي خزائن النفس من المعلومات، ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر الى المسامع على طول من الزمان، وماهو الا نوع من الحزن على الفائت ، كما يكون على الاموات من الأقارب، لا يدعو الى حركة لتدارك النازلة ، ولا دفع الغائلة .

وكان من الواجب على العلماء قياماً بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لاحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو اليه الدين ، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبط الروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة في سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر ، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ في جميع انحاء الارض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون اليها في شؤون وحدتهم ويأخذون بأيدي العامة الى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر ، ويجمعوا أطراف الوشائج الى معقد واحد يكون مركزه في الأقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام ، حتى يتمكنوا بذلك شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان ، والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل وتطرق الاجانب للتداخل فيها

بما يحط من شأنها ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الافهام وصيانة الدين من البدع ،فان إحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف ، فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة ،وليس بخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الامة وعلو كلمتها واقتدارها على دفع ما يغشاها من النوازل

الا إنا نأسف غاية الأسف إذ لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين الى هذه الوسيلة هي أقرب الوسائل وإن التفت اليها في هذه الايام طائفة من أرباب الغيرة ،ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحمية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ويجمع شتيتهم، فقد دارستهم التجارب بيان لامزيد عليه، وماهو بالعسير عليهم أن يبثوا الدعاة الى من يبعد عنهم ، ويصالحوا بالأكف من هو على مقربة منهم ، ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وملتهم بفائدة أو مايخشى أن يمسها بضرر ، ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة ، والرمق باق والآمال مقبلة ، والى الله المصير

المقالة السادسة

التعصب (*)

(اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء)

لفظ شغل مناطق الناس خصوصاً في البلاد المشرقية تلوكه الالسن وترمي به الأفواه في المحافل والمجامع، حتى صار تكأة للمتكلمين، يلجأ اليه العيي في تهتهته، والذملقاني في تفيهقه (١) أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير فقلما تكون عبارة إلا

(*) نشرت في العدد السادس من جريدة العروة الوثقى في ٢٨ جمادي الآخرة سنة ١٣٠١

(١) التكأة بضم ففتح كهمزة ما يتوكأ عليه كالعصا والعيي الذي لا يبين فهو فعيل من العي وهو العجز عن الكلام والتهتهة ضرب من اللكنة ورجل ذملقاني سريع الكلام والتفيهق في المنطق التوسع والتنطع فيه

وهو فاتحتها أو حشوها أو خاتمتها، يعدون مسماه علة لكل بلاء، ومنبعاً لكل عناء، ويزعمونه حجاباً كثيفاً وسداً منيعاً بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح، ويجعلونه عنواناً على النقص وعلماً للرذائل. والمتسربلون بسرابيل الافرنج الذاهبون في تقليدهم مذاهب الخبط والخلط لا يميزون بين حق وباطل هم أحرص الناس على التشدق بهذا البدع الجديد، فتراهم في بيان مفاسد التعصب يهزون الرؤس ويعبثون باللحي ويبرمون السبال واذا رموا به شخصاً الحط من شأنه أردفوه للتوضيح بلفظ أفرنجي (فناتيك) فان عهدوا بشخص نوعا من المخالفة لمشربهم عدوه متعصباً، وهمزوا به وغمزوا ولمزوا، وإذا رأوه عبسوا وبسروا، وشمخوا بأنوفهم كبراً، وولوه دبراً، ونادوا عليه بالويل والثبور. ماذا سبق إلى أفهامهم من هذا اللفظ؟ وماذا اتصل بعقولهم من معناه حتى خالوه مبدأ لكل شناعة، ومصدراً لكل نقيصة؟ وهل لهم وقوف على شيء من حقيقته؟

التعصب قيام بالعصبية، والعصبية من المصادر النسبية، نسبة إلى العصبة، وهي قوم الرجل الذين يعززون قوته، ويدفعون عنه الضيم والعداء. فالتعصب وصف للنفس الانسانية، تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه، ووجوه الاتصال تابعة لأحكام النفس في معلوماتها ومعارفها

هذا الوصف هو الذي شكل الله به الشعوب، وأقام بناء الأمم وهو عقد الربط في كل أمة، بل هو المزاج الصحيح يوحد المتفرق منها تحت اسم واحد، وينشئها بتقدير الله خلقاً واحداً، كبدن تألف من أجزاء وعناصر، تدبره روح واحدة، فتكون كشخص يمتاز في أطواره وشؤونه وسعادته وشقائه عن سائر الأشخاص. وهذه الوحدة هي مبعث المباراة بين أمة وأمة، وقبيل وقبيل، ومباهاة كل من الأمتين المتغالبتين بما يتوفر لها من أسباب الرفاهة وهناء العيش، وما تجمعه قواها من وسائل العزة والمنعة، وسمو المقام ونفاذ الكلمة. والتنافس بين الأمم كالتنافس بين الاشخاص أعظم باعث على بلوغ أقصى درجات الكمال في جميع لوازم الحياة بقدر ما تسعه الطاقة

التعصب روح كلي مهبطه هيئة الأمة وصورتها، وسائر أرواح الأفراد

حواسه ومشاعره ، فاذا ألمّ بأحد المشاعر مالا يلائمه من أجنبي عنه انفعل الروح الكلي ، وجاشت طبيعته لدفعه ، فهو لهذا مثار الحمية العامة ، ومسعر النعرة الجنسية . هذا هو الذي يرفع نفوس آحاد الأمة عن معاطاة الدنايا وارتكاب الخيانات فيما يعود على الأمة بضرر ، أو يؤول بها الى سوء عاقبة ، وإن استقامة الطبع ورسوخ الفضيلة في أمة تكون على حسب درجة التعصب فيها والالتحام بين آحادها . يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم من بدن حي ، لا يجد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم ، ولا يرى القدمان في تطرفهما انحطاطا في رتبة الوجود وانما كل يؤدي وظائفه لحفظ البدن و بمائه ، وكلما ضعفت قوة الربط بين أفراد الأمة بضعف التعصب فيهم استرخت الأعصاب ، ورثت الأطناب ، ورقت الاوتار ، وتداعى بناء الامة الى الانحلال كما يتداعى بناء البنية البدنية الى الفناء ، بعد هذا يموت الروح الكلي ، وتبطل هيئة الأمة وان بقيت آحادها ، فما هي الا كالأجزاء المتناثرة ، إما أن تتصل بأبدان أخرى بحكم ضرورة الكون ، وإما أن تبقى في قبضة الموت إلى أن ينفخ فيها روح النشأة الاخرى (سنة الله في خلقه) إذا ضعفت العصبية في قوم رماهم الله بالفشل ، وغفل بعضهم عن بعض ، وأعقب الغفلة تقطع في الروابط ، وتبعه تقاطع وتدابر ، فيتسع للأجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم ، ولن تقوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بافاضة روح التعصب في نشأة ثانية

نعم إن التعصب وصف كسائر الأوصاف ، له حدّ اعتدال ، وطرفا إفراط وتفريط ، واعتداله هو الكمال الذي بينا مزاياه ، والتفريط فيه هو النقص الذي أشرنا لرزاياه ، والافراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء . فالمفرط في تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق ، ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة ، وينظر الى الأجنبي عنه كما ينظر الى الهمل ، لا يعترف له بحق ، ولا يراعي له ذمة ، فيخرج بذلك عن جادة العدل ، فتنقلب منفعة التعصب الى مضرة ويذهب بهاء الأمة ، بل يتقوّض مجدها ، فإن العدل قوام الاجتماع الانساني ، وبه حياة الأمم . وكل قوّة لاتخضع للعدل فمصيرها الى الزوال .

وهذا الحد من الافراط في التعصب هو الممقوت على لسان صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم في قوله « ليس منا من دعا إلى عصبية »

التعصب كما يطلق ويراد به النعرة على الجنس ، ومرجعها رابطة النسب والاجتماع في منبت واحد ، كذلك توسع أهل العرف فيه ، فأطلقوه على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضاً ، والمتنطعون من مقلدة الافرنج يخصون هذا النوع منه بالمقت ، ويرمونه بالتعس ، ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل . فان لحمة يصير بها المتفرقون الى وحدة ، تندفع عنها قوة لدفع الغائلات ، وكسب الكمالات، لايختلف شأنها اذا كان مرجعها الدين أو النسب . وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين في أقوام مختلفة من البشر ، وعن كل منهما صدرت في العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الانساني ، وليس يوجد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة القريب عن قريبه ، ومعاونته على حاجات معيشته ، وبين مايصدر من ذلك عن المتلاحمين بصلة المعتقد ورابطة المشرب . فتعصب المشتركين في الدين المتوافقين في أصول العقائد بعضهم لبعض ، اذا وقف عند الاعتدال ، ولم يدفع الى جور في المعاملة ، ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم أو نقض لذمته ، فهو فضيلة من أجل الفضائل الانسانية ، وأوفرها نفعاً وأجزلها فائدة ، بل هو أقدس رابطة وأعلاها ، اذا استحكمت صعدت بذوي المكنة فيها الى أوج السيادة وذروة المجد ، خصوصاً ان كانوا من قبيل قوي فيهم سلطان الدين ، واشتدت سطوته على الأهواء الجنسية حتى أشرف بها على الزوال كما في أهل الديانة الاسلامية . ولا يؤخذ علينا في القول بأنه من أقدس الروابط . فانه كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة ، ويصل مابينهم في المقاصد والعزائم والأعمال ، كذلك يمحو أثر المنابذة والمنافرة بين القبائل والعشائر ، بل الأجناس المتخالفة في المنابت واللغات والعادات ، بل المتباعدة في الصور والاشكال ، ويحول أهواءها المتضاربة الى قصد واحد ، وهو تأصيل المجد ، وتأييد الشرف ، وتخليد الذكر تحت الاسم الجامع لهم — هذا الاثر الجليل عهد لقوّة التعصب الديني ، وشهد عليه التاريخ بعد ما أرشد

اليه العقل الصحيح . وما كانت رابطة الجنس لتقوى على شيء منه

نفثغ جماعة من متزندقة هذه الأوقات في بيان مفاسد التعصب الديني . وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به اخوانهم من ضيم ، وتضافرهم لدفع ما يلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف ، هو الذي يصدهم عن السير الى كمال المدنية . ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة، ويرمي بهم في ظلمات الجهل ، ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم في دينهم . ومن رأي أولئك المثقفين أن لاسبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح الا بانحلال العصبية الدينية ومحو أثرها ، وتخليص العقول من سلطة العقائد . وكثيراً ما يرجفون بأهل الدين الاسلامي ، ويخوضون في نسبة مذام التعصب اليهم

كذب الخراصون،إن الدين أول معلم وأرشد أستاذ وأهدى قائد للأنفس الى اكتساب العلوم والتوسع في المعارف ، وأرحم مؤدب وأبصر مروض يطبع الارواح على الآداب الحسنة والخلائق الكريمة ، ويقيمها على جادة العدل ، وينبه فيها حاسة الشفقة والرحمة ،خصوصاً دين الاسلام . فهو الذي رفع أمة كانت من أعرق الأمم في التوحش والقسوة والخشونة ،وسما بها إلى أرقى مراقي الحكمة والمدنية في أقرب مدة ،وهي الامة العربية

قد يطرأ على التعصب الديني من التغالي والافراط مثل مايعرض على التعصب الجنسي فيفضي الى ظلم وجور ، بل ربما يؤدي الى قيام أهل الدين لابادة مخالفيهم ومحو وجودهم ، وكما قامت الامم الغربية اندفعت على بلادالشرق لمحض الفتك والابادة لا للفتح ولا للدعوة الى الدين في الحرب المائلة المعروفة بحرب الصليب ، وكما فعل الاسبانيوليون بمسلمي الاندلس ، وكما وقع قبل هذا وذاك في بداية ماحصلت الشوكة للدين المسيحي ، إن صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود في القدس وأحرقهم ،إلا أن هذا العارض لمخالفته لأصول الدين قلما تمتد له مدة ،ثم ترجع أرباب الدين الى أصوله القائمة على قواعد السلم والرحمة والعدل .

أما أهل الدين الاسلامي فمنهم طوائف شطت في تعصبها في الاجيال

الماضية إلا أنه لم يصل بهم الافراط الى حد يقصدون فيه الابادة واخلاء الارض من مخالفيهم في دينهم ، وما عهد ذلك في تاريخ المسلمين بعد ماتجاوزوا حدود جزيرة العرب ، ولنا الدليل الاقوم على ماتقول ،وهو وجود الملل المختلفة في ديارهم الى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم تسلطوا عليها وهم في عنفوان القوة وهي في وهن الضعف . نعم كان المسلمين ولع بتوسيع الممالك وامتداد الفتوحات وكانت لهم شدة على من يعارضهم في سلطانهم ،إلا أنهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الاديان ، ويرعون حق الذمة ، ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقه ويدفعون عنه غائلة العدوان . ومن العقائد الراسخة في نفوسهم (أن من رضي بذمتنا فله مالنا وعليه ماعلينا) ولم يعدلوا في معاملتهم لغيرهم عن أمر الله في قوله (ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين) اللهم إلا مالا تخلو عنه الطباع البشرية

ومن نشأة المسلمين الى اليوم لم يدفعوا أحداً من مخالفيهم عن التقدم الى مايستحقه من علو الرتبة وارتفاع المكانة ، ولقد سما في دول المسلمين على اختلافها الى المراتب العالية كثير من أرباب الاديان المختلفة . وكان ذلك في شبيبتها وكمال قوتها ، ولم يزل الأمر على ماكان . وفي الظن أن الأمم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل الى اليوم (فسحقاً لقوم يظنون أن المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفيهم من حقوقهم)

لم يسلك المسلمون من عهد قوتهم مسلك الالزام بدينهم والاجبار على قبوله مع شدة بأسهم في بدايات دولهم وتغلغلهم في افتتاح الاقطار ، واندفاع هممهم للبسطة في الملك والسلطة ، وانما كانت لهم دعوة يبلغونها ، فإن قبلت ، إلا استبدلوا بها رسما ماليا يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقه الاسلامي . هذا على خلاف متنصرة الرومانيين واليونانيين أيام شوكتهم الاولى ، فانهم ما كانوا يطأون أرضا إلا ويلزمون أهلها بخلع أديانهم ، والتطوق بدين أولئك المسلطين وهو الدين المسيحي كما فعلوا فى مصر وسورية ، بل وفي البلاد الافرنجية نفسها .

هذا فصل من الكلام ساق اليه البيان وفيه تبصرة لمن يتبصر ، وتذكرة لمن يتذكر ، ثم أعود بك الى سابق الحديث فيما كنا بصدده — هل لعاقل لم يصب برزيئة في عقله أن يعد الاعتدال من التعصب الديني نقيصة . وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسي إلا بما يكون به التعصب الديني أقدس وأطهر وأعم فائدة . لانخال عاقلا يرتاب في صحة ماقررناه ، فما لأولئك القوم يهذرون بمالا يدرون ؟ أي أصل من أصول العقل يستندون اليه في المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسي فقط ، واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل ، ويعبرون عنه بمحبة الوطن ؟ وأي قاعدة من قواعد العمران البشري يعتمدون عليها في التهاون بالتعصب الديني المعتدل وحسبانه نقيصة يجب الترفع عنها ؟

ثم إن الافرنج تأكد لديهم أن أقوى رابطة بين المسلمين انما هي الرابطة الدينية ، وأدركوا أن قوتهم لاتكون إلا بالعصبية الاعتقادية . ولأولئك الافرنج مطامع فى ديار المسلمين وأوطانهم، فتوجهت عنايتهم الى بث هذه الافكار الساقطة بين أرباب الديانة الاسلامية ، وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم حبالها ، لينقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوها شيعاً وأحزاباً ، فانهم علموا كما علمناء وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لايعرفون لهم جنسية إلا في دينهم واعتقادهم وتسنى للمفسدين نجاح في بعض الاقطار الاسلامية ، وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلا وتقليداً فساعدهم على التنفير من العصبية الدينية بعد مافقدوها ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس (الوطنية) التي يبالغون في تعظيمها واحترامها حمقاً منهم وسفاهة ، فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيء لنفسه مسكناً سواه فاضطر للاقامة بالعراء معرضاً لفواعل الجو وما تصول به على حياته

من هذا ماسلك الانكليز في الهند لما أحسوا بخيال السلطنة يطوف على أفكار المسلمين منهم لقرب عهدها بهم وفي دينهم مايبعثهم على الحركة الى استرداد ماسلب منهم ، وأرشدهم البحث في طبائع الملل الى أن حياة المسلمين قائمة على الوصلة الدينية . وما دام الاعتقاد المحمدي والعصبة الملية سائدة فيهم فلا تؤمن بعثتهم الى طلب حقوقهم فاستهووا طائفة ممن يتسمون بسمة الاسلام ،

ويلبسون لباس المسلمين ، وفي صدورهم غل ونفاق ، وفي قلوبهم زيغ وزندقة، وهم المعروفون في البلاد الهندية بالنيجرية أي الدهريين فاتخذهم الانكليز أعوانًا لهم على افساد عقائد المسلمين ، وتوهين علائق التعصب الديني ليطفئوا بذلك نار حميتهم ويخمدوا ثائرة غيرتهم ، ويبددوا جمعهم ، ويمزقوا شملهم ، وساعدوا تلك الطائفة على انشاء مدرسة كبيرة في (عليكر) ونشر جريدة لبث هذه الاباطيل بين الهنديين حتى يعم الضعف في العقائد ، وترث أطناب الصلات بين المسلمين فيستريح الانكليز في التسلط عليهم ، وتطمئن قلوبهم من جهتهم كما اطمأنت من جهة غيرهم ، وغر أولئك الغفل المتزندقين أن رجال دولة بريطانيا يظهرون لهم رعاية صورية ، ويدنونهم من بعض الوظائف الخسيسة — تعس من يبيع ملته بلقمة — وذمته برذال العيش (١)

هذا أسلوب من السياسة الاوربية أجادت الدول اختباره ، وجنت ثماره، فأخذت به الشرقيين لتنال مطامعها فيهم ، فكثير من تلك الدول نصبت الحبائل في البلاد العثمانية والمصرية وغيرهما من الممالك الاسلامية ، ولم تعدم صيداً من الامراء والمنتسبين الى العلم والمدنية الجديدة ، واستعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم ، وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام أن يميلوا مع هذه الاهواء الباطلة ولكنا نعجب من أن بعضا من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم في إيمانهم يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني ، ويهجرون في رمي المتعصبين بالخشونة ، والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم ، ويفسدون شأنهم ، ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المارقين . يطلبون محو التعصب المعتدل ، وفى محوه محو الملة ودفعها الى أيدي الاجانب يستعبدونها مادامت الارض أرضاً والسماء سماء . والله ماعجبنا من هؤلاء وهؤلاء بأشد من

«١» كان السيد جمال الدين الذي أملى هذا الكلام على الاستاذ المحرر، رحمهما الله ، سيء الظن بمدرسة عليكرة ومؤسسها ولاشك فى الانكليز كانوا يساعدونها لما ذكره ولكنها كانت نعمة على المسلمين وتخرج كثير من كبار الوطنيين الصادقين

العجب لأحوال الغربيين من الأمم الافرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الافكار بين الشرقيين ، ولا يخجلون من تبشيع التعصب الديني ورمي المتعصبين بالخشونة ، الافرنج أشد الناس في هـذا النوع من التعصب وأحرصهم على القيام بدواعيه . ومن القواعد الاساسية في حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم ، واذا عدت عادية مما لا يخلو عنه الاجتماع البشري على واحد ممن على دينهم ومذهبهم في ناحية من نواحي الشرق سمعت صياحاً وعويلا ، وهيعات ونبآت تتلاقي أمواجها في جو بلاد المدنية الغربية وينادي جميعهم : ألاقد ألمت ملمة ، وحدثت حادثة مهمة ، فأجمعوا الأمر وخذوا الاهبة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثلها ، حتى لا تتخدش الجامعة الدينية ، وتراهم على اختلافهم فى الاجناس ، وتباغضهم وتحاقدهم وتنابذهم في السياسات ، وترقب كل دولة منهم لعثرة الاخرى حتى توقع بها السوء ، يتقاربون ويتآلفون ويتحدون في توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاكلهم في الدين وإن كان فى أقصى قاصية من الارض ، ولو تقطعت بينه وبينهم الانساب الجنسية . أما لو فاض طوفان الفتن وطم وجه الارض وغمر وجه البسيطة من دماء المخالفين لهم في الدين والمذهب ، فلا ينبض فيهم عرق ، ولا يتنبه لهم احساس ، بل يتغافلون عنه ويذرونه وما يجرف حتى يأخذ مده الغاية من حده ، ويذهلون عما أودع في الفطر البشرية من الشفقة الانسانية والمرحمة الطبيعية ، كأنما يعدون الخارجين عن دينهم من الحيوانات السائمة والهمل الراعية . وليسوا من نوع الانسان الذي يزعم الأوربيون أنهم حماته وأنصاره . وليس هذا خاصاً بالمتدينين منهم ، بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين في تعصبهم الديني ، ولا يألون جهداً في تقوية عصبيتهم وليتهم يقفون عند الحق ، ولكن كثيراً ما تجاوزوه . أما ان شأن الافرنج في تمسكهم بالعصبية الدينية لغريب .

يبلغ الرجل منهم أعلى درجة في الحرية كغلادستون وأضرابه ، ثم لا تجد كلمة تصدر عنه إلا وفيها نفثة من روح بطرس الراهب(١) بل لا ترى روحه إلا

«١» هو داعية الحرب الصليبية وموقد نارها

نسخة من روحه (انظر الى كتب غلادستون وخطبه السابقة)

فياأيتها الامة المرحومة هذه حياتكم فاحفظوها ، ودماؤكم فلا تريقوها ، وأرواحكم فلا تزهقوها ، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت . هذه هي روابطكم الدينية لاتغرنكم الوساوس ، ولا تستهوينكم الترهات ، ولا تدهشنكم زخارف الباطل ، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم ، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها التركي بالعربي ، والفارسي بالهندي ، والمصري بالمغربي ، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية ،حتى إن الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر وإن تناءت دياره ، وتقاصت أقطاره

هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله اليكم ،وفيها عزتكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم ، فلا توهنوها ، ولكن عليكم فى رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل ، فالعدل أساس الكون وبه قوامه ، ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم ، وعليكم أن تتقوا الله وتلزموا أوامره في حفظ الذمم ومعرفة الحقوق لاربابها ، وحسن المعاملة وإحكام الالفة في المنافع الوطنية بينكم وبين أبناء أوطانكم وجيرانكم من أرباب الاديان المختلفة ، فان مصالحكم لاتقوم إلا بمصالحهم كما لاتقوم مصالحهم إلا بمصالحكم ، وعليكم أن لاتجعلوا عصبية الدين وسيلة للعدوان ،وذريعة لانتهاك الحقوق ، فان دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدكم عليه باشد العقاب . هذا ولا تجعلوا عصبيتكم قاصرة على مجرد ميل بعضكم لبعض ، بل تضافروا بها على مباراة الأمم في القوة والمنعة والشوكة والسلطان ، ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الانسانية . اجعلوا عصبيتكم سبيلا لتوحيد كلمتكم واجتماع شملكم ، وأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوة النقص الى ذروة الكمال (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان)

المقالة السابعة

القضاء والقدر (١)

مضت سنة الله في خلقه بأن للعقائد القلبية سلطانا على الاعمال البدنية، فما يكون في الاعمال من صلاح أو فساد، فانما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها على مابينا فى بعض الاعداد الماضية، ورب عقيدة واحدة تأخذ باطراف الافكار فيتبعها عقائد ومدركات أخرى، ثم تظهر على البدن باعمال تلائم أثرها في النفس ورب أصل من أصول الخير وقاعدة من قواعد الكمال اذا عرضت على الانفس في تعليم أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على السامع فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة فيعلق بها عند الاعتقاد شيء مما تصادفه، وفي كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها، وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ في الفهم، أو على خبث الاستعداد، فتنشأ عنها أعمال غير صالحة، وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد، ولا كيف يصرفه اعتقاده، والمغرور بالظواهر يظن أن تلك الاعمال انما نشأت عن الاعتقاد بذلك الاصل وتلك القاعدة. ومن مثل هذا الانحراف في الفهم وقع التحريف والتبديل في بعض أصول الاديان غالبا، بل هو علة البدع في كل دين على الاغلب. وكثيراً ماكان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الاعمال، حتى أفضى بمن ابتلاهم الله به الى الهلاك وبئس المصير. وهذا مايحمل بعض من لاخبرة لهم على الطعن في دين من الاديان، أو عقيدة من العقائد الحقة، استناداً الى أعمال بعض السذج المنتسبين الى الدين أو العقيدة.

من ذلك عقيدة القضاء والقدر التي تعد من أصول العقائد في الديانة

(١) نشرت في العدد السابع من جريدة العروة الوثقى بتاريخ ٤ رجب سنة ١٣٠١ أول مايو سنة ١٨٨٤

الاسلامية الحقة . كثر فيها لغط المغفلين من الافرنج وظنوا بها الظنون ، وزعموا أنها ما تمكنت من نفوس قوم إلا وسلبتهم الهمة والقوة ، وحكمت فيهم الضعف والضعة ، ورموا المسلمين بصفات ونسبوا اليهم أطواراً ، ثم حصروا علتها في الاعتقاد بالقدر فقالوا: أن المسلمين في فقر وفاقة وتأخر في القوى الحربية والسياسية عن سائر الأمم ، وقد فشا فيهم فساد الاخلاق فكثر الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتباغض ، وتفرقت كلمتهم وجهلوا أحوالهم الحاضرة والمستقبلة، وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم ، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ثم لاينافسون غيرهم في فضيلة ، ولكن متى أمكن لاحدهم أن يضر أخاه لايقصر في إلحاق الضرر به، فجعلوا بأسهم بينهم والأمم من ورائهم تبتلعهم لقمة بعد أخرى، رضوا بكل عارض، واستعدوا لقبول كل حادث، وركنوا الى السكون في كسور بيوتهم، يسرحون في مرعاهم، ثم يعودون الى مأواهم ، الامراء فيهم يقطعون أزمنتهم في اللهو واللعب ومعاطاة الشهوات، وعليهم فروض وواجبات تستغرق في أدائها أعمارهم ولا يؤدون منها شيئاً . يصرفون أموالهم فيما يقطعون به زمانهم اسرافا وتبذيراً . نفقاتهم واسعة ، ولكن لايدخل في حسابها شيء يعود على ملتهم بالمنفعة، يتخاذلون ويتنافرون ، وينوطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية ، فرب تنافر بين أميرين يضيع أمة كاملة . كل منهما يخذل صاحبه ، ويستعدي عليه جاره، فيجد الاجنبي فيها قوة فانية وضعفا قاتلا ، فينال من بلادهما مالا يكافئه عدداً ولا عدة . شملهم الخوف وعمهم الجبن والخور ، يفزعون من الهمس ، ويألمون من اللمس . قعدوا عن الحركة ، الى مايلحقون به الأمم في العزة والشوكة ، وخالفوا في ذلك أوامر دينهم ، مع رؤيتهم لجيرانهم بل الذين تحت سلطتهم يتقدمون عليهم ويباهونهم بما يكسبون ، واذا أصاب قوماً من اخوانهم مصيبة أو عدت عليهم عادية لايسعون في تخفيف مصابهم ، ولا ينبعثون لمناصرتهم ، ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لاجهرية ولا سرية ، يكون من مقاصدها إحياء الغيرة، وتنبيه الحمية ، ومساعدة الضعفاء ، وحفظ الحق من بغي الاقوياء وتسلط الغرباء .

هكذا نسبوا الى المسلمين هذه الصفات وتلك الاطوار ، وزعموا أن لامنشأ لها

إلا اعتقادهم بالقضاء والقدر ، وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الالهية ، وحكموا بأن المسلمين لو داموا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة ، ولن ينالوا عزاً ولن يعيدوا مجداً ، ولا يأخذون بحق ، ولا يدفعون تعدياً ، ولا ينهضون بتقوية سلطان أو تأييد ملك ، ولا يزال بهم الضعف يفعل في نفوسهم ، ويركس من طباعهم ، حتى يؤدي بهم الى الفناء والزوال (والعياذ بالله) يفني بعضهم بعضاً بالمنازعات الخاصة ، وما يسلم من أيدي بعضهم يحصده الاجانب .

واعتقد أولئك الافرنج انه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين : بأن الانسان مجبور محض في جميع أعماله . وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل . ومتى رسخ في نفوس قوم أنه لا اختيار لهم في قول ولا عمل ، ولا حركة ولا سكون ، وإنما جميع ذلك بقوة جابرة ، وقدرة قاسرة ، فلا ريب تتعطل قواهم ، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى ، وتمحى من خواطرهم داعية السعي والكسب . وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم .

هكذا ظنت طائفة من الافرنج ، وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول في المشرق . ولست أخشى أن أقول : كذب الظان ، وأخطأ الواهم ، وبطل الزاعم ، وافتروا على الله والمسلمين كذبا — لا يوجد مسلم في هذا الوقت من سني وشيعي واسماعيلي (١) وزيدي ووهابي وخارجي يرى مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة ، بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءاً اختياريا في أعمالهم ، ويسمى بالكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم ، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري ، ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الآلهية ، والنواهي الربانية ،

« ١ » عد الاسماعيلية من المسلمين سبق قلم بظهر وعد الوهابية فرقة تقابل باهل السنة جرى على المشهور عند العامة والذي عرفناه من الاستاذ أنه يعد الوهابيين سلفيين ودعاة إصلاح في الاسلام

الداعية الى كل خير ، الهادية الى كل فلاح ، وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعي ، وبه تتم الحكمة والعدل .

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت إلى أن الانسان مضطر في جميع أفعاله اضطراراً لا يشوبه اختيار ، وزعمت أن لا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ ، وبين أن يتحرك بقفقفة البرد عند شدته . ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة . وقد انقرض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة ، ولم يبق لهم أثر . وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ، ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع ، بل ترشد اليه الفطرة ، وسهل على من له فكر أن يلتفت إلى أن كل حادث له سبب يقارنه في الزمان ، وأنه لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ماهو حاضر لديه ، ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها ، وأن لكل منها مدخلا ظاهراً فيما بعده بتقدير العزيز العليم . وإرادة الانسان إنما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة ، وليست الارادة إلا أثراً من آثار الادراك ، والادراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس ، وشعورها بما أودع في الفطرة من الحاجات ، فللظواهر الكون من السلطة على الفكر والارادة مالا ينكره أبله ، فضلا عن عاقل . وأن مبدأ هذه الأسباب التي ترى في الظاهر مؤثرة إنما هو بيد مدبر الكون الأعظم الذي أبدع الأشياء على وفق حكمته ، وجعل كل حادث تابعاً لشبهه كأنه جزء له ، خصوصاً في العالم الانساني

ولو فرضنا أن جاهلا ضل عن الاعتراف بوجود إله صانع العالم ، فليس في إمكانه أن يتملص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية في الارادات البشرية ، فهل يستطيع إنسان أن يخرج بنفسه عن هذه السنّة التي سنّها الله في خلقه ؟ هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق فضلا عن الواصلين — وإن بعضاً من حكماء الافرنج وعلماء سياستهم التجؤوا إلى الخضوع لسلطة القضاء ، وأطالوا البيان في إثباتها . ولسنا في حاجة الى الاستشهاد بآرائهم

إن للتاريخ علماً فوق الرواية عني بالبحث فيه العلماء من كل أمة ، وهو العلم الباحث عن سير الأمم في صعودها وهبوطها ، وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها ، وما ينشأ عنها من التغيير والتبديل في العادات والأخلاق والافكار ، بل في خصائص الاحساس الباطن والوجدان ، وما يتبع ذلك كله من نشأة الأمم ، وتكون الدول ، أو فناء بعضها واندراس أثره

هذا الفن الذي عدّوه من أجل الفنون الأدبية وأجزلها فائدة بناء البحث فيه على الاعتقاد بالقضاء والقدر ، والاذعان بأن قوى البشر في قبضة مدبر الكائنات ، ومصرف للحادثات . ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ، ولا ضعف قوي ، ولا انهدم مجد ، ولا تقوض سلطان

الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والاقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة . ويبعث على اقتحام المهالك التي توجف لها قلوب الاسود ، وتنشق منها مرائر النمور . هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات ، واحتمال المكاره ، ومقارعة الأهوال ، ويحليها بحلي الجود والسخاء . ويدعوها الى الخروج من كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الأرواح ، والتخلي عن نضرة الحياة . كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذي يعتقد بأن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء . كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ، وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشييد المجد ، على حسب الأوامر الآلهية ، وأصول الاجتماعات البشرية .

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قوله الحق (الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم) اندفع المسلمون في أوائل نشأتهم الى المهالك

والأقطار يفتحونها، ويتسلطون عليها، فأدهشوا العقول وحيروا الألباب بما دوّخوا الدول وقهروا الأمم. وامتدت سلطتهم من جبال بيريني الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا الى جدار الصين، مع قلة عددهم وعددهم، وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة، وطبائع الأقطار المتنوّعة، أرغموا الملوك، وأذلوا القياصرة والأكاسرة في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة. ان هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات.

دمروا بلاداً، ودككوا أطواداً، ورفعوا فوق الأرض أرضاً ثانية من القسطل، وطبقة أخرى من النقع، وسحقوا رءوس الجبال تحت حوافرجيادهم، وأقاموا بدلها جبالا وتلالا من رؤوس النابذين لسلطانهم، وأرجفوا كل قلب، وأرعدوا كل فريضة وما كان قائدهم وسائقهم الى جميع هذا الا الاعتقاد بالقضاء والقدر

هذا الاعتقاد هو الذي ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها القضاء، ويضيق بها بسيط الغبراء، فكشفوهم عن مواقعهم، وردّوهم على أعقابهم

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق، وانقضت شهبها على الخيارى في هبوات الحروب من أهل المغرب، وهو الذي حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق في سبيل إعلاء كلمتهم، لايخشون فقراً ولا يخافون فاقة

هذا الاعتقاد هو الذي سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون في حجورهم الى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم، كأنما يسيرون الى الحدائق والرياض، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أمانا من كل غادرة، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة، وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم، وخدمتها فيما تحتاج اليه، لا يفترق النساء والأولاد عن الرجال والكهول الا بحمل السلاح، ولا تأخذ النساء رهبة، ولا تغشى الأولاد مهابة

هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم الى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ويبدد أفلاذ الاكباد، حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف به فيقلوب أعدائهم

فينهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم ، بل قبل أن تصل الى تخومهم أطراف جحافلهم

(بكائي على السالفين ونحيبي على السابقين، أين أنتم يا عصبة الرحمة وأولياء الشفقة أين أنتم يا أعلام المروة، وشوامخ القوة، أين أنتم يا آل النجدة، وغوث المضيم يوم الشدة؟ أين أنتم يا خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ؟ أين أنتم أيها الامجاد الانجاد القوامون بالقسط، الآخذون بالعدل، الناطقون بالحكمة ، المؤسسون لبناء الامة ؟ ألا تنظرون من خلال قبوركم الى ما أتاه خلفكم من بعدكم ، وما أصاب أبناءكم ، ومن ينتحل نحلتكم ! ! انحرفوا عن سنتكم ، وجاروا عن طريقكم ، فضلوا عن سبيلكم ، و تفرقوا فرقا وأشياعاً ، حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفاً ، وتحترق الأكباد حزناً ، أضحوا فريسة للامم الاجنبية لا يستطيعون ذوداً عن حوضهم ، ولا دفاعاً عن حوزتهم ، ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل ، ويوقظ النائم ، ويهدي الضال الى سواء السبيل؟ (انا لله وانا اليه راجعون)

أقول وربما لا أخشى واهما ينازعني فيما أقول : إنه من بداية تاريخ الاجتماع البشري الى اليوم ماوجد فاتح عظيم ، ولا محارب شهير ، نبت في أوسط الطبقات ، ثم رقي بهمته في أعلى الدرجات ، فذلت له الصعاب ، وخضعت الرقاب ، وبلغ من بسطة الملك ما يدعو الى العجب ، ويبعث الفكر لطلب السبب ، إلا كان معتقداً بالقضاء والقدر . سبحان الله ! ! الانسان حريص على حياته ، شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجبلة ، فما الذي يهون عليه اقتحام المخاطر وخوض المهالك ومصارعة المنايا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر ؟وركون قلبه إلى أن المقدر كائن ، ولا أثر لهول المظاهر؟

أثبتت لنا التواريخ أن كورش الفارسي (كيخسرو) وهو أول فاتح يعرف في تاريخ الأقدمين ما تسنى له الظفر في فتوحاته الواسعة ، إلا لأنه كان معتقداً بالقضاء والقدر ، فكان لهذا الاعتقاد لا يهوله هول ، ولا توهن عزيمته شدة . وأن الاسكندر الاكبر اليوناني كان ممن رسخ في نفوسهم هذه العقيدة الجليلة .

وجنكيز خان التتري صاحب الفتوحات المشهورة كان من أرباب هذا الاعتقاد، بل كان نابليون الأول بونابرت الفرنساوي من أشد الناس تمسكا بعقيدة القضاء، وهي التي كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيرة؛ فيتهيأ له الظفر، وينال بغيته من النصر.

فنعم الاعتقاد الذي يطهر النفوس الانسانية من رذيلة الجبن وهو أول عائق للمتدنس به عن بلوغ كماله في طبقته أيا كانت. نعم اننا لاننكر أن هذه العقيدة قد خالطها في نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر. وربما كان هذا سبباً في رزيئتهم ببعض المصائب التي أخذتهم بها في الأعصر الأخيرة. ورجاؤنا في الراسخين من علماء العصر أن يسعوا جهدهم في تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ماطرأ عليها من لواحق البدع، ويذكروا العامة بسنن السلف الصالح وما كانوا يعملون وينشروا بينهم ماأثبته أئمتنا رضي الله عنهم كالشيخ الغزالي وأمثاله من أن التوكل والركون إلى القضاء إنما طلبه الشرع منافي العمل، لافي البطالة والكسل وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا وننبذ ماأوجب علينا بحجة التوكل عليه، فتلك حجة المارقين عن الدين، الحائدين عن الصراط المستقيم، ولا يرتاب أحد من أهل الدين الاسلامي في أن الدفاع عن الملة في هذه الأوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف، وليس بين المسلمين وبين الالتفات الى عقائدهم الحقة التي تجمع كلمتهم، وترد اليهم عزيمتهم، وتنهض غيرتهم لاسترداد شأنهم الأول، إلا دعوة خير من علمائهم، وان جميع ذلك موكول إلى ذمتهم.

وأما ما زعموه في المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشؤه هذه العقيدة (ولاغيرها من العقائد الاسلامية) ونسبته اليها كنسبة النقيض إلى نقيضه بل أشبه مايكون بنسبة الحرارة إلى الثلج والبرودة الى النار.

نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر، وثمل من العزو الغلب وفاجأهم وهم على تلك الحال صدمتان قويتان، صدمة من طرف الشرق وهي غارة التتر من جنكيزخان وأحفاده، وصدمة من جهة الغرب وهي زحف الأمم الاوربية بأسرها على ديارهم، وان الصدمة في حال النشوة تذهب بالرأي، وتوجب الدهشة والسبات بحكم الطبيعة، وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة، ووسد الامر فيهم الى غير

أهله، وولي على أمورهم من لايحسن سياستها، فكان حكامهم وأمراؤهم من جراثيم الفساد في أخلاقهم وطباعهم، وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم، فتمكن الضعف من نفوسهم وقصرت أنظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيات التي لاتتجاوز لذته الانية، وأخذ كل منهم بناصية الاخر، يطلب له الضرر ويلتمس له السوء من كل باب، لا لعلة صحيحة ولا داع قوي وجعلوا هذا ثمرة الحياة، فآل الامر بهم الى الضعف والقنوط وأدى الى ماصاروا اليه.

ولكني أقول – وحق ما أقول – ان هذه الملة لن تموت مادامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم، ورسومها تلوح في أذهانهم، وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم، وكل ما عرض عليهم من الأمراض النفسية والاعتلال العقلي فلا بد أن تدفعه قوة العقائد الحقة، ويعود الأمر كما بدا وينشطوا من عقالهم، ويذهبوا مذاهب الحكمة والتبصر في انقاذ بلادهم، وارهاب الامم الطامعة فيهم، وايقافها عند حدها، وما ذلك ببعيد، والحوادث التاريخية تؤيده، فانظر الى العثمانيين الذين نهضوا بعد تلك الصدمات القوية (حروب التتر والحروب الصليبية) وساقوا الجيوش الى ارجاء العالم، واتسعت لهم ميادين الفتوحات، ودوخوا البلاد، وأرغموا أنوف الملوك، ودانت لسلطانهم الدول الافرنجية، حتى كان السلطان العثماني يلقب بين الدول بالسلطان الاكبر

ثم ارجع البصر تجد هزة فى نفوسهم، وحركة فى طباعهم، أحدثها فيهم ماتوعدتهم به الحوادث الأخيرة من رداءة العاقبة وسوء المنقلب. حركة سرت في أفكار ذوي البصيرة منهم في أغلب الانحاء شرقاً وغرباً، وتألفت من خيارهم عصبات للحق كتبت على نفسها نصرة العدل والشرع، والسعي بغاية الجهد لبث افكارها، وجمع الكلمة المفترقة، وضم الاشتات المتبددة، وجعلوا من أصغر أعمالهم نشر جريدة عربية، لتتصل بما يكتب فيها بين المتباعدين منهم وتنقل اليهم بعض مايضمره الاجانب لهم، وانا نرى عدد الجمعية الصالحة يزداد يوما بعد يوم، نسأل الله تعالى نجاح أعمالها، وتأييد مقصدها الحق، ورجاؤنا من كرمه أن يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقيين عموماً وللمسلمين خصوصاً.

المقالة الثامنة

الفضائل والرذائل وأثرها(*

(وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين)

قالوا للانسان كمال مفروض عليه أن يسعى اليه ، وقالوا انه عرضة لنقص يجب عليه الترفع عنه ، وقالوا كماله في استيفاء ماامكن من الفضائل، ونقصه في التلوث برذيلة من الرذائل، فما هي الفضائل وما هي الرذائل ؟ الفضائل سجايا للنفس من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها ، كالسخاء والعفة والحياء ونحوها ، فالسخيان لايتشاحان ولا يتنازعان في التعامل، فان من سجية كل منهما البذل في الحق، والمنع إذا اقتضاه الحق، فكل يعرف حده فيقف عنده ، فلا يوجد موضوع للنزاع عند معاطاة الأعمال المالية. والاعفاء لا يتزاحمون على مشتهى من المشتهيات، فان من خلق كل منهم التجافي عن الشهوة، وفي طبيعته الايثار بالرغائب، وهكذا إذا استقريت جميع ماعده علماء التهذيب من الصفات الفاضلة تجد أن من لوازم كل فضيلة منها التأليف بين المتصفين بها في متعلق الأثر الناشيء عن تلك الفضيلة، فاذا اجتمعت الفضائل أو غلبت في شخصين مالت نفوسهما إلى الاتحاد والالتئام في جميع الاعمال والمقاصد أو جلها، ودامت الوحدة بينهما بمقدار رسوخ الفضيلة فيهما وعلى هذا النحو يكون الأمر في الاشخاص الكثيرة ، فالفضائل هي مناط الوحدة بين الهيئة الاجتماعية، وعروة الاتحاد بين الآحاد، تميل بكل منهما إلى الآخر، وتجذب الآخر الى من يشاكله، حتى يكون الجمهور من الناس كواحد منهم، يتحرك بارادة واحدة ، ويطلب في حركته غاية واحدة

مجموع الفضائل هو العدل في جميع الأعمال، فاذا شمل طائفة من نوع الانسان

(*) نشرت في العدد الثامن من جريدة العروة الوثقى في ١٨ رجب سنة ١٣٠١ ١٥ مايو سنة ١٨٨٤

وقف بكل من آحادها عند حده في عمله ، لا يتجاوزه بما يمس حقا للآخر فبه يكون التكافؤ والتوازر

لكل شخص من أفراد الانسان وجود خاص به ، وأودعت فيه العناية الآلهية من القوى ما به يحفظ وجوده ، وما به التناسل لبقاء النوع ، وهو في هذا يساوي سائر أفراد الحيوان ، لكن قضت حكمة الله أن يكون الانسان ممتازاً عن بقية الأنواع الحيوانيـة بكون آخر ، ووجود أرقى وأعلى ، وهو كون الاجتماع، حتى يتألف من أفراده الكثيرة بنية واحدة يعمها اسم واحد، والافراد فيها كأعضاء تختلف في الوظائف والأشكال ، وإنمـا كل يؤدي عمله لبقاء البنية الجامعة وتقويتها وتوفير حظها من الوجود ليعود اليه نصيب من عملها الكلي ، كما أودع الله في أعضاء أبداننا وبنيتنا الشخصية . والفضائل في المجتمع الانساني كقوة الحياة المستكلة في كل عضو ما يقدره على أداء عمله مع الوقوف عنـد حد وظيفته كاليد بها البطش والتناول ، وليس من خصائصها الابصار ، والعين بها الابصار وتمييز الأشكال والألوان ، وليس من وظائفها البطش ، والكل حي بحياة واحدة ، وإن شئت قلت الفضائل في عالم الانسان كالجذبة العامة في العالم الكبير، فكما أن الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات ، وبالتوازن في الجاذبية ثبت كل كوكب في مركزه ، وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب الآخر وانتظم بها سيره في مداره الخاص بتقـدير العزيز العليم ، حتى تمت حكمة الله في وجود الأكوان وبقائها . كذلك شأن الفضائل في الاجتماع الانساني ، بها يحفظ الله الوجود الشخصي إلى الأجل المحدود ، ويثبت البقاء النوعي إلى أن يأتي أمر الله

أي أمة يكون الواضع فيها والرافع ، والحارس والوازع ، والجالب الدافع ، وجميع من يدبر أمورها، ويسوسها في شؤونها، إنما هم أفراد منها من هاماتها أو من لهازمها (من الأعلياء أو الأواسط ، بل سائر الأطراف) ويكون كل واحد منها قائمـا بحق الكل ، ولا يختار مقصداً يعكس مقصد الكل ، ولا يسعى إلى غاية تميـل به عن غاية الكل ، ولا يعمل عملا يتعلق بالأمة ، حتى يكون الجميع

كالبنيان المتين لاتزعزعه العواصف ، ولا تدكه الزلازل ، وبقوة كل منهم يجتمع للأمة قوة تحفظ بها موقعها ، وتدفع بها عن شرفها ومجدها ، وترد غارة الاغيار عليها، فهي الأمة التي سادت فيها الفضائل ، واستعلت فيها مكارم الاخلاق

إن أمة هذا شأنها لا يتخالف أفرادها إلا للتآلف ، ولا يتغايرون إلا للاتحاد ، فمثلهم في اختلاف أعمالهم كمثل المتدابرين على محيط دائرة يتفارقان في مبدأ السير ليتلاقيا على نقطة من المحيط ، ومثالهم في تغاير مآخذهم لجلب منافعهم كجاذبي طرف خيطة واحدة (حبل واحد) كل آخذ بطرف مع تعادل القوّتين ، ففي جذب أحدهما لصاحبه إبعاد لنفسه عنه من وجه ، وحفظ لمكان قربه منه من وجه آخر ، فلا يفترقان ولا يتباينان ، ولا تفنى منفعة أحدهما في منفعة الآخر . أما ان مسالك الأفراد من مثل هذه الأمة بما منحوه من الارتباط بينهم كانصاف دائرة مركزها حياة الأمة وعظمتها ، ولا يخرج ولا واحد منهم عن محيط الجنسية ، وانهم في جلب منافعها واستكمال فوائدها كالجداول تمد البحر لتستمد منه

يرى كل واحد منهم أن ماتبتهج به النفوس البشرية ، وتمتاز بالميل اليه عن سائر الحيوانات من رفعة المكانة والغلب وبسط الجاه ونفاذ الكلمة ، إنما يمكن نيله إذا توفر للأمة حظها من هذه المزايا ، فيسعى جهده لابلاغ كل واحد من الأمة أقصى ما يؤهله استعداده ليأخذ بسهم مما يناله ، فلا يهمل ولا يخون في الدفاع عن فرد من أفرادها ، فضلا عن هيئتها العامة ، وإلا فقد خان نفسه ، لأنه أبطل آلة من آلات عمله ، وقطع سبباً من أسباب غايته ، ولا يحتقر واحداً من الآحاد ، ولا يزدري بعمله ، ويحسب الشخص من الأمة وان كان صغيراً بمنزلة مسمار صغير في آلة كبيرة لو سقط منها تعطلت الآلة بسقوطه .

عليك أن تنظر في حقائق هذه الصفات الفاضلة لتحكم بما ينشأ عنها من الأثر الذي بيناه : التعقل والتروي وانطلاق الفكر من قيود الأوهام والعفة والسخاء والقناعة والدماثة (لين الجانب) والوقار والتواضع وعظم الهمة والصبر والحلم والشجاعة والايثار (تقديم الغير بالمنفعة على النفس) والنجدة والسماحة

والصدق والوفاء والأمانة وسلامة الصدر من الحقد والحسد والعفو والرفق والمروءة والحمية وحب العدالة والشفقة — ألا ترى لو عمت هذه الصفات الجليله أمة من الامم أو غلبت في أفرادها يكون بينها سوى الاتحاد والالتئام التام ؟ هل يوجد مثار للتنافر والخلاف بين عاقلين حرّين صادقين وفيين كريمين شجاعين رفيقين صابرين حليمين متواضعين وقورين عفيفين رحيمين ؟ أما والله لو نفخت نسمة من أرواح هذه الفضائل على أرض قوم وكانت مواتا لأحيتها، أو قفراً لأنبتتها ، أو جدبا لأمطرتها من غيث الرحمة ما يسبغ نعمة الله عليها ، ولأقامت لها من الوحدة سياجا لايخرق ، وحرزاً منيعاً لايهتك ، وإن أولى الأمم بأن تبلغ الكمال في هذه السجايا الشريفة أمة قال نبيهم « إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق »(١) الفضيلة حياة الأمم تصون أجسامها عن تداخل العناصر الغريبة ، وتحفظها من الانحلال المؤدي الى الزوال (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون)

وأما الرذائل فهي كيفيات خبيثة تعرض للأنفس ، من طبيعتها التحليل والتفريق بين النفوس المتكيفة بها ، كالقحة (قلة الحياء) والبذاء (التطاول على الأعراض بما لا تقتضيه الحشمة والادب من الكلام) والسفه والبله والطيش والتهوّر والجبن والدناءة والجزع والحقد والحسد والكبرياء والعجب واللجاج والسخرية والغدر والخيانة والكذب والنفاق ، فأي صفة من هذه الصفات تلوث بها نفسان ألقت بينهما العداوة والبغضاء ، وذهبت بهما مذاهب الخلاف الى حيث لايبقى أمل فى الوفاق . فان طبيعة كل واحدة منها إما مجاوزة الحدود في التعدي على الحقوق ، وإما السقوط الى مالا يمكن معه للشخص أداء الواجب عليه لمن يشاركه في الجنسية أو الملية أو القبيلة أو العشيرة ، أو بأي نوع من أنواع

«١» هذا الحديث ذكره الامام مالك في الموطا بلاغا عن النبي «ص» وقال الحافظ ابن عبد البر هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره مرفوعا . وذكره السيوطي في جامعه بلفظ «صالح الاخلاق» وعزاه الى ابن سعد والادب المفرد للبخاري والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة وعلم عليه بالصحة

التعامل ، والانسان مجبول بالطبع على النفرة ممن يتعـدى على حقوقه أو يمنعه حقا منها ، وإن شئت فتخيل وقحين بذيئين سفيهين جبانين بخيلين (كل يمنع الآخر حقه) شرهين حاقدين حاسدين متكبرين (كل لا يستحس الا فعل نفسه) لجوجين خائنين غادرين كاذبين منافقين هـل يمكن أن يجمعهما مقصد أو توحد بينهما غاية ؟ أليس كل وصف على حدته قاضياً بانتباذ كل من صاحبه وإن لم تكن داعية ، وكفى بخلقه وصفته باعثاً قويا للتنابذ

هذه الرذائل اذا فشت في أمة نقضت بناءها ونثرت أعضاءها ، وبددتها شذر مذر . واستدعت بعد ذلك طبيعـة الوجود الاجتماعي أن تسطو على هذه الامة قوة أجنبيـة عنها لتأخذها بالقهر، وتصرفها فى أعمال الحياة بالقسر . فان حاجاتهم في المعيشة طالبة للاجتماع ، وهو لايمكن مع هذه الأوصاف ، ولا بدّ من قوّة خارجة تحفظ صورة الاجتماع الى حد الضرورة .

هذه صفات اذا رسخت في نفوس قوم صار بأسهم بينهم شديداً تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، تراهم أعزة بعضهم على بعض، أذلة للأجنبي عنهم ، يدعون أعداءهم للسيادة عليهم ، ويفتخرون بالانتماء اليهم ، يمهدون السبل للغالبين الى النكاية بهم ، ويمكنون مخالب المغتالين من أحشائهم ، ويرون كل حسن من أبناء جنسـهم قبيحاً ، وكل جليل منهم حقيراً ، اذا نطق أجنبي بما يدور على ألسنة صبيانهم عدّوه من جوامع الكلم ونفائس الحكم ، واذا غاص أحـدهم بحر الوجود واستخرج لهم درر الحقائق وكشفت لهم دقائق الاسرار عدّوه من سقط المتاع وقالوا بلسان حالهم أو مقالهـم : ليس في الامكان أن يكون منا عارف ، ومن المحال أن يوجد بيننا خبير ، ويغلب عليهـم حب الفخفخة والفخر الـكاذب ، ويتنافسون في سفاسف الامور ودنياتها ، يرتابون في نصح الناصحين ، وان قامت على صدقهم أقطع البراهين ، يسخرون بالواعظين ، وان كانوا في طلب خيرهم من أخلص المخلصين، يبذلون جهدهم لخيبة من يسعى لاعلاء شأنهم وجمع كلمتهم ويقعدون له بكل سبيل ، يقيمون في طريقه العقبات ، ويهيئون له أسباب العثار، تراهم بتضارب أخلاقهم وتعاكس أطوارهم كالبدن المصاب بالفالج ، لاتنتظم

لأعضائه حركة ، ولا يمكن تحريك عضو منه على وجه مخصوص لقصد معلوم ، فتنفلت أعمالهم عن حد الضبط ، وتخرج عن قواعد الربط ، فساد طباعهم بهذه الأخلاق يجعلهم منبعاً ومبعثاً للشر ، يصير الواحد منهم كالكلب الكلب ، أول ما يبدأ بعض صاحبه قبل الأجنبي، بل كالمبتلي بجنون مطبق، أول مايفتك بمربيه ومهذبه ، ثم يثني بطبيبه ومعالج دائه ، تكون الآحاد منهم كالأمراض الأكالة من نحو الجذام والآكلة ، يمزقون الامة قطعاً وجذاذات بعد مايشوهون وجهها ويشوّشون هيئتها ، أولئك قوم يساموون في مراعي الدنايا والخسائس لتغلب النذالة على سائر أوصافهم ، فينتفخون على أبناء جلدتهم ويذلون لقزم الأجانب فضلا عن عليتهم ، وبهذا يمكنون الذلة في نفوسهم لمن دونهم ، ويطبعونها على الخضوع للغرباء ، بل الاعداء الألداء ، من طبقة الى طبقة حتى تضمحل الأمة وتنسخ هيئتها وتفنى في أمة أو ملة أخرى ، سنة الله في تبدل الدول وفناء الأمم ، (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) أعاذنا الله من هذه العاقبة، وحرس أمتنا وملتنا من المصير الى هذه النهاية .

بقيت لنا لمحة نظر الى مابه تقتنى الفضائل ، وتمحص النفوس من الرذائل، حتى تسعد الجمعيات البشرية بالاتحاد، وتصون به أكوانها من الفساد « كل مولود يولد على الفطرة » مادة مستعدة لقبول كل شكل والتلون بأي لون ، فهل ينال كال الفضيلة من آبائه وأسلافه ؟ أنى يكون لهم حظ منها . وقد كانوا ناشئين على مثل ما نشأ عليه وليدهم؟

يرشدنا رائد الحق الى أن الاعتدال في أصول الأخلاق والتحلي بحلية الفضائل وترويض القوى والآلات البدنية على العمل بآثارها انما يكون بالدين ، ولن يتم أثر الدين في نفوس الآخذين به فيصيبوا حظاً وافراً مما يرشد اليه فيتمتعوا بحياة طيبة وعيشة مرضية إلا اذا قام رؤساء الدين وحملته وحفظته بأداء وظائفهم من تبيين أوامره ونواهيه وتثبيتها في العقول ودعوة الناس الى العمل بها ، وتنبيه الغافلين عن رعايتها ، وتذكير الساهين عن هديها. أما اذا أهمل خدمة الدين وظائفهم أو تهاونوا في تأدية أعمالها ضعف اليقين في

النفوس ، وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية ، وأظلمت البصائر بالغفلة وتحكمت الشهوات البهيمية ، وتسلطت الحاجات المعاشية ، ومال ميزان الاختيار مع الهوى ، فحشدت الى الانفس أوفاد الرذائل ، فيحق على الناس كلمة العذاب ويحل بهم من الشقاء ماأشرنا اليه سابقا .

هذه علل الخراب في كل أمة ولقد ظهر أثرها في أمم لاتحصى عدداً من بداية كون الانسان الى الآن ، ولم يزل بقايا بعضها يشهد على مافتكت به الرذائل فيهم بعد مابدلوا وغيروا كما في طائفة الدهيرو (منك) من سكنة الأقطار الهندية المعروفين عند الأوربيين بطائفة « ياريا » (قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم) . فالدين هو السائق الى السعادة في الدنيا كما يسوق اليها في الآخرة .

تقلب قلب الدهر على بعض طوائف من المسلمين في أقطار مختلفة من الأرض ، وسلبهم تيجان عزهم وألقاها على هامات قوم آخرين ، واليوم ينازع طوائف أخرى ولا نخاله يتغلب عليهم ، فكشف هذا عن نوع من الضعف ، ولا يكون ناشئاً إلا عن شيء من الاهمال في اتباع أوامر الشرع الاسلامي ونواهيه بحكم قول الله في كتابه (إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم) وقد يكون ذلك ، وربما لاينكر الآن أن كثيراً من عامة المسلمين وإن صحت عقائدهم من حيث ماتعلق به الاعتقاد إلا أنهم لاينهجون في بعض أعمالهم منهاج الشريعة الغراء . وهذا مما يحدث ضعفاً في قوة الأمة بقدر الميل عن جادة الاعتدال في الفضائل والأعمال (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم .)

إلا أن المسلمين لم يزالوا على أصول الفضائل الموروثة عن أسلافهم ، ولهم حسن الاذعان لما جاء به شرعهم ، وكتاب الله متلو على ألسنتهم ، وسنة نبيهم يتناقلونها رواية ودراية ، وسير الخلفاء الراشدين والسلف الصالح مرسومة على صفحات نفوس الخاصة منهم ، فليس ماطرأ على بعضهم من الغفلة عن متابعة الشرع وما تسبب عنه من الضعف في القوة إلا عرضاً لايبقى وحالا لايدوم .

انظر نظرة انصاف الى ماأودعته آيات القرآن من غرر الفضائل وكرائم

الشيم ، والى حرص المسلمين على احترام كتابهم وتبجيله، تجد من نفسك حكماً باتاً بأن علماء الديانة الاسلامية لو نشطوا لأداء وظائفهم المفروضة عليهم بحكم وراثتهم لصاحب الشرع، والمحتومة على ذمتهم بأمر الله الموجه الى الذين يعقلونه وهم هم في قوله الحق (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وبالحض الالهي المفهوم من قوله (فلولا نفر من كل فرقة منهم « المؤمنين » طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) ولو قاموا يعظون العامة بما ينطق به القرآن ويذكرونهم بما كان عليه صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الناهجون على سنته من الاخلاق المحمودة والاعمال المبرورة ، لرأيت الامة الاسلامية ناشطة من عقالها ، متضافرة على إعادة مجدها وصيانة ولايتها العامة من الضعف ، وبيضة دينها من الصدع ، كل ذلك في أقرب وقت ، ولن تكون إلا صيحة واحدة فاذا هم قيام ينظرون .

ولا ريب أن الراسخين في العلم من أهل الدين الاسلامي يعلمون أن ما أصيب به المسلمون في هذه الازمان الاخيرة ، إنما هو مما امتحنهم الله به جزاء على بعض ما فرطوا ، وليس للناس على الله حجة ، فالرجاء في هممهم وغيرتهم الدينية وحميتهم الملية أن يوجهوا العناية إلى رتق الفتق قبل اتساعه ، ومداواة العلة قبل استحكامها، فيذكروا أبناء الملة بأحكام الله ، ويحكموا بينهم روابط الاخوة والالفة كما أمر الله في كتابه وعلى لسان نبيه، ويبذلوا الجهد لمحو اليأس والقنوط الذي ملك أفئدة البعض منهم ، ويقنعوهم بأنه لا ييأس من لطف الله إلا الذين فى قلوبهم مرض وفى عقائدهم زيغ ، ويسيروا بهم في سبيل يجمع كلمتهم ، ويوحد وجهتهم ، ويقوي فيهم إباءة الضيم والنفرة من الذل ، ويحرك فيهم روح الانفة ، حتى لا تسمح نفس أحدهم أن يأتي الدنية في دينه، ويكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعده الحق في قوله : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

المقالة التاسعة

الوحدة الاسلامية (*

(وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)

أظلت ولاية الاسلام مابين نقطة الغرب الاقصى الى تونكاني على حدود الصين في عرض ما بين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء. أقطار متصلة، وديار متجاورة، يسكنها المسلمون، وكان لهم فيها السلطان الذي لايغالب. أخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام، فأداروا بشوكتهم كرة الارض إلا قليلا. ما كان يهزم لهم جيش، ولا ينكس لهم علم، ولا يرد قول على قائلهم. قلاعهم وصياصيهم متلاقية، ومنابتهم ومغارسهم في سهوبهم (أراضيهم السهلة الواسعة) وأخيافهم (الاراضي المنحدرة عن الجبل) رابية مزدهية بانواع النبات، حالية بأصناف الاشجار، صنع أيدي المسلمين، ومدنهم كانت آهلة مؤسسة على أمتن قواعد العمران، تباهي مدن العالم بصنائع سكانها وبدائعهم وتفاخرها، بشموس الفضل، وبدور العلم، ونجوم الهداية، من رجال كان لهم المكان الاعلى في العلوم والآداب.

كان في نقطة الشرق من حكمائهم مثل ابن سينا والفارابي والرازي ومن يشاكلهم. وفي الغرب ابن باجه وابن رشد وابن الطفيل ومماثلوهم، وما بين ذلك أمصار تتزاحم فيها أقدام العلماء في الحكمة والطب والهيئة والهندسة وسائر العلوم العقلية، هذا فضلا عن العلوم الشرعية التي كانت عامة في جميع طبقات الملة. كان خليفتهم العباسي ينطق بالكلمة فيخضع لها فغفور الصين (١) وترتعد منها فرائص أعظم الملوك في أوربا. ومن ملوكهم في قرونهم المتوسطة

---

*) نشرت فى العدد التاسع من العروة الوثقى الذي صدر فى ٢٥ رجب سنة ١٣٠١ — ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤ فى بيان مفاسد أمراء المسلمين وفي دعوتهم الى الوحدة

(١) كلمة فغفور بوزن عصفور لقب ملوك الصين ككسرى وقيصر لملوك الفرس والروم

مثل محمود الغزنوي وملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الايوبي ، وكان منهم في المشرق مثل تيمور الكوركان ، وفي الغرب مثل السلطان محمد الفاتح ، والسلطان سليم ، والسلطان سليمان العثماني ، أولئك رجال قضوا ولم يطو الزمان ذكرهم ولم يمح أثرهم .

كانت لأساطيل المسلمين سلطة لاتبارى في البحر الابيض والأحمر والمحيط الهندي ولها الكلمة العليا في تلك البلاد إلى زمن غير بعيد . كان مخالفوهم يدينون للملكوت فضلهم كما يذلون لسلطان غلبهم . والمسلمون اليوم هم هم يملؤن تلك الاقطار التي ورثوها عن آبائهم وعديدهم لاينقص عن مثتي مليون (*) وأفرادهم في كل قطر بما أشربت قلوبهم من عقائد دينهم أشجع وأسرع إقداماً على الموت ممن يجاورهم، وهم بذلك أشد الناس ازدراء بالحياة الدنيا، وأقلهم مبالاة بزخرفها الباطل، جاءهم القرآن بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم، ويعيب الأخذ بالظنون والتمسك بالأوهام، ويدعو إلى الفضائل وعقائل الصفات، وأودع في أفكارهم جراثيم الحق وبذر في نفوسهم بذور الفضل، فهم بأصول دينهم أنور عقلا وأنبه ذهناً وأشد استعداداً لنيل الكمالات الانسانية، وأقرب إلى الاستقامة في الاخلاق، وبما يرون لأنفسهم من الاختصاص بالشرف ، وما وعدوا به على لسان كتابهم الصادق من اظهار شأنهم على شؤون العالم أجمع ولو كره المبطلون، لايرغبون بسلطة لغيرهم عليهم: ولا يحوم بفكر واحد منهم ان يخضع لذي سطوة من سواهم وان بلغت من الشدة واللين مابلغت . ولما بينهم من الاخاء المؤزر بمناطق العقائد، يحسب كل واحد منهم ان سقوط طائفة من بني ملته تحت سلطة الاجانب سقوط لنفسه ، ذلك احساس يشعر به وجدانه ولا يجد عنه مسليا ، وبما ساخ (غاص ورسب) فى نفوسهم من جذور المعارف التي أرشدهم اليها دينهم، ونالوا منها النصيب الأعلى في عنفوان دولتهم يعدون أنفسهم أولى الناس بالعلم وأجدرهم بالفضل

ذلك شأنهم الأول وهذا وصفهم للآن، ولكنهم مع هذا كله وقفوا في صيرهم، بل تأخروا عن غيرهم في المعارف والصنائع ، بعد ان كانوا فيها أساتذة

(*) هذا بحسب الاحصاء لذلك العهد وقد تبين أخيراً انهم ٣٠٠ مليون أو يزيدون

العالم وأخذت ممالكهم تنقص من أطرافها وتتمزق حواشيها مع ان دينهم يرسم عليهم أن لايدينوا لسلطة من يخالفهم بل الركن الاعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبي عنهم وكشفها عن ديارهم بل منازعة كل ذي شوكة في شوكته (١) هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الارض وهم العباد الصالحون ؟ هل غفلوا عن تكفل الله لهم باظهار شأنهم على سائر الشؤون ولو كره المجرمون ؟ هل سهوا عن ان الله اشترى منهم لاعلاء كلمته أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؟ لا لا . ان العقائد الاسلامية مالكة لقلوب المسلمين، حاكمة في اراداتهم، وسواء في العقائد الدينية والفضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم . نعم يوجد للتقصير في إنماء العلوم وللضعف في القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك فيهم، لأنا بينا ان لاجنسية للمسلمين الا في دينهم ، فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة ، والسلاطين في جنس واحد، مع تباين الاغراض وتعارض الغايات، فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم خصمه، وألهوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض، فأدت هذه المغالبات وهي أشبه شيء بالمنازعات الداخلية إلى الذهول عما نالوا من العلوم والصنائع ، فضلا عن التقصير في طلب ما لم ينالوا منها ، والاغسار دون الترقي في عواليها ، ونشأ من هذا مانراه من الفاقة والاحتياج، وعقبه الضعف في القوة والخلل في النظام ، وجلب تنازع الامراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا، فلهوا بأنفسهم عن تعرض الاجانب بالعدوان عليهم

هذا كان من أمراء المسلمين مع ما فيه من الضرر الفادح عند ما كانوا منفردين في ميادين الوغي، لايجاريهم فيها سواهم من الملل، ولكن ضرب الفساد في نفوس أولئك الامراء بمرور الزمان، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل فانقلبوا مع الهوى، وضلت عنهم غايات المجد المؤثل، وقنعوا بألقاب الامارة وأسماء السلطنة

---

١) جامع الكتاب : كل أمة وكل دولة تتمنى لو يكون العالم كله تابعا لها في جنسيتها ودينها اوحكمها ولكن الاوربيين ينقمون علينا هذا الاعتقاد الذي لا نعمل بمقتضاه وهم يعملون ويسمونه منا تعصبا وما التعصب المذموم الا هضم حقوق المخالف في الدين وايذاؤه لانه مخالف أو اكراهه على ترك دينه وكل هذا يحظره الاسلام ويذمه

وما يتبع هذه الاسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان، واختاروا موالاة الأجنبي عنهم المخالف لهم في الدين والجنس، ولجؤا للاستنصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم، استبقاء لهذا الشبح البالي والنعيم الزائل

هذا الذي أباد مسلمي الاندلس، وهدم أركان السلطنة التيمورية في الهند ومحا أطلالها، وعلى رسومها شيد الانكليز ملكهم بتلك الديار. هكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالممالك الاسلامية، ودهورتها أمانيهم الكاذبة في مهاوي الضعف والوهن، قبح ماصنعوا وبئس ما كانوا يعملون. أولئك اللاهون بلذاتهم، العاكفون على شهواتهم، الذين بددوا شمل الملة، وأضاعوا شأنها، وأوقفوا مسير العلوم فيها، وأوجبوا الفترة في الأعمال النافعة، من صناعة وتجارة وزراعة، بما غلوا من أيدي بنيها.

ألا قاتل الله الحرص على الدنيا والتهالك على الخسائس ما أشد ضررهما وما أسوأ أثرهما نبذوا كلام الله خلف ظهورهم، وجحدوا فرضاً من أعظم فروضه، فاختلفوا والعدوّ على أبوابهم، وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا في الكلمة الجامعة، حتى يدفعوا غارة الأباعد عنهم، ثم لهم أن يعودوا لشؤونهم. ماذا أفادتهم المغالاة في الطمع والمنافسة في السفاسف؟ أفادتهم حسرة دائمة في الحياة، وشقاء أبديا بعد الممات، وسوء ذكر لاتمحوه الأيام.

أما وعزة الحق وسر العدل، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم، لتعارفت أرواحهم، وائتلفت آحادهم، ولكن واأسفا تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة في لقب أمير أو ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهي. هؤلاء الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم، حتى تناكرت الوجوه، وتباينت الرغائب الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية الاسلامية، من أشد أركان الديانة المحمدية والاعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين، لايحتاجون فيه إلى أستاذ يعلم، ولا كتاب يثبت، ولا رسائل تنشر.

ان رعاة المسلمين فضلا عن علاهم تتصاعد زفراتهم وتفيض أعينهم من الدمع حزناً وبكاء على ما أصاب ملتهم من تفرق الآراء، وتضارب الاهواء، ولولا

وجود الغواة من الأمراء ذوي المطامع في السلطة بينهم لاجتمع شرقيهم بغربيهم ، وشماليهم بجنوبيهم ، ولبى جميعهم نداء واحدا . ان المسلمين لايحتاجون في صيانة حقوقهم إلا الى تنبه أفكارهم لمعرفة مابه يكون الدفاع واتفاق آرائهم على القيام به عند لزومه وارتباط قلوبهم الناشىء عن إحساس بما يطرأ على الملة من الاخطار . ألم تر أمة الروس هل تجد فيها مايزيد على هذه الاصول الثلاثة ؟ هي أمة متأخرة في الفنون والصنائع عن سائر أمم أوربا ، وليس في ممالكها ينابيع للثروة ، ولئن كانت فليس هناك مايستفيضها من الاعمال الصناعية ، فهي مصابة بالحاجة والاعواز ، غير أن تنبه أفكار آحادها لما به يكون الدفاع عن أمتهم واتفاقهم في النهوض به وارتباط قلوبهم صير لها دولة تميد لسطوتها رواسي أوربا . لم يكن للروسيا مصانع لمعظم الآلات الحربية ، ولكن لم يمنعها ذلك عن اقتنائها ، ولم يرتق فيها الفن العسكري الى حد ماعليه جيرانها ، إلا أن هذا لم يقعدها عن جلب ضباط من الأمم الاخرى لتعليم عساكرها ، حتى صار لجيشها صولة تخيف وحملة تخشاها دول أوربا

فما الذي أقعدنا عن مشاكلة غيرنا فيما هو أيسر الأشياء علينا ونحن أشد الناس ميلا اليه : من رعاية شرف الملة والتألم بما يحط منه والتعاون على صون الوحدة الجامعة لنا عن كل ما يثلمها ؟ ما رد الافكار عن الحركة ، وما أقعد الهمم عن النهوض ، إلا أولئك المترفون ، يحرصون على طيب في المطعم ، ولين في المضجع ، وتطاول في البنيان ، وتفاخر بالخدم والخول ، ولا يراعون في حرصهم مابعد يومهم ، ويحافظون على لقب موضوع ، ورسم متبوع ، يقنعون منه بالاحتفال لهم في المواسم والأعياد ، وهز الرءوس وثني الأعطاف ، تعظيما وتبجيلا ، ثم تذييل الأوراق الرسمية بأسماء ليس لها مسميات . هؤلاء الساقطون يرضون لتخيل هذه المواثل (جمع ماثل من الرسوم ما ذهب أثره) بكل دنيئة ، هؤلاء يقبلون من تصرف أعدائهم في بيوتهم مالا يقبله واحد من آحاد الناس دون مونه ، أولئك صاروا في أعناق المسلمين سلاسل وأغلالا ، يحبسون هذه الأسود عن فريستها ، بل يجعلونها طعمة للثعالب ، لا حول ولا قوة إلا بالله

أيا بقية الرجال ، ويا خلف الأبطال ، ويا نسل الأقيال! هل ولى بكم الزمان ؟ هل مضى وقت التدارك ؟ هل آن أوان اليأس ؟ لا . لا . معاذ الله أن ينقطع أمل الزمان منكم . إن من أدرنه إلى بيشاور دولا إسلامية ، متصلة الأراضي ، متحدة العقيدة ، يجمعهم القرآن ، لا ينقص عددهم عن خمسين مليونا ، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة . أليس لهم أن يتفقوا على الذب والاقدام كما اتفق عليه سائر الأمم ؟ ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم ، فالاتفاق من أصول دينهم . هل أصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم لبعض ؟ أليس لكل واحد منهم أن ينظر الى أخيه بما حكم الله في قوله (إنما المؤمنون إخوة) فيقيمون بالوحدة سداً يحول عنهم هذه السيول المندفعة عليهم من جميع الجوانب

لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ، فان هذا ربما كان عسيراً ، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فان حياته بحياته ، وبقاءه ببقائه . ألا أن هذا بعد كونه أساساً لدينهم تقضي به الضرورة ، وتحكم به الحاجة في هذه الاوقات ،

هذا آن الاتفاق . هذا آن الاتفاق . ألا أن الزمان يواسيكم بالفرص وهي لكم غنائم فلا تفرطوا . إن البكاء لا يحيي الميت . إن الأسف لا يرد الفائت . إن الحزن لا يدفع المصيبة . إن العمل مفتاح النجاح . إن الصدق والاخلاص سلم الفلاح . إن الوجل يقرب الاجل . إن اليأس وضعف الهمة من أسباب الحتف (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون * ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) ألا لا تكونوا ممن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . احذروا أن تقعوا تحت قول الله (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون) إن القرآن حي لا يموت ، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود ، ومن أصيب بسهم من مقته

فهو ممقوت . كتاب الله لم ينسخ فارجعوا اليه ، وحكموه في أحوالكم وطباعكم (وما الله بغافل عما تعملون)

ولعل أمراء المسلمين ، قد وعظوا بسوء مغبة أعمال السالفين ، وهموا بتلافاة أمرهم قبل أن يقضي عليهم بما رزىء به المفرطون من قبلهم ، ورجاؤنا أن أول صيحة تبعث الى الوحدة ، وتوقظ من الرقدة ، تصدر عن أعلاهم مرتبة وأقواهم شوكة . ولا نرتاب في أن العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى في هذا العمل الشريف ، والله يهدي من يشاء ، ولله الأمر من قبل ومن بعد

المقالة العاشرة

الوحدة والسيادة — أو الوفاق والغلب (*

﴿ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ﴾

أمران خطيران تحمل عليهما الضرورة تارة ، ويهدي اليهما الدين تارة أخرى . وقد تفيدهما التربية وممارسة الآداب ، وكل منهما يطلب الآخر ويستصحبه ، بل يستلزمه ، وبهما نمو الأمم وعظمتها ورفعتها واعتلاؤها ، وهما الميل الى وحدة تجمع ، والكلف بسيادة لا توضع . واذا أراد الله بشعب أن يوجد ويلقي بوانيه (يثبت ويقيم) الى أجل مسمى أودع في ضئاضئه (أصوله) هذين الوصفين الجليلين ، فأنشأه خلقاً سويا ، ثم استبقى له حياته بقدر ما مكن فيه من الصفتين الى منتهى أجله

كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالغلب ما تنمو به بنيتها ، ويشتد به بناؤها ، فلا بد يوما أن تقضم وتهضم وتضمحل ويمحى أثرها من بسيط الأرض . إن التغلب في الأمم كالتغذي في الحياة الشخصية ، فاذا أهمل البدن من الغذاء وقفت حركة النمو ، ثم ارتدت الى الذبول والنحول ، ثم أفضت

(*) نشرت في العدد العاشر من جريدة العروة الوثقى في ١٠ شعبان سنة ١٣٠١ و ٥ يونيه ١٨٨٤

إلى الموت والهلاك . وليس من الممكن لامة أن تحفظ قوامها ، وتصول على من يليها لتختزل منه ما يكون مادة لنمائها ، الا أن تكون متفقة في تحصيل ما تحتاج اليه هيئتها . اذا أحسست من أمة ميلا الى الوحدة فبشرها بما أعد الله لها في مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على متفرقة الأمم — اذا تصفحنا تاريخ كل جنس واستقرينا أحوال الشعوب في وجودها وفنائها وجدنا هذه سنة الله في الجمعيات البشرية ، حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة ، ومبلغها من من العظمة على حسب تطاولها في الغلب ، وما انحط شأن قوم وما هبطوا عن مكانتهم الا عند لهوهم بما في أيديهم ، وقناعتهم بما تسنى لهم ، ووقوفهم على أبواب ديارهم ينظرون طارقهم بالسوء ، وما أهلك الله قبيلا الا بعد مارزئوا بالافتراق ، وابتلوا بالشقاق ، فأورثهم ذلا طويلا ، وعذابا وبيلا ، ثم فناء سرمديا

الوفاق تواصل وتقارب يحدثه احساس كل فرد من أفراد الأمة بمنافعها ومضارها ، وشعور جميع الآحاد في جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان ، فيلذ لهم كما يلذ أشهى مرغوب لديهم ، وبما تفتقده من ذلك ، فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به ، وهذا الاحساس هو ما يبعث كل واحد على الفكر في أحوال أمته ، فيجعل جزءاً من زمنه للبحث فيما يرجع اليها بالشرف والسؤدد وما يدفع عنها طوارق الشر والغيلة ، ولا يكون همه بالفكر في هذا أقل من همه بالنظر في أحواله الخاصة ، ثم لا يكون نظراً عتيما حائراً بين جدران المخيلة ، دائراً على أطراف الألسنة ، بل يكون استبصاراً تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على استكماله بما يمكن من السعة ، وما تحتمله القدرة على نحو ما يكون في استحصال مواد المعيشة بلا فرق ، بل تجد الأنفس أن شأن الأمة في المكان الأول من النظر ، والدرجة الأولى من الاعتبار ، والشؤون الخاصة في المنزلة الثانية منها . ولا تقف فيما تجد عند جلب المصالح ودرء المفاسد لأوقاتها الحاضرة ، بل يأخذ العقلاء منها سبلا من التفكير ، ويخترطون سيوفاً من الهمة ، ليصيبوا من سعيهم شوارد من القوة ، ونوادّ من المكنة ، ويستخرجوا دفائن من الثروة ، ويجمعوا ذلك للأمة ، لصيانة حياتها الى حد العمر اللائق بها ، كما يسعى الحازم جهده

لتوفير مايلزم لمعيشته ، وما يطمئن به قلبه في دفع حاجته مدة العمر الغالب ، بل يزيد عليه مافيه الكفاية لأبنائه من بعده . وإن الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون ثم تتلوه سائر الادوار وأولها أقصرها وهو سن الطفولية، وبدء الكمال فيما يليه ، فما أرفع همم العقلاء في الأمم المستبصرة .

اذا بلغ الاحساس من مشاعر أفراد الأمة الى الحد الذي بيناه ، رأيت في الدهماء منهم والخاصة هما تعلو ، وشيما تسمو ، واقداما يقود ، وعزما يسوق ، كل بطلب السيادة والغلب ، فتتلاقى هممهم ، وتتلاحق عزائمهم في سبيل الطلب فيندفعون للتغلب على الذين يلونهم، كما تندفع السيول على الوهاد ، ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا اليه ، ويكون نزوعهم على الأمم بعد الغلب الاول تدفقاً من الطبع لايحتاج الى فكر وروية إلا في إعداد وسائل الفوز والظفر .

هذان الأمران الوفاق والغلب عمادان قويان وركنان شديدان من أركان الديانة الاسلامية ، وفرضان محتومان على من يستمسك بها ، ومن يخالف أمر الله فيما فرض منهما عوقب من مقته بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة . جاء في قول صاحب الشرع أن « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » [١] وأن المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه اذا مس أحدها ألم تألم له الآخر [٢] وجاء في نهيه « لاتقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا » [٣] وأنذر من شذ عن الجماعة بالخسران والهلكة ، وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب .

هذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بحبله ، ونهاهم عن التفرق والتغابن وامتن عليهم بنعمة الاخوة بعد أن كانوا أعداء ، ونطق الكتاب الالهي (إنما

---

(١) حديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان » الخ رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما

(٢) لفظ الحديث في هذا المعنى « مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه أحمد ومسلم في الصحيح

(٣) لفظه في الصحيحين « لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تنافسوا » الخ ماذكره وله ألفاظ أخرى عندهما وعند غيرهما

المؤمنون إخوة) وطلب من المخاطبين بآياته أن يبادروا باصلاح ذات البين عند التخالف ، ثم شدد في وجوب الاصلاح وإن أدى الى مقاتلة الباغي فقال (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله) وانما أمر الله الدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكلمة الجامعة (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات) وأوعد الكتاب الأقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الأليم ، فحكم بان من يتبع غير سبيل المؤمنين يوله ماتولى ، ويصله جهنم وساءت مصيراً .

وفي أمره الصريح إيجاب التعاون على البر والتقوى ، ولا بر أحق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق وإعلاء منار الأمة ، وأخبر الصادق صلى الله عليه وسلم أن «يد الله مع الجماعة»(١) وكفى بالقدرة الالهية عونا اذا صح الاجتماع وصدقت الألفة ، وقد بلغت مكانة الاتفاق في الشريعة الاسلامية أسمى درجة في الرعاية الدينية حتى جعل إجماع الأمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفاً عن حكم الله وما في علمه ، وأوجب الشرع الاخذ به على عموم المسلمين ،وعد جحوده مروقا من الدين ،وانسلاخا عن الايمان (٢) ومن عناية الشارع بامر الاتفاق قوله صلى الله عليه وسلم « لو دعيت الى حلف الفضول لفعلت » (حلف الفضول ماكان من هاشم وزهرة وتيم حيث وفدوا على عبدالله بن جدعان وتحالفوا على أن يدفعوا الظلم ويأخذوا الحق من الظالم ، وسمي حلف الفضول لانهم تحالفوا على أن لايدعو عند أحد فضلا يزيد عن حقه ويكون نواله بالظالم إلا أخذوه منه وردوه لمستحقه) فهو من حلف الجاهلية ، وقد صرح الشارع بقبوله لو دعي اليه . هذا

(١) رواه الترمذي بلفظ « مع الجماعة »

(٢) اجماع الامة الاسلامية كلها بالعمل على أمر من أمور الدين المراد هنا غير الاجماع الاصولي الذي هو اتفاق المجتهدين وان قل عددهم في اي عصر بعد عصر النبي (ص) على امر — فهذا من المسائل الاجتهادية التي وقع فيها الخلاف من عدة وجوه . والاول يستلزم كون المجمع عليه معلوما من الدين بالضرورة لعدم خلاف احد فيه وانما يعذر في جهله حديث العهد بالاسلام ومن لم ينش بين الامة

إجمال الادلة على وجوب الاتفاق وحظر المنابذة والمغابنـة بين المسلمين ، بل وبينهم وبين غيرهم ممن رضي بذمتهم وقبل جوارهم بالمعروف في شرعهم ، فان سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه *

وأما السعي لاعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة ، فلا تجـد آية من آيات القرآن الشريف ألا وهي داعية اليه ، جاهرة بمطالبة المسلمين بالجد فيه ، حاظرة عليهم أن يتوانوا في أداء المفروض منه . ومن الأوامر الشرعيـة أن لايدع المسلمون تنمية ملتهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وفي السنة المحمدية والسيرة النبوية مما يضافر آيات القرآن ماجمعه العلماء في مجلدات يطول عددها ـ هـذا حكم ديننا لايرتاب فيـه أحـد من المؤمنين به والمستمسكين بعروته .

هل يمكن لنا ونحن على مانرى من الاختلاف والركون الى الضيم أن ندعي القيام بفروض ديننا ؟ كيف ومعظم الاحكام الدينيـة موقوف اجراؤه على قوة الولاية الشرعية ، فان لم يكن الوفاق والميـل الى الغلب فرضين لذاتهما أفلا يكونان مما لايتم الواجب إلا به؟ فكيف بهما وهما ركنان قامت عليهما الشريعة كما قدمنا ؟ هل لنا عذر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب يوم لاتنفع فيه خلة ولا شفاعة بعد هدم هذين الركنين ؟ وأيسر شيء علينا إقامتهما وعديدنا مئتا مليون أو يزيد ؟ هـل يتيسر لنا اذا خلونا بأنفسنا وجادلتنا ضمائرنا أن نقنعها ونرضيها بما نحن عليه الآن ؟

كل هذه الرزايا التي حطت باقطارنا ، ووضعت من أقدارنا ، ما كان قاذفنا ببلائها ورامينا بسهامها إلا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذي نهانا الله ونبيه عنه . لو أدينا حقوقاً تطالبنا بها تلك الكلمة التي تهلّ بها ألسنتنا ، وتطمئن قلوبنا بذكرها، وهي كلمة الله العليا، هل كان يمكن للغرباء أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق، وهل كان يلمع سيف العدوان في وجوهنا ، وهل كنا نشيم نيران الاعداء إلا وأقدامنا في صياصيهم ، وأيدينا على نواصيهم ، ؟ ان لأبناء الملة الاسلامية يقيناً بما جاء به شرعهم ، لكن أليس على صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله

عليه في ذلك الدين ؟ (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) ولا ريبة في أن المؤمن يسره أن يعلمه الله صادقا لا كاذبا ، وأي صدق تظهره الفتنة ويمتاز به الصادق من الكاذب إلا الصدق في العمل ؟ هل يود المسلم لو يعمر ألف سنة في الذل والهوان وهو يعلم أن الازدراء بالحياة الدنيا دليل الايمان ؟ أنرضى ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة ، وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ، ولا يرد مشربنا ، ولا يحترم شريعتنا ، ولا يرقب فينا إلا ولا ذمة ، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلي منا أوطاننا ، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته والجالية من أمته؟

لا . لا . إن المخلصين في إيمانهم الواثقين بوعد الله في نصر من ينصر الله الثابت في قوله (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) لا يتخلفون عن بذل أموالهم وبيع أرواحهم ، والحق داع والله حاكم والضرورة قاضية ، فأين المفر ؟ المبصر بنور الله يعلم أنه لا سبيل لنصر الله وتعزيز دينه إلا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين . هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة ، وأملاكنا ممزقة ، والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقي في أيدينا ثم لا نبدي حركة ، ولا نجتمع على كلمة، وندعي مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد ؟ واخجلتاه لو خطر هذا ببالنا ولا أظنه يخطر ببال مسلم يجري على لسانه شاهد الاسلام

إن الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الاسلام كل هذه صفات كامنة في نفوس المسلمين قاطبة ، ولكن دهاهم بعض ما أشرنا اليه في أعداد ماضية فألهاهم عما يوحي به الدين في قلوبهم وأذهلهم أزمانا عن سماع صوت الحق يناديهم من بين جوانحهم ، فسهوا وما غووا ، وزلوا وما ضلوا ، ولكنهم دهشوا وتاهوا ، فمثلهم مثل جوّاب المجاهيل من الارض في الليالي المظلمة ، كل يطلب عونا وهو معه ولكن لا يهتدي اليه ، وأرى أن العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لايصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم في أقرب وقت وليس بعسير عليهم ذلك بعد ما اختص الله من

بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام وفرض على كل مسلم ان يحجه ما استطاع وفي تلك البقعة يحشر الله من جميع أجيال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم فما هي إلا كلمة تقال بينهم من ذي مكانة في نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض وتضطرب لها سواكن القلوب . هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية فان أضفت اليه ما أذاب قلوبهم من تعديات الأجانب وما ضاقت به صدورهم من غارات الغرباء على بلادهم حتى بلغت أرواحهم التراقي ذهبت إلى أن الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حداً يوشك أن يكون فعلا وهو مما يؤيد الساعين في هذا المقصد ويهيء لهم فوزاً ونجاحا بعون الله الذي ماخاب قاصده وهو ربي اليه أدعو واليه أنيب

المقالة الحادية عشرة

استعانة الفاتحين على الامم بأمرائها ورؤسائها(*)

(ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار)

كيف يمكن لقوة أجنبية تصول على أمة من الامم ان تسود عليها وتستعبدها وتذللها للعمل في منافعها مع التخالف في الطباع والعوائد والأفكار ووجود المقاومة الطبيعية فضلا عن الارادية . ان الوحشة المتمكنة في نفس كل واحد من الأمة وظن كل فرد انه في خطر على روحه وماله إذا غلبه الغالبون تحمله على المدافعة كما يدافع عن بيته وحريمه فلا يتسنى للقوة المغيرة ان تذل الامة إلا بافنائها عن آخرها أو افناء الأغلب حتى لايبقى إلا العجزة والزمنى . هذا أمر طبيعي وحكم بديهي متى كانت الغارة على الأمة . نعم يسهل للقوة الأجنبية ان تتغلب على أمة عظيمة بدون تناحر ان كان لهذه الأمة حاكم أو رئيس روحاني تجتمع عليه قلوبها وتدين له رقابها لمنزلة له في افئدة أبنائها ولمكان ابائه من الكرامة في

(*) نشرت في العدد العاشر ايضا

نفوسهم فلا تحتاج القوة الغالبة إلا لايقاع الرعب في قلبه فيجبن ويقبل ما تحكم به أو نصب حبالة الحيل له فتخدعه بالأماني والآمال فيذعن لما تقضي به فاذا خضع للقوة الغريبة خضعت الأمة تبعاً له . ولهذا ترى طلاب الفتح وبغاة الغلب ينصبون قبل سوق الجيوش وقود الجنود على قلوب الأمراء وأرباب السيادة في الأمة التي يريدون التغلب عليها فيخلعونها بالتهديد والتخويف أو يملكونها بالخدعة وتزيين الأماني فينالون بغيتهم ويأخذون أراضي الأمم. وهذا الطريق هو الذي سلكه الانكليز مع السلطان التيموري في الهند ولولا ماكان للهنديين من عقدة الارتباط بسلطانهم التيموري وقبض الانكليز أول الامر على تلك العقدة لما تيسر للبريطانيين ان يخضعوا الأمم الهندية في أحقاب طويلة .

هذه قبائل الافغان عندما انحلت ثقتها بأميرها وصار الامر إلى الأمة قامت كل عشيرة بل كل فرد للدفاع عن نفسه بعد ما تمكنت عساكر الانكليز فى قلاعهم وحصونهم واستولت على قاعدة ملكهم وفتكوا بالعساكر الانكليزية وهزموا قوتها وأجلوها عن بلادهم وهي ستون الفاً من الجيوش المنتظمة مسلحة بالأسلحة الجديدة واضطر الانكليز ان يتركوا تلك البلاد لأهلها .

لاريب انه يسهل على الانسان ان يأخذ شخصاً واحداً أو أشخاصاً محصورين بالترغيب والتهديد ويتيسر له أن يقف على طباعهم ويدخل عليهم من مواقع أهوائهم ويأتيهم من أبواب رغائبهم ، لكن يتعسر بل يتعذر عليه أن يأخذ أمة بتمامها وعقولها مختلفة عليه نفوسها فى وحشة منهم اللهم إلا بالابادة والتدمير . من هذا نجد الملوك العظام لايرهبون الاشتباك في حرب مع اقتالهم بل ومن هو أشد منهم قوة ، ولكنهم يفرقون بل تذهب أفئدتهم هواء إذا أحسوا بميل الامة عنهم ، وما هذا الا لأن قوة المغالبين داخلة تحت الضبط

واما آحاد الامم وقواها فلا تضبط ولا تستطاع مقاولتنا اذا تعاصت وشحت بنفسها عن الذل لسواها

ان الامراء كما يكونون في دور من أدوار الأمة قوى فعالة لنموها وعلوها وعظمتها واشتداد عضدها كذلك يكونون في بعض أطوارها علة فاعلة في سقوطها

وهبوطها وانحلالها، وانا نخاف ولاحول ولاقوة الا بالله ان يكون أمراؤنا والأعلون منا آلة في اضمحلالنا وفنائنا لما غلب عليهم من الترف والانهماك في اللذائذ والانكباب على الشهوات مع سقوط الهمة وتغلب الجبن والحرص والطمع على طباعهم فانا لله وانا اليه راجعون

المقالة الثانية عشرة

الامل وطلب المجد (*

(انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون * ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون)

تلك آيات الكتاب الحكيم، تنبىء عن سر عظيم، اختص الله به الانسان، ورفعه به على سائر الاكوان، ليبلغ به المقام المحمود، ويحوز ما أعدته له العناية الالهية من الكمال اللائق به. راجع نفسك، واصغ لمناجاة سرك، تجد في وجدانك ميلا قويا وحرصا شديدا يدفعك الى طلب المجد وعلو المنزلة في قلوب أبناء جنسك، ثم ارفع بصرك الى سواد أمة بتمامها تجد مثل ذلك في كليتها كما هو في آحادها، تبتغي رفعة المكانة في نفوس الأمم سواها. ذلك أمر فطري جبل الله عليه طبيعة هذا النوع منفرداً ومجتمعاً: ليس من السهل على طالب المجد أن يصل الى ما يطلب ولكنه يلاقي في الوصول اليه وعراً في السبل، وعقبات تصد عن المسير، ومع هذا فلا يضعف حرصه، ولا ينقص ميله. يقطع شعابا، ويعاني صعابا، حتى يرقى ذروة المجد، ويتسنم شاهق العزة، ولو قام في وجهه مانع عن الاسترسال في مسيره والتجأ للسكون رأيته يتململ ويتضجر كأنما يتقلب على الرمضاء. لو سبر الحكيم الخبير أعمال البشر، ونسب كل عمل الى غاية العامل

*) نشرت في العدد الحادي عشر من جريدة العروة الوثقى في ٢٥ شعبان سنة ١٣٠١ و ١٩ يونيو سنة ١٨٨٤

منه ، رأى أن معظمها في طلب الكرامة وعلوّ المقام ، كل على حسبه وما يتعلق منها بتقويم المعيشة ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة لما يتعلق بشؤون الشرف . هذه خلة ثابتة في الكافة من كل شعب على اختلاف الطبقات من أرباب المهن الى أصحاب الأمر والنهي ، كل ينافس أهل طبقته في أسباب الكرامة بينهم ، ويأنف من ضعته فيهم ، ويحرص على ما يحله في قلوبهم محل الاعتبار ، حتى اذا بلغ الغاية مما به الرفعة عندهم ، تخطى حدود تلك الطبقة ودخل في طبقة أخرى ، ونافس أهلها في الجاه ، ولا يزال يتبع سيره مادام حيا يخطر في بسيط الارض ذلك لأن الكمال الانساني ليس له حدّ ، ولا تحدّه نهاية . وليس في استطاعة أحد من الناس أن يقنع نفسه ويعتقد أنه بلغ من الكمال حدّاً ليست بعده غاية

سبحان الله، ماذا أخذت محبة الشرف من قلب الانسان، وماذا ملكت من أهوائه ؟ يعدّه ثمرة حياته وغاية وجوده ، حتى إنه يحتقر الحياة عند فقده والعجز عن دركه ، أو عند مسه والخوف من سلبه - أرأيت أن فقيراً ذا أسمال لايؤبه له اذا اعتدى عليه من تطول يده اليه بفعلة تهينه أو قذفة تشينه يغلبه الغضب للدفاع عن المنزلة التي هو فيها ، فيرتكب مخاطرة ربما تفضي به الى الموت ، وأن القذف أو الاهانة ما نقصت من طعامه ولا شرابه ، ولا خشنت مضجعه في مبيته — آلاف مؤلفة من الناس في الأجيال المختلفة والأجناس المتنوّعة ألقوا بأنفسهم الى المهالك ، وماتوا دفاعا عن الشرف أو طلباً للكرامة والمجد — جل شأن الله لايهنأ للانسان طعام ولا شراب ، ولا يلين له مضجع ، إلا أن يلحظ فيه أن ما ناله منه أعلى مما نال سواه ، مع وقوف بعض من الناس على ذلك ليعترفوا له بالأعلوية فيه ، كأن لذة التغذية والتوليد انما وضعت لتكون وسيلة للذة المباهاة والمفاخرة . فما ظنك بسائر اللذائذ ؟

كم يعاني الانسان من التعب البدني ، وكم يقاسي من مشاق الأسفار ، وكم يخاطر بروحه في اقتحام الحروب والمكافحات ، وكم يحتمل في الانقطاع عن اللذات مع التمكن منها ، كل ذلك لينال شهرة أو ليكسب فخاراً أو ليحفظ ما آتاه الله منه . ما أجل عناية الله بالانسان ، لايعيش الا ليشرف فيشرف به العالم ، وكل

لذة له دون الشرف فهي وسيلة اليه ، بل الحياة الدنيا هي السبيل الوعرة يسلكها الحي الى ما يستطيع من المجد ، وفي نهاية الأجل يفارقها قرير العين بما قارب منه ، آسف الفؤاد على ماقصر عنه

ما هو المجد الذي يسعى اليه الانسان بالالهام الآلهي ، ويخوض الاخطار في طلبه ، ويقارع الخطوب في تحصيله ؟ هو شأن تعترف النفوس لصاحبه بالسؤدد ، وتذعن له بالاعتلاء ، وتلقي اليه قياد الطاعة ، يكون هذا له ولكل من يدخل في نسبته اليه من ذوي قرابته وعشيرته وسائر أمته ، فتنفذ كامته وكامة المتصلين به ، والملتحمين معه فى شؤون من سواهم ، وهو أعظم مكافأة من العزيز الحكيم على معاناة الأوصاب لتحصيل ذلك الشأن فى هذه الحياة الاولى. فما كان يحسبه طالب المجد عائداً الى نفسه بالمنفعة ، يبارك فيه مدبر الكون ، فيفيض خيره على بني جلدته أجمعين . واها ! تلك حكمة بالغة : اذا نال الواحد من الأمة مطلبه من المجد نالت الامة حظها من السؤدد . نعم وهل نال مانال الا بمعونة سائر الآحاد منها (ذلك تقدير العزيز العليم) ماذا يستطيع الجاهد وحده ؟ وماذا يكسبه من سعيه، إن لم يكن له أعضاء من بني قبيله ؟ فمن كان همه أن يصعد الى عرش العزة ، ويرقى الى ذروة السيادة ، فعليه أن يهيء نفسه والمنتمين اليه لتحصيل كل ما يعد في العالم فضيلة وكمالا . ما أصعب القيام بخدمة هذا الميل الفطري والالهام الآلهي ! وما أشد ما تحتمل النفوس في قضاء بعض الوطر مما يتصل به ! وما أعظم الحامل للأنفس على تجشم المصاعب لنيل ما تميل اليه من هذا الأمر الرفيع ! ما هذا الباعث الشريف الذي يسهل على الأرواح كل صعب ، ويقرب كل بعيد ، ويصغر كل عظيم ، ويلين كل خشن ، ويسليها عن جميع الآلام ، ويرضيها بالتعرض للتهلكة ومفارقة الحياة ، فضلا عن بذل كل نفيس ، والسماح بكل عزيز ؟ هذا الباعث الجليل، وهذا الموجب الفعال هو :

الامل

الأمل ضياء ساطع في ظلام الخطوب، ومرشد حاذق في يهماء الكروب، وعلم هادٍ في مجاهيل المشكلات، وحاكم قاهر للعزائم اذا اعترتها فترة، ومستفز للهمم إن عرض لها سكون، ليس الأمل هو الأمنيـة والتشهي اللذان يلمحهما الذهن تارة بعد أخرى، ويعبر عنهما بليت لي كذا من الملك وكذا من الفضل، مع الركون الى الراحة والاستلقاء على الفراش، واللهو بما يبعد عن المرغوب، كأن صاحبهما يريد أن يبدل الله سنته في سير الانسان عناية بنفسه الشريفـة أو الخسيسة، فيسوق اليه ما يهجس بخاطره بدون أن يصيب تعباً أو يلاقي مشقة. إنمـا الأمل رجاء يتبعه عمل، ويصحبه حمل للنفس على المكاره، وعرك لها في المشاق والمتاعب، وتوطينها لملاقاة البلاء بالصبر، والشدائد بالجلد، وتهوين كل ملم يعرض لها في سبيل الغرض من الحياة، حـتى يرسخ في مداركها أن الحياة لغو اذا لم تغذّ بنيل الأرب، فيكون بذل الروح أول خطوة يخطوها القاصـد، فضلا عن المـال الذي لا يقصـد منه الا وقاية بناء الحياة من صدمات حوادث الكون. وكما كان الميل للرفعة أمراً فطريا، كذلك كان الأمل وثقة النفس بالوصول الى غاية سعيها من ودائع الفطرة، غير أن ثبوتهما في فطرة عموم البشر كان داعياً للمزاحمات والممانعات، فان كلّ واحد بمـا أودع في جبلتـه يطلب الكرامة والتمكن في قلب الآخر، فكلّ طالب مطلوب، ولم يبلغ سعة العقل الانساني الى درجة تعـين لكل فرد من الأفراد عملا تكون له به المنزلة العليا في جميع النفوس، غير مايكون به للآخر مثل تلك المنزلة، حتى يكون جميعهم امجاداً شرفاء بما يأتون من أعمالهم، ولـكنهم تزاحموا في الأعمال، كما تزاحموا في الآمال والأهواء، ومسالكهم ضـيقة، ومشارعهم ضنكة، فنشأت تلك المقاومات والمصادمات بين النوع البشري، حكمة من الله ليعـلم الذين جاهدوا ويعلم الصابرين — فاذا توالى الصدام على شخص أو قوم حدث في الهمم ضعف

وأصابها انحطاط ، وحصل الفساد في هاتين الخلتين الشريفتين (الرجاء وطلب المجد) كما يحصل الفساد في سائر الأخلاق الفاضلة بسوء التربية . وربما يؤول الضعف الى اليأس والقنوط (نعوذ بالله منهما)

ماذا يكون حال القانطين المنقطعة آمالهم ؟ يحكمون على أنفسهم بالحطة ، ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة ، فيأتون الدنايا ويتعاطون الرذائل ، ولا ينفرون من الاهانة والتحقير ، بل يوطنون أنفسهم على قبول مايوجه اليهم من ذلك أيّا كان، فتسلب منهم جميع الاحساسات والوجدانات الانسانية التي يمتاز بها الانسان على الانعام، فيرضون بما ترضى به البهائم ، فلا يهتمون إلا بحاجات قبقبهم وذبذبهم ، ثم ياليتهم يكونون هملا وسوائب يرعون النبات ، ويتبعون مواقع الغيث ، ولكنهم وإن تركوا العمل لأنفسهم، فالله تعالى يسلط عليهم من يكلفهم بالعمل لغيرهم،فيكونون كالمال الحالة لاتستفيد مماتحمل شيئاً، وظيفتها أن تسعى وتشقى ليسعد غيرها ويستريح ، فيعالجون العمل في الفلاحة والصناعة وغيرهما من الاعمال الشاقة ، ويدأبون بأشد ممـا يدأب العامل لنفسه ، ثم لاينالون مما يعملون شيئاً . ثمرات كسبهم بأسرها محولة الى الذين سادوا عليهم بهممهم (هذا الذي يتجشمه الذليل في ذله من مشاق الاعمال ومعاناة المكاره لو تحمل بعضاً منه في طلب العزة لاصاب حظه منها) بل تصير درجة القانطين عند من سادوا عليهم أدنى من درجة الحيوانات العاملة ، فان السائدين يشعرون بحكم البداهة أن هؤلاء أسقطوا أنفسهم عن منزلة كانوا يستحقونها بمقتضى الفطرة الانسانيـة ورضوا لها بما دون حقها ، بل بما لايصح أن يكون من شأنها وكفروا نعمة الله في تكوينهم على الشكل الانساني وإيداعهم ما أودع في أفراد الانسان فيعاملهم أولئك السادات بما لايعاملون به مايقتنون من الحيوانات ، ولنا على ذلك شاهد العيان في الأمم التي أدركها اليأس وسقطت في أيدي الاجانب ....

ونظن أن يوجد أقوام أخرون سامهم ساداتهم في الزمن السابق ويسومونهم الآن مالا تسام به السوائم الراعية وهم على القرب منا وليسوا ببعيد عنا .

عجبا كيف تتبدل أحكام الجبلة وكيف يمحى أثر الفطرة ؟ كيف تسفل النفس

حتى لا تطلب رفعة ، وكيف تقنط حتى لايكون لها أمل ، والامل وحب الكرامة طبيعيان في الانسان ؟ بعد إمعان النظر نجد السبب في ذلك ظن الانسان أن جميع أعماله إنما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال وأن قوته هي سلطان أعماله وليس فوق يده يد تمده بالمعونة أو تصده بالقهر ، فاذا صادفته الموانع مرة بعد أخرى وقطعت عليه سبيل الوصول رجع الى قدرته فوجدها فانية ، وقوته فرآها واهنة ، فيعترف بوهنه ، ويسكن الى عجزه ، فييأس ويقنط ، ويذل ويسفل ، اعتقاداً منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التي تعاصت على قدرته ، ومتى كانت قوة المانع أعظم من قوته فلا سبيل الى العمل لاستحالة قهر المانع، فينقطع الأمل فيقع في الشقاء الابدي .

أما لو أيقن بان لهذا الكون مدبراً عظيم القدرة تخضع كل قوة لعظمته ، وتدين كل سطوة لجبروته الاعلى ، وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه يصرف عباده كيف يشاء لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس ، وتغتال آماله غائلة القنوط ، فان صاحب اليقين لو نظر الى ضعف قدرته لا يفوته النظر الى قوة الله التي هي أعلى من كل قوة فيركن اليها في أعماله ، ولايجد اليأس الى نفسه طريقاً ، فكلما تعاظمت عليه الشدائد زادت همته انبعاثاً فى مدافعتها معتمداً على أن قدرة الله أعظم منها . وكلما أغلق في وجهه باب فتحت له من الركون الى الله أبواب، فلا يمل ولا يكل ، ولا تدركه السآمة، لاعتقاده أن في قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعزاء، ويلقي قيادهم الى الاذلاء ، وأن يدك الجبال ، ويشق البحار ، ويمكن الضعفاء ، من نواصي الاقوياء ـ وكم كانت لقدرة الله من هذه الآثار ؟ — فتشتد عزيمته ويدأب فيما كلفه الله من السعي لنيل الكمال والفوز بما أعده الله له من السعادة في الاولى والآخرة . وما كان لموقن بالله وبقدرته وعزته وجبروته أن يقنط وييأس ، ولهذا أخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التي لاريبة فيها بما قال وهو أصدق القائلين (انه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) وبما حكى من قول نبيه ابراهيم (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلا على الكفر والضلال ، ومن أين

يطرق اليأس قلباً عقد على الايمان بالله وبقدرته الكاملة .

لهذا نقول أن المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله وبما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام أن يقنطوا من رحمة ربهم في إعادة مجدهم مع كثرة عددهم ، ولا يسوغ لهم إيمانهم أن يرضخوا (١) للذل ويرضوا بالضيم، ويتقاعدوا عن إعلاء كلمتهم وهم الى الآن محفوظون مما ابتلي به كثير من الأمم ، فان لهم ملوكا عظاما ، ولا يزال في أيديهم ملك عظيم على بسيط الارض ، وإن من الحق أن نقول : إن أبواب رحمة الله مفتحة لديهم وما عليهم سوى أن يلجوها ، وإن روح الله نافحة عليهم وما يلزمهم سوى أن يستنشقوها ، والفرص دائماً تمد أيديها اليهم تطلب انهاضهم وتنبه غافلهم وتوقظ نائمهم ، وليس عليهم في استرجاع مكانتهم الاولى والصعود الى مقامهم الاول إلا أن يجمعوا كلمتهم ، ويتعاونوا على مايقصدون من إعزاز ملتهم ، وذلك أيسر مايكون عليهم، بعد تمكن الجامعة الدينية بينهم ، فأي موجب لليأس وأي داع للقنوط وبين أيديهم كتاب الله الناطق بأن اليأس من أوصاف الضالين ؟ وهل توجد واسطة بين الرشد والغي ؟ (فماذا بعد الحق إلا الضلال) هل يكون للقانطين فيهم من عذر ؟ أيرضون بالعبودية للاجانب بعد تلك السيادة العليا ؟ ماذا يبتغون من الحياة إن كانت فى ذل وإهانة وفقر وفاقة وشقاء دائم بيد عدوّ غاشم ؟ أيطمئنون وهم بين أجنبي حاكم ، وبغيض شامت ، ومقبح غبي ، ومشنع دني ، ومعير خسيس، يرمونهم بضعف العقول ونقص الاستعداد ، ويحكمون بأن محالا عليهم أن يصيروا أمة في عداد الأمم ؟ اذا لم ينسلخ الانسان عن كل خاصة انسانية كيف يرضى بحياة مكتنفة بكل هذه التعاسات والمكدرات ؟ أينسون أنهم كانوا الاعلين في الارض وما طال على ذلك الزمان ، ولا محيت التواريخ ولا عفت الآثار ، ولا اضمحلت بالكلية شوكة المسلمين من وجه الارض؟

إن كان للعامة عذر في الغفلة عما أوجب الله عليهم فأيّ عذر يكون للعلماء وهم حفظة الشرع والراسخون في علومه ؟ لم لا يسعون في توحيد متفرق المسلمين ؟ لم لا يبذلون الجهد في جمع شملهم ؟ لم لا يفرغون الوسع لاصلاح ما فسد من ذات بينهم ؟

(١) الوجه ان يقال يخضعوا أو يخنعوا

لم لا يأتون على ما في الطاقة لتقوية المسلمين وتذكيرهم بوعود الله التي لا تخلف لمن صدق في طاعته واليقين به ، وتبشيرهم بهبوب روح الله على أرواحهم ؟ بلى إن قوماً شرح الله صدورهم للأيمان قاموا بهذا الأمر في مواقع مختلفة من الارض، يجمع التواصل بينها عقدة واحدة ،إلا أن أملنا في بقية المسلمين أن يتفقوا معهم ويقوموا بتعضيدهم ، ليتمكن الجميع من نصر الله (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)

المقالة الثانية عشرة

رجال الدولة وبطانة الملك

كيف يجب أن يكونوا (*

(ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون)

قالوا تصان البلاد ويحرس الملك بالبروج المشيدة،والقلاع المنيعة،والجيوش العاملة ، والأهب الوافرة ، والاسلحة الجيدة ، قلنا نعم هي أحراز وآلات لا بد منها للعمل فيما يقي البلاد ولكنها لا تعمل بنفسها ، ولا تحرس بذاتها، فلا صيانة بها ولا حراسة إلا أن يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة، وأولوا رأي وحكمة، يتعهدونها بالاصلاح زمن السلم ، ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب،وليس بكاف حتى يكون رجال من ذوي التدبير والحزم وأصحاب الحذق والدراية يقومون على سائر شؤون المملكة ،يوطئون طرق الأمن ،ويبسطون بساط الراحة،ويرفعون بناء الملك على قواعد العدل ويوقفون الرعية عند حدود الشريعة ثم يراقبون روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية ليحفظوا لها المنزلة التي تليق بها بينها، بل يحملوها

*) نشرت في العدد الحادي عشر ايضا

على أجنحة السياسة القويمة إلى أسمى مكانة تمكن لهاء ولن يكونوا أهلا للقيام على هذه الشؤن الرفيعة حتى تكون قلوبهم فائضة بمحبة البلاد طافحة بالمرحمة والشفقة على سكانها ،وحتى تكون الحمية ضاربة في نفوسهم آخذة بطباعهم،يجدون في أنفسهم منها على مايجب عليهم، وزاجراً عما لا يليق بهم،وغضاضةو ألما موجعاعند مايمس مصلحة المملكة ضرر ،ويوجس عليها من خطر ،ليتيسر لهم بهذا الاحساس وتلك الصفات أن يؤدوا أعمال وظائفهم كما ينبغي ويصونوها من الخلل الذي ربما يفضي قليله الى فساد كبير في الملك . فهؤلاء الرجال بهذه الخلال هم المنعة الواقية والقوة الغالبة . يسهل على أي حاكم في أي قبيل أن يكتب الكتائب ويجمع الجنود ويوفر العدد من كل نوع بنقد النقود وبذل النفقات؟ ولكن من أين يصيب بطانة من أولئك الذين أشرنا اليهم: عقلاء رحماء ،أباة أصفياء ،تهمهم حاجات الملك كما تهمهم ضرورات حياتهم ؟ لابد أن يتبع في هذا الأمر الخطير قانون الفطرة ، ويراعى ناموس الطبيعة ، فان متابعة هذا الناموس تحفظ الفكر من الخطأ وتكشف له خفيات الدقائق ،وقلما يخطيء في رأيه أو يتأوّد في عمله من أخذ به دليلا ، وجعل لمن هديه مرشداً . واذا نظر العاقل في أنواع الخطأ التي وقعت في العالم الانساني من كلية وجزئية وطلب أسبابها لايجد لها من علة سوى الميل عن قانون الفطرة والانحراف عن سنة الله في خلقه .

من أحكام هذا الناموس الثابت ان الشفقة والمرحمة والحمية ، والنعرة على الملك والرعية ،انما تكون لمن له في الأمة أصل راسخ ووشيج يشد صلته بها . هذه فطرة فطر الله الناس عليها: ان الملتحم مع الامة بعلاقة الجنس والمشرب يراعي نسبته اليها ونسبتها اليه ويراها لاتخرج عن سائر نسبه الخاصة به فيدافع الضيم عن الداخلين معه فى تلك النسبة دفاعه عن حوزته وحريمه (راجع رأيك فيما تشهده كثيراً حتى بين العامة عندمايرمي أحدهم أهل البلد الآخر أودينه بسوء على وجه عام كسوري ينتقد المصريين أو مصري ينتقد السوريين) هذا إلى مايعلمه كل واحد من الامة أن ماتناله أمته من الفوائد يلحقه حظ منها وما يصيبها من الارزاء يصيبه سهم منه ،خصوصاً ان كان بيده هامات أمورها ، وفى قبضته زمام التصرف

فيها، فان حظه (حينئذ) من المنفعة أوفر، ومصيبته بالمضرة أعظم، وسهمه من العار الذي يلحق الأمة أكبر، فيكون اهتمامه بشؤون الامة التي هو منها وحرصه على سلامتها بمقدار مايؤمله من المنفعة أويخشاه من المضرة .

فعلى ولي الامر فى مملكة أن لا يكل شيئاً من عمله الا الى أحد رجلين إما رجل يتصل به في جنسية سالمة من الضعف والتمزيق موقرة في نفوس المنتظمين فيها محترمة في قلوبهم بحملهم توقيرها واحترامها على التغالي في وقايتها من كل شين يدنو منها ولم توهن روابطها اختلافات المشارب والاديان وإما رجل يجتمع معه في دين قامت جامعته مقام الجنسية بل فاقت منزلته من القلوب منزلتها كالدين الاسلامي الذي حل عند المسلمين وان اختلفت شعوبهم محل كل رابطة نسبية فان كلا من الجامعتين (الجنسية على النحو السابق والدينية) مبدآن للحمية على الملك ومنشآ ن للغيرة عليه .

وأما الأجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطته مقام الجنس، فمثلهم في المملكة كمثل الأجير في بناء بيت لايهمه الا استيفاء أجرته ثم لا يبالي أسلم البيت أوجرفه السيل أو دكته الزلازل. هذا اذا صدقوا في أعمالهم يؤدون منها بمقدار ما يأخذون من الأجر واقفين فيها عند الرسم الظاهر، فان الواحد منهم لا يشرف بشرف الأمة الذي هو خادم فيها ولا يمسه شيء مما يمسها من الضعة لانه منفصل عنها اذا فقد العيش فيها فارقها وارتد الى منبته الذي ينتسب اليه ، بل هو في حال عمله وخدمته لغير جنسه لاصق بمنبته في جميع شؤونه ماعدا الأجر الذي يأخذه وهذا معلوم ببداهة العقل فلايجد في طبيعته ولا في خواطر قلبه مايبعثه على الحذر الشديد مما يفسد الملك أو الحرص الزائد على مايعلي شأنه، بل لا يجد باعثاً على الفكر فيما يقوم مصلحته من أي وجه . هذه حالهم هي لهم بمقتضى الطبيعة لو فرضنا صدقهم وبراءتهم من أغراض أخر، فما ظنك بالأجانب لو كانوا نازحين من بلادهم فراراً من الفقر والفاقة، وضربوا في أرض غيرهم طلباً للعيش من أي طريق وسواء عليهم في تحصيله صدقوا أو كذبوا وسواء وفوا أو قصروا ، وسواء راعوا الذمة أو خانوا ، أو لو كانوا مع هذا كله يخدمون مقاصد

لأنهم يمهدون لها طرق الولاية والسيادة على الأقطار التي يتولون الوظائف فيها (كما هو حال الأجانب في الممالك الاسلامية لايجدون في أنفسهم حاملا على الصدق والأمانة ولكن يجدون منها الباعث على الغش والخيانة) ومن تتبع التواريخ التي تمثل لنا أحوال الأمم الماضية وتحكي لنا عن سنة الله في خليقته وتصريفه لشؤون عباده رأى أن الدول في نموها وبسطتها ما كانت مصونة إلا برجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم وما كان شيء من أعمالها بيد أجنبي عنها وان تلك الدول ما انخفض مكانها ولا سقطت في هوة الانحطاط إلا عند دخول العنصر الأجنبي فيها، وارتقاء الغرباء إلى الوظائف السامية في أعمالها، فان ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار، خصوصاً إذا كان بين الغرباء وبين الدولة التي يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم، وعجنت بها طينتهم من أزمان طويلة

نعم كما يحصل الفساد في بعض الاخلاق والسجايا الطبيعية بسبب العوارض الخارجية كذلك يحصل الضعف والفتور في حمية أبناء الدين أو الأمة ويطرأ النقص على شفقتهم ومرحمتهم فينقص بذلك اهتمام العظماء منهم بمصالح الملك إذا كان ولي الأمر لا يقدر أعمالهم حق قدرها، وفي هذه الحالة يقدمون منافعهم الخاصة على فرائضهم العامة، فيقع الخلل في نظام الأمة ويضرب فيها الفساد، ولكن ما يكون من ضرره أخف وأقرب إلى التلافي من الضرر الذي يكون سببه استلام الأجانب لمامات الأمور في البلاد، لأن صاحب اللحمة في الأمة وان مرضت أخلاقه واعتلت صفاته الا أن ما أودعته الفطرة وثبت في الجبلة لا يمكن محوه بالكلية فاذا أساء في عمله مرة أزعجه من نفسه صائح الوشيجة الدينية أو الجنسية فيرجع الى الاحسان مرة أخرى، وان ما شد بالقلب من علائق الدين أو الجنس لا يزال يجذبه اونة بعد آونة لمراعاتها والالتفات اليها، ويميله الى المتصلين معه بتلك العلائق وان بعدوا.

لهذا يحق لنا أن نأسف غاية الأسف على أمراء الشرق وأخص من بينهم أمراء المسلمين حيث سلموا أمورهم ووكلوا أعمالهم من كتابة وإدارة وحماية للأجانب عنهم، بل زادوا في موالاة الغرباء والثقة بهم حتى ولوهم خدمتهم الخاصة بهم في

بطون بيوتهم ، بل كادوا يتنازلون لهم عن ملكتهم في ممالكهم بعد مارأوا كثرة المطامع فيهم لهذا الزمان ، وأحسوا بالضغائن والاحقاد الموروثة من أجيال بعيدة ، وبعد ماعلمتهم التجارب أنهم اذا ائتمنوا خانوا ، واذا عززوا أهانوا ، يقابلون الاحسان بالاساءة ، والتوقير بالتحقير ، والنعمة بالكفران ، ويجازون على اللقمة باللطمة ، والركون اليهم بالجفوة ، والصلة بالقطيعة ، والثقة فيهم بالخديعة أما آن لأمراء الشرق أن يدينوا لأحكام الله التي لاتنقض ؟ ألم يأن لهم أن يرجعوا الى حسهم ووجدانهم ؟ ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث ودلتهم عليه الرزايا والمصائب ؟ ألم يحن لهم أن يكفوا عن تخريب بيوتهم بايديهم وأيدي أعدائهم .

ألا أيها الأمراء العظام مالكم وللأجانب عنكم (ها انتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم) قد علمتم شأنهم ولم تبق ريبة في أمرهم (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) سارعوا الى أبناء أوطانكم وإخوان دينكم وملتكم ، وأقبلوا عليهم ببعض ماتقبلون به على غيرهم تجدوا فيهم خير عون وأفضل نصير . اتبعوا سنة الله فيما ألهمكم وفطركم عليه كما فطر الناس أجمعين ، وراعوا حكمته البالغة فيما أمركم وما نهاكم كيلا تضلوا ويهوي بكم الخطل الى أسفل سافلين ، ألم تروا ، الم تعلموا ، الم تحسوا ، الم تجربوا ؟ إلى متى إلى متى ؟ إنا لله وإنا اليه راجعون .

المقالة الثالثة عشرة

كم حكمة لله في حب المحمدة الحقة (*

العالم الانساني كتاب المعتبر ، وسفر المستبصر ، وكل قرن من قرونه صفحة ، وكل جيل من الناس سطر فيه أو جملة ، ولنا في كل ماخطه القلم الالهي عبرة ،

أول ما يفيدنا النظر فيه وقوفنا على أحوال الشعوب في أطوارها المختلفة، وأدوارها المتبدلة ، فنرى أمماً علت وسمت وحلقت في جو المعالي وجازت في الرفعة مسارح النظر ، ثم انحدرت بعد هذا وتدهورت وعفت رسومها ، ولم يبق لها أثر إلا في الروايات والأحاديث . ومنها أجيال كانت في ثني العدم ، ثم اكتست حلية الوجود ،وأخذت من الاجتماع الانساني مكان الهامة من الجسد ثم انطوت وأخنت عليها أمهات قشعم . ومنها ماتراه الى اليوم يسحب مطارف العزة ، ويشرف على العالم بالأمر والنهي من شواهق القوة

فمن الناس من تتجلى له هذه الشؤون وتلك الأطوار كماتعرض عليه الصور والتماثيل ينبسط لبعضها إذا أعجبه ، وينقبض للآخر اذا أنكره ،وهو في غفلة من منشأ ظهورها وعلل انقلابها . فان سئل عن السبب قال: سبحان الله! هكذا كان وهكذا يكون ، وما هو إلا بخت يسعد فيسعد به السعداء ، وينحس فيتعس به الاشقياء .

ومنهم من تنفذ بصيرته الى الحقيقة فيقف على ماهيأه الله من الاسباب التي تتبعها أحوال الأمم في صعودها وهبوطها ، ويعلم أن ماسيق من الخير لأمة إنما كان بأيدي آحاد من أماثلها جدوا وجاهدوا ، وبما بذلوا من نفائسهم وأنفسهم فازوا بتأصيل المجد لشعوبهم وبني جنسهم ، ويرى لأولئك الأعلام ذكراً يرفع،

---

*) نشرت في العدد الثاني عشر من جريدة العروة الوثقى في ١٠ رمضان ١٣٠١ و٣ يونيه سنة ١٨٨٤

ومكانة من القلوب تحمد ، وتميزاً عند الخلف بالكرامة، وهم لم يخالفوا الناس في جسومهم ودمائهم وإنما تقدموهم بهممهم ، وقد يسوقه الاعتبار الى الاقتداء بهم رغبة في اقتطاف ثمار الثناء وتخليد الذكر ، فاذا أخذ مأخذهم واستقام على طريقهم فلا يكاد يخطو بعض خطوات ومبدأ المسير تحت نظره، حتى تتعثر أقدامه في أياد مقطعة ، ورءوس مجذوذة ، وأشلاء مبددة ، وشعور منثورة ، وصدور مدقوقة، ويشهد الطريق مضرسة بقبور الشهداء من طلاب الحق والناهجين في منهاجه ، ولا محيص له عن سلوكها ، وتبدو له غابات وأدغال يرجع اليه منها صدى زئير الآساد وزمجرة الضراغم ، ولا بد له من اختراقها

هكذا تنكشف لطالب المعالي موحشات مدهشات مصاولة، الخاطر أدناها، والموت الشريف أقصاها وأعلاها ، فتارة يخور عزمه ، ويضعف همه ، فينكص على عقبيه ، ويرتد الى أسوإ حاليه ، ويرتع في مراتع أمثاله حتى يروح الى عطنه الاولى به وهو العدم ، وتارة يوحي اليه الالهام الالهي، أن الشخص في خاصته والأمم في هيئاتها ، ونوع الانسان في مجموعه، تطالبها صورة الابداع بأعمال شريفة دونها اجهاد الانفس في السعي وحملها على مالا تهوى، ومغالبة الاهوال والغوائل، وفيما أودع الله الانسان من القوى العالية ، والخواص السامية، أكبر مساعد على ماتندفع اليه الهمة ، وتنبعث له العزيمة .

ان من أحياه الله بالحياة الانسانية كلما هاجمته المصاعب لايزداد إلا حرصاً على قهرها، كما أن صاحب الشمم لايزيده الخصام إلا حدة في الجدال واصراراً على اقناع المخاصم . وكثير ممن على شكل الانسان يحيا حياته هـذه بروح حيوان آخر وهو يعاني فيها من الشقاء أشد مما يعانيه الانسان في ابراز مزايا الانسان

إن صاعد الجبل ربما يجد شيئاً من التعب ويخشى مفترسة الكواسر ولكن قد ينجو منها ويستريح على القنة ، ويعتصم بمكانة من الرفعة ، وتقصر عنه يد المتناول . وأمامن أخلد الى السفل فحظه من الحيـاة خوف لا ينقطع واشفاق لايزول . كل لحظة توعده بالسقوط في صيد الصائد ، والوقوع بين أنياب الغائل. مات من الناس كثير في طلب العلاء ولم ينالوا ، وبلغ كثير من الطالبين غاية ما

أملوا ، ولكن هلك بالفتك أضعاف هؤلاء وهؤلاء ممن رئموا الخمول ، ورضوا بالحياة الحيوانية — هذه أحاديث الحق ونفثات الروح الزكية تبعث من أيده الله ووهبه نعمة العقل الى مداومة السير واقتفاء أثر الماضين إلى أشرف المقاصد، فاما وصل وإما مات كما يموت الكرام

لم تنل أمة من الأمم مزية من المزايا المحمودة عند بني البشر ، سواء في العلوم والمعارف، أوالآداب والفضائل، أوالقوانين والنواميس العادلة ، أوالعسكرية وقوة الحماية ، حتى خرج آحاد منها الى ماتخشاه النفوس وتهابه القلوب ، وسلكوا تلك المسالك الوعرة ، فبلغوا بأممهم، أقصى مابلغت بهم هممهم، مع الاعتماد على العناية الالهية في جميع سيرهم

ماذا تريد العاملون في خدمة الأمم أو النوع الانساني ، والمنفقون لحياتهم في أعمال فادحة يعود نفعها على من تجمعه معهم جامعة الأمة أو الملة أو يشاركهم في النوع ؟ أليس قد جعل الله لكل شيء سببا ؟ أليس من سنة الله في عباده أن لاتتجه الارادة البشرية إلى حركة تصدر عن المريد الا بعد تصور غاية تعود الى ذاته ، وبعد اليقين أو راجح الظن بأنه يستفيد الغاية من العمل ؟ فان كان الأجل يذهب في مساورة الآلام الروحية ، والعمر ينفد في مناهدة الأوصاب البدنية . فماذا يقصدون من أعمالهم ؟ إن كان يوجد في أبناء جلدتهم ، وذوي ملتهم ، من يساعد حوادث الكون على ايلامهم ، وممانعتهم في مقاصدهم ، وصدهم عن السعي فيما يرجع خيره الى أنفس المعارضين ، ويثخن فيهم جراح اللوم والتقريع، والشماتة والتشنيع ، أو يدافعهم بالمكافحة والمنازلة ، فما الذي يبتغون من جدهم وكدهم ؟ لا لذة تجتني ، ولا ألم يتقي . فما هذا الباعث القوي الذي غلب الأهواء، ولم يضعفه جهد البلاء ؟

نعم أودع الله في الانسان ميلا أقوى من كل ميل ، وهو أخص خاصة فيه يمتاز بها عن غيره من الأنواع — وهو حب ﴿ المحمدة الحقة وحسن الذكر من وجوه الحق ﴾ أقول هذا تفاديا من حب المحمدة من أي وجه حقا كان أو باطلا، وطلب الثناء بالزور والغش والرياء ، والظهور بمظاهر الأخيار ، مع تبطن سرائر

الأشرار ، فان هذا من أسوأ الخلال ، وإنما يعرض بعد اعتلال الفطرة وفساد الطبيعة. المحمدة هي الغذاء الروحاني ، والمقوم النفساني، وكلما قرب الشخص من الكمال الانساني تهاون بالشهوات ، وازدرى اللذائذ الحسية ، وقوي فيه الميل الى المحمدة الباقية ، وبذل الوسع فيما يفيدها من جلائل الأعمال ، تأمل ، إن الفاضل يرى له في هذا العالم أجلين ، أقصاهما الأجل المحدود من يوم ولادته إلى نهاية العمر المقدر ، والآخر أبعد من هذا نهاية ، وبدايته عند ما ينجم من عمله الصالح أثر لمنفعة تشمل أمته أو تعم النوع الانساني . وغاية هذا الأجل عند ما يمحى أثره من ألواح النفوس وصفحات التاريخ . فللروح الفاضلة وجودان وجود في بدنها الخاص ، ووجود في جميع الأبدان، وهو ما يكون بحلولها من كل روح محل الكرامة والتبجيل . ولا ريب أن هذا الأجل الطويل ، وهذا الوجود العريض ، خير من ذلك الأجل القصير ، والوجود الكز (١) وحقيق بالانسان أن يبيع ماهو أدنى بالذي هو خير

يطول بي الكلام فأقصر . إن الله الذي وهب كل نوع ما به كماله وضع في جبلة البشر ميلا الى الحمد ، وألهمهم تأدية حقه لمستحقه . ألم تر انطلاق الألسن في كل أمة بالثناء على من كان سبباً لها في مجد ورفعة ، أو نهوض من سقطة، أو توحيد كلمة ، أو تجديد قوة، أو كمال في فضيلة، أو تقدم في علم أو صنعة، ويرسمونه في الألواح ، ويسجلون مدحته في بطون التواريخ ، ويرفعون لها الهياكل والتماثيل ، ويحفظون له ذكراً حميداً يتناقله الأبناء عن الآباء ، حتى ينقرضوا أو ينقرض العالم ؟ إذا جحدت الأمة حق العامل لها أو قصرت في استحسان عمله ، ضعفت الهمم ، وقل السعي في المصالح العامة ، وانقبضت الأيدي عن تعاطيها ، فهبطت شؤون الامة ، فافترقت وماتت

إن الله جل شأنه قرن كل حادث بسبب ، فاذا استوى لدى الامة الحسن والقبيح ، والطيب والخبيث ، والفضيلة والرذيلة ، والمصلحة والمفسدة ، وفقد منها التمييز ، ولم تقدر أعمال العاملين حق قدرها ، ولم تعرف معروفا ، ولم تنكر

(١) الكز اليابس والمنقبض . وكز اليدين بخيل والمراد هنا مالا خير فيه

منكراً ، سلبت آحادها الميل الى المعالي والكمالات ، وكان هذا أشد نكاية بها من جور الظالمين ، وتغلب الغالبين ، ظلم الظالمين لا يدوم ، وسطوة الغالب لا تثبت إذا كان جمهور الامة يقابل الاحسان بالاعتراف ، والفضل بالحمد ، فانه يوجد منها من يشتري هذه المكافأة بتخليصها وإنقاذها . وأما فقدهذا الاحساس الشريف ، فهو أشبه علة بالهرم لاعقبي له الا الموت والهلاك

كيف لاتكون المحمدة الحقة نعمة على النفوس الانسانية ، يسعى لها الأعلون من بني الانسان . وقد امتن الله بها على نبيه فيما يقول له (ورفعنا لك ذكرك)

وكيف لا تكون حقا تطالب به الطبيعة وقد سمح الله لمستحقها بالتحدث بنعم الأعمال الصالحات ؟ كما سوّغ ذلك لنبيه في قوله (وأما بنعمة ربك فحدث)

قلب طرفك في تواريخ الأمم أقصاها وأدناها، تجد برهانا قاطعاً على أن الامة متى بخست قيم الاعمال العالية ، وازدري فيها بشأن الفضيلة ،فقدت ما به قوامها وانهدم بناؤها ، وذهبت كما ذهب أمس . ولا جرم إن الكفران مقرون بزوال النعم

يمكنني أن أختم كلامي هذا بكلمة شكر لهذه العصابة الطاهرة التي أقدمت فى هذه الأوقات النحسة ، ووقفت على شفير الخطر ، وكتبت على نفسها السعي فى توحيد المسلمين . ويسرنا أن نرى عددها كل يوم في ازدياد ، نسأل الله نجاح أعمالها وتأييد مقاصدها ، إنه نعم المولى ونعم النصير

المقالة الرابعة عشرة

الشرف (*

كلمة يهتف بها أقوام مختلفة من الناس ، الا أن أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون : فئة ترى الشرف في تشييد القصور ، والتعالي في البنيان ، وزخرفة الحوائط والجدران ، ووفرة الخدم والحشم ، واقتناء الجياد ، وركوب العربات .

وفئة أخرى تتوهم أن الشرف في لبس الفاخر من الثياب ، والتزين بألوان الألبسة وأنواعها ، والتحلي بحلي الجواهر الثمينة ، مرصعة بالاحجار الكريمة ، كالألماس والياقوت والزمرد ونحوها . وفئة تتخيل الشرف في الألقاب والرتب كالبيك والباشا ، أو في الوسامات المعروفة بالنياشين وعلوّ أسمائها كالأول من الصنف الفلاني ، والثاني من الدرجة الفلانية . حتى إنك ترى الرجل يسلب مال أخيه ، وينهب ثروة أقاربه وذويه ، أو بني ملته ومواطنيه ، ليشيد بما يصيب من السحت قصراً ، ويرفع ويزخرف بيتاً ، ويقيم له حراساً من المماليك ، وخفراء من الغلمان ، ويظن بذلك أنه نال مجداً أبديا وفخاراً سرمديا . وصح لحاله أن يعنون بعنوان الشرف . وتجد الآخر يذهب في الكسب أشنع مما يذهب الاول ليكتسي برفيع الثياب ، ويتزين بأجمل الحلي ، أو ليكون له من ذلك مايفاخر به أمثاله ، ويتخيل أنه بلغ به درجة من الرفعة لايدانى فيها . ويعبر عن حاله هذا بلفظ الشرف ، ويتوهم أنه وصل الحقيقة من معناه — ومنهم ثالث يسهر ليله ويقطع نهاره بالفكر في وسيلة ينال بها لقباً من تلك الألقاب ، أو يحصل بها وساماً أو يستفيد وشاحا . وسواء عنده الوسائل يطلبها أيا كان نوعها، وإن

---

*) نشرت فى العدد الثالث عشر من جريدة العروة الوثقى بتوقيع محمد نجيب الإسكندري الحسيني وقد سألت الاستاذ الإمام رحمه الله عن محمد نجيب هذا فقال انه اسم مستعار فالمقالة من انشائه رحمه الله تعالى

أفضت الى خراب بلاده أو تذليل أمته أو تمزيق ملته . وعنده أنه رقي الذروة من معنى الشرف

نحن نرى هذه الأوهام قائمة مقام الحقائق في أذهان كثير من الناس ، ولكن لا نظنها طمست عين الحق فيهم ، حتى عموا عن ادراك خطئهم وانحرافهم عن الصواب في وهمهم ؟ ماذا يجد من نفسه المباهي بقصوره ، وولدانه وحوره ؟ ألا يحس من نفسه أنه وان حاز منها أعلى ما يتصوره العقل ، فذاته التي هي أعز لديه من جميع ما كسب لم تستفد شيئاً من الكمال ، وأن جميع ما حصله فهو أجنبي عنه . وليس له نسبة اليه الا نسبة العناء في تحصيله ؟ ألا يرى أن كثيراً ممن بلغ مبلغه أو فاقه ، سلبتهم صروف الدهر ما بأيديهم ، فأصبحوا بصفاتهم وجواهر ذاتهم ، فان لم تكن على جانب من الكمال الانساني انخرطت في سلك الطبقات السافلة ، ولم يبق لهم في القلوب منزلة ولا في النفوس مكانة

ماذا يشعر به المفاخر بحليه ولباسه اذا تجرد منه وخلي بنفسه ان لم يكن لذاته حلية من الفضيلة وزينة من الكمال ؟ ألا يكون هو وعراة الفقراء سواء ؟ أولا يجد من سره عند المفاخرة أنه يجول مع الغانيات وربات الخدور في ميدان واحد ؟ ماذا يتصور الزاهي برتبته ، المعجب بوسامه ، ان لم يكن قبل وسمته أو الصعود لرتبته على حال تجل أو كمال يبجل . أليس يشعر أنه لو سلب الوسام أو نزع عنه الوشاح يعود الى منزلته من الاحتقار ؟ فان نال الكرامة عند بعض السذج واللقب معلق عليه ، أليس ذلك تعظيما للقب لا للملقب به ؟ ألا تكون هذه الكرامة عارضاً سريع الزوال ، بل رسما ظاهراً لا يمس بواطن القلوب ؟

نعم لهذه الألقاب الشريفة شأن يرتفع به النظر اذا سُبق بعمل يعترف عموم العالم بشرفه ، وكان اللقب دليلا عليه أو مشيراً اليه ، كما يكون لمثلها حال يسقط به الاعتبار اذا تقدمها فعلة يمقتها العقلاء من النوع البشري ، وكان الوسام واللقب عنوانا على ما اقترف كاسبه ، وعلامة على ما اجترم .

انظر وتدبر ولا تخطي فما أنت من الصواب ببعيد . إن عثمان الغازي الذى لقبه أعداؤه بأسد (بلاونه) نال رتبة ، ومنح لقباً ، وحظي بمكانة رفيعة بين

الطبقة العليا من العظماء في دولته ، بعد ما دفع بروحه للموت في المدافعة عن ملته ، وجاهد في إعلاء كلمة دينه بما شهد له به الأعداء والأصدقاء — وأن بعض الامراء في ديار اسلامية علقت عليهم ألقاب شريفة من دولة كدولة الانكليز جزاءهم على ما تقدموا أمام جيوش أعدائهم لافتتاح بلادهم، حتى مكنوا الانكليز من ديارهم . وجميع المسلمين الآن يكابدون الجهد في إيجاد الوسائل لخروجهم منها — أين موقع النيشان من صدر عثمان باشا الغازي من موقعه على صدر أولئك المخدوعين ، أظن رجع النظر بين الموقعين يثبت لك أن النيشان يشرف بشرف العمل الذي جعل دليلا عليه ويسقط بسقوطه .

ماذا غرّ أولئك الواهمين على اختلافهم ؟ ألا يعلمون أن الثياب المعلمة بالدم، الموشاة بالنجيع ، الملونة بالمهج ، هي التي حفظت للابسيها ذكراً حسناً لا ينقطع ، وأثراً مجيداً لا يمحى . إن الذين ضرجوا بدمائهم في طلب المجد للمتهم ، هم الذين خشعت لذكرهم الأصوات ، وأجمعت على فضلهم خواطر القلوب . ألم يصل اليهم أن الذين قضوا نحبهم في غيابات الجب ، وانتهت حياتهم في ظلمات السجن، لطلب حق مسلوب ، أو حفظ مجد موجود ، هم الذين سما ذكرهم الى شرف الشمس الأعلى ، وعلت أسماؤهم على جميع الأسماء . أظن أن الذين كانوا في الغرفات العالية ينظرون الى جناتهم وحدائقهم ، ويشرفون على الناس من شرفات قصورهم ، وقصروا حياتهم على التمتع بما نالوا ، لم يبق لهم ذكر ، ولم يكن لهم في حياتهم شأن ، إلا ما هو محصور في دوائر بيوتهم . ولا يختلف عنهم أولئك الذين كانوا يسحبون مطارف الرفة ويكتسون حلل الخز والديباج ، ذهبوا وذهبت معهم أكسيتهم ، وارتدوا من حيث أتوا لا يعلم متى جاؤا إلى الدنيا ، ومتى انكشفوا عنها

هل سمعنا أن أحداً يذكر بين بني البشر بأنه نال نيشان كذا وحصل رتبة كذا ؟ نعم يقولون : علم وعمل ، وأعطى وبذل ، ورفع ووضع ، وجاهد وكافح ، وأباد وأبقى ، وما يشاكل ذلك من الاعمال التي لها أثر ثابت . إذا ذكر الاسكندر الأكبر هل يخطر بالبال إن كان له قصر أولا ؟ أي أبله يطالب سيرة

نابليون الأول في آثار قصر كان يسكنه ، أو في خرق ثياب كان يلبسها ؟ وهل بلغ عظماء العالم مابلغوا من مقامات الشرف بعد ماشيدوا وزينوا وترفهوا وتنعموا ، أم كان جميع ماينالون من ذلك بعد أن يسودوا ويفتحوا ويغلبوا ويأخذوا بالنواصي ؟

خدع قوم بالاحلام وغرتهم الأوهام ، ففرطوا في شؤون بلادهم ، وباعوا مجدها الشامخ بتلك الاسماء التي لامسمى لها ، وزعموا وإن لم تطاوعهم ضمائرهم أنهم رقوا من مكانة الشرف وإن كان خاصا بهم بعد ما علموا أن الرتب والنياشين جاوزت حدّها ، ونالها غير أهلها ، فلو أنهم أصغوا لما تحدثهم به سرائرهم ، وتعنفهم به خواطر أفئدتهم ، ورمقوا بأبصارهم ما يحيط بهم ، لعلموا أنهم في أخس المنازل وأبعد المزاجر ، وأدركوا خطأهم في معنى الشرف وجورهم عن جادة الصواب في طلبه .

— لو أحسوا بما رزئت به أوطانهم ، وما لصق من الذل والعار بذراريهم لطرحوا الوشاحات ، وتبذوا الوسامات ، ولبسوا أثواب الحداد ، ونفروا خفافا وثقالا لطلب الشرف الحقيقي

— الشرف حقيقة محدودة كشفتها الشرائع ، وحددتها عقول الكاملين من البشر . وليس لذي شاكلة إنسانية أن يرتاب في فهمها ، إلا من ختم الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة .

— الشرف بهاء للشخص ، يحوّم عليه بالأنظار ، ويوجه اليه الخواطر والأفكار ، وجمال يروق حسنه في البصائر والابصار .

ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه طالبه ، يكون له أثر حسن في أمته أو بني ملته ، أو في النوع الانساني عامة ، كانقاذ من تهلكة ، أو كشف لجهالة ، أو تنبيه لطلب حق سلب ، أو تذكير بمجد سبق ، وسؤدد سلب [1] أو إنهاض من عثرة ، أو إيقاظ من غفلة ، أو إرشاد لخير يعم ، أو تحذير من شر يغم ، أو

(١) في الاصل سلق باللام فهو محرف عن سُلب أو عن سمق بالميم بمعنى علا وارتفع وهذا اقرب الى اللفظ وذلك اليق بالاسلوب

تهذيب أخلاق ، أو تثقيف عقول ، أو جمع كلمة وتجديد رابطة، أو إعادة قوة ، وانتشال[1] من ضعف أو ايقاد حمية أو حضو لغيرة.

من أتى عملا من الاعمال له أثر من هذه الآثار فهو الشريف وان كان يسكن الخصاص والأكواخ ، ويلبس الدلوق والأسمال ، ويقتات بنبات البر ، ويبيت على تراب القفر ، ويتوسد نشز الأرض ، ويضرب في كل واد ، ويتردد بين الربا والوهاد ، هذا له حلية من عمله ، وزينة من فضله ، وبهاء من كماله ، وضياء من جده ، يهدي اليه ضالة الألباب ، وتائهة الافئدة، تعرفه المشاعر الحساسة ولا تنكره ، وتكتنفه ذرات القلوب المتطايرة اليه ولا تنفصل عنه . له من روحه قصور شاهقة ، وغرفات شائقة ، ومناظر رائقة ، وجمال باهر ، ونور زاهر ، لايكاد يخفى حتى يظهر ، ولا يكاد يستتر حتى يبصر ، اليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه الى أعلى عليين . حياة طيبة في القلوب ، وعزة مشرقة في جبهة الزمان (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون)

نعم قد ينبعث عليه من أرباب الطباع الفاسدة بعض الكرائه ، فيسلقونه بالالسنة ، ويرشقونه بسهام اللوم ، ولا تروق في أنظارهم أزهار أعماله . ولا أنوار مزاهره ، لبعدها عن فهمهم ، وغرابتها على حواسهم، لما ألفوه من الانكباب على تلك السفاسف الساقطة ، التي عدّوها شرفا ، وحسبوها مجداً . وقد بيناها كما كشفتها الشرائع وآراء العقلاء . وانما مثلهم مثل الجعل ينفر من رائحة الورد ويألف روائح القذر . لا يبعد أن يسخر بالعامل الفاضل أناس لاخلاق لهم ، أو يقصده بالاضرار من لاذمة له ، ولكنهم بأنفسهم يهزؤن ، وبمصالحهم يضرون ، ولا يطول عليهم الزمان في هذا العمى ، بل لا يلبثون اذا بدت الثمرة الشهية أن يهرعوا لاقتطافها ، ويطعموا من جناها . ولا يسعهم بعد ذلك الا الحمد لغارس الشجرة وحافظ الثمرة ، وان كان دونهم في تلك الزخارف التي لا قيمة لها في

[1] الانتشال اخذ اللحم عن العظام او نشله من القدر بالمنشال « حديدة معقوفة لأجل النشل » واستعمله المتأخرون من الكتّاب بمعنى الانتياش وهو الانقاذ من التهلكة . ومعنى المادتين في الاصل متقارب

نظر العاقل . ثم يكون عقابهم على ما فرط منهم ندم على الخطيئة ، وأسف على السيئة ، وألم في قلوبهم ، تهيجه ذكرى ما قدموا من سوء عملهم ، وانكشاف نقصهم لدى وجدانهم . هكذا تمنح العناية الالهية هذه الكرامة لصاحب العمل الشريف مادام حيا . فاذا غابت شمسه عن أفق هذا العالم لم تحجب أشعة ضيائه التي فاضت منه على نجوم هاديات، وبدور منيرات . نعم انه يموت ويتوارى خلف حجاب العدم بجسمه ، ولكنه قائم في الافئدة ، شاهد على الألسنة ، حيّ يرزق عند ربه ، ونعمت الحياة حياته . ولمثل هذا فليعمل العاملون

المقالة الخامسة عشرة

دعوة الفرس الى الاتحاد مع الافغان (*

إذا أراد الله بقوم خيرا جمع كلمتهم

سرنا من الجرائد الفارسية صدقها في خدمة أوطانها واعتدالها في مشاربها، وزادنا مسرة اهتمامها بترجمة بعض الفصول المهمة من جريدتنا ، ونقلها الى اللسان العذب الفارسي مما تظن فيه تنبيها لأفكار المسلمين ، واستلفاتاً لعقولهم الى ما فيه خيرهم ، فلها منا ومن كل مخلص في محبة ملته أوفر الشكر خصوصاً جريدة (اطلاع) التي تطبع في مدينة طهران . وهذا المنهج القويم مما تعم به الفائدة في جميع الاقطار الاسلامية ، فان جميعها بعد بلاد العرب وان اختلفت ألسنة سكانها باختلاف شعوبهم ، الا أنهم ينطقون باللغة الفارسية ، فهي في الشرق كاللسان الفرنساوي في الغرب ، وكان بودنا أن يعززوا أفكارنا بما تجود به قرائحهم السليمة ، وأذهانهم الصافية ، وترشدهم اليه عقولهم العالية ، خصوصاً فيما يتعلق بالدعاء للوحدة الاسلامية ، واحياء الرابطة الملية بين المسلمين ، لاسيما في الاتفاق بين الايرانيين والافغانيين .

*) نشرت فى العدد الرابع عشر من جريدة العروة الوثقى فى ٢٢ شوال سنة ١٣٠١ و ١٤ اغسطس سنة ١٨٨٤

هاتان طائفتان هما فرعان لشجرة واحدة ، وشعبتان ترجعان لأصل واحد هو الاصل الفارسي القديم . وقد زادهما ارتباطا اجتماعهما في الديانة الحقة الاسلامية، ولا يوجد بينهما الا نوع من الاختلاف الجزئي لا يدعو الى شق العصا ، وتمزيق نسيج الاتحاد ، وليس بسائغ عند العقول السليمة أن يكون مثل هذا التغاير الخفيف سبباً في تخالف شديد

ليس ببعيد على همم الايرانيين وعلوّ أفكارهم أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الاسلامية، وتقوية الصلات الدينية، كما قاموا في بداية الاسلام بنشر علومه ، وحفظ أحكامه ، وكشف أسراره . وما قصروا فى خدمة الشرع الشريف بأي وسيلة .

نعم البخاري ومسلم والنيسابوري والنسائي والترمذي وابن ماجه وأبو داود والبغوي وأبو جعفر البلخي والكليني وغيرهم ممن أنبتتهم اراضي ايران .

أبو بكر الرازي الطبيب الشهير والامام فخر الدين الرازي ممن نشأوا في طهران، أبو حامد الغزالي حجة الاسلام وأبو اسحق الاسفرايني والبيضاوي وخواجه، نصير الدين الطوسي والأبهري وعضد الملة والدين وغيرهم من علماء الكلام والأصول ممن تفتخر بهم بلاد فارس وهم فخار المسلمين .الفيلسوف الشهير أبو علي ابن سينا وشهاب الدين المقتول ومن على شاكلتهم ممن جبلوا من تراب فارس

أن أهل فارس كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربي وضبط أصوله ، وتأسيس فنونه ،منهم سيبويه وأبو علي الفارسي والرضي ،ومنهم عبد القاهر الجرجاني مؤسس علوم البلاغة لبيان إعجاز القرآن وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية . وصاحب صحاح الجوهري من إحدى قراهم ، ومجد الدين الفيروزآبادي من إحدى بلدانهم

الزمخشري والسكاكي وأبو الفرج الاصفهاني وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم ممن بينوا دقائق القرآن وشيدوا معالم الدين كلهم من أرض فارس .

الطبري أول المؤرخين ، والاصطخري والقزويني أول الجغرافيين ، كانوا من بلاد فارس

الشبلي كان من نهاوند ، وأبو يزيد البسطامي كان من بسطام، والاستاذ الهروي وهو الاستاذ الحقيقي للشيخ محيي الدين بن العربي كان من هراة، وكلها بلاد ايران

هل ينسى صدر الشريعة وفخر الاسلام البزدوي والآمدي والمرغيناني والسرخسي والسعد التفتازاني والسيد الشريف والأبيوردي وكلهم من أبناء فارس . من أين كان القطب الشيرازي والصدر الشيرازي ورأس الحكمة في المتأخرين مير باقر الداماد ومير فندركسي وغيرهم ؟ كانوا من بلاد فارس (١)

أي فضل كان، ولم يكن لهم فيه اليد الطولى، أي مزية من الله بها على الاسلام ولم يكونوا من السابقين لاقتنائها ، نعم وفيهم جاء من قول النبي صلى الله عليه وسلم « لو كان العلم في الثريا لناله رجال من فارس » (٢)

---

(١) أن كثيراً من هؤلاء العلماء كانوا من العرب فنسبتهم الى بلاد الفرس نسبة بلد وتربة لا جنس ولا لغة ، وكان منهم الفارسي المعروف الاصل كسيبويه والجوهري ... والعربي المعروف النسب كعبد القاهر الجرجاني والسيد الجرجاني والمجد الفيروزبادي وابوالفرج الاصفهاني وأبو اسماعيل الهروي الانصاري ... ومنهم المجهول النسب كالغزالي. وذلك ان الاسلام مزج بعضهم ببعض فكانوا أمة واحدة لا تفاضل بينها إلا بالعلم والعمل الصالح . ثم فرقت السياسة بين العرب والفرس . وستجمع بينهم السياسة التي جعلت الجميع مهددين باستعباد الافرنج لهم

(٢) الحديث مروي عن أبي هريرة مرفوعا بلفظ « لو كان الايمان عند الثريا لتناوله رجال من فارس » هكذا ذكر في الجامع الصغير وعليه رمز اتفاق البخارى ومسلم (ق) ورمز الترمذى وبجانبه الاشارة إلى ضعفه وهي غلط من الطبع . ثم ذكره عنه بلفظ « لو كان العلم معلقا بالثريا لتناوله قوم من أبناء فارس » وعزاه إلى الحلية لابي نعيم والالقاب للشيرازى مع علامة الضعف . وسبب ذلك انه من طريق شهر بن حوشب وهو مختلف فيه وثقه جماعة وضعفه آخرون . ولعل أعدل الاقوال فيه ماذكره الترمذي عن البخاري قال عنه : شهر حسن الحديث ، وقوى أمره اه وروى عنه مسلم وأصحاب السنن الاربعة . وأما الحديث الاول المتفق عليه فروي بلفظ الدين وبلفظ الايمان وروى في سببه انه لما نزلت سورة الجمعة وقرأ النبي (ص) قوله تعالى بعد آية بعثته في الاميين ـ أي العرب ـ (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) قال أبو هريرة الراوي قلت من هم يارسول الله ؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثا (قال) وفينا سلمان الفارسي وضع رسول الله (ص) يده على سلمان ثم قال « لو كان الايمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء »

فياأيها الفارسيون تذكروا أياديكم في العلم وانظروا الى آثاركم في الاسلام وكونوا للوحدة الدينية دعامة، كما كنتم للنشأة الاسلامية وقاية.

أنتم بما سبق لكم أحق الناس بالسعي في استرجاع ماكان لكم في فتوة الاسلام، أنتم أجدر المسلمين بوضع أساس للوحدة الاسلامية وما ذلك ببعيد على طيب عناصركم وقوة عزائمكم. أظن أنه لايخفي عليكم أن هذا الوقت هو أحسن الاوقات لندائكم بالوحدة مع الافغانيين، والتحالف معهم على مقاومة العادين، لتكونوا بالاتحاد معهم حصناً حصيناً وحرزاً منيعاً تقف دونه أقدام الطامعين.

أظنكم لم تنسوا أن استيلاء الانكليز على الممالك الهندية إنما تم بوقوع الخلاف بينكم وبين الافغانيين .....

هل يخفي عليكم أن كل مسلم في الهند شاخص بصره إلى طرف بنجاب ينتظر قدومكم اذا اتحدتم مع اخوانكم الافغانيين. ؟ حصلت لكم تجارب كثيرة، وشهدتم من مظاهر الحوادث مافيه أكمل عبرة، فهل يصح بعد هذا أن تستمروا على التجافي والتباعد مع علمكم أن الوحدة منبت الشوكة.

هذا آن التآخي والتوافق، هذه أوقات التحالف والتواثق، أحاط الاعداء ببلادكم، شرقاً وغرباً وكل يشحذ سيفه ويسدد سهمه، حتى تمكنه الفرصة من شن الغارة على أطراف بلادكم، فلو ضاعت الفرصة في هذا الوقت فربما لاتصادفونها في غيره. الانكليز في ارتباك شديد في المسئلة المصرية مع ضعفهم في القوة العسكرية، ومتورطون باختلاف الدول عليهم ومعاكستها لمقاصدهم

الامير عبد الرحمن خان أمير أفغانستان على مانعهده من أول شبوبيته أشد الناس عداوة للانكليز، وبينه وبينهم حزازات لاتزول، بل نقول إن عداوة الانكليز سارية في عروق الافغانيين عموماً ممتزجة بدمائهم. فلو حصل الاتفاق الآن بين سلطنة الشاه وبين إمارة الافغان لوجدت قوة اسلامية جديدة في المشرق بين سائر الطوائف الاسلامية، وينبعث فيهم وفي سائر المسلمين حياة جديدة، وتتجدد لهم آمال جليلة، وتنتعش بذلك أرواح المؤمنين. هذا وقت تنبهت فيه أفكار الافغانيين إلى أعمال جيرانهم في المسئلة المصرية، وتحركت

فيهم السواكن، وهي أعظم فرصة لأهل فارس في دعوتهم للاتحاد معهم

هذا عمل من أجل الاعمال وأجزلها فائدة ، وإن من أكبر الفضل أن يقوم أهل الفضل من أهالي ايران بتحرير الفصول ونشر الرسائل في بيان فوائد الاتفاق بين الطائفتين ، وإن لذلك لأثراً عظيما في النفوس خصوصاً إن كانت من أقلام العلماء الاعلام ، والمجتهدين الكرام .

العالم الانساني عالم الفكر والكلام فاحكام الفكر الصالح ونشره في الكتب والرسائل والجرائد مما يؤثر أجمل الأثر في تهذيب الناس وتثقيف عقولهم، وإزالة الضغائن المفسدة لمعاشهم ومعادهم ، فاذا قام المستبصرون وخطبوا ووعظوا ، وكتبوا ونشروا، مع الوقوف عند الحدود الدينية والأصول الشرعية، كان فضل الله كافلا لهم النجاح .

أي فرق بين الافغانيين واخوانهم الايرانيين ؟ كل يؤمن بالله وبما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . عبد الرحمن خان بما أكسبته التجارب أول من يتقدم لهذا الاتفاق ، ولا نشك أن شاه ايران لما اطلع عليه في سياحاته وشاهده في أسفاره لا يأبى المبادرة اليه والسعي فيه . إن البادىء بالعمل في هذا المقصد الاسمى هو صاحب الفضل الاعظم بين المسلمين خصوصاً وبين العالم عموماً ويجني ثمرته في وقت قريب . كان الألمانيون يختلفون في الدين المسيحي على نحو مايختلف الايرانيون مع الافغانيين في مذاهب الديانة الاسلامية ، فلما كان لهذا الاختلاف الفرعي أثر في الوحدة السياسية ظهر الضعف في الأمة الألمانية، وكثرت عليها عاديات جيرانها ، ولم يكن لها كلمة في سياسة أوربا ، وعند مارجعوا الى أنفسهم وأخذوا بالاصول الجوهرية، وراعوا الوحدة الوطنية في المصالح العامة، أرجع اليهم من القوة والشوكة ماصاروا به حكام أوربا وبيدهم ميزان سياستها .

رجاؤنا في الأفاضل الكرام صاحب جريدة (فرهنك) الأصفهانية وصاحب جريدة (اطلاع) الطهرانية وسائر أرباب الجرائد الايرانية، أن يوجهوا أفكارهم الى هذا المطلب الرفيع ويجعلوا له محلا فسيحاً فى جرائدهم وينشروها فى بلادهم وبلاد الافغان باللسان الفارسي وهو لسان الطائفتين . وما هي إلا أيام ثم نرى علائم النجاح إن شاء الله رب العالمين .

المقالة السادسة عشرة

امتحان الله المؤمنين (*

آلم . أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين

من الناس بل أغلب الناس يقول : آمنا : وللايمان آثار . ثم يحسبون أن الله يتركهم وما يقولون ، ويدعهم وما يتوهمون ، ويعاملهم سبحانه وهو الحكم العدل بما يظنون في أنفسهم قبل ان يبتليهم أيهم احسن عملا ، حتى تظهر أنفسهم لأنفسهم ، ويعلموا هل هم حقيقة مؤمنون أو هذه دعوى سولتها النفس ، وغرت بها الأماني ، وأنهم تائهون في أوهامهم يحسبون أنهم على كل شيء ، وهم خلو من كل شيء ، ولما يدخل الايمان في قلوبهم . ألا انهم في حسبانهم لمخطئون ، فلن يدع الله المغرور في غيه حتى يبتليه في دعوى الايمان ليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين . ولئلا تكون للناس على الله حجة . حاشا حكيما أنزل الكتب وأرسل الرسل ، ووعد وأوعد ، وبشر وأنذر ، وقوله الصدق ، ووعده الحق ، أن يجازي من بنى عقيدته على خيال ليس له أثر وظن ليس له أساس بالسعادة السرمدية والنعيم الأبدي . إن المغتر بزعمه الحائر في ظلمات أوهامه ، الذي لا يسهل عليه الايمان احتمال المشاق ، تجشم المصاعب في سبيله ليس بمعزل عن المنافقين الذين حكم الله عليهم بالشقاء الأبدي والعذاب المخلد . الايمان يغلب كل هوى ، ويقهر كل أمنية ، ويدفع بالنفس إلى طلب مرضاة الله بلا سائق ولا قائد سواه .

يقول الله وهو أصدق القائلين (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم

*) نشرت في العدد الخامس عشر من جريدة العروة الوثقى في يوم الخميس في ٦ ذي القعده سنة ١٣٠١ و ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٤

الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) هذا قضاء الله وهذا حكمه على الذين يستأذنون في بذل أرواحهم وأموالهم في أداء فريضة الايمان . حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون

صدق الله وصدقت كتبه ورسله ، إن للعقائد الراسخة آثاراً تظهر في العزائم والأعمال ، وتأثيراً في الأفكار والارادات، لا يمكن للمعتقدين أن يزيحوها عن أنفسهم ماداموا معتقدين . هكذا الايمان في جميع شؤونه وأطواره ، له خواص لا تفارقه، ونزعات لا تزايله ، وصفات جليلة لا تنفك عنه ، وخلائق عالية سامية لا تباينه ، بها كان يمتاز المؤمنون في الصدر الأول وكان يعترف بمزيتهم وعلو منزلتهم من كانو يجحدون عقيدتهم

نعم هم الذين صبروا في نيران امتحان الله وابتلائه حتى ظهر إيمانهم ذهباً ابريزاً صافياً من كل غش، وأعد الله لهم جزاء على صبرهم نعيما مقيما . ماأصعب ابتلاء الله وما أشد فتنته وما أدق حكمته في ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب . نعم ان دون ابتلاء الله خلع العادات ،وتحمل الصعوبات، وبذل الأموال ، وبيع الأرواح . كل خطر فهو تهلكة ينبغي البعد عنها إلا في الايمان، فكل تهلكة فيه فهي نجاة ،وكل موت في المحاماة عن الايمان فهو بقاء أبدي، وكل شقاء في أداء حقوق الايمان فهو سعادة سرمدية . المؤمن يبذل ماله فيما يقتضيه إيمانه ولا يخشى الفقر ،وإن كان الشيطان يعده الفقر . ليس في النفقة لأداء حق الايمان تبذير ولو أتت على كل ما في أيدي المؤمنين . ان المؤمن حياة وراء هذه الحياة ،وان له لذة وراء لذتها ، وان له سعادة غير مايزينه الشيطان من سعادتها . هكذا يرى المؤمن إن كان الايمان مس قلبه ولو لم يبلغ الغاية من كماله

إن الفرار من محنة الله في الايمان مجلبة للخزي الأبدي. ان الفرار من صدمة جيش الضلال وإن بلغت أقصى ما يتصور ،موجب للشقاء السرمدي . لا سعادة إلا بالدين ودون حفظ الدين تطاير الأعناق . ان للايمان تكاليف شاقة وفرائض صعبة الاداء الا على الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى . ان القيام بفرائض الايمان

محفوف بالمخاطر مكتنف بالمكاره كيف لا وأول ما يوجبه الايمان خروج الانسان عن نفسه وماله وشهواته ووضع جميع ذلك تحت أوامر ربه . لن يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون الله ورسوله أحب اليه من نفسه . أول احساس يلم بنفس المؤمن انه في هذه الدنيا عابر سبيل الى دار أخرى خير من هذه الحياة وأبقى ، واول خطوة يخطوها المؤمن بذل روحه اذا دعاه داعي الايمان ، ولا داعي أرفع صوتاً وأبين حجة من نداء الحق على لسان أنبيائه . لا يقبل الله في صيانة الايمان عذراً ولا تعلة ، مادامت الرجل تمشي ، والعين تنظر ، واليد تعمل . ان امتحان الله للمؤمن سنة من سننه ، يميز بها الصادقين من المنافقين قرناً بعد قرن ، الى أن تنقضي الدنيا . في كل قرن يدعو الله المؤمنين الى قوم أولي بأس شديد ، فان يطيعوا يؤتهم الله أجراً حسناً ، وإن يتولوا يعذبهم عذاباً أليما . فميزان عدل الله منصوب الى يوم القيامة ، وهنالك الجزاء الأوفى ، فلا يحسبن الواسمون أنفسهم بسمة الايمان ، القانعون منه برسم يلوح في مخيلاتهم ، ان عدل الله يتركهم وما يظنون . كلا انهم في كل عام يفتنون ، فلينظر المفرطون في دينهم ضناً بأموالهم ، أو صوناً لأرواحهم ، ماذا يكون موقعهم من علم الله ؟ هل من الذين صدقوا أو من الكاذبين ؟ أرشد الله المؤمنين إلى وسائل خيرهم ، وبصرهم بعاقبة أمرهم .

المقالة السابعة عشرة

أسباب حفظ الملك (*

أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ؟فانها لا تعمي الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور

أهلك الله تعالى شعوباً ، وأباد قبائل ، ودمر بلاداً ، ولا يزال عدل الله يبدل قوماً بقوم ويأتي لكل حين بأناس آخرين * حكيم سبقت رحمته غضبه، جعل لكل عمل جزاء ، وعين بحكمته لكل حادث سبباً ، (ولا يظلم ربك أحداً) وليست أفعاله جزافاً ، ولا يصدر عنه شيء عبثاً * أمر الله عباده بالسير في الأرض فقال (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ليريهم قضاءه الحق وحكمه العدل فيمن سلف ومن خلف ، فيطيعوا أوامره ، ويقفوا عند حدود شرائعه ، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة * من كان له قلب يعقل وعين تبصر ،وعقل يفقه ، وتتبع حوادث العالم ، وتدبر كيفية انقلاب الأمم وخاض في تواريخ الأجيال الماضية ، واعتبر بما قص الله عليه في كتابه المنزل يحكم حكماً لا يخالطه ريب ، بأنه ما حاق السوء بأمة وما نزلت لها نازلة البلاء ، وما مسها الضر في شيء ، إلا وكانت هي الظالمة لنفسها بما تجاوزت حدود الله ، وانتهكت حرماته ، ونبذت أوامره العادلة ، وانحرفت عن شرائعه الحقة ، وحرفت الكلم عن مواضعه ، وأولت من كلامه تعالى على حسب الاهواء والشهوات ، كما أن للأغذية واختلاف الفصول والأهوية أثراً ظاهراً في الأمزجة بتقدير العزيز العليم ، كذلك اقتضت حكمة الله أن يكون لكل عمل من الأعمال الانسانية ولكل طور من أطوار البشر أثر في الهيئة الاجتماعية . ولهذا كان من رحمته بعباده

(* نشرت في العدد السادس عشر من جريدة العروة الوثقى في يوم الخميس في ٢١ ذي القعدة سنة ١٣٠١ و ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤

تحديد الحدود ، وتقرير الاحكام ليتبين الخير من الشر ، ويتميز النفع من الضر، فأرسل الرسل، وأنزل الكتب ، فمن خالف الأوامر الالهية فقد ظلم نفسه ، فليستعد لخزي الدنيا وعذاب الآخرة .

ان تأثير الفواعل الكونية في اطوار الحياة قد يخفى سببه حتى على الطبيب الماهر . وأما تأثير أحوال بني الانسان في هيئة اجتماعهم ، فيسهل الوقوف على سره لكل ذي ادراك،إن لم تكن عين بصيرته عمياء .

ألم تر أن الله جعل اتفاق الرأي في المصلحة العامة والاتصال بصلة الألفة في المنافع الكلية سبباً للقوة واستكمال لوازم الراحة في هذه الحياة الدنيا ، والتمكن من الوصول لخير الابد في الآخرة . وجعل التنازع والتغابن علة للضعف،وداعياً للسقوط في هوة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية ، ومهيئاً لوقوع المتنازعين في مخالب العاديات من الامم . فمن نظر نظرة في أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها، ولم يكن مصاباً بمرض القلب، وعمي البصيرة، أدرك سر أمر الله في قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً) وسر نهيه في قوله (ولا تفرّقوا — وقوله — ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)أي جاهكم وعظمتكم وعلو كلمتكم

ان الله تعالى جعل الركون الى من لا يصح الركون اليه ، والثقة بمن لا تنبغي الثقة به ،سبباً في اختلال الامن وفساد الحال ، فمن وثق في عمله بمن ليس منه في شيء ، ولا تجمعه معه جامعة حقيقية ، ولا تصل به رابطة صحيحة ، وليس في طبعه مايبعثه على رعاية مصلحته ، أو كتم سره ، ولا مايحمله على بذل الجهد في جلب منفعته ،ودفع المضار عنه ، فلا ريب يفسد حاله، ويسوء مآله ، وإن كان ملكا ضاع ملكه ، أو أميراً بطل أمره ، والحوادث شاهدة ، وأحوال المغرورين ناطقة. فمن لم يرزأ بعمى البصيرة يدرك بأول التفات سر نهي الله تعالى فى قوله(لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق)وقوله (لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر) وسائر نواهيه المبنية على الحكمة البالغة المرشدة إلى مصالح الدارين .

لكل شخص في طبقته من أمته عمل مفروض عليه ، وواجب يلزمه القيام به ، ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة في هذه الدنيا ، ويعدلها مآلا صالحا في الآخرة. وهو انسان له قلب واحد ، لو جعل معظم همه في شيء فاته سائر الاشياء ، فلو توغل في الشهوات ، وبالغ في الترف ، وبطر فيما أنعم عليه ، فقد أغفل فرائضه ، وأضر بنفسه ، وحرم من منافعه ، وحلّ به من عقاب الله أشد الوبال ، وخسر الدنيا والآخرة معاً . وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره ، واحترق بناره الموقدة بفساد أخلاقه وانحرافه عن سنن الحق من يساكنه في بلدته ، أو يواطنه في مدينته . وهذه آثار المترفين في كل أمة تنطق بما لا يعجم إلا على أذن صماء ، وتشهد بما لا يخفى الا على بصيرة كمهاء ، وان فيما قص الله علينا من أحوال المترفين لأكبر عبرة (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين [1] * حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون * لا تجأروا اليوم أنكم منا لا تنصرون [2] * ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) [3] هذه عواقب اللاهين بحظوظهم عما أوجب الله عليهم (ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى)

ما أوتي الانسان من العلم إلا قليلا . لا يمكن الانسان وحده أن يحيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه ، ولا أن يطلع على منابع فوائده ليكسبها ، أو يكشف مكامن مضاره فيتقيها ، خلق الانسان ضعيفاً فأرشده الله للاستعانة بغيره من بني جنسه (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) خلقنا محتاجين للعون مضطرين للنصير وهدانا ربنا للتعاون والتناصر .

هذا مما يحكم به العقل في المصالح الخاصة ، فكيف لو كان شخص ولاه الله رعاية أمة ، وألقى اليه بزمام شعب مصالحه العامة تحت ارادته ، وهو الوازع فيه والواضع والرافع . لاريب أن مثل هذا الشخص أحوج الى المشورة والاستفادة

(١) الآية من سورة القصص (٢٨ : ٥٨) (٢) هما من سورة المؤمنين (٢٣ : ٦٥ و٦٦) (٣) هي من سورة غافر (٤٠ : ٧٤) والاقتباس لا يشترط فيه الترتيب

من آراء العقلاء ، وهو أشد افتقاراً الى ذلك ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته ، وتكون سعة دائرة افتقاره الى التشاور على مقدار سعة سلطانه ، وقد أمر الله نبيه وهو المعصوم من الخطأ تعليما وارشاداً فقال (وشاورهم في الامر) وقال فيما امتدح به المؤمنين (وأمرهم شورى بينهم) أي بصر يزوغ عن هذا الصراط المستقيم ؟ وأي بصيرة لاتهتدي الى هذا المنهج القويم ؟ (أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين)

ان وازع البلاد والقائم على الملك لو لمح لمحة الى نفسه لرأى أن بلاده في كل وقت معرضة لاطماع الطامعين ، وأن الحرص المودع في طباع البشر يحرك جيرانه كل آن للسطوة على ممالكه ليذلوا قومه ، ويستعبدوا أهله ، ويستأثروا بمنافع أرضهم ، وثمار كدهم ، ويمحوها أبناء جلدتهم . فعليه وعلى من يشركه في أمره من عماله ، والحكام النائبين عنه في إيالاته ، وقواد جيشه ، وعلى كل أرباب الرأي ، ومن بهم قوام الملك ، أن يستعدوا لدفع طوارىء العدوان ، ورفع نوازل الغارات الاجنبية . فلو فرطوا في اعداد لوازم الدفاع ، أو تساهلوا فيما يكف عنهم سيل الاطماع ، أو تهاونوا فيما يشد قوتهم ، ويقوي شوكتهم ، بأي وجه كان ، ومن أي نوع كان ، فقد عرضوا ملكهم للهلاك ، وألقوا بأنفسهم في مهاوي الاخطار

هذا مما يفهمه الابله والحكيم ، ويصل اليه ادراك الجاهل والعليم . وهو سر الافصاح والابهام في قوله تعالى (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة) أمر باعداد القوة ووكلها الى الطاقة وحكم الاستطاعة ، على حسب مايقتضيه الزمان . وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم ، هذا أمر الله ينبه الغافل ، ويذكر الذاهل ، (فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً)

اعطاء كل ذي حق حقه ، ووضع الاشياء في مواضعها ، وتفويض أعمال الملك للقادرين على أدائها ، مما يوجب صيانة الملك وقوة السلطان ، ويشيد بناء السلطة ، ويحكم دعائم السطوة ، ويحفظ نظام الداخل من الخلل ، ويشفي نفوس الأمة من العلل . هذا مما تحكم به بداهة العقل ، وهو عنوان الحكمة التي قامت بها السموات والارض ، وثبت نظام كل موجود ، وهو العدل المأمور به على لسان الشرع في قوله

تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة فى كل جزء من أجزاء العالم يوجب فناءه واضمحلاله . كذلك الجور فى الجمعيات البشرية بسبب دمارها . لهذا حثت الاوامر الالهية على العدل، وكثر النهي فى الكتاب المجيد عن الظلم والجور . والحكام أولى من توجه اليهم الأوامر والنواهي فى هذا الباب . العدل هو الحكمة التي أمتن الله بها على عباده، وقرنها بالخير الكثير فقال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) . هي مظهر من أجل مظاهر صفاته العلية ، فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير

من سار فى الأرض ، وتتبع تواريخ الأمم ، وكان بصير القلب ، علم أنه ما انهدم بناء ملك ، ولا انقلب عرش مجد ، إلا لشقاق واختلاف ، أو ثقة بمن لا يوثق به ، وتخلل العنصر الاجنبي ، أو استبداد فى الرأي ، واستنكف عن المشورة ، واهمال في اعداد القوة ، والدفاع عن الحوزة ، أو تفويض الاعمال لمن لا يحسن أداءها ، ووضع الاشياء في غير مواضعها ، فيكون جور في الحكم ، واختلال في النظام ، وفي كل ذلك حيد عن سنن الله ، فيحل غضبه بالخاطئين وهو أحكم الحاكمين .

لو تدبرنا آيات القرآن ، واعتبرنا بالحوادث التي ألمت بالممالك الاسلامية ، لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه ، ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذي ضربه الله لنا وأرشدنا اليه ، وبيننا من اتبع أهواء الانفس وخطوات الشيطان ، (ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم) فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة ، وقواد الملة المحمدية ، أن يهتموا بتنبيه الغافلين عن ما أوجب الله ، وايقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين ، ويعلموا الجاهل ، ويزعجوا نفس الذاهل ، ويذكروا الجميع بما أنعم الله به على آبائهم ، ويستلفتوهم إلى ما أعد الله لهم لو استقاموا ، ويحذروهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع إلى ما كان عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه (رضي الله عنهم) ، ورفض كل بدعة ، والخروج عن كل عادة سيئة ، لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز ، ويقصوا عليهم أحوال الأمم الماضية ، وما نزل بها من قضاء الله عند ما حادت عن شرائعه ، ونبذت أوامره (فأذاقهم الله

الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)

على العلماء أن يزيلوا اليأس بتذكير وعد الله ووعده الحق في قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً) هذه وظيفة العلماء الراسخين ، وماهم بقليل بين المسلمين ، ولا نظنهم يتهاونون فيما فوض الله اليهم ، ووكل الى ذمتهم ، وهم أمناء الدين وحملة الشرع ، ورافعوا لواء الاسلام ، وأوصياء الله على المؤمنين ، أعانهم الله على خير أعمالهم ونفع المؤمنين بارشادهم .

المقالة الثامنة عشرة

سنن الله في الامم

وتطبيقها على المسلمين (*

إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم . ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا مابأنفسهم

تلك آيات الكتاب الحكيم ، تهدي إلى الحق والى طريق مستقيم ، ولا يرتاب فيها إلا القوم الضالون ، هل يخلف الله وعده ووعيده وهو أصدق من وعد وأقدر من أوعد ؟ هل كذب الله رسله ؟ هل ودع أنبياءه وقلاهم ؟ هل غش خلقه وسلك بهم طريق الضلال ؟ نعوذ بالله !! هل أنزل الآيات البينات لغواً وعبثاً ؟ هل افترت عليه رسله كذباً ؟ هل اختلقوا عليه أفكا ؟ هل خاطب الله عبيده برموز لايفهمونها واشارات لايدركونها ؟ هل دعاهم اليه بما لا يعقلون ؟ نستغفر الله ! أليس قد أنزل القرآن عربياً غير ذي عوج ، وفصل فيه كل أمر ،

*) نشرت في العدد السابع عشر من جريدة العروة الوثقي في يوم الخميس في ٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ و ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤

وأودعه تبياناً لكل شيء ؟ تقدست صفاته وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً. هو الصادق في وعده ووعيده ، مااتخذ رسولا كذاباً ، ولا آتى شيئاً عبثاً ، وما هدانا إلا سبيل الرشاد ، ولا تبديل لآياته ، تزول السموات والارض ولا يزول حكم من أحكام كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

يقول الله (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون — ويقول — ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين — وقال — وكان حقاً علينا نصر المؤمنين — وقال — ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا) هـذا ماوعد الله في محكم الآيات مما لا يقبل تأويلا ، ولا ينال هـذه الآيات بالتأويل ، إلا من ضل عن السبيل ، ورام تحريف الكلم عن مواضعه . هذا عهده الى تلك الأمة المرحومة ، ولن يخلف الله عهده ، وعدها بالنصر والعزة وعلو الكلمة ، ومهد لها سبيل ماوعدها إلى يوم القيامة ، وما جعل الله لمجدها أمداً ، ولا لعزتها حداً .

هذه أمة أنشأها الله عن قلة ، ورفع شأنها الى ذروة العلى ، حتى ثبتت أقدامها على قنن الشامخات ، ودكت لعظمتها عوالي الراسيات ، وانشقت لهيبتها مرائر الضاريات ، وذابت للرعب منها أعشار القلوب ، هال ظهورها الهائل كل نفس ، وتحير فى سببه كل عقل ، واهتدى الى السبب أهل الحق فقالوا : قوم كانوا مع الله فكان الله معهم ، جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأمدهم بنصر من عنده . هذه أمة كانت فى نشأتها فاقدة الذخائر ، معوزة من الاسلحة وعدد القتال ، فاخترقت صفوف الأمم واختطت ديارها ، ولا دفعتها أبراج المجوس وخنادقهم ، ولا صدتها قلاع الرومان ومعاقلهم ، ولا عاقها صعوبة المسالك ، ولا أثر في همتها اختلاف الاهوية ، ولا فعل فى نفوسها غزارة الثروة عند من سواها ، ولا راعها جلالة ملوكهم ، وقدم بيوتهم ، ولا تنوع صنائعهم ، ولا سعة دائرة فنونهم ، ولا عاق سيرها أحكام القوانين ولا تنظيم الشرائع ، ولا تقلب غيرها من الأمم في فنون السياسة . كانت تطرق ديار القوم فيحقرون أمرها ، ويستهينون بها ، وما كان يخطر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تزعزع أركان تلك الدول العظيمة

وتمحو أسماءها من لوح المجد . وما كان يختلج بصدر أن هـذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الأمم الكبيرة وتمكن في نفوسها عقائد دينها، وتخضعها لأوامرها وعاداتها وشرائعها، لكن كان كل ذلك ونالت تلك، الأمة المرحومة على ضعفها مالم تنله أمة سواها . نعم قوم صدقوا ماعاهدوا الله عليه فوفاهم أجورهم مجداً في الدنيا ، وسعادة في الآخرة .

هذه الأمة يبلغ عددها اليوم زهاء مئتي مليون من النفوس، وأراضيها آخذة من المحيط الاتلانتيكي الى أحشاء بلاد الصين — تربة طيبة ، ومنابت خصبة ، وديار رحبة ، ومع ذلك نرى بلادها منهوبة ، وأموالها مسلوبة ، تتغلب الاجانب على شعوب هذه الأمة شعباً شعباً ، ويتقاسمون أراضيها قطعة بعد قطعة ، ولم يبق لها كلمة تسمع ، ولا أمر يطاع ، حتى إن الباقين من ملوكها يصبحون كل يوم في ملمة ، ويمسون في كربة مدلهمة ، ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التي تلم بهم ، وصار الخوف عليهم أشد من الرجاء لهم

هذه هي الأمة التي كان الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يد وهن صاغرات، استبقاء لحياتهن ، وملوكها في هذه الايام يرون بقاءهم في التزلف إلى تلك الدول الأجنبية . ياللمصيبة ويا للرزية !!

أليس هذا بخطب جلل، أليس هذا ببلاء نزل ماسبب هذا الهبوط ، وما علة هذا الانحطاط ؟ هل نسيء الظن بالعهود الالهية ؟ معاذ الله ! هل نستيئس من رحمة الله ونظن أن قد كذب علينا ؟ نعوذ بالله ! هل نرتاب في وعده بنصرنا بعد ماأكده لنا ؟ حاشاه سبحانه ! لا كان شيء من ذلك ولن يكون، فعلينا أن ننظر لأنفسنا ولا لوم لنا إلا عليها ، ان الله تعالى برحمته قد وضع لسير الأمم سنناً متبعة ثم قال (ولن تجد لسنة الله تبديلا)

أرشدنا سبحانه في محكم آياته الى أن الامم ماسقطت من عرش عزها، ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود ، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنها الله على أساس الحكمة البالغة . ان الله لايغير مابقوم من عزة وسلطان ورفاهة وخفض عيش وأمن وراحة حتي يغير اولئك القوم مابأنفسهم من نور العقل

وصحة الفكر ، وإشراق البصيرة، والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة ، والتدبر في أحوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا وحلّ بهم الدمار، ثم لعدولهم عن سنة العدل ، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة ، حادوا عن الاستقامة في الرأي ، والصدق في القول ، والسلامة في الصدر ، والعفة عن الشهوات ، والحمية على الحق ، والقيام بنصره ، والتعاون على حمايتـه ، خذلوا العـدل ولم يجمعوا هممهم على إعلاء كلمته ، واتبعوا الأهواء الباطلة ، وانكبوا على الشهوات الفانية وأتوا عظائم المنكرات ، خارت عزائمهم ، فشحوا ببـذل مهجهم في حفظ السنن العادلة ، واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق ، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين

هكذا جعـل الله بقاء الأمم ونماءها في التحلي بالفضائل التي أشرنا اليها ، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها . سنّة ثابتة لاتختلف باختلاف الأمم ، ولا تتبدّل بتبدل الأجيال ، كسنته تعالى في الخلق والايجاد ، وتقدير الأرزاق، وتحديد الآجال .

علينا أن نرجع إلى قلوبنا ، ونمتحن مداركنا ، ونسبر أخلاقنا ، ونلاحظ مسالك سيرنا، لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالايمان؟ هل نحن نقتفي أثر السلف الصالح ؟ هل غيّر الله ما بنا قبل أن نغير مابأنفسنا ، وخالف فينا حكمه، وبدل في أمرنا سنته ؟ حاشاه وتعالى عما يصفون ، بل صدقنا الله وعده ، حتى اذا فشلنا وتنازعنا في الأمر وعصيناه من بعد ما أرى أسلافنا مايحبون، وأعجبتنا كثرتنا فلم تغن عنا شيئاً ، فبدّل عزنا بالذل ، وسموّنا بالانحطاط ، وغنانا بالفقر ، وسيادتنا بالعبودية . نبـذنا أوامر الله ظهريا ، وتخاذلنا عن نصره ، فجازانا بسوء أعمالنا ، ولم يبق لنا سبيل الى النجاة والانابة اليه . كيف لانلوم أنفسنا ونحن نرى الأجانب عنا يغتصبون ديارنا ويستذلون أهلها ، ويسفكون دماء الأبرياء من اخواننا، ولا نرى في أحد منا حراكا؟

هذا العـدد الوافر والسواد الأعظم من هذه الملة لا يبذلون في الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئاً من فضول أموالهم، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ،

كل واحد منهم يودّ لو يعيش ألف سنة ، وإن كان غذاؤه الذلة وكساؤه المسكنة، ومسكنه الهوان . تفرقت كلمتنا شرقا وغربا ، وكاد يتقطع ما بيننا ، لا يحنّ أخ لأخيه ، ولا يهتم جار بشأن جاره ، ولا يرقب أحدنا في الآخر إلاًّ ولا ذمة ، ولا نحترم شعائر ديننا ، ولا ندافع عن حوزته ، ولا نعززه بما نبذل من أموالنا وأرواحنا حسبما أمرنا

أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على الألسنة ولا يمس سواد القلوب ؟ هل يرضى منهم بأن يعبدوه على حرف ؟ فان أصابهم خير اطمأنوا به ، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة؟ هل ظنوا أن لا يبتلي الله ما في صدورهم ، ولا يمحص ما في قلوبهم ؟ ألا يعلمون أن الله لا يذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ؟ هل نسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره وإعلاء كلمته لا يبخلون في سبيله بمال ، ولا يشحون بنفس ؟ فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمناً وهو لم يخط خطوة في سبيل الايمان ، لا بماله ولا بروحه ؟

إنما المؤمنون هم الذين إذا قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك الا ايماناً وثباتاً، ويقولون في اقدامهم : حسبنا الله ونعم الوكيل . كيف يخشى الموت مؤمن وهو يعلم أن المقتول في سبيل الله حي يرزق عند ربه ؟ ممتع بالسعادة الأبدية في نعمة من الله ورضوان كيف يخاف مؤمن من غير الله ، والله يقول (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين)

فلينظر كلّ إلى نفسه ولا يتبع وساوس الشيطان ، وليمتحن كل واحد قلبه قبل أن يأتيَ يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة ، وليطبق بين صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين ، وما جعله من خصائص الايمان ، فلو فعل كل منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا . ياسبحان الله ، إن هذه أمتنا أمة واحدة ، والعمل في صيانتها من الأعداء أهمّ فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء . يثبت ذلك نص الكتاب العزيز ، وإجماع الأمة سلفاً وخلفاً ، فما لنا نرى الأجانب

يصولون على البلاد الاسلامية صولة بعد صولة ، ويستولون عليها دولة بعد دولة، والمتسمون بسمة الايمان آهلون لكل أرض، متمكنون بكل قطر ، ولا تأخذهم على الدين نعرة ، ولا تستفزهم للدفاع عنه حمية ؟ ألا يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن ، وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي ، وتتخذوه إماما لكم في جميع أعمالكم مع مراعاة الحكم في العمل كما كان سلفكم الصالح. ألا ياأهل القرآن هذا كتابكم فاقرؤا منه (فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فيقلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت) ألا تعلمون فيمن نزلت هذه الآية ؟ نزلت في وصف من لا إيمان لهم . هل يسر مؤمناً أن يتناوله هذا الوصف المشار اليه بالآية الكريمة ، أو غرّ كثيرين من المدعين للايمان ما زين لهم من سوء أعمالهم ، وما حسنته لديهم أهواؤهم (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)

أقول ولا أخشى نكيراً : لايمس الايمان قلب شخص إلا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه في سبيل الايمان ، لايراعي في ذلك عذراً ولا تعلة ، وكل اعتذار في القعود عن نصرة الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله

مع هذا كله نقول : إن الخير في هذه الأمة الى يوم القيامة كما جاءنا به نبأ النبوة ، وهذا الانحراف الذي نراه اليوم نرجو أن يكون عارضاً يزول ، ولو قام العلماء الأتقياء وأدوا ماعليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأحيوا روح القرآن، وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة ، واستلفتوهم الىعهد الله الذي لايخلف لرأيت الحقّ يسمو والباطل يسفل ، ولرأيت نوراً يبهر الأبصار ، وأعمالا تحار فيها الأفكار . وإن الحركة التي نحسها من نفوس المسلمين في أغلب الأقطار هذه الأيام تبشرنا بأن الله تعالى قد أعدّ النفوس لصيحة حق تجمع بها كلمة المسلمين ، ويوحد بها بين جميع الموحدين ، ونرجو أن يكون العمل قريباً ، فان فعل المسلمون وأجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم ، صحت لهم الأوبة ، ونصحت منهم التوبة ، وعفا الله عنهم ، والله ذو فضل على المؤمنين ، فعلى العلماء أن يسارعوا الى هذا الخير ، وهو الخير كله : جمع كلمة

المسلمين ، والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل و (من يهـد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً)

المقالة التاسعة عشرة

الجبن (*

(أينما تكونوا يدرككم الموتُ ولو كنتم في بروج مشيدة — قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم)

شهد العيان ودلت الآثار على ما صدر من بعض أفراد الانسان من أعمال تحير الألباب ، وتدهش الأفكار ، ينظر اليها ضعفاء العقول فيعدونها معجزات ، وان لم تكن في أزمنـة النبوات ، ويحسبونها خوارق عادات ، وان لم تكن من تحدي الرسالات ، وقد ينسبها الغُفل الى حركات الأفلاك ، وأرواح الكواكب وموافقة الطوالع . ومن القاصرين من يظنها من أحكام الصدف وقذفات الاتفاق ، عجزاً عن درك الأسباب وفهم الصواب ـ وأما من أتاه الله الحكمة ، ومنحه الهداية ، فيعلم أن الحكيم الخبير جل شأنه وعظمت قدرته ، أناط كل حادث بسبب ، وكل مكسوب بعـمل . وأنه قد اختص الانسان من بين الكائنات بموهبـة عقلية ، ومقدرة روحانية ، يكون بهما مظهراً لعجائب الأمور ، وبهـذه المقدرة وتلك الموهبة مناط التكاليف الشرعيـة ، وبهما استحقاق المدح أو الذم عند العقلاء ، والثواب أو العقاب عند واسع الكرم سريع الحساب

اذا رجع البصير الى القياس الصحيح رأى في تشابه القوى الانسانية وتماثل الفطرة البشرية مايدل على تقارب العقول ، بل على استواء المدارك ، وأرشده الفكر

(*) نشرت في العدد الثامن عشر من جريدة العروة الوثقي في ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ ـ ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤

السليم الى ان فضل الله قد اعد كل انسان للكمال ، ومنحه مايكون به مصدراً لفضائل الأعمال ، على تفاوت لا يظهر به الاختلاف بينهما الا للنظر الدقيق *

هنا وقفة الحيرة: استعداد فطري للكمال في خلقة الانسان. ميل كلي في كل فرد لأن يتفرد بالفخار، ويمتاز بجلائل الآثار، وفضل عام من الجواد المطلق سبحانه وتعالى، لايخيب طالباً، ولا يرد سائلاً، اذا صدق القاصد في قصده ، واخلص السالك في جده . فما العلة في اخلاد الجمهور الأعظم من بني الانسان الى دنيات المنازل وقصورهم عن الوصول الى ماأعدته لهم العناية ويستفزهم اليه الميل الغريزي، خصوصاً إن كانت النفوس مؤمنة بعدل الله مصدقة بوعده ووعيده ، ترجو ثواباً على الباقيات الصالحات ، وتخشى عقاباً على ارتكاب الخطيئات ، وتعترف بيوم العرض الأكبر — يوم تجزي كل نفس بما كسبت (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ماذا يقعد بالنفوس عن العمل ؟ ماذا ينحدر بها في مزالق الزلل ؟ اذا ردت المسببات الى أسبابها، وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها، وجدنا لهذا علة هي أم العلل ، ومنشأ يقرن به كل خلل : الجبن *

الجبن هو الذي أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها ، هو الذي قطع روابط الامم فحل نظامها ، هو الذي أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم ، وأضعف قلوب العالمين فسقطت صروحهم ، هو الذي يغلق ابواب الخير في وجوه الطالبين ، ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين ، يسهل على النفوس احتمال الذلة ، ويخفف عليها مضض المسكنة ، ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل . يوطن النفس على تلقي الاهانة بالصبر والتذليل بالجلد، ويوطىء الظهور الجاسية لأحمال من المصاعب اثقل مما كان يتوهم عروضه عند التحلي بالشجاعة والاقدام . الجبن يلبس النفس عاراً دون القرب منه موت أحمر عند كل روح زكية وهمة علية . يرى الجبان وعر المذلات سهلا ، وشظف العيش في المسكنات رفها ونعيما .

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام

لا بل يتجرع مرارات الموت في كل لحظة ولكنه راض بكل حال وإن لم

يبق له إلا عين تبصر الأعداء، ولا ترى الاحباء ،ونفس لا يصعد إلا بالصعداء، واحساس لا يلم به الا ألم اللاواء . هـذه حياته : اضاع كل شيء، في القناعة بلا شيء، وهو يظن انه أدرك البغية، وحصل المنية

ماهو الجبن ؟ انخذال في النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائم حالها، وهو مرض من الامراض الروحية، يذهب بالقوة الحافظة للوجود التي جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعيـة ، وله أسباب كثيرة لو لوحـظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع الى الخوف من الموت . الموت مآل كل حي ومصير كل ذي روح . ليس للموت وقت يعرف ولا ساعة تعلم ، ولكنـه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر في كل لحظة، ولا يعلمه إلا مقدرُ الآجال جل شأنه (وماتدري نفس ماذا تكسب غـداً وما تدري نفس بأي أرض تموت) يشتد الخوف من الموت الى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغـفلة عن المصير المحتوم، والذهول عما أعده الله للانسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة اذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجـله . نعم يغفل الانسان عن نفسه فيظن ماجعله واقياً للحياة ـ وهو الشجاعة والاقدام ـ سبباً في الفناء . يحسب الجاهل أن في كل خطوة حتفاً، ويتوهم أن في كل خطرة خطراً، مع أن نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الانسانية، وما ناله طلاب المعالي من الفوز بآمالهم، وما ذللوا من المصاعب في سيرهم، تكشف له أن تلك المخاوف انمـا هي أوهام وأصوات غيلان ، ووساوس شياطين ، غشيته فأدهشته ، وعن سبيل الله صدته ، ومن كل خير حرمته .

الجبن فخ تنصبه صروف الدهر وغوائل الايام ، لتغتال به نفوس الانسان، وتلتهم به الامم والشعوب ، هو حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله ، هو علة لكل رذيلة ، ومنشأ لكل خصلة ذميمة ، لا شقاء إلا وهو مبدؤه، ولا فساد إلا وهو جرثومته ، ولا كفر الا وهو باعثه وموجبه ، ممزق الجماعات ، ومقطع روابط الصلات، هازم الجيوش، ومنكس الاعلام ، ومهبط السلاطين من سماء الجلالة الى أرض المهانة . ماذا يحمل الخائنين على الخيانة في الحروب الوطنية؟ أليس هو الجبن ؟ ماذا يبسط أيدي الادنياء لدنيئة الارتشاء؟ أليس هو الجبن ؟

ربما تتوهم بعد المثال فتأمل ، فان الخوف من الفقر ، يرجع بالحقيقة الى الخوف من الموت ، وهو علة الجبن . سهل عليك أن تعتبر هذا في الكذب والنفاق وسائر أنواع الامراض المفسدة لمعيشة الانسان * الجبن عار وشنار على كل ذي فطرة إنسانية خصوصاً الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر ، ويؤملون أن ينالوا جزاء لأعمالهم أجراً حسناً ومقاما كريماً .

ينبغي ان يكون أبناء الملة الاسلامية بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبن) فانها أشد الموانع عن اداء ما يرضي الله ، وانهم لا يبتغون إلا رضاه . يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت علامة الايمان ، وامتحن الله به قلوب المعاندين ، ويقول في ذم من ليسوا بمؤمنين (ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب؟) الخ الآيات ، الاقدام في سبيل الحق ، وبذل الاموال والأرواح في إعلاء كلمته ، أول سمة يتسم بها المؤمنون . لم يكتف الكتاب الالهي بأن تقام الصلاة وتؤتى الزكاة وتكف الايدي ، وعد ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون المنافقون ، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح في اعلاء كلمة الحق والعدل الالهي ، بل عده الركن الوحيد الذي لا يعتد بغيره عند فقده . لا يظن ظان أنه يمكن الجمع بين الدين الاسلامى وبين الجبن في قلب واحد . كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الاقدام وان عماده الأخلاص لله والتخلي عن جميع ماسواه لاستحصال رضاه .

المؤمن من يوقن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء ، ولا يفيده التباطؤ عن أداء الفروض زيادة في الأجل ، ولا ينقصه الاقدام دقيقة منه . المؤمن من لا ينتظر بنفسه الا احدى الحسنيين ، اما أن يعيش سيداً عزيزاً ، وإما أن يموت مقرباً سعيداً ، وتصعد روحه الى أعلى عليين ، ويلتحق بالكروبيين ، والملائكة المقربين ،

من يتوهم انه يجمع بين الجبن والايمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه وهو ليس من الايمان فى شيء . كل

آية من القرآن تشهد على الجبان بكذبه في دعوى الايمان . لهذا نؤمل من ورثة الانبياء أن يصدعوا بالحق ويذكروا بآيات الله وما أودع الله فيها من الأمر بالاقدام لاعلاء كلمته والنهي عن التباطىء والتقاعد في أداء ماأوجب الله من ذلك وفي الظن أن العلماء لو قاموا بهذه الفريضة (الامر بذلك المعروف والنهي عن هذا المنكر) زمناً قليلا ووعظوا الكافة بتبيين معاني القرآن الشريف واحيائها في أنفس المؤمنين رأينا لذلك أثراً في هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر وشهدنا لها يوماً تسترجع فيه مجدها في هذه الدنيا وهو مجد الله الاكبر ، فالمؤمنون بما ورثوا عن أسلافهم وبما تمكن في أفئدتهم من آثار العقائد لايحتاجون إلا لقليل من التنبيه ويسير من التذكير فينهضون نهضة الاسود فيستردوا مفقوداً ، ويحفظوا موجوداً ، وينالوا عند الله مقاماً محموداً .

المقالة العشرون

الامة وسلطة الحاكم المستبد (١)

وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

ان الامة التي ليس لها في شؤونها حل ولا عقد ، ولا تستشار في مصالحها ولا أثر لارادتها فى منافعها العمومية ، وإنما هي خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون ومشيئته نظام ، يحكم مايشاء ويفعل مايريد . فتلك أمة لاتثبت على حال واحد ولا ينضبط لها سير ، فتعتورها السعادة والشقاء ، ويتداولها العلم والجهل ، ويتبادل عليها الغنى والفقر ، ويتناوبها العز والذل ، وكل مايعرض عليها من

(١) نشرت في العدد الرابع عشر من جريدة العروة الوثقى فى ٢٢ شوال سنة ١٣٠١ و١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤

هذه الاحوال خيرها وشرها ، فهو تابع لحال الحاكم . فان كان حاكمها عالما حازما ، أصيل الرأي ، عليّ الهمة ، رفيع المقصد ، قويم الطبع ، ساس الأمة بسياسة العدل ، ورفع فيها منار العلم ، ومهد لها طرق اليسار والثروة ، وفتح لها أبوابا للتفنن في الصنائع ، والحذق في جميع لوازم الحياة ، وبعث في أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة ، وحملهم على التحلي بالمزايا الشريفة من الشهامة والشجاعة وإباء الضيم ، والأنفة من الذل ، ورفعهم إلى مكانة عليا من العزة ، ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهة ، وتقدم بهم الى كل وجه من وجوه الخير

وإن كان حاكمها جاهلا ، سيء الطبع ، سافل الهمة ، شرهًا ، مغتلماً ، جبانًا ، ضعيف الرأي ، أحمق الجنان ، خسيس النفس ، معوج الطبيعة ، أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوي الخسران ، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل ، وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر ، وجار في سلطته عن جادة العدل ، وفتح أبوابا للعدوان ، فيتغلب القوي على حقوق الضعيف ، ويختل النظام ، وتفسد الأخلاق ، وتخفض الكلمة ، ويغلب اليأس ، فتمتد اليها أنظار الطامعين ، وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها في أحشاء الأمة ، عند ذلك إن كان في الأمة رمق من الحياة ، وبقيت فيها بقية منها ، وأراد الله بها خيراً اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها ، وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة ، واستئصال جذورها قبل أن تنشر الرياح بذورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع الأمة ، فتميتها وينقطع الأمل من العلاج ، وبادروا إلى قطع هذا العضو المجذم قبل أن يسري فساده الى جميع البدن فيمزقه ، وغرسوا لهم شجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وجددوا لهم بنيـة صحيحة ، سالمة من الآفات (استبدلوا الخبيث بالطيب) وان انحطت الأمة عن هذه الدرجة ، وتركت شؤونها بيد الحاكم الأبله الغاشم يصرفها كيف يصرفها ، فأنذرها بمضض العبودية ، وعناء الذلة ، ووصمة العار بين الأمم ، جزاء على مافرطوا في أمورهم ، وما ربك بظلام للعبيد

المقالة الحادية والعشرون

الوهم (*

ألا قاتل الله الوهم ، الوهم طوراً يكون مرآة المزعجات ، ومجلى المفزعات ، وطوراً يكون ممثلا للمسرات ، حاكيًا للمنعشات ، وهو في جميع أطواره حجاب الحقيقة ، وغشاء عن عين البصيرة ، لكن له سلطان على الادارة ، وحكم على العزيمة ، فهو مجلبة الشر ، ومنفاة الخير

الوهم يمثل الضعيف قويا ، والقريب بعيداً ، والمأمن مخافة ، والموئل مهلكا . الوهم يذهل الواهم عن نفسه ، ويصرفه عن حسه ، يخيل الموجود معدوما ، والمعدوم موجوداً ، الواهم في كون غير موجود ، وعالم غير مشهود ، يخبط فيه خبط المصروع ، لا يدري ما ذا أدركه وماذا تركه ، الوهم روح خبيث يلابس النفس الانسانية وهي في ظلام الجهل ، اذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام ، وتسلطت على الارادات ، فتقود الواهمين الى بيداء الضلالة ، فيخبطون في مجاهيل ، لايهتدون إلى سبيل ، ولا يستقيمون على طريق اه المراد منه

---

*) صدر مقالة سياسية في مسالة السودان ومصر نشرت في العدد السابع عشر من العروة الوثقى الذي صدر بباريس في ٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ الموافق ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤ ولم ننشرها برمتها لالتزامنا في هذا الفصل نشر مقالات العروة الاصلاحية من دينية واجتماعية ، دون السياسية ، كهذه المقالة . جميع مقالات العروة الافتتاحية ، وتلك سياسة السيد جمال الدين رحمهما الله تعالى

استدراك على الفصل الاول

(جامع الكتاب) إننا بعد أن طبعنا ما كان لدينا من مقالات الأستاذ الامام التي كتبها قبل دخوله في أعمال الحكومة الرسمية، وبعد طبع مقالات الوقائع المصرية أيضاً أرسل الينا الأديب العصري الشهير سليم بك العنحوري الدمشقي صاحب ديوان (سحر هاروت) مقالة من قلم الأستاذ الامام نشرت في إحدى الجرائد في ٣١ يوليو سنة ١٨٧٩ الموافق ١٢ شعبان سنة ١٢٩٦ موضوعها انتقاد رجال الدولة العثمانية على ما كانوا يرومونه من العبث باستقلال تونس الاداري ، ومن محاولة إبطال حقوق مصر وامتيازاتها عقب سقوط اسماعيل باشا التي أفضت الى تدخل الدول وإلجائها الباب العالي الى جعل فرمان تولية توفيق باشا كفرمان والده ، وفيها الثناء على توفيق باشا ووزرائه ، وبيان مايجب على حكومته بأسلوب بيان مايرجى منها

جلس محمد توفيق باشا على كرسي الخديوية في رجب سنة ١٢٩٦ وكتب الأستاذ هذه المقالة في تأييده وتأييد حكومته في شعبان ، تنفيذاً لخطة الحزب الوطني الذي أسسه السيد جمال الدين وهو الذي سعى لاسقاط اسماعيل وتولية توفيق إذ كان مشايعاً له ومنتظماً في سلكه ، وصدر أمر توفيق في رمضان بنفي السيد جمال الدين من مصر باغراء قنصل الانكليز ، وبعزل الشيخ محمد عبده من وظيفة التدريس في مدرسة دار العلوم ومدرسة الألسن ، وإلزامه الاقامة في قريته (محلة نصر) لايفارقها — كما شرحنا ذلك في الجزء الأول من هذا التاريخ . فقد كتبت هذه المقالة بعد كتابة مقالة التربية بشهرين فقط وقد رأينا وضعها هنا استدراكا

ولما كانت قصاصة الجريدة التي نشر الشيخ فيها هذه المقالة خالية من العنوان وضعنا لها العنوان الآتي

المقالة الثالثة

الدولة العثمانية والخديوية المصرية

لم يكف رجال الدولة ما ألمّ بها من الضعف والاختلال ، حتى راموا تجريدها عن الأولياء والنصراء ، بما يتخذون من تنفير النفوس ، وأسباب إفساد القلوب . فمن ذلك ماروته بعض الجرائد من محاولتهم إزالة الاستقلال الاداري عن تونس وإرسالهم الى فرنسا من يستميلها الى ذلك القصد ، فانّ هذا الأمر (ان صح خبره) يوجب لامحالة انقباض الحكومة التونسية ، ويبعثها على الالتجاء الى الدول الأجنبية ، تلتمس منهم المساعدة، وترجوهم الحماية، فيسومونها بذلك ما يرومون، فلا تعصي لهم أمراً ، ولا تخالف لهم رأياً .

ومن ذلكِ مابدا منهم في المسألة المصرية مما أوجب أسف المصريين عموماً وحكومتهم خصوصاً ، فانهم قد راموا في بادىء الأمر أن يبطلوا ماتقرر لها من الحقوق ، وما ثبت من الامتيازات ، غير ذاكرين ما تقدم لها من الخدمة ، وما سبق من المساعدة والنجدة ، فدعتهم الدول الى العدول عن ذلك ، فلجأوا الى المماطلة والمدافعة شأنهم في غالب الأمور والأوقات ، على علمهم بما ينشأ عن ذلك من تعطيل المصالح وتأخير الاصلاح المالي والاداري ، وما يترتب عليه من تداخل الاجانب فيما لاينبغي لهم التداخل فيه من أمورنا الخصوصية، وأحوالنا الداخلية حتى وقع ذلك بالفعل، اذ تداخلت الدول في الأمر بالصورة الرسمية، وألجأت الباب العالي الى اصدار الفرمان ، مثبتاً لما تقرر في الفرامين السالفة من حقوق مصر وامتيازاتها — أفلم يكن الأجمل بالدولة أن تفعل اختياراً ، ما ألجئت الى فعله اضطراراً، فتستبقي بذلك ولاء قوم فدوها بالاموال، وأهرقوا في مساعدتها دم الرجال؟

على أن المصريين لايعدلون عن ذلك الولاء ، ولا يطلبون به بديلا ، علماً منهم بأن تلك المعارضه لم تقع من الجناب السلطاني ، وانما صدر بها عن رأي الصدر السابق (يريد به خير الدين التونسي) فان هذا الوزير على سعة علمه ،

وحسن نظره وذكاء نفسه ، لم يستطع مقاومة ميله الذاتي في هذا الأمر ، بل أخذته فيه المودة الخصوصية لمن اصطنعه ، وكان علة رفعه الى ذلك المقام الأسنى ، فبذل المجهود في القيام بأمره والانتصار له ، على علمه بأن ذلك لا يغني عنه شيئاً ، لوجود القوّة فيما يخالفه ، فان القوة لا تقاوم مع الحق ، فكيف ترجى مقاومتها بغير حق ؟

ولقد استعفى الوزير المشار اليه من منصبه كما أنبأنا التلغراف ، وكتب الفرمان السلطاني مثبتاً لفرمان سنة ١٨٧٣ فلم يبق لنا في هذا الأمر مايدعو الى النظر فيه . ولكننا نرجو أن يكون من آثاره انتظام أحوال الدولة العلية ، وترتب شؤون الحكومة المصرية

فأما الأول فلا يكون إلا بالاصلاح المستمر ، مبنياً على قانون يحفظ نظامه ، وترعى أحكامه ، ليستقيم به أمر العدل الموجب للنجاح ، وتنحسم أسباب الظلم المؤذن بخراب العمران ، ولا يحصل ذلك إلا بالحرية الذاتية ، والمساواة التي ترفع العدوان عن الناس ، فلا ينقبضون عن السعي في الاكتساب والمصالح فانه لا عزّ للملك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمال ، ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ، ولا تحصل العمارة الا بالعدل ، وما العدل الا الحرية والمساواة . قال أحد الحكماء : كل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله ، أو طالبه بغير حق ، أو فرض عليه حقا لم يفرضه القانون ، فقد ظلمه ، فجباة الأموال بغير حقها ظلمة ، والمعتدون عليها ظلمة ، والناهبون لها ظلمة ، والمانعون لحقوق الناس ظلمة ، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو علة قوتها ، بل مادة وجودها ، فاذا سلمت الدولة من هذه المعايب ، أمنت المصائب والمعاطب ، ولا سبيل الى ذلك الا برفع الاستبداد ، وتقرير أمر الشورى

وأما اقامة أمور الحكومة المصرية ، فهي الآن في عالم القوّة ، تعدّها معدّات حسن القصد وصفاء النية ، وسنراها بعناية أميرنا الجديد ووزرائه الكرام ، بارزة الى عالم الفعل ، يتقدمها نظام الشورى ، معيناً للأمة حقوقها ، مبيناً لها واجباتها ، فتنتظم بذلك الأحوال المالية ، والأمور الادارية ،

وتنجوبه من ربقة التداخل الأجنبي ، الذي جعل في كل مملكة شرقية دولا مستقلة ، وحكومات مختلفة ، وألجأ أهلها الناطقين بلغتها ، المستظلين بحمايتها ، النابتين في أرضها ، المسترزقين من خيرها ، الى الانحراف عنها ، والانتماء الى غيرها ، يتفاخرون بذلك ولا يحسبونه عاراً ، بل يعدّون البقاء على ولاء الحكومة المالكة عجزاً وضعفاً ، لما هو ظاهر من امتياز أهل العقوق بالسطوة والقوة والمنعة ، وإن دولة المطيعين صارت لهم كبتاً وعاراً وذلا وصغاراً ، وللأجنبي عزّاً ورفعة وسعة ومنعة

وكيف لانرجو ذلك وقد علمنا علم اليقين أن أميرنا الفتى منزه النفس عما يوجب هرم الدولة من الترف والاستبداد ، بدليل تعففه عن معظم الراتب المعين له ، وإثباته لقانون شورى النواب ، الحاسم لأسباب الاستبداد ، فلا شك أن سيكون من أعظم سيرته ، وأفضل رغبته ، ما كان لله رضى ، وللحق قواما ، وللأمة عدلا ، وللدولة نظاماً

الفصل الرابع

﴿ما نشر له بعد النفي من المقالات في الصحف السورية والمصرية﴾

المقالة الاولى

مصر وجريدة الجنة (*

(كتب الينا بعض أهل الفضل ممن له مزيد اطلاع في أحوال مصر بما يأتي)

وقفت بالصدفة على نسخة من جريدة (الجنة) الغناء المؤرخة في الحادي عشر من شهر رجب ، فاذا فصل في فاتحتها يبحث في شؤون القطر المصري وعلائق سكانه مع حضرة خديويهم المعظم ومعاملتهم لذوي المصلحة فيه من الاجانب فأنحى على المصريين بالتقريع والتعنيف ووجه اللائمة عليهم في ذنوب كأنهم كانوا اقترفوها، ودعاهم الى طاعة خديويهم كأنهم معه في عصيان، ونبههم على مزايا الجناب الخديوي وفضائله كأنهم عنها في غفلة . وكنت رأيت جريدة الجنان قد سبقت الجنة الى مثل ذلك من قبل بأيام فشكرت لصاحب القلم ما أخلص من نصيحته وحمدته على عنايته بأمر المصريين

غير أني وجدت حال المصريين في ماضيهم وحاضرهم ينطق بخلاف ما تفهمه عبارته من أنهم منحرفون عن الخديوي المعظم وأن حضرته نزل في أعينهم عن المقام الذي يستحقه من الاجلال . والحوادث المصرية شاهدة على أن أسباب المشاكل في القطر المصري غير ماذكره حضرة الكاتب . والسجلات الرسمية والاعمال الثابتة حاكمة بنقيض ما أثبته من جناية المصريين على الاجانب أو تطاولهم الى مس المصالح الدولية . وجميع السياسيين من أهل المسكونة (ماعدا بعض

*) نشرت في العدد ٥٧٨ من جريدة ثمرات الفنون التي كانت تصدر في بيروت بتاريخ ٢٣ رجب سنة ١٣٠٣ من غير عزو – وهي مما زدناه في الطبعة الثانية

رجال الانكليز) في اتفاق على خلاف ماذكره من أن دولة الانكليز مستمسكة بالحق في تعرّق الديار المصرية . لهذا رأيت أن أكتب اليكم بمجمل من القول لتنبيه من لم يقف على الحقيقة أو طال عهده باخبارها فنسيها ، فان رأيتم الفائدة في نشره فذلك اليكم

الجناب الخديوي كان أعرف الناس بأهل بلاده ودرجة استعدادهم فنظر اليهم بعين المرحمة ، وافتتح ولايته الميمونة بأمر كريم أصدره في أوائل رجب سنة ١٢٩٦ هجرية بعد استوائه على كرسي الخديوية بايام ووجه به إلى دولتلو شريف باشا ، وكان من فصوله مايحدث عن مقاصد سموه في حكم بلاده فجعل منها توسيع نطاق الشورى وتخويل النواب حق النظر في برنامج المالية ولم ينسخ هذا الأمر بغيره . وثابر دولتلو شريف باشا على انفاذه وسعى لذلك سعياً بليغاً حتى في زمن انعزاله عن الحكومة إلى أن عرف برجل الحرية ، ثم إن جناب الخديوي هو الذي أصدر الأمر بانتخاب النواب وباجتماع مجلسهم في سنة ١٢٩٩ ونفذ الأمر بتأييد من شريف باشا . وأشد الناس كانوا حرصاً على الحقوق الوطنية وتوسيع دائرة الشورى هم أكرم الناس منزلة لدى الحضرة الخديوية في هذه الأيام ، ولو أراد مريد أن يصرح بأسمائهم لفعل ولكن ظهور الأمر غني عن البيان . فلو قال قائل إن طلاب تلك الحقوق أخفض شأناً من أن تناط بهم الأعمال في أقل الأمور كما أثبته الكاتب لكان ذلك تطاولاً على الجناب الخديوي وعقلاء رعيته مثل دولتلو شريف باشا ، ولو كانت إجابة طلب أولئك الطالبين تعدُّ مشايعة للفساد و تغريرا بالبلاد لما صدرت به الأوامر الخديوية مع تقرر ماللخديوي من أصالة الرأي وحسن الرعاية لمصالح بلاده . ودعوى أن البلاد صارت حكومتها إلى الفوضى جرأة على المقام الخديوي بنسبة الضعف اليه ، ورمي له بعدم القدرة على تلافي الأمر في بدايته ، وإنا نجلُّ مقام الحضرة الخديوية عن مثل هذه الظنون ، ومن ظنها به فقد مسّ مقامه بأشد مايقدح به في حاكم من جهة كونه حاكماً . برأه الله مما قالوا

فقد كانت منزلة الخديوي في نفوس رعيته هي المنزلة التي نالها من يوم

توليته ورعاياه كانوا من أشد الناس محبة له ومن أخشعهم خضوعاً لأوامره ، وجميع نظامات الحكومة وأعمالها التي نفذت وأجريت فيما بين الخامس عشر من شوال سنة ٩٨ والسادس والعشرين من شعبان سنة ٩٩ كلها باوامره العلية ولم يدرك سلطته أدنى ضعف . وأما ماتقدم ذلك من حركات الجند فلم يخرج عن حدّ نزاع خاص بين بعض كبار الضباط وبين بعض رجال الحكومة لكن الجناب الخديوي كان في منزلة الاجلال من نفوس العامة والخاصة ، ولولا خيفة التطويل لسردت كل قول شاهداً على التعضيد

غير أن الحكومة الانكليزية على عاداتها في اختلاق العلل وارتجال المساءات قلبت وجوه المسائل ، واستدبرت طالع الحق ، واستقبلت وجه مطمعها ، واتخذت مجرد التغيير في بعض نظامات الحكومة الخديوية سبباً للمناوأة ، واندفعت لتسيير مراكبها إلى مياه الاسكندرية تهديداً لحكومة الخديوي وعدواناً عليه ، ثم نفخ بعض رجالها في أنوف ضعفة العقول من الاجانب المقيمين بالثغر حتى أوقدوا فتنة هلك فيها المساكين قضاء لشهوة انكليزية ، وأقامت منها حكومة انكلترا حجة في العدوان على الأراضي الخديوية ، ولو أن بصيراً نظر إلى أحوال القطر المصري بعين صحيحة من مرض الغرض لعلم أن بداءة الخلل في ذلك القطر من يوم ورود المراكب الانكليزية لثغر الاسكندرية . ولا نسبة بين ما كان قبل ذلك من عموم الأمن ورواج الاعمال وانتظام المصالح وبين ماكان بعده .

المصريون لم يتطاولوا لمس المصالح الدولية ولا في وقت من الاوقات فقد قرروا في مجلس نوابهم أن يكون العمل على قانون التصفية الذي أسسه دولتلو رياض باشا في سنة ١٢٩٧ بالاشتراك مع وكلاء الدول ، وأخذوا على أنفسهم بالقول والفعل أن لايبحثوا في أمر رابطة من روابط الحكومة مع الدول العظيمة مما تقرر في عقود الحكومة ، وقد مضى ذلك الزمن ومخصصات الديون تؤدي مستوفاة في آجالها ، وحقوق الاجانب في مكانها من الرعاية ، إلا أن الحكومة الانكليزية تهيأت لها فرصة للتقدم إلى بعض ماكانت تنزع اليه من زمن طويل فتجنت على المصريين بما لم يجنوه

ولم يزل المصريون على وفاق في تعظيم خديويهم وتعضيد سموه في رعاية المصالح الدولية مع المحافظة على حقوق البلاد إلى أن حال الانكليز بحربهم الظالمة بين جنابه العالي وبين رعيته فساءت ظنون قوم من كبار ضباط الجند لبعدهم عن حقيقة أمر خديويهم ، فاستمروا على المقاومة ظناً منهم أنهم لا يقاومون إلا الانكليز ، ولا يدافعون إلا جيشاً أجنبياً يغير على البلاد ، ووافقهم على ذلك عامة المصريين لهذا الظن نفسه ، فلما طالت المدة وفشا ما كان من أوامر الجناب الخديوي وإرادة الحضرة السلطانية فيما بينهم كان ما كان من تراجع الناس ، وتسليم القيادة الى حاكمهم الشرعي ، وخضع له المصريون كافة خضوعاً غمر أفئدتهم ، وخالط ألبابهم ، وهذا شأنهم الى اليوم . ثم حالهم مع المسيطرين عليهم من الانكليز لم يتعد حدود المسالمة والامتثال لأوامرهم ، رجاء التخلص من غوائلهم ، وانتظاراً لوفائهم بوعودهم ، ولو كان المصريون قوماً شرس الطباع صعاب المراكب ، جفاة الجوانب ، لما سكنت لهم ثائرة ، ولما جنحوا الى مسالمة ، ولما رسخت قدم الانكليز فيهم على قلة جيشهم ، وشدة ما لاقوا من عنتهم ،

أما فضائل الجناب الخديوي من العفة والاستقامة والشفقة على الرعية والسعي في مصالحها ، فهو مما ذاق المصريون لذته ، ووجدوا فائدته ، فلا يرتابون في شيء منه ، والتنبيه عليه اعلان لخفائه على أعين مشاهديه سنين عديدة ، فهو إلى الطعن أقرب منه الى المدح . ورضاء الحضرة السلطانية عن الخديو المعظم وإقامة الشواهد على الرضاء باهداء النياشين والتحف مما نشرته الجرائد المصرية وشهد المصريون رونق الاحتفال له وبلغ شاهدهم غائبهم ، فأي أثر للاحتجاج به بعد سبق علمه بأزمان عند من تقام الحجة به عليهم؟

وبالجملة فالمصريون قوم عرفوا بالطاعة لحضرة سلطانهم المعظم أمير المؤمنين أيده الله، وعلموا أن الجناب الخديوي نائبه في بلادهم ، ومظهر سلطته عليهم ، فهم له خاضعون ، وعلى محبته متفقون ؛ فان نقل ناقل خلاف ذلك فهو إما طالب فساد ، أو منخدع بوسوسة أجنبية ، فقد تبين أن من حظ الانكليز ايقاع النفرة بين الخديوى ورعيته ليتم لهم ما يريدون منهما ، كما مرنوا عليه في كل بلد دخلوه

هذه هي الحقيقة التي ينكرها الجهلاء ، ويعرفها العقلاء ، فلم تكن أسباب المشاكل ماذكره حضرة الكاتب وإنما سببها الجشع الانكليزي كما اتفق عليه سياسيوا العالم . ولم يكن تداخل الانكليز حقاً مفروضاً في بداية الأمر ، ولا حلولهم اليوم يعدّ من حسناتهم ، فانا لم نسمع بأن الديون تخول للدائن حق التغلب على الممالك ، وأمم العالم بين أيدينا تهتف بنا أحوالها

ولو شاء حاكم أن يحكم بحق لأحد في التداخل لأصلاح أمر من أمور مصر فليحكم به للدولة العلية فهي حاكمة البلاد ، ولا تعجز عن تقرير النظام فيها بالكلام ، فضلا عن تجريد الحسام ، ورحم الله أمرأ عرف حده ، فوقف عنده ، والله الموفق لما فيه الصلاح

المقالة الثانية

كتب المغازي وأحاديث القصاصين(*)

سألني سائل عن الرأي فيما يوجد بأيدي الناس من كتب الغزوات الاسلامية وأخبار الفتوح الاولى ، وعما حشيت به تلك الكتب من أقوال وأعمال تنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والى كبار أصحابه رضي الله عنهم ، وهل يصح الاعتماد على شيء منها ، ثم خص في السؤال كتاب الشيخ الواقدي الموضوع في فتوح الشام ، وذكر لي أن بعضاً من معربدة هذه الأيام المعتدين على مقام التصنيف ، قد جعلوا هذا الكتاب عمدة نقلهم ، ومثابة يرجعون اليها في روايتهم ، ليتخذوا منه حجة على مايروّجونه من تشويه سيرة المسلمين الأولين ، وليسلكوا منه سبيلاً الى إذاعة المثالب ، ونشر المعايب وأن بعضاً آخر من ضعفة العقول من المسلمين ، ظنوا هذا الكتاب من أنفس ما ذخر الأولون للآخرين ، وأنه جدير أن يحرز في خزائن الكتب السياسية ، وحقيق أن ينقل من اللغة العربية إلى غيرها من

(*) نشرت في العدد ٥٨٧ من جريدة ثمرات الفنون البيروتية في ٢٦ رمضان سنة ١٣٠٣

اللغات، فأجبت السائل بجواب أحببت لو ينشر، على ظن أن تكون فيه ذكرى لمن يتذكر

لم يُرزأ الاسلام بأعظم مما ابتدعه المنتسبون اليه ، وما أحدثه الغلاة من المفتريات عليه ، فذلك مما جلب الفساد على عقول المسلمين ، وأساء ظنون غيرهم فيما بني عليه الدين ، وقد فشت للكذب فاشية على الدين المحمدي في قرونه الاولى ، حتى عرف ذلك في عهد الصحابة رضي الله عنهم ، بل عهد الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم في حياته ، حتى خطب في الناس قائلا : « أيها الناس قد كثرت عليّ الكذابة ، ألا من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » أو كما قال(١)

إلا أن عموم البلوى بالأكاذيب حقّ على الناس بلاؤه في دولة الامويين ، فكثر الناقلون ، وقلّ الصادقون ، وامتنع كثير من أجلة الصحابة عن الحديث إلا لمن يثقون بحفظه ، خوفا من التحريف فيما يؤخذ عنهم ، حتى سئل عبد الله ابن عباس رضي الله عنه : لم لاتحدّث ؟ فقال : لكثرة المحدثين . وروى عنه الامام مسلم فى مقدمة صحيحه أنه قال : مارأيت اهل الخير في شيء أكذب منهم في الحديث(٢) ثم اتسع شر الافتراء ، وتفاقم خطب الاختلاق ، وامتدّ بامتداد الزمان ، إلى أن نهض أئمة الدين من المحدثين ، والعلماء العاملين ، ووضعوا للحديث أصولا ، وشرطوا في صحة الرواية شروطا ، وبينوا درجات الرواة وأوصافهم، ومن يوثق به ومن لايوثق به منهم ، وصار ذلك فنا من أهم الفنون سموه فن الاسناد ، وأتبعوه بفن آخر سموه فن مصطلح الحديث ، فامتاز بذلك الصحيح من الفاسد ، وامتاز الحق من الباطل ، وعرفت الكتب الموثوق بها من غيرها ، وثبت علم ذلك عند كل ذي إلمام بالديانة الاسلامية

وقد روي عن الامام مالك رضي الله عنه أنه كان قد كتب كتابه الموطأ

---

(١) لا أذكر انني رأيت الحديث بهذا اللفظ وظاهر انه مروي بالمعنى بقوله أو كما قال(٢) روى مسلم هذه العبارة في مقدمة صحيحه عن يحيي بن سعيد القطان بهذا اللفظ و بلفظ الصالحين بدل أهل الخير ولم يذكر ابن عباس وأوله بان الكذب يجري على لسانهم ولا يتعمدون الكذب يعني يروون الاحاديث الموضوعة ولا يعلمون لحسن ظنهم وعدم نقدهم

حاويا أربعة عشر ألف حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع حديث «قد كثرت عليّ الكذابة فطابقوا بين كلامي والقرآن، فان وافقه والا فاطرحوه» عاد إلى تحرير كتابه ، فلم يثبت له من الأربعة عشر ألفا أكثر من ألف ومن راجع مقدمة الامام مسلم علم ما لحقه من التعب والعناء في تصنيف صحيحه ، واطلع على ما أدخله الدخلاء في الدين وليس منه في شيء لم يخف على أهل النظر في التاريخ أن الدين الاسلامي غشي أبصار العالم بالامم القوة ، وعلا رءوس الأمم بسلطان السطوة ، وفاض في الناس فيضان السيول المتحدرة ، ولاحت لهم فيه رغبات ، وتمثلت لهم منه مرهبات ، وقامت لأولي الألباب عليه آيات بينات. فكان الداخلون في الدين على هذه الأقسام: قوم اعتقدوا به إذعانا لحجته واستضاءة بنوره ، وأولئك الصادقون. وقوم من ملل مختلفة انتحلوا لقبه، واتسموا بسمته ، إما لرغبة في مغانمه ، أو لرهبة من سطوات أهله ، أو لتعزز بالانتساب اليه ، فتدثروا بدثاره ، لكنهم لم يستشعروا بشعاره . لبسوا الاسلام على ظواهر أحوالهم ، إلا أنه لم يمس أعشار قلوبهم ، فهم كانوا على أديانهم في بواطنهم ، ويضارعون المسلمين في ظواهرهم . وقد قال الله في قوم من أشباههم (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) فمن هؤلاء من كان يبالغ في الرياء، حتى يظن الناس أنه من الاتقياء ، فاذا أحس من قوم ثقة بقوله أخذ يروي لهم أحاديث دينه القديم ، مسنداً لها إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو بعض أصحابه ، ولهذا ترى جميع الاسرائيليات وما حوته شروح التوراة قد نقل إلى الكتب الاسلامية ، على أنه أحاديث نبوية ، إلا أن أئمة الدين عرفوا ذلك فنصوا على عدم صحتها ، ونهوا عن النظر فيها . ومنهم من تعمد وضع الأحاديث التي لو رسخت معانيها في العقول أفسدت الأخلاق ، وحملت على التهاون بالأعمال الشرعية ، وفترت الهمم عن الانتصار للحق ، كالاحاديث الدالة على انقضاء عمر الاسلام (والعياذ بالله) أو المطمعة في عفو الله مع الانحراف عن شرعه ، أو الحاملة على التسليم للقدر بترك العقل فيما يصلح الدين والدنيا . كل ذلك يضعه الواضعون قصداً لافساد المسلمين ،

وتحويلهم عن أصول دينهم ، ليختل نظامهم، ويضعف حولهم .

ومن الكاذبين قوم ظنوا أن التزيد في الاخبار والاكثار من القول يرفع من شأن الدين ، فهذروا بما شاؤا ، يبتغون بذلك الاجر والثواب ، ولن ينالهم إلا الوزر والعقاب ، وهم الذين قال فيهم ابن عباس : ما رأيت أهل الخير في شيء أكذب منهم في الحديث . ويريد بأهل الخير أولئك الذين يطيلون سبالهم ، ويوسعون سربالهم ، ويطأطئون رءوسهم ، ويخفتون من أصواتهم ، ويغدون ويروحون إلى المساجد بأشباحهم ، وهم أبعد الناس عنها بأرواحهم ، يحركون بالذكر شفاههم ، ويلحقون بها في الحركة سبحهم ، ولكنهم كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : منقادون لحلة الحق ، لا بصيرة لهم في أحنائه، ينقدح الشك في قلوبهم لأول عارض من شبهة ، جعلوا الدين من أقفال البصيرة ومغاليق العقل ، فهم أغرار مرحومون ، يسيئون ويحسبون أنهم يحسنون . اه فهؤلاء قد يخيل لهم الظلم عدلا ، والغدر فضلا ، فيرون أن نسبة مايظنون إلى أصحاب النبي مما يزيد في فضلهم ، ويعلي في النفوس منزلتهم ، فيصح فيهم ماقيل : عدو عاقل ، خير من محب جاهل . ومن هؤلاء وضاعَ كتب المغازي والفتوح وما شاكلها

أما الشيخ الواقدي فكان من علماء الدولة العباسية ، ولاه المأمون القضاء في عسكر المهدي ، وكان تولى القضاء في شرقي بغداد . قال ابن خلكان : وضعفوه في الحديث وتكلموا فيه اه أي عدوه ضعيف الرواية ليس من أهل الثقة . ولذا نص الامام الرملي من علماء الشافعية : على أنه لا يؤخذ بروايته في المغازي[1] فان كان هذا الكتاب المطبوع الموجود في أيدي الناس من تصنيفه ، فهذه منزلته من الضعف عند علماء المسلمين ، على أني لو حكمت بأنه مكذوب عليه ، مخترع النسبة اليه، لم أكن مخطئاً

(١) أقل ماقيل فيه انه ضعيف وقد كذبه الشافعي وأحمد وروى البيهقي عن الشافعي انه قال كتب الواقدي كلها كذب ،ووثقه آخرون ولا خلاف في كونه من أعلم علماء الملة . كما في تهذيب التهذيب

وذلك لأن الواقدي كان من أهل المائة الثانية بعد الهجرة ، وكان من العلم بحيث يعرفه مثل المأمون بن هرون الرشيد ، ويواصله ويكاتبه ، وصاحب هذه المنزلة في تلك القرون إذا نطق في العربية فإنما ينطق بلغتها ، وقد كانت اللغة لتلك الأجيال على المعهود فيها من متانة التأليف ، وجزالة اللفظ ، وبداوة التعبير . والناظر في كتاب الواقدي ينكشف له بأول النظر أن عبارته من صناعات المتأخرين في أساليبها ، وما ينقل فيها من كلام الصحابة مثل خالد بن الوليد وأبي عبيدة وغيرهم رضي الله عنهم لا ينطبق على مذاهبهم في النطق ، بل كلما دقق المطالع في أجزاء قوله يجد أسلوبه من أساليب القصاصين في الديار المصرية من أبناء المائة الثامنة والتاسعة ، ولا يرى عليه لهجة المدنيين ولا العراقيين ، والرجل كان مدني المنبت عراقي المقام ، ولولا خوف التطويل لأتيت بكثير من عباراته ، وبينت وجه المخالفة بينها وبين مناهج أبناء القرون الاولى في التعبير ، على أن ذلك لا يحتاج الى البيان عند العارفين بأطوار اللغة العربية

فهذا الكتاب لا تصح الثقة به ، إما لأنه مكذوب النسبة على الواقدي وهو الأظهر ، وإما لضعف الواقدي نفسه في رواية المغازي كما صرح به العلماء ، فلا تقوم به حجة المتحذلقين ، ولا يصلح ذخراً للسياسيين ، ومثل هذا الكتاب كتب كثيرة كقصص الأنبياء المنسوب لأبي منصور الثعالبي ، وكثير من الكتب المتعلقة بأحوال الآخرة ، أو بدء العالم ، أو بعض حقائق المخلوقات المنسوبة إلى الشيخ السيوطي ، وقصص روايات تنسب إلى كعب الأحبار أو الأصمعي ، وما شاكلها ممن عرفوا بالرواية ، فأولع الناس بالنسبة اليهم من غير تفريق بين صحيح وباطل ، فجميع ذلك مما لا اعتداد به عند العلماء ، ولا ثقة بما يندرج فيه . والعمدة في النقل التاريخي كتب الحديث كصحيحي البخاري ومسلم وغيرهما من الصحاح ، ويتلوها كتب المحققين من المؤرخين كابن الأثير والمسعودي وابن خلدون وأبي الفدا وأمثالهم . وعلى أي حال فلا يستغني مطالع التاريخ عن قوة حاكمة يميز بها بين ماينطبق على الواقع وما ينبو عنه

هذا ماأردنا اليوم إجماله ، فان دعا إلى التفصيل داع عدنا اليه ، والله الموفق للصواب

المقالة الثالثة

مراسلات (*

(ملخص خطاب له كان القاه في المدرسة السلطانية ببيروت وكان من مدرسيها وكان بعض جواسيس فيها بلغ السلطان طعنا فيه وفي الاستاذ ، وكتبت جريدة ثمرات الفنون ثناء عليه تبغي به الدفاع عنه فأرسل اليها رحمه الله تعالى ما يأتي :)

طالعت في جريدتكم جملة تتعلق بالخطاب الذي دعيت اليه وألقيته في احتفال المدرسة السلطانية ، ولقد مننتم بذكر صفات أثبتموها لهذا العاجز ، وعندي أن نفسي تقصر عن القليل منها فضلا عن كثيرها ، فليشكركم الأدب ولتحمدكم الفضيلة . ثم إن أحد الادباء سألني أن أثبت ما بني عليه الخطاب بالكتابة لينشر ، فرأيت أن أكتب به اليكم ، فان رأيتم الفائدة في نشره فدونكم وما تشاؤون

قمت بين يدي الحاضرين فحمدت الله وصليت على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم اعترفت بالقصور ، واستجديت العفو من الحاضرين ثم قلت مامعناه :

أفتتح كلامي بالدعاء لمولانا أمير المؤمنين ،وخليفة رسول رب العالمين، السلطان عبد الحميد خان ، فمقام هذا الخليفة الأعظم فينا ، هو الحافظ لنظامنا ، والحامي عن مجدنا ، والآخذ بميزان القسط بيننا ، وهو هادينا إلى أفضل سبلنا ، فهو ولي النعمة علينا ، ولو أفرغنا جميع أوقاتنا في الدعاء لعظمته ما أدينا أدنى حقه علينا ، فاللهم أيد شوكته ، وأبد دولتــه ، ومتع بوجوده رعاياه الصادقين . ثم أتبعت ذلك بالدعاء لوزرائه الذين فوّض اليهم النظر في شؤون رعيته ، والقيام بتنفيذ إرادته . ثم أثنيت على حضرة ملجأ الولاية السورية ، وعلى سعادة

*) نشرت في عدد ٥٩١ من جريدة ثمرات الفنون في ٢٥ شوال سنة ١٣٠٣

متصرف بيروت ، وذكرت فضل دولة الوالي الأفخم ، وسعادة المتصرف الأكرم في ترويج سوق العلم ، وتعزيز جانب الفضل . ثم شكرت الحاضرين على الاحتفال في ذلك المعهد العلمي . وقلت : إن الحامل لهم عليه انما هو تعظيم المعارف ، واجلال مقامها ، علماً منهم بأن العلم عزيز ، والعزيز اذا حلّ دار قوم فلم يجلوا منزلته هاجرهم وارتحل عنهم ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون . فليحمدهم العلم ، ولتفض عليهم بركاته ان شاء الله

ثم أعقبت ذلك بما معناه :

إن حرصنا معاشر العثمانيين على انتشار المعارف منشؤه أمر في نفوسنا ، فاننا اذا خالطنا سكان الأقطار الشرقية على اختلاف مواقعها نجد في كل واحد منهم احساساً بفقد شيء كان له فهو آسف على فواته ، وفيه ميل لطلبه رغبة الوصول اليه ، غير أن النفوس في حيرة من هذا المفقود المطلوب كأنها لا تهتدي اليه . ويزيدنا أسفاً وشوقاً مخالطتنا لاقوام يدعون أنا في المنزلة المتأخرة عنهم ، وسواء أصابوا في دعواهم أم أخطأوا ، فان الجمهور مناقد صدقهم ، ولم تزل الحيرة آخذة بالعقول حتى قامت الدولة العلية بصوت خليفتها الأعظم تنادي على الأمة أن مطلوبكم المحبوب هو العلم . كان العلم فيكم وكان الحق معه ، وكان الحق فيكم ، وكان المجد معه . كل مفقود يفقد بفقد العلم ، وكل موجود يوجد بوجود العلم . ثم أنشأت المدارس ، وأقامت بناء المكاتب ، وحملت رعاياها من كل طبقة على الدراسة ، وطالبتهم باقتناء العلوم ، فاستجاب لها أقوام منحتهم الفطرة قوة فى الاستعداد ، وسيتبعهم غيرهم ان شاء الله

أما العلم الذي نحس بحاجتنا اليه ، فيظن قوم أنه علم الصناعة وما به اصلاح مادة العمل في الزراعة والتجارة مثلا . وهذا ظن باطل فانا لو رجعنا إلى ما يشكوه كل منا نجد أمراً وراء الجهل بالصناعات وما يتبعها . إن الصناعة لو وجدت بأيدينا نجد فينا عجزاً عن حفظها ، وإن المنفعة قد تتهيأ لنا ثم تنفلت منا لشيء في نفوسنا ، فنحن نشكو ضعف الهمم ، وتخاذل الايدي ، وتفرق الأهواء ، والغفلة عن المصلحة الثابتة ، وعلوم الصناعات لا تفيدنا دفعاً لما

نشتكيه ، فمطلوبنا علم وراء هذه العلوم ، ألا وهو العلم الذي يمس النفس ، وهو علم الحياة البشرية

إذا نفخت الحياة في جسم نبهته لجميع ضروراته ، وهدته لحاجاته ، واستحفظته مايصل اليه ، وصرفته في سبيل الحصول عليه ، والعلم المحيي للنفوس هو علم أدب النفس ، وكل أدب لها فهو في الدين ، فما فقدناه هو التبحر في آداب الدين ، ومانحس من أنفسنا طلبه هو التفقه في الدين ، ولا أريد أن نطلب علماً محفوظا ، ولكنا نطلب علماً مرعياً ملحوظا . وما أودعته الديانة من الآداب النفسية والكمالات الروحية لم يختلف في صحته أحد من البشر ، حتى من يظن نفسه غير آخذ بالدين ، فاذا استكملت النفس بآدابها عرفت مقامها من الوجود ، وأدركت منزلة الحق في صلاح العالم ، فانتصبت لنصره ، وأيقنت بحاجتها إلى مشاركيها في الوطن والملة ، فأخذت بالفضيلة الجامعة للفضائل ، وهي مايعبر عنها بحب الوطن والدولة والملة ، ولا نريد من الحب ميلا خيالياً ، ولكنا نريد منه ميلا يبعث على العمل ، كما يرشد اليه الدين والأدب ، فمتى تحلت النفوس بهذه الفضيلة أبصرت مواقع حاجاتها فاندفعت إلى طلبها ، وطرقت لها كل باب ، لاترجع حتى تظفر أو يدركها الأجل

أما دعوى أننا فقراء فهي باطلة ، فانا لو نظرنا إلى ثروة بلادنا لا نجدها قاصرة عن حاجاتنا ، ولكن القاصر عن الحاجات هو ادراكنا لاحتياجنا ، فقد نرى الغني يبذل أموالا جمة في زخارف زينة لامقام لها في نظر العاقل ، ولا يرى فى بذله هذا مغرماً ، ثم اذا دعي الى مساعدة وطنه وملته ودولته يستكثر القليل ، ويعطي وهو كاره ، ولو كان حي القلب بحياة العلم الحق لجعل الأفضل من ماله ونفسه مبذولا فى تأييد دولته ورفعة أوطانه ، (ثم أتيت على ذلك بشواهد وضربت له أمثالا كلها يرجع الى هذا الأصل) ثم قلت :

وانا فى تحصيل هذا العلم الحيوي لا نحتاج الى الاستفادة من البعداء عنا ، بل يكفينا فيه الرجوع لما تركنا ، وتخليص ماخلطنا ، فهذه كتبنا الدينية والأدبية حاوية لما فوق الكفاية مما نطلب ، وليس فى كتب غيرنا مانزيد عنها الا بما لاحاجة بنا اليه ، وكما وصل الينا وجودنا بالتناسل عن آبائنا ، فلتصل الينا حياة

نفوسنا بما أورثونا من علومهم وآدابهم ، ولا يتيسر لنا ذلك الا بعلم اللغات التي أودعوها معارفهم ، وأهمها لدينا لغتان : اللغة التركية لأنها لغة دولة قامت بشأن الممالك الاسلامية مايقرب من سبعة قرون ، وقد تكلم فيها من الأفاضل والعلماء جمّ غفير نحن فى حاجة الى الاستفادة من معارفهم ، ثم هي اللغة الرسمية فى الممالك العثمانية ، فيها حياتنا السياسية ، وبها نقف على هدي مولانا الخليفة الاعظم أيده الله بنصره ، واللغة العربية وهي لغة القرآن الشريف ، وكتب الشرع المنيف ، فعلى الناس أن يطلبوا البراعة فى اللغتين ، لا لأن يقال كاتب ومنشىء ، ولكن ليدرك أسرار ماأودع فيهما ، ويتمكن من افادة ماقد ينكشف له . أما اللغة الفرنسوية وغيرها من اللغات فالحاجة اليها خاصة ، والاشتغال بها ولا بدّ أن يكون منحصراً فى طبقات من الناس ، إما عالم يطلب ترجمة مافيها من العلوم الطبيعية مثلا الى لغته ، واما متهيء لأن يخدم دولته فى معاملة سياسية بينها وبين الدول الأجنبية ، واما تاجر يحتاج الى معاملة أناس من غير جنسه وما شابه ذلك . وليس بمحمود في نظر العقلاء أن تطلب اللغات الأجنبية لذاتها فان اللغة طريق الى ماأودع فيها ، وليس في علمها نفسها أدنى فضيلة .

ثم استطلت الكلام وطلبت الوقوف عند هذا الحد، وختمت كلامي بالدعاء لمولانا أمير المؤمنين ، وطلبت من الحاضرين أن يؤمنوا ، فارتفعت الأيدي بالدعاء لعظمته بتأييد الملك وتخليد السلطان ، هذا ماوسع الوقت إجماله ، والله الموفق للصواب

(يقول جامع الكتاب) ان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى كان في بيروت يخدم الاسلام والدولة العثمانية والشعب السوري الذي أحبه وعرف له قدره ، وكان كبار الطوائف من جميع الملل والنحل تجله وتكبره ، وما كان يمكنه أن يقيم في البلاد العثمانية متمتعاً بهذا الاحترام إلا إذا لهج بمثل هذا الثناء والدعاء للسلطان

المقالة الرابعة

رسالة السير صمويل باكر في السودان ومصر وانكلترة (*

وردت الينا الكتابة الآتية تحت العنوان المذكور أعلاه ونصها :

أبعث اليكم بسطور أظن في نشرها مايسر مطالعي جريدتكم ، فان رأيتم كما رأيت فاليكم الاختيار في درجها بصحيفتكم

طالعت في إحدى الجرائد رسالة بعث بها السير صمويل باكر الانكليزي الى جريدة التيمس موضوعها السودان ومصر وانكلترة ، فأجللت مقام الرجل من الخبرة بأحوال السودان ومصر ، ومن الاحاطة بمنزلة دولته الانكليزية من قلوب المصريين والسودانيين ، وبمكانة الدولة العثمانية من نفوس الفريقين ، إلا أنني وجدت ضعفاً في رأيه عند ما أخذ في بيان الوسائل التي يظنها موصلة لحل مشاكل السودان ، وتخليص مصر من الاضطراب العارض أو ما سيعرض في مستقبل الزمان، قال :

« عظمت رزايا السودان من فقد الرجال وإشغال الأفكار والأيدي بالمحاربات وسفك الدماء عن تعاطي أعمال الزراعة والتجارة ، حتى أصبح أهاليه في فقر أعوزهم معه حفظ الحياة ، وأصيبت مصر بالافلاس ، وابتلى أهاليها بالفاقة وضيق المعيشة . ولم يكن نصيب الانكليز من الرزية أقل من نصيب تلك البلاد ، فأنفقوا أموالا وافرة ، وفقدوا رجالا من أعز أبطالهم، وأشجع رجالهم ، وهتكوا أستار قوتهم الحربية ، ثم عادوا بالخيبة والفشل، ولصق بهم عار الهزيمة وسوء المفر . فهذا الذي أصاب البلاد المصرية ، والأقطار السودانية ، ونال رجال الانكليز كله من عواقب تدخل انكلترة في المسائل المصرية ، فكان مثلها كمثل من « سقط العشاء به على سرحان » ثم قال :

« إن القبائل المنتقضة على الحكومة المصرية من أهالي السودان لا يحتمل

---

*) نشرت في العدد ٤٥ من ثمرات الفنون المؤرخ في ١٤ ذي القعدة سنه ١٣٠٢

خضوعها لسلطة الانكليز ، وإن ساقوا عليها من القوى ما ساقوا ، أو دخلوا عليها من أبواب الحيل ما دخلوا . أما الحيل فلا تروج على تلك القبائل بعد ماعرفت ختل الانكليز ، ومماطلتهم في المواعيد ، وقعودهم عن نصرة من يلتمسون ولاءهم من غيرهم ، بل عن إغاثة من يتولاهم من بني جنسهم ، كما فعلوا بالجنرال كوردون ، والسودانيون والمصريون في اتفاق على أن الانكليز قوم متغلبون ، معتدون على البلاد ، طالبون لتملكها ، وهم مخالفون للأهالي في الدين ، فلا يسوغ الخضوع لهم ، وإن أقاموا العدل ، ونصبوا ميزان القسط . وأما القوة فقد شهدت التجربة الماضية بعدم نجاحها في مراغمة السودانيين ، ولم ننس ما كان من الجيش الانكليزي في كل المواقع الحربية حيث فشل في جميعها ، ورجع بالعار عن كل موطن ، ولا قدرة لدولة على تطويع السودان ، وتقرير سلطة نظامية في إغاثته إلا للدولة العثمانية . فهي صاحبة السيادة الدينية على مصر والسودان ولها الحق الشرعي في الولاية عليها ، فان صح أن السودانيين لا يميلون اليها (ولا صحة له) فمن المحقق أنهم يهابونها ، ويخشون بأسها ، لما تعودوه من سيادتها عليهم ، ولما عرفوه لها من الحق الشرعي . والتاريخ شاهد بأن العثمانيين هم الذين دوّخوا بلاد السودان بعد المعارك الدموية ، ولم يؤثر عنهم أنهم تقهقروا في معركة مع تقارب الأسلحة في تلك الأوقات . وأما عساكرنا (الانكليزية) فقد انهزمت بمدافعها المهلكة ، وبنادقها المفنية ، وأرغمتها رماح العربان وحرابهم على الرجوع القهقري »

هذه معلومات السير صمويل باكر في هذه الحوادث ، وانا لا نخالفه في شيء منها ، بل لا يوجد ذو عقل صحيح الا ويرى رأيه فيها . أما وسائل الخلاص من هذه البلايا فنذكرها منقولة عنه ، ونأتي مع كل وسيلة ببيان الصواب فيها ، وان كنا لا نتبع ترتيبه في رسالته لغرض لنا في التقديم والتأخير

رأى هذا السياسي كما رأى غيره من أبناء جلدته الانكليز أن من الواجب الختمي لتقرير الراحة في مصر وحمايتها من غارات الأجانب إلغاء الجيش المصري المؤلف من الفلاحين المصريين ، وتأليف جيش من الأرناؤط ونحوهم ، وفي

ذلك مسرة للجند الملغى بذهابه لزراعة الأراضي كما يشتهي

أما المصريون فهم كغيرهم من العثمانيين لايفرقون بين طائفة من الطوائف العثمانية وطائفة أخرى لتكون حامية البلاد ، ومانعة لها من اضطراب داخلي أو عدوان أجنبي . ولكنا لم نعلم ما حمل هذا الرجل وغيره على التفرقة ، وهو يعلم أن المصريين هم طبقة من طبقات العثمانيين ؟ وما اعترف به للعثمانيين في تدويخ السودان يصيب المصريين منه حظ وافر ، فانهم كانوا ولم يزالوا منهم ، والجند المصري كان فرقة من العثماني في الفتوحات السودانية ، وقد كان للجند العثماني المصري وحده عمل في فتح أقاصي السودان على عهد الخديوى السابق ، ولهذا الجند يدٌ في حفظ بلاده داخلا ، ومدافعة المغيرين عليها زمناً طويلا ، وهذا الجند هو المحاصر في كسلا وسنار والتاكلا ، فان كان المصريون وهم عثمانيون لم لم يصيبوا ظفراً في بعض المواقع لهذه الأزمان الأخيرة ، فليس من ضعف استعدادهم للمغالبة أو من جبن في طباعهم كما يتوهمه المتوهمون ، وإنما كان لنقص في بعض قادتهم ، أو لكون الصدمة كانت أعظم من القوة ، أو لشيء في طبيعة الحادثة ، وقد أوفى الزمان لهم بأمثال أصابهم مثل مانزل بهم . فالجنرال غراهم انهزم في سواحل البحر الأحمر مرتين وجبن جيشه ، أو ضعف عن مقاومة أشباه من العربان ، واللورد ولسلي فشل بجيشه في السودان الغربية ، وخسر في كل مشاهده مع عراة السودان . والمصريون لم يزالوا في مواقفهم — سنار والتكلا وكسلا — يهاجمهم الموت ولا يفرون ، فإن كان هذا لم يؤثر نقصاً في الجيش الانكليزي ، فمن الحق أن لايؤخذ على المصريين مالا يخلو منه جيش في أي أمة ، على أن الألبانيين وأمثالهم إن كانوا قزما يجلبون من الأطراف على غير نظام فمن المتعذر أن يتألف منهم جيش منتظم يقوى على مايريد حضرة الكاتب ، وقد جرب ذلك في حملة السودان الأخيرة ، وإن لوحظ في تأليفه النظام المعروف في الممالك العثمانية ، فذلك جيش عثماني وأهلا به وسهلا . ولعل الكاتب رأى من الواجب أن يبدل جيش عثماني مصري بجيش عثماني تحت اسم آخر ، ويكون حلوله في مصر عوضاً عن حلول الجيش الانكليزي ، فان كان ذلك وافقناه في رأيه ؛

ورجونا أن يعجل الله بتنفيذه

ثم أشار على حكومته (الانكليزية) بأن تأخذ بأنجح الوسائل وأقربها لحل مسئلة السودان ، وإرجاع تلك البلاد إلى ما كانت عليه قبل الفتنة ، فانه لاغنى لمصر عن شمول الراحة في تلك الأقطار ، ولا أنجح من توسط الدولة العثمانية ، وسوق فريق من جنودها لمحاربة السودانيين ، وكسر سورتهم . فمن الواجب على دولة انكلترة أن تسعى في اعداد جيش عثماني ينزل من بلاد السودان على سواكن ، فاذا وصل اليها انقسم الى فرقتين ، تتوجه احداهما من طريق كسلا لاخضاع الأقطار الشرقية ، وانقاذ الحامية المصرية ، والأخرى تزحف من طريق بربر . والجنود الانكليزية والمصرية تحل في وادي حلفا ومديرية دنقلا ، ويكون ذلك الزحف من ٢٠ أكتوبر الآتي

ولما كانت الدولة الانكليزية قد غاضبت الدولة العثمانية بالعدوان على حقوقها في مصر أخلص لها النصيحة بتجديد الوداد بين الدولتين ، وطلب من دولة بريطانيا أن تعرض اخلاصها على الدولة العلية ، وتؤكد لها المحافظة على المعاهدة المنعقدة بينهما على يد اللورد سالسبوري ، ومن مقتضاها أن تكون انكلترة عونا للدولة العثمانية بالسلاح والرجال اذا تعرضت دولة أخرى لشيء من الممالك العثمانية . فاذا تجددت المحالفة بين الدولتين في هذا الوقت تصبح انكلترا حامية للقطر المصري ، ومتفرغة لمسئلة أهم من المسئلة المصرية :

﴿ المسئلة الأفغانية ﴾

أما نحن فنخال الدولة العثمانية تقول : « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك ؟ » ان المعاهدة التي يشير اليها ان صح القصد فيها لحماية شيء من الممالك العثمانية ، فأهم مقصود منها هو مصر ، فانها هي البلاد التي يمكن لانكلترا أن تشترك مع الدولة في الدفاع عنها لاكتنافها بالمياه من أغلب جوانبها . وأما سائر الولايات الاسيوية فهي بعيدة عن البحر ولا قدرة لانكلترة على سوق جيش في الأراضي اليابسة اللهم إلا عدداً قليلا يمكن للدولة أن تستغني عنه . وإذا وصلت أذناب الحرب إلى البحر فاتت فرصة المدافعة . فالبلاد التي يصح التحالف مع انكلترة

على صيانتها قد أغارت عليها انكلترا نفسها فصار الحليف على صون شيء هو السالب له ، فكيف يوثق بمحالفته ؟ فان قيل نقض المحالفة كان من وزارة غلادستون فلتحافظ عليها وزارة سالسبوري . قلنا الدولة التي تكون عهودها تابعة لهوى رجالها لا يعتمد على محالفتها فلتترك وشأنها ، وان الدولة العثمانية أحرص من أن تسهل لانكلترا طريق حمايتها لمصر كما زعم حضرة الكاتب في آخر نصيحته فان ذلك أعظم الضرر على سائر ممالكها

وليس من مصلحة الدولة العثمانية أن تسير جنودها لاخضاع السودان — وعساكر الانكليز في مصر — فان الجند العثماني إذا ظفر بالسودانيين وألزمهم الطاعة، فلا يخلو حاله إما أن يرجع بعد ذلك ويسلم البلاد لطلاب الحلول فيها من الانكليز والمصريين القائمين بخدمتهم ،فتكون الدولة قد استعملت سيفها في رعاياها قصد ادخالهم في قهر غيرها، ومحال على الدولة أن تفعل ذلك. وأما أن يبقى الجند العثماني في السودان، وتكون البلاد ولاية عثمانية، وجيش الانكليز حال بمصر، فهذا غير ممكن من وجهين، (الأول) أن رضا الدولة بها بذلك اختيار لأخس القسمين وأبعدهما عن مركز القوة الحربية العمومية، خصوصاً وطريق مواصلة الولايات السودانية مع قاعدة الملك لا تكون إلا من البحر، فتكون عرضة للنزاع في أي وقت تتفرغ انكلترة من منازعاتها الاسيوية، وتلتفت لاستخلاص السودان . (والوجه الثاني)ان انكلترة لا تأمن أن تكون قوة عثمانية دائمة الجوار لقواها الحربية في مصر ، وهي تعلم ان المصريين والسودانيين على وفاق في الميل للدولة العثمانية ، وقرب المكان يقويه وطول الزمان يظهر أثره في الاجماع على طرد الجيش الانكليزي من أرض مصر وماحله من مواقع السودان ، فلا واحدة من الدولتين ترضى بجعل السودان ولاية عثمانية مع العزم على استمرار الحلول الانكليزي زمناً طويلا

فلم يبق من الوجوه الممكنة إلا وجه واحد وهو انجلاء الجنود الانكليزية عن القطر المصري ، وحلول الجيوش العثمانية فيه ،وسوق فرقة منها إلى أطراف السودان ،وهذا أيسر الوجوه وأدناها من الصواب، فانه لما لزم الاعتراف بسيادة الدولة العلية على السودان ومصر، وان المصريين والسودانيين ينظرون إلى الانكليز

نظرهم إلى الأعداء المتغلبين ولا يخضعون لهم خضوعا ثابتا — وعلى هذا لا تستقر الراحة في مصر ولا تتأيد سلطة الخديوي مادام وافيها — وجب أن يطلب الى الدولة تقرير الراحة في الديار المصرية كما يطلب ذلك منها السودان، وهذا أسهل على انكلترة ان تتفق مع الدولة عليه وتقنع من أعمالها السابقة ببعض الامتيازات في إدارة المالية أو فيها مع ادارة أخرى وبعض الخصوصيات في قناة السويس، هذا إلى أن يتألف جيش عثماني مصري ثم تعود مصر إلى ما كانت عليه ان كان لا بد من ذلك، وبهذا تفرغ انكلترا من أعمال مصر الى أعمال أهم منها في آسيا لما تم لها من محالفة الدولة العثمانية على وجه صحيح ثابت

أما ما أطرى به على سعادة حسن باشا خليفه من انه الرجل الذي يجمع بوجاهته كلمة السودانيين، وانه يعسوب القبائل متى رأته التفت عليه، وانه هو الذي يسل بغض الانكليز من قلوب عرب السودان، وينشىء فيها ثقة بهم، فهو المثل المعروف (ترى فتيانا كالنخل، وما أدراك ما الدخل) فان حسن باشا خليفه ان كان رجلا في قبيلة فليس رجلا في قبائل، وبرهان ما نقول ما كان من أمره أولا وآخراً. ولولا خيفة ان أمسّ بأحواله الشخصية لذكرت من أعماله مالا وقوف للحكومة المصرية عليه (ولا ينبئك مثل خبير)

هذا ما قصدنا ايراده في هذه الأسطر والله يهدينا جميعاً طريق الرشاد

(م. ع.)

(جامع الكتاب) هكذا يكون الدفاع واقامة الحجج: أرضى رحمه الله به الدولة العثمانية — وهو نزيل بلادها — ودافع عن الجيش المصري وعن حق أهل مصر في تأليف جيشهم منهم، وكشف الستار عن دسائس الانكليز ومحاولتهم استخدام الدولة لتذلل لهم السودان بجيشها في الوقت الذي كانوا يريدون فيه توجيه قوتهم الى الافغان، حتى لا تتسع النفقات عليهم. ومن أصول سياستهم قطع الشجرة بفرع منها، والاستعانة على الرعية بحكومتها، وضرب بعض الأمم ببعض،

* كالسيل يقذف جلموداً بجلمود *

المقالة الخامسة

مصر — المحاكم الاهلية (*

(وردت الينا الرسالة الآتية من أحد الفضلاء في مصر تحت العنوان المذكور)

رأينا بين عدة من الجرائد المصرية منافسه في هـذا الموضوع وكنتم ألمحتم بشيء من الكلام فيه رواية عن مكاتبكم في القاهرة فمن حقوق الانصاف أن تقبلوا مني ماأبعث به اليكم مما خطر ببالي ولكم بعد ذلك الرأي الأعلى

أتت جريدة على ذكر مايشاع من الخلل في المحاكم الأهلية بمصر ، وتذرعت بذلك إلى الكلام في وكيل الحقانية ، وناطت جميع الخلل بأثرته وتطرفه في الميل إلى أبناء طائفته (القبط) حيث أقام منهم في مناصب القضاء وما يتـعلق به من لاأهلية فيه لاجادة العـمل ، واسترسلت من ذلك إلى دعوى أن المسلمين قد نظروا الى هذا التصرف بعين الناقم. فعارضتها جريدة أخرى ودفعت مادعته من وقوع الضغائن بين المسلمين وبين اخوانهم في الوطنية من الاقباط ، وأقامت الادلة على التحامهم بالالفة والمحبة ، وأخذ كل منهم بعضد أخيه عنـد الشدة ، ورسوخ ذلك في نفوسهم بالتوراث عن أسلافهم ، وأقوى برهان على ذلك وقوفهم مواقف القتال مع اخوانهم المسلمين في مواطن الحروب في فتنة كريد وحرب الحبش والمواقع السودانيـة ، وما سبق ذلك وما لحقه ، يناصرونهم ويوازرونهم ، فكانوا حرباً لمن حاربهم ، وسلماً لمن سالمهم ، وأن الخلاف المذهبي لم يحدث في البلاد شقاقاً وطنياً في زمن من الازمان . ولهذا لانرى للقبط في مصر مسألة سياسية تعني بها دول أوربا كما نرى لغيرهم في غير مصر مسائل . وأيدت هذه الجريدة جريدة أخرى جاءت بتاريخ القبط في الاحقاب الماضية، وما وصلوا اليه في الاوقات الحاضرة ، ثم فصلت القول تفصيلا فيمن عهـدت اليهم وظائف في المحاكم الأهلية من الطائفة القبطية وذكرت أسماءهم وسوابق خدمهم فكان أعضاء المحاكم منهم عشرة من سبعة وستين عضواً والذين في أقلام النيابة منهم ثلاثة من

*) نشرت في العدد ٦٥٨ من ثمرات الفنون بتاريخ ١٣ ربيع الاول سنه ١٣٠٥ وذكر فيها انها رسالة من مصر للابهام ولم يكن الاستاذ قد عاد الى مصر

عدد كثير من النواب ومتعلقيهم والكل في قولها من أهل الاستحقاق لا يغمز على أحد منهم في العلم بما وليه ، ولا يرمي بالقصور عن تأدية ماعهد اليه عمله ، ثم رأينا في مواضع متعددة من جريدة جديدة تطبع في القاهرة تلويحاً وتصريحاً بالخلل الواقع في المحاكم ، وأن معظمه بل كله من تداخل وكيل الحقانية بطرس باشا غالي في أعمال تلك المحاكم . ونقلت تلك الجريدة إجماع الناس على أن السبب في نزول النازلة الهائلة وهي استعفاء عزتلو شفيق بك منصور انما هو الخلاف الذي وقع بين بطرس باشا وبينه ووقوف الباشا مانعاً بين البيك وبين الاصلاح. هذا إجمال مارأيناه فرويناه

وعندنا أن التحامل على شخص بعينه لاينبغي أن يتخذ ذريعة للطعن في طائفة أو أمة أو ملة ، فان ذلك اعتداء على غير معتدومحاربة لغير محارب ، أو كما يقال جهاد في غير عدو ، وهو مما ضرره أكثر من نفعه ان كان له نفع ، فانه يثير الساكن ، وينطق الساكت ، ويؤلب القلوب المتفرقة على مقاومة رأي الطاعن ومخالفته الى عكس مايريده ، فليس من اللائق باصحاب الجرائد أن يعمدوا الى إحدى الطوائف المتوطنة في أرض واحدة فيشملوها بشيء من الطعن ، أو ينسبوها الى شائن من العمل ، تعللاً بأن رجلا أو رجالا منها قد استهدفوا لذلك ، فانه مما يرسل العداوات إلى عمائق القلوب ، ويدلى بالضغائن الى بواطن الافئدة ، فاذا تنافرت الطوائف تشاغلت كلٌّ منها بما يحط شأن الأخرى ، فكانت كل مساعيهم ضرراً على أوطانهم ، فالتوى على الطاعن قصده ، وبعدت عنه غايته ، فقد كان يريد بقوله انتقاص شخص واحد تأديباً له أو استصرافاً لدفع شره ، فأدى سوء استعماله الى خيبة آماله . فنحن نرى رأي الجريدتين المحاميتين خصوصاً عن طائفة الاقباط في مصر ، فانها أظهرت بحسن سيرها مع المسلمين من مواطنيها ما أهلها لوجوب المحافظة على وصية النبي صلى الله عليه وسلم فقد عهد الى أصحابه اذا فتحوا مصر أن يستوصوا بقبطها خيراً ، وقد كان حسن حال الاقباط مظهراً لصدق نبأه عليه الصلاة والسلام . على أن كثيراً من أسلاف هذه الطائفة كانوا أمناء على مال الحكومة المصرية في الدول الاسلامية المتعاقبة بما أجادوا من صناعتي الحساب والكتابة في تلك الاوقات ، ولم تعهد لهم فتنة ، ولم تذكر لهم على

البلاد غائلة ، فلا ينبغي لمبتغي الحق أن يمس شأنهم بالعنوان العام . وأما ما لاتخلو منه طائفة من وجود أشخاص ضعاف العقول أو ميالين الى الشر ، فعلى الناقدين أن يقصروا نقدهم على حال أولئك الاشخاص ، ويستعينوا ببقية الطائفة وغيرهم من مواطنيهم على دفع شرهم ، أو تحويلهم عن القبيح من أعمالهم ، ويجب أن يكون النقد خاصاً بالعمل الذي ظهر فيه الخلل لايتعدى إلى أوصاف خاصة لاتفيد في البحث . نعم إن كانت الطائفة أو الأمة من قوم أجانب على البلاد ومتغلبين عليها بقوة قاهرة ، أو حيلة غادرة ، وكانت أعمال آحادها مبنية على أصول سنها المتغلبون ، فيكون عمل الواحد كأنه صادر عن الجملة كما في أعمال الانكليز بمصر ، جاز للناقد أن يأخذ الجماعة بأثم الواحد منهم ، ويستصرخ أبناء الوطن جميعاً لكشفهم عن بلاده ، واستخلاص الحق منهم لأربابه

أما بطرس باشا غالي فهو رجل ذكي حاذق في عمله ، بصير بأمره ، تقلب في وظائف الحكومة من عنفوان شبيبته ، ورقيَ به اجتهاده الى ماوصل اليه من سامي وظيفته ، وكان (باشكاتب) الحقانية زمناً طويلا ، ثم صار وكيل الحقانية من نحو ست سنوات ، ووثقت به الحكومة الخديوية في كثير من أعمالها المهمة ، ونال منها مكافآت على ماأدى من الاعمال التي نيطت به ، فمن الظن به أن لاتضيق معرفته عن الاحاطة بما توجب عليه أحكام وظيفته ، وأن لايصدر عنه مايبعث عليه لائمة من مصيب في رأيه محق في حكمه . وانا إلى الآن لم نر الناقدين ذكروا عملاً مما أخذوا عليه يستحق أن نبحث فيه سوى الخلاف الذي وقع بينه وبين شفيق بك منصور وافضاء هذا الخلاف إلى استعفاء البيك المومي اليه ومحاباة الباشا لبني طائفته : أما الاخيرة فدفعتها الجرائد الحامية بما لاسبيل إلى معارضته إلا باثبات نقيضه ، وهو مما لايتيسر لنا التهدي اليه حتى نرى مالاارتياب فيه من الادلة ، وأما الاولى فالخلاف قد يكون بين عاقلين ومستقيمين ومختلفين في الصفتين ، ولا طريق للحكم بخطأ أحدهما إلا النظر في مواد الاختلاف وأدلة كل من المختلفين ، وهي الآن لم تحضرنا بوجه ظني فضلا عن قطعي ، على أن الذائع على ألسنة البصراء من المصريين أن النيابة العمومية لحرصها على تقوية نفوذها

وإعلاء سطوتها ،قد تتجاوز الحد المحدود لهاعند الاجراء في بعض دوائر المحاكم، والانتقاد عليها كان أشدَّ من الانتقاد على القضاة ، حتى قيل ان سبب استعفاء الاستاذ العلامة الشيخ العباسي من الافتاء كان عدوانًا من بعض خدمة النيابة ممن لاخلاق له اضطر الشيخ للمداخلة في دفع عواقبه فلم ينجح ، ولا ريب أن هذا كان معروفا لعزتلو شفيق بك منصور وكان الظن به وهو في وظيفتـه أن لايغفل عن ذلك ، وأن يردّ الاعمال إلى حدود أحكامها ، ولا نظنه أهمل فريضة العمل فيه ، لكن ربما كان الأمر أصعب من أن يلافى دفعة واحدة ، والرجاء في حميته أن يداوم على إرشاده لأهل القضاء وعمال النيابة بما ينشره من آرائه في صفحات الجرائد ،فوطني مثله لايحجب فوائد أفكاره عن أبناء وطنه حاجب

وأما تأدية الخلاف الى استعفائه فلا نعده جريمة لبطرس باشا لأن الاستعفاء عمل اختياري لا يؤاخذ به المتسبب فيه ، على أن جريدة الأحكام ذكرت أن سبب الاستعفاء تعيين أحد البلجيكيين في وظيفته كان من رغبة البيك أن لا يكون فيها وهو أمر يتعلق بدولة ناظر الحقانيـة لا بوكيلها ، وعهدنا باخواننا المصريين أن يوجد بينهم من أهل المعارف الشرعية والادارية من يمكنهم بسعة اقتدارهم إصلاح محاكمهم وتقويم ماتأوّد منها ، وأن لا يكون تخلي رجل أو رجلين من وظيفة من النوازل المهمة ، أو الخطوب المدلهمة ، فان ذلك لا يكون إلا في بلاد بلغت من فقر الرجال غاية قصوى ، ونسأل الله تعالى أن ينير بصائر أهل الحل والعقد في بلادنا المصرية حتى يعرفوا للمصيب إصابته ، ويلزموا المخطيء خطيئته ، ويؤلف بين قلوبهم ، ويجمعها على مصالح بلادهم

كنتم ذكرتم في بعض أعدادكم أن أمين بك غالي انتقل الى وظيفة أرقى من وظيفته راتبا والحقيقة أن ذلك لم يكن والراتب واحد والوظيفة مؤقتة ، وكنتم ذكرتم أن باش محضر محكمة مصر الابتدائية عزل برأي وكيل الحقانية في اليوم الثامن لاستعفاء شفيق بك وعين مكانه أحد أقارب الوكيل ، والحق أن عزله كان بناء على طلب رئيس المحكمة ولم يعين بدله أحد إلى الآن ، ويؤدي أعماله أحد المحضرين الموجودين بالقلم .هذا ماساقنا اليه العدل والله الهادي إلى الصواب

المقالة السادسة

اللغة الرسمية فى المحاكم الاهلية بمصر (*

كتب الينا من مصر تحت العنوان المذكور مايأتي

انظر إلى المادة ٢٣ من لائحة ترتيب المحاكم الأهلية تجدها صريحة في أن اللغة الرسمية في المحاكم الأهلية هي اللغة العربية ويجوز أن تنقل خلاصة المرافعة وحجج الدعوى إلى لغة أخرى كتابة وتقدم الى المحكمة ، فمن الواجب بناء على هذه المادة أن لايتكلم أحد الخصمين أو وكيلهما إلا باللغة العربية ، فاذا شاء أحد المذكورين أن يؤيد ذلك بترجمة ماقال إلى اللغة الفرنساوية مثلاً تحريراً لم يمنع من ذلك ، ونظرت الحكومة المصرية في إيجاب التكلم باللغة العربية في المرافعة عند تلك المحاكم إلى تقرير حق لو أغفل بطل المقصود من تشكيل هذه المحاكم بالمرة ، وانقلبت المنفعة المطلوبة بها مضرة ، فان الغرض من تشكيلها الفصل بين الأهالي فيما يقع بينهم من المخاصمات والزام كل جان عقوبة جنائية على وجه هو للعدل أدنى منه إلى الظلم ، وجعلت جلساتها علنية لتكون مدافعة كل من الخصمين عن نفسه معروفة عند العامة والخاصة ممن يحب الوقوف على مآخذ الحق ، ويكون في ذلك حكم عام لايخفى أثره فيما يصدر عن الحكام من الحكم الخاص . والمتخاصمون (من أهالي مصر) لسانهم واحد وهو المعروف (باللسان العربي) وكذلك المأخوذون بتهمة الوقوع فيما يوجب العقوبة ، فاذا ترافع المتخاصمان الى المحكمة أو وجهت الحكومه تهمة على جان وطلبته للمدافعة عن نفسه كان من الضروري أن يفهم كلٌّ من الخصمين مايقول الآخر حتى يتمكن من دفعه وكذلك يكون حال وكلاء الخصوم فان تكلم متكلم منهم بلغة لايفهمها الآخر تعذر على غير الفاهم أن يلم بحجة ومعارضة أدلة خصمه . ثم إن أعضاء المحاكم لم يشترط فيهم العلم بلغة أجنبية البتة فلو كان فى المترافعين من يتكلم بلغة غير

*) نشرت في العدد ٧١١ من ثمرات الفنون بتاريخ ١٣ ربيع الآخر سنة ١٣٠٦ وذلك بعد عودته من سورية الى مصر في هذه السنة

العربية لكان القائمون للفصل في المخاصمة غير عارفين بوجوه الحكم إن لم يكن عندهم علم بغير اللغة العربية ، فمن هذا يظهر أن وكلاء الخصوم (الافوكاتيه) عند المحاكم الأهلية يجب عليهم أن يتكلموا باللغة العربية لاغير سواء كانوا عرباً أو عجماً ، ولا يجوز لأحد منهم أن يخاصم بلغة أخرى

فان قال قائل اذا كان الخصمان عارفين بلغة أجنبية ورضي كل منهما بأن تكون المخاصمة بها ، فلمَ لايجوز أن تسمع المحكمة مرافعتهما باللغة التي اختاراها؟ فجوابه أن ذلك لو فرض وقوعه يكون نادراً ولا موقع له فى نظر القانون ، على أنه لا يكون هـذا الفرض سائغ القبول إلا اذا اتفق أن أعضاء المحكمة جميعاً من العارفين باللغةالتي تراضى الأخصام على المرافعة بهـا حتى يتمكن كل منهم أن يحكم في الخصومة كما هو شرط النظام ، وأن رؤساء المحاكم وأعضاءها الذين هم حفاظ القانون والقوّام عليـه لأيصاله إلى الغاية المطلوبة منـه يجب عليهم أن يراعوا حكم هـذه المادة حفظاً لشأنهم ، وصوناً للقانون ، وتأييـداً لقصـد الحكومة وحياطة للحقوق

في مثل هـذا اليوم من الاسبوع الماضي ٢٣ ربيع الاول انعـقدت جلسة الجنح الاستئنافية تحت رئاسة صاحب العزة أمين بك سيداحمد وكيـل المحكمة ووجد في وكلاء المتهمين رجل أوروباوي لايعرف اللسان العربي ومعه ترجمانه فلما أفضت النوبة اليه طلب أن يتكلم باللغة الفرنساوية فوضع طلبه هـذا موضع المداولة في الجلسـة . وكان حكم الاغلبيـة أن لايتكلم إلا باللغة العربية فأعلن له الرئيس ذلك فأخذ في الكلام بالفرنساوية فمنعه الرئيس فانتصر للفرنساوي أحد القضاة الوطنيين ممن يدعون نجباء ، أو فضلاء ، أوماشاكل ذلك . وسأل الرئيس أن يدعه يتكلم فاحتد الرئيس وقال : بصفة كوني رئيساً قضائياً أطلب منـه أن يتكلم بالعربية ، فان لم يفعل أمرت بطرده من الجلسة ، وكان كما قال فانصرف الابوكاتو وعادت المحكمة لأعمالها . أما الرئيس أمين بك سيداحمـد فقـد أدى الواجب عليه للقانون ، وللحكومة ، وللأهالي ، ولنفسه من جهة أنه مصري عربي وأن عرف الفرنساوية ، ولو تساهل مع الفرنساوي وأجاب طلبه لجاز لغيره أن

يطلب مثل طلبه واندفع الاجانب ينوبون عن بعض الخصوم على رغم من البعض الآخر ويضيع قصد الحكومة ، وتبطل حقوق الأهالي بعماء المخاصمة على من لم يعرف لغة المخاصم منهم ، ولا يجوز للرئيس ولا لغيره منع الطالبين مما يطلبون إلا أن العادة تكون قانونًا وهي عند الاوروبيين تثبت بمرة .

بقي الكلام في ذلك القاضي النجيب : هو مصري ولا يعرف له صلة بالفرنساويين برأه الله من ذلك ، غاية أمره انه يعرف الفرنساوية كما يعرف كثير من أمثاله ـ هو حاكم مصري يجب عليه مراعاة مصلحة المصريين والمحافظة على ما به صون حقوقهم ـ هو قيم على القانون وبحكم القانون صار قاضيًا ، ولولاه لم يكن شيئًا ، فمن الواجب عليه شكر القانون واحترام مواده والمحافظة على أحكامه بما استطاع ـ هو موظف للحكومة المصرية ، يفرض عليه الامانة في خدمتها ، وموافاة مقصدها الصالح ، وغايتها النبيلة ـ هو انسان والانسان ، مجبول على حب وطنه وترجيح مايؤيد جانبه ، فلو فرض أن القانون جوّز أن يكون الكلام بغير العربية ، لوجب عليه أن يستعمل الجواز موجبًا للخطر ، فيقول يجوز هذا ويجوز غيره ، ولي الخيار في القبول ، فلا أقبل إلا لسان بلدي — هو متعلم قرأ الكتب ودرس الفنون . وهو أجدر أن يسبق الناس في صحة الاحساس ، ليكون قدوة حسنة لهم ـ هو معدود في نجباء الفتيان المصريين ، فكان الواجب عليه اذا وجد من نفسه ميلاً إلى سماع الفرنساوية في المرافعة ، اللذة له في رنتها ، أن يكتم ذلك الميل المضاد للقانون ، ولما يوجبه الحق الاهلي ، كيلا يؤخذ عليه . ومع ذلك كله فقد بلغني عنه أنه يحب أن تكون المرافعة بالفرنساوية ، وانه قد سبق له عند ماكان رئيس جلسة إباحته ذلك لمحام فرنساوي ، وانه يتمنى لو أن الحكومة تلغي مادة ٢٣ من القانون حتى يكون القانون مسوغا للفرنساوي أن يترافع بصفته انه نائب عن المصري باللغة الفرنساوية ، وحكي أنه لما شاع (وغالب مايشاع كذب) أن الحكومة من نيتها أن تسمح للاجانب بالمخاصمة عن الاهلين بغير العربيـة فرح ذلك القاضي حتى شرب في أحد مجالس لهوه على سرّ تلك الاشاعة على نحو مايفعل الاوربابيون ولا أقول انه شرب مسكراً ولكنه قلد الفعل تقليداً ، كذا يقال . ولما سئل عن

سبب ميله إلى ذلك أجاب بأن المحامين الفرنساويين يعرفون الحيل الشرعية ويجيدون في نسجها ، فكان ذلك مثار تهمةٍ عليه بأنه يود أن يكون للفرنساويين مثلا حق في المخاصمة ليصح له الاتفاق معهم في محاولة القانون ويكون في حماية من ألسن الوطنيين وسلطة الحكام بميل الأوروبيين ؛ واني أعيذه من ذلك وإن قامت القرينة من كلامه عليه ، وغاية مايمكنني أن أقول في سبب هذا الفرح ، وعلة ذلك الميل ، انه طيش شبيبة يسوّل له أن في سماعه كلام الفرنسوي والاقبال عليه عند المخاصمة — والمتفرجون مزدحمون — والتفاتهم إلى انه عارف بما يقول الفرنساوي ومدرك لدقائقه بما يلوح على وجهه عند ذلك من علامات الفهم ، وأن في معرفة المتفرجين انه من المدققين في اللغة الفرنساوية لذةً بما ينالها من الشهرة عنده مايتناقل الحاضرون حاله . لكن خفي عليه أن من لم يعرف لايصح حكمه ولا قيمة للشهرة عنده ، وقليل من الحاضرين من يعرف اللغة التي يميل إلى الاشتهار بمعرفتها

وقد بلغني أن ذلك الفاضل على ذكائه وسعة اطلاعه في القوانين كثيراً مايعتمد على شدة فهمه فيلهو عن سماع المخاصمة اكتفاء منه بالاشراف على الضمائر بغير سماع ، وأحياناً يأتي ببعض القضايا يلخصها في الجلسة ويترك المترافعين يناقض بعضهم بعضاً ، وهو مع ذلك يُدِلُّ على المحامين الوطنيين ، ولو كان بين يديه محامون أوربيون لما سهل عليه إتيان شيء من ذلك ، ولكان خوفه منهم إذ ذاك أشد من ميله اليهم الآن ، فعليه أن يعقل مايفعل ، وعلى الناس أن ينبهوه عند مايغفل ، وأملنا في نجابة المصريين أن لايكون هذا الميل شائعاً في كثير منهم

ثم بلغني بعد ذلك أن مرافعة وقعت في المحكمة الابتدائية في مصر باللغة الفرنساوية وأن رئيسها مع أنه من أهل التقى والاستقامة وذوي الدراية قد أذن في ذلك ، ولم أعلم كيف كان منه هـذا الاذن ؟ ثم لم أدر كيف سكتت نظارة الحقانية على ذلك ، ولم تصدر أمرها بالتحذير من تكرر الوقوع في مثله ؟ ولعل نشر ذلك في جريدتكم ينبه غافلا ، أو يستلفت من يجب عليه الالتفات . وأملنا أن هذه الوزارة الرفيعة الشأن تراقب مايقع في المحاكم من مثل هـذه الهفوات ، وتنبه الاعضاء والرؤساء على مايخالطون منها ، وتعرفهم مواضع الخطأ فيها ، فانها

قد تكون في نظر بعض الناس جزئيات ، لكنها في نظر العارفين منازع لكليات، وأن يوفقنا جميعاً لما فيه صلاحنا ، ويرشدنا إلى سبيل فلاحنا ، اه

(جامع الكتاب) ليتأمل القارىء غيرة الاستاذ رحمه الله على وطنه ولغته ومقاومته لتيار التفرنج ، وكبحه لجماح المتفرنجين الذين كانوا وما زالوا يفسدون عليها جميع مقوماتها الملية والقومية ، وأعلاها الدين واللغة ـ وجميع مشخصاتها الوطنية كالعادات والازياء مثلا . وأين تجد مثل هذه الحمية عند غيره كما كانت عنده؟

المقالة السابعة

الانتقاد (*

(ما وعظك مثل لائم * وما قومك مثل مقاوم)

الانتقاد نفثة من الروح الالهيّ في صدور البشر تظهر في مناطقهم ، سوقاً للناقص إلى الكمال ، وتنبيهاً يزعج الكامل عن موقفه إلى طلب الغاية مما يليق به.

الانتقاد قاصف من اللائمة تتنفس عنه القلوب، وتنفتق به الألسنة ، لتقريع الناقصين في اعمالهم ، ودفع طلاب الكمال الى منتهى مايمكن لهم

جعل الله للحياة قواما   وقوام الحياة بالادراك

انما الانسان كون عقليّ سلطان وجوده العقل ، فان صلح السلطان ونفذ حكمه ، صلح ذلك الكون وتم أمره . إن الله لم يهمل العقل من ناصرين عزيزين حاذقين أحدهما له والثاني له وعليه ، أما الاول فما قرن الله به من غريزة الميل للافضل ، والاصطفاء للأمثل ، وأما الثاني فما ألزمه الصانع من الانقباض عن الدون ، والنفور عن منازل الهون ، فذاك يحدوه ، وهذا يسوقه ، وذاك يزين له الطلب ، وهذا يزعجه إلى الهرب ، وكل منازل العقل صعود إلا أدناها ، فعجز يقف بأهله على شفير العدم ، وكل منزلة بعد الادنى دنوّ من الكمال ، غير أن

*) نشرت في جريدة ثمرات الفنون البيروتية وكنا ظفرنا بنسخة منها فنشرناها في المجلد الرابع من المنار ولم نقف على تاريخ نشرها في الثمرات

مايسمو اليه العقل ، أشبه بما ينبسط اليه الوجود ، يمتد الى غير نهاية ، ويرتفع دون الوقوف عند غاية ، فليس يصل منتجع الكمال الى مقام إلا ويرمي بطرفه إلى أبعد منه ، ومساقط العجز وبيئة المقام ، كثيرة الآلام ، تستوكرها أفاعي الهموم ، وغائلات الغموم ، وقد جعلها الله من وراء العقل ، كلما التفت اليها راعه هول منظرها ، فتحفز عنها ، الى منجاة منها ، ولا يزال يزجيه الخوف ، وتطير به الرغبة ، حتى يدنو من رفرف السعادة الأعلى

ولكن كلال البصائر البشرية قد يقف بها عند مظاهر غرارة ، وظواهر ختارة ، فتخالها طلبتها ، وتحسبها منيتها ، ولا تدري أن بها هلكتها ، وفيا منيتها ، فمثلها مثل الطير ينظر الى الحب المنثور ، ويغبي عن الفخ المنصوب ، فاذا سقط للالتقاط وقع في يد الحابل ، أو مثل المفترس يلوح له لائح الفريسة ، ولا يشعر بما أعد له صائده ، فاذا وثب عليها أتاه الصائد من مقتله ، وأعجله عن مأكله

لهذا وكل الله بالعقل منبها لا يغفل ، وحسيبا لا يهمل ، وكالئا لا ينام ، يزعج الواقف ، ويحثحث المتريث ، ويمسك الواجف ، ماسكن ساكن الى حال ، ولا قنع قانع بمنال ، الا هتف به : إن ماتطلب أمامك . ولا أوغل موغل فيما لا ينفعه ، ولا أوضع موضع الى مايضره ، إلا صاح به : تعست الجدود ، وأضرعت الخدود ، فخفض من سيرك ، وقوم من سيرك ، وإلا فالذل مقيلك ، والهلكة مصيرك ،

ذلك الواعظ الحكيم ، والمؤدب العليم هو (الانتقاد) ، يثبت في الفؤاد ، ثم يتجلى في البيان ، على أسلة اللسان ، فيفقهه العالمون ، ولا يهمله العاملون ، (فطرة الله التي فطر الناس عليها) : أودع في كل ناطق بصراً بشأن غيره ، أشد احاطة من بصره بشأن نفسه ، ومكن كلا من تميز أحوال الآخر حسنها من قبيحها ، وفاسدها من صحيحها ، ثم دفعه للنطق بما ألهمه ، والقضاء بما أحكمه ، فكان لكل انسان أبصار بعدد الناظرين اليه ، والعارفين بما عليه عمله ، كلها كبصره تريه الخير فيطلبه ، وتكشف له الشر فيجتنبه ،

وجعل الله الناقدين أقساماً فمنهم ناظر إلى الفضل لا يعدوه فهو يذكر المنقبة ، ويغض عن المثلبة ، ومن هذا القسم المفرطون في الوفاء من الاصدقاء . ومنهم رقباء النقائص

وجواسيس العيوب، يروون المساآت، ويسكتون عن الحسنات، وفيهم الحساد، وأهل الاحقاد، ومنهم ناظرون بالعينين، عارفون بالوجهين، يذكرون للكمال نبله، ويلزمون النقص ويله، وهؤلاء في أعلى المنازل، وفيهم الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله. ومن الناقدين فاسقون يكتمون مايعرفون، ويهرفون بما لا يعلمون، وهم في أخس المنازل. وليس في الناس إلا من تجتمع هذه الاقسام له وعليه. وما جعل الله بشراً يسلم منها، ويحرم من بعضها، فكأنها التي قال فيها (وإن منكم إلا واردها) وكلها صدى صوت الكمال الالهي الأعلى، ينادي الكاملين أن يستزيدوا، والناقصين أن يستجيدوا.

هل لجاحد أن يصغر قدر الحسيب على أي وجه كان حسابه؟ أو لجاهل ينكر حكمة الله في تقييضه لنا؟ أو لواهم أن يذهب الى انه ليس من نظام الفطرة؟ واني أحيلك على خواطر نفسك اذا بلغك، وأنت غربي مثلا أن ملك الصين غدر بأحد أوليائه، أو استصفى أموال رعيته، أو كلفهم مالا يطيقون احتماله، أو أهمل في مصلحة بلاده حتى تجرأ عليها أعداؤها، أو جبن عن حادث ألمّ به، وكان يستطيع دفعه، ألا ترى من قلبك امتعاضاً عليه، ومن نفسك ازدراء لعمله، وفي لسانك لهجة بلومه، وهو منك على بعد المشرقين؟ ولئن وصلت اليك روايات عدله، ورعايته حقوق بلاده: وحفظه لذمامه، وجدت اليه من فؤادك ميلا، ومن رأيك لعمله استحساناً، ومن لسانك عليه ثناء —.

ولو شئت حاكمتك الى مذاهب ميلك عند ماتنظر في تاريخ لمن سبقك، فان مثل لك النظر فضلا في سيرة، أو خزية في جريرة، ألست تجد من نفسك انبساطاً الى فواضل الغرر، وانقباضاً عن مخازي العرر، ثم انطلاقاً الى نشر ما وجدت، ثم رأيت عضداً منك لأحدهما، كأنه قلم يستنصر فانت تنصره، وتغيظاً على الآخر، كأنما يدعوك لعونه فانت تخذله؟

لاجرم أن النقد نائرة غريزية تقدح شررها على السابقين واللاحقين، وكل نقد فحشوه لوم، حتى ماكان منه قاصراً عند بث المحمدة والاقرار بالفضيلة، فان حمد الكامل عذل للناقص على التقصير، وازعاج المحمود، وزجر له عن ملابسة

الاعياء، فكأني وصاحب الثناء يقول : ألا أيها القاعدون انهضوا، ويا أيها المبرزون اركضوا ، واحذروا الوقفة فانها بداية القهقرى : تلك أقلام الحق ، في ألسنة الخلق ، لا يضم عن نداءها إلا أصم ، ولا يغبي عن انذارها ألا أيهم (١)

على ذلك قام النظام الانساني، فلولا الانتقاد ماشب علم عن نشأته ، ولا امتد ملك عن منبته ، أترى لو أغفل العلماء نقد الآراء ، وأهملوا البحث في وجود المزاعم ، أكانت تتسع دائرة العلم ، وتتجلى الحقائق للفهم ، ويعلم الحق من المبطل ؟ أو لو أغمض الاصدقاء والاولياء عن سياسة السائس ، وتدبير الحاكم ، وهجروا النظر في قوة الملك ، ولم يقرعوا كل عمل بمقامع النقد ، أكانت تستقيم محجة ، وتعتدل حجة ، أو تعظم قوة ؟ كلا بل كان يتحكم الغرور ، وتتسلط الغفلة ، ويعود الصواب خطلاً ، والنظام خللاً ، تلك سنة الله في الأولين . وهي كذلك في الآخرين

فالمغبوط في حاله من يستمع قول اللائمين ، ويستطلع خواطر المعترضين ، ويتصفح وجوه المتنكرين ، ذلك روح الحياة فيه يطلب حاجاته ، ويتحفظ من آفاته ، وليس فيما يملك الحازمون أنفس لديهم ، من الانحاء عليهم بما ينبههم اذا غفلوا ، ويعلمهم اذا جهلوا ، ويهديهم اذا ضلوا ، وينعشهم اذا زلوا ، وكما توجد نفائس الارشاد هذه عند الاولياء ، توجد عند الاعداء ، بل هي عند هؤلاء أجود ، فانهم يرفعون المعايب أعلاماً بينة ، حتى لا تعود فيها شبهة لناظر ، وأحجى بالعقل أن لا يعج من الانتقاد شيئاً ، حتى أكاذيب أهل الضغينة ، ورجوم ذوي السخيمة ، على مخالفتها للحقيقة ، فان أباطيل اللوم تكون للعقل بمنزلة المسالح ، تقام في الثغور زمن السلم حذراً مما عساه يطرقها من عدوان المغيرين عليها ، وأقل مايكون من العاقل فيها أن يقول : قيل فينا ولم نعمل فكيف بنا لو عملنا : فهي ان لم تهده الى مطلب ضل عنه ، ولم ترد اليه فائتاً كان ينفلت منه ، فقد تحفظه من السقوط فيما يجعل الكذب صدقا ، والباطل حقاً ، فمن فسق لسانه ، وخالف بيانه جنانه ، وجاء بغير الحق في ثلب غيره ، فقد أفسد نفسه لصلاح

(١) الايهم المصاب في عقله

عدوه ، ولله مايقول بعض الصوفية : جزى الله الاعداء عنا كل خير ، فلولاهم مانزلنا منازل القرب ، ولا حللنا حظائر القدس . (*

هذا وقد كفر قوم نعمة الانتقاد، فظنوا صنع الله فيه عبثاً « نعوذ بالله » فوقروا عنه آذانهم ، وعطلوا من ناحيته سمعهم ، وجعلوا أصابعهم في صماليخهم (١) من صواعق زجره ، وقواصف نهيه وأمره ، وضربوا بينهم وبين أهل النقد حجباً ، وأقاموا دونهم استاراً وخيل لهم الجهل أن صممهم عنه ، يقيهم منه ، وأن قبوعهم في أهب الغفلة (٢) ، يدرأ عنهم سهام اللوائم ، كأنهم لا يعلمون أن ذلك وقوع في أشد مما خافوا ، واندفاع الى شر مما رهبوا ، فمثلهم كمثل بعض الطيور اذا رأى الصائد غمس رأسه في الماء ، ظناً منه انه متى أغمض عن طالبه أغمض الطالب عنه ، فيكون بذلك قد يسر للصائد صيده ، وسهل عليه كيده ، ومن ثم تجدهم في عمى عن شؤونهم ، وتخبط في أعمالهم ، قد لزموا خطة من الهون ، لو أبصر عقلهم بعض أطرافها ، لماتوا جزعاً من هول مافيها ، كل ذلك وأسلات الالسن واسنة الاقلام ، لا تألوا في تقريبهم ، بل وصوت الحق الصريح يناديهم من عمائق ضمائرهم : بئس ما اشتريتم لأنفسكم لو كنتم تعلمون ، وليهم عاتب ، وعدوهم عائب ، وهم في غفلة عن هذا ، بل لا يشعرون

أولئك الذين ختم الله على سمعهم ، وطبع على قلوبهم ، فمرقوا من ناموس الفطرة الالهية ، فهم أموات الارواح . مضطربو الاشباح . ولا تنشق عنهم قبور الخمول ، حتى ينشرهم الله في حياة أخرى ، يخضعون فيها للأحكام الكونية ، ويعملون على السنن الالهية ، فلينتظروا وانا معهم من المنتظرين

---

*) في معناه قول الشاعر :

عداتي لهم فضل علي ومنة فلا أذهب الرحمن عني الاعاديا
هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

(١) الصماليخ ج صملاخ وصملوخ وهو داخل خرق الاذن و يطلق على وسخها

(٢) الاهب بضمتين جمع أهاب ككتاب وهو الجلد الذي لم يدبغ أو أعم

المقالة الثامنة

المسألة الهندية(*

وردت الينا هـذه الرسالة من أحـد أفاضل الكـتاب البلغاء فنشرناها بحروفها كما ترى.

أكسبني الاطلاع على جريدتكم علماً برغبتكم في البحث عن دقائق السياسة في البلاد الشرقية وإقدامكم على نشر ماتقفون عليه منها خدمة لأوطانكم وتأييداً لاعتدال سيركم وهذا مابعثني أن أكتب اليكم بعض ماوصل إليّ في مسألة من أهم المسائل المنظور فيها لهذا الوقت وهي المسألة الهندية ، وربما ترون من المفيد نشر ماأقدم لكم من ذلك

كأني بالحال في بلاد الهند وقد اشبهت الحال في كثير من البلاد الشرقية عند ماتضطرب راسياتهـا ، وتهتز ثوابتها ، وتتنفس صوامتها ، اعداداً لزلزال يوجب الانقلاب فيها ، غير أن المألوف في تلك الاحوال أن تكون متألف الانقلاب ومضاره مهلكة للشرقي لتساهله وسوء تصرفه ، وفوائده وثمراته غنيمة للأوربي لحزمه وتجويد الرأي فيما يفعله . والمنتظر في الهند على خلاف المألوف فقد تسقط بتبدل الاحوال فيه دولة من أعظم الدول الاوربية ، وأحذقها في السياسة الخارجية ، وتنهض دولة أو دول شرقية تعضدها دولة أوربية . هذا ماتفترق به هذه المسألة عن سائر المسائل

لايفوتكم العلم بأن البلاد الهندية على سعتها تسكنها طوائف مختلفة تتباين في العقائد والاخلاق حتى يخيل للناظر في أطوارها أنها اجناس متباينة ، غير أن هذا الاختلاف قلما كان يظهر أثره في الروابط السياسيـة اذا تولت طائفة منهم أمر الحكومة في باقيها مادامت خصائص الطوائف محفوظة . ولما دالت الدولة للانكليز

---

*) نشرت في العـدد ٤٧٣ من جريدة الاهرام الاسبوعيـة الذي صـدر في الاسكندرية في ٢ ذي القعدة سنة ١٣٠٢ و ١٣ أغسطس سنة ١٨٨٥ وقد وجدنا هذا العدد في محفوظات الاستاذ رحمه الله

فيهم سكنوا اليها زمناً ثم نبذتها طباعهم فهموا بالتملص منها فلم يمنعهم الاختلاف الفكري والديني من الاجتماع تحت لواء الجنسية العامة وحملوا بغارة واحدة على الانكليز في سنة ١٨٥٧ غير أنهم لم يوفقوا للنجاح فيما هموا به ، بل ظفرت بهم الدولة الحاكمة

ومن ذلك الوقت أخذت الدولة الانكليزية حذرها فرفعت بناء سياستها على أساسين الأول توليد الشقاق بين الطوائف وإيغار صدور كل طائفة من الاخرى وآلتها في ذلك أصل الخلاف الموجود بينهم وأدركت بعض النجاح في سعيها هذا وظهر بعض أثره في بلاد البنجالة بين الوثنيين وبين المسلمين ، وفي أواسط الهند بين الطوائف الوثنية بعضها مع بعض . والاساس الثاني سد نوافذ الاخبار عن الهنديين قاطبة حتى لا يقفوا على المشاكل السياسية والورطات الحربية التي تقع فيها انكلترا ، ولا تكون بينهم وبين الاوربيين صلة سياسية يلجأون اليها اذا هموا بمثل عملهم السابق ، ولا يطرق آذانهم صيحة من صيحات الحوادث التي تنبههم لطلب حال خير مما هم فيه . قطعتهم عن العالم فهم بمعزل عن معرفة شيء من أحواله ليستمر بهم الاذعان بأن لا قوة إلا بانكلترا ، ولا ملجأ منها إلا اليها ، ولا حيلة في الادبار عنها إلا الاقبال عليها ، ولا شفيع من جورها إلا جبروتها الأعلى . وهذه أحكم سياسة يقوم بها سلطان الغالب على المغلوب ، وليس في نظر العقلاء أجود منها لولا تصاريف القدرة الالهية مما لا يطاوله بناء ، ولا يعاجله دهاء

وي انتقض الأساس الثاني فانصدع له ركن عظيم من قوة الدولة . لم يكن في حسبان أحد من حكام الهند ان يزحف جيش الروس على حدود الافغان ، بل كانوا في غرة الأمن من وقوع مثله ، فاذا الحادث فاجأهم فطار طائر الأخبار بغتة حتى جثم على قمم جبال الهند ، وصاح بالخبر المفزع فلم يبق هندي إلا وبلغ منه الخبر حد اليقين ، فذلك قد أعجل الدولة عن التدبير في كتمانه ، فتراجعت العقول من غيبتها ، وانطلقت الآمال من محابسها ، وخيل للنفوس أن المعارك أصبحت على حدود بلاد الهند

علم ذوو الرأي من أهل الهند أن دولة أوربية شديدة البأس سامية القوة ستصبح جارة لهم ولها من المصلحة في بلادهم مايضارع مصلحة الدولة الحاكمة،فلو تقربوا منها شبراً لتقربت منهم ذراعاً . ومذاهب المتغلبين في السيادة على المغلوبين وإن كانت مشابهة الا ان من أحكام العادة أن يكون في سيرة الجديد لين الى أمد حتى يتمكن من السلطة ، ويكون من أحوال البلاد على خبرة ، فلهم في تقليب الحال متنفس. بل تعالت أفكارهم الى أسمى من ذلك فظنوا أن لاطاقة للروسية لو تقدمت إلى الهند أن تضبطها بقوة السلاح دفعة واحدة ، فمن المحتوم عليها أول العمل أن تعيد الملك لطلابه من أهالي البلاد وتمدهم بالمعونة على سالبه منهم لتكون البلاد عوناً لها على بلوغ غايتها من فتح أبواب التجارة الهندية لأبناء جلدتها ، ثم إن شاءت بعد ذلك غالبتهم ، وفي هذا متاع من الاستقلال الى حين ، وفسحة من الزمان ربما تمكنهم من صون مايصل اليهم . هذا مايرتفع اليه الخيال في رءوس الهنديين على اختلاف طوائفهم ولا أظنهم يخطئون فيما يظنون ، ولا تجد طائفة منهم عوناً على ماتؤمل إلا في الاتحاد مع الأخرى

وقد ضعف الأساس الاول فيوشك أن يتضعضع البناء . همدت نيران الضغائن التي كان يسعرها الحكام في البنجالة بين المسلمين والوثنيين ، وبعد أن كانوا متدابرين يذهب كل منهم الى حيث لايلتقي مع الآخر أبد الا بدين ، انعطف كل في سيره الى مايقارب الآخر فلا يمضى كثير من الزمن إلا وقد عادوا متقابلين .

لايفتر الحكام عن امداد اللهيب بوقود الفتن كأنهم خلفاء الفرس الاقدمين في عبادة النار إلا أن الآمال المقبلة تصب عليها ماء باردا فلا تلبث أن تصير برداً وسلاماً . وقبائل (المرتة) في أواسط الهند هزت مناكبها نحو مطلوبها القديم هذه من أقوى قبائل الهند وأشدها تمسكا بعوائدها وأحرصها على الاستقلال . أرغموا من زمن على الدخول تحت السلطة الانكليزية ، ولكنهم لم يؤدوا من رسوم الطاعة شيئاً سوى الخراج ، فقد تحالفت هذه القبائل على وفرة عددها أن لا ترفع من أمرها شيئاً جزئياً كان أو كلياً الى حاكم انكليزي ، واتفقت على

أن يكون تدبير شؤنها مفوضاً لرجال منها ينتخبون بالاقتراع ، وما كان عاماً من شؤونها خصته بمجلس عام يشبه مجالس النواب في البلاد المتمدنة ، وما كان خاصاً كالفصل في الخصومات جنائية كانت أو قضائية ناطته بقضاة منها لا ينازع في حكمهم ، ولا يدافعون في قضائهم ، ولو أن مرتبا رفع أمره في خصومة الى القاضي الانكليزي لأعدموه حياته وذهب دمه هدراً لا يطالب به أحد . كل ذلك ولا يستطيع حاكم من حكام الانكليز أن يقف على شيء من أحوالهم الداخلية . بل حرموا على أنفسهم الانتفاع بشيء من مصنوعات أوربا وثبتوا على صنائعهم وروجوها بينهم ، وبذلوا الجهد في ترقيتها حتى صار لهم من الصنائع ما يشبه صنائع الاوربيين في كل نوع ، ولا يوجد في بيت واحد منهم أو على بدنه مصنوع إلا من عمل أيديهم

فهذه القبائل الرفيعة الهمة الأبية النفس أخذت الاهبة في هذه الأيام لما أعده لها استعدادها . ولست بالواهم إن قلت بتواتر رسلها وكتبها الى الحدود الشمالية لتجاذب حبال الصلة بينها وبين رؤساء المنفذين في زعمها

حكومة حيدرآباد ملت سيطرة الانكليز عليها ، ونظرت الى قوتها العسكرية واجماع رعاياها على بغض المتحكمين في شأنها ، الآخذين على يديها ، وجاءها خبر الزحف الروسي ، فشدد عزيمتها ، وزاد في حرصها على الخلاص من عنف السيطرة الانكليزية ، وقبائل (السيك) في بنجاب من شمال الهند شمروا للخوض في لجج الفتنة متى اشتبكت حرب في بلاد الأفغان ، ليعيدوا مجدهم الأول ، ويأخذوا بالحق لأنفسهم ممن أباح دماءهم ، وفتك بأشرافهم . ولم يمض على ذلك الزمن الطويل فينسى ، ولم يأتهم عوض عما فقدوا فيتسلوا عنه

أحست حكومة الهند بمبادىء الاضطراب ، فأخذت الطرق على كل سائر إلى جهة الشمال ، منعاً للمواصلات بين الهنديين والروس ، ومنعت تجار الأفغانيين من الجولان في البلاد الهندية ، وصدّت كل عربي يدخل إلى الهند من الشخوص إلى حيدر اباد لكثرة أبناء العرب فيها ، واشتدّت في التضييق على كل طارق غريب يرد إلى أرض الهند ، وعلى كل وطني يصل إلى الحدود

الشمالية ، وأخرست الجرائد عن التكلم في حوادث التقدم الروسي ، وأنطقتها قهراً بما يغشي وجه الحقيقة ، ويصرف الأفكار عما شغلت به من أعداد العدد وتحويل مراكز الجند ، وحشد الجيوش ، وتوفير الذخائر في مواقع المخافة ، وأرسلت عيونها على موارد البريد ، ورسمت بفتح المغلقات ، وأخذت بكل احتياط . ومع هذا كله ضاقت سلطة الحكومة عن سد أبواب الهند المفتوحة ، وقطع طرقها الواسعة ، وتسوير حدودها الممتدة . فالأخبار بين أمراء الهند وبين الروسية متواصلة ، وقد علم رجال الحكومة أن الحال في هذه الأزمان الأخيرة غيرها في سنة ١٨٥٧ (*) حيث أمكن للحكام في تلك الأوقات كتمان سر الفتنة عند اشتباكهم في الحرب مع دولة ايران ، وكتمان خبر الحرب عن رؤساء الفتنة ، حتى تمّ الأمر لحكومة انكلترا في اخماد الثورة وإنهاء الحرب على شروط توافقها . أما الآن فليس يخفى على الروسية أدنى حركة تكون في الهند ، ولا يخفى على الهنديين أقل عمل يكون من الروسية

وإن الأخبار الخصوصية الواردة من الهند تفيد أن الأمر في تلك الأقطار أشد مما تدل عليه أخبار الجرائد . أما مازعموا من أن بعض النوابين والرجوات عرضوا أنفسهم وجيوشهم لمساعدة انكلترا عند ما طاش ميزانها مع الروسية ، فذلك مما يعجب خبره ! ويضحك معجبه . فان رجالا من الانكليز سعوا عند بعض الضعفاء من الأمراء وأغروهم أن يتقدموا بعرض أنفسهم لمساعدة الحكومة لتوهم بذلك أنها معضدة من رعاياها ، ففعلوا على أن ينالوا أجراً على فعلهم ثم خابت آمالهم فانقلبوا على أعقابهم . ولو فرض صحة مازعموا فهو كثير الوقوع في كثير من البلاد عند بداية الحوادث يظهر الضعيف أنه نصير القوي ، فاذا حم الصدام كان أول خاذل له ، خصوصاً اذا أحسّ بل توهم الانقلاب بالهزيمة

بقي شيء في مجمل خبرنا نذكره تتميما للبحث وهو : أن للدولة العثمانية شأنا في المسألة الهندية لا يسوغ إنكاره ، فان لها عدّة كافية ، وقوة وافية ، يمكنها أن تستخدمها لآرائها السياسية متى شاءت ، ويسهل عليها أن تستفيد منها اذا

(*) يعني سنة ثورة الهند

أقبلت عليها بشيء من التدبير . تلك قوة خمسة واربعين مليونًا من المسلمين أهل السنة يعتقدون أنها دولة الخلافة ، وأنها مرمى آمالهم في تخليصهم من أيدي الأجانب ، ومكانتها من قلوبهم أعلى من مكانة حاكميهم ، وأوصال أعمالهم معقودة بأوامرها . ولو أن لدولة أخرى قوة مثل هذه القوة لرأينا جوادها المجلي في هذه المجاراة . ولكن مما يوجب الأسف أن هذه العدة ربما تتبدد ، وتلك القوة تضمحل ، ولا يكسب رجال الدولة من إهمالها إلا مايكسبه باذل ماله لعدوه وفقهم الله للسداد في آرائهم ، والصلاح في أعمالهم

(يقول جامع الكتاب) لم نعثر للاستاذ رحمه الله تعالى على مقالة في جريدة مصرية بعد عودته من باريس الى سورية وترك جريدة العروة الوثقى الا هذه المقالة ، وهي تشبه مقالات العروة الوثقى السياسية التي كانت من نفثات السيد جمال الدين في قلم الاستاذ . وكان الحكيمان يرجوان من تحرش الروسية بالهند فى تلك السنين أن يفضي الى ترك الانكليز لمصر والسودان فلذلك كانا يعظمان شأن ذلك التحرش

*

هذا واننا رأينا أن نغير فى هذه الطبعة ترتيب ما نشرناه في الطبعة الاولى لهذا التاريخ فنقدم ما كتبه من المقالات العادية في الصحف ، ونؤخر اللوائح الاصلاحية والمناظرة الدينية السياسية ، ورحلة صقلية

المقالة التاسعة

بسمارك والدين

﴿ نبذة نشرت في العدد ٤٤ من السنة الأولى من المنار وكانت جريدة اسبوعية في ٩ رمضان سنة ١٣١٦ — ٢١ يناير سنة ١٨٩٩ ﴾

رأيت في وقائع بسمارك التي نشرت بعد موته بقلم كاتم أسراره مسيو بوش كلاما جاء به البرنس وهو على مائدة الطعام مع جلسائه يتعلق بالدين فاستحسنت ترجمته ليطلع عليه من لم يعن بقراءة هذا الكتاب من شبابنا الذين يعدون النسبة الى دينهم سبة ، والظهور بالمحافظة عليه معرَّة ، وليعلموا أن الايمان بالله وبالوحي الالهي إلى أنبيائه ليس نقصاً في الفكر ، ولا ضلة عن صحيح العلم ، ولا عيباً في الرياسة ، ولا ضعفاً في السياسة

جلس البرنس بسمارك على مائدة الطعام فرأى بقعة من الدهن على غطاء المائدة فقال لأصحابه : « كما تنتشر هذه البقعة في النسيج شيئاً فشيئاً ، كذلك ينفذ الشعور باستحسان الموت في سبيل الدفاع عن الوطن في أعماق قلوب الشعب ولو لم يكن هناك أمل فى الأجر والمكافأة ، ذلك لما استكن فى الضمائر من بقايا الايمان ، ذلك لما يشعر به كل أحد من أن واحدا مهيمناً يراه وهو يجالد ويجاهد ويموت ، وان لم يكن قائده يراه » فقال بعض المرتابين : اتظن سعادتكم ان العساكر يلاحظون فى اعمالهم تلك الملاحظة ؟ فأجابه البرنس :

« ليس هذا من قبيل الملاحظات وانما هو شعور ووجدان ، هو بوادر تسبق الفكر ، هو ميل فى النفس وهوى فيها كأنه غريزة لها ، ولو أنهم لاحظوا لفقدوا ذلك الميل، وأضلوا ذلك الوجدان . هل تعلمون انني لا افهم كيف يعيش قوم ؟ وكيف يمكن لهم ان يقوموا بتأدية ماعليهم من الواجبات ؟ او كيف يحملون غيرهم على اداء مايجب عليه؟ ان لم يكن لهم ايمان بدين جاء به وحي سماوي واعتقاد باله يحب الخير ، وحاكم ينتهي اليه الفصل فى الأعمال فى حياة بعد هذه الحياة » ثم ساق الوزير كلامه على هذا النمط بأسلوب آخر فقال :

« لو نقضت عقيدتي بديني لم اخدم بعد ذلك سلطاني ساعة من زمان . اذا لم اضع ثقتي في الله لم اضعها في سيد من اهل الأرض قاطبة ، لكن انظروا الي تجدوني قد ملكت من موارد الرزق مايكفيني ، وارتقيت من المناصب ما لا مطمع بعده ، فلماذا اشتغل؟ ولم اجهد نفسي في العمل؟ ولم اعرضها للهموم والآلام؟ لا يبعثني على شيء من هذا الا شعوري بأني في جميع ذلك اعمل عملي لوجه الله. لو لم يكن لي ايمان بالعناية الالهية التي قضت بأن يكون لهذه الأمة الألمانية شأن كبير، وأثر في الخير عظيم ، لطرحت لساعتي ما احمله من أثقال وظائف الحكومة.

«ماذا أقول ؟ بل لولا ذلك الايمان لما قبلت شيئاً من هذه الوظائف ، لأن الرتب والألقاب لا بهاء لها في نظري ، لولا يقيني بحياة بعد الموت ما كنت من حزب الملكية . لو لم يكن هذا اليقين لكنت جمهوريا . نعم أنا جمهوري بالفطرة، يتبين ذلك من الغارات التي أشنها على هنات (خصال الشر) رجال الحاشية من مدة تزيد على عشر سنين ، من هذا يظهر أن ايماني قد بلغ من القوة أعلاها ، حتى حملني بقوته على أن أكون ملكياً ، اسلبوني هذا الايمان تسلبوني محبتي لوطني . اعلموا أنني لو لم أكن مسيحياً مخلصاً لم يكن لكم وزير كبير مثلي يدبر أمر الاتحاد الألماني . لو لم أكن مخلصاً في ديني لوليت ظهري جميع الحاشية ، ولو وجدتم لي في الغد خلفاً يكون أخلص مني في يقينه لانفلت من المنصب في الحال . ما أعظم مسرتي بهجر الوظائف لو تعلمون . إني أحب المعيشة في القرى والحقول ، أحب الآجام ومناظر الخليقة ، انزعوا مني هذه الرابطة التي تصلني بالله تجدوني من الغد رجلا يأخذ اهبته للسفر الى (وارزين) ليشتغل بحراثة ارضه وتنمية غرسه ، إن لم أكن خاضعاً لأمر الهي فلم أضع نفسي تحت طاعة هذه العائلة المالكية ، مع انها تتصل بأصل ليس بالأعلى ولا بالأنبل من الأصل الذي تتصل به عشيرتي؟ »

هذا كلام بسمارك وهو يدلنا على ان هذا الرجل العظيم كان يعتقد ان عظائم أعماله انما كانت من مظاهر ايمانه ، وان الاعتقاد بالله والتصديق باليوم الآخر هما الجناحان اللذان طار بهما إلى مالم يدركه فيه مفاخر ، ولم يكثره مكاثر

المقالة العاشرة

آثار محمد علي فى مصر

﴿ نشرت في الجزء الخامس من مجلد المنار الخامس المؤرخ في غرة ربيع الاول سنة ١٣٢٠ـ ٧ يونية سنة ١٩٠٢ ﴾

لغط الناس هذه الأيام في محمد علي وماله من الآثار في مصر وأهلها وأكثرت الجرائد من الخوض في ذلك[1] والله أعلم ماذا بعث المادح على الاطراء، وماذا حمل القادح على الهجاء، غير انه لم يبحث باحث في حالة مصر التي وجدها عليها محمد علي وما كانت تصير بالبلاد اليه لو بقيت وما نشأ عن محوها واستبدال غيرها بها على يد محمد علي . اذكر الآن شيئا في ذلك ينتفع به من عساه ينتفع، ويندفع به من الوهم ما ربما يندفع،

كانت حكومة البلاد المصرية قبل دخول الجيش الفرنساوي فيها من أنواع الحكومات التي كانت تسمى في اصطلاح الغربيين حكومات الأشراف وتسمى في عرف المصريين حكومات الالتزام وتعرف عند الخاصة بحكومات الأقطاع . وأساس هذا النوع من الحكومات تقسيم البلاد بين جماعة من الأمراء يملك كل أمير منهم قسما يتصرف في أرضه وقوى ساكنيها وأبدانهم وأموالهم كما

(١) سبب ذلك الاحتفال بذكرى مرور مائة سنة على تأسيس محمد علي للدولة المصرية . وكنا كتبنا في الجزء الرابع الذي قبل هذا الجزء مقالا انتقدنا فيه جعل الاحتفال في المساجد وبينا سيئات محمد علي وأكبرها قتاله للوهابية، قضاؤه على ذلك الاصلاح ومن اللطائف أن الخديو أرسل جزء المنار الرابع الى الاستاذ الامام مع بعض رجال حاشيته وأمره أن يشكونا فيه اليه راجيا منه أن ينهانا عن العود الى القدح في جده وكان قد صدر الجزء الخامس الذي فيه مقالة الاستاذ فلما بلغه الرسول ما أمر به قال له الاستاذ : يظهر ان أفندينا لم يطلع على الجزء الخامس فان فيه مقالة شرا من تلك المقالة التي يشكو منها (!)

يريد ،فهو حاكمهم السياسي والاداري والقضائي وسيدهم المالك لرقابهم . ومن طبيعة هذا النوع من الحكومة أن تنمو فيه الأثرة وتغلظ فيه أصول الاستبداد وفروعه ،وتنزع نفس كل أمير إلى توسيع دائرة ملكه بالاستيلاء على مافي يد جاره من الأمراء . فكان من مقتضى الطبيعة ان كل أمير لاينفك عن التدبير والتفكر فيما تعظم فيه شوكته ، وما يدفع به عن حوزته ، وان يكون الجميع دائما في استعداد إما للوثوب وإما للدفاع . ولكن الأمراء في مجموعهم كانوا يقاومون سلطة الملوك فيضطر الملك لاستمالتهم ومحاباة بعضهم للاستعانة به على البعض الآخر، فضعف بذلك استبداد الملوك فيهم

حاجة الأمراء إلى المال كانت تسوقهم إلى ظلم رعاياهم، وكانت شدة الظلم تميل برعاياهم إلى خذلانهم عند هجوم العدو عليهم ، ظهر ذلك في خصوماتهم المرة بعد المرة، فاضطر الأمراء أن يخففوا من ظلمهم، وأن يتخذوا من الأهلين أنصاراً يضبطونهم عند قيام الحرب بينهم وبين خصومهم ،

أحسّ الأهلون بحاجة الأمراء اليهم فزادوا في الدالة على الأمراء واضطروهم إلى قبول مطالبهم ، فعظمت قوة الارادة عند أولئك الذين كانوا عبيداً بمقتضى الحكومة، وانتهى بهم الأمر ان قيدوا الأمراء والملوك معاً ، ولم يكن ذلك في يوم أو عام ولكنه كان في عدة قرون كما هو معروف عند أهل المعرفة

نعم كانت الحكومة في مصر على نوع تخالف به جميع الحكومات المشرقية، وكانت البلاد متوزعة بين أمراء كل منهم يستغلُّ قسما منها ويتصرف فيه كما يهوى، وكان كل يطلب من القوة مايسمح له بمد يده إلى مافي يد الآخر أو يدفع به صولته، فالخصام كان دأبهم، والحرب كانت أهم عملهم . لذلك كان كل منهم يستكثر من المماليك مااستطاع ليعد منهم جنده ولكن كانت تعوزه مؤنتهم اذا كثروا فاضطروا إلى اتخاذ أعوان من أهالي البلاد فوجدوا من العرب أحزاباً كما وجدوا منهم خصوماً . ثم رجعوا إلى سكان القرى فوجدوا فيهم مايحتاجون اليه فاتخذوا بيوتا منها أنصاراً لهم عند الحاجة ،وعرف هؤلاء حاجة الأمراء اليهم فارتفعوا في أعينهم وصار لهم من الأمر مثل مالهم أو مايقرب من ذلك . لهذا كنت ترى في البلاد

المصرية بيوتا كبيرة لها رؤساء يعظم نفوذهم ويعلوجاههم

ذلك كان يقضي على كل أمير من أولئك الأمراء أن يصرف زمنه في التدبير ، واستجلاب النصير ، واعداد مايستطيع من قوة لحفظ مافي يده،والتمكن من اخضاع غيره . أنصاره من الأهالي كانوا يجارونه في ذلك خوفا من تعدي أعوان خصمه عليهم ،فوقعت القسمة بين الأهالي ، ولاتزال أسماء الاقسام معروفة إلى اليوم : سعد وحرام . هذا يحدث بطبعه في النفوس شمماً ، وفي العزائم قوة ، ويكسب القوى البدنيـة والمعنوية حياة حقيقية ،مها احتقرت نوعها . فكانت العناصر جميعها في استعداد لأن يتكون منها جسم حيّ واحد يحفظ كونه ويعرف العالم بمكانته

جاء الجيش الفرنساوي والبلاد في هذه الحالة ، دخل البلاد بسهولة لم يكن ينتظرها . احتل عاصمتها واستقر له السلطان فيها . لم تكن إلا أيام قلائل حتى ظهر فيه القلق ، وعظمت حوله القلاقل ، أخذت القوى الحيوية الكامنة في البلاد تظهر ،فكثرت الفتن ولم تنقطع الحروب والمناوشات ، ولم يهدأ لرؤساء العساكر بال . يدلك على ذلك شكوى نابليون نفسه في تقاريره التي كان يرسلها إلى حكومة الجمهورية من اصطياد العربان لعساكره من كل طريق . وسلبهم أرواحهم بكل سبيل . واضطر نابليون أن يسير في حكومة البلاد بمشورة أهلها ، وانتخب من أعيانها من يشركه في الرأي لتدبيرها طوعاً لحكم الطبيعة التي وجدها

قتل بعض رؤساء الجيش واضطربت عليه البلاد وجاء الجيش العثماني وعاونه الجيش الانكليزي ، وخرجت عساكر الفرنساويين من مصر ، ولا أطيل الكلام فقد ظهر محمد علي بالوسائل التي هيأها له القدر

•الذي كانت تنتظره البلاد من نوع حكومتها ؟ كانت تنتظر أن يشرق نور •مدنية يضيء لرؤساء الاحزاب طرقهم في سيرهم لبلوغ آمالهم ، وقد كان ذلك يكون لو أمهلهم الزمان حتى يعرف كل منهم •ابلغ به غيره الغاية التي كان يقصدها في بلاد غير بلاده . وما كان بينهم وبين ذلك إلا أن يختلطوا بأهل البلاد الغربية ، ويرتفع الحجاب الذي أسد له الجهل دونهم . أو كانت تنتظر أن يأتي

أمير عالم بصير فيضم تلك العناصر الحية بعضها إلى بعض ويؤلف منها أمة تحكمها حكومة منها، ويأخذ في تقوية مصباح العلم بينها، حتى ترتقي بحكم التدرج الطبيعي وتبلغ ماأعدته لها تلك الحياة الأولى

ماالذي صنع محمد علي ؟ لم يستطع أن يحيي ولكن استطاع أن يميت . كان معظم قوة الجيش معه ،وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة ،فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الاحزاب على اعدام كل رأس من خصومه ، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولا وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه ، وهكذا حتى اذا سحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع منها رأساً يستتر فيه ضمير (أنا) واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلا لجمع السلاح من الاهلين وتكرر ذلك منه مراراً حتى فسد بأس الأهالي ، وزالت ملكة الشجاعة منهم ، وأجهز على مابقي في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها ، فلم يبق في البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه ،أو نفاه مع بقية بلده الى السودان فهلك فيه

أخذ يرفع الاسافل ويعليهم في البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم ،حتى انحط الكرام ، وساد اللئام ، ولم يبق في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال،وجمع العساكر بأية طريقة ، وعلى أي وجه ، فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأي وعزيمة واستقلال نفس ، ليصير البلاد المصرية جميعها أقطاعا واحداً له ولأولاده ، على أثر أقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة

ماذا صنع بعد ذلك ؟ اشرأبت نفسه لأن يكون ملكا غير تابع للسلطان العثماني ،فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الاوربيين،فاوسع لهم في المجاملة، وزاد لهم في الامتياز خارجاً عن حدود المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية، حتى صار كل صعلوك منهم لايملك قوت يومه ملكا من الملوك في بلادنا يفعل مايشاء ولا يسئل عما يفعل . وصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الاجانب بقوة الحاكم ، وتمتع الاجنبي بحقوق الوطني التي حرم منها،وانقلب الوطني

غريباً فى داره ، غير مطمئن فى قراره ، فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذلان — ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة ،وذل سامهم الأجنبي إياه ليصل الى مايريده منهم غير واقف عند حد أو مردود الى شريعة

قالوا : أنه اطلع نجم العلم في سماء البلاد . نعم عني بالطب لأجل الجيش والكشف على الجنـي عليهم في بعض الأحيان عنـد مايراد إيقاع الظلم بمتهم . وبالهندسة لأجل الري حتي يدبر مياه النيـل بعض التدبير ، ليستغل أقطاعه الكبير .

هل تفكر يوماً في اصلاح اللغة عربية ، أو تركية ، أو أرنؤدية ؟ هل تفكر في بناء التربيـة على قاعدة من الدين أو الأدب ؟ هل خطر في باله أن يجعـل للأهالي رأيا في الحكومة في عاصمة البلاد أو أمهات الاقاليم ؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستقر العدل ؟ لم يكن شيء من ذلك. بل كان رجال الحكومة إما من الارنؤد ، أو الجراكسة ، أو الأرمن المورلية ، أو ماأشبه هذه الأوشاب، وهم الذين يسميهم بعض الأحداث من أنصاره اليوم دخلاء . وكانوا يحكمون بما يهوون لا يرجعون الى شريعة ولا قانون . وإنما يبتغون مرضاة الأمير ، صاحب الاقطاع الكبير

أين البيوت المصرية التي أقيمت في عهده على قواعد التربية الحسنة ؟ أين البيوت المصرية التي كانت لها القدم السابقة في إدارة حكومته أو سياستها أو سياسة جندها ، مع كثرة ماكان في مصر من البيوت الرفيعـة العماد الثابتة الاوتاد ؟ !.!

أرسل جماعة من طلاب العلم الى أوربا ليتعلموا فيها ، فهل أطلق لهم الحرية أن يبثوا في البـلاد مااستفادوا ؟ كلا ولـكنه استعملهم آلات تصنع له مايريد ، وليس لها ارادة فيما تصنع . وجد بعض الأطباء المتازين وهم قليل . ووجـد بعض المهندسين الماهرين وليسوا بكثير ، والسبب في ذلك أن محمد علي ومن معه لم يكن فيهم طبيب ولا مهندس فاحتاجوا الى بعض المصريين ولم يكن أحد من الأعوان مسلطاً على المهندس عند رسم مايلزم له من الأعمال ، ولا على الطبيب عند تركيب أجزاء العلاج، فظهر أثر استقلال الارادة في الصناعة عند أولئك النفر

القليل من النابغين ، وكان ذلك مما لاتخشى عاقبته على المستبدين

هل كانت له مدرسة لتعليم الفنون الحربية ؟ أين هي وأين الذين نبغوا من طلابها ؟ فان وجد أحد نابغ فهل هو من المصريين ؟ عدوا إن شئتم أحياء أو أمواتاً

وجد كثير من الكتب المترجمة في فنون شتى من التاريخ والفلسفة والأدب ولكن هذه الكتب أودعت في المخازن من يوم طبعت وأغلقت عليها الابواب إلى أواخر عهد اسماعيل باشا فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منها ، وتخفيف ثقلها عنها ، فنثرتها بين الناس فتناول منها من تناول . وهذا يدلنا على أنها ترجمت برغبة بعض الرؤساء من الأوربيين الذين أرادوا نشر آدابهم في البلاد لكنهم لم ينجحوا لأن حكومة محمد علي لم توجد في البلاد قراء ، ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون

كانوا يتخطفون تلامذة المدارس من الطرق وافناء القرى (الأفناء الناس المجهولون) كما يتخطفون عساكر الجيش ؛ فهل هذا مما يحبب القوم في العلم ويرغبهم في ارسال أولادهم الى المدارس ؟ لا بل كان يخوفهم من المدرسة كما كان يخيفهم من الجيش

حمل الأهالي على الزراعة ولكن ليأخذ الغلات ولذلك كانوا يهربون من ملك الاطيان كما يهرب غيرهم من الهواء الأصفر والموت الأحمر ، وقوانين الحكومة لذلك العهد تشهد بذلك

يقولون انه أنشأ المعامل والمصانع ، ولكن هل حبب إلى المصريين العمل والصنعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم ؟ وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصنعة وينشرونها في البلاد ؟ أين هم ؟ ومن كانوا ؟ وأين آثارهم ؟ لا بل بغض الى المصريين العمل والصنعة بتسخيرهم في العمل والاستبداد بثمرته . فكانوا يتربصون يوماً لا يعاقبون فيه على هجر المعمل والمصنع لينصرفوا عنه ساخطين عليه ، لاعنين الساعة التي جاءت بهم اليه .

يقولون انه أنشأ جيشاً كبيراً فتح به الممالك ودوخ به الملوك ، وأنشأ أسطولاً

ضخماً تثقل به ظهور البحار ، وتفتخر به مصر على سائر الأمصار ، فهل علم المصريين حبّ التجند ، وأنشأ فيهم الرغبة في الفتح والغلب ، وحبب اليهم الخدمة في الجندية وعلمهم الافتخار بها ؟ لا بل علمهم الهروب منها، وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم يساقون إلى الموت ، بعد أن كانوا ينتظمون في أحزاب الأمراء ، ويحاربون ولا يبالون بالموت أيام حكم المماليك ، وكان من ينتظم في الجندية على عهد محرّر مصر لا يخرج منها إلا بالموت ! هل شعر مصري بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه ، وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك اليه بأن يقول هذا جيشي وأسطولي أو جيش بلدي أو أسطوله ؟ كلا لم يكن شيء من ذلك فقد كان المصري يعد ذلك الجيش وتلك القوة عوناً لظالمه فهي قوة خصمه . كذلك كان يعدها كل عثمانيّ في مصر أو في غير مصر . ليقل لنا أنصار الاستبداد كم كان في الجيش من المصريين الذين بلغوا في رتب الجندية إلى رتبة البكباشي على الأقل ؟ فما أثر ذلك في حياة مصر والمصريين إلا أسوأ الأثر — أثر كله شر في شر ، لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت

ظهر الأثر العظيم عند ماجاء الانكليز لاخماد ثورة عرابي . دخل الانكليز مصر بأسهل مايدخل به دامرٌ[1] على قوم ثم استقروا ولم توجد في البلاد نخوة في رأس تثبت لهم أن في البلاد من يحامي عن استقلالها وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنساويين الى مصر ، وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولى والموت الاخير ، وجهله الاحداث فهم يسألون أنفسهم عنه ولا يهتدون اليه

لا يستحيي بعض الأحداث من أن يقول أن محمد علي جعل من جدران سلطانه بنية من الدين . أي دين كان دعامة للسلطان محمد علي ؟ دين التحصيل؟ دين الكرباج ، دين من لا دين له إلا مايهواه ويريده . وإلا فليقل لنا أحد من الناس أي عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الاسلامي الجليل ؟ لا يذكرون إلا مسألة الوهابية . وأهل الدين يعلمون أن الاغارة فيها كانت على

(١) الدامر هو الذي يدخل على القوم بلا استئذان

الدين للدين . نعم أن الوهابية غلوا في بعض المسائل غلواً أنكره عليهم سائر المسلمين ، وما كان محمد علي يفهم هذا ولا سفك دماءهم لارجاعهم الى الاعتدال وإنما كانت مسألة سياسية محضة تبعها جراءة محمد علي على سلطانه العثماني وكان معه ماكان مما هو معروف

نعم أخذ ماكان للمساجد من الرزق وأبدلها بشيء من النقد يسمى « فائض رزنامة » لا يساوي جزأ من الألف من ايرادها . وأخذ من أوقاف الجامع الازهر مالو بقي له اليوم لكانت غلته لاتقل عن نصف مليون جنيه في السنة وقرر له بدل ذلك مايساوي نحو أربعة آلاف جنيه في السنة

وقصارى أمره في الدين انه كان يستميل بعض العلماء بالخلع أو اجلاسهم على الموائد، لينفي من يريد منهم اذا اقتضت الحال ذلك ، وأفاضل العلماء كانوا عليه في سخط ماتوا عليه

ولا أظن أن أحداً يرتاب بعد عرض تاريخ محمد علي على بصيرته أن هذا الرجل كان تاجراً زارعاً ، وجندياً باسلاً ، ومستبداً ماهراً ، لكنه كان لمصر قاهراً ، ولحياتها الحقيقية معدماً ، وكل مانراه الآن فيها مما يسمى حياة فهو من أثر غيره ، متعنا الله بخيره ، وحمانا من شره ، والسلام

المقالة الحادية عشرة

انما ينهض بالشرق مستبد عادل (*

مستبد يكره المتناكرين على التعارف ، ويلجىء الأهل إلى التراحم ، ويقهر الجيران على التناصف ، يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة ، إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة ، عادل لايخطو خطوة إلا ونظرته الأولى الى شعبه الذي يحكمه ، فان عرض حظ لنفسه فليقع دائما تحت النظرة الثانية ، فهو لهم أكثر مما هو لنفسه

يكفي لابلاغهم غاية لايسقطون بعدها خمس عشرة سنة ، وهي سن مولود يبلغ الحلم ، يولد فيها الفكر الصالح ، وينمو تحت رعاية الولي الصالح ، ويشتد حتى يصرع من يصارعه . خمس عشرة سنة يثني فيها أعناق الكبار إلى ما هو خير لهم ولأعقابهم ، ويعالج ما اعتل من طباعهم بأنجع أنواع العلاج ، ومنها البتر والكيُّ إذا اقتضت الحال ، وينشىء فيها نفوس الصغار على ماوجه العزيمة نحوه ويسدّد نياتهم بالتثقيف ، يتعهدها كما يتعهد الغارس شجره بضم أعواد مستقيمة الى سوقها لتنمو على الاستقامة ، خمس عشرة سنة تحشد له جمهوراً عظيما من أعوان الاصلاح من صالحين كانوا ينتظرونه ، وناشئين شبوا وهم ينظرونه ، وآخرين وهبوه فاتبعوه ، وغيرهم رغبوا في فضله فجاروه

حتى اذا عرفت الأفكار مجاريها بالتعريف ، وانصرفت إلى ما أعدت له بالتصريف ، وصح الشعور بالتعليل ، واستقامت الاهواء بالتعديل ، أباح لهم من غذاء الحرية ما يستطيع ضعيف السن قضمه ، والناقه من المرض هضمه ، وأول ما يكون ذلك بتشكيل المجالس البلدية ، ثم بعد سنين تأتي مجالس الادارة لاعلى أن تكون آلات تدار ، بل على أن تكون مصادر للآراء والأفكار . ثم تتبعها بعد ذلك المجالس النيابية ، نعم ربما لا يتيسر لرجل واحد أن يشهد

*) نشرت في السنة الاولى من مجلة الجامعة العثمانية التي كانت تصدر في الاسكندرية

هذا الأمر من بدايته إلى نهايته ، ولكن الخطوة الأولى هي التي لها ما بعدها ، ويكفي لمدها خمس عشرة سنة ، وما هي بكثير في تربية أمة فضلا عن أمة

هل يعدم الشرق كله مستبداً من أهله ، عادلا في قومه ، يتمكن به العدل أن يصنع في خمس عشرة سنة مالا يصنع العقل وحده في خمسة عشر قرناً ؟!

المقالة الثانية عشرة

القضاء والقدر (*)

حضر صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، حفلة الامتحان لتلامذة مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية بالاسكندرية يوم السبت الماضي . وقد جرى ذكر (القضاء والقدر) على لسان أحد التلامذة في مقولة ألقاها ، فرأى فضيلته مناسبة للكلام على هذه العقيدة بين مئات من الناس ، جلهم إن لم يكن كلهم يخطىء في فهم معناها ، وربما كان أصل هذا الخطأ أصل بلاء الاسلام والمسلمين فقال حفظه الله :

جرى في كلام بعض التلامذة ذكر للقضاء والقدر ، والاتكال على الله في نيل الارزاق ، وأن الحيلة في ترك الحيلة ، والتدبير في ترك التدبير ، ونحو هذه الكلمات ، مما عساه أن يؤثر في النفوس الأثر الذي يجدونه دائما في التماس العذر للكسل ، وترك العمل ، والامساك عن البذل ، ونحو ذلك ، تعللا بالمقادير ، ولكن ترون أن التلامذة من جهة أخرى كما ذكروا ذلك ذكروا الحزم والعزم والجد والنشاط في الأعمال ونحو ذلك ،

عقيدة الاذعان للقدر حسبت من أسباب الانحطاط عند الشرقيين عموما ، وعند المسلمين خصوصاً ، لأنها نزعت بالأمم المعتقدة بها إلى الكسل ، انتظاراً لما يأتيهم من الغيب ، وبسطت أيدي أغنيائهم في الاسراف اتكالا على مايسوقه عالم الغيب . ولكن ذلك سوء فهم ، سببه سوء فهم أهل هذه العقيدة .

(*) نشرت في العدد ٣٣٩٧ المؤرخ في ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣١٩ من جريدة المؤيد

الاعتقاد بالقدر مما يلهمك الصبر على ما نزل ، ويذلل لك إلى ما ستعمل — خلق الانسان وخلق معه عدو يلازمه ، فلا يزال يهاجمه ويحاصر قواه حتى يهلكها ، ويكافح عزائمه حتى يمحقها . فعلى الانسان أن يعد لمقاومته من العدد ما استطاع . ويتخذ من الوسائل لكف غائلته ماقدر ، فان غفل عنه طرفة عين أحل به الحين . ولكن ذلك العدو محتال وخصم محبوب

ذلك العدوّ الطبيعي هو الكسل وحب الراحة ، ومن عادة الأنفس أن تلتمس الوسائل ، وتمهد الاعذار لمساعدة هذا العدوّ الخداع ، فكلما وجدت وسيلة للانتصار له أخذت بها وهي لا تعلم أن في نصرته هلكتها . فكان من حكمة الله تعالى أن يدعو الأنفس البشرية للايمان بقضائه وقدره ، ليكون مخففاً لجزعها إذا نزلت النوائب ، مثبتاً لها عند ملاقاة المصائب ، وتجشم المصاعب ، فيحصل من ذلك عون لها على ذلك العدوّ المحبوب . فاذا هاجم اليأس قلب امرىء من مطلوب يطلبه ، أو قامت العقبات دون مرغوب يرغبه ، قام الايمان بالقضاء والقدر ، والاعتماد على معونة صاحب الحول والقوة ، يفتح له الأبواب المغلقة ، ويذلل المصاعب الشديدة ، فيأخذ العدة من حيث أمر الله باتخاذها .

فالتاجر الذي يخشى الخسران ، أو تلف البضائع في البحار ، أو يخاف الخطر في الأسفار ، أو ما أشبه ذلك . إذا تصوّر أن كل شيء بقضاء وقدر ، وأن الرزق مقسوم ، والأجل محتوم ، نهض إلى العمل ، بعد أن يهيء وسائله . ويسأل عما يجهل منها من له علم بها . ويتبع سنة الله سبحانه وتعالى في استعمال العقل وجميع قوى النفس فيما وهبت له ، فيقوى بعقيدة القدر على الكسل ، وينزع الى العمل .

وكذلك من يخوّفه الشيطان من البذل في سبل الخير ، ويعده الفقر ، يقوم له الاعتقاد بالقدر نصيراً على الشيطان ، يلهمه أن الأرزاق محدودة ، وأنه لا ينقص مال من صدقة ، ونحو ذلك ، فتفيض يداه بالعطاء مع مراعاة مايثمره الجود من الفوائد ، وما يعود به على العامة من العوائد .

الانسان عامل بالطبع ، فانه مادامت له حياة فهو في حاجة الى تقويمها ، ولا محيص له عن أن يعمل لنفسه ولغيره ، فانه لا يستقل بما يكفي لحفظ بقائه ، ولا

بدّ له من الاستعانة بغيره ، ولن يعينه الغير حتى يرى من عمله مايعود عليه بمنفعة ما . وإنما يخرجه عن سلطان هذه الفطرة ذلك العدوّ الذي أشرنا اليه ، فهو في حاجة الى مايعينه عليه ويرجع به إلى فطرته : ولا معين له أفضل من الاتكال على الله والاعتماد على قوته ، بعد استيفاء ما أمر به من اتباع سنته . فهذه العقيدة الصالحة انقلب أثر ما في أنفس المعتقدين بها إلى فساد عظيم . وليس العيب فيها ، ولكن العيب في الأذهان التي تلقتها . كما قال جلال الدين الرومي : كل مايتناوله العليل يتحوّل إلى علة ، فاللحم مع غزارة مادة التغذية فيه وتقويته لبنية المتغذي به لو تناوله المريض بحمى التيفوس مثلا فانه يقتله . ولا عيب في اللحم ، ولكن العيب في معدة المريض الآكل

فان كان سرى لبعض أذهان الحاضرين شيء مما أشرنا اليه، من أثر المقال الذي جاء على ألسنة التلامذة . فأرجو أن ينفي عنه ذلك الأثر بما سمعه من الكلام الذي جاور الكلام الأول في مقالهم أيضاً . ومن شرع ليسلي نفسه عن بعض أعمال البر بما فهمه من القول الأول ، رجوت أن ينشط بها الى البذل في سبيل الخير بما تحققه من القول الآخر . وأسأل الله أن يوفقكم جميعاً لأعمال الخير ، وكل عام وانتم بخير اه ملخصاً

المقالة الثالثة عشرة

الرجل الكبير فى الشرق (*

قرأت اليوم سطوراً تحت عنوان (رجال الشرق) كتبها قلم كاتبها عند ذكر موت (لي هنغ تشنغ) رجل الصين ، وقارن فيها بين الرجل الكبير في نفسه يظهر في بلاد الغرب ، ومثله في عقله وهمته يوجد في أرض الشرق ، وكيف يشرق النور من عقل الأول في أفق بلاده ، فيكون شمساً في الفائدة والشهرة ، وتظلم الآفاق في عين الثاني فينطمس مافيه من نور ، ويخمد ما يطويه من نار ، ويموت غير معروف ، أو مشيعاً من اللعنات بألوف

ما كان لساني لينطلق بشيء في هذا الموضوع ، ولقد كان يبقى كل معنى فيه مقبوراً في نفسي ، لولا أنك بما قلت وصلت شرارة بنار كامنة لم تطفأ بعد، فهجت ساكناً ، وأثرت كامناً ، فطارت اليك هذه الكلمات القلائل لعلها تجد في بعض صفحاتك مايحملها إلى من ظننت أنهم يقرؤن كلماتك

حقا ما قلت ، فهل لك فى شيء من تفصيل ما أجملت ؟ إن الكبار من الرجال هداة في أممهم . وإنما يظهر أثرهم في إرشادها ، والسير بها فى الطريق المؤدية إلى الغاية التي تطلبها ، وليسوا بخالقين ولا ناشرين من موت . وإنما تنجح الهداية فيمن رمى بفكره إلى المطلب ، وعرف أنه أبعد عما هو فيه ، فتهيأ للسفر ، وتحفز للرحلة ، وأخذ لأمره أهبته ، وأعدّ له عدته ، واستقام على أول الطريق ، فاذا السبل متفرقة ، والأعلام كثيرة ، والصُّوى متعدّدة ، فيقف المسافر ، وقفة الحائر ، فيأتيه البصير بالمسالك ، فيدله على خيرها ويختار له أقربها وأبعدها عن المهالك ، فيقع في نفسه صدقه لا لأنه قلده ووثق بخبرته ، ولكن لأنه رسم له الغاية التي يطلبها ، والطريق التي يختارها لها ، وبقية الطرق

(* نشرت في العدد ٣٥٠٩ من المؤيد في غرة شعبان سنة ١٣١٩ و ٢١ نوفمبر سنة ١٩٠١ ونسبت إلى «أحد أفاضل الكتاب المجيديين» لتنكير الكاتب

على جوانبها ، فرأى الدليل قويما ، والصراط مستقيما ، فيسير والرجل الرشيد أمامه ، إلى أن يمس الغاية بيده ، ويلمس الطلب بأصبعه ، نعم : الرجل الكبير موقظ من نوم ، أو منبه من غفلة ، وليس بمحيي الموتى ، ولا بمسمع من في القبور.

فان كانت الأمة في منخفض من المنازل، قد ضاق أفقها، فلا تعرف جوّاً غير جوّها ،ولا دوّاً غير دوّها ،ولا بوّاً غير بوّها — بوّها رنيسها — فان كان هواء منزلها وبيئاً ، وكان مسكنها وبيلا ، فهي تتململ في مكانها، وتعتقد أن لا منقذ لها من هوانها ،وإذا هاجها الطامعون ليستصلحوا لأنفسهم ما أفسدته ، ويستجيدوا لها ما استوبأته ، تقاصت من الاطراف ظناً منها أن لا متسع لها في الأرض، وان ليس بعد طول مكانها طول ولا وراء عرضها عرض ، فاذا وجد فيها الرجل الكبير ،فأول ما يخطر له أن يفعل هو أن يمد بصره إلى ما وراء أنفها، حتى يعرفها ان وراء منزلتها مذهباً لمن يريد النجاة مما هو فيه. وكيف يمكن لطبيب أن يحدث في البصر امتداداً ان كان قد خلق قصيراً ؟ وكيف يتيسر له أن يجد له حدة ان كان قد جبل حسيراً ؟

الرجل الكبير يحس ويتألم ، ويدفعه الألم إلى أن يتكلم ، بل تحمله شدة الألم على أن يجاهد في قومه وهم أحب الناس اليه ، ويقاتلهم ليدفعهم عن موارد الهلكة وهم أعز الخلق عليه ، ولكن قد يبلغ بهم العمى أو قصر البصر أن يعدوه عدواً لهم، وكلما دعاهم إلى الحركة دعوه إلى السكون، وكلما أخذ بهم إلى الفزع جذبوه إلى الركون، وهم أكثر منه عَدداً ، وأوفر عُدداً ، فلا يمضي طويل من الزمن حتى يخفت صوته من كثرة الصياح ، وينقطع نفسه من الدعوة إلى الاصلاح ، وتضعف عزيمته ، وتضمحل همته، فاذا جاءهم عدوهم ، وقد خدعهم بوهم، وأحسوا بشدة الصدمة، صاحوا ولكن صياح الثاكلة العاجزة، تنفس الصعداء :وحسرة تصعد إلى السماء، مع القعود في المساكن ، والخلود إلى أخس المنازل ، فينتهي بهم الأمر إلى الاضمحلال ، وما بعد الاضمحلال الا الزوال .

إن كان ما بالامة ليس نوما فيزول بالايقاظ ، ولا غفلة فتذهب بالتنبيه . وانما هو خدر شلت به الأعصاب ، وذبلت به العروق ، فماذا يكون فعل الرجل الكبير ؟ يجهد عقله في البحث عن الدواء ، ويستعمل ما لديه من قوّة في

معالجة الداء ، وهيهات أن يشعر به المريض ، بل هو تارة يضحك ضحك المستهزىء ، وأخرى يبكي بكاء اليائس ، وثالثة يضرب الطبيب بما حضر لديه ، أو بيديه ورجليه . حتى يقضي عليه

هذا اذا ذهب الطبيب نحو الأمة يستعين بها عليها ، ويشفع لها لديها ، فاذا حمله اليأس منها ، على الانصراف عنها ، وتوجه إلى صاحب السلطة عليها ، والحكم النافذ فيها ، لعله انه يتمكن من ازعاجها عن موطنها ، وسوقها إلى ماينجيها من هلكتها ـ وذلك قد يكون ـ فان الملوك والرؤساء لهم في الأمم مالاجهل فيها ، فكما أن للجهل فيها حكماً لامعارض له ، فللسلطان عليها قول لايرد ، فيمكن للحاكم أن يداويها بدائها . والاستبداد الذي يستعمله ليسوقها إلى الشر ، يمكنه أن يستعمله فيها ليقودها به إلى الخير ، والرتب والمناصب التي يمنحها لمحض الشهوة وطاعة الهوى ، يسهل عليه أن ينوط بها مايريد من وسائل المنفعة الثابتة ، والمصلحة القائمة — اذا حدثت الرجل الكبير نفسه بذلك فماذا يجد ؟ يجد مالا سبيل إلى شرحه الآن ... (*

اذاً فما الذي يصنعه الرجل الكبير ؟ يسعى ويجد ، ويدأب ويكد ، ثم يموت محروما من ثمرة عمله ، باكيًا على خيبة أمله ، ومن للرجل الكبير في أمة مثل أمم المشرق بمثل امبراطور اليابان ، أو الأمير عبدالرحمن خان ، إن صح ماجاءت به الانباء ، وصدق ماروت عنه صحف الأخبار ؟

ولكن هل ذلك كله يقضي على الكبير بأن يصغر ، وهل يحكم على العظيم في نفسه بأن يحقر ، كلا فهو انما يؤدي واجباً عليه ، وعلى الله ماوراء ذلك والمرجع اليه .

أكتب اليك هذا ولا أجد من الوقت ماأبث به ماأجد ، فان سمح لي الحال بأوسع من دقائقي هذه ، فسأوافيك بأوسع من هذا ، في بيان أسباب ماالشرق فيه من مساواة الكبار للصغار ، في ضياع العمر وفساد الآثار

*) قد حذف المؤيد ههنا كلاما من الاصل في وصف أمرائنا هو أبلغ ماكتب في سوء حالهم على اجماله وسبب حذفه له انه كان يؤيد الامير والسلطان ويدافع عنهما ولو بالباطل ، ولكن فاته اطلاق لقب البو عليهما أو أغمض فيه

المقالة الرابعة عشرة

الحث على اعانة منكوبي ميت غمر (*

﴿ وتأليف لجنة في الجمعية الخيرية الاسلامية لجمع الاعانات ﴾

عرض لي ما منعني من قراءة الجرائد نحو أسبوع كنت أسمع فيه بحادثة ميت غمر من بعض الأفواه كأنها من الحوادث المعتاد حدوثها ، حتى تمكنت من مراجعة الجرائد ليلة الخميس الماضي ، فاذا لهب ذلك الحريق يأكل قلبي أكله لجسوم أولئك المساكين ــ سكان ميت غمر ــ ويصهر من فؤادي مايصهره من لحومهم . أرقت تلك الليلة ولم تغمض عيناي إلا قليلا . وكيف ينام من يبيت يتقلب في نعم الله وله هذا العدد الجم من اخوة وأخوات ، يتقلبون في الشدة والبأساء . أردت أن أبادر بما أستطيع من المعونة ، وما أستطيع قليل لا يغني من الحاجة ، ولا يكشف البلاء . ثم رأيت أن أدعو جمعاً من أعيان العاصمة ليشاركوني في أفضل أعمال البر في أقرب وقت ، وكان يوم السبت ، فحضر منهم سابقون ، وتأخر آخرون ، وكتب بعضهم يعتذرون ، فشكر الله سعي من حضر ، وجزي خيراً من اعتذر ، وغفر لمن تأخر .

اجتمعت اللجنة وقررت التماس أن تكون تحت رعاية الحضرة الخديوية . وكنت كتبت من قبل إلى سعادة السر تشريفاتي ، فوجدت رقيما منه بعد الانصراف يفيد أن الجناب العالي قبل ذلك . سبق السابقون من أرباب الجرائد الى الدعوة ، وفتحوا باب الاكتتاب في الخير ، فجزاهم الله أفضل الجزاء . ولكن الكثير إذا تفرق قليل ، والوافر إذا تشتت يسير ، لهذا كان من قرارات اللجنة المجتمعة في مركز

*) نشرت في العدد ٣٦٥٤ من جريدة المؤيد فى صفر سنة ١٣٢٠ — ١٢ مايو سنة ١٩٠٢

الجمعية الخيرية الاسلامية أن يكتب إلى حضرات المكتتبين الأولين بالانضمام الى إخوانهم، وأن يرسلوا مندوبين منهم الى لجنة الادارة العاملة إذا شاؤا . شكلت لجان لجمع المال بأسرع ما يمكن ، ودعي أناس كرماء في بعض مراكز الشرقية لأن يقوموا بمثل هذا العمل في نواحيهم ، وسيكتب الى غيرهم من أعيان المديريات الأخر .

ليس الحادث بذي الخطب اليسير ، فالمصابون خمسة آلاف وبضع مئين ، منهم الأطفال الذين فقدوا عائليهم ، والتجار والصناع الذين هلكت آلاتهم ورءوس أموالهم ، ويتعذر عليهم أن يبتدأوا الحياة مرة أخرى ، إلا بمعونة من إخوانهم، وإلا أصبحوا متشردين متلصصين أو سائلين ، والذين فقدوا بيوتهم ولا يجدون ما يأوون اليه ، ولا مال لهم يقيمون به ما يؤويهم من مثل بيوتهم المتخربة . لهذا رأيت ورأى كل من تفكر في الأمر أن يجمع مبلغ وافر يمكن منه تخفيف المصاب على جميع أولئك المنكوبين . كتبت الى حضرة مأمور مركز ميت غمر ليفيدني برأيه فيما يجتمع لديهم من مركزي ميت غمر وزفتى هل يكفي لدفع الضرورة الحاضرة ، ولغذاء الناس ،وستر عوراتهم ، ووقايتهم من الموت؟ ثم طلبت إحصاء وقتياً لأصناف المصابين وطبقاتهم ، حتى ذلك يكون التوزيع على قاعدة صحيحة . وسنرسل من تعظم فيهم الثقة للقيام بالتوزيع على أكمل وجه، وأفاد بالمقصود متى اجتمع مبلغ واف بالحاجة

سيودع ما يجتمع في خزينة محافظة العاصمة حسب ما رآه المجتمعون بالاتفاق، وفي ذلك ضمانة من الضياع ، وبعد عن مرامي الظنون ، وما بقي من تفصيل محضر اللجنة فهو على ما تراه بعد.

هذا ما رأيت أن أكتبه عن سبب الاجتماع وخبره، وأختم ذلك بالمنشور الذي أوجهه الى أهل المروءة ليجودوا بما تسمح به سجاياهم الكريمة من بذل مال و بذل سعي

منشور

قد بلغكم ولا ريب من أخبار الجرائد ماعليه أهل ميت غمر بعد الحريق الذي أصاب بلدتهم، فهم بلا قوت ، ولا ساتر ، ولا مأوى ، فليتصوّر أحدكم أن الأمر نزل بساحته، أفما كان يتمني أن يكون كل الناس في معونته؟ فليطالب كل منا نفسه بما كان يطالب به الناس لو نزل به ما نزل بهم ، ولينفق من ماله وهمته ما يدفع الله به عنه مكروه الدهر ،ان شاء الله (لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون * يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم) فكذبوا وعد الشيطان ، وثقوا بوعد الله ، فكلكم يؤمن الله ، وكلكم يوقن أنه أصدق القائلين ، وأقدر القادرين . فأرجو من همتكم أن تدفعوا شيئاً من مالكم في مساعدة اخوانكم ، وأن تبذلوا ما في وسعكم لحث من عندكم على مشاركتكم في هذا العمل ، وترسلوا بما تجمعون الى الداعي

رئيس الجمعية الخيرية الاسلامية

محمد عبده

(يقول جامع الكتاب) كان من عناية الاستاذ رحمه الله بالسعي لهذه الاعانة انه كان يطرق أبواب الأغنياء بنفسه ويطلب منهم التبرع للمنكوبين ، وقد جمع لديه ألوف كثيرة من الجنيهات وبلغ من عنايته في توزيعها على مستحقيها انسافر إلى الجهة التي وقع فيها الحريق وأشرف على التوزيع بنفسه مع مساعدة رجال الحكومة له . وقد قال له صديقه المرحوم حسن باشا عاصم بعد عودته وكنت معهما : لو أعطيتني هذا المال الذي جمعته لأجل مدارس الجمعية ... قال :ماجمع لشيء وجب صرفه فيه ، وانما نفترص الحوادث الموجعة لنعلم الناس البذل في سبيل البر ومتى اعتادوا البذل في بعضها هان عليهم البذل في سائرها

الفصل الخامس

﴿ بعض ماكتبه في المناظرات الدينية وغيرها ﴾

أشهر ما كتبه في هذا الموضوع رده على موسيو هانوتو ـ أحد وزراء فرنسة وكتابها ـ في الاسلام والعقائد السامية والآرية، وما يتعلق منها بالاسلام والنصرانية. ثم ما كتبه في الرد على مجلة الجامعة في فلسفة ابن رشد والمقابلة بين الاسلام والنصرانية في التسامح الديني والعلم والمدنية . وإنا نكتفي في هذا الكتاب بالمناظرة الأولى لأن الثانية قد نشرناها في المنار ثم جمعناها في كتاب مستقل طبع مراراً .

الرد على هانوتو

هو الرد الذي سارت به الركبان ، وانتشر ذكره في كل مكان ، وعده له المؤبنون الغربيون والشرقيون ، وأطنب في مدحه عليه الشعراء الراثون ، وسببه ان موسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا من قبل كتب في جريدة الجرنال الباريسية مقالا في الاسلام والمسألة الاسلامية ترجمته جريدة المؤيد ونشرته بالعربية ، وكان من عادة الأستاذ الامام عليه الرضوان أن يتصفح الجرائد في القطار بين القاهرة وعين شمس التي فيها داره غدواً ورواحا فلما كان رائحا بعد العشاء من الأزهر وقد قرأ درس المساء فيه نظر في المؤيد فاذا فيه قسم من مقال هانوتو فقرأه في القطار والانفعال يساوره فما عتم بعد وصوله إلى الدار أن شرع في الرد على ماقرأ في فرصة تهيئة طعام العشاء وأتم المقالة الأولى بعد تناول الطعام وأرسلها إلى المؤيد صباحا فنشرت فيه. وانا ننشر مقال هانوتو قبل الرد عليه ليفهمه القاري حق الفهم وهو:

ترجمة مقال هانوتو

بقلم محمد مسعود (بك) اذ كان أحد محرري جريدة المؤيد ونشر فيها سنة ١٣١٧ هـ

قد أصبحنا اليوم ازاء الاسلام والمسألة الاسلامية

اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الافريقية بسرعة لا تجارى ، حاملين في حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين « يونان الشرق » ثم تراموا بها على أوربا ولكنهم وجدوا في نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها إلى آسيا بل أقرب في الوصلة إلى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم ألا وهي المدنية الآرية المسيحية ولذلك اضطروا إلى الوقوف عند الحد الذي اليه وصلوا ، وأكرهوا على الرجوع إلى افريقية حيث ثبتت أقدامهم أحقابا متعاقبة ولكن كان لا يزال الهلال ينتهي طرفاه من جهة بمدينة (القسطنطينية) ومن أخرى ببلدة (فاس) في الغرب الأقصى معانقاً بذلك الغرب كله

في تلك البقعة الافريقية التي أصبحت مقر ملك الاسلام جاءت الدولة الفرنسوية لمباغتته . جاء القديس (لويس) الذي ينتمي إلى اسبانيا بوالدته ليضرم نيران القتال في مصر وتونس ، وتلاه لويس الرابع عشر في تهديده بالايالات الافريقية الاسلامية ، وعاود هذا الخاطر (نابوليون الأول) فلم يوفق إلى تحقيقه الفرنسويون إلا في القرن التاسع عشر حيث أخنوا على دولة الاسلام التي كانت لا تني في متابعة الغارات على القارة الأوربية فأصبحت الجزائر في أيديهم منذ ٧٠ عاماً وكذلك القطر التونسي منذ عشرين عاماً

قد وصلت طلائع قوانا الآن إلى أصقاع من الصحراء تنتهي اليها كثبانها الرملية ، فعظم اندهاش الباقين من خصومنا وتزايد ذهولهم لأنهم بعد اندفاعهم شيئاً فشيئاً في الفيافي وبطن الخبوت وظنهم أنهم صاروا في أمنع موئل شعروا بأنفسهم وقد حلق عليهم الأوربيون من جميع الجهات وكانت القبائل الواردة اليهم من (السنغال) أخبرتهم بأن الأوربيين امتلكوها وتقدموا منها الى (باقل)

(وباما كوا) (وسيجو سيكورو) وتوغلوا في جهات أخرى حتى وصلوا الى (النيجر) وبحيرة (شاد) وان مدينة (تمبكتو) المقدسة قد سقطت في أيديهم منذ أعوام وأكد لهم هذه الأخبار أيضاً رسلهم الذين يخترقون أفريقية الوسطى ويجوبون نواحيها بما ذكروه لهم من أن جهات (صانغا) و (تجاوندرة) قد وطأتها أقدام الحاملين للعلم المثلث الالوان الذين يصعدون الأنهار لتنظيم البلاد وترقية شؤونها وأن وابوراتهم (في الأصل بابور على التحريف الشائع عند الأمم الشرقية من تسمية البواخر النهرية أو البحرية بالبابورات بدلا من البواخر) تشق عباب نهري (الكونغو) و (الشاري) وتنعكس على سطحها صورة الدخان الأسود المسترسل خلفها ، عندئذ كان يطرق الآذان صوت اليائسين وقد جلسوا أمام دورهم واضعين رؤسهم بين أفخاذهم لكثرة الغم والكدر وهم يدعون الله ويكررون قولهم عن (فرنسا) يشبهونها بسرادق كبير اذا حاول الانسان قلعه فلا يزال له السمو عليه ويختمون كلامهم بقولهم (قد كان هذا قدراً مقدوراً)

اذاً فقد صارت (فرنسا) بكل مكان في صلة مع الاسلام بل صارت في صدر الاسلام وكبده حيث فتحت أراضيه وأخضعت لسطوتها شعوبه وقامت بجاهه مقام رؤسائه الأولين ، وهي تدبر اليوم شؤونه وتجبي ضرائبه وتحشد شبانه لخدمة الجندية ، وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها في مواقف الطعان ، ومواطن القتال . تلك المملكة الفسيحة الارجاء التي أنشأتها في باطن القارة الافريقية هي الوارثة لما أبقته الدول السابقة والأمم البائدة من (قرطاجيين) (ورومانيين) (وعرب) من آثار المدنية التي كانت القارة الافريقية منبتاً لثمارها اليانعة

ان شعباً جمهوري المبادىء يبلغ عدد نفوسه أربعين مليونا لا مرشد له الا نفسه ، لا عائلات ملوكية فيه يتنازعن الحكم ، ولا رؤساء يتناولون الرئاسة بطريق الوراثة ، هو الذي تقلد زمام ادارة شعب آخر لا يلبث أن ينمو حتى يساويه في العدد وهو ذلك الشعب المنتشر في الارجاء الفسيحة والاصقاع المجهولة والمتبع لتقاليد وعادات

غير التي نعنو لها ونحترمها هو الشعب الاسلامي السامي الأصل الذي يحمل اليه الشعب الآري المسيحي الجمهوري الآن ملح وروح المدنيـة ، نعم ان ظروف وشروط هذه المعضلة نادرة ، ولكن ليس على الشعب الغالب أن يحاول جهده لمعرفتها والاطلاع عليها

ليس الاسلام فينا فقط بل هو خارج عنا أيضاً قريب منا في (مراكش) تلك البلاد الخفية الاسرار التي يشبه وجودها الحاضر مقدور الابد في الغموض والاشتباه ـ قريب منا في (طرابلس الغرب) التي تتم بها المواصلات الاخيرة بين مركز الاسلام في البحر الابيض المتوسط وبين الطوائف الاسـلامية في باطن القارة الافريقية ـ قريب منا في (مصر) حيث تصادمت (الدولة البريطانية) فصادمتها اياها في الاقطار الهندية ، وهو موجود وشائع في (آسيا) حيث لا يزال قائماً في (بيت المقدس) وناشراً أعلامه على مهد الانسانية ، ويحسب أنصاره وأشياعه في قارات الأرض القديمة بالملايين ، وقد انبعثت منه شعبة في بلاد (الصين) فانتشر فيـه انتشاراً هائلا حتى ذهب البعض إلى القول بأن العشرين مليونا مسلماً الموجودين في الصين لا يلبثون أن يصيروا مائة مليون فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء (لسا كياموني) وليس هذا بالأمر الغريب فانه لا يوجد مكان على سطح المعمورة إلا واجتاز الاسلام فيه حدوده منتشراً في الآفاق ، فهو الدين الوحيد الذي أمكن انتحال الناس له زمراً وأفواجا ، وهو الدين الوحيد الذي تفوق شدة الميل إلى التدين به كل ميل إلى اعتناق دين سواه ، ففي البقاع الافريقيـة ترى المرابطين وقد أفرغوا على أبدانهم الحلل البيضاء يحملون الى الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم من كل شعار قواعد الحياة ومباديء السلوك في هذه الدنيا كما كان أمثالهم في القارة الاسيوية ينشرون بين الشعوب الصفر الألوان قواعد الدين الاسلامي ، ثم هو ـ أي هذا الدين ـ قائم الدعائم ثابت الأركان في أوربا عينها أعني في الأستانة العلية حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع الذي يحكم منه على البحار الشرقية ، ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض شطرين

في باحات قصر يلديز ترى العلماء والدراويش وقد تدثروا بثياب الصوف وتعمموا بالعمائم الكبيرة جالسين على الارائك بجانب سفراء الدول . هم هناك يمثلون في الخاطر أشخاص ألف ليلة وليلة لايحركون من مقاعدهم ، ينبسون بكلمات تطابق تحريك أيديهم حبات السبح منتظرين مجيء دورهم في المقابلات لعرض طلب أو توجيه لوم . وكل المسلمين من مقيم في (الاستانة) أو في (مراكش) في أرجاء آسيا أو اصقاع افريقية من بدو كانوا أو حضر ، واقفين في أماكنهم أو سارين مع القوافل ، يركعون مع الراكعين : اذا حانت الصلاة يتوضؤن أو يتيممون بالتراب، مولين وجوههم جميعاً شطر الكعبة ، وسواء منهم الذين يلبسون الثياب الواسعة أو يتزيون بالسترة الاسلامبولية ، والذين يلبسون الطربوش أو العمائم على رءوسهم ، والذين يضعون السيف واليطقان في نطاقهم ، أو يتلقون العلوم في مدرسة برلين الجامعة ، او يدرسون علوم السياسة في باريس ، فانهم يولون وجوههم شطر مكان واحد ، هي الأرض المقدسة ، هي الأرض التي تكتنفها الصحراء ، هي الأرض التي عاش فيها محمد ، هي الأرض التي تتضمن جسمه المبارك في قبر لايجسر أحد على الوصول اليه إلا مغطى الوجه حياء وهيبة ، هي الأرض التي جاء منها الا باء ويعود اليها الابناء بحركة مستمرة ، هي الحج الأبدي الى بيت الله الحرام . وجميع المسلمين عن بكرة أبيهم يرنون بطرفهم الى هذا المكان المقدس ويمدون اليه أعناقهم ، ولا يجدون لذة في الحياة إلا بأمل العودة اليه ، ومن مات منهم ولم يكن أدى فريضة الحج مات على أسف وحسرة .

وخلاصة القول ان جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة وحدة بها يدبرون أعمالهم ، ويوجهون أفكارهم الى الوجهة التي يبتغونها . وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذي تتصل به أشياء تتحرك بحركته ، وتسكن بسكونه ، بل هي القطب الذي تنتهي اليه قوة المغناطيسية . ومتى اقتربوا من الكعبة — من البيت الحرام — من بئر زمزم الذي ينبع منه الماء المقدس — من الحجر الاسود المحاط باطار من فضة — من الركن الذي يقولون عنه إنه سرة العالم ، وحققوا بأنفسهم أمنيتهم العزيزة التي استحثتهم على مبارحة بلادهم في أقصى مدى من العالم

للفوز بجوار الخالق في بيته الحرام — اشتعلت جذوة الحمية الدينية في أفئدتهم فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفاً ، وتقدمهم الامام مستفتحاً العبادة بقوله « باسم الله » فيعم السكون والسكوت وينشران أجنحتهما على عشرات الالوف من المصلين في تلك الصفوف ، ويملأ الخشوع قلوبهم ، ثم يقولون بصوت واحد « الله أكبر » ثم تعنو جباههم بعد ذلك قائلين « الله أكبر » بصوت خاشع يمثل معنى العبادة

لا تظنوا أن هذا الاسلام الخارجي الذي تجمعه جامعة فكر واحد غريب عن اسلامنا ولا علاقة له به لأنه وإن كانت البلاد التي يحكمها شعوب مسيحية ليست في الحقيقة « بدار إسلام » وإنما هي « دار حرب » فانها لاتزال عزيزة وموقرة في قلب كل مسلم صحيح الايمان . والغضب لايزال يحوم حول قلوبهم كما تحوم الاسد حول قفص حبست فيه صغارها ، وربما كانت قضبان هذا القفص ليست متقارنة ولا بدرجة من المتانة تمنعها عن الدخول اليهم من بينها

ترى في قرانا وبلداننا درويشاً فقيراً شاحب اللون ، مدثراً بأرديته البيضاء المعلمة بخطوط سوداء ، يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه ، لا يلويه عن ذلك شيء — هذا الدرويش الذي ينتقل من خيمة الى خيمة ، ومن قرية الى قرية ، راوياً حوادث الأقطاب والأولياء من مشايخ الاسلام ، إنما يبذر في القلوب حيثما حل وأينما توجه بذور الحقد والضغينة علينا .

إن العالم الاسلامي منقسم الى طوائف وطرائق لاعداد لها ينخرط في سلكها الألوف من رعايانا المسلمين ، ولكن ليس لها في الغالب مراكز ولا زوايا بالاراضي الداخلة في دائرة نفوذنا ، وغاية الأمر أن العاملين في هذه الطوائف والمذاهب الكثيرة يخترقون بلا انقطاع ولا توان مستعمراتنا الافريقية فيستقبلهم أهلوها بالترحاب ، ويحسنون وفادتهم ويكرمون مثواهم ، حتى إن الفقير منهم لا يرى في إكرامه له أقل من أن ينحر له شاة . هذا عدا مايجمعه له من صدقات ذوي البر والاحسان ، أو من المرتبات المالية السنوية التي يبلغ مايدفعه أهالي الجزائر وحدهم منها ثمانية ملايين من الفرنكات كل عام ، وهذا مما يستوجب العجب والدهشة لأن مقدار مانجبيه من

الضرائب كل سنة من أهالي الجزائر لايتجاوز ضعف هذا المبلغ

ومن بين تلك الطرائق والطوائف مايخلد أعضاؤه الى السكون وربما كانت علاقتهم مع رجال حكومتنا في الجزائر وتونس على أحسن مايرام . وما ذلك إلا لأن الرابطة التي تربط بعضهم ببعض قد اعتراها الوهن ، ولأن الفوضى التي أصابت الاسلام الافريقي قد أخذت نصيبها منهم . ولكن توجد طوائف غيرها بلغت شدة العصبية منها مبلغاً عظيما لأنها مؤسسة على مبدإ كفاح غير المؤمنين وعلى كراهة المدنية الحاضرة . وقد أسس الشيخ السنوسي في جهة ليست بعيدة عن الاصقاع التي تلي أملاكنا في الجزائر مذهباً خطيراً له أشياع وأنصار ، ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التي كان قائماً بها هيكل البرجيس آمون ، وقد هاجر أولاده الى (كوفرة) ومن مذهبهم التشديد في رعاية القواعد الدينية . وقد لبثوا زمناً مديداً لايرتبطون بعلاقة مامع الدولة العلية بسبب مابينها وبين الدول المسيحية من العلاقات ، ولكن يظهر أن أخلاقهم الشديدة قد تلطفت ، فتقربوا أخيراً من الدولة العلية ، غير أن هذا لم يمنعهم من طرح حبائل الدسائس التي أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها في افريقية الجنوبية ، ولم يكن الأمر قاصراً على وسط القارة الافريقية ، فانه توجد بالاستانة نفسها وبالشام ، وبلاد العرب ، ومراكش عصابة خفيـة ، ومؤامرة سرية تحيط بنا أطرافها ، وتضغط علينا من قرب ، ويخشى أنها تفترسنا اذا غمضنا الطرف

كنا نرى من زمن حـديث رعايانا الوطنيين في الجزائر ينقادون لأوامر سرية تناقلوها بالافواه ، وكانت تقضي عليهم بتأليف الزمر والافواج منهم لمهاجرة أوطانهم والذهاب الى آسيا الصغرى حيث يجدون الأمن المرجو

يؤخذ ممـا تقدم أن جراثيم الخطر لاتزال موجودة في ثنيات الفتوح وطي أفـكار المقهورين الذين اتبعتهم النكبات التي حاقت بهم ، ولكن لم تثبط هممهم . نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يديرون هذه المقاومة ، ولكن رابطة الاخاء الجامعة لأفراد العالم الاسلامي بأسره كافلة بالرئاسة في مسألة علائقنا مع الاسلام تجد

المسألة الاسلامية والمسألة الدينية والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال والارتباط بعضها ببعض،وهذا مايجعل حلها صعباً ومتعذراً كما سنبينه

المسائل الاساسية في كل دين هي التي ترتبط بالقدر والمغفرة والحساب . وهي كلمات ثلاث مصبوغة بصبغة دينية تلقي في النفس الاعتقاد بوعورة المسلك في تفهمها مع أنها من الأمور التي ينبغي الوقوف عليها والعلم بها مهما صعب منالها وتعذر مرامها . إن الدين هو الوسيلة التي تمهد للانسان طريق الوصول الى الحضرة الالهية أو هو بعبارة أخرى الواسطة في وقوف المخلوق بين يدي الخالق

(اذا تقرر ذلك فهل الخالق بقدرته المطلقة يودع في نفس المخلوق استعداداً للعمل بمقتضى إرادته السرمدية بحيث لايحيد عما تأمره به هذه الارادة أم للانسان متى تم خلقه إرادة خاصة يعمل بحسبها واختيار مستقل لايستمد من اختيار أسمى منه ؟ وهل للانسان الذي خلقه الله وسواه إرادة مطلقة من نفسه وتصرف مطلق في ذاته ؟أم ترجع جميع أعماله من خير وشر الى القدرة الربانية القابضة على زمام الكون والمسببة لوجوده فيه؟

في دائرة هذا البحث تنحصر الخلافات الدينية والفلسفية التي لم يوفق دين من الاديان ولا مذهب فلسفي الى حسمها بكيفية يقتنع بها الادراك ويرضاها العقل، مع أن البحث فيها لاصابة هذا الغرض السامي لم يكن بالامر الحديث إذ طالما بحث فيها فلاسفة الاقدمين فلم يجدوا لها حلا ، وكان حظهم منها كحظ فلاسفة وعلماء المتأخرين

وغاية ماعرف منذ الاعصر السالفة إلى الآن انه وجد مذهبان تشاطرافيما بينهما العقائد البشرية من تلك الوجهة المهمة ، فالاول منهما يقول بتناهي الربوبية في العظمة والعلو ، وجعل الانسان في حضيض الضعف ودرك الوهن ، ويذهب الثاني إلى رفع مرتبة الانسان وتخويله حق القربي من الذات الالهية بما فطر عليه من إيمان وإرادة ، وبما أتاه من أعمال صالحات وحسنات

والنتيجة الطبيعية للاعتقاد بمذهب الفريق الاول هي تحريض الانسان على اغفال شؤون نفسه ، وبث القنوط في فؤاده وتثبيط همته ، وايهان عزيمته ، بينا

تسوقه نتيجة الاعتقاد بمذهب الفريق الثاني إلى ميدان الجلاد والعمل ، وتلقي به في غمرات التنافس الحيوي ، ومن الأمثال على الفريقين البوذية الذين يدينون بدين يقضي عليهم بالتجرد إذ من قواعده أن الانسان والكون يفنيان في الذات الالهية . وقدماء اليونان الذين يدينون بدين من قواعده تشبيه الآله بالانسان في أوصافه المادية يقضي عليهم هذا الدين بالعمل والحياة لاعتقادهم بأن الانسان أو « البطل » يمكنه أن يصير في عداد الآلهة بحسناته وخيراته

وقد ظهرت على أطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضائه ديانتان احداهما ربانية، والثانية بشرية، تمثلان ذينك المذهبين المتناقضين ، ولكن بتلطيف في التناقض . أما الأولى فهي الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة آثار الآريين، والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية، وإن كانت مشتقة منه، وغصناً من دوحته ومن خصائص هذه الديانة ترقية شأن الانسان بتقريبه من الحضرة الآلهية، على حين أن الديانة الثانية وهي الاسلام المشوبة بتأثير مذهب السامية تحط بالانسان إلى أسفل الدرك وترفع الآله عنه في علاء لانهاية له »

هذان الميلان المختلفان يظهران ظهوراً واضحاً في الاعتقاد الاساسي لكلتا الديانتين وهو أصل الالوهية . أما المسيحي فيذهب في هذا الأصل الى الثالوث أي أن الآله الاب أوجد الاله الابن واتصل الاثنان بصلة هي روح القدس وعليه فيكون يسوع المسيح إلهاً وبشراً — هذا الثالوث السري المشتقة أصوله من ضرورة وجود إله بشري يمحو ذنب الجنس البشري ، ويفديه من الخطيئة التي اقترفها، يرفضه المسلم الذي يعتقد بوحدانية الرب ، ويتمسك بهذا الاعتقاد تمسكا شديداً حيث يقول « لا إله إلا الله »

غير أن إدراك المسيحيين من هذا القبيل هو أخف وأعلى وأجلب للثقة، إذ هو يحملهم على اتيان الأعمال التي تقربهم الى الله، حيث الوسائط بينهم وبين ذاته العلية موصولة ، في حين أن المسلمين تجعلهم ديانتهم كمن يهوى في الفضاء بحسب ناموس لايتحول ، ولا يتبدل ، ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات ، والاستغاثة بالله الاحد الذي هو مستودع الآمال ، وافظة الاسلام

معناها « الاستسلام المطلق لأرادة الله »

نرى الديانتين (أو بعبارة أخرى) المدنيتين المسيحية والاسلامية احداهما بازاء الاخرى ، وتتصل الاثنتان بعضهما ببعض من حيث المنشأ العام لهما ، إذ هما مشتقتان من الأصول اليونانية والسامية ، ومنهما استمدتا جانباً من العقائد والمذاهب والآداب ، فهما اذاً متداخلتان من وجوه عدة ، ولكن مسافة الخلف بينهما شاسعة في الحقيقة ، من حيث البحث في القدرة الالهية والحرية البشرية.

وقد كانت هذه المناقضات وتلك الاشباه نقطة تفرع الطريقين المختلفين اللذين اتبعناهما فيما يربطنا من العلائق بالاسلام والمسلمين . قصر فريق منا بحثه وحكمه على ماشاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحي والاسلامي، فرأى في الاسلام العدو الالد ، والخصم الأشد ، قال المسيو كيمون في كتابه (باتولوجيا الاسلام) إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعاً ، بل هي مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولي، يبعث الانسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ، ويدمن على معاقرة الخمور ، ويجمح في القبائح ، وما قبر محمد في مكة(؟) إلا عمود كهربائي يبث الجنون في رءوس المسلمين ، ويلجئهم إلى الاتيان بمظاهر الهستيريا (الصرع) العامة والذهول العقلي ، وتكرار لفظة الله إلى مالا نهاية، والتعود على عادات تنقلب الى طباع أصلية ككراهة لحم الخنزير ، والنبيذ ، والموسيقى ، والجنون الروحاني ، والليمانيا ، أو الماليخوليا ، وترتيب مايستنبط من أفكار القسوة والفجور في اللذات الخ الخ

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية ، وحيوانات مفترسة (كالفهد والضبع كما يقول المسيو كيمون) وأن الواجب ابادة خمسهم (كما يقول أيضاً) والحكم على الباقين بالاشغال الشاقة وتدمير الكعبة ، ووضع ضريح محمد في متحف اللوفر (وهذا أيضاً قوله) .... وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشري .. أليس كذلك ؟ . ولكن قد برح عن خاطر الكاتب

أنه يوجد نحو (١٣٠) مليون مسلماً ، وأن من الجائز أن يهب هؤلاء « المجانين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم

ويذهب غير أصحاب هذا الرأي إلى أن الاسلام دين ومدنية يتصلان مع ديننا ومدنيتنا بعروة الاخاء والتصاحب ، وتطرف البعض منهم فاعتبروا الاسلام أرقى مبدأ وأسمى كعبًا من الدين المسيحي . قال المسيو لوازون (القس ياسنت سابقًا) معترفا ومقراً بأن الاسلام هو الدين المسيحي محسنًا ومحوَّراً ، ونصح للفرنسيين الذين يلتمسون دينهم المفقود أن يستعينوا بالاسلام للعثور على ضالتهم المنشودة ، ويذهب قوم غير الذين سبقت الاشارة اليهم إلى وجوب احترام الاسلام وتبجيله مستندين في ذلك على مادونه أحد مؤرخي الكنيسة الذي صار فيما بعد كردينالا حيث قال « أن الاسلام قنطرة للأمم الافريقية ينتقلون بواسيطتها من ضفة الوثنية إلى ضفة المسيحية ، فليس الواجب والحالة هذه قاصراً على معاملة الاسلام بالتساهل والتسامح ، بل لا بد من رعايته وتعضيده بأن نسعى في توسيع نطاقه وترتيب الارزاق على المساجد والمدارس ، وجعله رائداً لمدنية فرنسا وآلة تستعين به على فتوح البلاد »

هذان هما الرأيان السائدان بما بينهما من درجات الاعتدال والتلطف والمسالمة ، ولكنهما وإن افترقا متصل بعضهما ببعض ، وموجودان في حيز واحد ، وقد لوحظ كثيراً أن كل فرد من أفراد موظفينا أو وكلائنا ، أو أبنائنا المستعمرين قد حار بين المبدئين ، وسلك الخطة التي رسمها لنفسه تجاه المسلمين ، طبقا لاميائه[1] نحو قطب من القطبين المتناقضين اللذين يوجد باحدهما المتطرفون ، وبالآخر المتعصبون ، ولا وسط بينهما

وتلك الأميال[1] المتعاكسة التي برزت من مكامن الاعتقاد إلى مجالي الفعل والتنفيذ ، هي التي أحدثت التناقض في أعمالنا الاجتماعية ، والسياسية والادارية ، وأدت إلى الشكوك والريب ، ونقض ماأبرم وابرام مانقض ، إلى غير ذلك مما جرت عليه حكومتنا ، ولا سيا في البلاد الافريقية ، من عدم السير على وتيرة

(١) المراد بالاميال أنواع الميول أي جمع ميل بالفتح وهو مصدر مال يميل

واحدة . هـذا الخلل ينمو شيئاً فشيئاً ، ويتضاعف خطره كل يوم ، اذا فكر الانسان في أنه لايصيب بسوئه بلاد الجزائر مع سكانها الوطنيين الذين يبلغ عددهم أربعة أو خمسة ملايين فقط ، بل يسري على نصف قارة بأ كملها عديدة السكان ، وسيزداد ويتضاعف عددها بامتداد رواق الامان على الأهالي، وإبطال التجارة في الرقيق

فالمسئلة اذاً خطيرة جداً، ولابد من الاعتماد على أمر واحد في حلها، إذ لا يكفي للوصول إلى هذا الحل تنميق عبارات ، وتسطير كلمات ، ولذلك خيرت أن أعرضها على محك الرأي العام ، مبيناً أحكم الوسائل وأكثرها انطباقا على العقل والصواب، للوصول إلى نتيجة فعلية ، وموردا شيئاً واحداً هومن ألزم الاشياء لموضوع تلك المسئلة وأشدها ارتباطاً به

قد سبق لي وقتما تم تشكيل مملكتنا الافريقية تشكيلا تاما أن سألت — ولا زلت أكرر هـذا السؤال — الحكومة أن تبحث بحثاً علنياً في علاقاتنا مع الاسلام والمسلمين بمعرفة أناس خبيرين ، وعلماء عارفين، لينجلي هذا البحث عن الخطة التي يتحتم على الجميع اتباعها من حاكم منا ومحكوم عليه

إن الراغب في الاستعمار من أبناء بلادنا يصل إلى الجزائر ، أو تونس ، أو السنغال ، فيجد نفسه في اتصال مع العربي، أو بعبارة أعم مع المسلم، إذ منه يشتري الأرض التي يريد استنباتها ، ومنه يطلب اليد العاملة ، ومعه يدبر شؤنه المعيشية، فبالرغم عن هذا الاتصال وعن هذا الجوار والتلاصق تراهما يجهل أحدهما الآخر ، وتنفرج مسافة هذا الجهل ، وتكون عواقبه أكثر خطراً اذا كانت العلاقة بين الاهالي وبين الموظف ، أو الحاكم ، أو القاضي ، أو الضابط ، أو غيرهم ممن هو منوط بالفصل في خصوماتهم والقيام على شؤونهم ، وتنفيذ قوانيننا بينهم ، وما أسوأ مغبة ذلك الجهل اذا كانت العلاقة بينهم وزارة مستعمراتنا ، أورجال حكومتنا المركزية التي يديرها أحد عشر وزيراً ، ربما لايوجد من بينهم سوى واحد أو اثنين أمعنا النظر في خريطة الأنحاء الواسعة والاصقاع القصية التي عهد اليهم أمر ادارتها وتنظيمها

مع أن الواجب — متى رضينا باحتمال هذه المسؤلية على عواتقنا ، ونلنا هذه السلطة — أن نطيل البحث ونمعن النظر في طرق استخدام هذه السلطة ، وأن نسأل الخبيرين والعارفين ، ونستفيد ممن شاهدوا واختبروا ، ونستمد من معلوماتهم مانستعين به على تحرير متن سياسي وجيز يتضمن أصول ومبادىء علاقاتنا مع العالم الاسلامي . إن فريقاً كبيراً من العلماء النظريين والعمليين من موظفين وضباط وأساتذة ومهندسين ومزارعين ومستعمرين — قد كانوا ولا يزالون فى اتصال بالمسلم ، وجعلوا أحوال معيشته وطرق أعماله موضوع بحثهم ودراستهم ، ولكن المسلمين أنفسهم قد ينبؤننا بما نجهله من يقين أخبارهم ، فهم اذا سئلوا أجابوا ، واذا أجابوا أفاضوا ، وقد كثرت الابحاث في كل موضوع حتى في الموضوعات الصريحة الواضحة ، ولم يفكر أحد في الأمر الذي نحن بصدده وهو من أكثرها غموضاً والتباساً ، فلماذا لا نستعين بالوسيلة التي تفيض علينا أنوار الحقيقة ، ونطرح من هذه الانوار شعاعاً على من يريدون اتباع الصراط المستقيم ، حتى اذا ما تم التحقيق والبحث ، حررنا بما ينبعث عنهما من الحقائق رسالة تذاع على الألسنة ، وتتداولها أيدي الموظفين والمستعمرين ، وتنتشر بين الطلاب في المدارس ، فتنمحي بها آثار الاضاليل والترهات الكثيرة ، وتزول العقبات القائمة ، وتقال الاقدام من العثرات ، وتكون تلك الرسالة بمثابة قانون ثابت لفرنسا الاستعمارية ، يجري على نهجها كل عامل ، فيعم نفعه ، ويجتني ثماره ، وربما كان سبباً في أن نعيش مدة نصف جيل على أساس اختبار الفرنسيين المستعمرين الذين انتشروا في عرض البلاد وطولها لا رابطة بينهم ولا صلة ، يواصلون الصباح بالمساء في الندم والحسرة من عواقب هفوة هفوها ، أو زلة سقطوا فيها ، وكانت كلمة واحدة كافية لاقالتهم من عثرتهم ، واصلاح هفوتهم

ولست أظن أحداً يرتاب في نتائج ذلك التحقيق . وانما قبل ختام هذا الفصل ، أورد بعض اعتبارات إخالها ضرورية للوصول إلى الغاية المقصودة من أقوم طرقها : أشرت سابقاً إلى الصلة الاكيدة بين السياسة والدين في العالم الاسلامي ، والمسلمون في الاحوال الراهنة شاعرون شعوراً قوياً بايمانهم العام ، غير أن ادراكهم

مبهم من حيث الجامعة السياسية ، وما كان يسميه القدماء بالرابطة المدنية أو الوطنية، إذ ينحصر الوطن عندهم في الاسلام . وهم يقولون إن السلطة مستمدة من الالوهية ، فلا يجوز أن يتولاها إلا من كان من عقيدتهم، ولم تدخل في رءوسهم حتى الآن فكرة سوى هذه التي تمكنت من أفئدتهم، وأخذت من قلوبهم أمتن مأخذ، فكان ذلك سبباً في حدوث سوء التفاهم بين الحاكمين والمحكومين في البلاد الاسلامية الخاضعة لحكومات مسيحية

على أنه بالرغم عن ذلك قد حصل انقلاب عظيم في بلد من هذه البلاد ، فصلت فيه السلطة الدينية عن السلطة السياسية بدون جلبة ولا ضوضاء، نريد به القطر التونسي الذي وضعت عليه الحماية التي مؤداها احترام النظام السابق على الفتح بصيانة القوانين والعادات من المساس، والمحافظة على مركز الباي ، وقد بالغنا في ذلك بحيث تمكنا بواسطة ما أدخلناه من التعديلات الطفيفة شيئاً فشيئاً وأجريناه من المراقبة على الأمور الادارية والسياسية من التداخل في شؤون البلاد، والقبض على أزمتها ، بدون شعور من أهلها

تم هذا الانقلاب بسرعة ولين، فلم يتألم منه الاهلون، ولم تنخدش له إحساساتهم، إذ لبثت المساجد مغلقة في أوجه المسيحيين، والاملاك الموقوفة محبوسة على السبل التي خصصت لها ، وتركت أزمة الاحكام بأيدي القواد والقضاة ، ولم يغير شيء من القوانين الاهلية إلا برضى وتصديق من الاهالي ، وربما كان بطلب منهم، وقام بأعمال هذا التغيير والتبديل ، وهذا النسخ والتحويل ، عدد قليل من الموظفين، أكثرهم من التونسيين . وجملة القول أن انقلابا عظيما حصل بدون أن يجر وراءه ألماً أو توجعاً أو شكوى، بحيث وطدت الآن دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس ، وتسربت الافكار الاوربية بين السكان بدون أن يتألم منها الايمان المحمدي ، واقترنت السلطة الفرنسية بالسلطة الوطنية اقترانا لم تغشه سحابة كدر .

اذاً يوجد الآن بلد من بلاد الاسلام قد ارتخى ، بل انفصم الحبل بينه وبين البلاد الاسلامية الاخرى الشديدة الاتصال بعضها ببعض ، اذاً توجد أرض

تتفلت شيئاً فشيئاً من مكة ومن الماضي الاسيوي . أرض نشأت فيها نشأة جديدة انبتت في قضائها ، وادارتها ، وعاداتها ، وأخلاقها . أرض يصح أن تتخذ مثالا يقاس عليه ونموذجا ينسج على منواله، ألا وهي البلاد التونسية

كانت هذه البلاد ميدان التنافس والجلاد، إذ حكمت فيها قرطاجة، ورومية وبيزنطية ، والعرب ، وسان لويس ، وشارلكان . فأصبحت الآن مهبط المسالمة، ومعهد التصالح والوئام، ففيها الديانتان، بل المدنيتان متلاصقتان، بل متداخلتان، حتي تأكدت نقط التشابه بينهما ، وانحسرت فرجة الخلاف ، وارتفعت الاحقاد من الصدور، رغبة من الفريقين في التمتع بمزايا الأراضي الخصبة ، والسماء الصافية الاديم، التي ينزل منها على القلوب برد وسلام يلطفانها . ولعل الاطلال العديدة الشاهدة على ماتعاقب في الاقطار التونسيـة من المدنيات القديمة لم تندثر تماما ، ولم ينمح أثرها، كي تهتز لاستقبالنا، ويوصل بعضها ببعض ما انقطع من حلقات سلسلة الدهر الماضي والزمن الغابر

إن مسجد القيروان الجامع، شيـدت عقوده على الأعمدة القديمة ، وبنيت كنيسة الكردينال لافيجري الكاتدرائية تجاه أكمة (بيرسا) التي عبدت فيها (تانيت) وخلاصة القول أن مزيجا من التاريخ يركب في هذه الأرض تحت رعاية فرنسا وانسانيتها ، ومن المحتمل أن تنبعث تلك الآثار من قبور الماضي فتعيش في خلال الجيل الذي نطرق الآن أبوابه المرتوع في واسع رحابه اه

هذه ترجمة مقال هانوتو وقد نشرت في عددين من المؤيد ، والعبر فيه كثيرة ، وقد أتى الامام أحسن الله جزاءه على أهمها كما نرى

رد الاستاذ الامام

١

قرأت الساعة مقال مسيو هانوتو المترجم في جريدتكم نقلا عن جريدة « الجورنال » الباريسية تتميما لبحثه السابق

بحثه السابق، وشيء من تتمته، إنما هو دافق من غيرته على شؤون دولته، يريد أن يدعو قومه إلى التبصر في وضع قاعدة لمعاملة المسلمين الذين يدخلون تحت ولايتهم، أو يجاورونهم في ممالكهم. وذلك لا يتم على مذهبه إلا بالبحث في طبيعة الأمر الذي صار به المسلمون غير مسيحيين، وبه يفضل المسلمون سلطة إسلامية، على سلطة فرنساوية. فان أمكن تلقيح ما عليه المسلمون بالولاء الفرنساوي وسهل الجمع بين ماوقر في نفوسهم، وبين الخضوع الأعمى لسلطان فرنسا، وطاب الجوار في قلوب الملة الاسلامية لعقيدة الاسلام، والطاعة لكل أمر يصدر من آخر فرنساوي في طبقته، صح للدولة الفرنساوية أن تمن على المسلمين بالبقاء في الأرض، والاوجب عليها أن تحمل عليهم فتبيدهم من البسيطة، أو تجليهم إلى قارة أخرى

ولهذا جره البحث إلى النظر في أصول دين المسلمين، والمضاهاة بينه وبين الدين المسيحي، بل بينه وبين أديان كثيرة أشار اليها في كلامه، ثم الحكم في تفضيل أحد الدينين على الآخر بآثار كل منهما في نفوس معتقديه

أما غايته من البحث، وتناوله بيده محضاء يحرك به نيران العداوة في قلوب الفرنساويين، لتثير عزائمهم إلى حرب المسلمين، وليكون مسيو هانوتو للأمة الفرنساوية اليوم مثل ذلك الراهب الذي أثار تلك الحروب المعروفة، فذلك أمر نكل فائدته اليه وإلى علمه بمكان دولته من القوة، ومنزلة تمدنه من المرحمة والانسانية، ونلفت اليه ذكاء بعض شباننا من المسلمين الذين يعرفون اللغة الفرنساوية ويتجملون بآداب الأمة الفرنساوية ويطربون اذا ذكرت المدنية الفرنساوية

ولو لم يتعرض مسيو هانوتو الى الطعن فى أصل من أصول الدين، ماحركت قلمي لذكر اسمه، وكان حظي من النظر فى مقاله هو العظة والاعتبار — حظ الناظر فى أحوال الأمم وأعمال رجالها — حظ المؤرخ الذي يقرأ ليفهم، ويفهم ليعلم ويحكم . ولا يهمه أخطأ القائل أو أصاب

أما ما جاء به في التحكك بأصول الدين، فهو الذي أغمزه بما أكتب اليوم.

يرى الناظر في كلام مسيو هانوتو لأول وهلة أنه مقلد في التاريخ كما هو مقلد في العقائد، وأنه جمع خليطا من الصور وحشرها إلى ذهنه . ثم هو سلط عليها قلمه ينثرها كما يشاء القدر ليدهش بها من لا يعرف الاسلام من الفرنساويين وهو جمهورهم

أكثر من ذكر التمدن الآري والتمدن السامي والتفريق بينهما، وأن أحدهما قهر الاخر، وأن التمدن الآري هو الذي ظفر بقرنه التمدن السامي، وما يشبه ذلك

إن مهد التمدن الآري — ومنبت غراسه (الهند) — لايزال الى اليوم على الوثنية التي يحبها مسيو هانوتو في أغلب أنحائه، ولكن أهله هم الذين قضوا على الآخذين بعقائدهم أن ينقسموا إلى أقسام لا يمكن الخلط بينها، بل يدوم تباينها ما دامت الارض أرضاً، ومن طبقاتهم من قضي عليه بالانحطاط في العقل والخلق والصناعة، ولا يباح له أن يرتقي الى طبقة مافوقه الى انقضاء العالم، وهو الجمهور الأغلب منهم . وفيهم من حكم عليه بالنجاسة، حتى لا يباح لأهل طبقة أخرى أن تمسه . والاعتقاد بفناء العالم، وأنه لا يليق بالانسان أن يهتم بشؤون العيش فيه هو مبنى عقائدهم

فهل جاء هذا للآخذين بدين البراهمة من التمدن السامي، وهو لم يعرفهم إلا فى آخر الزمان، ولم يخالط إلا قلوب القليل منهم، كما لا يخفى على من له إلمام بجغرافية البلاد الهندية؟

ثم هل يظن مسيو هانوتو أن التمدن الذي وصل اليه الأوربيون حمل إلى أوربا مع المهاجرين الاولين الذين رحلوا من البلاد الشرقية الآرية الى الاقطار الغربية؟

ألم يخطر بباله تلك العظائم التي انتفخ بها بطن التاريخ، وما كانت عليه أوربا الآرية من الهمجية، وأن العلم والمدنية لم ينبعا من معينها، وانما جاءها

بمخالطة الأمم السامية، كما يعلمه المطلع على تاريخ اليونان الأقدمين ، وهم أساتذة الاوربين الآخرين، كما يزعم مسيو هانوتو

ماهذا التمدن الآري الذي كانت عليه أوربا عند ماانتقص أطرافها المسلمون؟

هل كانت تلك المدنية هي التسافك في الدماء ، وإشهار الحرب بين الدين والعلم ، وبين عبادة الله والاعتراف بالعمل ؟ نعم !!! هذا هو الذي كان معروفا عند الغربيين وقت ماظهر الاسلام

ماذا حمل الاسلام الى أوربا ، وما هي المدنية التي زحف عليهم بها فردوها؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس ، وسكان آسيا من الآريين ، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين ، نظف جميع ذلك ونقاه من الأدران والأوساخ التي تراكمت عليه بأيدي الرؤساء في الأمم الغربية لذلك التاريخ ، وذهب به أبلج ناصعاً ، يبهر به أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا في ظلمات الجهالة لايدرون أين يذهبون

إني أكيل لمسيو هانوتو اجمالا باجمال ، والتفصيل لايجهله قومه ، وكثير من منصفيهم لم يستطع الا الاعتراف به

ان أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها الى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطع ضوءها من بلاد الاندلس على ما جاورها ، وعمل رجال الدين المسيحي على اطفائها مدة قرون فما استطاعوا الى ذلك سبيلا . واليوم يرعى أهل أوربا مانبت في أرضهم بعد ماسقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدي أهل دينهم في سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة

يحار القارىء لكلام مسيو هانوتو في معنى المدنية السامية التي جاء بها الاسلام ، وتصادم بها مع المدنية الآرية

ولعل عنايته بالالفاظ التاريخية مع قصوره عن النفوذ الى حقائق ماأودعته هو الذي قصر به عن النجاح في أعماله فى السياسة الخارجية بين أمة مثل الأمة الفرنساوية التي تنقاد بذكائها الى الأذكياء . والعارف بطباع الأمم لايعسر عليه

أن يقودها الى مايضمن لها الفوز على جيرانها . وانما العسر كل العسر أن يوجد فيها ذلك العارف اليوم

ان الناظر فى التاريخ تحمر عيناه من مناظر الدماء المتجددة على جليد الازمان ، ذلك مما سفكه أهل ذلك الدين المتحد بالمدنية الآرية ، ليقاوموا دعاة تلك المدنية السامية ويخمدوا نارها

ان صح الحكم على الأديان بما يشاهد في أحوال أهلها وقت الحكم جاز لنا أن نحكم بأن لاعلاقة بين الدين المسيحي والمدنية الحاضرة ، فان الانجيل بين أيدينا نقرأه ونفهمه ولا يغيب عنا شيء من دقائق معناه ، يأمر الانجيل أهله بالانسلاخ عن الدنيا، والزهادة فيها، ويوجب عليهم اذا سلبهم السالب قيصاً أن يعطوه الرداء أيضاً ، واذا ضربهم الضارب على خدهم الأيمن أن يديروا له خدهم الايسر ، وأن يفنوا بكايتهم في الآب ، ويقص عليهم أن دخول الجمل في سم الخياط ، أيسر من دخول الغني ملكوت السموات ، وما شابه ذلك من الوصايا الملكوتية، التي تليق برسول إلهي رباني يدعو الناس الى الانقطاع عن هذا العالم الفاني، ليليقوا بالانتظام في أهل ذلك العالم الباقي

هل خطر ببال مسيو هانوتو أن يجعل مالله لله ، وما لقيصر لقيصر، كما أوصى الانجيل ؟ وهل رأى مثالا لذلك في المدنية الآرية التي تآخت مع الدين المسيحي؟ العيان يدلنا على أن شيئاً من ذلك لم يكن . فان هذه المدنية إنما هي مدنية الملك والسلطان ، مدنية الذهب والفضة ، مدنية الفخفخة والبهرج، مدنية الختل والنفاق وحاكمها الاعلى هو الجنيه عند قوم والليرا (الفرنك) عند قوم آخرين ، ولا دخل للانجيل في شيء من ذلك

أوصى المسيح بأن يترك ما لقيصر لقيصر حتى لا يشغب المسيحيون على ملوكهم من غيرهم، فانقلبت الحال بهم وأصبحوا لا يحتملون أن يروا لهم رعايا من غير دينهم فضلا عن ملوك

نعم يوجد قوم الآن يقيمون أوامر الانجيل وهم جماعة من الاميركان تركوا بلادهم وخرجوا من ديارهم وأموالهم وجاؤا إلى القدس الشريف ينتظرون نزول

المسيح ليستقبلوه لأول هبوطه على المنارة المشهورة ، وليكونوا أول من يقبل قدميه ويديه . وهم من طهارة القلب وسلامة النفس ونزاهتها عن الطمع بحيث انقطعوا عن كل عمل سوى النظر في الكتب المقدسة . فان كانت هذه هي المدنية الآرية التي صارعها الدين الاسلامي فانا أول من يسلم لحججه ويقتنع بأدلته

من الساميين الفينقيون وهم أساتذة القوم في الصناعة والتجارة ، بل والقراءة والكتابة ، ومنهم الآراميون وقد كانت لهم مدنية لاتنكر أيام الرومانيين ، وما كان الغربيون لينكروا فضلهم في ذلك . ومبادىء الصناعة والعمل عند جميع الاقوام المرتقية في سلم الانسانية واحدة ، وإنما يختلف قوم عن قوم بما تحدثه في نفوسهم ضرورات المعيشة ، وما تجلبه عليهم عاصفات الحوادث ، وما تطبعه فيهم طبائع الاقاليم . ولا زالت الأمم يأخذ بعضها عن بعض في المدنية لافرق عندهم بين آري وسامي متى مست الحاجة إلى تناول عمل ، أو مادة ، أوضرب من ضروب العرفان ، لدفع ضرورة من ضرورة الحياة ، أواستكمال شأن من شؤونها . وقد أخذ الغرب الآري عن الشرق السامي أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل ، عن الغرب المستقل ، فلم يبق من معنى للمدنية يريده حضرة الكاتب إلا الدين ، وقد ظهر في كلامه أن الدين السامي يرادمنه التوحيد والدين الآري يعنى به مايقابله

واني أقرر لهذا الوزير الشهير حقيقة بديهية يعرفها صبيان المكاتب وهي أن دين التوحيد ليس ديناً سامياً ، بل هو دين عبراني فقط عرف به ابراهيم عليه السلام وبنوه ، ومنهم عيسى من جهة أمه وأصحابه وأنصاره الأولون . أما بقية الساميين من عرب ، وفينقيين ، وآراميين وغيرهم من الأمم المذكورة في الكتاب المقدس وهو يعرفها فقد كانوا وثنيين مشبهين ، ولم يخالفوا في ذلك بني عمهم أو أعداءهم الآريين . وقد خاض الكاتب في تفضيل التشبيه والتجسيم على التوحيد ، وذكر لذلك عللا وأسباباً أدته اليها سعة اطلاعه في الفلسفة وأحوال الاجتماع الانساني . وسنأتي على الكلام فيها وهي المقصد من مقالنا غداً إن شاء الله تعالى

وقبل إلقاء القلم أذكر الذين يتفانون في اجلال مثل هـذا الوزير كما يتفانى المسلم في الله على رأيه أني إن صغرت شأن هانوتو في معارفه التاريخيـة فذلك لأنه صغير فيها حقيقة ، وكثير من قومه يعرف ذلك منـه ، ولأنه لاأمير في العلم إلا العلم والسلام .

المقالة الثانية

في الرد على هانوتو

(وفيها تحرير الكلام في مسألتي القدر والجبر عند الآريين والساميين ، أو النصارى والمسلمين)

تحرش مسيو هانوتو بمسئلتين من أمهات مسائل الدين — القدر والتوحيد أو التنزيه ، وبعد أن خلط في بيان وجه الاشكال في المسئلة الاولى واختلاف الناس فيها قديماً ، وأنهم انقسموا إلى فريقين قائل بأن العبـد مسير بقدرة الله لاعمل لارادته في فعله، وذاهب الى أن خالقه وهبه اختياراً يتصرف به،فله ما كسب وعليه ما اكتسب ، قال إن الرأي الاول يحط الانسان الى حضيض الضعف ، والثاني يرفعه الى ذروة القوة ، ثم وصـل الاول بمذهب البوذيين القائلين بفناء الموجودات في الوجود الأزلي ، والثاني بمذاهب اليونانيين القـدماء الذين يدينون بتشبيه الآله بالانسان في أوصافه المادية ، وأن الاول قعـد بأهـله ، والثاني ارتفع بمعتقـديه الى مراتب الـكمالات الانسانيـة ! ! وهو خلط وخبط لم يعهد لهما مثيل .

ثم انصب على الديانتين المسيحية والاسلامية وقال انهما تمثلان ذينك المذهبين أي مذهبي الناس في القدر . وأن الأولى ربانية ورثت ماترك الآريون، والثانية بشرية أخذت ماترك الساميون ، وأن الأولى ترقى بالانسان إلى المقام

الالهي ، والاخرى تنزل به إلى أسفل درك حيواني ، ويظهر ميل كل من الدينين ظهوراً بيناً في الأصل الذي بني عليه كل منهما . فأصل الأول هو ايجاد الاله الاب للاله الابن حتى كان إلهاً بشراً واتصال الالهين بروح القدس . وأصل الثانية تنزيه الاله عن البشرية وتقديسه إلى حد تنقطع فيه النسبة بينه وبين الانسان ، ثم رجع بعد هذا إلى الخلط بين الدينين وردهما إلى أصول واحدة وعقد التشابه بينهما، الى آخر ماأطال به على غير جدوى

هل عهد بين الكتاب وأهل النظر تشويش في الفكر ، وخلل في المقال ،يشبه ماجاء به هذا الكاتب ؟ أدع الحكم في ذلك لمن له أدنى إلمام بمذاهب الأمم وآرائهم

لم يختص الكلام في القدر بملة من الملل مشبهين أومنزهين، ولادخل للتشبيه والتنزيه في شيء من ذلك ، بل كان منشأ الكلام في ذلك الاعتقاد باحاطة علم الله بكل شيء وشمول قدرته لكل ممكن

وقد عظم الخلاف في المسئلة بين المسيحيين أنفسهم وهم مشبهة في رأي مسيو هانوتو ، وبدأ النزاع بينهم قبل الاسلام ، واستمر الى هذه الأيام ، ولعل هانوتو اطلع على مذهب التوميين — اتباع القديس توما — أو الدومينيكيين وهم جبرية ،وأشياع (لويولا) وهم قدرية اختيارية . ولكل من المذهبين شيعة بين أهل الملة المسيحية . وليس هذا بمذهب سامي كما يزعم ، بل لم تنبت أصوله ولم تتشعب فروعه إلا بين الآريين ثم انتقلت عدواه الى غيرهم

هل سمعت بيهودي استلقى على قفاه وترك العمل اتكالا على القدر ؟ هل سمعت بأحد من الفينيقيين (وقد وصلوا بزوارقهم ذات المجاذيف إلى جزائر بريطانيا) أنه كان ينام ويتلذذ بالاحلام اعتماداً على مايسوقه اليه الغيب ؟ لكن سمعنا بذلك في الاديار وبين الرهبان ، وعرفنا أخبار ذلك الجيش العرمرم من المتكدين الذين كانوا يعيشون عالة على الناس حتى ضجت منهم أوربا في زمن من الأزمان ،وطلبت الخلاص منهم بالصارم البتار

وقد اشتهر مذهب أهل البخت والاتفاق بين اليونانيين ولم يخف أمره على

صغار المتعلمين لمبادىء الفلسفة — ذلك المذهب الذي يبتدئون كتب الفلسفة بابطاله ،وهو مذهب القائلين أن الاشياء توجد بالاتفاق أو بالمصادفة ، ولا يحتاج الممكن في وجوده الى سبب . أليس هذا أدخل في باب الجبرية من اسناد كل أمر الى خالق الكون ؟ وهل يرتفع هذا المذهب بمعتقده الآري إلى منازل الرفعة ومكانات الشرف ؟

جاء القرآن الشريف — وهو الكتاب المنزل بالاسلام — يعيب على أهل الجبر رأيهم وينكر عليهم قولهم (لو شاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) بقوله (كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) وأثبت الكسب والاختيار في نحو أربع وستين آية . وما جاء به مما يتوهم الناظر فيه مايخالف ذلك فانما جاء في تقرير السنن الالهية العامة المعروفة بنواميس الكون كما في آية (ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة) الخ ونحوها

والعاقل يرى الفرق الجلي بين مسئلة اختيار العبد في أفعاله و بين أثر القدرة الالهية في أخلاق الأمم ، أو في تغريز الغرائز مثلا . فاختيار العبد في أفعاله مما يقرر به الوجدان ، ولا ينكره إلا من جهل نفسه ، لكن ماعليه الأمم من الاختلاف في الطبائع والغرائز والسجايا ليس لأحد من خلق الله فيه اختيار ، بل خلقه كخلق السموات والأرض وما بينهما

وجاء النبي صلى الله عليه وسلم في عمله وقوله بما يؤيد ذلك، فكان العامل الذي لايكل ، والدائب الذى لايمل ،والساهر الذي لاينام، والجاد الذي لم يبلغ شأوه أحد من الأنام ، هل نقل عنه أنه اتكأ يوما على وسادته واكتفى بالتسليم للقدر في إتمام دعوته قائلا : الذى كفل لي النصر يكفيني التعب ، وضمان الله لاعلاء كلمة دينه تغنيني عن النصب ؟ كلا بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة إلا نشاطاً، ولا تجد العصمة الالهية من نفسه إلا حزماً واحتياطاً

جاء أصحابه على أثره وتبعهم من جاء بعده من السلف الأولين، وكانوا أكمل الناس إيماناً باحاطة علم الله وشمول قدرته ، وأعرف الناس بقدر ما آتاهم الله من

قوتي العقل والاختيار ، وكانوا أسوة في السعي، ومثلا في الدأب والكسب، حتى كان من آثارهم في نشر الاسلام ما يتألم منه اليوم هانوتو وأمثاله

هذه هي العقيدة السامية، أو الدعوة المحمدية ، أو المدنية الاسلامية ارتقت بأربابها وهم من أهل البداوة في قاصية من الأرض لم يتلمظوا بشيء من نعيم الحضر ، ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة ، حتى بلغت بهم مابلغت ، واستوت بهم على عروش العزة والسلطان ، ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل ، مبلغاً مكنهم من التلطف بالأمم حتى وقفوا على ماكان خفياً لديها ، وكشفوا ماكان مستوراً عندها ، واستخرجوا من كنوز معارفها ماظهر فضله على الأوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية

ولكن وا أسفاه! نتأت رءوس بين المسلمين ، كأنها رءوس الشياطين ، واحتملت غثاء من قمش الآريين ، وقذفت به في الأرض الطاهرة فتدنس به أديمها ، وانتشر قذره ، وعظم ضرره .

جاء الموالي من عجم الفرس والرومان[1] ولبسوا لباس الاسلام وحملوا اليه ماكان عندهم من شقاق ونفاق ، وأحدثوا في الدين بدعة الجدل في العقائد، وخالفوا الله ورسوله في النهي عن الخوض في القدر ، وخدعوا المسلمين ببهرج القول وزور الكلام ، حتى كان ماكان من تفرقهم شيعاً ، والله يقول لنبيه (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء)

وجد بين المسلمين طائفة تعرف بالجبرية ، ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة يقذفها الحق ، ويطردها العقل ، وينبذها الدين ، حتى انقرضت بعد ظهورها بقليل ولم تبق بينهم بقاء التوميين بين النصارى . وغلب على المسلمين مذهب التوسط بين الجبر والاختيار ، وهو مذهب الجد والعمل ، وصدق الايمان ، وأخذه عن المسلمين في أخريات الايام أهل النظر من النصرانية مثل « بوسويه » ومن مال ميله وتبعهم الجمهور الاعظم منهم

ولكن لا أنكر أن الزمان تجهم للمسلمين كما كان قد تنكر لغيرهم ، وابتلاهم

(١) أي وكلاهما من الآريين

بمن فسد من المتصوفة من عدة قرون فبثوا فيهم أوهاماً لا نسبة بينها وبين أصول دينهم ،فلصقت بأذهانهم لا على أنها عقائد ، ولكنها وساوس قد تملك الجاهل ، وتربك العاقل ،اذا لم يغلبها بعوامل الدين الصحيح فنشأ الكسل ،بين المسلمين يغشو الجهل بأصول دينهم ، وعاون على ذلك ميل الاعلياء منهم الى توريطهم فيما هم فيه كما هو شأنهم فى كل أمة

وهذا الضرب من المتصوفة أيضاً من حسنات الآريين فانه جاءنا من الفرس والهنود بما بقي فيهم من عقائدهم الأولى

ما أضل هانوتو وأمثاله من قصار النظر إلا أولئك الدراويش الخبثاء أو البله الذين يغشون أطراف الجزائر وتونس ، ولا يخلو منهم اليوم قطر من أقطار الاسلام ،ممن اتخذ دينه متجراً يكسب به الحطام ، وجعل من ذكر الله آلة لسلب الأموال من الطغام

أما لو رجع المسلمون الى الحقيقة من دينهم لأدوا فرضهم،واستنبتوا أرضهم واستغزروا من الثروة ، وأعدوا لفرنسا ما استطاعوا من قوة ، واعتمدوا فى نجاح أعمالهم على معونة القدر ، وأيقنوا فى صولتهم علماً أن ليس من الموت مفر ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها ، ونال ماينال القوي من الضعيف ، والعزيز من الذليل ، ولا نقلب جنونهم لدى هانوتو عقلا ، ويحول هذيانهم حكمة وعلماً

هـذا مايتعلق برأيه الضئيل فى مسئلة القدر عنـد المسلمين . أما التنزيه والتشبيه فانا نوفيـه حقه فى تتمة هـذا المقال ، ونشفق على القارىء اليوم من الاملال . والسلام »

المقالة الثالثة

فى الرد على هانوتو

(وفيها تحرير القول في التوحيد والتنزيه ، وتجسد الالوهية والتشبيه)

اليوم آتي على آخر القول لكسر شِرَّة هانوتو فى توثبه على الاسلام ، وما نعني بالكلام فيه اليوم هو التوحيد والتنزيه وخصمه التشبيه والتجسيد (الاعتقاد بتجسد الالوهية) ونبدأ بالكلام فى الثاني ، ونختم بالحديث عن الاول

ان كان مسيو هانوتو قرأ شيئاً فى أحوال الأمم ونشأة العقائد ، وعقله يعلم أن الوثنية وتوهم السلطان الالهي ظاهراً فى بعض الموجودات المادية كانت عقيدة الواقفين على أبواب الانسانية لم يدخلوها ولم يتوسطوا منازلها ، وكانت ولا تزال دليلا على انحطاط عقول أهلها ، مع تفاوت فى درجات ذلك الانحطاط ، تبتدىء من وثني أفريقية وتنتهي إلى بوذيي الصين وبرهمن الهند

كلما ارتقى الانسان فى العلم ، ولطف وجدانه بالفهم ، ونفذ عقله فى أسرار الكون ، تمزقت دون روحه حجب المادة ، وانجلى له الوجود الأعلى ، على تفاوت كذلك فى درجات الظهور والانجلاء ، تنتهي إلى الاعتقاد بوجود واحد واجب يستحيل عليه أن يلبس لباس المادة على النحو الذي يظنه مسيو هانوتو وأمثاله ، لأن مالا حد له محال أن تحيط بوجوده الحدود

وقد كان هذا شأن اليونانيين الذين يفتخر هانوتو بمدنيتهم : نشؤا وثنيين ، ولا زالت الوثنية ترقّ وترثّ بارتقائهم فى العلوم ، وبحث فلاسفتهم في طبائع الكائنات حتى انتهوا وهم في ذرى مدنيتهم إلى التوحيد وتنزيه واجب الوجود عن مخالطة المادة . وقف فيثاغورس على عتبة التقديس ، وجاء بعده سقراط وأفلاطون وأرسطو مجاهدين في كشف الغمة عن عيون شعوبهم ، باذلين الوسع

في محو ماغشي نفوسهم من ظلمات الوثنية الأولى ، ومن قرأ جمهورية أفلاطون التي نقلت إلى العربيــة أيام المأمون تحت اسم (المدينة الفاضلة) علم كيف كان يقارع أفلاطون مابقي من آثار الوثنية من الآراء السخيفة ، والعادات الرديئة ، التي كانت تحول بين الأمة اليونانية وما ينبغي لها من الفضائل التي كان يطمع الفيلسوف أن تكون عليها

وبعد أن أوصلهم العلم إلى التوحيد لم يرتد بهم التنزيه إلى الجهل ، بل بقيت شمس مدنيتهم تشرق في العالم قرونا متعددة ، وكانت أشد صفاء وأبهر سطوعا

كذلك قدماء المصريين لم يقف بهم العلم دون التوحيد غير أن رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم واستبقوا صور العبادات الأولى ، وألبسوا التنزيه ثوب التشبيه ، استئثاراً منهم بشرف العقيدة على من دونهم

فترى ضعف العقل وقلة العلم ونقص الادراك تقف بصاحبها عند الوسائط . وقوة العقل ، ونفوذ البصيرة ، وسعة العلم ، تصعد بأهلها إلى مشهد الوجود الأعلى ، وتشرق بهم من هنالك على العالم بأسره ، فيرونه عظيمه وحقيره سواء في النسبة إلى تلك القدرة الشاملة والعظمة الغالبة — الفاضل والمفضول ، والفروع والأصول ، وما ظهر للأبصار ، وما نفذت اليه العقول ، كل ذلك يستمد وجوده من مشرق الوجود على مراتب قدَّرتها الحكمة ، وتمت بها النعمة ، فأي مقام أعلى من مقام صاحب هذه العقيدة حيث قام شاهداً على الكون بجملته ، مافصل منه في فهمه ، وما أجمل في كليات علمه ، يحكم عليه بأنه مربوب لرب واحد هو ربّ العالمين ، وأن لاسلطان لشيء من هذا جميعه على نفسه لافي الايجاد ولافي الامداد ، بل هو وحده يمكنه بما سن له الشرع الآلهي أن يصــل بنفسه إلى تلك الحضرة ، وأن يستمد منها المعونة في كل شؤونه

ينقسم أهل التشبيه الى قسمين أحدهما من يعتقد الالوهية في بعض الموجودات المشهودة ، ويقف منهــا عند مايعتقد منها . والآخر يعتقد بأن بارىء الكون يظهر في بعضها

أما الأولون فهم الذين ضعف الادراك فيهم عن الاحاطة بحقائق الاكوان

فاذا ظهرت عليهم آثار قوة من القوى أو سلطة حيوان من الحيوانات ظنوه المنفرد بالقدرة عليهم ، وأنهم اليه يرجعون في جميع أمورهم ، فهؤلاء يسلطون على أنفسهم ماشاؤا وشاء لهم الجهل من جماد وحيوان وانسان ، ولا يزالون حيارى في شؤون حياتهم حيرتهم بين معبوداتهم ، ثم هم يقيسون معبوداتهم بأنفسهم لأنها ليست بأبعد منهم في النوع أو الجنس ، ويقدرون لها رغائب وشهوات تفوق رغائبهم وشهواتهم ، يسارعون في إرضائها بما يعن لهم ، وبما تشرعه لهم أهواؤهم ، ومن ذلك كانت ترتكب القبائح في هياكل الآلهة ، وتنتهك حرمات الفضائل في محاريبها ، وتقدس الذبائح الانسانية، بين يدي التماثيل الحجرية ، وأي درك ينحط اليه الانسان أنزل من هذا ، وأمر ذلك معروف في التاريخ ، ولا تزال مشاهده إلى اليوم معروفة

وأما الآخرون فهم أرقى درجة من أولئك في الادراك ولكن ماذا أصابهم ويصيبهم من ذلك الاعتقاد ؟ كانوا اذا فاقهم انسان في عقل أوشجاعة ، أوصدر منه مالا يألفون من الاعمال ، أو ظهر بما لا يعرفون من الاحوال ، ظنوه مظهراً للوجود الالهي، فدانوا لسلطانه ، واستكانوا لقهره ، وأخذوا أنفسهم بالخضوع لارادته ، فسلبهم كل ما كانوا يملكونه من عقل وارادة وعزم ، وحق عليهم الصغار ماداموا على تلك العقيدة

وقد سهل هذا الوهم على كثير من أهل الدهاء أن ينزلوا من الناس منازل الآلهة طمعاً في استعبادهم . وكم قاست الأمم من الرزايا التي جلبتها عليهم هذه العقائد الضالة

ويقرب من هؤلاء قسم ثالث ليس بخير من القسمين الآخرين وهم المعتقدون بالوسائط . ماقدروا الله حق قدره، فقاسوه على الكبراء وأهل السمو منهم، فظنوا أنه في ملكوته ، كملك في جبروته ، يصطفي لنفسه مدبرين من خلقه، ويستصنع عمالا للتصرف في شؤون عباده ، فاذا امتاز أحدهم بما يعتقدونه زلفى إلى الله ، أو صدر منه مايظنونه دليلا على أنه من المقربين اليه ، رفعوه الى تلك المنزلة — منزلة الاصطفاء للتصرف في الكون — فاتخذوه شفيعاً لديه ، يلجؤن اليه في مهمات أعمالهم ، ويستجدون منه المعونة بما له من الدالة على ربه . واذا سئلوا

عما يفعلون ، وما به يدينونا ، قالوا « مانعبدهم إلا ليقربون اليه زلفى »

ماذا أصاب هؤلاء من شر مااعتقدوا ؟ استعبدوا للسادن والكاهن، والزعماء ووارثيهم ،واستسلموا لهم في جميع شؤونهم ، فكانت علومهم من أوهامهم وافهامهم واقفة عند خيالاتهم ، ينكرون الاوليات من المعلومات ، اذا توهموا أنها تخالف تلك الموهومات التي تلقوها من زعمائهم . ثم كانوا يتركون وسائل العمل اتكالا على مايستمدونه منهم ، ولا يزال التاريخ يشهد على ماقاسته الانسانية من بلايا هذه العقائد ،والعيان يؤيده في كثير من الامم في الشرق والغرب إلى اليوم

هذه مفاسد الوثنية وماجاورها لاينكرها مطلع على مبادىء العلوم الصحيحة، بل يعرفها كثيرون من العامة الذين لم ينشؤا في جوها الفاسد

أما زعم هانوتو أن وثنية اليونانيين كانت ترتقي بالافراد في سلم الفضائل طمعاً في نيل مرتبة الالوهية، فهو زعم لم يقل به من المسيحيين سواه فيما أعلم .ولم يقل أحد من اليونانيين أنفسهم إنهم كانوا يسعون في كسب الفضائل من طريق التوصل إلى مقام الالوهية ، ولا إن الالوهية البشرية تركت فيهم أثراً صالحاً ، بل لم تورثهم إلا تلك الرذائل التي قام سقراط وأفلاطون لمحاربتها . وأما السعي إلى الفضائل فكان للتقرب لاربابها كما هو معلوم

وأما حكمه على المسيحية بأنها من ناحية الديانة اليونانية فذلك أدع الكلام فيه إلى المسيحيين أنفسهم . ولكني أقول إن المسيحية بذلت وسعها في بداية أمرها لتطهير الارض من الوثنية التي كان الناس عليها في عهدها ، وجاهدت من تلوث بعقائدها من اليهود والرومانيين ، وانبث رجالها بين الوثنيين يدعونهم إلى الاله الواحد . وكان التنزيه قوام دعوتهم، كما يعلمه المدقق في فهم كلامهم ، ولم تظهر آثار التشبيه فيها إلا بعد قرون من نشأتها ، وتاريخ الامبراطور قسطنطين معروف عند أهل التاريخ وغيرهم لاحاجة إلى تفصيل ماكان منه

ثم لما امتد الغلو في التشبيه ظهرت المظالم ، وعظمت المغارم ، واختنق العلم، وخسيء العقل ، وتهدمت أركان النظام ، واستشرى الفساد في الأمم النصرانية حتى ظهر الاصلاح وقضى على ماسبقه ، واستقامت أوربا في طريقها المعروفة اليوم،

وقد أشرنا إلى شيء من أسباب ذلك

لم نسمع أن أحداً من المسيحيين يعبد الله لينال رتبة المسيح فيكون إلهاً بشراً كما يؤخذ من عبارته . ولم نر أثراً لأحدهم يدل على أنه عقل عقيدة التثليث على هذا النحو الذي ذكره . ولكنهم يصرحون بأنها عقيدة لامجال للعقل فيها، فلا مكنة له في أن يحتذيها ، وقد قامت طوائف منهم في أزمان مختلفة تصرح بأن فرقا بين ما لا يصل اليه العقل وما يناقض حكم العقل ، وذهبت الى أن المسيح لم يكن الا نبياً مختاراً بعثه الله لخلاص البشر من سلطان الشيطان ، وحملوا الابن على المصطفى (المختار) والأب على الرب الرحيم * وأعرف بعض طوائف البروتستانت اليوم وان كانت قليلة العدد يذهب الى تأويل الكلمة بالعلم وروح القدس بالحياة وقد لاقيت بعضهم في بعض أسفاري وأكد لي أن لهم شيعة تدين بذلك

وهل كانت المسيحية في سالف الأزمان تجاهد من حولها من الوثنيين لتخرجهم من وثنية الى وثنية ؟ نعوذ بالله من هذا الخبط الصادر من محب غير عالم

اني أرفع أدبا من أن أطعن في عقائد المسيحية في جريدة ، وقد أمرت أن أجادل بالتي هي أحسن ، ولكني أرجع الى الكلام في الآثار التي عني هانوتو باتخاذها دليلا

جاء الاسلام يدعو العالم بأسره الى التوحيد ، وصرح بان دين التنزيه هو دين الله من لدن آدم ونوح وابراهيم الى موسى . ثم هو دين الانبياء بعد موسى، ودين خاتم رسل اسرائيل عيسى عليه السلام ، ولم ينكر أن في اليهود وفي المسيحيين خصوصاً أهل تنزيه، وذكر أن منهم من مال الى التشبيه ودعاه الى الرجعة الى أصل دينه حتى يقوم بالعبادة لله وحده، ويعتق من سلطة الرؤساء والزعماء الذين اغتصبوا عقله ،وملكوا هواه وهمه

هبت الوثنية واليهودية والنصرانية لمناوأة الاسلام ، وكانت أكثر عدداً ، وأوفر عُدداً ، وأعظم قوة ، وأشد بأساً ، فلم يكن الا قليل من الزمن ثم ظهر الحق ونفذ شعاعه الى القلوب ، فدخل الناس فيه أفواجاً من كل ملة من هذه الملل، فاعتقت الهمم، وافتكت العزائم من أسرها ، وأخذ كل يطلب من الكمال

مايُعدُّه له استعداده الممنوح له من واجب الوجود . وأخذ المعتقدون بالتوحيد والتنزيه يشرفون من شرفات الايمان على أسرار الوجود ، ومزقوا تلك الحجب والاوهام ، واتصلوا بينابيع العلم من الفكر والنظر والدين ، ولم يكد أهل الملة يستريحون من الشغب الذي هبت ريحه بينهم ، حتى سطعت أنوار العلم فيهم ، ولم يبق باب من أبوابه الا دخلوه ، ولا مرتقى من مراقيه الا علوه ، ولم يبق متروك من مخلفات اليونان والفرس والرومان الا استخرجوه من زوايا النسيان، وجلوا صدأه وأبرزوه للأنظار

هذا أثر الاسلام وهو دين التنزيه . ولم يكد ينتهي القرن الثاني من ظهوره حتى جال المسلمون في علوم السموات والأرض ، وصححوا الأغاليط ، ونقحوا القواعد ، وحرروا الأصول . وفي مفتتح القرن الثالث أقاموا المراصد ، ومسحوا الأرض ، وأتوا في ذلك بما هو معهود لأهل العلم في ديارنا وديار موسيو هانوتو

اني أكتفي فيما يقابل هذا بقول جماعة من أهل النظر في الامم الغربية اليوم: أقامت النصرانية في الارض ستة عشر قرنا ولم تأت بفلكي واحد . وأخذ المسلمون يبحثون في هذه العلوم بعد وفاة نبيهم ببضع سنين ، ومع هذا لايعدّ ذلك طعناً في أصول الديانة المسيحية ، وانما هو طعن في تصرف القائمين عليها والمحرفين لها عما جاءت له

يظن هانوتو أن الاسلام قطع الصلة بين العبد وربه ، ولكنه وهم في ذلك، فان الاسلام أفضى بالعبد الى ربه ، وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبيعه رضاه — قضى الاسلام بأن لايكون للكون الا قاهر واحد ، يدين له بالعبودية كل مخلوق ، وحظر على الناس مقامين لايمكن الرقي اليهما ، مقام الألوهية التي تفرد بها ، ومقام النبوة التي اختص بمنحها من شاء ثم أغلق بابها، وما عدا ذلك من مراتب الكمال فهي بين يدي الانسان ، ويناله استعداده ، لايحول دونها حجاب الا ما كان من تقصيره في عمله ، أو قصوره في نظره

اذا اعتقدت بقصور فضل الله عنك وقفت نفسك حيث وضعتها ، ولن تستطيع إلى التقدم سبيلا ، هكذا يرفع الاسلام الصحيح نفس صاحبه ، وهذا

هو معنى الاسلام والاستسلام الذي أخطأ في فهمه (مسيو هانوتو) فهل بقي الانسان مع هذا المعنى من الاسلام في درك من الحيوانية، وفي هجرة عن التوسل بالاسباب إلى مسبباتها في كسب الفضائل والكمالات

يجب على الباحث في الاسلام أن يطلبه في كتابه كما يجب عليه أن يطلب آثاره والاسلام إسلام، والمسلمون مسلمون . ولو استشمّ مسيو (كميون) الذي استشهد(هانوتو) بكلامه ريح العلم لما استفرغ ذلك القذر من فيه، ولا حاجة إلى الكلام فيه، فسخافة رأيه وقلة أدبه تكفيه

من أين أتى المسلمون؟ وكيف دخل عليهم في عقائدهم بالتشبيه، وفي عوائدهم بالتمويه؟ وممن تعلموا الافتراس؟ وعمن أخذوا الضراء بالشهوات؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون، والله من ورائهم محيط:

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعا بذراع حتى سقطوا في مساقطهم، وطارحوهم الأوهام حتى انجروا إلى مطارحهم، وباؤا بما كان لهم وما عليهم حدثت في الدين بدع أكلت الفضائل، وحصدت العقائل، وترامت بالناس الى حيث يصبّ عليهم ما استفرغه (كميون)

أما لو رجع المسلمون الى كتابهم، واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم، لسلمت نفوسهم من العيب، وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله اليه في تنزيله، وعلى لسان نبيه، ومهده لهم سلفهم، وخطه لهم أهل الصلاح منهم، واستجمعت لهم القوة، ودبت فيهم روح الفتوة، وكان ما يلقاه(هانوتو وكيون) من دين صحيح، شراً عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع

يرى(كميون)أن يخلى وجه الارض من الاسلام والمسلمين، ويستحسن رأيه هانوتو لولا ما يقف في طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين، وبئسما اختارا لسياسة بلادهما :أن يظهرا ضغنهما، ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما

أما فليعلما وليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما أن الاسلام إن طالت به غيبة، فله أوبة، وإن صدعته النوائب فله نوبة . وقد يقول فيه المنصفون اليوم من الانكليز مثل سحق طيلر وهو قس شهير ورئيس في كنيسة :

« إنه يمتد في أفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والاقدام من أنصاره »

ويأسف أشد الأسف من أن السكر والفحش والقمار انتشرت بين السكان بانتشار دعوة المبشرين بينهم . وقال « إنه يختار إسلاماً لاسكر فيه على مسيحية فيها سكر » ثم هو لا يزال ينتشر في الصين وغيره من أطراف آسيا . وسترشده الحوادث إلى طريق الرجوع الى طهارته ، وتنثني به الملمات الى ما كان عليه لأول نشأته ، وتدرك عند ذلك الأمم منه خير ماترجو ان شاء الله

لو أسلمت الأمة الفرنساوية بأسرها وفي مقدمتها مسيو هانوتو ، وكانت معاملتها لغير الفرنساويين على مانعهده في الجزائر ومدغسكر هل ترجو من سكان مستعمراتها أن يميلوا اليها ، وأن لا ينتهزوا الفرص للثورة عليها ؟ كلا . فما ظنك بالمسلمين وهم يسمعون قصف هذا الرعد ، ولا يرون من المتغلبين عليهم إلا الجد في اهلاكهم ، والدأب في افنائهم

إن العدل ورعاية الحقوق ، واحترام المعتقدات بعد معرفة أصولها هي التي تخفف على المغلوب سلطة الغالب ، وتدنو به منه ، وتهون عليه الرضاء عنه ، ولكن هانوتو وأترابه من ساسة الفرنساويين لا يعرفون شيئاً من هذه الأركان الثلاثة ، ولا يزالون يهرفون بما لا يعرفون ، حتى يصلوا الى ما كانوا يحسبون ، فلينتظروا انا معهم من المنتظرين اه

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ لما نشر هذا المقال انبرت جريدة الاهرام للمناقشة فيه والرد على كاتبه ، زاعمة أنه مبني على تحريف في ترجمة مقال هانوتو ولكن شهد كثيرون من العارفين بالفرنسية أن الترجمة صحيحة ، ومنهم صاحب جريدة اللواء . ولما اطلع مسيو جبرائيل هانوتو على ما كتب في الاهرام الفرنسية كتب مقالة أخرى في جريدة (الجرنال) موضوعها ﴿ الاسلام أيضاً ﴾ وترجمتها جريدة المؤيد في عددها (٣٠٦٦) الصادر فى ٢٢ المحرم سنة ١٣١٨ (٢١ مايو سنة ١٩٠٠) حاول فيها الاعتذار عما رمي به من ناحية السياسة التى تغري دولته بالمسلمين ، ولم يستطع الجواب عما خطأه به الامام من المسائل الاعتقادية والتاريخية

ثم زاره صاحب الاهرام (بشارة باشا تقلا) الذي تولى الدفاع عنه أو تخطئته الامام في الرد عليه فيما ذكر آنفا ودار بينهما حديث في هذا الموضوع نشره في العدد ٦٧٨٥ من الاهرام الذي صدر في ١٦ يوليو سنة ١٩٠٠

وقد رأينا أن ننشر المقالين ونثني عليهما برد الامام الاخير وهذا نص مقال هانوتو :

الاسلام أيضا

من المسلم أنه يتعذر عليّ الرد فى هذه الجريدة على جميع الرسائل التي ترد اليّ بشأن ما أنشره فيها من الفصول والمقالات ، ولذا أشكر جميع الذين راسلوني شكراً جزيلا . وأرجوهم أن يعتقدوا ويثقوا بأن ما أشاروا به عليّ وأبانوه لي محفوظ فى مخيلتي ، ولا يبرح ذاكرتي . وانني أجد في تبادل الأفكار على هذا المثال خير معوان وأحسن مشجع . وبالرغم مما يخالجني من الميل الى عدم قصر البحث فى نوع خاص من الموضوعات ، أرى أن لامندوحة لي من العود الى بعض المناقشات التي أثار عجاجها الفصلان اللذان نشرتهما حديثاً في مسئلة الاسلام . والحق يقال انني أصبحت بسببهما — كما يقال — بين نارين . فالمسيحيون ألحوا عليّ بالتعنيف واللوم قائلين انني تظاهرت بالميل للاسلام ، واتخذني المسلمون خصما لدوداً لدينهم ، وهو ما يثبط همة الانسان عن اتباع خطة المسالمة والتوفيق لو لم يعرف من قديم الزمان أن الذين يتصدون الى بيان الحقائق بالتصوّر والتعقل انما يشبهون سندان الحداد تتلاقى فيه ضربات المطرقتين

ويجب قبل الدخول فى الموضوع أن أشير الى طريقة من الجدل كان الجهل بلغتنا — وهو في نظري أكثر تأثيراً من سوء القصد — سببا في اتباع بعض الجرائد الاسلامية لها وسيرها على سننها . فان جريدة المؤيد التي تظهر في مصر القاهرة قد نشرت ترجمة أو بالاحرى خلاصة فاسدة من الفصلين اللذين

كتبتها على الاسلام . ولعل القراء يذكرون أنني أوردت فيها آراء (كيمون) التي أبداها في كتابه (باتو لوجيا الاسلام) وان ايرادي لها كان على سبيل الحكاية والنقل، اذ اشرت الى خطر شدتها ، وابنت العواقب الضارة التي يفضي اليها الجدال السياسي في الخواطر السريعة التأثر والانفعال ، ولكيلا يختلط على الذهن شيء من اقوال كيمون التي اوردتها وضعت في آخر كل عبارة من عباراته كلمتي (انا انقل، انا انقل) محصورتين بين قوسين دفعاً للالتباس ومنعاً للشك

بالرغم من هذه الاحتياطات نسبت إليّ تلك الأفكار التي عمدت إلى دحضها ، وإظهار فسادها ، حتى إن أحد كبار أئمة الدين الاسلامى كلف نفسه مؤنة الاجابة في جريدة المؤيد على أفكار ليست أفكاري ، بل هي نقيض ماذهبت الى تعضيده واستحسانه في بحثي . ولذلك أرى أن ذلك الامام العظيم صار في بحثه أشبه بمن يدفع بابا مفتوحا من ذاته ، سواء قرأ ما سطرته في الاصل الفرنسوي أو وقف عليه من الترجمة ، إما أنه لم يفهم مرادي ، وإما أن الترجمة كانت فاسدة ، لم تتوفر فيها شروط الأمانة ، لذلك أناشده بذمته الطاهرة أن يوقف من يأتمرون بأمره ويصيخون لأقواله على حقيقة فكرتي التي كشفت النقاب عنها في آخر مقالتي وكلها احترام واعتدال ، ومسالمة وتوفيق، على أن احدى الجرائد العربية التي تنشر بمصر ، ولها شهرة فائقة في جميع العالم الاسلامي ألا وهي جريدة الاهرام قد أتت بتلك الملحوظات أحسن مما استطيع ايرادها به فان محررها (المسيو تقلا) الكاتب الشهير الذي يدير في آن واحد جريدة البيراميد الفرنسوية قد اقتفي أثر ملحوظات الامام فرد عليها نقطة نقطة ، ولم يبق لي بعد مناقشته التي روعيت فيها أساليب اللطف والحذق مجال للكلام ، أو شيء كثير من القول أضمه الى قوله . على أنني أستنتج من هذا الحادث عبرة تزداد قوتها في نظري كلما تقدمت فى طريق العمر ، وحبوت نحو الشيخوخة ، وهي أن منشأ المشاكل والصعوبات التي تقوم بين الناس سوء التفاهم ، والخطأ في معرفة بعضهم مقاصد بعض إذ كثيراً ما كان الغلط الناشيء من سوء تلاوة كلمة ، أو القصور عن ادراك معنى جملة ، أو فهم مغزى رأي ، أو مرامي حيلة من حيل المناظرة ،

سبباً في جر ّ مالا يحصى من المصائب ، بل سببا في انشقاق قوم كانت تجمعهم لحمة الاتحاد ، ورابطة الجوار ، وكانوا إلى الالتئام والاتفاق أقرب منهم إلى الخلف والانشقاق

ولو أمكن محوما تراكم شيئاً فشيئاً حول مايقع بشأنه سوء التفاهم من العواقب الضارة ، والشدائد التي لافائدة منها ، وتيسر العود الى النقطة الأولى التي كانت مبدأ النزاع ، وسبب الاختلاف ، لاندهش الانسان من السهولة في تذليل الصعاب ، وتمهيد المشاكل التي جعلت الفارق عظيما ، ومسافة الخلف بعيدة . ولقد قيل إن العالم ميدان يتنازع فيه بنو الانسان ، وهو قدر مقدور لولاه لتعذر على الفهم أن يدرك كيف تكون مقدمات أمثال تلك النتائج البالغة في الرداءة والسوء مبلغاً عظيما تافهة ، وأسبابها بسيطة الى هذا الحد ، حتي لقد تمر على الانسان لحظات يسائل فيها نفسه عما اذا كان في الامكان اصلاح ماانثلم من حوادث التاريخ باجتهاد الناس في فهم بعضهم مقاصد بعض على فرض أن تبادل المودة فيما بينهم لم يكن من الأمور المتاحة لهم

ومن الأمور التي كان لايزال خاطري منصرفا اليها أن المسائل المشكلة ولو كانت من أهم المسائل وأخطرها ، تتضمن في ذاتها الحل الملائم لها ، والمطابق للانصاف والسلام . وكنت ولا زلت على اعتقاد وطيد في المباحثات المتعلقة بمصلحة من المصالح وفكرة من الأفكار بانه متى كان الطرفان على جانب من طهارة الذمة وحسن النية ، وجعلا غايتها القصوي المسالمة والاتفاق ، واتخذا لذلك وسائل الحكمة والتدبر ، وصدق اجتهادهما في التجرد عن الأهواء ، فانهما يصلان الى نقطة تتفق فيها مقاصدهما ، وتتطابق رغائبهما

اعتقدت دائما أن للسياسة على الخصوص مهمة في هذا المعنى ينحصر فيها شرفها ، وترجع اليها كرامتها ، ليس بما تعلنه الشعوب من الشكر والاعتراف بالجميل فقط ، بل بحسن العمل العقلي الذي يقوم به السياسيون بدون لغط ، ولا ضوضاء في سكون قاعات أعمالهم أيضاً . وأما الاعتماد على القوة والركون الى العنف

الذي هو أخص مايلتجيء اليه القوي ، فهو من أخريات الوسائل وأحطها،وهو حيلة من لاحيلة له

ويظن الناس في الغالب أن الواجب التخير بين الاتفاق والمجاهرة بالشقاق ، وهو خطأ بين وغلط ظاهر ، إذ بين السلم والحرب ميدان فسيح يمكن للسياسة أن تجول فيه جولتها . وكما انطبقت هذه الطريقة على السياسة تنطبق أيضاً على المناقشات الفلسفية والدينية ، إذ للأفكار والعقائد سياسة مرجعها التسامح والاحتمال ، وليس التسامح من مخترعات هذا العصر ، بل نقيضه من مخترعاته ، لأننا اذا نظرنا في أصول المشاكل البشرية الكبرى يكون اندهاشنا من التشابه بين الآراء التي تعذر التوفيق بعد فيما بينها أعظم من الانفراج المستحكم بينها . وخلاصة القول أن معيشة بني الانسان بعضهم مع بعض بسلام ميسورة لمن يريدون ذلك ويقصدونه برغبتهم ، وحسن ارادتهم

وقد حدا بي هذا البحث الى نوع آخر من الانتقاد صوبه نحوي بعض المسلمين وليس المقصود به السياسة في هذه المرة ، بل المقصود به الفلسفة والعلوم الدينية، وقد انتهت إلي رسالتان غريبتان في هذا الباب احداهما من رجل مشهور الاسم في فرنسا وهو (احمد رضا) مدير جريدة مشورت الذي جمع ملحوظاته في رسالة سماها (التسامح الاسلامي) وقصد بها الرد على الكتاب الغربيين الذين يتهمون العالم الاسلامي بالتعصب الديني ، واستشهد في خاتمتها بكلمات قالها الكردينال لافيجري وهي: «أجاهر علانية بانني اعتبر اثارة خواطر الشعوب الاسلامية بعدم التدبر في دعوتهم الى الدين المسيحي إنما من الآثام وضرباً من ضروب الجنون» وانه ليفيض بي الكلام على الوصف الذي وصف به صاحب الرسالة تسامح المسلمين ولكني على ثقة من أن تبادل الشكوى أو الشتم لايحدو بنا الى الغاية السلمية التي نقصدها ، وأن الاجتهاد في فهم بعضنا مقاصد بعض أولى وأحسن من الصياح والعويل لمنع الناس من الاتفاق والوئام

ووردت إليَّ رسالة ثانية من أحد عظماء المسلمين وهو حضرة (احمد افندي مدحت) أكبر كتاب الترك في الوقت الحاضر ، وأني آسف شديد الأسف من

عدم إمكاني نشر مضمونها بأكمله فى هذا المقام لطولها وغموض مباحثها، ولا ريب فى أن القراء الفرنسويين كان يسرهم أن يتلذذوا بتلاوة انشاء شرقي مكتوب بلغة فرنسوية صحيحة،غير أن فى المباحث الدينية ولو كانت متعلقة بالاسلام شيئاً من الاكفهرار والتجهم .

على أن هذا لايمنعني عن ايراد شذرة قصيرة يبين فيها الكاتب مبدأ الدين الاسلامي وهاهي ذي « فيما يتعلق بالايمان والضمير كل مسلم قس نفسه فهو لايقدم لأحد سوى الخالق جل وعلا بدون واسطة حسابه عن أقواله وأعماله ، ولم ير النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، ولم تسمح له فرصة رأي فيها لنفسه حقاً أو سلطة مما يخوله لانفسهم رجال الاكليروس في الديانة المسيحية ، بل لم يفرقه فارق عن بقية العالمين أمام عدالة الحق سبحانه وتعالى ، وهو مايؤخذ منه أنه لو سأل أحدهم ماهو الاسلام ؟ لاجاب المسلمون قاطبة على اختلاف مذاهبهم بأنه العمل بما قرره القرآن الشريف — فالديانة القرآنية لاتهوي بالانسان باقصاء الاله عنه في نهاية الفضاء — إذ جاء في القرآن الشريف : (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) . هذا الدين فرق بين الانسان من وجهتيه الادبية والمادية ، فحدد أحواله فيهما بكيفية موافقة للادراك البشري »

ثم استنبط الكاتب من هذا الفرق دفاعا عن الدين الاسلامي يراه أرقى وأحسن مايدافع عنه به ، وأخذ يعتب عليّ لكوني اختصرت البحث فى المسئلة الفلسفية ، ذريعة الى قصر الكلام على المسئلة السياسية

وأنني اعترف بأنني انصرفت أثناء سياحتي في الجزائر وتونس الى الوجهة التاريخية السياسية أكثر منها الى غيرها ، واذا كان القاريء لايمل حديثي ، فانني أورد هنا بالايجاز كيفية الاسباب التي حملتني على هذه السياحة، وقصر مباحثي مؤقتاً على أعظم مشكلة قامت منذ قرون بين الديانتين المسيحية والاسلامية

لما كنت أقرر مباحثي في تاريخ (الكردينال ريشليو)وصلت إلى النقطة التي أفضت الظروف به فيها الى اتخاذ طريقة من الطرق المختلفة التي حومت حوله ، واستلفتت أنظاره . ففي أواخر عام ١٦٢٢ وأوائل عام ١٦٢٣ أي في إبان

استلامه زمام الأحكام كانت ظهرت المسئلة البروتستانية ، وسوف أورد كيفية حله لها . ولكن ما يعرفه القليل هو أنه عرض عليه الحكم في المسئلة المحمدية ، أو بعبارة أهل ذلك الوقت : في المسئلة الصليبية

وكان يوجد في فرنسا وقتئذ جم غفير من الناس يجاهرون بضرورة استئناف الحروب الدينية التي اشتهرت بها القرون الوسطى ، واسترسل في هذا الموضوع كثيرون من أخص أصدقاء (الكردينال ريشليو) الذين أخذوا بناصره في خطاه الاولى ، ووالوه بنصائحهم وسطوتهم . ومنهم (الدوق دي نيفير والأب جوزيف) صديق ريشليو الحميم ومشيره الخاص الذي انطوى معهم في أفكارهم قلبًا وقالبًا حتى لقد بدىء في ذلك الحين بتجهيز الحرب الصليبية : ويمكن القول بأن حزب الملكة ماري دي متديسي — الذي أجلس ريشليو على منصة الأحكام وكان يسمى بحزب الكاثوليكيين — حزب من الصليبيين

فما كان من الكردينال ريشليو الا أن قطع كل صلة مع أصدقائه ، رافضًا أن يكون آلة بأيديهم ، بل كان منه أن جذب الأب جوزيف الى ناحيته ، ثم ولى وجهه عن الاسلام فحارب — كما هو مشهور — الأسرة النمساوية . والحق يقال أن الكردينال كان من أقل الناس تعصبًا ، فانه قبل أن يأتي بما عمل به بني عمله على أسباب تأمل لها طويلا واستخبر وقارن . وأن هذه الأسباب هي التي كنت أروم الوقوف عليها لاظهارها وايقاف غيري عليها

وقد تابعت البحث والتنقيب على هذا المثال في أسبانيا وأفريقية إلى حيث تلك البقعة التي تم بها الاقتران بين العالمين الشرقي والغربي ، أريد بها تونس ، هذا هو السبب الذي استحثني مع أسباب أخرى على النقلة الى تلك الأصقاع باحثًا ومفكرًا ، شاهدت فيها أطلال قرطاجنة أي أطلالها في عهد انيبال والقديس أوغستان ، وفي عهد سان لويس وشارلكان ، فتجلى لي وأنا واقف على تلك الطلول أن الارض التي كانت ميدان النزال والجلاد يمكن أن تكون أيضًا مهبط السكينة والسلام

وأما الأسباب التي حملت ريشليو على العدول عن الحروب الصليبية فلسوف

أبينها في يوم ما . ولكنني بالبحث في الماضي والمشاهدة العيانية في الحاضر، قد توصلت إلى البحث عن مبادىء الاتفاق والوئام في عين المكان الذي اشتهر بأسباب الشحناء والبغضاء ، بحثت عن أصول هذه الأسباب فاشرت إلى السلم الناشيء من الحماية ، ونوهت بذكر أمر مهم وهو معيشة فريقين من الناس كان لا يظن أنهما يجتمعان في وئام واتفاق باحترام كل منهما معتقدات الآخر ، لما لاحظت هذه الامور كنت أود مداراة العواطف والاقتصار على عبارات التسامح والمسالمة والاكتفاء بالكلام على الحياة الفعلية ، ولكن يظهر أن هذا صعب المرام ،إذ الجميع لم يفهموا مرادي ، ولم يقفوا تمام الوقوف على مقصدي ، ومهما يكن من الأمر فان من الامور المهمة قيام الأفكار في البلاد المسيحية والاسلامية قياماً اذا تحركت فيه بالحركة الطبيعية المبنية على حسن النية ، وطهارة الضمير ، كانت نتيجتها التقريب والتوفيق ،لا الابعاد والتفريق

(يقول جامع الكتاب) هذا ما كتبه هانوتو وليس فيه رد لشيء مما خطأه به الاستاذ الامام من المسائل الدينية والتاريخية ، ولكنه تنسم من الكلام أن الترجمة تشعر بأنه مستحسن لما نقله عن كيمون وما هو بمستحسنه وهذا صحيح . وقد كان بشارة باشا تقلا يدافع عنه وينحي على المؤيد وعلى الامام ، ثم سافر الى باريس ولقيه ونقل عنه الحديث الآتي فنشر في العدد ٦٧٨٥ من الاهرام الصادر في ١٦ يوليو سنة ١٩٠٠ بالعنوان الآتي ونلخص مقدمة صاحب الاهرام للحديث قال :

حديث مع المسيو هانوتو

رأيت وأنا في باريس أن أقابل المسيو هانوتو واقف منه على حقيقة الاحوال بوجه عام ، وعلى الغاية التي قصدها ويقصدها من كتاباته الاخيرة عن الشرقيين والمسلمين بوجه خاص ولما كان هذا الموضوع من أهم المباحث لدينا مع رجل مثل هانوتو الكاتب البعيد الصيت والسياسي الواقف على أحوال أروبا والشرق وكنا نعتقد كما قالت الاهرام مراراً وتكراراً ان تقدم الشرق يكون بتقدم الامة الاسلامية توخيت أن أنشر أقواله وآراءه فاستأذنته بذلك فأذن لي . قال :

أنتم تعرفون من تاريخ أروبا ان أممها ما تقدمت علماً ومدنية واختراعا إلا يوم تقيدت السلطة المدنية وعرف الشعب والحكام فروضهم المتبادلة وأنا لم أكتب إلا إلى أبناء وطني الفرنسويين ولم أستشهد بكيمون وهو يوناني الجنس إلا لأفند أقواله التي لم ينفرد بها فان كثيرين من الكتاب الالمانيين والفرنسويين والانكليز وغيرهم حذوا حذوه وقالوا قوله ،وخلاصة كتاباتهم ان تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد ،لأن الاسلام معتقدهم يحول دون ذلك ، وحجة هؤلاء واحدة وهي: انه كلما تقدمت أروبا تأخر الشرق ، لأن الواقف يتأخر بقدر مايسير الماشي ، وان كل حكومة انفصلت عن الشرق سارت على منهاج أروبا علما ومدنية فنجحت مع ان العثمانية وأفغانستان ومراكش والعجم لاتزال على ماكانت عليه في السنين الغابرة، وأنا ذكرت من هؤلاء الكتاب كيمون وحده ليعرف المسلمون ما يقال عنهم ، ولأفند مزاعم هذا الرجل وغيره من الكتاب الذين على رأيه ،لاعتقادي ان الاسلام لايحول دون الاصلاح والمدنية ، واستشهدت على صحة معتقدي هذا بتونس فذكرتها مثالا أؤيد به أقوالي وسياستي . هذه هي روح كتابتي السابقة ، وانها ستكون روح اللاحقة

والذي دعاني إلي ذلك ماكان من هؤلاء الكتاب الذين لايخرج مغزى كتاباتهم عن اعادة الكرات الصليبية كما كان في الأعصر الخالية ، وما دفعهم في

الأيام الأخيرة إلى ذلك إلا الحوادث الأرمنية وغيرها ، ولما كنت قد وقفت نفسي لدرس حياة ريشليه السياسي الشهير ، وسرت في أكثر أعمالي وكتاباتي على منهاجه، وعرفت ان هذا الرجل مع انه كاثوليكي وكردينال من أعمدة الكنيسة الرومانية رفض على عهد وزارته تلك السياسة العوجاء - سياسة الصليبيين - وحال دونها بدهائه المعروف ، مع انه كان القابض على سياسة فرنسا وأوروبا معا ، فاذا كان هذا السياسي الكاثوليكي قد امتنع عن تأييد سياسة أقرب المقربين اليه فى تلك الأعصر أي السياسة الصليبية فهل مثل هذه السياسة يجوز اليوم انفاذها ؟ لا لعمري فلهذا عارضت بالأمس ولهذا أعارض اليوم ، ولحسن الحظ إن الرأي العام إذا قال بوجوب مساعدة الضعيف ضد الظالم فهو لا يريد حربا تشب نارها اعتداء ، ولا سيما الحرب الدينية فهي عدوة المدنية بل هي أفظع الأعمال

على ان معارضتي لأمثال هؤلاء الكتاب أي تقضي لأقوالهم لا يمنعني عن أن أقول لكم الحقيقة لأنه يستحيل عليّ أن أقول ان شرقكم سائر على منهاج حكومات أوربا في العدل والحرية والمدنية كما انه يستحيل عليّ أن أقول ان في حالتكم الحاضرة ضمانا لمستقبلكم السياسي ، فاعلم ان أوربا حاربت السلطة الدينية مدة ثلاثة قرون لا عن عدم اعتقاد بل لتفصلها عن السلطة المدنية فان المتحاربين كانوا من معتقد واحد ولكن أراد أفراد أممها أولا ولفيف شعوبها ثانيا ان تكون الكلمة الأولى للسلطة المدنية في أحوال الحكومات وشؤون الشعب وان يكون للمعتقد حق الادبيات الدينية بأن يعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله

واعلم ان الذي أيد هذه السياسة أيضاً في بلادنا فرنسا هو أعظم تلامذة رومة وأحد أقطاب الكنيسة الكاثوليكية أي الكردينال ريشليه فهو الذي قال بفصل السلطتين ولم تنسه واجباته الكنيسة الدينية معرفة الحقيقة وهو بهذه السياسة خدم السلطتين أشرف خدمة ، إذ ايد السلام بينهما فتأيدت سطوة الحكومات ، وتقدمت شعوب أوروبا تقدماً عجيباً ، واعتزت السلطة الدينيـة أيضاً ، وعاشت السلطتان بوفاق وسلام

وهذا ما نريد تأييده نحن الفرنسويين في مستعمراتنا بأن يكون الأمر المطلق

للسلطة الحاكمة مع احترام عقائد الشعوب الذين تحت حكمنا وسلطتنا وهو ماسرنا عليه في الجزائر وتونس وغيرهما من المستعمرات الفرنسوية

واني لا أكلمك كمسيحي بل كمؤرخ أو ككاتب حر الضمير لاشأن لغيره في معتقده الخاص ، ولكنني أحترم أدبيات كل دين ومعتقد ، وأقدر تلك الأدبيات قدرها ، ولكن الماديات غير الأدبيات ، والأولى من شؤون عالمنا هذا الذي نعيش فيه ونحيا به ، وكل أمة لم تتقدم في مادياتها لا بد أن تموت إذ لا حياة بلامادة ، وإلهكم أنتم الشرقيين إله أوروبا وإله أميركا إذ ان إله الجميع واحد، ولا يمكن أن يكون أكثر انعطافا على الأوربي منه على الاميريكي ، فالشرقي بل ان الشرقيين عموماً أكثر تمسكا بعقائدهم من الغربيين ، وقد علمنا ان أوروبا فاقت شرقكم بمراحل ، ونرى اليوم أميركا تزاحم أوروبا وكثيرا مافاقتها في اختراعاتها وفنونها ولم يكن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى أميل إلى الأميركي منه إلى الأوربي أو الشرقي ، ولكن لأن الأخير مستميت والأول حي ، هذا يشتغل مجتهداً وكلما زادت أرباحه زاد نشاطا وإقداماً ، وذاك يقضي حياته بين القنوط واليأس مستسلماً ، ولهذا تقدم الاوربي وتأخر الشرقي ، وضيق أوروبا بأهلها دفعها إلى الاستعمار في كل صوب ، فصادف أبناؤها ارضاً واسعة ، وشعوباً لاحراك بها ، فقبضوا على الأعمال السياسية والاقتصادية فيها

وهنا استمحت حضرة المسيو هانوتو وقلت له : إذا كنت تحب مصلحة المسلمين وتعتقد انهم راضون في تونس فهل تعتقد ذلك في اهل الجزائر ؟ ولماذا لاتسأل الحكومة الفرنسوية ان ترى في احوال هؤلاء

قال : أما التونسيون فلاخلاف في انهم مسرورون بحالتهم [1] ونحن قد دخلنا بلادهم وهي قاع صفصف مزق شملها أفراد حكمها ، وأما نحن فقد تركنا للسكان حقوقهم المذهبية ، فاحترمنا جوامعهم وعقائدهم وأحوالهم الشخصية، ولم نسألهم إلا أمراً واحداً أي احترام سلطتنا السياسية، فأدركوا هذه الحقيقة وعملوا بها ، ولهذا كان النجاح عظيما في مدة قريبة ، وأنت تعلم أن مذهبي في الاستعمار وضع

(١) هذه الدعوى ينكرها التونسيون

الحماية كما هو في تونس ، لأضم المستعمرة إلى فرنسا كما فعلنا في مدغسكر بالرغم عن معارضتي ذلك ، وقد رضيت به منقاداً لأوامر أكثرية دار الندوة ، ولا أنكر أنه يجب تعديل بعض قوانين الجزائر ، وقد شرعنا في ذلك ، وسأكتب كثيرا في هذا الموضوع لأني ذهبت بنفسي إلى تلك البلاد ودرست أحوالها ، وأملي أن لا يمضي طويل زمن حتى ترى ذلك الاصلاح الذي طلبه غيري قبلي ، وشرعت حكومتنا في انفاذه[١]

قلت إني أعرف ما سردته لي عن تاريخ السلطتين الدينية والسياسية في أوروبا وعن أحوال شعوب البلادين ولكن ذلك مستحيل في الشرق ولا سيما في الحكومات الاسلامية والذين يقولون به من الأجانب ليسوا إلا خصوماً للمسلمين لاعتقاد هؤلاء أن في فصل السلطتين ضعفاً ترومه أوروبا لتنال بغيتها منهم

قال هانوتو : أنا لا أسأل الشرق ذلك فهو حر يفعل ما يشاء ولكن اعتقد ان أوروبا لم تتقدم إلا بعد تعيين حقوق السلطتين وجعل الكلمة الأولى للسلطة الحاكمة كما اني أعتقد أن جمع السلطتين في شخص واحد لم يمنع ان تخسروا في الحروب الماضية ، واعتقد أيضاً أن صاحب السلطتين ولا سيما في بلاد كالشرق يستطيع أن يجري اصلاحات لا يقدر غيره عليها ويعلم المسلمون ان جمع السلطتين في شخص واحد لم يمنع فرنسا من الاستيلاء على الجزائر وتونس ، وانكلترا من التهام الهند ، وروسيا من أخذ خيوه وغيرها إلى حدود أفغانستان ، كما انه لم يمنع استقلال مراكش وبلاد فارس والمملكتان اسلاميتان ، فاذا كان يستحيل توحيد حكومة اسلامية توحيداً سياسياً يستحيل أيضا توحيد سلطتها الدينية ، وابن مراكش لا يعرف غير سلطانها خليفة له

واذا كان الاسلام كما قلتم ويقول كتابكم (وأود أن اعتقد أنا مثلكم أيضا) انه لا يحول دون التقدم العصري ، فما بالكم متأخرين ونحن متقدمون ؟ وبماذا تردون على اولئك الكتاب الذين لا يعتقدون اعتقادي واعتقادكم ؟ فاذا قلتم كما يقول اخوانكم ان أوروبا تحول دون تلك الاصلاحات ، أجابوكم ان أكثر الدول

(١) هذه دعوى يبطلها الجزائريون

كانت دائما معكم الى سنة السبعين و بعدها ، فلمَّ تأخرتم واليابان لم تشتغل الا ربع قرن حتى وصلت الى ماوصلت اليه اليوم ،فأصبحت أوروبا تقدرهاقدرها في جميع مسائل الشرق الأقصى؟

واذا قال لكم اولئك الكتاب اننا مقتنعون بأن أوربا وشعوب تركيا حالت دون اصلاح الولايات الواقعة في أوروبا والقريبة من أوربا كسورية مثلا ،سألتكم هل مسلمو بغداد وما بين النهرين وحلب راضون عن أحوالهم ؟ أيظن رجالكم وكتابكم اننا نحن وكتابنا جاهلون أحوالهم هنالك حيث لا أوربي ولا غيره يحول دون تعميم العدالة وحفظ حقوق المتقاضين؟

وأنا أعرف ان أمثال هذه الحقائق يجرحكم ذكرها ولكن قد حان لكم أن لا يعميكم غرضكم عن الحقيقة ولو انها خارجة من فم أجنبي ما دام كتابكم ليس فقط لا يقولونها بل يكذبونها ، كأني بهم يساعدون الظالمين من حكامكم على ما يأتونه من المغارم والمظالم ، فكان ذنبهم نحو وطنهم أعظم من ذنب الحكام الظالمين

واني أقول لك هذا بعد الذي قرأته في جرائدكم ردا على ما كتبته فقد عدوني خصما لهم ونسوا خدماتي لهم وانا في منصة الوزارة الخارجية في ايام المسألة الأرمنية ، فاذا كان هذا رأيهم في صديق خدمهم فماذا يكون حكمهم على خصم جهز بعداوتهم ؟ ولكن فليعلم هؤلاء انه اذا حدثت امثال تلك الحوادث فى المستقبل فيستحيل على وزير اوربي ان يرتئي مثل تلك السياسة ، ولا اقول هذا من باب العداء بل لما نراه من تعديل اوروبا على وجه عام مبادىء سياستها الخارجية مع الشعوب المشرقية ، فان الدول ستكون واحدة فى المستقبل كما ترى الآن فى مسألة الصين

فقلت للمسيو هانوتو : وما شأنكم والشرق وأممه ؟ فكلاهما راض عن حاله ومفضل اياها على كل سلطة اجنبية او اروبية ، والذي ينفر الشرقي هو ظلم اروبا في سياستها هذه ،وعتبنا على فرنسا اكثر من غيرها لأنها عودتنا حماية الضعيف من القوي

فقال الوزير بعبارة صريحة : ان هذه الأقوال خيالية لا تنطبق على حالة اوروبا فى هذا الزمان فهي بعد ان كانت لاتهتم بغير قادتها قد اندفعت الى الاستعمار ولا تقف عند دعوى العدالة وغيرها ، واعلم ان فرنسا مضطرة مادامت لاتقدر على منع الدول الثانية عن توسيع نطاقها الاستعماري والتجاري الى الاقتداء بالدول المذكورة ، واني ارى كتابكم وافراد امتكم يجهرون في غالب الأحيان بأفكار صبيانية فيستعبدون للألماني لنكاية الانكليزي ، وينتصرون للفرنسوي على الألماني، ولكن أما حان لهم أن يعلموا أن الأوربيين مهما اختلفت اجناسهم ومذاهبهم سهل اتفاقهم على الشرقيين ، لأن هؤلاء لا يعملون عمل العامل البصير باستخدام مصلحة هذه الدولة أو أغراض تلك الأمة لاصلاح شؤونهم ، بل لمعارضة دولة ثانية، وهي سياسة قديمة العهد لاتعتد بها أوربا اليوم ، وأنت تعلم ان ألمانيا اكثر الدول فى اوروبا استقراراً وأبعدها استعمارا هي التي اقترحت تحديد مناطق النفوذ فى الصين وهي التي سألت امتياز انشاء سكة حديد بغداد مما يدلكم على ان اوروبا لاتسعى الا الى مصلحتها السياسية وما سوى ذلك فضلة عندها اوصعب على طبعها

ثم قال لي : انت تقول إن الساسة المسلمين لا يعتقدون باخلاص سياسة أوروبا كلها او بعضها ، ولهذا يخافون من مصافاة هذه الدولة خوفهم من معاداة تلك لاسيما وان اكثر الدول طامعات فى املاكهم ، وحضرتك اكدت ذلك فى كلامك الآن عن سياسة اوروبا

والمسلمون يعتقدون أيضاً ان مصلحة أوروبا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية ولذلك لا يأمنون على أنفسهم من سياسة الدول المسيحية وقد أدى بهم فقدان هذه الثقة الى أن لا يأتمنوا مسيحياً عثمانياً ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم ،وهم يؤيدون سياستهم هذه لما رأوه من تداخل أوربا في أعمالهم ومن افعال الموظفين غير المسلمين في المناصب السياسية العثمانية سواء في بلاد الدولة او في سفاراتها ، وانت تقول لي ان فى ذلك بعض المغالاة ولكنهم يعذرون

فهذا الذي تقوله لي اليوم قد سمعته منك من قبل وقاله لي بعض العثمانيين فى الآستانة وباريس، ولكن تفنيده امر سهل واليك البرهان : لا يسعك والساسة

المسلمين ان تنكروا ان بعض دول اوربا قد اتفقت مع الدولة العثمانية على دول ثانية مسيحية في اوربا فان هذا حصل قولا وفعلا في حرب القريم فنحن وانكلترا لم نبخل بالمال والرجال لمساعدة دولتكم العثمانية ، ونحن وروسيا والمانيا منعنا بعض دول اوربا عن نيل أغراضها في المسألة اليونانية ، وهذه الدول الثلاث خدمن سلطنتكم أجل خدمة في المسألة الأرمنية بالرغم عن هياج الرأي العام الأوربي وتصريح بعض الدول بمعارضتكم وتلك أمور حديثة العهد يعرفها رجالكم كما نعرفها نحن

واذا راجعنا حوادث التاريخ القديمة تبين لنا أيضاً أن فرنسا وبولونيا وغيرهما حالفت العثمانية ضد دول ثانية مسيحية مما يدل على أن ضالة أوربا مصلحتها الاقتصادية فالسياسية ، ولا دخل للاعتقاد البتة في أعمالها ، ولعمرك هل منع المانيا كونها مسيحية أن تحارب أوستريا وفرنسا المسيحيتين . أولم تحارب ايطاليا أوستريا وهل منع فرنسا مذهبها الكاثوليكي من أن تحالف روسيا ومذهبها أرثوذكسي؟ وهكذا قل عن التحالف الثلاثي بين البرتستنتي الالماني ، والكاثوليكي النمسوي والايطالي ، وهذه الترنسفال دينها كدين انكلترا ، وأهلها من أقرب العناصر الى الجنس السكسوني ، وقد حاربها الانكليز وغرضهم سلب استقلالها ، كل هذه شواهد قديمة العهد وحديثة ، تفند زعم حضرتك ومزاعم ساسة الشرق ، واذا وجب أن يلوم المسلمون سياسياً مسيحياً يخدمهم ، فكم يجب أن يلوم ساستهم العديدين . أفي مراكش مسيحي موظف ؟ وهل غير المسلمين قابضون على سياسة العجم ؟ ومتى كانت سياسة الدولة العلية الخارجية في غير أيدي المسلمين(* ؟)فاذا كان ذلك السفير غير أهل لمنصبه ، أو أن رأيه مضر ببلاده ، فلماذا أبقي عليه وزير خارجيتكم أو الصدر الأعظم ؟ وهل قام ولاتكم وجميعهم مسلمون بما تتطلبه حقوق الأمة ومصلحة الوطن ؟ نعم لاأنكر أن تداخل أوربا أو بعضها نفركم ، ولكن بعض الحوادث التي حدثت في جهات عديدة من بلاد الشرق هي التي كانت سبب ذلك التداخل

*) الجواب في كل زمن ولا يزال أكثر سفرائها وقناصلها وموظفو نظارة الخارجية من المسيحيين اه من حواشي الطبعة الاولى

واني أتساهل معك وأقول إن بعض دول أوربا يريد لكم سوءاً ، وان هذا ولد فيكم عدم الثقة بنا نحن الاوربيين ، ولكن اذا كان قد استحال على دول الشرق وهي في أوج مجدها ، وشامخ عزها ، أن تتحد وتوحد كلمتها ، فهل يسهل ذلك عليها اليوم ؟ واذا كان المسلمون يعدون سياسة أوربا عداء لمصلحة الاسلام لان أوربا مسيحية « وهو زعم باطل » فهلا كان ماينادون به من وجوب الاتحاد الاسلامي وجمع كلمة المسلمين مما يخيف أوربا ويمنعها عن انفاذ مايتهمها به المسلمون وكيف يمكن ذلك الاتحاد المزعوم ؟ أترضى به أوستريا ولها البوسنة والهرسك وهي طامعة في غيرهما ؟ أم تقبل به فرنسا مع أملاكها الافريقية الواسعة ، أم تؤيده انكلترا وعدد رعاياها المسلمين عظيم ؟ أم تعضده روسيا ؟ أليس ذلك خرقا في الرأي من الذين ينادون بهذه السياسة ؟ كأني بهم هم الذين يريدون انفاذ مايطلبه كيمون وغيره من كتبة أوربا ، وقد كان أولى لمثل أولئك الكتاب أن يكتبوا كتابات أدبية بلغات الكتبة الأوربيين لتفنيد أقوالهم ، ولاستمالة الرأي العام الاوروبي اليهم

أما ماكان يجب عمله على رجالكم سواء الذين عركتهم حوادث السنين الغابرة ، أو الذين درسوا في أوربا وتعلموا بعض علومها ، ووقفوا على قليل من مبادئها وسياستها ، — فهو أن يهتموا بنشر العلوم العصرية في بلادهم ، وأن يعملوا في الخارج على إزالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب بان يتخذوا إقدام أوربا واجتهاد أبنائها مثالا يسيرون عليه ، وأنموذجا يعملون بموجبه ، أي كما فعل اليابانيون في السنين الأخيرة . وأنت تعلم أن الذي نبه اليابان هو خوفها من أوربا وهي لم تتعز عن ضعفها باحتقار الاوربي وذمه والمباهاة بمجد الآباء ، ولم يقل ياباني بتحقير الأجنبي لأنه عنصر غريب ، أو لأنه مسيحي ودينه بعيد بمراحل عن دين أهل اليابان ، بل قال رجال هذه المملكة بوجوب محاربة أوربا ، ولكن بسلاح أوربا ، أي بان تتشبه بها في العلم والمدنية والاقدام ، ولهذا فازت في مطالبها وحالت دون فتوحات الاوربي الاقتصادية أولا ، فالسياسة ثانياً ، ولو أتى رجال الشرق القريب هذا المأتي منذ حرب القريم لما شكا مسلم من أوربا ، ولما شكا كاتب أوربي من حال الشرق وأهله ، بل لو فعلوا وحدث انقلاب عظيم في السياسة

الاوربية سواء في اوربا او في الشرقين الاقصى والاقرب لكان دون شك حظ دولتكم العثمانية اضعاف حظوظ اعظم دولة أوربية

وأراني في هذا الشرح قد بلغت ماقصدته من تفنيد مايزعمه رجالكم الذين اذا رجعوا الى نفوسهم عرفوا هذه الحقائق كما نعرفها نحن ، وقد كان يجب عليهم أن يجهروا بها خدمة لأمتهم ولوطنهم ، لاأن يتجاهلوها ويكذبوها

وتقول لي إن النهضة العلمية بدأت في مصر ، وإن بعض الافراد انشأوا المدارس ، وإن الجناب السلطاني قد اهتم كثيراً بتوسيع نطاق المعارف في البلاد العثمانية ، وأن أصحاب النشأة الجديدة ادركوا قصور الحكام وتأخر البلاد فقاموا يجهرون بوجوب الاصلاح وتعميم العدالة ، والأمل وطيد بالنجاح ، ولكن الطفرة محال . وهذا أمر يسرني ويشرح صدري لأني أرغب رغبة خالصة في نجاح شرقكم ، ولكن يجب أن تعلم أن العبرة ليست فقط في إقامة المدرسة، بل في وضع البر وغرامات المدرسية، كما أن العلم وحده لايكفي ، وقد يضر اذا لم يمزج بالتهذيب ،فاني لاأجهل أن كثيرين من أبناء الشرق درسوا في أوربا ، وقد يربو عددهم على عدد اليابانيين الذين درسوا في أوربا أيضاً ، ولكننا رأينا في اليابان نتيجة لم نرها حتى الآن عندكم ،ولعلنا نراها يوماما لأني أعتقد أن رجال النشأة الجديدة ينجحون نجاحا كاملا اذا كان غرضهم خدمة الوطن منزهة عن كل غاية شخصية أو مذهبية ، لأن الوطن الواحد قد يجمع أكثر من عنصر ومعتقد ، ولكن الاعتقاد وحده لايجمع إلا عنصراً واحداً ، وأنت تعلم أن الفرنسوي يشمل الكاثوليكي والبروتستنتي والمسلم واليهودي والوثني وغيرهم من سائر رعايا فرنسا ، ولكن الكاثوليكي الفرنسوي ، والفرنسوي الكاثوليكي ، أو الكاثوليكي أو المسيحي لايشمل كل فرنسوي

لهذا كانت السلطة المدنية أهم وأشد من الرابطة الدينية، وهي التي كانت قاعدة أوربا الاولى في سياستها وبها تقدمت وتمدنت ونجحت . والى هنا قد أجبتك على جميع ماأردت أن تعرفه مني عن رأيي في الشرق اه

هذا آخر مانقله مدير الاهرام عن هانوتو ويليه رد الاستاذ الامام عليه وهو

المقالة الرابعة

هانوتو والاسلام (١)

(وفيها بيان عناصر القوى فى أوربة وهى سبعة)

ألقت إليَّ المصادفة نسختين من إحدى الجرائد المشهورة فى القطر المصري جاء بها حديث بين صاحب الجريدة ومسيو هانوتو صاحب الفصول المعروفة فى الاسلام ولم أشك فى أن كثيراً مما جاء فى هذا الحديث صادر عن رأي مسيو هانوتو ، لأنه لا يصدر الا عن عارف مثله بأحوال أوربا ، وكثير من أحوال المشرق . ولهذا رأيت أن حرمانه من حظ النظار فيه ، وتركه يمر بلا مناقشة معه فى بعض ما تضمنه ، يعد ظلماً له وجوراً عليه ، خصوصاً و نسبة القول اليه مما يدع في أذهان الناس آثراً لا يحسن السكوت عنه

وقد جاء في كلامه ما يدل على أنه قد أصيب بشيء من سوء الفهم في أحوال المسلمين وما انبعثت اليه نفوسهم اليوم ، وسوء الفهم منشأ الشقاق والخصام بين أهل القصد الواحد كما ذكره حضرته في مقال له سابق . فلا يليق بذي غيرة على الحق ، أن لا يوفيه من الاعتبار ما يستحق ، وأرجو أن يترجم ما أكتبه في جريدة المؤيد الفرنساوية ، وأن يرسل الى مسيو هانوتو ليقف على ما غاب عنه من مقاصدنا وأفكارنا

إن كان المسلمون اليوم ينتفعون بشيء ، ويعتبرون بمثال ، لم يكن أنفع لهم من الاعتبار بما جاء في كلام مسيو هانوتو ، فقد أرشدهم الى عيوب فيهم لا يسعهم إنكارها ، وهداهم الى مقاصد لطلاب الاستعمار في ديارهم قد شهدوا بالعيان آثارها ، وصرح لهم بأن الاعتماد على العدالة في معاملة الدول ضرب من الخبال ،

(١) نشرت في العدد ٢٩٢٠ من جريدة المؤيد المؤرخ في ٢٨ ربيع الاول سنة ١٣١٨

وعقد الآمال بانصاف الامم تلمس للمحال ، وما على المهتم بحماية ذماره ، وطالب الطهر من عاره ، الا أن يدركهم ويعمل عملهم ، ليبلغ من الحول حولهم ، فيفوقهم في القوة أو يكون مثلهم ، فيتعاوض في المنافع معهم معاوضة الممالك مع الممالك ، لا أن يتسلى بالأعاليل ، ويلهو بالأضاليل ، ويقنع بالأماني ، ويكتفي من العمل بالصوت الجهوري واللفظ المطلي ، وهو من روح قائله خلي ، حتى اذا دهموه وهو في غفلته ، وأخذوه في نومه او يقظته ، بسط يده يلتمس الرحمة منهم ، ويرقب أن يفيض عليه سيب العدل عنهم ، فهذا عمل الجاهل الأحمق ، وهو بالذلة والاستعباد أحق

وهي نصيحة يجب على المسلم قبولها من أجنبي منه ، وكان يجب عليه من قبل أن يقبلها من أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فقد قال لخالد بن الوليد حين أرسله لحرب اليمامة «حاربهم بمثل مايحاربونك به ، السيف بالسيف والرمح بالرمح»

ولا يخفى أن كل نزاع فهو حرب ، وكل منافسة فيما هو عماد الحياة فهي جلاد ، وكل عمل يأتيه أحد المتنافسين للظفر بمنافسة فهو جهاد ، وكل وسيلة تظفره بطلبته فهي سلاح ، وكل تجاذب أو تدافع بينهما فهو كفاح ، وكل منفعة حفظها أو استخلصها منه فهي غنيمة ، وكل انخذال عن حق أو تفويت لمصلحة فهو هزيمة.

فالظافر في ميدان المنافسة من كان رأيه أسد ، وقوته أشد ، وسلاحه أحد . فان قربت القوتان من التكافؤ أمكن بمصالح المتنافسين أن تتفق ، وسهل على كل منهما أن يرتفق ، وإلا استحال الاتفاق ، واستبدّ القوي بالارتفاق ، بل صعب على الضعيف أن ينال حق البقاء ، سنة الله في عالم الأحياء.

وقد فصل مسيو هانوتو ما أجمله بعض أساتذتنا في قوله (العدل تكافؤ القوى)

صرح مسيو هانوتو بأن أوربا بعد أن كانت لا تشتغل الا بما يجري فيها اندفعت الى الاستعمار ، ولا يردها عنه الا قوة الأمم التي تريد الاستعمار فيها . وضرب المثل باليابان فانها بما ارتقت في المدنية ، وما أصلحت من شؤونها الداخلية ، وما أعدّت لوقاية ممالكها ، وحماية مسالكها ، قد أذنت أوربا بقوتها ، وحملتها على الاقرار بمكانتها ، فحمت بلادها ومصالحها من صولتها ، وأمكنها

برهان القوة أن تؤلف بين منافعها ومنافع الاوربيين ، وهو قول حق ، وكان على المسلم أن يعرفه من قرون ، وله في كتابه المنزل خير هاد وأرشد مرشد ، وكان يكفيه منه آية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) فقد دعته الآية الكريمة إلى الاعداد ، وطالبته ان يبلغ منه حد المستطاع ، ولا حد لما تستطيعه امة إذا صرفت قواها العقلية والجسدية فيما هيئت له . واطلقت له القوة ، وهي كل ما يقوى به على خصم ، ويقتدر به على حماية نفسه وحوزته من اعتداء معتد ، أو يستطيع به استخلاص حق من يد مغتصب ، وخير القوى ماحفظ به الحق ، وعظمت به المنفعة ، ووقف لهيبته كل المتنافسين عند حدّه ، حتى يستقر السلام بينهم ، وتشمل الطمأنينة شؤونهم

وقد تألفت قوى الأمم الأوربية من عناصر ، هي العلم والأدب والتجارة والصناعة والعدل والدين والسلاح . وذكرت الدين في جملة عناصر القوة ، لأن مسيو هانوتو لاينكر أن أوربا تعتمد على الدين في سياسة الاستعمار ، وأن المرسلين والجمعيات الدينية من أهم الوسائل لديها في اعداد الشعوب الى قبول سلطانها عند سنوح الفرص لسوقه اليها ، وتهيئة نفوس الأمم لاحتمال ماينقض به ذلك السلطان متى أظلهم ، وفي فتح المغالق التي لا يستطيع السلاح وحده أن يفتحها ، وتمهيد السبل التي لا يمكن لساعد الجندي وحده أن يمهدها . وهو من الأمور المسلمة التي لايجادل فيها عارف مثل هانوتو ، فلا حاجة للاطالة في بيانه ، غير اني أذكر قصة كنت شاهدتها لا بأس بذكرها في هذا المقام

تعلم أحد أبناء جبل لبنان من بلاد سوريا في بعض مدارس الجمعيات الدينية الفرنساوية في تلك البلاد ، وأخذ عن أساتذته كثيراً من آدابهم ، وطالع عدداً من مؤلفات كتابهم ، وامتلأ قلبه بحب فرنسا ، واستقر فى ذهنه أنها منبع نور العلم والحرية ، وأنها محررة العالم أجمع من رق الاستبداد . ثم انتقل لكتب بعض الفلاسفة الفرنساويين ، ومؤلفات بعض السياسيين ، فعظم عنده الاعتقاد بأن هذه الأمة الجليلة انما يهمها فى سياستها أن تنشر المعارف في العالم لتهذيب العقول ، وتكميل النفوس ، لتربيتها على أصول العقل وحرية الفكر . ورأي أن من

الزلفى عند الحكومة الفرنساوية أن يذهب الى باريس ويسألها المعونة على انشاء مدارس في جبل لبنان يبنى التعليم فيها على تلك الاصول السابقة ، فذهب الى باريس سنة ١٨٨٤ ، واتصل بأحد اذكياء السوريين الذين طاب لهم المقام في البلاد الفرنساوية ، وطلب منه ان يكون وسيلته في نيل مايرغبه من معونة الحكومة ، فسعى الذكي سعيه . ثم عاد الى صاحبه وقال له : إن ما تخيلته ضرب من الوسواس . وإن الحكومة الفرنساوية وإن كانت تطرد الجزويت من بلادها وتنازع الكنيسة في سلطتها ، لكن سياستها في الخارج دينية محضة . ويمكن أن تعرف ذلك من حمايتها للجزويت ، وإعانتها لهم بالمال والقوة في بلادك

فان كنت تريد إنشاء مدارس دينية في بلاد لبنان كان أملك في المساعدة قريباً . وإلا فارجع واشتغل بما يصلح شأنك الخاص بك . فرجع الشاب بالخيبة بعد ماأقام مدة صرف فيها ما كان عنده من النقود ، ولم يجد من يساعده على الرجوع الى بلده إلا من رحمه من أصدقائنا اذ ذاك ، وكان لي حظ في مساعدته كما كنت شاهداً الحديث الذي رويته

فان لم يسع المسلم بعزم ثابت فى تحصيل هذه العناصر التي سبق ذكرها أو تقوية ما ضعف عنده منها وهو مسلم كان مخالفاً لكتابه ، ولقول الصديق رضي الله عنه ، ومستحقاً للوم مسيو هانوتو . ولم تتفق له مصلحة مع مصالح الاوربيين الى يوم القيامة .

بقي عليّ الكلام مع هذا الوزير في أمرين الأول فيما فهمه من شأن المسلمين في هذه الأيام ، وما يسمونه دعوة الى توحيد كلمة المسلمين قاطبة ، وجمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد . والأمر الثاني سوء ظن أكثر المسلمين بالسياسة الاوربية ، بل بالمسيحيين أجمع ، حتى وصل فقد الثقة بهم الى أن لا يأتمنوا مسيحياً عثمانياً فى عمل من أعماله ، وإن أخلص لهم الخدمة كما سمعه من صاحب هذه الجريدة الناشرة الحديث وغيره . وموعدي بذلك عدد آخر اهـ

المقالة الخامسة

هانوتو والاسلام

(شأن المسلمين اليوم وظهور دعوة فيهم الى توحيد كلمة المسلمين وجمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد في جميع البلاد الاسلامية)

أؤكد لموسيو هانوتو أن هـذه الدعوة لم يوجد لها أثر الى اليوم في بلد من بلاد المسلمين ، ولو خطا خطوة الى معرفة أحوالهم على ماهي عليه لما خطر بباله أن يشير الى هذه الدعوة ، فضلا عن أن يبني عليها حكماً ، وأن ماعلق بالأوهام منها فانما منشؤه سوء فهم بعض مسيحيي الشرق ، ثم انعكاس ذلك في أذهان سياسي المغرب ، وقد يكون لسوء نية بعضهم مدخل في تعظيم ما توهم فيها

وإني أعرض الحقيقة كما هي ، لايغشاها ستار من تمويه ، ولا غطاء من تلبيس ، وأرجو أن يكون في هذا البيان ما يقنع مسيو هانوتو بحسن مقاصد المسلمين اليوم في كلامهم عن الدين ، وما يرد أمثال صاحب الجريدة التي نشرت حديثه الى رشدهم ، حتى يتقوا الله في أنفسهم وأهل بلادهم ، ولا يتخذ بعضهم من السلم حربا ، ولا من السكون شغباً

لا أنكر أن طائفاً من الدين طاف في هذه السنين الأخيرة بعقول بعض المسلمين فى أقطار مختلفة من الارض . وأن نسمة من نفس الرحمن مرت بأنفس قليل من أهل الفضل فيهم ، فحركت ساكنهم ، وأثارت هممهم الى النظر فيما كان عليه أهل هذا الدين ، وفيما صاروا اليه . وأن منهم من يتكلم بما يرى اذا وجد سبيلا الى الكلام . ومنهم من ينشر رأيه في كتاب أو جريدة اذا تهيأت له الوسائل لذلك . ثم يوجد مقلدون لهؤلاء يقولون مالا يعلمون ، ويهرفون بما لايعرفون . ولا كلام لنا في هذه المقلدين . وإنما كلامنا فيما يرمي اليه غرض أولئك الناظرين

ظهر الاسلام لاروحيا مجرداً ، ولا جسدانياً جامداً ، بل إنسانياً وسطا

بين ذلك ، أخذ من كل من القبيلين بنصيب ، فتوفر له من ملائمة الفطرة البشرية مالم يتوفر لغيره ، ولذلك سمى نفسه دين الفطرة ، وعرف له ذلك خصومه اليوم وعدوّه المدرسة الاولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنيـة . ثم لم يكن من أصوله « أن يدع ماالقيصر لقيصر » بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله ، ويأخذ على يده في عمله . جاء هذا الدين على الوجه الذي ذكرنا ، فهدى ضالا ، وألان قاسياً ، وهذب خشناً ، وعلم جاهلا ، ونبه خاملا ، وأثار الى العمل كسلا ، واقدر عليه وَكِلا ، واصلح من الخلق فاسداً ، وروج من الفضيلة كاسداً . ثم جمع متفرقا ، ورأب منصدعا ، واصلح مختلا ، ومحا ظلما ، وأقام عدلا ، وجدد شرعا ، ومكن الامم التي دخلت فيه نظاماً ، امتازت به عن سواها ممن لم يدخل فيه . فكان الدين بذلك عند اهله كمالا للشخص ، والفة في البيت ، ونظاما للملك ، وظهرت به آثار النعمة عليهم في جميع شؤونهم . ولم يفت العلم حظ من عنايته . بل كان قائده في جميع وجوه سيره . فان شاء قائل ان يقول : إن الدين لم يعلمهم التجارة ولا الصناعة ، ولا تفصيل سياسة الملك ، ولا طرق المعيشة في البيت ، لم يسعه أن ينكر انه اوجب عليهم السعي الى مايقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية ، واوجب عليهم ان يحسنوا فيه ، وإباح لهم الملك وفرض عليهم ان يحسنوا الملكة . وما ظنك بدين يقول خليفته الثاني وهو في المدينة من بلاد العرب « لو ان سخلة بوادي الفرات اخذها الذئب لسئل عنها عمر » ويقول خليفته الرابع « أأقنع من نفسي بأن يقال امير المؤمنين ولا اشاركهم في مكاره الدهر ، أو اكون أسوة لهم في جشوبة العيش » — أي خشونته — يريد بذلك ان يساوي المساكين في العيش ليكون قدوة الأغنياء في الاحسان . وأسوة الفقراء في حسن الصبر

هكذا كان الاسلام مهمازاً للمسلمين يحثهم إلى جلائل الاعمال ، ومصباحا لبصائرهم يسترشدون به في استغراق الاحوال وتقويم الافكار ، وعاطفاً يعطف قلوبهم على الأمم بالعفو والمرحمة وحسن المعاملة ، حتى رضيتهم الارض سادة لها وقادة لسكانها ، وكان من امرهم وامره ماهو معلوم

افبعد هذا يعجب عاقل اذا رأى المسلم يرضى مارضيه هذا المرشد الحكيم ويمقت مامقته ؟ ايدهشه ان يرى المسلم يهزأ بكل مالم يعتقد سائغاً في دينه وإن كان فيه ملك الأرض أو ملكوت السموات بعد ماشهد المسلم من أثر نعمة الله عليه في هذا الدين ماشهد ؟ لاعجب في ذلك فانه نتيجة ضرورية ينساق اليها الأمر بنفسه ، بحكم سنة الله في خلقه

وآسفاً !! لم يبق للمسلم من الدين إلا هذه الثقة فيه . أما الدين نفسه فقد انقلب في عقل المسلم وضعه ، وتغير في مداركه طبعه ، وتبدلت في فهمه حقيقته ، وانطمست في نظره طريقته ، وحق فيه قول علي كرّم الله وجهه «ان هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوبا » .

لاأبحث اليوم في الأسباب التي وصلت بالدين في نفس المسلم الى ماذكرت ، ولكن أقول ولاأخشى منكراً لما أقول : قد دخل على المسلم في دينه ماليس منه ، وتسرب فى عقائده من حيث لايشعر مالا يتصل بأصلها ، بل مايهدم قواعدها ويأتي على أساسها . عرضت البدع فى العقائد والاعمال ، وحلت محل الاعتقاد الصحيح ، وأخذت مكان الشرع القويم ، وظهرت آثارها فى أعماله ، وعم شؤمها جميع أحواله

ان صح لفظ الحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »[1] أو لم يصح فالقرآن يؤيد معناه ، وعمل الاولين من المسلمين يحقق صحة ماحواه ، فالرجل والمرأة سواء فى الخطاب التكليفي ، وكان سواء فى علم مايجب عليهما من فرائض الاسلام ، وخصال الايمان ، وفى طلب العلم بما يلزم لصلاح معادهما ومعاشهما ، وبما تحسن به المعاملة مع من يتصل بهما قرب أو بعد على تفصيل معروف في كتاب الله وسنة رسوله ، وعمل الصالحين من بعده ، حتى لم يبق باب من أبواب العلم إلا دخل منه بقدر الاستطاعة وما يسمح الزمان .

(١) الحديث رواه ابن ماجه وغيره من طرق كثيرة ضعفها بعضهم ولكن قال الحافظ العراقي قد صحح بعض الائمة بعض طرقه وليس فيه لفظ مسلمة ولكن المعنى يشملها بالاجماع

ضل المسلم بعد ذلك في معنى العلم ، فظن الرجل أن غاية ما يفرضه الدين منه معرفة فرائض الوضوء والصلاة والصوم في صورة ادائها ، أما ما يتعلق بسر الاخلاص فيها ، ووسيلة قبولها عند الله ، فذلك مما لا يخطر له ببال إلا القليل النادر . وأما آداب الدين وتهذيب الروح ، واستكمال الخصال الجليلة مما جعله الاسلام غاية العبادات ، وثمرة الاعمال الصالحات ، فهو مع انه اهم علوم الدين مما لا تتوجه اليه عزيمة ، ولا تنصرف نحوه ارادة ، اللهم إلا من أشخاص قلائل منثورين في أطراف الأرض لا ترقى بهم أمة ، ولا تسمو بهم كلمة

أما من ينقطعون لطلب العلوم ليحصلوا جملة منها فقد انقسموا إلى فريقين

الاول من يظن أنه وارث علوم الدين والقائم بحفظها ، وقد قلّ أفراده في معظم البلاد الاسلامية ، ولم يبق منه إلا رسوم لا يكاد لا يدركها نظر الناظر ، والمشتغلون منهم في بعض البلاد كمصر والاستانة ، فانما حظ الذكيّ منهم وقليل ماهم أن ينظر في كتب مخصوصة عينها له الزمان وضعف العرفان ، ويفهمها بمعنى أن يثق أن هذا اللفظ دال على ذاك المعنى ، ومتى تم له ذلك فقد استكمل العلم : سواء سلم له عقله ودينه وأدبه بعد ذلك أم لم يسلم ، فكان مثلهم مثل من ورث سلاحا همه أن ينظر اليه ويملأ عينه منه ، ولا يمد يده اليه يستعمله او يزيل الصدأ عنه ، فلا يلبث أن يأكله الصدأ ، ويفسده الخبث ، ويزعمون أن الدين يصدهم وراء ما عرفوا من العلوم النافعة ، ومن رأي هؤلاء ان لا شأن لهم مع العامة ولا يجب عليهم ان يأمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر ، وقد ارتكبوا بذلك خطأ في فهم دينهم لا يساويه في سوء عاقبته خطأ ، وللكثير منهم بل الاغلب من سوء الفهم في الدين مالا حاجة الى عده ، ولا يخفى ان ما يحصله هذا الفريق في العلم لا يظهر له ادنى اثر في صلاح الأمة كما هو مشهود

والفريق الثاني من يهيؤه اولياؤه لنيل منصب من مناصب الحكومة عال أو سافل ، وأفراد هذا الفريق إن كثروا أو قلوا يحصلون مبادي العلوم المعروفة بالعلوم العصرية ، ثم يحصل كل واحد ما به ينال المنصب الذي يعده له والده على ان ما يحصل إما لفظ يحفظ او خيال يخزن والمدار على الوصول إلى ورقة

الشهادة ، ومن هؤلاء من يذهبون إلى اوربا لاستعمال التربية فيها ، ولا غاية لهم سوى هذه الغاية ، فمن أصاب منهم بعد ذلك وظيفة قنع بها ، وحصر همه على العمل فيها ، ومن لم يجد وقف على الابواب ينتظرها ، فاذا ملّ الانتظار او تقضي زمن العمل وجدته في قهوة او ملهى يسرف في اوقاته ، أو يفسد في ادواته ، والصالحون منهم – وقليل ماهم – لا يهمهم شأن العامة شقيت ، أو سعدت ، هلكت أو قامت ، فاي أثر لما تعلمه هؤلاء يظهر في الأمة ، وأستثني منهم شواذ في كل بلد على ضعفهم ، يرجى أن ينمو عددهم ، وتجني الأمم ثمار أعمالهم ، هذا شأن الرجال مع العلم

وأما النساء فقد ضرب بينهنّ وبين العلم بما يجب عليهنّ في دينهنّ أودنياهنّ بستار لايدرى متى يرفع ، ولا يخطر بالبال أن يعلمن عقيدة ، أو يؤدين فريضة ، سوى الصوم ، وما يحافظنّ عليه من العفة ، فانما هو بحكم العادة وحارس الحياء ، وقليل جداً من موروث الاعتقاد بالحلال والحرام ، وحشو أذهانهنّ الخرافات ، وملاك أحاديثهنّ الترهات ، اللهم إلا قليلا منهنّ ، لا يستغرق الدقيقة عدهنّ ، وكل من الرجال والنساء يعد نفسه مسلماً ، يعدها الجنة ويمنيها السعادة

اخطأ المسلم في فهم معنى التوكل والقدر فمال إلى الكسل ، وقعد عن العمل ، ووكل الأمر إلى الحوادث ، تصرفه حيثما تهب ريحها ، ويظن أنه بذلك يرضي ربه ويوافي رغائب دينه

اخطأ المسلم في فهم ماورد في دينه من أن المسلمين خير الأمم ، وأن العزة والقوة مقرونتان بدينهم أبد الدهر ، فظنّ أن الخير ملازم لعنوان المسلم ، وأن رفعة الشأن تابعة للفظه ، وإن لم يتحقق شيء من معناه ، فان أصابته مصيبة ، أو حلت به رزية ، تسلى بالقضاء ، وانتظر ما يأتي به الغيب ، بدون أن يتخذ وسيلة لدفع الطارىء ، أو ينهض إلى عمل لتلافي ماعرض من خلل ، أو مدافعة الحادث الجلل ، مخالفاً في ذلك كتاب الله وسنة نبيه

اخطأ المسلم في فهم معنى الطاعة لأولي الأمر والانقياد لأوامرهم ، فالقى مقاليده إلى الحاكم ، ووكل اليه التصرف في شؤونه ، ثم أدبر عنه ، حتى ظنّ أن

الحكومة يمكنها القيام بشؤونه جميعها من ادارة وسياسة بدون أن يكون لها منه عون سوى الضريبة التي تفرضها عليه . ومن رأى حزن الآباء اذا طلب أبناؤهم لأداء الخدمة العسكرية ،وما يبذلونه من السعي في تخليصهم منها ،حكم بأن مايعقله أكثر المسلمين من معنى الحكومة لايمكن انطباقه على شيء من أوليات العقل ، وعرف أن ثقتهم بالحاكم قد بلغت إلى حد التأليه،من حيث ظنوه قادراً على كل شيء ،بدون عون من أحد، وانقلبت تلك الثقة إلى الادبار والتخلي عنه من حيث إنهم تركوه وشأنه لايساعدونه في حادث ، ولا يعينونه في أمر مهم ، اللهم إلا اذا أرغموا على ذلك ، ومن ذا الذي يحسن عملا اذا ألجيء اليه بالرغم منه ؟ ومن هنا انصرف المسلم عن النظر في الأمور العامة جملة ، وضعف شعوره بحسنها وقبيحها ، اللهم إلا مايمس شخصه منها

وأما الحكام، وقد كانوا أقدر الناس على انتياش الأمة مما سقطت فيه، فاصابهم من الجهل بما فرض عليهم في اداء وظائفهم ماأصاب الجمهور الأعظم من العامة، ولم يفهموا من معنى الحكم إلا تسخير الأبدان لأهوائهم ، واذلال النفوس لخشونة سلطانهم ، وابتزاز الأموال لأنفاقها في ارضاء شهواتهم ،لايرعون في ذلك عدلا ، ولا يستشيرون كتابا ، ولا يتبعون سنة ،حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والاقتداء بهم في الظلم ، وما يتبع ذلك من الخصال التي مافشت في أمة إلا حل بها العذاب .

هذا كله إلى ماحدث من بدع أخرى من مذاهب شتى في العقائد ، وطرق متخالفة في السلوك ، وأراء متناقضة في الشرائع ، وتقليد أعمى في جميع ذلك ، فتفرقت المشارب ، وتوزعت المنازع ، وعظم سلطان الهوى على أرباب النزعات المختلفة ، كل يجذب إلى نفسه ، لاينظر إلى حق ، ولا يفزع من باطل، وإنما همه أن يظفر بخصمه ، وذلك الخصم هو مايدعوه أخا له في الاسلام ، في معرض التشدق بالكلام

وزد على ذلك —وهذا أكبر بدعة عرضت على نفوس المسلمين في اعتقادهم — وهي بدعة اليأس من أنفسهم ودينهم، وظنهم أن فسادالعامة لادواء له ، وأن ما

نزل بهم من الضر لا كاشف له ، وأنه لا يمر عليهم يوم إلا والثاني شر منه: مرض سرى في نفوسهم ، وعلة تمكنت من قلوبهم، لتركهم المقطوع به من كتاب ربهم، وسنة نبيهم ، وتعلقهم بما لم يصح من الاخبار، أو خطائهم في فهم ما صح منها ، وتلك علة من أشد العلل فتكاً بالارواح والعقول ، وكفى في شناعتها قوله جل شأنه (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون)

تبع هذه البدع جميعها وأخرى يطول ذكرها هُزال في الهمم ، وضعضعة في العزائم ، وفساد في الاعمال ، يبتدىء من البيت وينتهي إلى الأمة ، ويمر في كل طبقة ، ويجول في كل دائرة، خصوصاً من دوائر الحكومات، وما يرمى به المسلمون من التعصب الديني الأعمى فانما عرض على أقوام فى بعض البلاد الاسلامية تبعاً لهذه البدع الضالة، على أنني لا أسلم انهم بلغوا فيه ادنى درجاته في الأمم المسيحية شرقية كانت أو غربية ، والتاريخ شاهد لا يكذب

هـذا ما أصاب المسلمين في عقولهم وعزائمهم واعمالهم ، بسبب ابتداعهم في دينهم وخطائهم في فهم أصوله ، وجهلهم بادنى ابوابه وفصوله ، لهذا سلط الله عليهم من يسلبهم نعمة لم يقوموا بشكرها، وينزل بهم من عقوبة الكفران مالا قبل لهم بدفعه، إلا اذا تداركهم الله بلطفه، وقد ابتلاهم بمن يلصق بدينهم كل عيب، ويقرنه اذا ذكره بما يتبرأ منه ، ويعده حجاباً بين الأمم والمدنية ، بل يعده منبع شقائهم ، وسبب فنائهم

تنبه لذلك أفراد من عقلاء المسلمين في أواسط القرن الماضي من سني الهجرة فى أقطار مختلفة من بلاد فارس والهند وبلاد العرب ، ثم في مصر، وكل منهم بحث في الداء وقدر له الدواء بحسب فهمه على تقارب بينهم، ولعلهم يلتقون يوماً من الأيام عند الغاية إن شاء الله

مقصد الجميع ينحصر في استعمال ثقة المسلم بدينه في تقويم شؤونه ، ويمكن أن يقال إن الغرض الذي يرمي اليه جميعهم إنما هو تصحيح الاعتقاد ، وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ في فهم نصوص الدين حتى اذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الاعمال من الخلل والاضطراب . واستقامت أحوال الأفراد . واستضاءت

بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينيـة ودنيوية . وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة وسرى الصلاح منهم إلى الأمة . فاذا سمعت داعياً يدعو إلى العلم بالدين فهذا مقصده . أو منادياً يحث على التربية الدينية فهذا غرضه . او صائحاً ينكر ماعليه المسلمون من المفاسد فتلك غايتـه . وهـذه سبيل لمريد الاصلاح في المسلمين لامندوحة عنهـا ، فان اتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين ،يحوجه إلى انشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء ، ولا يسهل عليه أن يجـد من عماله أحداً ، واذا كان الدين كافلا بتهذيب الاخلاق ، وصـلاح الاعمال ، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهـله من الثقة به مابيناه ،وهو حاضر لديهم ، والعناء في ارجاعهم اليه أخف من احداث مالاإلمام لهم به ، فلم العدول عنه إلى غيره !!

لم يخطر ببال أحد ممن يدعو إلى الرجعة إلى الدين سواء في مصر أوغيرها أن يثير فتنة على الاوربيين ،أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين ،غير أن بعض المسيحيين اذا سمع قولا في الدين اعرض عن فهمه ، وانشأ لنفسه غولا من خياله يخاف منه ويخشى غائلته يسميه باسم الدين ، وبعضهم يظن أنه لوانتبه المسلمون إلى شؤونهم ، ورجعوا إلى الأخذ بالصحيح من دينهم ، لاعتصموا بجامعتهم ، واستعانوا على تقويم أمورهم بأنفسهم ، واستغنوا عمن ادخلوه في أعمالهم من غيرهم، فيحرم الكثير من المسيحيين تلك المنافع التي نالوها بغفلتهم ، وهو سوء ظن من الزاعم بنفسه، فانه بظنه هذا يعتقد انه غاش مغرر ، وسالب متلصص،وسوء ظن بالمسلمين أيضاً فان أهل الوطن الواحد لا يستغني بعضهم عن بعض مهما ارتقت معارفهم، وعظم اقتدارهم على الاعمال . وغاية الأمر أن ماكان ينال اليوم بدون حق، يصبح وهو لاينال إلا بحق، والاجنبي الذي كان ينفق الواحـد ويربح المئة يرجع إلى الاعتدال في الكسب ، ويحتاج إلى شيء من التعب في استيراد الربح.وقد كان المسيحيون عاملين في الدول الاسلامية وهي في عنفوان قوتها . والاجانب يطلبون الكسب في ارجائها ، وهي في ارفع مقام من عزتها

نعم يعرض في طريق الدعوة إلى الدين على هذا اوجه،أن يلتمس مسلم بعصر

معونة من مسلم آخر بسورية أو بالهند أو بالعجم أو بافغانستان ، أو بغير هذه الأقطار ، لأن مرض الجميع واحد ، وهو البدعة في الدين ، فاذا نجح الدواء في موضع كان السليم أسوة للمريض في موضع آخر . وأما السعي في توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم . فلم يمر بعقل أحد منهم ، ولو دعا اليه داع لكان أجدر به أن يرسل إلى مستشفى المجانين

يكتب بعض أرباب الأقلام من المسلمين في حكمة الحج ، ويقول : إنه صلة بين المسلمين في جميع أقطار الأرض ، ومن أفضل الوسائل للتعاون بينهم . فعليهم أن يستفيدوا منه ، وهو كلام حق . لكن لاينبغي أن يفهم على غير وجهه . فان الغرض منه أن يذكر المسلمون ما بينهم من جامعة الدين ، حتى يستعين بعضهم ببعض على إصلاح مافسد من عقائدهم ، أو ضل من أعمالهم . وفي مدافعة ماينزل بهم من قحط أو ظلم أو بلاء ، وهو أمر معهود عند جميع الأمم التي تدين بدين واحد ، خصوصاً عند الاوربيين

يكثر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ، ويعلقون آمالهم بهمته،[1] وكثير منهم يدعو الى عقد الولاء له ، وهذا أمر لاينبغي أن يدهش ، فان هذه الدولة هي أكبر دول الاسلام اليوم ، وسلطانها أفخم سلاطينهم ، ومنه يرتجى إنقاذ مابين يديه من المسلمين لما حلّ بهم ، وهو أقدر الناس على إصلاح شؤونهم ، وعلى مساعدة الداعين إلى تمحيص العقائد وتهذيب الأخلاق بالرجوع الى أصول الدين الطاهرة النقية . فأي شيء في هذا يزعج أوربا حتى تتحد على هضم حقوق المسلمين اذا حدثت حوادث مثل الحوادث الماضية كما يقول مسيو هانوتو

بقي الكلام على جمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد يقول فيه مسيو هانوتو : إن أوربا لم تتقدم الا بعد أن فصلت السلطة الدينية من السلطة المدنية ، وهو كلام صحيح . ولكنه لايدري مامعنى جمع السلطتين في شخص عند المسلمين . لم يعرف المسلمون في عصر من الأعصر . تلك السلطة الدينية التي

(١) كانت الآمال فيه بقية الى عهد كتابة هذا المقال ولم تلبث أن زالت قبل زواله ثم أسقطه رجال دولته ثم أسقطوا الدولة نفسها دولة آل عثمان الكبرى اه الطبعة الثانية

كانت للبابا على الأمم المسيحية عند ما كان يعزل الملوك ، ويحرم الأمراء ، ويقرر الضرائب على الممالك ، ويضع لها القوانين الالهية . وقد قررت الشريعة الاسلامية حقوقا للحاكم الأعلى، وهوالخليفة أوالسلطان ، ليست للقاضي صاحب السلطة الدينية . وإنما السلطان مدبر البلاد بالسياسة الداخلية ، والمدافع عنها بالحرب أو السياسة الخارجية ، وأهل الدين قائمون بوظائفهم ، وليس له عليهم الا التولية والعزل ، ولا لهم عليه الا تنفيذ الأحكام بعد الحكم ، ورفع المظالم إن أمكن . وهذه الدولة العثمانية قد وضعت في بلادها قوانين مدنية ، وشرعت نظاما لطريقة الحكم وعدد الحاكمين ومللهم ، وسمحت بأن يكون في محاكمها أعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل التي تحت رعايتها . وكذلك حكومة مصر أنشئت فيها محاكم مختلطة ومحاكم أهلية بأمر الحاكم السياسي ، وشأن هذه المحاكم وقوانينها معلوم . ولا دخل لشيء من ذلك في الدين . فالسلطة المدنية هي صاحبة الكلمة الأولى كما يطلب مسيو هانوتو . ولكن مع ذلك لم يظهر نفعها في صلاح حال المسلمين ، بل كان الأمر معكوساً ، فان أمراءنا السابقين لو اعتبروا أنفسهم أمراء الدين ،لمااستطاعوا المجاهرة بمخالفته في ارتكاب المظالم، والمغالاة فىوضع المغارم ، والمبالغة فىالتبذير الذي جر الويل على بلاد المسلمين، وأعدمها أعز شيء كان لديها وهو الاستقلال

إن فرنسا تسمي نفسها حامية الكاثوليك فى الشرق ، وملكة انكلترا تلقب بملكة البروتستانت ، وامبراطور الروسيا ملك ورئيس كنيسة معاً ، فلم لايسمح للسلطان عبد الحميد أن يلقب بخليفةالمسلمين أو أمير المؤمنين؟

لا أظن أن مسيو هانوتو يسيء الظن بدعوة دينية على الوجه الذي بيناه، وأظنه يكون عونًا للمسلمين على تعضيدها في البلاد الاسلامية الفرنساوية اذا وجد فيها من يقوم بها ، وأنا أضمن له بعد ذلك أن تتفق مصالح المسلمين مع مصالح الفرنساويين . فان المسلمين اذا تهذبت أخلاقهم بالدين،سابقوا الاوربيين فيا كتساب العلوم وتحصيل المعارف ، ولحقوا بهم فى التمدن ، وعند ذلك يسهل الاتفاق معهم إن شاء الله

المقالة السادسة

في الرد على هانوتو

سوء ظن المسلمين بسياسة أوربا كلها ، وعدم ثقة سياسيهم بدولة من الدول واعتقاد المسلمين بأن مصلحة أوربا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية ، وعدم اطمئنانهم الى سياسة الدول المسيحية ، حتى أدى بهم فقدان الثقة بالمسيحيين الى أن لا يأتمنوا مسيحياً عثمانياً ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم — سمع بذلك كله مسيو هانوتو من صاحب الجريدة المعروفة(١) ومن بعض العثمانيين في الاستانة وباريس . ثم أخذ يبرهن على أن سياسة أوربا اقتصادية ملكية لادينية لاهوتية.

لاأدري من هم المسلمون الذين وصفهم موسيوهانوتو ؟ ومن ابلغه أخبارهم؟ أهم الهنود وهم في حكم دولة أجنبية ولا نزال نرى في خطبهم وجرائدهم مايدل على طاعتهم لحكامهم ، وتعليقهم الآمال بعدلهم والتماسهم الحق من طرقه

هل هم مسلمو الروسيا وثقتهم بحكومتهم وثقة حكومتهم بهم لا تخفى على أحد، حتى إن الدولة الروسية تفضلهم على المسيحيين من غير المذهب الاورثوذكسي

هل هم الأفغانيون ؟ واخلاص أميرهم في مصافاة الانكليز أشهر من أن يذكر ولا ينفي إخلاصه حرصه على بلاده ، ومحافظته على مصلحتها

هل هم الفرس؟ واستنامتهم الى السياسية الروسية لايجهلها أحد ؟

هل هم المراكشيون وهم بمعزل عن كل مايسمى سياسة ، بل هم في غفلة عن الدين والدنيا جميعاً شغل بعضهم ببعض ، فلا ينفكون يتقاتلون ويتسالبون حتى يقضي الله فيهم بقضائه .

هل هم التونسيون وقد أثني عليهم موسيو هانوتو بما هم أهله ، وثبت له ارتياحهم الى السلطة الفرنساوية لمجرد ما أطلقت لهم الحرية في دينهم

لعله لم يقصد الا العثمانيين كما يدل عليه بقية كلامه ، وكما يفيده قوله أن

لا يأتمنوا مسيحياً عثمانيا ، والعثمانيون منهم المصريون ومنهم غيرهم . فأما المصريون فلا شيء عندهم يدل على عدم الثقة بالاوربيين وبالمسيحيين العثمانيين فانهم يشاركون في العمل مواطنيهم من الأقباط في جميع مصالح الحكومة ماعدا المحاكم الشرعيـة الخاصة بالمسلمين ، وهم معهم في غاية الوفاق ، خصوصا أهل الاخلاص وسلامة النية منهم ، ولكل من الفريقين أصدقاء وأحبـة في الفريق الآخر . ثم شأنهم هو ذلك الشأن مع سائر الطوائف المسيحيـة ، الا من ظهر منهم بالتعصب البارد للدين ، وآذاهم في دينهم أو في منافعهم الخاصة بهـم ، لا لشيء سوى التعصب الأعمى ، ولا نطلب على ذلك شاهداً أقرب من صاحب الجريدة الذي يحادثه موسيو هانوتو إنه بعد ان كان على المسلمين اثناء الحرب الروسية العثمانية ، وبعد أن اتى ما اتى عقب الحوادث العرابية شهد له المسلمون بأنه صديقهـم ، والساعي في خيرهم ، كما افتخر بذلك مراراً في جريدته ، وإن كانت له اليهم هنات لاتزال تبدو من فيه الى وقت ذلك الحديث . فأين فقـد هذه الثقة بالعثمانيين المسيحيين في مصر؟ هل طرد أحد من خدمة الحكومة لأنه مسيحي عثماني ؟ هل حرم أحد حق المحاماة ! أو إنشاء الجرائد أو المطابع ؟ أو إقامة المصانـع ، أو تأسيس البيوت التجارية لأنه مسـيحي عثماني ؟ فليأت صاحبنا بشاهد واحد

وأما حالهم مع الاوربيين ، فاننا نراهم إذا أحسوا بعدل من انكليزي ذكروه ، أو وصل اليهم معروف من أي عامل أوربي شكروه ، بل أزيدك على هذا أن المستغيث منهـم بالحكومة يطلب منها أن يتولى تحقيق مظلمتـه انكليزي ، كما شوهد ذلك كثيراً في شكاياتهـم . وليس بقليل من يعرض شكواه على جناب اللورد كرومر ، وهو ليس بحاكم رسمي ، فأي دليل على الثقة أكبر من هذا؟

ليس بقليل في مصر من يثق بالفرنساويين ، ومن له بينهم أصدقاء يركن اليهم ويعتقد بولائهم وموسيو هانوتو وصاحب الجريدة يعرفان

كثيراً ما أغرى الأوربيون من فرنساويين وأمريكيين من أرباب المدارس في مصر شـباناً من المسلمين بالمروق من دينهم والدخول في الديانة المسيحية ،

وفروا ببعضهم من القطر المصري الى البلاد الأجنبية ، وأحرقوا كبد والديه . ومع ذلك لا نزال نرى المسلمين يرسلون اولادهم الى مدارسهم ، وناظر المعارف عندنا وزير مسلم واولاده يتربون فيمدارس الجزويت ، وكثير من ابناء الاعيان في مدارس الفرير . فأيّ ائتمان يفوق هذا الائتمان

زادت ثقة المصريين من المسلمين بالاوربيين ، خصوصافي المعاملات ، حتى اساء اولئك الاوربيون استعمالها ، وانتهزوا فرصتها فسلبوا كثيراً من اهل الثروة ما كان بأيديهم . ومع ذلك فهم لايزالون يأمنونهم ويغالون في الاستنامة اليهم ، ويقلدونهم فيما يخالف دينهم وعوائدهم ، فماذا يطلب من الثقة فوق هذا ؟ !

هل يشكو عقلاء المسلمين في مصر من شيء مثل مايشكون من الثقة العمياء بالأجنبي من غير تمييز فيما هو عليه من إخلاص او غش ، من صدق او كذب ، من امانة او خيانة ، من قناعة او طمع ؟ حتى آل الأمر بالناس الى ما آل اليه من خسارة المال وسوء الحال . فهل هذا هو فقد الثقة بالأوربيين والعثمانيين المسيحيين الذي يعنيه حضرة صاحب الجريدة وجناب موسيو هانوتو ؟

وأما العثمانيون من غير المصريين فاذا ارتقينا إلى الدولة وسلطانها أيده الله وجدنا أن نظام الدولة قاض باستعمال المسيحيين في ادارتها ومحاكمها في كل بلد فيه مسيحيون ، والمأمورون من المسيحيين ينالون من النياشين والرتب ما يناله المسلمون على نسبة عددهم أوفوق ذلك ، وكثير من المسيحيين نالوا من الامتيازات والمنافع في الدولة مالم ينله مسلم ، وسفارات الدولة ومناصبها العالية لاتخلو من المسيحيين (*

إقبال السلطان على رؤساء الطوائف المسيحية وانعامه عليهم بوسامات

*) كان قبل هذا العهد جميع سفراء الدولة أو أكثرهم من النصارى ولا سيما الارمن حتى انتقد ذلك وزراء تلك الدول : أخبرني الغازي أحمد مختار باشا ان البرنس بسمارك الشهير قال له انهم متعجبون من ذلك وانه هو لا يعتد بتمثيل رجل نصراني لدولة اسلامية يعد سلطانها خليفة بين المسلمين وقال له أنا أطلب سفيراً مسلما أعرف منه شعور أمته بل أريد سفيراً معمماً !!

الشرف ، واختصاصه لبعضهم بشرف المثول في حضرته والاحسان اليه برقيق المخاطبة لاينقطع ذكره من الجرائد ، صاحب الجريدة التي نقلت الحديث أمثل شاهد على مثل ذلك ، فقد جاهر زمنا ليس بالقصير بما لا ترضى الدولة بمثله ولا بأقل منه من مسلم ، ثم سهل عليه وهو مسيحي ان يكون موضع ثقة للجناب السلطاني حتى أدناه منه ، وقبله في مجلسه ، وسمع منه أمير المؤمنين تلك النصيحة المفيدة التي نشرها في جريدته من نحو شهرين ، إثر هبوبه لنصرة مسيو هانوتو ، ثم والى عليه إحسانه بالرتب والنياشين وغيرها ، فما هي الثقة إن كان هذا فقدها ؟

وأما سياسة الدولة الخارجية، فالفرنساويون يشكون من مصافاة السلطان وثقته بدولة ألمانيا، وهي دولة مسيحية، ولا أظنهم يشكون من ثقة أخرى بدولة اسلامية، وكانت للدولة ثقة لاتتزعزع بالسياسة الانكليزية، ثم حدثت حوادث أهمها نشأ من ضعف سياسة موسيو غلادستون ، فأعقبها اضطراب في تلك الثقة مدة من الزمان بحكم الضرورة، ثم انا نراها اليوم تتراجع، وفي رجال الدولة من لهم ثقة بصداقة روسيا، ويودون لو مالت اليها سياسة الدولة، وهم مسلمون

والذي أحب أن يعرفه موسيو هانوتو ان سياسة الدولة العثمانية مع الدول الأوربية ليست بسياسة دينية، ولم تكن قط دينية من يوم نشأتها إلى اليوم ، وإنما كانت في سابق الأيام دولة فتح وغلبة، وفي أخرياتها دولة سياسة ومدافعة ، ولا دخل للدين في شيء من معاملاتها مع الأمم الأوربية

امبراطور ألمانيا جاء إلى سورية للاحتفال بفتح كنيسة ، فبالغ السلطان في الاحتفال به إلى الحد الذي اشتهر وبهر . يجيء الأمراء المسيحيون من الأوربيين إلى الآستانة فيلاقون من الاحتفال مالا يلاقونه في بلاد مسيحية، وينفق في تعظيم شأنهم من المال ما المسلمون في حاجة اليه ، أليس ذلك لمجاملتهم واكتساب مودتهم ؟ وهل بعد المودة إلا الثقة بصاحب المودة ؟ كان يمكن للسلطان أن يكتفي بالرسميات ولا يزيد عليها ولكن عهد في معاملته ما يفوق الرسمي بدرجات فان سلمنا

ان سياسة أوربا ليست بدينية من جميع وجوهها ، فسياسة الدولة العثمانية مع أوربا هي كذلك ومسلموها تبع لها

فان قال قائل : ان حوادث الأرمن لم تزل في ذاكرة اهل الوقت وينسبون وقائعها إلى التعصب الديني بل يقولون إن أسبابها مظالم جر اليها ذلك التعصب : أمكن أن يجاب بأن العداوة مع طائفة مخصوصة لا تدل على فقد الثقة بكل مسيحي منها ومن غيرها ، ومع ذلك فان كثيراً من الأرمن في خدمة الدولة إلى اليوم وهم بذلك موضع ثقتها ، وهذا وذاك يدل على الريب فيما يزعمون من أن منشأ تلك الوقائع التعصب الديني ، فان المسيحيين سواهم في الممالك العثمانية أنعم حالا من المسلمين كما شاهدناه بأنفسنا ، ولو أنصف الأوربيون لأمكنهم فهم أسباب هذا الاضطراب الذي يظهر زمناً بعد زمن في تلك الأقطار ولسهل عليهم ان يعرفوا ان منبعه في أوربا لا في آسيا

لا يغث عليَّ أن أقول إن المسيحيين في الممالك العثمانية متمتعون بنوع من الحرية في التعليم والتربية وسائر وجوه الخير يتمنى المسلمون أن يساووهم فيه ، فهل هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين وعدم الثقة بهم ؟ لا يليق بكاتب مثل صاحب الجريدة ان يروي عن المسلمين كافة مثل ما رواه ، فان ذلك مما يحزن المسلمين والمسيحيين جميعاً ، واني أعتقد انه عند الكلام على المسلمين لم يكن في ذهنه إلا بعض أشخاص لم تعجبه آراؤهم فيه ، فاستحضر في صورهم جميع المسلمين وسياستهم

ليعلم موسيو هانوتو ان جميع مايقال له أو يكتبه بعض العثمانيين لا حقيقة له إلا في ذهن القائل أو الكاتب ، فلا ينبغي أن يعول على مثله في أحكامه ، وعليه أن يحقق الأمر بنفسه ان كان يهمه أن يتكلم فيه

وأما ان المسلمين أخذوا عليه فيما كتب عن الاسلام مع انه خدمهم ، وقوله : فكيف بحالهم مع من لم يخدمهم ؟ فنبين له الوجه فيه ليزول عنه ماسبق إلي فهمه : لو اقتصر على الكلام في السياسة وبحث في علاقة المسلمين مع حكومته ولم يسط على الدين نفسه في أصلين من أهم أصوله ، لما أخذ عليه أحد الا من ينتقد رأيه من

جهة ماهو صحيح أو غير صحيح، ولكنه لم يكتف بذلك وطعن في عقيدة التوحيد، وبيّن رداءة أثرها في المسلمين ، واستل سلاحه على عقيدة القدر ، وبيّن سوء ماجرت اليه فيهم ، وهو بذلك يثبت ان المسلمين لا يزالون منحطين مادامو امسلمين. وهو مالا يرضاه أحد منهم

لو مال على المسلمين فيما هم عليه اليوم وفي انحرافهم عن أصول دينهم، واكتفى بتعنيفهم على أهمالهم لشؤونهم، وغفلتهم عن مصلحتهم، كما جاء في حديثه الذي نحن بصدده ، لما وجد من المسلمين إلا معتبراً بقوله متعظاً بنصيحته ، والسلام .

***

(يقول جامع الكتاب) إن الغرض الذي رمى اليه الاستاذ في الرد على موسيو هانوتو هو تنبيه المسلمين وارشادهم إلى النظر في عيوبهم ، والبحث عن الأسباب التي أفسدت عليهم أمر دينهم ودنياهم ، وعمت ملوكهم وحكامهم ، وسوقتهم ودهماءهم ، والجمع بين بيان أسباب الفساد وبيان المخرج منها — ثم إنها على ماكان من حسن تأثيرها ، ولهج الألسن بها ، وطبع الألوف الكثيرة من نسخها ، لم تحمل المسلمين على اصلاح خلل في تربية ولا تعليم ولا إدارة ولا سياسة ، وإنما كان ذلك التأثير قاصراً على التلذذ بفلج إمامهم في المناظرة وظهور حجته في العلم والدين والسياسة على كاتب من أكبر رجال أوربة ، وذلك شأن الأمة في طفوليتها : سرور كسرور الاطفال ، وغضب كغضب الاطفال ، لا يبعثان على عمل من الاعمال !!

ولم يكن نصيب رجال الدولة الاسلامية الكبرى خيراً من نصيب رجال الامه الاسلامية الجامعة من هذه الآيات والعبر فقد صرح الامام بأن سياستها غير دينية وان ادارتها غير اسلامية ، وأشار الى دابة الالحاد التي تأكل منسأتها فلم يعتبر أحد من رجالها فلما خرت صريعة زعم الملاحدة الذين أسقطوها بجهلهم ان اتباع الاسلام هو الذي ثل عرشها وأودى بملكها !!

التربية

التي يكون بها الانسان انسانا ، والجماعة الكبيرة أمة

خطاب في احتفال الجمعية الخيرية الاسلامية

(ظفرنا بعد الشروع في طبع الفصل الخامس بهذا الخطاب الذي ألقاه الاستاذ الامام في الاحتفال السنوي للجمعية الخيرية الاسلامية ونشر في المؤيد منه في ربيع الاول سنة ١٣١٤ فاستدركناها هنا)

إن الجمعية لم تأخذ على عاتقها أن تساعد كل عائلة فقيرة في الأمة لأن ذلك فوق استطاعتها ، بل وضعت لها قانونا اتفق عليه جميع أعضائها، وهو قد اشتمل على شروط معينة يجب أن تراعيها الجمعية عند إعانة من تريد إعانته من الفقراء

ثم جعلت كما قدمتُ أهم مقصد لديها إصلاح حال الناشئين من اولئك الضعفاء المساكين بالتربية والتهذيب ، إذ الواجب علينا أن نعتني قبل كل شيء بما تعتني به الأمم الأخرى الناجحة قبل غيره ، وهي لم تعتن بشيء أكثر من التربية وتحسين أخلاق العامة ، وها نحن أولاء نرى فساد الأخلاق عامًا ومصائبه مشاهدة للجميع

إذا رأينا مجالا للفخار افتخرنا بآبائنا وأجدادنا الاولين، واذا حاسبنا أنفسنا رجعنا بالملامة والذم على آبائنا الاقربين، وفي ذلك الفخار كبير العار ، وفي هذا اللوم عظيم اللوم . لاننا نحن قد أهملنا وقصرنا وأضعفنا أهم ركن وهو التربية . أهملنا فتركنا ذلك الفخار التالد يذهب هباءاً منثوراً . فلم نتدارك من آثاره شيئاً، وزدنا الطينة من إهمال أسلافنا الاقربين بلة باهمال آخر فقوضنا ما كان باقيا من آثار ذلك الفخار ، فكان لنا ذلك العار ، وهذا الشنار

ان الانسان لايكون إنسانا حقيقيا الا بالتربية وليست هي الا عبارة عن اتباع الاصول التي جاء بها الانبياء والمرسلون من الاحكام والحكم والتعاليم . وهي عبارة عن السعادة الحقيقية ، تعلم الانسان الصدق والامانة ومحبة نفسه فاذا

تربى الانسان أحب نفسه لأجل أن يحب غيره وأحب غيره لأجل أن يحب نفسه.

إذا تربى الانسان أحس في نفسه انه سعيد بوجود الآخر معه، ولكن نحن في وسط لا يحس فيه أحدنا الا بأنه شقي بوجود غيره ، وقد ذهبت الثقة بيننا أدراج الرياح وخلفتها الشكوك والريب والظنون الآثمة المولدة للوساوس والأوهام ، ولا شقاء للمرء أعظم من وجود ضميره في مثل هذا الشقاء والحسبان

ولكن لو كنا متربين لا نبث فينا احساس واحد يؤلف بين شعورنا وحاجاتنا وحينئذ يحس كل فرد منا بأن عليه وظيفة يؤديها لنفسه ولغيره

ان بلادنا ليست بلاد الجوع القتال ،ولا بلاد البرد القارص المميت ، ولا بلاد الشقاء التي لا ينال الانسان فيها قوت يومه إلا بالعذاب الأليم . بل نحن في بلاد رزقها الله سعة من العيش ،ومنحها خصوبة وغنى يسهلان على كل عائش فيها قطع أيام الحياة بالراحة والسعة . ولكنها ويا للأسف مُنيت مع ذلك بأشد ضروب الفقر : فقر العقول والتربية

ليست القوانين التي تفرض العقوبات على الجرائم وتقدر المغارم على المخالفات هي التي تربي الأمم وتصلح من شؤونها . فان القوانين لم توضع في جميع العالم إلا للشواذ والهفوات والسقطات . وأما القوانين العامة المصلحة فهي نواميس التربية الملية لكل أمة

ونحن على نموذج هذه التربية قد جرينا في خطة التعليم بمدارس الجمعية الخيرية،(١) ونتمنى أن يصبح هذا النموذج يوماً ما عاماً بين جميع أفراد الامة المصرية . وإذا لم توجد التربية على مثل هذا النمط فلا حياة للامة ولا سعادة

إن العلم الحقيقي هو الذي يعلم الانسان العلاقة الموجودة بينه وبين غيره من أفراد جامعته، فهو إذاً يعلم الانسان من هو ومن معه فيتكون من ذلك شعور واحد وروابط واحدة هي مايسمونه بالاتحاد

وسنة الله في خلقه ان توجد الروابط في العائلات ومنها الى الفروع ومنها الى الاصول القومية ومنها الى مجموع الامة التي هو منها . اذاً فلابد من الوقوف على

(١) كذا كان يريد رحمه الله ولكن لم يتم له ما يريد ، لقلة الرجال وقلة المال

كنه هذه الروابط ومعانيها ، واذا تمكن هذا العلم من نفس الانسان تعلم كل شيء وبحث عن طرق النجاح في كل شيء ، ولكن كيف يوجد الاتحاد مع هذا الفساد الذي نشاهده عاما في أخلاق الامة ـ وقد انعكست آية الوجدان فاذا الانسان أجفى مالديه الاقرب فالقريب فالبعيد فالابعد ؟

ألاان الاتحاد ثمرة لشجرة ذات فروع وأوراق وجذوع وجذور هي الاخلاق الفاضلة بمراتبها ، فعلى المسلمين اذا أرادوا الاتحاد أن يربوا أنفسهم تربية اسلامية حقيقية ليجنوا تلك الثمرة ، وبغير ذلك كل أمل باطل ، وكل الاماني أحلام أو أوهام ، وكل احتجاج بغير سعي عجز

الناس في كل الامم أكفاء في التمثيل ، ولا نقص فى الدنيا الامن جهة العقول والأخلاق ، وهي لا تكمل الا بالتربية ، وما وراء ذلك من العلوم لا يبث فيها غير اللقلقة والهذيان

وان الجمعية الخيرية الاسلامية قد شرعت فى طريقة ابتدائية للتربية ، ولديها أمل أن تصل الى الطريقة الانتهائية طريقة العمل ، لا طريقة العلم المعيبة التي نرى مثالها فى الذين يأتون الينا كأساتذة عندما نعلن عن حاجتنا لمعلمين وليس لديهم مايؤهلهم للتربية والتهذيب . واست أقول ذلك قدحا فى طريقة التعليم الجارية بين ظهرانينا ، ولكنني أقول بالاجمال انها غير ملائمة لمنهاج جمعيتنا التي تحسب ان تصلح شؤون الناشئين من الطبقات النازلة

نحن نتمنى تربية بناتنا فان الله تعالى يقول (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) الآية . إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تشرك الرجل والمرأة في التكاليف الدينية والدنيوية . فكان بذلك ترك البنات يفترسهن الجهل وتستهويهن الغباوة من الجرم العظيم

انظروا إلى المرأة حين تقول لابنها مثلا اذا أرادت أن تمنحه شيئا : خذ هذا وأخفه عن الأعين حتى لا يراك أخوك . فكم من نقيصة علمته بمثل هذا القول؟ علمته ثلاث خصال هن الموبقات المهلكات: الأثرة والدناءة والسرقة . وربما توصيه بانكار ماأعطته اذا سأله أخوه ، فتعلمه بذلك أقبح خصال السوء والفساد

وهو الكذب، وقد لا يتعلم الطفل عندما يراد تمرينه على النطق والكلام غير ألفاظ السباب والشتائم القبيحة ، فيشب الطفل متعوداً على أن تلفظ شفتاه كل كلام قبيح، لا يعبأ بماذا ينطق ولا يبالي بما يقول

واني أذكر حديثاً شريفاً أو اثراً بمعناه هو ان الرجل لينطق بالكلمة لا يرى لها بالا فيهوى بها في النار اربعين خريفا[1]

فتأملوا في فظاعة الاخلاق التي يشب عليها ابناء و بنات العامة من الامة ولا خلاص لنا من هذه الورطة الشنيعة الا بالتربية الكاملة الشاملة للابناء والبنات وان النساء الجاهلات والرجال الجاهلين لا يمكن أن تتكون من بينهما امة ولا جمعية وعلى الخصوص اذا اصبحت العلائق والروابط الطبيعية مهددة بين الناس كما نشاهده بيننا الآن

ولقد استنتجت بالاستقراء منذ كنت قاضياً في احدى المحاكم الجزئية ان نحو (٧٥) في المائة من القضايا بين الأقارب بعضهم مع بعض بما لم يحمل عليه غير التباغض وحب الوقيعة والنكاية ،فهل من المعقول أن يكون الفساد في العلائق الطبيعية الى هذا الحد من التصرم، ونتساءل عن تصرم العلائق الوطنية؟ هل يمكن اننا بعد أن نفقد الروابط الضرورية بين العائلات نبحث عن الروابط للجامعة الكبرى . أو ليس هذا كمن يطلب الثمر من أغصان الشجر بعد ماجذ أصولها وجذورها، وقطع أوصال عروقها ، وغادرها مجرد قطع أخشاب يابسة

اللهم ان كنا نريد الحياة الطيبة والسعادة الدائمة فلنعمل لاصلاح شؤون الناشئين بالتربية المثقفة المهذبة ، ولنجهد أنفسنا في طريق استكمال الاخلاق الفاضلة . وكلما زدنا في سبيل ذلك سعياً توفر لدينا حب تعضيد هذه الجمعية ونمت ثروتها فأدت وظيفتها للامة كما ينبغي . ونسأل الله أن يصلح ما بيننا من فساد، وان يوفقنا جميعاً إلى ما به نجاحنا وفلاحنا وسعادتنا . اه

---

(١) روي هذا المعنى في عدة أحاديث أقربها إلى هذا اللفظ « ان الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفا في النار » رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أبي هريرة مرفوعا بسند صحيح . ومنها مارواه أحمد من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعا « ان الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا ليضحك القوم وانه ليقع بها أبعد من السماء »

باب الرحلات العلمية التاريخية

(فصل من رحلة الاستاذ الامام الاخيرة إلى اوربة وجزيرة صقلية وتونس والجزائر سنة ١٣٢١ هـ ١٩٠٢ م دوّن فيه مارأى فيه الفائدة والعبرة من الآثار العربية في بلرم عاصمة جزيرة صقلية . وكنا ننتظر فرصة فراغ منه نطالبه فيها بكتابة فصول أخرى من تلك الرحلة فلم تسنح)

بالرم — صقلية

{ نشر هذا الفصل في أجزاء مجلدي المنار السادس والسابع }

« أفلمْ يسيروا في الأرض فتكونَ لهم قلوب يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور »

قضت المقادير أن أغير خطة سفري عن طريق مرسيليا إلى طريق ايطاليا وكان لي في ذلك خطان من السير أحدهما يمر ببالرم ثم يصل إلى نابولي ، ثم تكون الاقامة في نابولي نحو أربعة أيام ويعدو المركب بنا إلى مسينا ومنها يذهب إلى الاسكندرية ، والآخر ينتهي عند بلرم أو « باليرم » وتكون الاقامة خمسة أيام نذهب بعدها إلى مسينا[١] كذلك ، وكان بودي لو ذهبت مع الخط الاول فكنت رأيت بلداناً كثيرة ، وآثاراً عظيمة، تزيد في علمي كثيراً مما لم أعلم إلى اليوم غير أن بعض أصحابي قال لي أن بلرم هي عاصمة صقلية ، ويوجد فيها من الآثار العربية مايهم العربي أن يراه ، وفيها داران للكتب، لاتخلو كل منهما من كتب عربية قديمة ربما يستغرق الاطلاع عليها زمناً مثل الزمن الذي تقضي الضرورة بصرفه إلى يوم السفر إلى مسينا : ففضلت النزول إلى بلرم ولا أذكر الآن شيئاً مما لاقيت من الحمالين وغيرهم من مستقبلي المسافرين ولكن أعود اليه

(١) كانت العرب تسميها مسيني . قال الشاعر * من ذا يعيني على مسيني *

بعد أن أخذت مكانًا في نزل سنترال بشارع روميةخرجت لا يصال بعض رسائل التوصية إلى من أرسلت اليهم فلاقيت منهمماسرني ،وكان أحدهم موصى بأن يسهل لي طريق زيارة المكتبة العمومية ودار المحفوظات الرسمية ، والتمكن من رؤية مايكون فيها ، فوعدني المجيء في الغد لمرافقتي إلى المكتبة

قصر الملك في بلرم وكنيسته

ثم بعدذلك بدأت بزيارة قصر الملك ولاحاجة بي إلى وصفه فان ذلك من شأن صاحب جريدة أو سائح يطلب اظهار البراعة في حسن الوصف وسعة العبارة . وغاية ماأقول أنه قصر أو (سراي) واسع كبير البيوت باهر الزينة والأثاث كسائر قصور الملوك في أوربا أو في غيرها من البلاد الشرقية والعربية، مماتنفق فيه الأموال بحساب وبغير حساب ،ولا شيء منها من كد الملك أو الامير . وانما هي من أموال الرعية وكسب الحفاة العراة الذين لايجدون مابه يستترون ،ويشتهون لو أنفق على جدران أبدانهم وأركان أجسادهم جزء من المليون مما أنفق على حيطان تلك القصور وزواياها وسقوفها — ماأنا بذاكر شيئًا من وصف ذلك الغنى في بلد الفقر ، ولكن أذكر مارأيت فيه مما يحب الشرقي أن يطلع عليه اما لعبرة واما لفكاهة .

ذهب بي حارس القصر أولا إلى حيث توجد كنيسة الملك ولاحاجة إلى وصفها كذلك — إلا لو كان الله يحب أن تزين له معابده ، وتنقش لمجده مساجده ، كما يحب ذلك ملوك الارض — فوجدت في الممر الموصل اليها على الحائط المتصل بالكنيسة حجرأ قد كتبت عليه هذه العبارة :

« خرج الأمر من الحضرة الملكية المعظمية الرجارية العلية أبد الله أيامها، وأيد أعلامها بعمل هذه الآلة لرصد الساعات بمدينة صقلية المحمية سنة ست وثمانين وخمسمائة » ثم في أعلى الحجر سطور بالحرف اليوناني يظهر أنها ترجمة هذه العبارة . والحضرة الرجارية هي حضرة الملك رجار أو (روجير) النرمندي الذي دخل جزيرة صقلية وفتحها على العرب ، وكان لسانه الرسمي في حكومته اللسان العربي واليوناني . وأما ميله في البناء والزينة فكان إلى الرسم اليوناني . ولهذا

الملك آثار كثيرة في بلرم ، ويوجد كثير من المحررات العربية والصكوك مما كتب في أيامه . ويقال أن العرب كانوا في زمن النرمنديين ممتعين بحرية تامة في اقامة شعائر دينهم وتصرفهم في شؤونهم ، وإن كان هذا الملك قد هدم مساجد كثيرة لنقل أعمدتها الجيلة إلى الكنائس التي رأى تجديدها في المدينة ، ويظهر من العبارة المرقومة على الحجر أن هذا النرمندي كان عندما دخل البلاد ذهب مذهب أهلها من العرب في المدينة ، ولم يحتقر ماوجد من آثار العلم ، فكان يأمر بصنع الآلات الفنية والفلكية ، ويساعد القائمين بعملها

رأيت في خزينة الجواهر من قصر الملك صندوقا عربياً في طول نحو ثلثي ذراع ، وارتفاع ثلاثة أرباع الذراع صنع ، من نحو ثمان مئة سنة على مايقول الحارس، وهو مغشى بالنقوش الذهبية من أجمل ماتراه عين الآن ، وقيمته عند الدولة خمس مئة ألف فرنك ، ورأيت في أحد بيوت القصر باباً من الحديد مطلياً بطلاء أصفر جميل من أجمل مايصنع من الابواب ، وهو من صنع أيدي العرب أيام دولتهم

ورأيت بيتاً من بيوت القصر فيه صور نواب الملك في عهد البربون بعد النرمنديين، ومع كل نائب منهم كردينال كما كان للملوك كرادلة يصحبونهم ويشركونهم في كثير من شؤون الملك . لذلك كان النائب عن الملك يصحبه كردينال يرجع اليه في أمور دينه ، وفي أعماله السياسية أيام كانت الاحكام المدنية والسياسية مما يدخل فيه رجال الدين كما نقول عندنا « المفتي أو شيخ الاسلام » في عهد الملوك الذين لاتسمح لهم أوقاتهم بتعلم العلوم الدينية فيحتاجون إلى من يرجعون اليه من علماء الدين . غير أن المفتي وشيخ الاسلام انما يجيب عما يسئل عنه ، أو يؤدي ماكلف به . وأما الكردينال فكان يبتدىء المشورة ، ويقترح المطلب ، ويقيم نائب الملك على المذهب ، ويكف يده عن العمل الذي لايرضاه ويحمله على بسطها فيما يتوخاه ، فكانت السلطة الحقيقية مدنية سياسية دينية في نظام واحد لافصل فيه بين السلطتين . وهذا الضرب من النظام هو الذي يعمل البابوات وعمالهم من رجال الكثلكة على ارجاعه ، لأنه أصل من

أصول الديانة المسيحية عندهم ، وإن كان يذكر وحدة السلطة الدينية والمدنية من لا يدين بدينهم

الكنيسة الكبرى والأديار

وكان مما قيده بعض أصدقائي في جريدة الأمكنة التي يرغب في رؤيتها محل يسمى بالدوم أي القبب فذهبت اليه واذا هو الكنيسة الكبرى التي تسمى (كاتيدرال) رئيسها هو مرجع رؤساء بقية الكنائس في المدينة أو الولاية ، وهي من عظمة البناء وبهجة الزينة على مايطول شرحه . وأصل هذه الكنيسة الكبرى مسجد باق على ماهو عليه حتى بابه الخشبي الجميل ، غاية مافي الأمر أنه زيدت فيه الصور والتماثيل ، وضروب أخرى من الزينة الكنسية . ويمكن للناظر أن يتفرس ذلك بمجرد رؤيته من الظاهر لأن رسم البناء على الطريقة العربية في عامة المساجد .

وزرت بعد ذلك ديراً يسمى دير سانت جواني ، وهو مما كان قد كتب في جريدة الاماكن ، ولم أر فيه شيئاً سوى أن أسفل الدير كان مسجداً . فلما جاء النرمنديون حولوه الى كنيسة بناها راجار ونقل اليها هذه الاعمدة من المساجد التي خربها لما أعجبه من أعمدتها ، ثم أخذني السادن بعد ذلك إلى قبة قريبة من الكنيسة وقال لي انها على شكل عربي . ولما رأيتها خالية من الزينة المعتادة رؤيتها في أماكن العبادة النصرانية ، سألته عن ذلك فاخبرني أن الاسبانيين عند ماغلبوا على صقلية سلبوا ماكان في هذه الكنيسة من الموزاييك (زينة من أجمل ماتزين به الاماكن والادوات تصنع من قطع دقيقة من الحجارة على أشكال مختلفة بحيث يصوّر بها جميع مايمكن تصويره من الرسوم والصور) وحملوا ذلك إلى بلادهم وقال انهم لم يقتصروا على ذلك ، بل سلبوا الكنائس كل ما كان فيها من المصنوعات الفضية كذلك . فقلت لصاحب كان معي يظهر أن كل فاتح يرى من الواجب عليه أن يفسد شيئاً من عمل من سبقه . فكل منهم يقوم بما رآه واجبا عليه :

وعرفت قسيساً حلبياً معلماً للعربية بمدرسه دير الكبوشيين في بلرم — وسنأتي على ذكره — فما أرشدني اليه رؤية بقية من قصر يسمى العزيزة وهو اسمه في الطليانية فذهبت معه اليه وإذا هو قاعة كبيرة فيها سلسبيل ماء بنيت على نحو ما كنا نسميه عندنا (القاعات الحرميـة) حيطانها مزينة بالموزاييك من أجمل ما تحب عين أن تراه ، ولم يبق من القصر مكان ينظر اليه السائحون إلا تلك القاعة، وأما أعلى القصر فيسكنه أناس من أهل المدينة وقد دخـل بتمامه في ملك بعض الاغنياء . والقصر من بناء الملك راجار النرمندي بناه لابنتـه عزيزة . وعلى مقربة من هذا القصر قبة يقول القسيس أنها مسجد عربي ، فأخذنا نحوها فاذا هي في بستان كبير قد أغلق بابه ، وقيـل لنا ان خادم البستان فيـه ، وذهب ذاهب ليناديه ، وطال بنا الوقوف ، واجتمعت علينا من الصغار والنساء صفوف أو زحوف ، جلبتهم علينا تلك العمامة وصاحبتها الجبة . وكلما طردنا فوجاً أقبل فوج ، أو نجونا من موج علا علينا موج ، إلى أن جاء رجل قيل أنه هو حارس البستان ،وبعد قيل وقال في فتح الباب واحتياجه الى اذن من صاحب البستان، رضي بالفتح . طمعاً في النفح . فدخلنا ورأينا صعوبة جديدة في فتح القبة فذللناها القبة من قباب المشايخ التي يقيمها المسلمون على قبور الأولياء اوالامراء على خلاف ما يأمر به الدين . وأظن أنها على قبر من هذه القبور وليس فيها من أثر عربي سوى شكلها هذا

﴿ كنيسة موريالي ، وتساهل العرب ، وأين هم اليوم؟ ﴾

مما رأيته في بلرم (صقلية) كنيسة موريالي ، وجميع سقفها والأغلب من جدرانها مغشي بالموزاييك ألوانا وأشكالا من أبهى ما يبهج الناظر، وأجمل ما يسرح فيه الخاطر . وفي ناحية منها قبة تعرف بمعبد الصليب ، فيها من التماثيل وضروب الزينة ما يقصر عنـه الوصف . وأهم ما يذكر من شأنها أنها مبنية في القرن السادس من التاريخ المسيحي ، فيكون لها نحو الف وثلاث مائة سنة ، والمصنوعات الخشبية الجميلة محفوظة من ذلك العهد لم يجرأ السوس على قرض

شيء منها ببركة العناية والاهتمام بالتنظيف . وأما مايقول به بعض الحذاق في معرفة طبائع هذه الهوام الدقيقة من أنها تعرف الصليب وما خصص له من الأدوات، وتشعر باحترام تلك الصور والتماثيل التي صوّرت في تلك الأخشاب، وأنها بذلك صارت مسيحية كاثوليكية ، فلا يباح لها قرض الخشب المسيحي . ثم أن اعتقادها بحرمة القرض حملها على العمل ، فخالفت شهوة الأكل قياما بالفرض ، فلا أظنه في غاية الصحة ، بل ولا في أولها كذلك . ويقال إن الكنيسة من بناء الملك كيليولمو الثاني وقبره فيها ، صندوق من حجر فيه جثته

ومن ذلك تعرف أن العرب رحمهم الله لم يمسوا هذه الكنيسة بسوء مع عظمة سطوتهم ، وامتداد ملكهم في سيسليا ، وتلمح من هذا أن العرب — وإن فسق كثير منهم عن أمر ربهم — فروح الدين الاسلامي كانت تنوس في كثير من أعمالهم ، نهى الدين عن هدم الكنائس اذا لم تكن مربضاً لشر يخشى خطره على الدولة ، فحفظوا لرعاياهم كنائسهم ومعابدهم ، ولم يصنعوا بها ماصنع غيرهم ممن جاء بعدهم ، ولم يريدوا أن يقتفوا أثر خصومهم ، ممن كان يهدم مساجدهم، ويخرب معابدهم ، فحيا الله أيامهم . لاجرم أن الاسلام عربي، وأحق الناس برعايته ، والوقوف عند حدوده ، بعد فهم حقيقته ، هم العرب فأين هم ؟ يمكن أن يقول قائل: انهم في جزيرة العرب أو في الشام أو في العراق أو في مصر أو في تونس والجزائر أو في المغرب الأقصى ، فلم يكفك كل هذا العدد ، في أكثر من الف بلد ، حتى تقول أين هم ؟ ولكني أقول له : إنما يكون القوم أولئك القوم اذا بقيت لهم أخلاقهم وحياة أرواحهم، فان كان لم يبق إلا أشباح تشبه أشباحهم ،فليسوا بهم فلي الحق أن أقول عن العرب فأين هم ؟

﴿ دير الكبوشيين ومدرستهم ومقبرتهم في بلرم ﴾

﴿ وفيه بحث الدعوة الى الدين واحياء اللغة ﴾

للكبوشيين دير في بلرم فيه معبد ومدرسة ومقبرتان . أما المعبد فهو المعبد لايحتاج الى الكلام عليه ، ولا يختلف عن غيره من المعابد . وأما المدرسة فهي لتعليم اللغات والفنون والعلوم التي يحتاج اليها المرسلون الذين يكلفون الدعوة الى الدين المسيحي والتبشير بالانجيل ، ونشر ما تقتضي الغيرة الدينية نشره في الأقطار النائية كبلاد العرب والترك والفرس وغيرها . ومما يعلم فيها اللغة العربية وأستاذها الراهب جبرائيل ماريا الكبوشي ، وهو من حلب ، وتعلم العربية في بيروت ، وأخبرني أن من أساتذته صديقنا الشيخ سعيد الشرتوني صاحب (أقرب الموارد) في اللغة . لاقيت ذلك الراهب وحادثته في شأنه ، والزمن الذي قضاه في ايطاليا ، والداعي الى الاقامة فيها ، فتبين لي أنه جاء اليها ليخدم دينه هذه الخدمة — تعليم اللغة العربية لنشر الدين في بلادالعرب مثلا . وكان يتحرى في كلامه قواعد اللغة العربية بقدر الامكان فحمدت منه ذلك . كأنه اعتقد أنه انما تعلم العربية لينتفع بها في منطقه — وان كان في بلاد ايطاليا — وعمل بما اعتقد . وما كان أسهل عليه أن يكلمني بالحلبية كما يكلمني البيروتي بالبيروتية ، والتونسي بالتونسية ، ولا يبالي أ كنت أفهم أم لا افهم ؟ كما لايبالي الكثير ممن ذكرناهم

وفي هذه المدرسة تعلم العلوم اللاهوتية كذلك للغاية التي ذكرناها ، ولا حاجة الى ذكر مافيها من العلوم ، فان ما تحتاج اليه للبراعة في نشر الدين ، والدعوة اليه معروف عند من يعرفه ما هو الدين ويتصور معنى الدعوى اليه . اما من لا يعرف ذلك فلا نكتب له حرفا واحداً من هذا الكلام فان قال قائل : فلمن تكتب ما تكتب ؟ قلت . ان فقد الفاهم فانني احفظه لنفسي والسلام . هل خطر ببالنا — وكل منا يدعي الغيرة على دينه ويرى انه الحق الذي يجب على الناس كافة ان يخلصوا ارواحهم باعتقاده والأخذ بأصوله

ـ ان ننشيء فرعاً من فروع التعليم لنشر الدين وتقويم اصوله بين اهله؟ فضلاً عن نشره بين من ليسوا من أهله أريد من أهله أولئك الذين ابسوا ارداءه، واعترفوا أن الدين دينهم سواء عرفوه حق معرفته، وهم في غنى عن الدعوة اليه، أو جهلوه وانحرفوا عن طريقه وهم أحوج الناس الى الارشاد، وأشدهم افتقاراً الى من يحول اليه نظرهم، ويعطف عليه اختيارهم. هل مرّ ببالنا أن نهيء لهذا الفرع من التعليم مايلزم له من فنون وأساتذة لتلك الفنون، كما يهيء هؤلاء ما يهيئون لتعليم من يقوم بدعوة من ليس من دينهم الى دينهم؟ ما كان أحوجنا الى إنشاء ضرب من التعليم خاص بمن يكلف ارشاد من يسيء الى الدين باسم الدين، ومن يهدم شرف الدين بعمل ينسبه الى الدين؟

ألا يحق لنا أن نطلب من أولئك الذين صعدت بهم ألقاب الرئاسة الدينية الى أسمى المنازل أن يفكروا في هذا الأمر، ويقوموا بما يجب عليهم منه إن لم يكن لمصلحة الدين فلمصلحة أنفسهم، فان في تقوية جانب الدين تقوية لمساندهم، وفي تبصير العامة بشؤون الدين تمكيناً لحرمتهم في نفوس الدهماء، وتسجيلاً لسيادتهم عليها؟ أليس لنا على ضعفنا أن نذكرهم بالأمر الالهي، القارع للقلوب، المزعج للهمم، في قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) الخ، فهل يليق بهم أن يصموا آذانهم عن هذا الخطاب، ولا يخشوا أن يكون التصامّ عنه بمنزلة الخروج من مدلول كاف الخطاب، ومشعراً بأنهم ليسوا من أولئك الذين خوطبوا به؟ لنا بل علينا أن نطالبهم بذلك، وأن نزيد عليه مطالبتهم بالنظر في إنشاء فرع لتعليم ما يلزم لنشر الدين بين بقية الأمم، ان كانوا يعتقدون أن دينهم هو الحق، فان السكوت عن الدعوة الى الحق رضاء بالباطل. أولئك الملوك والأمراء الذين لا فضل لشيء عليهم في تمتعهم بملكهم، واخضاع رعاياهم لسلطانهم، مثل فضل الدين، لم لا يقتطعون شيئاً من مالهم وقطعاً من زمانهم ينفقونها في الاشتغال باحياء روح الدين، ولا يكتفون بغش العامة بالمحافظة على رسوم كلها أو جلها لا يعرفه الدين؟ أفلا يجب عليهم أن يسعوا في زيادة تمكين قوتهم، وتعزيز سلطتهم؟ اللهم الا

اذا ظنّ هؤلاء. وأولئك ان الدين حيوان يمشي على رجلين ، يطلب رزقه من القلوب حيث يجد الحاجة اليه ، ويغدو الى مرعاه من النفوس متى اشتد الجوع عليه . فاذا قصر في ذلك حتى أهلكه الجوع ومات فانما اثمه على نفسه لا عليهم

ربما يقول قائل: ولم تستبعد هذا الظن منهم فتعبر فيجانبه بكلمة «اللهم» وهم قد يزعمون أنهم من أهل السنة ، وربما طلبوا الدخول في أبواب حماة السنة، بهذا الظن الذي تستبعده ، وما عليهم في ذلك الا أن يقولوا : نحن سنيون لانقول باستحالة شيء ، وفخرنا أن نجوّز المحال ، ونذهب الى جواز تجسم المعاني ونعتقد أن الاعمال والعقائد ، وهي معان نفسية وحركات بدنية يمكن أن تنقلب أشخاصاً حيوانات تمشي ، وأناسي تتكلم . أليست هذه العقيدة هي مطيتنا الى الجنة ؟ فليكن الدين رجلا عاقلا ، أو ميكروبا متنقلا مفيداً لاقاتلا ، يفعل لنفسه ما كان فاعلا ، ويدعنا نتمتع بالنسبة اليه،وإن لم يكن لناعطف عليه ، فنجيب القائل بأنهم مغرورون ، وأن السنة بريئة مما يزعمون ، وسيعلمون أي منقلب ينقلبون

خرج بنا الكلام عما نحن بصدده . هذا الراهب أستاذ العربية في الدير وضع طريقة سهلة لتعليم قواعد اللغة العربية من الصرف والنحو للايطاليين — يضع القاعدة العربية ، ثم يفسرها باللغة الايطالية بأسلوب يسهل معه تناولها بقدر الامكان . وقد رأيت من تلامذة الراهب من يحسن قراءة العربية ، وإن كان لايحسن التكلم بها لعدم التمرين على السماع والنطق ، وما أحوج كل عربي الى تعلم ما يحتاج اليه من لغته ، لكن ما أشق العمل ، وما أوعر الطريق ، وما أكثر العقبات فى طريق العربي الساعي في تحصيل ملكة لسانه ! ! يفني عمره وهو لا يزال يضرب برجليه في أول الطريق . أفلا نشعر بالحاجة الى تقريب المطلب وتيسير المذهب في تحصيل ماتدعو اليه الحاجة من لغتنا ، حتى نستطيع فهم ماأودع فيها من النفائس ، والتعبير بها عما نجد فيأنفسنا ، ونحب أن نسوقه الى بني لغتنا على وجه صحيح ، وبأسلوب فصيح ؟ ألم يأن لنا أن نرجع الى المعروف مما كان عليه سلفنا ، فنحيا بما كان قد أحياهم ، ونترك ما ابتدعه أخلافهم مما أماتهم وأماتنا معهم ؟

أما المقبرتان فاحداهما في بناء متسع الأرجاء تحت الأرض ، ينزل اليه بسلم ، وفيه نوافذ يأتي اليه منها الضياء ، وقد وضعت فيه الجثث على ضروب شتى ، فمن الجثث ماهو في صناديق مقفلة من الخشب أو الحجر أو البرنز ، ومن ذلك جثة موسيو كرسبي رئيس الوزارة الايطالية السابق ، فانه في ذلك المحل في صندوق مغلق ،ومنها ما وضع في صناديق من البلور بحيث تظهر الجثة للرائي من داخل الصندوق على الهيأة التي كانت عليها عند الموت . وقد يوجد في الصندوق الواحد عدة أشخاص بادية هياكلهم ، ظاهرة وجوههم ، على أتم مايحزن له قلب ، وتعتبر به نفس . وهذان القسمان من الأموات إنما ينالون حظوة الاستيداع في هذا المكان اذا كانوا من الأغنياء الذين يتمكنون أن يدفعوا الى الدير ما يطلبه من قيمة هذه الحظوة . وهناك قسم آخر وهو جثث محنطة قائمة في جوانب المكان ، عليها ثيابها في الحالة التي كانت عليها عند موتها ، وهي جثث الرهبان والقسيسين الذين يحبون أن يودعوا في هذا المكان ليسعدوا ببركته ، ولهم هيئات تنقبض لها النفس ، ويضيق بها الصدر ، ولا حاجة بنا الى تعداد ذلك . ويكفي القارىء أن يتصور رميتاً في أشد ماتكره النفس مما يصوره الموت في البدن

وأما المقبرة الأخرى فهي كسائر المقابر على ظهر الأرض ، وإن كان الأموات في بطنها ، وهي من أجمل الأماكن وأنظمها . والقبور فيها نظيفة البناء ، بهجة الظاهر . وقد غرس في المقبرة أشجار السرو بنظام بديع ، وقيل لنا : إن الذين يدفنون فيها هم الأمراء والأغنياء . أما الفقراء فلهم مقبرة تليق بفقرهم في مكان آخر . وكأنه قضي عليهم بأن لايساووا الأغنياء حتى في الموت مع أن الموت قد سوى بين الأغنياء وبين أدنى طبقة من الأحياء ، بل جعلهم طعمة لأقذر الديدان ، كما جعل ذلك حظ أمثالهم من سائر الحيوان

قيل : إن الحكومة بعد أن استولت على رومية منعت الدفن في المقبرة الأولى على تلك الطريقة ، وأمرت أن لايدفن الميت إلا في المقابر المعتادة كهذه المقبرة الثانية ونحوها . وإنما حفظت الحق فى الاستيداع فى المعابد للبابا وللملك دون سائر الناس . فهما وحدهما توضع جثتها فى صندوق وتودع فى الكنيسة ،

وقد أحسنت الحكومة فى ذلك ، فان من كان محجباً بعظمته عن الناس فى حياته يجب أن يكون عبرة لعامتهم بعد مماته

﴿ المكتبة العمومية ودار المحفوظات ﴾

أما المكتبة العمومية فقد جاءني من أوصي بصحبتي - ويثقل عليّ ذكر إسمه لطوله — فذهبت معه الى تلك المكتبة ، وهو أخو مديرها وله احترام فى نفوس خدمتها ، وكان يعرف قليلا من اللغة الفرنسية ، فسألته أن يطلب لي فهرس الكتب العربية ان كانت ، فطلب ذلك فبدت حركة شديدة فى الخدمة وكثر الداخل والخارج ، والذاهب والآئب ، ولغطت الألسن ، وارتفعت الأيدي بالاشارات ، وطال الزمن نحو ربع ساعة ، كل ذلك وأنا لا أفهم أسباب هذا الاضطراب . وآخر الأمر جيء الي بدفتر صغير جداً يحتوي على نحو خمسين صفحة ، وكانت تلك الضوضاء للبحث عنه ، وكل يتهم صاحبه بأنه هو الذي يعرف مقره . والآخر يدافع عن نفسه تهمة معرفته . ولم يرعني عند تصفحه الا كثرة مافيه من كتب الأدعية والصلوات ، كأنه فهرس خزانة لشيخ من مشايخ الطريقة الخلوتية ، أو مكتبة السادات البكرية ، قدّس الله أرواحهم جميعاً وانما رأيت فيها قطعة من شرح ابن رشد على مدونة الامام مالك رضي الله عنه وكتابا في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، الا أنه لا يمكن قراءة سطر واحد من تلك السيرة ، لأن خطوطا قد جرت على السطور بعناية غريبة حتى عمت الحروف الأصلية ، وحجبت حقيقتها عن النظر مع سلامة الظاهر من التشويه ، فعجبت لذلك وسألت عن السبب ? فقيل لي : ان قسيساً من أهل القرن الثامن حمله التعصب على أن يأتي الى المكتبة ويطلب الكتاب بحجة أنه يريد قراءته ، وكان يعرف العربية حق المعرفة فسلم اليه فصنع به ذلك حتى يصد الناس عن مطالعة مافيه . وقد فعل مثل ذلك بمصحف من المصاحف ، وزور كتباً كثيرة أفسدها . وقد انكشف للحكومة حاله فحوكم وصدر الحكم عليه بالحبس مدة عشر سنين في رواية ، ومدة خمس عشرة سنة في رواية أخرى . أما القطعة من

شرح ابن رشد فكانت سليمة وخطها مغربي جيد تسهل قراءته على طالب العلم

والكتاب الفرد الكامل الذي رأيته فى المكتبة هو كتاب النخل لأبي حاتم السجستاني . وهو صغير فى نحو ستين ورقة بخط ضيق مضبوط صحيح . قرأت منه عدة صفحات . ونقلت منه عدة فقرات فى تفسير قوله تعالى (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أ كلها كل حين باذن ربها) الخ . ومما نقلته في ذلك قول أبي حاتم رحمه الله . ومما كرم الله به الاسلام وكرم به النخل أنه قدر جميع نخل الدنيا لأهل الاسلام فغلبوا عليه وعلى كل موضع فيه نخل . وليس في بلاد الشرك منه شيء . فرحم الله أبا حاتم ما كان أبعده عن صحة الحكم في طبائع العمران . وان كان من أفضل أهل السير وأجل علماء اللغة . والكتاب مفيد في اللغة وهو بخط مشرقي تاريخ نسخه شهر جمادى الآخرة سنة « ٣٩٤ » وقد بلغنا أنه طبع في المانيا . وكان الأجدر به أن يطبع في مصر . ولعل ذلك يكون ان شاء الله متى ساوى المصريون أهل المانيا في اهتمامهم باللغة العربية ونفائسها

***

ثم زرت دار محفوظات الدولة وهي مثل (الدفترخانة) عندنا الا أنها لم تبع أوراقها ولا دفاترها لا بالقنطار ولا بالرطل كما فعل بالدفترخانة المصرية . بل هي محفوظة على ما كانت عليه من عدة قرون لايفرط في ورقة واحدة منها . وقد طبعت الدولة ما في الأوراق التاريخية المحررة باللسان العربي وغيره من الألسن الشرقية . حتى يسهل على الناظر فيها معرفة ما كتب في تلك الأوراق ويتيسر له بعد ذلك قراءتها في أصولها . خصوصاً اذا كان غير متعوّد على قراءة الخطوط العربية المختلفة ، فاذا قابل بين المطبوع والمرقوم عرف صحة العبارة في النسختين . ولعل المكتبة المصرية الكبرى تصنع مثل ذلك في الخطوط المكتوبة على اوراق البردي وغيرها مما كتب بالكوفية . أو النسخ القديم . أو ماعني بعضه القدم لتتم فائدة حفظ هذه الأوراق والانتفاع بها إن شاء الله

من العادة في المكاتب وديار حفظ الاوراق أن يجعل لها دفاتر يكتب فيها

الزائر اسمه ولقبه وتاريخ الزيارة ، وهي عادة حسنة تليق بأماكن أقيمت لحفظ الآثار العلمية والمذكرات التاريخية . أما عمال المكتبة العمومية في بلرم فلم يحفلوا بهذه العادة وا كتفوا بتقديم ورقة من أوراق طلب المطالعة لوضع امضائي عليها كما فعل ذلك خدمة المكتبة العمومية في مسينا ، لكن عمال دار محفوظات الدولة راموا أن تجري تلك العادة مجراها فطلبوا ذلك الدفتر فلم يجدوه ، فجدوا في البحث والتنقيب ، وأخذت الاصوات تتقاذف ، والاشارات تنمو وتتزايد ، على نحو مافعل عمال المكتبة العمومية ، في اكتشاف فهرس الكتب العربية ، وكنت على عجل أريد زيارة محل آخر ، فحبست مدة حتى يسر الله ووجد الدفتر ، ووضعت إمضائي فيه . وأظنهم حمدوا الله لأن كنت السبب في العثور عليه بعد ضياعه

هذا وذلك يدلانك على أحد أمرين : إما قلة الزائرين لهذه الأماكن العلمية من الاجانب ، وطلاب النظر في الآثار العربية ، وقلة الدراسين من أهل البلاد في تلك الكتب التي كتبت في لسان غير لسانهم اكتفاء بتراجمها أو لعدم الحاجة اليها . وأما شدة الاهمال من موظفي هذه الديار ، وقد يتيسر لك الجمع بين الأمرين ، ولم أعهد في مكتبة أوربية أن وقع لي مثل ماوقع في مكتبتي بلرم .

حاجة السائح الى معرفة اللغات وأيها أنفع

ومن الأمور التي لاأجد بدأ من نقدها أن موظفي هاته المكاتب لايعرفون من اللغات إلا الايطالية فلا يعرفون الفرنسية مع قربها من لغتهم ، ومن عرف منها بعض كلمات يصعب عليه أن يؤدي بها مراده ، وكان رفيقي يترجم بيني وبينهم عند ما كان معي في المكتبة العمومية ، لكني بعد انصرافه وقعت في وحشة يزيدها لزوم الصمت ، وعدم الفائدة في الكلام ، وضيق الصدر عند ارادة الاستفهام عما يراد فهمه ، ولا يوجد السبيل اليه إلا من طريق الاشارة . ولا يخفى عليك أن الاشارة إنما تصلح للافادة والاستفادة من الاخرس اذا

كنت والدة له على مافي المثل « أم الاخرس أعرف بلغته » فلا بدّ من التعود على ضرب من الاشارة مخصوص حتى يتيسر الفهم والافهام . ولهذا لم يمكني أن أستفيد شيئاً فيما ينبغي أن يصنع لاستنساخ شيء من الكتب العربية، كتلك القطعة من شرح ابن رشد مثلا . وبعد طول الكلام بفرنسية لايفهمونها ، وإيطاليـة لاأفهمها ، انصرفت وأنا من الجهل على مثل مادخلت به ، لكن قد انكشفت عني غمة هذا الجهل بملاقاة من أمكنه فهم ماأقول ، وأمكنني فهم مايقول من أهل المدينة

يناسب في هذا المحل ذكر مايقال من أن الذي يعرف اللغة الفرنسية يسهل عليه السفر في جميع بلاد أوربا ويتيسر له الفهم والافهام لأنها لغة عامة لاتجد نزلا ولا مكاناً يرغب في زيارته إلا وأنت تجد فيه من يكفيك حاجتك فيما تريد . وقد رأيت أن هذا القول اضمحلت صحتـه في مكاتب بلرم ، ولم ألق مايقوي صحته في مكتبة مسينا ، والمكاتب من ديار العلم التي يكثر فيها العارفون باللغات الأجنبية ، ولا ينبغي أن تخلو منهم لمسيس الحاجة اليهم . وقد بت ليلة في لوندرا وتزلت فى أكبر نزل فيها يسمى (كيرافنور أوتيل) فيه مايزيد على ست مئة بيت للنوم ، ولم أجد فيه من يعرف الفرنسية إلا خادمين أحدهما بواب والآخر من خدمة قاعة الطعام . أما خدمة أماكن النوم وغيرهم فلا يفهمون كلمة واحدة والحاجة اليهم أشد ، فان المطالب الخاصة جميعها منوطة بهم أو بهنّ . اذا طلبت ماء أو لبناً أو قهوة ، أو تهيأة حمام أو نقل متاع من مكان إلى مكان ، أو تصحيح منكسر ، أو كسر صحيح ، لم تجد من تطالبه إلا أولئك الذين لا يعرفون كلمة من الفرنسية ، غير أنهم لتعودهم فيما يظهر على كثرة ورود هذا النوع من الخرس صاروا أو صرن كوالدة الأخرس يسهـل عليهم أو عليهنّ فهم الاشارات بدون اتعاب شـديد لأعضاء المشيرين (أي الذين يتفاهمون بالاشارة لا الذين حازوا رتبة المشيرية العسكرية العثمانية) لكن لايخفى عليك أن من المطالب ما لا تعبر عنـه الاشارة ، فماذا تصنع اذا كنت أعلم العلماء بالفرنسية ، وعرض لك مثل هـذا الطلب وليس عندك وقت يسع تعلم اللغة الانكليزية ؟ لايسعك إلا الاقرار بأن

ذلك القول الذي قالوا مبني على تجربة قاصرة لاتصلح أن تكون مقدمة من مقدمات البرهان المعدودة فى فنّ المنطق

أزيدك شيئاً في هذا وهو أنك اذا كنت لاتعرف لسان القوم الذين تنزل فيهم ، يجدونك طعمة أو هبة من الله سيقت اليهم ، فهم يكلفونك من النفقات مايشاؤن ولا يجدون في أنفسهم دانقاً من الرأفة بك ، أو الرحمة لغربتك ، ولايمكنك أن تبحث مع ناهبك في موضوع نهبك ، لأنه لايفهم ماتقول ، وأنت لاتفهم مايقول ، فينتهي أمرك بدفع مارقم لك رغم أنفك ، وغاية مايمكنك فعله أن تتنفس الصعداء ، وتهز رأسك ، وتلوي عنقك ، علامة على غضبك ، ولكن هذا كله لايوفر عليك ماتقصه منك الجهل باللسان

وفي ظني أن من أراد أن يسافر إلى بلد لايعرف لسانه فأولى له ان يتعلم من لسان ذلك البلد مايكفيه للتعامل ، ومدة سنة قبل السفر تكفي لذلك ، وأجرة الاستاذ المعلم لاتصل إلى نصف مايخسره ببركة الجهل باللسان

أستغفر الله من خطأ فيما قلت . اذا أراد السفر إلى صقلية (سيسيليا) من بلاد ايطاليا فعليه أن يجدّ لمعرفة اللغة الايطالية حتى يتكلم بسرعة ، ويفهم بسرعة يسبق بها كلامه وفهمه كلام الايطاليين وفهمهم ، وإلا سأل الله العوض فيما يفقد من متاعه ، أو مايؤخذ منه أجرة على ضياعه . عند وضع قدمه على ساحل صقلية ، يجتمع عليه الحمالون والمرشدون المضلون ، ويتجاذبون متاعه وثيابه ، كل يأخذ قطعة ، فان كان لايعرف اللسان ، كان ماكان مما لايسعه الامكان ، فاذا سلم له متاعه من التحطيم أو الضياع . او أصابه من ذلك مالم يفد فيه الدفاع . وجد أمامه جيشاً من الطالبين كل واحد يطالبه بقيمة عمله . وما هو ذلك العمل ؟ هو حمل قطعة من المتاع وكلمة قيلت غير مفهومة فى هدايته الى المحل الذي وصل اليه . مع أنه وصل برجليه . ومن طريق كل الناس يمشون فيه . ولا تنس أنهم يجاذبونك أعضاءك حتى ان جميع اجزائك لفي خطر من مجاذبتهم ، اذا لم تكن حريصاً عليها . فاذا كنت في حاجة إلى السفر إلى هذه البلاد والاقامة فيها مدة من الزمان لتبديل الهواء وترويح النفس بجمال المناظر ، خصوصاً أيام الربيع

فعليك أن تصرف سنتين في تعلم اللغة الايطالية وما تنفقـه في التعلم أقل ممـا تخسر مع تعذر التفاهم

وجدت أن الذي يعرف الانكليزية أسعـد حظاً في فرنسا ممن يعرف الفرنسية في انكلترا . فانك لاتجد نزلا في البلاد الفرنسية إلا وفيه كثير من الخدم الذين يعرفون الانكليزية . سألت عن السبب في ذلك فقيل لي ان أهل فرنسا قلما يسيحون في بلاد الانكليز . أما الانكليز والامريكيون فيملأون سهول فرنسا وجبالها . ويدهشون بالذهب صغارها ورجالها فاضطر الفرنسي الى ترويج الانكليزية في بلاده لتعجب الزائرين وليستكثر من الناثرين

ويل لك اذا اقمت يوماً أو يومين في نزل بمسينامن اكبر مايقصده السائحون رب النزل يعرف بعض كلمات قليلة من الفرنسية يمكنه بها أن يفهمك ان أجرة محل النوم وحده بلا أكل ولا شرب عشرة فرنكات في الليلة ، ويمكنك أن تفهمه بأنك قبلت ذلك على شرط النظافة وتوفر الراحة ، وإن كان لايعمل من ذلك بما فهم منك ، وانما العمل على مافهمت انت منه

تنام عند الساعة العاشرة فلا يمر عليـك نصف ساعة إلا وقد أطار نومك صياح وجلبـة ودويّ حركات تذهب وتجيء خارج منامك فيضيق صـدرك وتطلب الفرج ولا تجده ، فتفتح الباب وتقول كلاما كثيراً يفهم منه انك في شدة الضيق ممـا تسمع ولا سبيل إلى النوم ، فيقال لك ماتفهم منـه ان هؤلاء مسافرون جاؤا إلى المحل من جديد ، وماذا يصنع معهم ؟ فتطلب محلا آخر للنوم ، ويأخذون فراشك من محلك الأول إلى محلك الثاني ، فتحمد الله على الهدو وإقبال الراحة ، ثم تلقي جسمك على الفراش ويقبل النوم على عينيك بثقله ، ثم لايمضي نصف ساعة إلا وقد أخذت يداك تحك وجهـك وعنقك ، واليسرى تحك اليمنى ، واليمنى تحك اليسرى ، ولا يزال الحك يزيد والمحـكوك يتألم حتى تتنبه أعصاب الدماغ والعين ، ويصبح ذلك النوم الثقيـل ، أخف من نفس الجميل ، فيطير عنك إلى حيث تبحث عنه ولا تجده ، ولا يبقى لك إلا الحك والحكة ، وما هذا كله ؟ هذا هو البق الذي تروعك حمرته ، وتقلقك عضته ،

بل حركته ، بل تطير نومك رؤيته ، فتطلب الخلاص ، وماذا تصنع ؟ مضت مدة من الليل نام فيها الصاحون ، فتعود إلى محلك الأول وقد نام الخادم ، فتعود إلى غير فراش أو تفرش لنفسك وهذا أفضل لك ، فاذا أصبحت حوسبت على شمعتين في مكانين لم تصرف منهما شيئا وعلى شيئين آخرين ، وكدت تحاسب على أجرة مخدعين ،

أظرف ما وقع لي مع خادم هذا النزل : طلبت منه ماء بارداً فلم يفهم ، فأشرت الى فمي ومثلت بيدي صورة اناء الماء ، فاذا هو يفتح الباب وينظر الي كأنه فهم انني أشرت بيدي الى أن الباب مغلق وبفمي الى فتحه ، لأنه فتحة من فتحات بدني ، وبعد تعب أعضائي من الاشارة ، ولساني من التكلم بالفرنسية قمت وبحثت عن كوب وأشرت به اليه ، ففهم اني أريد ماء لكن لم يفهم أني أريده بارداً ، وما أشد التعب في تصوير الجليد له ! فرغ ماء الغسل فطلبت منه تجديده ، فرفع في وجهي كرسيا طويلا اشتريته لأجلس عليه في المركب ، ففزعت لذلك وظننت انه يريد رميي به ظنًا منه اني شتمته غير ان ذلك سري عني عند مارأيته ينظر الي نظر الاحترام ويطلب مني بعينه أين يضع الكرسي ، فاستلقيت من الضحك وذهبت الى موضع الغسل وأشرت اليه أن يبدد الماء ففعل ، أفلا يحملك ذلك على تعلم اللسان الايطالي اذا أردت السفر الى سيسيليا وان لا تصدق ما يقال لك من أن معرفة الفرنسية تكفيك الحاجة في كل بلاد أوروبا ؟

مسينا ومقبرتها

نسيت أن أضع في جانب المقابر مقبرة مسينا ، وهي مقبرة في الجنوب الغربي من المدينة ، وانك اذا قلت لصقلي : اني ذاهب الى مسينا : يقول لك في الحال : لابد أن ترى المقبرة : وهي جزء من المدينة تحسب مدينة بنفسها فيها مدافن للامراء والأعيان ، مبنية على أجمل نظام ، وأقربه الى السذاجة ، وفيها مكان شامخ رفيع يدفن فيه أرباب الشهرة من المهندسين والشعراء ونحوهم .

وطريقة الدفن في تلك الأماكن تختلف ، فبعضها على الطريقة المعهودة من وضع صندوق الجثة تحت الأرض ، وبعضها بوضعه في صندوق ضخم كبير لا تمكن سرقته على ظهر الأرض ، وبعضها في بيوت تفرض في عرض الجدر العريضة وهكذا . والمقبرة مزينة بأغراس من شجر الصنوبر ، وضرب من فصيلة الصنوبر يشبه الاثل وليس به ولا أعرف اسمه بالعربية سوى انه شيء من كبار الطرفاء لكنها نظمت بيد أوربية تعرف كيف تخضع النبات لارادتهافتوجهه الى الوجهة التي تريد . والطرق فيهاعلى غاية مايرام من النظافة والانتظام ، وهي أنظف وأجمل من كثير من شوارع مدينة الاحياء (مسينا) ثم انها تأخذ من أسفل الطريق الى قمة جبل اذا صعدت عليه نظرت وأنت في المقبرة من البحر والساحل أجمل ما تنظر عيناك من اللألاء والنضرة في المواقع المختلفة ، ومن الاشكال الطبيعية ، وبدائع الاعمال الصناعية

يظهر ان المقبرة أعجبتني حتى انطلق قلمي في وصفها كأنه قلم صاحب جريدة ينطلق في السياسة المصرية ببيان مناحيها ووصف ضواحيها ــ أعوذ بالله ــ يوجد في هذه المقبرة مواضع مخصوصة للفقراء قد صفت فيها قبورهم على نظام محكم تراها كأنها خطوط مزارع القطن في أرض غير معتدلة تقصر وتطول ، وعلى رأس كل قبر صليب أسود يخيل للرائي من بعيد أنها أجنحة الغربان ، الجائمة على بقايا الجثمان . لا أزال في وصف المقبرة كما لا يزال بعض الغافلين عن أنفسهم في بلادنا يشتغلون بالسياسة ، عن الأدب والكياسة

ماذا أقول في وصف هذه المقبرة ؟ مدينة جميلة المناظر . بديعة المداخل . بعيدة المخارج . الداخل فيها أكثر من الخارج منها . وقد اختير لها شجر الصنوبر زينة من بين الأشجار لأنه في خضرة دائمة وحياة مستمرة كأن أرواح من يموت تنتقل اليه بعد مفارقة الأجساد . فهو لا يزال دائم الحياة في الصيف وفي الشتاء والخريف والربيع . مدينة زينها الأحياء في حياتهم . ليعدوها لاقامتهم ــ فيما يزعمون ــ بعد مماتهم . وهكذا من كان على يقين من الرحيل الى دار هيأ تلك الدار للسكنى وأعد لنفسه فيها أنواع النعيم ليطيب له المقام .

ولا يقلق به المكان ، لكن هل يكفي أن تزين لنفسك مقراً لجثتك وأنت لا تدري هل تشعر هناك بما زينت ، أو تؤخذ عنه إذا مت ؟ فهل زينت داراً لروحك بالطيبات ، كما زينت داراً لجثتك بالزهر والنبات . أخاطبك وأنت مصري من سكان القاهرة لا ترى في مقبرتك ولا في الطريق الموصلة اليها الا ما يخيفك من الموت ، وينغصك فيه غمر من الغبار وتلول من التراب ، تتذكر بها انك من التراب والى التراب

اذا بنيت فيها مسكنا فلست تبنيه لنفسك يوم تموت ولكن تبنيه لتقيم فيه بجانب الأموات وتشاركهم في المسكن وأنت حي تقضي فيه الأيام من رجب ومن شعبان ومن شوال ومن ذي الحجة وبعض أيام من بقية الشهور تأكل وتشرب وتنام ولا تشبه جيرانك من أهل المقابر الا في النوم الثقيل ، ولا تستحي من معاشرتهم وأنت تأكل وهم لا يأكلون ، وتضحك وهم ربما يبكون ، وتلعب وهم لا يلعبون . تلهو بالقيل والقال ، وملاعبة النساء والأطفال ، وربما أقمت في المقبرة ما تسميه بالموالد وجلبت بذلك اليها من المغنين والمطربين والعازفين ، ونصبت فيها الخيام وصنعت من لذيذ الطعام ، ما تدعو الى تناوله العلماء الأعلام ، والأتقياء الكرام ، فليلبون دعوتك زرافات ووحدانا ، مشاة وركبانا ، ويخوضون في غمار اللاهين الى أن يصلوا الى حيث نصبت خيامك ، وهيأت طعامك ، على ظهور الأموات ، وبجوار تلك الرفات . وتبيت ليلتك تلهو وتلعب ، وتصيح وتصخب ، كأن الموت قد فارق ديارك وكره جوارك ، وفرّ من بين يديك ، مشمئزاً مما يرى لديك . وأما مقبرة مسينا فلا ترى فيها آكلا ولا شاربا . وإنما ترى الزائرين في سكينة ووقار لا يتكلمون إلا همساً ، تماشيهم ولا تكاد تسمع لهم جرساً (١)

(١) الجرس بفتح الجيم وسكون السين هو الصوت الخفي

﴿ صخب الصقليين وتسولهم وكسلهم ﴾

أهل مسينا من أهالي سيسيليا ، وسيسيليا هي جزيرة صقلية التي ملك فيها العرب نحواً من مئتي سنة ، وكان منها كثير من العلماء والفقهاء والمؤرخين والفلاسفة والصوفية وبعض الزنادقة ، وكل صنف من صنوف أهل العلم والمنتسبين اليه ، كما كان في العراق والشام والأندلس . وقد ترك العرب آثاراً في البلاد ، منها ما تقدم ذكره وهو مما لا يذكر ، ومنها كلمات في اسانهم كثيرة كالشروق للريح الشرقية ، وكالقبة والطلعة والشر ونحو ذلك من الكلمات التي ترشدك لأول وهلة الى أصلها ، وإلى البلاد التي حملت منها . ولا أظن أن الصياح والصخب الذي اختص به أهالي سيسيليا يكون من ميراث العرب رحمهم الله . فان أصوات السيسليين أشد قرعا ، وآلم في الأذن وقعاً . وإني لاأشك في أن حناجرهم أشد تمرنا على الصراخ بغير داع من حناجر أهل كفر الجاموس (١) أو سكان عرب يسار . وأما العرب فكانوا يصيحون في الحرب والجلاد ، ويسكتون عند الرجوع إلى البلاد . ولعل هؤلاء استعملوا في السلم ما كان يستعمله أولئك فى الحرب ، كما يفعل بحرية يافا وبيروت من ثغور سورية . وأما الاهمال والكسل فلا أدري هل هو من طبيعة البلاد أو من ميراث تركه بعض السلف من الفاتحين ؟

ويل لك اذا عرفت بأنك غريب ، فانه يتبعك السائلون الملحفون ، والمكتدون المجدون ، ويلزمونك حتى تعطي شيئاً من النقد ، ولا فرق في حالك بين ان تجلس في قهوة أو تكون في زيارة معبد ، أو في تفقد مكتبة أو دار آثار ، تجد من ذلك ما لا تجده عند المتبولي ، ولا عند ضريح الاستاذ البيومي (رضي الله عنه) ثم تجد الناس في الساحات وقوفا أو جوالين لا يدرون ماذا يعملون ، وانما يتقرب الى الغرباء من يظنّ القدرة فى نفسه على أن يفترس منهم فريسة ، لكن يمكنك إن

---

(١) كفر الجاموس مزرعة بالقرب من عين شمس في ضواحي مصر

كان عندك صبر أيوب وسماجة بعض السياسيين عندنا من المصريين أو السوريين أن لا تعطي شيئاً أو تهرب اذا أردت

لعلك تفرست شيئاً من الكسل في حكاية ماوقع في فهرس الكتب العربية في المكتبة العمومية ، ودفتر الاسماء في دار المحفوظات ، وازيدك انك اذا ذهبت عند شركة الملاحة (بكسر الميم وتخفيف اللام ، لا الملاحة بفتح الميم وتشديد اللام كما يقول بعض أكابرنا [١] فان التشديد يجعل الكلمة موضعاً للملح الذي يوضع على الطعام ويتناول أحياناً للاسهال . أما التخفيف فهو اللازم في اسم الشركة لخفة مراكبها في السفر على البحر المالح ،وأظنّ اللفظ يرجع ايضاً الى رفيقه ، فان في البحر ملحاً ايضاً لكنه ليس يكثر كالذي في تلك الكلمة المشددة) وجئت مكتب الشركة لتطلب تذكرة سفر مثلا تجد العامل يحرك يده ببطء كأن بعض أجزائه ينازع بعضاً ، فاذا فرغ من الكتابة على هذا الوجه القتال أسرع بمدّ يده اليك لطلب المبلغ ، فاذا دفعته اليه وكانت لك بقية من النقد يلزمه ردها اليك كادت يده تشلّ بجانبه وأنت تنظر اليه ، وتنتظر أن تتناول مالك وتنصرف، وهو ينظر اليك كأنه يتمنى أن تنسى مالك عنده ، أو تمل الانتظار ويأخذك الوقت فتتركه له ،وهذا ضرب من الكسل في أداء الحق ونوع من البطء في العمل لا تجده حتى في مصر حرسها الله ، فان العمال عندنا حتى في زمن الصيف لا يسمحون لأعضائهم أن تتعود هذه العادة الرديئة

﴿ رثاثة الصقليين ووساختهم ومقابلتهم بالمصريين ﴾

أما رثاثة الملبس عند الفقراء ودنس الثياب وعدم العناية بالنظافة في كثير من الشؤون ، فذلك مما تجد له مثالا في كثير من الاحياء عندنا . واني أقص عليك فكاهتين وقعتا في النزل الكبير الذي نزلت فيه — رفع الله عماده — كنت أطالع في جريدة خطابا ألقاه بعض أساتذة السوربون في باريس لمناسبة رفع تمثال

(١) هو أحد أعضاء مجلس شورى القوانين كان يتكلم في المجلس عن حرية حرفة الملاحة في البحر ، ويضبطها هكذا بفتح الميم وتشديد اللام

للكاتب المؤرخ الفرنسي رنان ، ألقاه في بلدة رنان التي ولدفيها ، وكنت مستغرقا فيما يقول الخطيب عن القسيسين وتعاليمهم ، وعن الاحرار اطال الله في ألسنتهم ، وما يرونه في فلسفتهم ، واذا بخادم النزل دخل عليّ وتحت ابطه ولد صغير في الخامسة من سنه تقريباً ، وقد علا الوسخ وجه الصبي ، وهجم القذر على عينيه يريد أكلهما ، وانفه وفمه يسيلان ذاك بما تعرف وهذا بما لايخفى عليك ، وبيده عنقود عنب يتناول منه حبة بعد حبة وماء كل حبة يسيل من شدقيه ، اذارأيته امكنك ان تحلف بشيء من الطلاق أو العتاق ان امكن ان هـذا من ذرية (الشيخ الدعكى) رحمه الله ، أو ان روح الاستاذ ظهرت في مظهره اللطيف ، واذا كنت واحداً من بعض الأعيان أو بعض من يزج بنفسه في العلماء الذين تعهدهم أقسمت في الحال انه وليّ من الأولياء مجذوب من المجاذيب . فاذا ذكر لك مذكر انه ايطالي قلت لايبعد على الله أن يكون قد ملأ قلبه جذبا وولها ، ورزقه من ذلك في صغره ، مالم ينله الدعكيّ في كبره ، وإلا فكيف تسيل سعابيبه إلى هذا الحد ويكون ليس بمجذوب ؟ هذا خلف . وربما حملك حسن الاعتقاد على أن تذهب إلى المحل الذي تعرفه ، وتستخرج من بحر الانساب مايصل نسبه بمن لايصح لأحد ان ينتسب اليه مادام على مثل هذا الاعتقاد . فانظر بعيشك الى هذا الطباق ، والتقابل بين ما كنت مستغرقا فيه ، وبين مافاجأني من هذا المنظر الكريه . هل يمكنك أن تحدث نفسك بماذا دافعت عن نفسي في هذه الشدة؟ دفعت فرنكا واحداً رميته على الأرض فالتقطه الصبي كما يلتقط العصفور حبة الأرز وكرّ راجعاً لايبالي بتأخر أبيه عنه ليشكرني على ذلك الاحسان كأن الصبي كان يخاف ان اتبعه لآخذ الفرنك منه . لاتظنّ أني أبالغ في كلمة مما قلت فما رأيك بهذه الوساخة ! :

أما الفكاهة الثانية فقد كنت على مائدة الطعام في محل نومي من ذلك النزل لقلة السياح وسعة قاعة الطعام بحيث تكبر عن ان يجلس فيها شخص واحد فلما جاء صنف من الطعام يحتاج إلى الملح تنبهت إلى الملاحة (هـذه المرة بتشديد اللام لأن فيها ملحاً) كما سترى . نظرت إلى الملح فاذا فيه النقط السوداء أكثر

من نزغات الشيطان ، في قلوب أهل الفسق والعصيان ، وأغزر من الخطيئات، في بعض المزارات ، فنظرت الى الخادم وأخذت الملاحة وانشأت انكت مافيها من النقط السوداء نكتة نكتة ، وأصعد نظري في وجه الخادم واقطب وأظهر التقزز ، ولا زلت كذلك حتى فهم ان هـذا شيء من الوسخ لاأستطيع تناوله فعند ذلك تناول مني الملاحة بغاية الكسل ، ثم ذهب وأطال الغيبة ، وبعد ما كدت أغضب مع سعة حلمي في السفر جاء بملاحة أخرى اوسع من الأولى وأطهر منها ملحاً ، فكأنه يفهم أن الوساخة مما لايليق ، لكن لايتم له هـذا الفهم الا اذا قال له شخص آخر إن النظافة خير منها ، وأن الوسخ شيء تتقزز منه النفس ، وينفر منه الحس ،

أما مثال هذه الواقعة الثانية فما يكثر في خدمنا ، بل في بعض ساداتنا رفه الله حياتهم ،فانهم ينظرون بأعينهم الى الخُبث والخبائث ، وربما حكموا فيه بوصفه لكنهم لاينزهون المكان عنه ، بل ربما لاينزهون انفسهم عن التلوث به الا اذا امرهم بذلك آمر ، فعند ذلك يمتثلون الأمر بغيرة المختار ، وعزيمة الجبار ، ثم يحدثك احدهم بحسن مايصنع مما أمر به ، كأنه هو الذي اندفع اليه من نفسه كأن الأمر الصادر اليه هو الذي اكسب الشيء حسنه وحلاه بوصفه ، وأعوذ بالله أن يكون هذا هو مذهب الاشاعرة الذين يقولون ان حسن الفعل هو الامر به، وقبحه هو النهي عنـه ، وانه لاحسن ولا قبح للشيء في ذاته ، فاني على يقين انهم لايعنون به مايجده أولئك الآلات في انفسهم . وما عليك الا ان تبحث في رأي الفريقين حتى تقف بنفسك على تحقيق الشبه اونفيه ، فاني الآن لااكتب كتاباً في علم الكلام ، ولا أكتب اسطري هذه للافاضل من أهل الفنّ فانهم أعلى من أن يستفيدوا من قراءة امثال هذه القصص ،أوسع الله منعقولهم حتى تسع أهالي بلرم ومسينا معاً، وما ذلك على الله بعزيز

الذي يخطر ببالي من أسباب ذلك اذا أخذنا بالجد أن هذا شأن العامة من الأمم التي طال فيها زمن الاستبداد ، وتصرف الارادة الواحدة في جميع الارادات مع مايطرأ على تلك الارادة الواحـدة من الاختلال وفساد المزاج ،

فتأمر بالشيء اليوم لأنه من هواها ، وتنهى عنه غداً لأنه لم يبق من مشتهاها ، وأمرها واجب الاطاعة ، وفي مخالفته إضاعة أي إضاعة، فتعوّد الأنفس على تعاطي الأعمال لا لأنهاما تختاره ، بل لأنهاما تؤمر به ، ويخفى عليها وجه الحسن والقبح ، لان تعوّد على العمل مهما كان قبيحاً يزينه للنفس أو يسهل عليها مقارفته ، وسهولة المقارفة إنما تنشأ عن عدم الاحساس برائحة القبح ، ولو بقي نتنه في شامة النفس لعافته ، ولما أمكنها تعاطيه — وكذلك يخفى وجه الحسن في الشيء متى خفي وجه القبح في ضده ، كما لايخفى عليك إن كنت من المدققين ، خصوصاً في علم أصول الفقه الحنفي ، وقرأت ما كتبه العلامة الغزي والمحقق الحفيد وغيرهما على التلويح للعلامة الثاني سعد الدين التفتازاني حاشية التوضيح على مختصر البزدوي .

إذا سألتني عن العلامة الأول في مقابلة العلامة الثاني فاني لا أتذكره الآن ، وإن صدق ظني يكون هو عبد القاهر الجرجاني ولكن . الأفضل لك أن تسأل شخصاً آخر من مدرسي حاشية التجريد للبناني ، فان من يقرأ هذه الحاشية يسهل عليه وزن العلمين ، وتحديد الفرق بين العلامتين - وربما قال لك : إن الأول هو القطب الشيرازي ، لأن سهولة كلام الامام عبد القاهر وسلاسته تمنعهم من جعله العلامة الأول — وإن شئت أن لاتشتغل بهذه المسألة فهو أفضل من ذلك الأفضل . ويكون أفعل التفضيل الأول على غير بابه والسلام .

وإنما المهم فيما نحن بصدده أن الارادة السليمة ، والطبيعة المستقيمة : يمكنها أن تميز الملح النظيف من الوسخ ، وتعتني بتقديم النظيف الى الضيف من أول الأمر ، بدون احتياج الى اصدار أمر ، وقس على ملح الطعام بقية الاملاح ، كالنحو ملح العلم ، والعلماء ملح العالم . وهكذا كل ما يحتاج اليه في إصلاح الأغذية بدنية كانت أو روحية ، دنيوية كانت أو دينية . وأما اذا كنت لا تميز ولا تفهم الا بأمر فتربص حتى يأتي الله بأمره والله شديد العقاب

﴿ دور الآثار وبساتين النبات ﴾

لا تبخس أهل سيسليا (صقلية) حقهم فانهم فهموا مسألة لا بأس بفهمها ، وأظنهم عرفوا ذلك من اخوانهم أهل شمالي ايطاليا وبقيـة الاوربيين ، وهي المحافظة على الآثار القديمة والجديدة . أما القديمة فتحفظ بذواتها ، وأما الجديدة فتحفظ ولو بنموذج منها . بنوا ملعباً في بلرم ، فصـنعوا له مثالا من الخشب ، ووضعوه فى دار الآثار . مدينة بلرم لهـا مثال مجسم ، رسمت فيـه البساتين والجبال والكنائس مجسمة ، مصـغرة بألوانها الطبيعية وألوان الأرض نفسها . وذلك المثال في دار الآثار ، حفظوا لباس امرأة مسلمة من مسلمي صقلية ، وهو زي يشبه الازياء الاوربية مع ساتر للوجه ، يدل على أن ستر الوجه كان عاماً حتى في صقلية أيضاً ، وان كان ذلك قد يغضب قاسم بك أمين ، فانه يجد له أضداداً في مسلمي أوربا ، فضلا عن مسلمي آسيا وأفريقيا

يحفظ القوم في متاحفهم هذه كل ما يوجد من آثار المتقدمين من مصنوعات وأشجار وأحجار ، ولا يدخرون جهـداً في حفظ ذلك حتى اذا وجدت اسم شيء في كتاب تاريخ مثلا ، أو عرض لك اسم في علم من العلوم كان يدل على معنى في الزمن السـابق ، أمكنك أن تعرف المدلول بالعيان والمشاهدة ، وتتحقق صحة الوصف والتعريف ، فمـا استعمله الأقدمون من آلات وأدوات وأنواع ثياب وضروب مراكب ونحو ذلك ، تجد شيئاً منه في متحف من المتاحف ، أو في قصر من القصور ، أو في كنيسة من الكنائس ، أو في داهية من الدواهي التي هناك . وهذا مما يفيـد في تحقيق المعاني التاريخية واللغوية فائدة لا يعرف مقدارها الا من يسـمع اسم اللامة والدلاص والدرع والخوذة والعمامة (عمامة الحرب) ونحو ذلك من الألفاظ العربية الكثيرة الاستعمال ثم يراجعها في القاموس أو غيره من كتب المعجمات ، وبعد ذلك لا تستقر في خياله صورة لمدلول من مدلولات هذه الالفاظ ، وقد يتخيل صورة لا مناسبة بينها وبين الحقيقة ، وهو جهل باللغة فاضح ، وكثير منا يأكلون الاوز والجوز ، وينطقون باسمه في البيت

وعند البائع اذا طلبوا شراء شيء منه ، وهم اذا رأوا شجرة الجوز أو اللوز لايميزون بينها وبين شجرة الجميز أو الفلفل . وأما الجماعة فعندهم في بساتين النبات جميع هذه الانواع من الاشجار ، وما لاتناسبه درجة الحرارة فى الهواء يحدثون له جواء تناسبه بالتسخين أو التبريد حتى يعيش فى جوّ مثل جوه ، ولكل من يريد معرفة شيء أن يذهب ويعرفه بعينه ، ذلك وقد رسموا صور هذا كله فيما كتبوا من كتب اللغة ومعجمات العلوم . ويتيسر للحاذق أن يعرف هذه الأشياء بصورها المرسومة فى تلك الكتب . أما اذا قال لك صاحب القاموس : الجوز شجر(م)أي معروف ، فماذا تستفيد من هذا وأنت فى مصر ، وليس فى قرب الأزهر شيء من شجر الجوز (م) بل ولا فى الازبكية نفسها ، فكيف يصير هذا عندك معروفا ؟ وكيف يمكنك أن تحدث عن هذا الشجر اذا كنت كاتباً أو شاعراً أو طبيباً أو عالما أو أديباً ؟

﴿ الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها ﴾

لهؤلاء القوم حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج ويوجد فى دار الآثار عند الامم الكبرى مالا يوجد عند الامم الصغرى كالصقليين مثلا ، يحققون تاريخ رسمها واليد التي رسمتها ، ولهم تنافس في اقتناء ذلك غريب ، حتى إن القطعة الواحدة من رسم روفائيل مثلا ربما تساوي مئين من الآلاف فى بعض المتاحف ، ولا يهمك معرفة القيمة بالتحقيق ، وانما المهم هو التنافس في اقتناء الامم لهذه النقوش ، وعدّ ما أتقن منها من أفضل ماترك المتقدم المتأخر ، وكذلك الحال في التماثيل ، وكلما قدم المتروك من ذلك كان أغلى قيمة ، وكان القوم عليه أشد حرصاً ، هل تدري لماذا ؟

اذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك للشعر وضبطه في دواوينه ، والمبالغة في تحريره ، خصوصاً شعر الجاهلية . وما عني الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل ، فان الرسم ضرب من الشعر الذي يرى ولا يسمع ، والشعر

ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى . ان هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الاشخاص في الشؤون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ، ماتستحق به ان تسمى ديوان الهيئات والاحوال البشرية . يصورون الانسان أو الحيوان في حال الفرح والرضا ، والطمأنينة والتسليم . وهذه المعاني المدرجة في هذه الالفاظ متقاربة لايسهل عليك تمييز بعضهامن بعض ، ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهراً، باهراً، يصورونه مثلا في حالة الجزع والفزع ، والخوف والخشية . والجزع والفزع مختلفان في المعنى ، ولم أجمعهما ههنا طمعاً في جمع عينين في سطر واحد ، بل لأنهما مختلفان حقيقة ، ولكنك ربما تعتصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية ، ولا يسهل عليك ان تعرف متى يكون الفزع ، ومتى يكون الجزع، وما الهيأة التي يكون عليها الشخص في هذه الحال أو تلك . وأما اذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت ، فانك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك ، كما يتلذذ بالنظر فيها حسك . اذا نزعت نفسك الى تحقيق الاستعارة المصرحة في قولك : رأيت أسداً — تريد رجلا شجاعا —فانظر الى صورة ابي الهول بجانب الهرم الكبير ،تجد الأسد رجلا ، أو الرجل اسداً ، فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم في الحقيقة ، وشكر لصاحب الصنعة على الابداع فيها . ان كنت فهمت من هذا شيئاً فذلك بغيتي، وأما اذا لم تفهم فليس عندي وقت لتفهيمك بأطول من هذا ، وعليك بأحد اللغويين أو الرسامين، أو الشعراء المفلقين ، ليوضح لك ماغمض عليك اذا كان ذلك من ذرعه .

ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام، وهي ماحكم هذه الصور في الشريعة الاسلامية اذا كان القصد منها ماذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية ، أو أوضاعهم الجثمانية ، هل هذا حرام أو جائز ، او مكروه أو مندوب او واجب ؟ فأقول لك ان الراسم قد رسم ، والفائدة محققة لانزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محي من الاذهان ، فاما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة ، وإما ان ترفع سؤالا الى المفتي وهو

يجيبك مشافهة ، فاذا أوردت عليه حديث : « ان أشدّ الناس عذابا يوم القيامة المصورون » أو مافي معناه مما ورد في الصحيح . فالذي يغلب على ظني انه سيقول لك ان الحديث جاء فى أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ فى ذلك العهد لسببين: الاول اللهو ، والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين، والاول مما يبغضه الدين، والثاني مما جاء الاسلام لمحوه، والمصور في الحالين شاغل عن الله أو ممهد للاشراك به، فاذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الاشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر فى المصنوعات . وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف، وأوائل السور ، ولم يمنعه أحد من العلماء، مع أن الفائدة فى نقش المصاحف موضع النزاع . وأما فائدة لصور فمما لانزاع فيه على الوجه الذي ذكر (١) وأما اذا أردت أن ترتكب بعض السيئات في محل فيه صور طمعاً فى ان الملكين الكاتبين أو كاتب السيئات على الأقل لايدخل محلا فيه صور كما ورد فاياك ان تظنّ ان ذلك ينجيك من احصاء ماتفعل ، فان الله رقيب عليك . وناظر اليك . حتى فى البيت الذي فيه صور . ولا أظنّ ان الملك يتأخر عن مرافقتك اذا تعمدت دخول البيت لان فيه صوراً . ولا يمكنك أن تجيب المفتي بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة فاني أظن انه يقول لك ان لسانك أيضاً مظنة الكذب فهل يجب ربطه مع انه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب

---

(١) ان الذين رسموا الصالحين والانبياء انما أرادوا التبرك بصورهم وتعظيمها إكراما لهم وهذا التعظيم يسمى في كل اللغات عبادة وجميع الصور والتماثيل التي كانت عند العرب كانت معظمة للدين ولذلك سمي في القرآن تعظيمها عبادة وكذلك النصارى كانوا يصرحون بأن تعظيم الايقونات ونحوها من الصور عبادة فلما عارض المصلحون في ذلك صار بعض المصرين عليه يسمي تعظيمها إكراما وأصر بعضهم على تسميته عبادة . هذا وان النهي عن التصوير في الاسلام لم يزد على النهي عن تعظيم القبور وتشريفها وبناء المساجد عليها وايقاد السرج عليها والاحاديث الصحيحة في حظر هذا كله ولعن فاعله مشهورة وقد فعله المسلمون مع بقاء علته وهم يتركون التصوير وفوائده مع انتفاء علة النهي عنه أفنؤمن بظاهر بعض الدين ونكفر بحقيقة بعض؟
(وكتبه محمد رشيد رضا)

وبالجملة انه يغلب على ظني أن الشريعة الاسلامية ابعد من ان تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق انه لاخطر فيها على الدين لامن جهة العقيدة ولا من وجهة العمل . على أن المسلمين لايتساءلون الا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها، وإلا فما بالهم لايتساءلون عن زيارة قبور الأولياء أو ماسماهم بعضهم بالأولياء، وهم ممن لاتعرف لهم سيرة . ولم يطلع لهم أحد على سريرة . ولايستفتون فيما يفعلون عندها من ضروب التوسل والضراعة ، وما يعرضون عليها من الأموال والمتاع . وهم يخشونها كخشيه الله او أشدّ . ويطلبون منها مايخشون ان لايجيبهم الله فيه، ويظنون انها اسرع الى اجابتهم من عنايته سبحانه وتعالى. لاشك انه لايمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد . ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صور الانسان والحيوان لتحقيق المعاني العلمية وتمثيل الصور الذهنية .

هل سمعت اننا حفظنا شيئاً حتى غير الصور والرسوم، مع شدة حاجتنا الى حفظ كثير مما كان عند أسلافنا ؟ لو حفظنا الدراهم والدنانير التي كان يقدر بها نصاب الزكاة ، ولا يزال يقدر بها الى اليوم أفما كان يسهل علينا تقدير النصاب بالجنيهات والفرنكات ونحو ذلك مادام المثال الاول موجوداً بين أيدينا ؟ ولو حفظ الصاع والمد وغيرهما من المكاييل أفما كان ذلك مما ييسر لنا معرفة مايصرف في زكاة الفطر وما تجب فيه الزكاة من غلات الزرع بعد تغيير المكاييل، وما كان علينا الا أن نقيس مكيالنا بتلك المكاييل المحفوظة فنصل الى حقيقة الأمر بدون خلاف . أظنك توافقني على انه لو حفظ درهم كل زمان ، وديناره ومده وصاعه لما وجد ذلك الخلاف الذي استمر بين الفقهاء، يتوارثونه سلفاً عن خلف، كل منهم يقدر المكيال والميزان بما لايقدر به الآخر، حتى جاء في آخر الزمان احمد بك الحسيني يخطيء بعضهم ويوفق بين أقوال البعض الآخر، بدون أن يكون بين يديه صاع ولامد من تلك الآصع والامداد، وما أصعب التخطئة والتوفيق ، اذا لم يكن العيان هو المميز بين فريق وفريق ،

لو نظرت إلى ماكان يوجب الدين علينا أن نحافظ عليه لوجدته كثيراً

لايحصى عده، ولم نحفظ منه شيئاً، فلنتركه كما تركه من كان قبلنا ، ولكن ماتقول في الكتب وودائع العلم ، هل حفظناها كما كان ينبغي أن نحفظها ، أو أضعناها كما لا ينبغي أن نضيعها ؟ ضاعت كتب العلم ، وفارقت ديارنا نفائسه ، فاذا أردت ان تبحث عن كتاب نادر ، أو مؤلف فاخر ، أومصنف جليل ، أوأثر مفيد، فاذهب الي خزائن بلاد أوربا تجد ذلك فيها . وأما بلادنا فقلما تجد فيها الا ماترك الاوربيون ولم يحفلوا به من نفائس الكتب التاريخية والادبية والعلمية ، وقد تجد بعض النسخة من الكتاب في دار الكتب المصرية مثلا ، وبعضها الآخر في دار الكتب بمدينة كمبردج من البلاد الانكليزية . ولو أردت أن أسرد لك ماحفظوا وضيعنا من دفاتر العلم لكتبت لك في ذلك كتابا يضيع كما ضاع غيره ، وتجده بعد مدة في يد أوربي في فرنسا أو غيرها من بلاد أوربا

نحن لانعنى بحفظ شيء نستبقي نفعه لمن يأتي بعدنا ، ولو خطر ببال أحدنا أن يترك لمن بعده شيئاً جاء ذلك الذي بعده أشد الناس كفراً بتلك النعمة، وأخذ في اضاعة ماعني السابق بحفظه له ، فليست ملكة الحفظ مما يتوارث عندنا ، وانما الذي يتوارث هو ملكات الضغائن والاحقاد ، تنتقل من الآباء إلى الاولاد، حتى تفسد العباد ، وتخرب البلاد ، ويلتقي بها أربابها على شفير جهنم يوم المعاد .

﴿أمير وأميرة من الاسرة الخديوية﴾

البحر هادىء والهواء عايل ، وقد قرب الغروب واليوم آخر أيام السفر وأنا محبوس في هذا المكان الضيق، لتحرير هذه الاحرف ، اجابة لطلب بعض الناس وبودي لو استنشق الهواء ، لكن بقيت علي قصة اقصها ولو تركتها اليوم لم يعد اليها القلم في يوم

صعدت الى المركب من مسينا وجلست انتظر مسيره ، وبينا انا كذلك واذا بأمير من أعضاء العائلة الخديوية يصعد من السلم الى السطح، فنهضت للسلام عليه ، وتساءلنا عن مراحل اسفارنا ، وفهمت منه أن معه حرمه، وهي من أعضاء

العائلة الخديوية كذلك . فقلت : أمير جليل ربي على الطريقة الاروبية ، وتعوّد السفر الى بلاد اروبا مع حرمه، وهي كذلك قد ربيت على العظمة والحرية ، فلا ريب ان نرى الأميرة مع الأمير ، ولا يقدح ذلك في كرامة واحد منهما ،فان الأميرات المصونات قد يرين الناس من حيث لايراهنّ الناس ، لا لأنهنّ من عالم غير عالمهم ، ولكن لأن الناس يغضون الطرف احتراما لهنّ ، ولا حظر عليهنّ في رؤية من لايراهنّ . لكني مكثت مع الأمير الى وقت العصر ، ثم تركته وذهبت الى محل الأكل لاتناول شيئاً مما يتناول في هذا الوقت ، فكان جلوسي مع بعض أرباب البيوت من الفرنسيين المقيمين في الاسكندرية فبدؤني بالكلام ،فتكلمت ،وامتد بي وبهم الحديث الى حالة المركب وازدحامه بالركاب وضيقه عنهم فقال قائل : أو قالت قائلة : ماأسوأ ماصنعت الشركة مع البرنسيس، فانها وضعتها في قمرة ضيقة لاشباك لها، وهي ملازمة لها ليلها ونهارها ، ولو كانت ممن يخرجن ويستنشقن الهواء لسهل الأمر ، ولكن الأميرة لاتخرج قط من يوم ركبت المركب ، ومن القمرات ماهو أفضل من قمراتها واوسع : فسألت هل بها شيء تألم له لو خرجت؟ فقيل لي : لا، الظاهر أنها في غاية الصحة وكمال العافية ، غير أنها لاتحب أن تخرج والقمرة مقفلة في جميع الاوقات :

امكنني بعد ذلك ان اسأل حتى يتم سروري بما فرحت لاوله ، فعلمت أن الأميرة كانت في أوربا تسدل على وجهها نقابا أزرق، على نحو مايسدل نساء الاستانة أو سورية بحيث لايميز الناظر شيئاً من وجهها، ومتى ركبت المركب لزمت قمرتها، وأغلقتها عليها ، إلى أن تصل إلى غاية سفرها . وكل ذلك تفعله حرصاً منها على كرامتها ، ومحافظة على المعروف من عوائدها، من حيث هي أميرة مسلمة ، فقلت مثل صالح لابدّ من ذكره والثناء عليه ،حتى يتعلم أولئك المقلدون أن من أمرائهم وأميراتهم من هم أولى بتقليده . وأن خيراً لهم أن يقلدوا أميراً مصرياً من العائلة الخديوية الكريمة، من أن يقلدوا جماعة من الاوربيين غير معروفين لهم ، ولا يحسنون بتقليدهم ، ولا يستفيدون من حذوهم حذوهم إلا تجردهم مما يميزهم من حيث هم مصريون أو مسلمون ، واختفاءهم في غمرة أولئك الاروبيين لا يتميزون

عن عامتهم في شيء ، وسريان مايشكو منه القوم من الفساد إلى أنفسهم ، أو انفس نسائهم ، فبارك الله في الامير وفي الاميرة ، وأرشد الله شباننا إلى التأسي بهما إن كان لا بد لنسائهم أن يذهبن الى أوربا لمداواة علة ، أو ايناس في غربة ،

لعلك تسأل من هذا الامير ومن هذه الاميرة ؟ فاني أقول لك الامير هو الامير عباس باشا حليم ، والاميرة هي الاميرة خديجة أخت أفندينا الخديو عباس باشا حلمي . ومما يسرك ان كنت مثلي تحب العفة ووضع الشيء موضعه ، أن الامير لا ينفق في سفره ان كان وحده أكثر من ثلاث مئة وخمسين جنيهاً ، واذا كان مع الاميرة فلا ينفق أكثر من ستمائة جنيه في مدة شهرين ونصف ، وهو يعيش عيشة الامراء

تقول : لعله يقتصد ليكتنز ، ويوفر ليستكثر ، فأقول لك اني علمت انه ينفق من ماله في تربية تلامذة في مصر وفي الآستانة وفي انكلترا يتعلمون العلوم العالية في المدارس الحربية أو مدارس الطب أو الزراعة ، فما قولك في نفقة مثل هذه بدل النفقة في الشهوات ، وفوائت اللذات ؟ ألست توافقني على أنه من أفضل الأمراء عملاً ، ومن أنبلهم قصداً فانه يربي أناساً يقومون بشؤون بيوتهم ، أعرف بعضهم وأجهل بعضا . ألا يكسب بهذا حسن الأحدوثة وتخليد الذكر خصوصاً إذا استزاد من هذا الخير ، فانه بذلك يقوي عناصر العلم في البلاد وهو الأصل الذي يحتاج اليه لاسيما إذا انضم اليه حسن التربية ، كما هو مقصد الأمير ، ولو اقتدى به الامراء لأصبحنا في ثروة من العلم ، ولم تصب حضراتهم بالافلاس من المال ، بعد الافلاس من الكمال وفقه الله وأرشدهم والسلام .

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ كتب الاستاذ الامام هذا الفصل عن بلرم عند زيارته إياها عائداً من الجزائر وتونس ، وفيه من شجون الحديث وفنون الاصلاح المفرغ في قالب الفكاهة ما رأيت ، وأهمها رأيه في التصوير والحجاب وأخبرني أنه كتب مذكرات بشأن تونس والجزائر يريد ايداعها في فصول اصلاحية بهذا النحو من الأسلوب ، وقضى قبل أن يجد فراغا لذلك ، ولم توجد تلك المذكرات في أوراقه الى هذا اليوم

الباب الرابع

لوائح الاصلاح والتعليم الديني

﴿ اللائحة الأولى ﴾

كتبها في منفاه ببيروت ووقع عليها مع بعض وجهاء المسلمين وأرسلها الى سماحة شيخ الاسلام بالاستانة وذلك في ٢٦ جمادى الثانية سنة ١٣٠٤ ومنها يعلم أنه لم يأل جهداً في النصح للدولة وأنها لو عملت بارشاده وصدقت أمله ورجاءه الحسن فيها لاحيت الاسلام وجددت مجده وكانت بذلك ذات سيادة اسلامية حقيقية . وهذا نص ماكتبه رضي الله عنه وأثابه

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

لاإله إلا الله وحده لاشريك له ،وبه الحول والقوة ،وصلى الله وسلم على نبيه وآله وصحبه * وبعد فقد رأينا وسررنا كما سر المسلمون كافة بما نشر في جريدة (طريق)من أنه صدرت الارادة السنية الى حضرة صاحب السماحة مولانا شيخ الاسلام ،بأن تؤلف تحت رئاسته العلية لجنة ،أعضاؤها حضرات صاحبي السماحة نوري أفندي أمين الفتوى ، وحسني أفندي رئيس مجالس المعارف ، وصاحب العطوفة عبد النافع افندي وصاحب الفضيلة خوجه اسحاق افندي وأن يناط بهذه اللجنة اصلاح جداول الدروس في المكاتب الاسلامية[1] وتقويمها ،حتى تكون كافلة بجميع الوسائل الصحيحة لتعليم أولاد المسلمين، وتلقينهم ضروريات الدين الاسلامي، وتربيتهم بالآداب والاخلاق الاسلامية على وفق الحق المطلوب . وأن حضرة مولانا شيخ الاسلام ،وحضرات أعضاء اللجنة الكرام ،وإن كانوا في غنى بآرائهم

(١) لفظ المكتب يطلق في البلاد العثمانية على المدرسة النظامية وان كانت عالية كمكتب الحقوق ومكتب الطب

القويمة ، ومعارفهم الواسعة ، عن أن يتقدم اليهم أمثالنا بالمشورة ، ولكنها الحمية للدين تبعثنا على بسط مايلوح بخواطرنا الى أولياء أمورنا ، مع الاعتراف بالعجز ، والاقرار بالقصور ، عملا بقول سيدنا علي كرم الله وجهه : « من واجب حقوق الله على العباد النصيحة بمبلغ جهدهم » وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته ، وتقدمت في الدين فضيلته ، يفوق أن يعان على ماحمله الله من حقه ، ولا امرؤ وإن صغرته النفوس ، واقتحمته العيون ، بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه .

إن من له قلب من أهل الدين الاسلامي ، يرى أن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله ، فانها وحدها الحافظة لسلطان الدين ، الكافلة ببقاء حوزته ، وليس للدين سلطان في سواها ، وإنا والحمد لله على هذه العقيدة عليها نحيا وعليها نموت

إن للخلافة الاسلامية حصونًا وأسوارًا ، وان أحكم أسوارها ما استحكم في قلوب المؤمنين من الثقة بها ، والحمية للدفاع عنها ، ولا معقد للثقة ، ولا موقد للحمية في قلوب المسلمين ، إلا ما أتاهم من قبل الدين . ومن ظن أن اسم الوطن ومصلحة البلاد وما شاكل ذلك من الألفاظ الطنانة يقوم مقام الدين في إنهاض الهمم ، وسوقها إلى الغايات المطلوبة منها ، فقد ضلَّ سواء السبيل

المسلمون قد تحيف الدهر نفوسهم ، وأنحت الأيام على معاقد ايمانهم ، ووهت عرى يقينهم ، بما غشيهم من ظلمات الجهل بأصول دينهم ، وقد تبع الضعف فساد في الأخلاق ، وانتكاس في الطباع ، وانحطاط في الأنفس ، حتى أصبح الجمهور الأغلب منهم أشبه بالحيوانات الرتع ، غاية همهم أن يعيشوا إلى منقطع أجيالهم يأكلون ويشربون ويتناسلون ، ويتنافسون في اللذات البهيمية ، وسواء عليهم بعد ذلك أكانت العزة لله ورسوله وخليفته ، أو كانت العزة لسائد عليهم من غيرهم . وهؤلاء الهنديون ، وسكان ماوراء النهر ، وقبائل التركمان وأشباههم ، يمثلون هذه الرزية أظهر تمثيل ، ولم تكن هذه المحنة خاصة بقوم من المسلمين دون قوم ، ولكن عمت بها البلية ، حتى خشي على قلوب كثير من العثمانيين أن يمسها هذا المرض الخبيث ، لولا أن تداركها قوة مولانا أمير المؤمنين[1] خلد الله ظله

(١) انها لم تتداركها وما كانت أعمال دولته كلها الا مظاهر صورية لا روح فيها

هذا الضعف الديني قد نهج لشياطين الأجانب سبل الدخول إلى قلوب كثير من المسلمين ، واستمالة أهوائهم الى الأخذ بدسائسهم ، والاصاخة إلى وساوسهم فخلبوا عقول عدد غير قليل . ثم انبثت دعاتهم في أطراف البلاد الاسلامية ، حتى العثمانية لتضليل المسلمين ، فلا نرى بقعة من البقاع إلا فيها مدرسة للأمريكانيين أو اليسوعيين أو العزارية أو الفرير ، أو لجمعية أخرى من الجمعيات الدينية الاوربية ، والمسلمون لا يستنكفون من إرسال أولادهم الى تلك المدارس طمعاً في تعليمهم بعض العلوم المظنون نفعها في معيشتهم أو تحصيلهم بعض اللغات الأوربية التي يحسبونها ضرورية لسعادتهم في مستقبل حياتهم .
ولم يختص هذا التساهل المحزن بالعامة والجهال ، بل تعدى إلى المعروفين بالتعصب في دينهم ، بل لبعض ذوي المناصب الدينية الاسلامية ، وأولئك الضعفاء أولاد المسلمين يدخلون الى تلك المدارس الأجنبية في سن السذاجة ، وغرارة الصبا والحداثة ، ولا يسمعون إلا ما يناقض عقائد الدين الاسلامي ، ولا يرون إلا ما يخالف أحكام الشرع المحمدي ، بل لا يطرق أسماعهم إلا ما يزري على دينهم وعقائد آبائهم ، ويعيب عليهم التمسك بعرى الطاعة لأوليائهم ويقع ذلك من نفوسهم موقع القبول ، لأنه من أساتذتهم ، القوّام على تربيتهم باذن آبائهم ، ولا نطيل القول فيما يتلقونه من العقائد الفاسدة والآراء الباطلة ، فذلك أمر أعرف من أن يبين ، فلا تنقضي سنوّ تعليمهم الا وقد خوت قلوبهم من كل عقد اسلامي ، وأصبحوا كفاراً تحت حجاب اسم الاسلام ، ولا يقف الأمر عند ذلك ، بل تعتقد قلوبهم على محبة الأجانب ، وتنجذب أهواؤهم الى مجاراتهم ، ويكونون طوعا لهم فيما يريدونه منهم ، ثم ينفثون ماتدنست به نفوسهم بين العامة بالقول والعمل ، فيصيرون بذلك ويلا على الأمة ، ورزية على الدولة ، — نعوذ بالله — ولو فقه المسلمون لبذلوا من أموالهم مايجيدون به تربية أبنائهم مع استبقائهم مسلمين في العقيدة ، عثمانيين في النزعة ، هذا ماجلبه الجهل على الأمة الاسلامية ، وأن غائلته لمن أشد الغوائل . وقد كنا نخاف أن تحل بوائقها لو

لم تدفعها عزيمة مولانا أمير المؤمنين [١]

أما المكاتب والمدارس الاسلامية فقد كانت اما خالية من التعليم الديني جملة ، واما مشتملة على شيء قليل منه ، لايتجاوز أحكام العبادات على وجه مختصر ، وطريق صوري لايعدو حفظ العبارات، مع الجهل بالمدلولات ، ولهذا رأينا كثيراً ممن قرؤا العلوم في المدارس العسكرية وغيرها [٢] خلوا من الدين ، وجهالا بعقائده ، منكبين على الشهوات وسفاسف الملذات ، لا يخشون الله في سر ولا جهر ،ولا يراعون له حكما في خير ولا شر ، وانحط بهم ذلك إلى الكلب في الكسب ، والانصباب على طلب التوسعة في العيش ، لا يلاحظون فيه حلالا أو حراما ، ولا طيبا أو خبيثا ، فاذا دعوا الى الدفاع عن الملة والدولة ركنوا الى الراحة ، ومالوا الى الخيانة ، وطلبوا لأنفسهم الخلاص بأية وسيلة

وبالجملة فان ضعف العقيدة والجهل بالدين قد شمل المسلمين على اختلاف طبقاتهم الا من عصم الله ، وهم قليلون . ولهذا تراهم يفرون من الخدمة العسكرية، ويطلبون للتخلص منها أية حيلة ، وهي من أهم الفروض الدينية المطلوبة منهم . نرى غيرهم من الأمم يتسابقون الى الانتظام في سلك جنديتهم ، مع أنها غير معروفة في دينهم ، بل مضادة لصريح نصوصه ، ونرى المسلمين يبخلون بأموالهم اذا دعت الأحوال إلى مساعدة الدولة ، والانفاق على مصالح الأمة ، ولا يبخلون بذلك على شهواتهم ، بعكس ما نرى في سائر الأمم . هكذا انطفأ من المسلمين مصباح العقل ، فلا يعرفون لهم رابطة يرتبطون بها ، ولا يهتدون الى جامعة يلجؤن اليها ، وتقطع ما بينهم (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) ولا حول ولا قوة الا بالله

هذه أحوال نذكر منها القليل ، والله يعلم أن الواقع منها أكثر من الكثير ،

---

(١) لقد حلت البوائق بالدولة ولم تدفعها عزيمته بل غلبه المتفرنجون حتى أضاعوا الدولة وهم يدعون انقاذها (الطبعة الثانية)

(٢) ليتأمل القراء هذا الذي كتب منذ جيل كامل أي ٤٠ سنة وماذا كان من أثره في الدولة والخلافة بأيدي هؤلاء العسكريين وأمثالهم ؟

نذكرها مقرونة بأنفاس الأسف وصُعداء الحزن، لما نعلم أن الأجانب قد أرسلوا ذئابهم يتخطفون شاذتهم، وأغلبهم شاذة، ويفترسون نادتهم وجمهورهم نادة، ومسارعة الفساد فيهم مشهورة، يحس بازديادها كل سنة عما قبلها، وإن عواقب ذلك لتخشى، ولا حول ولا قوة الا بالله

واذا استقرينا أحوال المسلمين للبحث عن أسباب هذا الخذلان لانجد الا سبباً واحداً، وهو القصور في التعليم الديني إما باهماله جملة كما هو في بعض البلاد وإما بالسلوك اليه من غير طريقه القويمة كما فى بعض آخر. أما الذين أُهمل فيهم التعليم الديني. فجمهور العامة في كل ناحية، لم يبق عندهم من الدين الا أسماء يذكرونها، ولا يعتبرونها، فان كانت لهم عقائد فهي بقايا من عقائد الجبرية والمرجئة من نحو أنه لا اختيار للعبد فيما يفعله، وانما هو مجبور فيما يصدر عنه جبراً محضاً. فلهذا لايؤاخذ على ترك الفرائض، ولا اجترام السيئات، ومثل أن رحمة الله لا تدع ذنباً حتى تشمله بالغفران قطعاً، لا احتمال معه للعقاب، فليفعل الانسان ما يفعل من الموبقات، وليهمل مايهمل من المفروضات، فلا عقاب عليه، وما شاكل ذلك مما أدى الى هدم أركان الدين من نفوسهم، واستل الحمية من قلوبهم، ولا منشأ له الا عدم تعليمهم عقائد دينهم، وغفلتهم عما أودع في كتاب الله وسنة رسوله.

وأما الذين أصابوا شيئاً من العلم الديني فمنهم من كان همهم علم أحكام الطهارة والنجاسة، وفرائض الصلاة والصيام، وظنوا أن الدين منحصر فى ذلك، ومتى أدوا هاتين العبادتين على مانص في كتب الفقه، فقد أقاموا الدين، وان هدوا كل ركن سواهما، ويشتركون مع الأولين في تلك العقائد الفاسدة، ومنهم من زاد على ذلك علم الفروع في أبواب من المعاملات، متخذاً ذلك آلة للكسب، وصنعة من الصنائع العادية، وأولئك الأغلب من طلاب الافتاء والقضاء ووظائف التدريس وماشاكل ذلك. لاينظرون الى الدين الا من وجه ما يجلب اليهم المعيشة، فان مال بهم طلب العيش الى مخالفته لم يبالوا بذلك، معتقدين على مثل عقائد الجهلة مما قدمنا، وهؤلاء لا تختص مفاسد أعمالهم بذواتهم، ولكنها تتعدى الى أخلاق العامة

وأطوارهم . فهـذا القسم أعظم الأقسام خطراً ، وأشـدها ضرراً في العامة والخاصة ، وما أفراده بقليل

نعم لاينكر أن الخير في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه يوجد في هذه الطبقة رجال وقفوا عند ماحدّ الكتاب ، واستمسكوا في الدين بالعروة الوثقى وأضرم الدين في قلوبهـم نار الحمية ، واستفزّ اليقين هممهم للنصرة الملية ، الا أنهم قليل، والموجود منهم قد يكون خامل الذكر ، أو قاصر الاقتدار عما تطالبه به الشريعة في ارشاد الأمة . وبالجملة فوجود أمثالهم لم يكن كافياً في دفع الشرور الوافدة من غيرهم ، ولولا مالطف الله بهـذه الأمة ، بسر توجه مولانا الخليفة الأعظم لعجل لها من الوبال ما استحقته بسوء أعمالها ، ونبذها أحكام الله وراء ظهرها ، وانحراف قلوبها عن مقاصد ولاة أمورها الصادقين . وقد نظر مولانا أعزّه الله ونصره الى عظم هذا الأمر وهول عواقبـه ، فأصدر ارادته السامية بالنظر في وجوه تداركه . فياللنعمة العظمى ، ويالالرحمة الكبرى ، هشت لها قلوب المؤمنين ، وبشت لورود بشراها وجوه الصادقين ، وارتفعت أصوات التضرع الى الله بتأييد شوكة مولانا أمير المؤمنين ، وتأييد دولته ، واعلاء كلمته

وانه بعد التأمل في الأحوال المتقـدمة وهي ظاهرة مشهورة والوقوف على سببها الذي أشرنا اليه وهو غير خفي على مدارك مولانا شيخ الاسلام وأعضاء اللجنة الكرام نعلم ان أمير المؤمنين لم يرد من اصلاح الجداول أن يدرج في فنون المدارس الاسلاميـة بعض الكتب الفقهية مع بقاء التعليم على طرقه المعهودة في المساجد وفي دروس بعض العلماء ، فان العلوم العملية اذا لم تبن على عقائد صحيحة وإيمان صادق لاتلبث أن تضمحل ، ولئن ثبتت فانما تسوق الى أعمال خالية عن النيات ، وخاوية من سر الاخلاص فتكون أشبه شيء بالباطلة في عـدم ترتب الأثر المطلوب عليها كما قدمناه ، فلا بد أن يكون مولانا الخليفة أعز الله نصره قد أراد أن يوجه النظر الى فن تقوى به العقيدة ويستحكم سلطانها على العقول ، ثم إلى تربية تذكر بما تنال النفس من ذلك الفن فيكون التذكار مستحفظاً لما يصل اليها منه ، ثم إلى فن الفقه الباطني وهو ماتعرف به أحوال النفس وأخلاقها والمهلك

منها كالكذب والخيانة والنميمة والحسد والجبن وسائر الرذائل ، والمنجي كالصدق والأمانة والرضى والشجاعة وسائر الفضائل . ويضم الى ذلك باقي علم الحلال والحرام على ماهو مذكور في الكتاب والسنة ومتفق عليه بين أئمةالملة الاسلامية . ثم إلى تربية تحفظ ذلك وتروض النفس على العمل بما تعلم منه . ثم يكون التعليم في هذه الفنون المذكورة والتربية على وفق قواعدها مستندين الى الشرع الشريف ،بحيث تذكر مآخذها من القرآن والسنة الصحيحة ، وماصح أثره من أقوال الصحابة وعلماء السلف الأول ومن حذا حذوهم كحجة الاسلام الغزالي وأمثاله ،فالمقصد بالذات علمان وهما أصلان ومجموعهما ركن من الاصلاح ،والركن الآخر التربية بما يهديان اليه حتى تصير العلوم ملكة راسخة تصدر عنها الأفعال بلا تعمل ، ثم يتبعهما فن آخر يقوي على الغرض منهما وهو فن التاريخ الديني، خصوصاً سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه والخلفاء الراشدين ومن تأثرهم من الخلفاء العثمانيين

هذا اجمال ماإليه الحاجة من العلوم الدينية إلا أن كل واحد منها مقول على المبدأ والتوسط والنهاية ، وكل منها غذاء لطبقة من الناس لاقوام لحياتها الدينية والسياسية إلا به

فلهذا نقسم طبقات الناس الى ثلاث ونعين لكل واحدة منها حداً من هذه الفنون . فالطبقة الاولى العامة من أهل الصناعة والتجارة والزراعة ومن يتبعهم . والثانية طبقة الساسة ممن يتعاطى العمل للدولة في تدبير أمر الرعيـة ، وحماتها من ضباط العسكرية ، وأعضاء المحاكم ورؤسائها ومن يتعلق بهـم ، ومأموري الادارة على اختلاف مراتبهم . والطبقة الثالثة طبقة العلماء من أهل الارشاد والتربيـة ، ولا نريد بهذا القسم منع الآحاد من كل طبقة أن يطلبوا الكمال الذي خص به من فوقهم ، ولكن الغرض تحديد ما يلزم لكل واحدة ، ثم إن الله لايضيع أجر العاملين

التعليم الديني الابتدائي لطبقة العامة المسلمين

﴿ الطبقة الأولى ﴾ هم أولاد المسلمين الذين يوقف بهم عند مبادىء الكتابة والقراءة ، وشيء من الحساب ، يعلمون ذلك إلى درجة محدودة ينتفعون بها في معاملاتهم ، ثم ينصرفون إلى أعمالهم الصناعية والتجارية والزراعية وما يشبهها ، وأولئك كتلامذة المكاتب الرشدية والعسكرية والملكية ، والمكاتب الخيرية الاهلية . فهؤلاء يهم الدولة منهم أن يكونوا في قيادة الطاعة ، إن جاذبتهم أرواحهم سلموها ، وإن استقرضتهم أموالهم بذلوها ، محتسبين ذلك في سبيل الله غير ساخطين ولا متكرهين . ثم لا يكون لوسوسة أجنبي منفذ إلى قلوبهم ، فيجب أن يودع في أفئدتهم لبدايات تعليمهم مواقد الحمية ، ومعاصم الانفة الملية ، كما كان ذلك في نشأة الاسلام وبداءة الخلافة العثمانية ، وكما هو معروف الآن عند الأمم الاوروباوية مما تعلموه من أسلافنا ، ولا تدرك هذه الغاية من أبنائنا إلا بعقيدة صادقة ، واستقامة ثابتة ، ومحبة خالصة . ولهذا ينبغي أن توضع لهم كتب التعليم الديني على الوجه الآتي :

أولا — كتاب مختصر في العقائد الاسلامية المتفق عليها عند أهل السنة بلا تعرض للخلاف بين الطوائف الاسلامية مطلقاً ، مع الاستدلال عليها بالادلة الاقناعية القريبة المنال ، والاستشهاد بالآيات القرآنية والاحاديث الصحيحة ، ومع الالمام بشيء من الخلاف بيننا وبين النصارى ، وبيان شبههم في معتقداتهم ، لتكون الخواطر في استعداد لدفع ما يرد عليها من وساوس دعاة الانجيل المنبثين في كل قطر

ثانياً — كتاب مختصر في الحلال والحرام من الأعمال ، وبيان الاخلاق الخبيثة ، والصفات الطيبة ، والتنبيه على البدع المستحدثة التي لم يرد في الكتاب فرضها ، ولا في السنة أثرها ، وظهر في العامة ضررها ، مستدلا فيه بآيات الكتاب وأحاديث السنة ، مؤيداً بأعمال الصديقين من سلف الامة ، ولا بدّ أن يكون مدار الكتاب تقرير أن الانسان إنما خلق ليكون عبداً لله ، فكل شيء دون

الله ورسوله مبذول

ثالثاً — كتاب في التاريخ مختصر يحتوي على مجمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه من وجه ما يتعلق بالاخلاق الكريمة والاعمال العظيمة ، وفداء الدين بالارواح والاموال ، مع الالمام بالسبب في تسلط الاسلام على لاامم في وقت قصير ، مع قلة أهله وكثرة معارضيه وقوتهم ، وإثبات ان ذلك بسر الصدق في المكافحة والاتحاد في المجاهدة . ثم يتبع ذلك بتاريخ الخلفاء العثمانيين ، كل ذلك على وجه مختصر سهل التناول

ثم هذه الكتب تكون للعثمانيين من العرب عربية ، ومن الترك تركية ، ومن غيرهم بلسانهم ان وجدوا ، ومايذكر فيها من آية وحديث يفسر باللغة الموضوعة فيها

التعليم الديني الوسط للطبقة المرشحة للوظائف

﴿ الطبقة الثانية ﴾ هم أبناء المسلمين الذين ينتظمون في المدارس السلطانية والشرعية والملكية والعسكرية والطبية وما يتلوها ، والذي يهم الدولة منهم أن يكونوا أمناء لها ، حفاظا لما استحفظوا عليه من شؤونها — الجندي منهم حامل لنفسه على ذباب سيفه حتى ينتصر أو يموت ، والحكم منهم بفصل المخاصمات ، قابض على ميزان العدالة ، ناظر الى كفف النظام ، يرجح مارجح فيه ، ويسقط ماسقط منه . فهو يتحرى الحق ويحكم به أو يموت ، والمولى منهم أمراً في ادارة أمور الرعية ، آخذ لنظار الحذق والدراية ، ليستبين مايخفى من مصالح رعاياها ، وما يدق من مسالك أهوائها ، ليضبط الاعمال ، ويلزم الحدود ، ويوفر وسائل العمران . فهو يقيم للدولة ماقامت به مصالح رعاياها ، الا أن يحول دون ذلك الموت فيموت . فهذه الطبقة بعد أن تشارك الطبقة السابقة في مبدأ التعليم الديني يزاد لها بعد ما تقدم كتب أعلى من تلك الفنون نفسها فتوضع لهم في المدارس العالية والاعدادية على الوجه الآتي :

أولا — كتاب يكون مقدمة للعلوم يحتوي على المهم في فن المنطق وأصول النظر ، وشيء من آداب الجدل

ثانياً — كتاب في العقائد يوضع على قواعد البرهان العقلي والدليل القطعي مع التزام التوسط ، وإتيان الطريق الأقرب ، ومجانبة الخلاف بين المذاهب الاسلامية أيضاً ، إلا أن يتوسع فيما بيننا وبين النصارى لايضاح ما تستلزمه عقائدهم بوجه أجلى وأوضح ، وتفصيل شيء من فوائد العقائد الاسلامية في تقويم المعيشة المدنية ، فضلا عن غاية السعادة الاخروية

ثالثاً — كتاب يفصل فيه الحلال والحرام ، وأبواب الفضائل والرذائل ببيان أكمل مما في البداية ، وتوضيح لأسباب الاخلاق وعللها وآثارها على وجه يقنع به العقل ، وتطمئن به النفس . ثم بيان الحكم لبعض الأحكام الدينية ، وفوائدها في الحياة البشرية ، مع الاستناد في هذا وفي سابقه الى نصوص الدين وسير السلف الصالح كما تقدم ، ويكون مدار الكلام في الكتابين على ما يضرم الحمية في القلوب ، ويرفع النفوس الى مقام لاتطلب فيه الا معالي الامور

رابعاً — كتاب تاريخ ديني يحتوي على تفصيل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه ، والفتوحات الاسلامية العظيمة في القرون المختلفة ، وما جاء به الخلفاء العثمانيون من ذلك ، والاتيان على كل هذا من وجه ديني محض . فان ذكرت فيه الوجوه السياسية كانت تابعة للغرض الديني ، ويبين في هذا الكتاب ما كانت تنبسط اليه سيادة الاسلام من أقطار الارض ، ويودع فيه من العبارات مايحرك القلوب الى طلب المفقود ، فضلا عن حفظ الموجود . ثم تبسط فيه أسباب التقدم الاسلامي بأدق مما كان في السابق

وأبناء هذه الطبقة كالسابقين من اخوانهم يكفيهم أن يتعلموا هذه الكتب بألسنة آبائهم ، وما يذكر من النصوص العربية يفسر لغير العرب كما سبق ، ولا يلزم لتربيتهم الدينية أن يتعلموا من اللسان العربي الا مايفرض عليهم في العبادات ، وما يتلونه من ذلك فلا بد من ايقافهم على حقيقة معناه بالتفسير ، حتى يكون كل قائل عارفا بمدلول ماينطق به ليترك الذكر أثراً في الفكر كما هو مطلوب الشارع ، وقد يندرج في هذه الطبقة بعض من يناط بهم أمر التعليم في المدارس والمكاتب الابتدائية ، اذا وجدت فيهم الاوصاف التي تؤهلهم لذلك من الحية

والعفة ، ومحبة الدولة ، والوقوف عند أحكام الشرع الشريف ، مع التبصر في الممنوعات والمطلوبات ، وتمييز ماهو من الدين عما ليس منه وان خالف أوهام العامة

التعليم الديني العالي لطبقة المعلمين والمرشدين

﴿ الطبقة الثالثة ﴾ هم أبناء المسلمين الذين عقلوا ماتقدم من كتب الطبقتين السابقتين ، وكشف الامتحان امتيازهم في فهمها ، وتخلقهم بالصفات المقصودة بوضعها . فانتخبوا لذلك على أن يرقى بهم الدرجة العليا من العلم والعمل ، حتى يكونوا عرفاء الامة ، وهداة الملة ، فيناط بهم التعليم الديني في المدارس العالية والاعدادية ، بل والابتدائية اذا كثر عددهم ، وبهم يناط التعليم لأهل طبقتهم فهؤلاء لايكفي لابلاغهم الغاية المطلوبة للدولة فهم دراسة ثلاثة أو أربعة من الكتب الدينية ، بل يجب أن يزاد لهم على ما تقدم كتب كثيرة ، يزدادون بدراستها بصيرة في دينهم ، ويستوسعون بها القدرة في البيان لافادة غيرهم . فمن المعلوم أنه لا يكفي المرشد مايكفي للمسترشد ، ولأجل هذا نقتصر في بيان مايحتاجون اليه على ذكر الفنون دون التعرّض لأعيان الكتب الا قليلا . فلتكن الفنون على الوجه الآتي ان شاء الله

أولا — فن تفسير القرآن ، وهو أهم مايحتاج اليه ليقرأ القرآن تفهما وتطلباً لما أودع الله فيه من الاسرار والحكمة . فالقرآن سر نجاح المسلمين ، ولا حيلة في تلافي أمرهم الا ارجاعهم اليه ، ومالم تقرع صيحته أعماق قلوبهم ، وتزلزل هزته رواسي طباعهم ، فالامل مقطوع من هبوبهم من نومهم . ولا بدّ أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه على ما ترشد اليه أساليب اللغة العربية ، ليستجاب لدعوته كما استجاب لها رعاة الغنم وساقة الابل ممن أنزل القرآن بلغتهم ، والقرآن قريب لطالبه متى كان عارفا باللغة العربية ، ومذاهب العرب في الكلام ، وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي ، فعلم ذلك من أجود الوسائل لفهمه ، فان احتيج الى وسيلة أخرى ، فأولاها : مطالعة كتب التفسير الذاهبة مذهب

تطبيق مفاهيم الكتاب على المعروف عند العرب كتفسير الكشاف [١] وتفسير القمي النيسابوري ، ومن أخذ طريقهما

ثانياً — فنون اللغة العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وتاريخ جاهلي وما يتبع ذلك ليتمكن بها من فهم القرآن والحديث

ثالثاً — فن الحديث على شرط أن يؤخذ مفسراً للقرآن ، مبيناً له ، مع إطراح مايخالف نصه من الأحاديث الضعيفة ، والاجتهاد لارجاع الأحاديث الصحيحة اليه إن كان ظاهرها يوهم المخالفة

رابعاً — فن الأخلاق والآداب الدينية بتفصيل تام وإحاطة كاملة على نحو ماسلك الامام الغزالي في الاحياء ، مع تطبيق تلك القواعد الأدبية الشرعية على الاصول المشهورة

خامساً — فن أصول الفقه من وجه مايمكن من صحة الاستدلال بالنصوص الشرعية ، ويوقف على كليات الشريعة ، ليستأنس بها في فهم الأحكام . ونرى أفضل كتاب يفيد لهذا المقصد كتاب الموافقات للشيخ الشاطبي المطبوع في تونس

سادساً — فن التاريخ القديم والحديث ، ويدخل في ذلك سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بالتفصيل ، وسير أصحابه ، وتاريخ الانقلابات التي عرضت في الممالك الاسلامية الاولى ، وتاريخ الدولة العثمانية ، وما كان منها في إنهاض الاسلام من كبوته التي كباها في القرون الوسطى بعد الحروب الصليبية ، مع التوفيق في أسباب ماوصلت اليه الملة في هذه الايام ، ليتبين أنه لاسبب لذلك الا الجهل بالدين ، والانحراف عن أحكامه ، وانشقاق عصا الامة بالخلاف الذي لا طائل له

سابعاً — فن الاقناع والخطابة وأصول الجدل، لغرض التمكن من تقرير

(١) كنت سألت الشيخ في أول مرة رأيته فيها بطرابلس الشام أيام طلبي للعلم فيها عما يختار لطالب العلم من التفاسير ليفهم القرآن فهما صحيحا — فقال الكشاف — قلت ان فيه كثيراً من نزغات الاعتزال فيخشى ان تعلق بذهن الطالب فيشذ عن السنة . قال بل تلك مواضع قليلة معروفة يمكن الاحتراز منها

المعاني في الأذهان ، وتثبيت العقائد في النفوس ، وإلزامها الاخذ بمكارم الاخلاق وفضائل الاعمال ، والارتفاع بها عن دنايا الصفات وسفساف الأمور

ثامنًا — فن الكلام ، والنظر في العقائد ، واختلاف المذاهب ، والبحث في أدلة كل،لا لتحصيل العقيدة ، ولكن لزيادة البسطة في الفكر ، والسعة في الرأي ، ولا بأس بقراءة بعض الكتب الحكمية الاسلامية لتكميل الاحاطة بوجوه المسائل العقلية

فهذا جملة مايلزم لتحلية نفوس هذه الطبقة بفضيلتي العلم والعمل ، ولم نتعرض لفن الفقه في العبادات والمعاملات ، لأنه في العبادات سهل التناول من أفواه الطلبة ، وفي المعاملات يشترك في طلبه المسلم والذمي والأجنبي ، إذ يضطر اليه كل ساكن في الممالك العثمانية ، ليعرف كيف يطالب بحقه أو يدافع عنه . وأما سائر العلوم من اللغات والرياضيات والطبيعيات والنظامات ، وكل ماحددته نظارة المعارف العثمانية ، فهي على رسمها ، كل مدرسة تتبع قانونها ، لا يضر شيء منها بالدين ، بل الدين يقويها كما أنها تقويه

هذه الطبقة الأخيرة ينبغي أن تكون تحت نظر مولانا شيخ الاسلام خاصة وتكون إدارتها تحت عنايته في سلك مخصوص ، ويدعى لها بالمدرسين المتبصرين من أي أرض يوجدون بها ، وينتخب طلبة العلوم لها من أقوى الناس إدراكا ، وأذكاهم أخلاقا ، ويراعى في الانتخاب كمال الدقة في الامتحان . ثم لا يعطى الطالب منها شهادة ببلوغه الغاية من علومها ، وتأهله للتدريس الا بعد الامتحان الشديد في العلوم المتقدمة ، والبحث الكامل عن سيرته في أحواله وأعماله ، والتحقق من تقدمه في الفضيلتين العلم والعمل

التدريس في جميع تلك الدرجات انما يقصد منه اشراب القلوب حب الدين وتوقيره ، وجعله الغاية المطلوبة من كل عمل ، حتى تكون للملة وجهة واحدة يقصدونها بأعمالهم ، فتلتئم قواها الروحية والمالية لخدمة الدين ، وتأييد حافظه الأعظم ، المدافع عن بيضته ، حضرة مولانا أمير المؤمنين ، فتكون الملة ملة مهيبة ، يخشى بأسها ، ويخاف بوائق غضبها ، ويؤول بالدولة الى علو الكلمة

في سياستها الخارجية، بعد ما عادت بركاته على المسلمين في راحتهم الداخلية. وبالجملة فالقصد من اصلاح الجداول انما هو احياء الملة، وقد كانت كادت تموت والعياذ بالله (١)

ولهذا يجب أن يكون التدريس في أغلب العلوم المتقدمة ـ خصوصاً في الاخلاق والآداب ـ أشبه شيء بالخطابة ترسل فى المعاني الى القلوب لتهزها وتستفزها من مقارّ الخمول والغفلة، الى مقامات التنبه والبصيرة. ثم يتبع الدرس رعاية لأحوال المعلمين وأعمالهم، ومؤاخذة لهم اذا خالفوا حكما من أحكام ماتعلموه، أو قصروا فى عمل من لوازم ما اعتقدوه، وتذكيرهم في ذلك يؤثر فى قلوبهم، ويحرك الساكن من خواطرهم. ومن ثمة يجب أن يكون القائمون بالتعليم على أكمل الصفات العقلية، وأفضل الاعمال النفسية، يراعي فيهم ذلك بقدر الامكان

وان ثقتنا بوعد الله في قوله (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وقوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وقوله (ان الله مع الذين اتقوا...) وقوله (ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون) واعتبارنا بقوله (ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وخبرتنا بأحوال الأمم الاوربية، والاسباب التي وصلت بهم الى ما نراهم عليه في القوة والدراية، كل ذلك يوجب لنا اليقين القطعي بأن إصلاح التعليم الديني على الوجه المتقدم يكون نشأة حياة جديدة تسري في جميع أرواح المسلمين العثمانيين، بل هو الذي سيفضي في أسرع وقت إلى توحيد كلمة الاسلام، وجمع أطرافه تحت كنف الدولة العلية العثمانية رغمًا عن أنف كل مخاصم، ومنه رأي هؤلاء العاجزين أن لا حافظ للدولة ولا واقي الملة سواه، وأن جميع ماصرف في سبيله من المتاعب والنفقات فهو أعود بالفائدة مما يصرف لأي عمل سياسي خارجي أو داخلي، فانه لا سياسة إلا بالقوة، ولا قوة إلا بالنجدة، ولا نجدة الا بالوحدة، ولا وحدة الا بالطاعة، ولا حقيقة للطاعة الا بالعقيدة الحسنة، ولا عقيدة إلا بحياة الدين، ولا حياة للدين الا بالتعليم، حتى يجري على أحكام التجربة، وليس ذلك الا ماعرضناه

(١) رحم الله الاستاذ فماذا كان يقول لو عاش إلى زماننا هذا

وأن جمهور المسلمين ممن يعرف أفكارهم في الأقطار العثمانية ، بل وفي غيرها لايرون دواء لدائهم الا رجوعهم لأصول دينهم في أخلاقهم وأعمالهم ، وأن يكونوا يجهلون الوسائل الى ذلك . فالحمد لله الذي وفق الدولة حرسها الله لتقريب مرغوبهم ، وتحقيق أمانيهم

هذا مانرفعه الى مقام شيخ الاسلام ، فان صادف قبولا فذلك ما نؤمل ويؤمل المسلمون ، وان كانت الاخرى فقد أدينا ما حضر لنا على حسب عجزنا ونسأل الله أن يوفق مولانا أمير المؤمنين وأركان دولته الى تقرير ماهو أعلى من أفكارنا ، وأنجح منها في اصلاحنا . وانا في جميع الأحوال نوالي الدعوات الصالحات بنصر مولانا الخليفة الاعظم وتأييده وبقائه ظلا لله ورحمة لعبيده آمين

كلام في الدعاة والمرشدين

وبقي في موضوع الاصلاح الديني كلام هو كالتتمة له ، فنتقدم لعرضه وهو أن المكاتب والمدارس المنشأة في الممالك العثمانية ، ان لم تكن قليلة بالنسبة للرعايا العثمانيين ، فالداخل اليها قليل بالنسبة الى عدد الاهالي ، فان الجمهور الاعظم من سكان القرى ، والأعراب المتنقلين في أكناف المملكة وأشباههم لايرون ضرورة لتعليم أولادهم ، ولا يقدرون التربية الحسنة حق قدرها . فاصلاح جداول التعليم في المدارس لاتصيبهم فائدته ، بل يحرمون منها كما يحرم الكبار من العامة الذين جاوزوا سن التعليم ، وهؤلاء وأولئك من جسم الدولة ولهم وظائف من الاعمال يطالبون بأدائها ، والحال فيهم من الجهل ما وصفنا . والمضرة اللاحقة بالدولة من جهلهم هي كما بينا . فمن الواجب الالتفات اليهم باصلاح أرواحهم لتستفيد الدولة منهم فائدتها من سواهم

وذلك لا يكون الا بترتيب دعوة تنبههم الى الواجب عليهم من تعليم أبنائهم ، وتحملهم على السعي في تربيتهم وتهذيبهم ، ثم تخدعهم عن أطباعهم ، وتلين من قساوة قلوبهم . ثم أنهم لو رغبوا في التعليم ، وكلفت الدولة بانشاء مكاتب لتربية أبنائهم ، والانفاق عليها لزادت عليها النفقات مع كثرة مايلزمها

من المصاريف في إدارة شؤون المملكة ، فلا بدّ أن يكون من وظائف الدعاة تحريض الموسرين والأغنياء أن يبذلوا من فضلات أموالهم ما ينفق على إنشاء المكاتب وعمل التعليم فيها ، ويؤلفوا لذلك لجانا وجماعات في كل بلد وبقعة لتدبيره والقيام عليه تحت مراقبة من يقوم بالدعوة فيهم . ثم يكون من وظائف الدعاة إلقاء الوعظ العام في المساجد والجوامع ليذكروا الناس مانسوا من دينهم ويعرفوهم ما جهلوا منه ، ويشربوا قلوبهم حب الدولة ، ويقرروا في نفوسهم بلطف البيان أن أمير المؤمنين ، وخليفة رسول رب العالمين أولى بهم من أنفسهم وعلى ذلك يجب أن يكون لأهل الدين دعاة مرشدون ينبثون بين العامة ليفقهوهم على أمور دينهم ، ويبادروهم بالدواء قبل استفحال الداء

وهؤلاء المرشدون يجب أن يكونوا على الأوصاف التي شرطناها في أهل الطبقة الثالثة علماً وعملا . وبالجملة فلا بدّ أن يكونوا من أطول الناس باعاً في الفنون الأدبية الشرعية ، وأوسعهم علماً بعلل الأخلاق وأمراض النفوس ، وأقدرهم على التماس منافذ القلوب للدخول اليها بما يصلحها . ثم يكونوا أقوم الناس سيرة ، لايخالف عملهم قولهم فيكونون مثالا للناس يحتذونه ، وقدوة لهم يتبعونها . ثم لا بدّ أن يكون في كل قوم بلغتهم ، بل يجب أن يكونوا ممتازين بفصاحة اللسان وجودة المنطق بين القوم الذين يرشدونهم ليقبلوا عليهم بالاسماع

ومن هذا تلزم المبادرة إلى إصلاح الخطبة في مساجد الجمعة ، وتوليتها قوما يحسنونها ، ويدرجون فيها مايمس أحوال العامة في تصرفاتهم المشهودة ، ويبنون لهم مضار الفساد ، ويهدونهم الى سبل الرشاد ، كما هو مقصود الشارع من فرض الخطبة في الجمعة ، وهذا باب عظيم من الاصلاح اذا وجهت العناية اليه رجونا منه النفع الكثير والخير الغزير

فان سأل سائل : أين الكتب التي توضع للطبقة الاولى والثانية من المتعلمين؟ وأين الرجال الذين يصلحون للتعليم والتربية ؟ وأين الذين يقومون بتربية الطبقة الثالثة وتهذيبها ؟ وأين الذين يمكن للدولة أن تعتمد عليهم في إرشاد العامة وتبثهم دعاة ؟ ثم من أين توجد مصاريف هذه الأعمال ؟ ثم كيف شرطت في أهل

الطبقة الثالثة أن يحصلوا تلك العلوم مع الايغال فيها ، والوصول الى حقائقها ، وذلك يستدعي زمنا طويلا

(فالجواب) أما وضع الكتب للطبقتين فسهل جداً لو كلف أحدنا بوضعها لتيسر له ذلك بعونة الله عز وجل في أقرب وقت يمكن متى صدر الأمر بذلك تحت نظر مولانا شيخ الاسلام . وأما الرجال الذين يعلمون في الطبقتين الاولين وفي الثالثة أيضا والذين يليقون لوظيفة الارشاد فهم إن تعسر وجودهم في بلد واحد أو مدينة واحدة فالبحث عنهم في أطراف بلاد المسلمين يهدي الى الكفاية منهم لبداية المشروع متى صدقت النية وخلصت الوجهة لله وللحق في البحث والاختيار . وأمثال أولئك الرجال أهل الدين والاستقامة قلما يقفون بأبواب الامراء ، أو يتطلبون المناصب الا اذا رأوا في ذلك مصلحة لدينهم . فهؤلاء لا يعرفون إلا بعد التفتيش عليهم . ثم اذا حسنت البداية وتبعها الاجتهاد مع الاخلاص في العمل وصل الأمر بتوفيق الله الى الكمال المطلوب

وأما طول الزمان في التعليم على أهل الطبقة الثالثة فقد علمنا أن الرؤساء الروحانيين من الطائفة النصرانية ، يقيمون في تعلم لاهوتهم خاصة خمس عشرة سنة ، بل وعشرين زيادة على الزمن الذي صرفوه في سائر العلوم . ومن المقرر عندنا أن ما يشتغلون به هو الباطل ، فليس من المنكر ولا الغريب أن يطول على طلاب الحق زمن البحث للاحاطة بأطرافه ، حتى يتمكنوا من نصره وتأييده

وأما المصاريف فانه متى وجد ولو قليل من الرجال العارفين الصادقين (وهم موجودون في زوايا الخفاء ، يظهرهم البحث الصحيح والطلب الدقيق) وقاموا في الناس بالنصيحة من قبل الدولة ، وظهر من حسن تصرفهم واستقامتهم ما أكد ثقة الناس بهم ، فلا تقصر أيديهم عن تخليص الأموال الوافرة من أيدي المترفين من أهالي المملكة العثمانية لتصرف في هذا السبيل ، وأقل تجربة تحقق هذا الذي نقوله متى فوض الأمر لأهله . فاننا لم نأت بشيء من الكلام في هذا الباب الا عن خبرة بأحوال إخواننا المسلمين ، وطول ممارسة لأخلاقهم .

والصادقون في خدمة الدين لا يدركهم اليأس من إصلاحه ، فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون

هذا مجمل ما حضر لخواطر العاجزين ، وفي التفاصيل مايطول به القول أضعافا مضاعفة ، فان دعينا اليه لم نتأخر عن بثه ، والله الهادي الى سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين م جمادى الآخرة سنة ١٣٠٤

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ هذه نصيحة الرجل الذي كان يشي به أهل الفساد في مصر للسلطان بأنه يبغض الدولة فليأتنا أحد بمثل نصحه للدولة في هذه اللائحة ، وفي اللائحة التالية لها

اللائحة الثانية

فى اصلاح القطر السورى

قدمها الى دولة والي بيروت بعد تقديم اللائحة السابقة الى شيخ الاسلام وهي

أرفع إلى مقام دولتكم السامي أن للدولة العليـة أدام الله سلطانها ، وعزز مكانها ، حقوقا ثابتة على ذمم المسلمين تتقاضاها العقيدة بعد أن قضت بها طبيعة الحياة الملية ، ولا هوادة بين الله وبين أحد من خلقه في إغفال حق من تلك الحقوق. وأدناها صرف الفكر إلى النظر فيما يعزز جانب تلك الدولة ويقوي أركانها ، وأقصدها بذل مايستطاع من السعي لدفع مالا يلتئم مع مصلحتها ، وأعلاها الجود بالنفس واستقبال هول الموت في ذلك السبيل الاقوم

وإنني على ضعفي — والحمد لله — مسلم العقيدة عثماني المشرب وإن كنت عربي اللسان ، لا أجد في فرائض الله بعد الايمان بشرعه والعمل على أصوله فرضاً أعظم من احترام مقام الخلافة والاستمساك بعصمته ، والخضوع لجلالته ، وشحذ الهمة لنصرته بالفكر والقول والعمل ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، وعندي أني إن لم أقم على هذه الطريق فلا اعتداد عند الله بإيماني فانما الخلافة حفاظ الاسلام

ودعامة الايمان ،فخاذلها محادّ لله ورسوله ، ومن حادّ الله ورسوله فأولئك هم الظالمون . فهذا الذي أزعج همي للفكر في أحوال هذه البلاد مدة إقامتي بها غريباً عن أهلها مفكراً في مجاري أعمالهم ، ومآخذمشاربهم ، وضروب مذاهبهم، من وجه مايتعلق بالدولة رعاها الله وهو الذي بعثني على أن أعرض ماألممت به من ذلك على مقام دولتكم بعد الثقة بأنكم من أغزر رجال الدولة علماً،وأرجحهم حلماً ، وأقومهم سيرة ، وأشدّهم حرصاً على تعزيز عرش الخلافة ، وأصدقهم إخلاصاً في خدمة أمير المؤمنين أعز الله نصره. وأرفع إلى عليّ نظركم مالو ألقي بين يدي سواكم لخشيت إغفاله ، وتوجست إهماله ، ولو نال الحظ من جليل رأيكم فيه لكساه قبولكم حلة الفخار ، وأكسبته لحظات التفاتكم العالي مسحة الحق والنصفة ، فان كان مارجوت فذلك فضل الله وكمال سجاياكم الطاهرة وعلو رأيكم . وإن كانت الأخرى فما هو إلا الفرض أقضيه مع الاعتراف بالعجز ، وقصور الفكر ، وكلال النظر

هذه البلاد من أجدر بلاد الدولة العلية بالرعاية وأولاها بالاهتمام ، وموقعها من سائر البلاد العثمانية لايخفى على نظر دولتكم ، وقد توهم بعض من تولاها من خدمة الدولة أن في نفوس أهاليها ميلا للاستقلال،وطموحا للانفساخ عن دوحة الخلافة نعوذ بالله ، فهذا وهم لاأساس له ولا يمس جانب الحقيقة ،فنفوس السكان على اختلاف طبقاتهم لاترى من أجل أحوالها مايؤهلها لأقل شأن يلم بهذه الغاية، وهم أطوع للسلطة الحاكمة عليهم من ظلهم ، ولا همّ لهم إلا في استرضاء العاملين عليها بأية وسيلة كانت ، ولو فرض أن خيالا بالياً مثل هذا لاح بذهن أحد مما له صلة بالاجانب منهم فليس بخارج عن حد الأماني المستحيلة ، وليس في البلاد ولا فيما يجاورها من تجتمع عليه الكلمة ، أو تعقد على التسليم له العزائم ، نعم نشأ هذا الوهم من ألفاظ صدرت من بعض الطغام السذّج الذين لامقام لهم بين العامة ولا الخاصة على عهد بعض الولاة، لتسامحه فيها ، وعدم مبالاته بها ، وهي قذفات لامكان للقصد منها ، وطائشات كلم لاشمة للرأي فيها ، وهي بما يصدر عن الاطفال، أشبه منها بما يكون عن الرجال ، ولهذا لم يكن أثرها في

أنفس العامة فوق وصول ألفاظها إلى أسماعهم ، ثم ترد على قائليها ، ويحثى بها التراب في وجوههم ، ولكن مما يوجب الأسف أن بعض الظانين بالرعية هذا الظنّ من عمال الدولة قد عولوا عليه وجاؤا بما عاد على المسلمين بالضرر في تربيتهم وأخذ أفكارهم ، وأفاد غيرهم في الاستعلاء عليهم كما جرى من بعض أولئك العمال في إلغاء الجمعيات الخيرية الاسلامية على قيام أمثالها في سائر الطوائف

على أنه يوجد أمر آخر ان لم يكن أعظم ضرراً من هذا الوهم على فرض ثبوته فليس بأقل غائلة منه ، وذلك أن سكان هذه البلاد ينقسمون أولا إلى قسمين الأول سكان جبل لبنان ، والثاني سكان ولايتي بيروت وسورية

حالة أهالي جبل لبنان

أما سكان جبل لبنان فهم طوائف مختلفة أكثرها عدداً وأقواها عدة طائفة الموارنة من النصارى ويليها طائفة الدروز ، ويوجد نزر يسير من أهل السنة، وعدد قليل من الشيعة، وعائلات من سائر الطوائف المسيحية . فالموارنة يعتقدون أنفسهم فرنساويين وهواهم للدولة الفرنساوية وصغاهم معها لاعتقادهم أنها الحامية لهم، والواقية لحقوقهم ، وقوي الاعتقاد فيهم من نحو ثلاثين سنة بعد حوادث لبنان والشام المشهورة وامتياز الجبل ، والحكومة الفرنساوية لاتني في تمكين هذه العقيدة بتأييد الجمعيات الفرنساوية ومساعدتها على إنشاء المدارس والمكاتب في جميع أنحاء الجبل . وتلك الجمعيات انما وضعت مدارسها على أساس التربية الفرنساوية واشراب المتعلمين فيها مذهب الميل إلى فرنسا واخراجهم بما أمكن من الوسائل عن عوائد بلادهم وابعادهم عن معرفة حقوق أوطانهم حتى لقد يخرج التلميذ من المدرسة وكأنه آتٍ من بلاد فرنسا لايعلم من أحوال وطنه ودولته إلا مايعلمه بعض السياحين وطرّاق البلاد من الأجانب ، ثم بعد استتمام دروسهم لايرى النبيل منهم مطلباً أشرف من نيل وظيفة دانية أو عالية في إحدى دوائر الاجانب إما ترجماناً لقنصل ، أو كاتباً في شركة ، أوماشاكل

ذلك . ورؤساء هـذه الطائفة لامفزع لهم يلجؤن اليه إلا قنصل الدولة الفرنساوية ، وفي كل عام تبذل حكومة فرنسا مبالغ وافرة من الدنانير لابلاغ هذا الفساد حده .

والدروز كانوا قبل ١٨٦٠ من أقوى أنصار الدولة وأشد الطوائف تعلقاً بها ولهم صفات في الشجاعة والثبات تخولهم مقاماً يزيد في الرفعة على مقام الموارنة في الجبل ، ولكن بدأ فيهم الضعف بعد امتياز لبنان عند ماصار النظام قاضياً بأن متصرفه يكون كاثوليكياً ، وأغلب رجال حكومته من المسيحيين ، وأصبحت قوة البأس لاتوصلهم إلى المناصب كما كانت في سابق العهد . واضطروا لموالاة أهل السلطة ليحفظوا بعض مابقي لهم ، أو ينالوا شيئاً مما يخولهم النظام نيله ، فانحطت بذلك أحوالهم ، وقد كانوا ولا يزالون فئتين جنبلاطية ويزبكيـة . فالجنبلاطيون استمالتهم حكومة انكلترا ، وأخص علائقهم مع قنصل الانكليز ، واليزبكيون وهم أقرب الفئتين إلى الدولة مالوا إلى المشرب الفرنساوي وكرعوا منـه حتى عموا ، غير أن الحكومة الانكليزية لم تأل جهداً في استمالتهم أيضاً بواسطة المدارس والمكاتب التي ينشئها المرسلون من البروتستانت امربية أبناء الدروز أولا وبالذات وتربية غيرهم ثانياً وبالتبع

والدروز قوم خلو من العلوم بالمرة سذّج كأنهم في بدايات البـداوة ، ولكنهم أذكياء بجودة الفطرة ، ولا يخشى على كبارهم أن يخلعوا مذهبهم إلى مذهب آخر وانما يخاف على أبنائهم من ذلك ، وعلى كبارهم من الانقياد السياسي إلى دولة الانكليز

وأما المسلمون السنيون والشيعة وغيرهم فلا نظر اليهم ، وانمـا هواهم هوى جيرانهم ، فالمخالطون للموارنة طوع لهم ، والمخالطون للدروز تبع لهم ، وقلما يعرفون شيئاً من شؤون دينهم ، فلبنان يتنازع النفوذ فيه دولتا فرنسا وانكلترا ، وليس يخاف ماتأتي به هذه المسابقة السياسية ، بعد ماظهرت آثار مثلها في بلاد أخر ، والدولة أعزها الله مع أن البلاد بلادها ليس لها من يروج سياستهـا ، ويؤيد كلمتها ، وأمرها يتبع ميل المتصرف إن صدق في خدمتها كان لها وإلا

صار الى غيرها ، والمتصرف شخص يعزل ويولى، وأهل البلاد هم القوة الراسخة وبهم تؤزر السلطة فيهم

ولكن كل هذه المساعي الاجنبية على مايحفها من عناية المتذرعين بها تخشى عواقبها ، وترعد بوائقها، اذا جاء المستقبل على آثر الماضي لايعارض فيه السعي بمثله ، ولا تقطع الطريق على السالكين فيها ، وأما اذا توجهت من الدولة لمحة نظر الى استبقاء قلوب رعاياها اللبنانيين لها ، وتطهيرها من تلك الأغيان الطارئة عليها ، فما أيسر أن يتم لها قصدها ، وتذهب تلك المساعي هباء منثوراً. ولا سبيل الى ذلك الا بالتربية ومدافعة الأجانب بمثل سلاحهم ، فلا بدّ من النظر في وسيلة لتربية اللبنانيين على المشرب العثماني ، ولئن دعيت الى تفصيلها بذلت مافي الوسع للفكر فيها

حالة أهالي ولايتي بيروت وسورية

أما ولايتا بيروت وسورية ففيهما من سكان الأعراب المتبدون وفيهما القرويون وأهل الحضر ، أما القرويون وسكان المدن فمنهم المسلمون أهل السنة وهم الجمهور الأغلب ، ومنهم الدروز في حوران ، ومنهم الشيعة سكان الشقيف وبلاد بشارة في نواحي صيدا وصور ، ومنهم النصيرية في لواء اللاذقية ، ومنهم الطوائف المسيحية من موارنة وروم كاتوليك ملكيين، وروم ارثوذكس وبروتستانت

الطوائف النصرانية على اختلافها تذهب مذهباً واحداً في تربية أبنائها وتهيئتهم للأعمال وهو مذهب التقليد الأفرنجي ، غير أن منهم من يروقه المشرب الفرنساوي وهؤلاء هم الموارنة والروم الملكيون يدفعون بأولادهم فى المدارس الأجنبية الفرنساوية مثل مكاتب الجزويت وغيرهم لينشؤا كما ينشأ الموارنة في جبل لبنان ، واذا أسسوا مكاتب لأنفسهم كما فعل الموارنة في تأسيس مدرسة الحكمة ببيروت، والملكيون في المدرسة البطركية بها ، ومنشآت أخر في أطراف البلاد ، فلا يضعونها إلا على قواعد فرنساوية ،واللسان الأول فيها الفرنساوي، والهوى والميل فرنساوي ، ومنتهى أمرهم في التحصيل على مابينا في الموارنة .

ودروس تلك المدارس التي يدعونها وطنية انما تقرر في كتب من التاريخ وغيره من مؤلفات الافرنج مما يمتنع دخوله في البلاد العثمانية لاحتوائه على الطعن في الدين والدولة ، وهكذا يعلمون أبناء البلاد إلى أن ينتسبوا الى غير أبيهم الحقيقي وأجل شيء يفتخر به الناشئون في تلك المدارس أن يكون لأحدهم ذوق فرنساوي ومذهب من مذاهب الفرنساويين السياسية ، وما من مكتب من هذه المكاتب إلا ولفرنسا مساعدة مادية وأدبية له

ومنهم البروتستانت ومشربهم انكليزي ، ومنهم من لا مشرب له في التربية وهم الروم الارثوذكس ومدارسهم الخاصة بهم قلما تكون لها غاية سياسية ولكنهم تارة يبعثون بأبنائهم الى مدارس الجزويت وأمثالهم فينشؤن فرنساويين وتارة الى مدارس أخر منهم ينشؤن على المشرب الذي نموا عليه ، وهذه الطائفة أقرب الطوائف المسيحية الى الدولة غير أنها لم تشأ أن تكون محرومة من النسبة الى الاجانب حتى لا يكون ذلك عاراً عليها فى أعين اخواتها من بقية الطوائف فاختارت ما يوافقها فى المذهب الديني فانتسبت الى دولة الروس غير أن الروس لم يوجدلهم الى الآن أعوان للتربية على مشربهم السياسي (١)

ولو نظم بين هذه المدارس وهذه الطوائف مكتب عثماني على قواعد توافق حال أهل البلاد ، وقام بادارته رجال متبصرون حذاق فى إصابة الاغراض والرمي اليها لبزت تربيته جميع تلك التدابير ، واجتثت أصول تلك المفاسد ، وانما يلزم لذلك سعي خارج المكتب لجلب التلامذة اليه كما يفعل أرباب تلك المكاتب . واذا دعيت لبيان طريقة ذلك السعي استعنت بالله على بيانه

﴿النصيرية﴾ قوم أجلاف أشداء يعتقدون بألوهية علي بن أبي طالب . فمذهبهم الديني غير مذهب الدولة ، وصغار المأمورين منهم ربما كانت منهم معاملات تخالف الواجب عليهم في صداقة الدولة . ولهذا كثيراً ما انتقض أولئك القوم على الحكام ، وشقوا عصا الطاعة . وكان ذلك منهم بسعي وكلاء الأجانب

(١) بعد هذه الكتابة بسنين قليلة أنشأت روسيا تنشيء المدارس في سورية والقدس ولبنان

وبث الوساوس من المرسلين البروتستانت بما أنشأوا بينهم من المكاتب ، حتى أنه من نحو ثلاثين سنة اشتدّ أمرهم في الشقاق ، وكان راشد باشا واليًا على سورية فذهب بنفسه لاخضاعهم ، وبعد البحث رأى أن أسباب العصيان كانت إغراء أولئك الشياطين ، فالتمس من الباب العالي تقرير ستين الف قرش لتصرف على إنشاء مكاتب عثمانية في قرى هذه الطائفة ، وصدر الأمر بذلك ، إلا أنه لم يجر العمل به حتى الآن . ويوجد أسماء مكاتب يأخذ مأموروها معاشاتهم من خزينة الدولة ، وهم في اللاذقية ولا مكاتب ولا تعليم . وما أقرب هؤلاء من الدولة لو التفت إلى تربيتهم في مكاتب عثمانية منتظمة ، بل لو اعتني باخراجهم من مذهبهم الى الاسلام الصحيح لم يصعب ذلك اذا أحكم أساس التربية فيهم ، وبني على قواعد الحكمة والدربة ، وقام بالعمل عليه أرباب المكنة والقدرة العقلية ، والاستقامة النفسية .

﴿ الشيعة ﴾ لا يقرون بالخلافة إلا للقائم المنتظر . ولهذا وجد الأجانب سبيلا للدخول على قلوبهم ، لكن بغير تلك الطرق التي دخلوا بها على غيرهم . فان لهذه الطائفة حمية على مذهبها الديني تفوق حمية جميع المذاهب ، يعتقدون بنجاسة اليهود والنصارى وغيرهم من مخالفي الاسلام ، ولهذا لا يلقون أولادهم في المكاتب المسيحية ، ولكن وكلاء الأجانب وشياطينهم يصوّرون لهم عمال الدولة في صورة مشوّهة ، وربما كان من بعض المأمورين ما يصدق مزاعم أولئك المفسدين . وكثيراً مايخيلون لهم الاحتماء بدولة أخرى ، وليس من البعيد أن تميل أفكارهم الى خلاف مايرغبه الصادقون في محبة الدولة ، ولا تؤمن غائلة ذلك ، واستعمال الشدة في مراقبتهم لا يزيدهم الا نفوراً . ولكن ما أسهل سدّ تلك المنافذ على أولئك الأجانب بانشاء معهد للتربية العثمانية ، بل ما أسهل تذليل شدتهم المذهبية ، واستصفاءهم للدولة باقامة مهذبين من أهل الأفكار الصائبة الذين يسطون على النفوس بجمال أفكارهم وصلاح أخلاقهم ، لا بشكاسة طباعهم وصعوبة شكائمهم . لاريب أنهم بعد ذلك يفضلون جانب الدولة على جانب غيرها ، فان أهملوا كانت العاقبة ضد المأمول

﴿ الدروز فى حوران ﴾ لم يخف حالهم على رجال الدولة ، غير أنه زاد في سوئها عناية الانكليز بارسال رجال من رؤساء البروتستانت لتعليمهم وبث الدسائس فيهم ، حتى إنهم عينوا أسقفاً في القدس بمعاش الف وخمسمائة ليراً في كل شهر لتدبير التربية في حوران خاصة . ولا طريق لاصلاحهم وراحة الدولة من ناحيتهم الا ما يسلكه غيرنا لمثل هذه الغاية ، وهو التربية والتعليم مع اختيار الصالحين للقيام بها

﴿ المسلمون من أهل السنة ﴾ هم عماد الدولة وركنها الشديد ، وهم قومها الحقيقيون ، وفيهم عصبتها الثابتة . ومن البين أن قوائم الدولة العلية ثبتها الله مستقرة على أديم الدين ، لأنها دولة خلافة ، فعاملها في القلوب سلطان الدين ، فكلما قوي الدين في الأفئدة ظهرت آثاره في الأعمال . فاستمات أهله لحماية مسند الخلافة . وكلما ضعف الدين ضعف أثره بحكم الضرورة ، ولكل وسيلة خلف منها . أما الدين فلا عوض عنه للدولة العلية أيدها الله

المسلمون السنيون يتفقون مع الدولة في المذهب الديني تمام الاتفاق ، وهي علاقة من أمتن العلائق في طبيعتها . ولكن عرض عليها ما يوجب الالتفات ، ويستدعي دقة النظر ، وهو غشيان الجهل بحقائق الدين بعد ما أهمل التعليم الاسلامي الصحيح ، وبيان ذلك مفصل بعض التفصيل في اللائحة المعروضة لدولة شيخ الاسلام . وقد كان للمسلمين من نحو ثلاثين سنة حال يحمد فى نظر المسلم ، فقد تسابقوا ركباناً ورجالا متطوعين الى الجهاد المقدس في حرب سباستبول المشهورة . ثم كانت حالهم أيام الحرب الأخيرة من التقاعد مالا يسر ، وفى هذه الأيام الأخيرة يبذل الرجل منهم كل ما لديه للفرار من الخدمة العسكرية وإن جاءت لاقدر الله حرب ذهبوا اليها كارهين ، بعد أن كانوا يذهبون راغبين ، كل هذا والجهاد من فرائض دينهم ، يفيض به كتاب الله في أغلب سوره ، وما كان خمود الحمية في نفوسهم الا لضعف العقيدة بمخالطة الاوربيين ، وإهمال التعليم المذهبي . وقد قال المستر (جي دبليو لتيز) مفتش المكاتب الهندية فيما كتبه الى جريدة الدالي تلغراف الصادرة في فبراير سنة ١٨٨٨ أثناء كلامه

على لزوم تقوية العقائد الدينية في قلوب الرعايا الهنديين (لابدّ أن نؤمن بما آمن به أكبر شاه الهندي من أن الدين والملك توأمان . فكما أن كل دولة تخمد الأفكار الدينية من نفوس رعاياها ، يسرع اليها العدم ، ويقضي عليها الزوال بحكمه ، ويستحيل عليها أن تدوم . كذلك كل دولة لاتسند عقائد رعاياها ، ولا تعينهم على التمسك بها ، لايتسنى لها الى النجاح سبيل اه) فهذا إنكليزي يطلب من دولته أن تعين المسلمين على التمسك بعقائدهم لتتثبت محبتهم . فما أجدرنا بالعناية بذلك ، والملة ملتنا ، والقوم قومنا

انتبه المسلمون في هذه (الآونة) لسوء حالهم من نيف وعشر سنين ، وضارعوا سائر الطوائف فشكلت منهم جمعيات خيرية ، كجمعية المقاصد الخيرية لتربية أبناء المسلمين واحياء العقائد الدينية في قلوبهم ، ووقايتهم من سطوة الأجانب على أفكارهم . وجدّ أعضاء تلك الجمعيات في رعاية المكاتب الابتدائية التي أنشئت على نفقة أهل الخير ، فساء ذلك الطوائف المسيحية . فأخذ المفسدون منهم في الوسوسة لبعض العمال ، حتى أقنعوهم بأن لهذه الجمعية مقاصد سياسية ، وساعد أولئك السعاة جماعة ممن يدعون الاسلام ولا يعرفونه ، فكانت العاقبة إلغاء هذه الجمعيات ، وتحويلها إلى مجالس رسمية ، ثم محي أثرها بالمرة ، والله يشهد ورسوله أن الساعين كاذبون ، ولم أر شيئاً كان أشد على نفوس المسلمين من إلغاء تلك الجمعيات ، خمدت أفكارهم ، وتقطعت آمالهم ، ورجعوا الى جاهلية ، إما لارغبة لهم في العلم أصلا ، أو لهم رغبة فيما يتعلمه المسيحيون من اللغات الأجنبية ، وبعض مبادىء علوم لا تفيد في إصلاح الأنفس شيئاً ، ولكن تؤثر في إفسادها

فالزاعمون أنهم من رغبة العلوم يبعثون بأبنائهم الى تلك المكاتب المسيحية فرنساوية أو ألمانية أو انكليزية ، أو وطنية بالاسم ، أجنبية بالحقيقة ، ولا فرق بين صالحيهم وطالحيهم في ذلك ، وكل هذه المكاتب دينية أنشئت لغرضين : تحويل العقائد الى المسيحية ، وامالة المشارب الى الدول المنسوبة اليها ، فكان من آثار ذلك أن المتعلمين فيها اما أن يخرجوا مسيحيين فى الاعتقاد ، مسلمين

بالاسم ،أو دهريين لاعقيدة لهم . ولو دعيت الى توضيح ما في تلك المدارس من الطرق لافساد قلوب المسلمين لا وضحتها كما هي عندهم .

فالمسلمون السنيون هم أحوج رعايا الدولة الى عنايتها، حتى لايذهب أعوان التربية الشيطانية بقلوبهم ، ولا ينحط بهم الفساد النفسي الى أسفل مما وصلوا اليه،

وأول مايلزم لذلك تنظيم مكتب داخلي يؤكل ويشرب فيه في مدينة بيروت ، من صنف المكاتب العالية يوضع له قانون وبروجرام دروس يوافق حالة البلاد ، وأول شرط فيه أن يكون مديره عارفاً باللغة العربية يخاطب أهل البلاد بمثل كلامهم ، وثاني شروطه أن يكون التعليم باللغة العربية في جميع العلوم حتى يقوى التلامذة في التركية ثم التعليم بالتركية بعد ذلك ولابد ان يجعل اللسان الفرنساوي مما يقصد تعليمه، في بادىء الامر حتى يقبل الناس عليه، وان يكون في درجة لاتنقص عن مكاتب الاجانب في شيء، وثالث شروطه أن يكون أساسه على إحياء الدين وحب الدولة، ولا بد أن يكون بروجرام فنونه على وضع خاص، ورابع شروطه أن يكون مديره من عشاق الدين والدولة وليس ينحصر همه في أخذ راتبه الشهري ، وأن يكون حكيما في تصرفه، وفي حال يجلب ثقة الناس به، والله بعد ذلك كفيل بان يدفع اليه جميع الطوائف المسيحية وضامن انجاح الدولة في مقصدها منه

ثم تنشأ مكاتب ابتدائية في أطراف الولايتين على هذا الاساس، لافرق الا بالدنو والعلو . والتربيـة فى جميع الأحوال لابدّ أن تكون على بذل المال والنفس في سبيل الله ووقاية السلطنة، كما هو جار في ممالك أوربا . وكما كان عليه أسلافنا. وأن تكون الغاية منها طبع هذا الخلق فى النفس ، حتى لايحوله محول من فقر أو غنى او ايثار او حرمان أو ظلم او عدالة . وليس هذا بالعمل الصعب اذا وجهت اليه النية الصالحة ، واصطفي له رجال من أهله وما هم بالمعدومين، ولكنهم ربما يكونون غير معروفين، والبحث يظهرهم

وأما أهل البداوة من الاعراب المتنقلة في اطراف البلاد فهم مادة غزيرة من مواد المنافع للدولة ،ولكن مما يؤسف عليه أنهم كلّ عليها، ضررهم أكثر من

نفعهم، ولبعض رجال الاجانب علاقات خبيثة معهم، حتى انى رأيت عند بعض رجال الانكليز أيام كنت في لندرة رسائل من بعض مشايخهم توددا وماذلك الا من اهمالهم وعدم العناية بتربيتهم ، واذا دعيت الى وضع لائحة في تهذيبهم وجعلهم في حالة لاتنقص عن التركمان بالنسبة الى الروسيا بل تزيد عليها أضعافا مضاعفة لاستمددت من الله التوفيق في ذلك

وربما يقال ان هذا الامر وماقبله يحتاج إلى نفقات لافضل لها في خزينة الدولة، فاجيب أن أهل العمل وذوي البصيرة فيه يمكنهم أن يفيضوا من الاغنياء على القراء بالسعي والجد خصوصا اذا أعيدت جمعية مثل جمعية المقاصد ولاتحتاج خزينة الدولة بعد سنين الى ان تصرف شيئاً في هذا السبيل، وطريق الصواب واضح لاهله ، متى ثبتت العزيمة ، ولا أطيل القول في هذه العجالة ، فانما الغرض سوق ماتنبه اليه الفكر اجمالا الى ساحة الفضل والكرم، والمرجو شمولي بالعفوعن تقصيري والله يطيل عمر مولانا الخليفة الأعظم ويرفع الاسلام في خلافته الى أوج المجد والشرف آمين

اللائحة الثالثة

يظهر انه كتبها لأجل اقناع أولي الشأن في مصر بالعناية بالتربية الدينية بعد عودته من سورية وقد وجدت مسودتها بخطه بالعنوان الذي تراها مفتتحة به وجامع الكتاب وضع سائر العنوانات قال رحمه الله تعالى

﴿ هذا مجمل أفكار فيما يجب الالتفات اليه من نظام التربية بمصر ويمكن تفصيله عند ارادة العمل به ﴾

اذا كان الناس في حاجة الى صلاح الحاكم، فما حاجة الحاكم الى صلاحهم باخف من حاجتهم الى صلاحه، فان السلطة سلطتان جيدة ورديئة ، فالجيدة ماكانت على المحكومين للمحكومين ، والرديئة ماأخذ بها المحكومون لغاية الحاكم وقضاء غرضه الثابت

أما الأولى فان منزلتها من المحكومين منزلة الروح من الجسد لها ، التدبير وعلى أعضاء الجسد وظائف العمل، وغاية التدبير والعمل حفظ حياة الكائن الحي، وهو مجموع الروح والبدن، فكل يستفيد من الآخر مابه بقاؤه ونماؤه . وكما تحتاج الآلات البدنية الى سلامة الروح من العلل النفسية كالجنون والخمود والجهل ونحو ذلك، تحتاج الروح الي سلامة الآلات البدنية من الآفات التي تعطلها عن الحركة كالشلل والخدر والتشنج وماشابه ذلك، وماذا يمكن للروح السليمة أن تأتيه في بدن تعطلت آلاته وفسدت أعضاؤه

وأما السلطة الثانية فمنزلتها منهم منزلة الصانع من آلته ، فصاحب السلطة صانع ، والمحكوم آلته في الصنع، فهو كاتب مثلا ، والمحكومون قلمه، أو هو حارث والمحكوم محراثه، وكما ان الآلة لا تعمل الا بالعامل ولا يظهر أثرها إلا في يده كذلك العامل لا يمكن له العمل الا بآلته. وكما يجب ان تكون اليد العاملة قادرة على إدارة الآلة ، يجب أن تكون الآلة وأجزاؤها صالحة للعمل، فان فقد أحد

الأمرين امتنع العمل أو نقصت ثمرته — فكل من السلطتين في حاجة إلى صلاح المحكوم، فكما يطلب المحكوم في كل حال أن يكون حاكمه صالحا لأن يحكمه، كذلك يطلب صاحب السلطة في أي منزلة كان أن يكون المحكوم بحيث ينقاد الى كل مايحكم به وعلى الصفات التي تنساق به الى الغاية التي يذهب اليها حاكمه

أما مارسخ في خيال بعض الشرقيين ومن اغتر بحالهم ممن خالطهم من الاوربيين من أن صاحب السلطة قوته علوية، والمحكوم طبيعته سفلية، ولا نسبة بينهما الا أن الأول قاهر والثاني مقهور، وأن الثاني في حاجة الى صلاح الأول ليكون به رؤفا رحيما وأن الأول لاحاجة به الى صلاح الثاني لأنه مقهور له على كل حال فذلك منشأه الغرور والجهل بطبيعة الجمعيات الانسانية ونظامها الفطري. ولذلك نرى أرباب هذا الاعتقاد من ذوي السلطة لاتدوم لهم دولة ولا يثبت لهم سلطان، لتخبطهم في سيرهم بجهلهم منزلتهم من محكوميهم وتصرفهم فيهم على خلاف مايجب أن يصرفوهم فيه، وتغافلهم عن استطلاح طباعهم بما يؤهلهم للعمل على مايريدون منهم

يقال ان الرعية في كثير من البلاد آلة للحاكم في بلوغ مقاصده في دولته. فقد يكون ذلك حقًا لكنها آلة ذات شعور وإرادة وماله شعور فجميع أعماله انما تكون عن شعوره وارادته فتصلح الأعمال بصلاح الشعور والارادة وتفسد بفسادهما، فلا يمكن أن تكون تلك الآلة صالحة للعمل الا اذا كان الشعور والارادة صالحين له، وصلاحهما بان يكون الشعور وجدانا للفرق بين النافع والضار، وبين النظام والاختلال، ليكون مايقرره الحاكم من القوانين وأصول الادارة معروفا عند أغلب الرعية، وأن تكون الارادة صادرة عن ذلك الوجدان حتى يكون النظام منها في مكانة الاحترام. فاذا كان الشعور مختلا والارادة فاسدة، كانت الاحلام طائشة، والاهواء متحكمة، ومداخل السوء كثيرة، فويل لذي السلطة من تلك الرعية، وبعيد عليه أن يستقر لسلطانه فيها قرار، وكل ما يتخيله اصلاحًا لهم أو لهفيودعه في أصول حكومته، فهو كالنقش على الماء أو الرسم في الهواء.

طبيعة مصر والمصريين

أرض مصر ضيقة عن حاجة أهلها فمساحة الصالح منها للسكنى لاتزيد عن حاجة الساكنين زيادة بينة وهي محاطة من أطرافها بالصحارى الجدبة والمياه المالحة وليس فيها من الغابات مايعوذ به الوحشي من الحيوان فضلا عن الانسان ولذلك نرى كثيرا من أنواع الوحوش التي كنا نراها كثيرة في البلاد من نحو أربعين سنة كالضباع والذئاب والخنازير قد كادت تنقرض باصلاح الاراضي الزراعية وانتشار الانسان في أطرافها وتعهدها بالزرع والعمارة وأهل مصر لايعرفون معنى المهاجرة من دار الى دار ولايمكن أن يتصوروا ذلك مادام في أرضهم نبات ينبت ، فاذا أمحلت أرضهم فضلوا الموت فيها على المهاجرة منها وتاريخ الماضي وشاهد الحال ينطقان بذلك . ولذلك كان أهل مصر سكان أرضهم من آلاف من السنين، كل قادم اليهم امتزج بهم، وغلبت عليه عوائدهم وأطوارهم، وانتسب نسبتهم فصار مصريا ، واحرز جميع خواص المصريين ونسي أصله وغاب عن أعقابه منشأه . ثم إن طباعهم مرنت على الاحتمال وألفت مقاومة القهر بالصبر، فلو أن سيف المتغلب كان أعدى من سيف المماليك وجوره أشد من جور اسماعيل باشا لما أمكنه أن ينتقص من عددهم مقدارا يذكر ، ولا أن يزيلهم عن مواقفهم مسافة تعتبر ، ولهذا كان المتغلبون يفنون فيهم وهم باقون

أهل مصر قوم سريعو التقليد أذكياء الاذهان أقوياء الاستعداد للمدنية بأصل الفطرة، فما أيسر أن تفعل الحوادث فيهم فتنبههم الى الأخذ بما يحفظ عليهم حياتهم في ديارهم من أي الوجوه، فلا يبيدون من حاجة، فأهل مصر على ذلك هم رعية حاكمهم ولا يمكن لحاكمهم أن يستبدل بهم رعية أخرى في بلادهم

لحاكمهم اذا كان رأسا فهم بدنه واذا كان عاملا فهم آلته، فلابد من استصلاحهم حتى يستقر سلطانه عليهم زمنا مديدا ترمي اليه أنظار الدول السامية المقام في المدنية

أهل مصر في موقع عرف كل الناس منزلته من الارض، وهو ممر اهل المشرق

الى المغرب، وأهل المغرب الى المشرق، وهو في حلق أوربا تتلاقى فيه سيارة الامم فقلما توجد بلاد يكثر فيها اختلاط الامم مثل هذه البلاد

الامم العظيمة الأوربية يحسد بعضها بعضاً على التمكن في أرض مصر، أو الفوز باحراز المنافع السياسية أو المالية فيها فالوساوس والدسائس لاتنقطع نفثاتها من أولئك الاحزاب يبثونها بين المصريين ايوغروا صدورهم على من علت كلمته فيهم. وأعظم فاعل في نفوسهم (وأغلبهم مسلمون) ان يقال أن صاحب هذه المنفعة ليس من دينكم وانكم مأمورون ببغضه وانتهاز الفرص لكشف سلطانه متى أمكنت

أهل مصر شديدو الانفعال بما يلقى اليهم، كثيرو التذكار لما ينطبق على أهوائهم، فلكل كلمة من هذا القبيل مكان من نفوسهم، ولكن ربما لا يظهر أثر ذلك لاحتجابه بحجاب العجز أحياناً، غير أن طباع المصريين كالكرة المرنة تتأثر بالضغط فينخفض بعض سطحها قليلا من الزمن، ثم لا يلبث أن يعود إلى حاله، فالله يعلم متى يظهر أثر تلك الانفعالات التي يمكن أن تتأثر بها نفوسهم بما يلقى اليهم

يقال إن أهل مصر ضعفاء ولكن قد أظهر التاريخ أنه متى وجد القائد كانوا أشد على الخصم من أشجع الأمم، وأثبتهم قدما في المواطن، ولا يعلم متى يوجد القائد، ومن أي جنس يكون اذا تركت أهواؤهم بغير تهذيب تجري حيث تجد سبيلا الاندفاع، ثم هم لا يقدرون النظام قدره مهما كان بالغاً من الصلاح، ولا يبالون به، بل يعتقدون أن كل نظام حبر على ورق، فلا يستطيع حاكمهم أن يثبت سلطته عليهم على أمر مكين، بل هم دائما في التواء عليه بالمخالفة متى أمكنت الفرصة، إلا اذا أخذوا بتربية صحيحة، فهناك تنضبط أحوالهم، وينشىء النظام احترامه في قلوبهم ويهتدي صاحب السلطة إلى طريق تصريفهم

احتقار أمر النظام والتأثر بالوساوس اذا لم يكن مبعثهما الحق ينشآن عند المصريين من أمرين، الأول بعد جمهورهم عن المعرفة بوجود المصالح. والثاني حرمانهم من التربية التي تطبع في نفوس أغلبهم الاستقامة، والتؤدة، والتبصر في العواقب، ومرجع الأمرين إلى سوء العقيدة، وظنّ ماليس بواجب واجباً

وظنّ الواجب غير واجب ، فما دامت هذه حالهم فهم رعية غير صالحة، فلا يصلحون بدنًا لرأس ، ولا آلة لعامل ، لاختلال المدارك وفساد الارادات

أهل مصر لم يأتهم التاريخ القديم بذي سلطة يفهم هذا السر ، وتنفذ بصيرته الى هذه الحقيقة ، فلهذا لم تثبت فيهم دولة لقبيل زمنًا يعتد به ، وكل اصلاح نظامي نشأ فيهم كان كالبناء على الهواء ، فالسلطة التي تسعى في أن تجعلهم رعية صالحة، تكون قد فتحت في نفوسهم فتحًا جديداً ، وظفرت ببغيتها منهم ظفراً مبينًا ، وأمنت كل غائلة تخشى من دسائس الأعداء ووساوسهم

أهل مصر قوم أذكياء كما قلنا يغلب عليهم لين الطباع واشتداد القابلية للتأثر ، لكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية ، وهي أن البذرة لاتنبت في أرض إلا اذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض ، ويتنفس بهوائها ، وإلا ماتت البذرة بدون عيب على طبقة الأرض وجودتها ، ولا على البذرة وصحتها ، وانما ألقيت على الباذر

أنفس المصريين أشربت الانقياد الى الدين حتى صار طبعًا فيها، فكل من طلب اصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذراً غير صالح للتربية التي أودعه فيها فلا ينبت ويضيع تعبه ، ويخفق سعيه ، وأكبر شاهد على ذلك ماشوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية من عهد محمد علي إلى اليوم ، فان المأخوذين بها لم يزدادوا إلا فساداً — وإن قيل إن لهم شيئًا من المعلومات — فما لم تكن معارفهم العامة وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم

لا أتكلم عن اصلاح لدين غير الاسلام في مصر ، فان غير المسلمين فيها العدد القليل والجمهور الاغلب من المسلمين

الدين الاسلامي الحقيقي ليس عدو الالفة ، ولا حرب المحبة ، ولا يحرم المسلمين من الانتفاع بعمل من يشاركهم في المصلحة ، وإن اختلف عنهم في الدين ، وفي آدابه كفاية لتعريف الآخذ به بوجوه المصالح ، وارشاده إلى مظان الفوائد ،والبصر بالعواقب ، وتقويمه بفضائل الاخلاق ، وبالجملة فهو أفضل كافل لجعل الرعية صالحة لأن تكون بدنًا لرأس، أو آلة لعامل . وقد أرشدتنا التجربة

إلى أن كل عارف بحقيقة الدين الاسلامي كان أوسع نظراً في الأمور ، وأطهر قلباً من التعصب الجاهلي ، وأقرب الى الألفة مع أبناء الملل المختلفة ، وأسبق الناس إلى ترقية المعاملة بين البشر ، وانما يبعد المسلم عن غيره جهله بحقيقة دينه ، وهذه آيات القرآن شاهدة على مانقوله ، اللهم لمن يفهمها كما جاءت ويعرف معناها كما وردت

ان القرآن وهو منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتى يظن المتأمل فيه أنهم منهم لايختلفون عنهم إلا في بعض أحكام قليلة ، ولكن عرض على الدين زوائد أدخلها عليه أعداؤه اللابسون ثياب أحبائه فأفسدوا قلوب أهاليه ولا قلوب أقرب الى الاصلاح من قلوب أهل مصر

أهل مصر مضى عليهم الزمن الطويل والقرون العديدة، ولم يروا مربياً يأخذهم بدينهم فحرموا خيره ، ولم يبق عندهم إلا مافيه المضرة لهم ولغيرهم تحت اسم الدين، وليس بدين . على أنه ليس فيهم من ينكر أن القرآن كلام الله، وأنه ينبوع الدين، ولكن ليس لهم من معاهد التربية الا جهتان، المدارس الأميرية ومدرسة الأزهر الدينية . وليس في الجهتين مايهديهم لما يجعلهم رعية صالحة، وهم الآن على غاية الاستعداد لقبول مايصلحهم

من يتوجه من ذوي السلطان إلى ذلك لايجد أقل مقاومة من العامة ، ولا أغلب الخاصة ، وفي مصر فرصة لاتوجد في غيرها لمن أراد ذلك ، فان بلاداً غير مصر يوقف فيها مثل هذا الأمر على همة أهل الدين وسلامة أفكارهم ونشاطهم لفتح المدارس الدينية على الطرق المناسبة لحالة البلاد . أما مصر فلها مدارس أميرية يمكن أن يسلك فيها أي مسلك يختار للتربية ، وليس عليها رقيب سوى أهل السلطة السياسية لاغير، فلهم أن يأخذوا من الدين أصوله ويغرسوها في المدارس ، ويحملوا نفوس طلاب العلم عليها ، ولا يتعرضون لما زاد عنها لا بالنفي ولا بالاثبات ، وينديون لتدريس ذلك ذوي قدرة على صرف الاذهان عما وقر فيها ، وتطهيرها مما علق بها من الزوائد الضارة ، ولا يجدون معارضاً لهم من أهل الدين، لأنهم لايهتمون بما لايقع تحت نظرهم مباشرة ، ومادامت الأصول

محفوظة ، فأنظارهم عن غيرها منصرفة ، وأكبر دليل على ماتقول سكوت أهل الدين عن نوع التربية المعروف في المدارس ، على مافيه من مباينة الدين والانتهاء إلى خلعه بالمرة

المدارس الاميرية

المدارس الاميرية ليس فيها شيء من المعارف الحقيقية، ولا التربية الصحيحة، هذه المدارس أنشأها محمد علي باشا باشارة بعض الفرنسويين لتعليم بعض أولاد الأرنؤط والاتراك والمورلية ، ليكون منهم رجال عندهم إلمام ببعض الفنون المحتاج اليها في نظام الحكومة التي أسسها ، وأهم تلك الفنون الهندسة والطب والترجمة، أما غيرها من العلوم فما كان إلا وسيلة اليها ، ثم لم يشترط في العلم بها أن يكون تاما . أما التربية على أخلاق سليمة فلم تخطر له ولا لمن تولى ادارة هذه المدارس على بال ، ثم لما لم يكن في أبناء تلك الأجناس وفاء لمطلبه في الوظائف ، ادخل في تلك المدارس بعض المصريين جبراً ، وما كان يدخل مجبوراً إلا الذين لاقوة لهم من الفقراء . وكان دخول المدارس أشبه بدخول العسكرية في ثقله على المصريين

ثم جاء خلف محمد علي من عباس وسعيد فأهملوا النظر في المدارس بالمرة ، حتى جاء اسماعيل فوسع نطاقها ، وزاد فيها من المعارف ماله دخل في الادارة والقضاء ، وله تعلق بتثقيف العقول في ظاهر الامر . غير أن جميع ماأتاه من ذلك كان صورياً ، ليقال إن له في حكومته مثل مالاوربا في حكوماتها ، ولم يكن القصد منه تربية العقول ، ولا تهذيب النفوس ، ولا تحصيل رجال يصلحون لتولي أعمال الحكومة .

وفي زمن اسماعيل باشا كثرت رغبة الناس في المدارس، ولكن من الاعيان الذين يطلبون لأولادهم مساند في الحكومة، يحتاج في الوصول اليها الى بعض الفنون ، ومن الفقراء الذين لايجدون مايقتات به أبناؤهم فيرسلونهم الي المدارس

ليستريحوا من نفقتهم ، ولم يكن القصد من جميع تلك الأحوال ، إلا أن يتعلم التلميذ مايؤهله للقيام بعمل ما من أعمال الحكومة ، أو بعبارة أخرى ليكون في يده شهادة تبيح له أن يشغل كرسياً من كراسي أقلام الدواوين ، أما تكوينه بالتعليم والتربية رجلا صالحا في نفسه ، يحسن القيام بالعمل الذي يفوّض اليه في الحكومة أو في غيره ، فذلك لم يخالط عقول المسلمين ، ولا من ولاهم أمر التعليم ، فسرى ذلك من السابقين الى اللاحقين حتى اليوم

ولو كشفنا عن أذهان التلامذة لم نجد فيها غاية لتعلمهم سوى أن يعيشوا كما عاش غيرهم على أي صفات كانوا ، ولو استفرغنا أذهان المعلمين لم نجد فيها من المقاصد سوى أنهم يلقون مايجدونه في الكتب المقررة للتلامذة ، ويطالبونهم بحفظه وفهم عبارته إن كان ليعيدوا يوم الامتحان تلاوة ما ألقي اليهم حتى تتم مدتهم في المدرسة ، فيخرجون ولا يسألونهم مرة واحدة عن مجال أفكارهم هل هو في صالح أو فاسد؟ ولا مطامح أنظارهم هل الى نافع أو ضار ؟ وذلك رسم يؤديه المعلمون ليأخذوا مرتباتهم الشهرية لاغير . ولهذا لايكون تلامذتها في آخر الأمر إلا صناعا أو ناطقين ببعض الألسنة ، ولا ثقة في الأغلب بشيء من عقولهم ولا أخلاقهم ، إلا من كانت له فطرة سليمة ، وله موهبة طبيعية ، فأولئك تؤدبهم الأيام ، وتهذبهم التجارب . وعلى مثل ذلك كانت مكاتب الأوقاف ولا تزال ، فان استمر السير على الطريقة المعروفة الآن كانت النتيجة دائما كما بيناه ، فلا يؤول ذلك بالمصريين الى أن يكونوا رعية صالحة لأن تكون بدنا لرأس أو آلة لصانع

المدارس الاجنبية

وأما المدارس الأجنبية على تنوعها ، فاختلاف المذاهب بين المعلمين والمتعلمين في الأغلب يضعف أثر تلك المدارس من التربية العمومية . فقليل من المصريين من يرغب في تعليم أولاده فيها . ومن أرسل بولده اليها داوم نصيحته بعدم الالتفات الى مايقوله المعلمون فيها حفظا لاعتقاده . ثم ذلك يحدث من

الاضطراب في طبيعة الفكر ، والتزلزل في الأخلاق ، مايكون ضرره أكثر من نفعه . وقد غلط من زعم أن لتلك المدارس الأجنبية أثراً سياسياً أو أدبيا في مصر ، بل قد أحدثت بعض النفرة في قلوب المسلمين من رؤساء تلك المدارس وأممهم . ولذلك تاريخ فى البلاد معروف ، فهي ضارة بالألفة ، مبعدة للمحبة ، رغماً مما يزعمه أربابها مما يخالف ذلك : فلا يصح الاكتفاء بها فى التربيـة عن المدارس الأهلية على اختلافها

الجامع الازهر

الجامع الأزهر مدرسة دينية عامة يأتي اليها الناس إما رغبة فى تعليم علوم الدين رجاء ثواب الآخرة ، وإما طمعاً فى بعض الامتيازات لطلاب العلم فيه ، ولا يزال بعضها إلى اليوم . ولكن مما يؤسف عليه أنه لانظام لها فى دروسها ، ولا يسئل فيها التلميذ أيام الطلب عن شيء من أعماله ، ولا يبالي أستاذه حضر عنده فى الدرس أم غاب ، فهـم أم لم يفهم ، صلحت أخلاقه أم فسدت . ويمر عليه الزمان الطويل لايسمع فيه نصيحة من أستاذه تعود عليه بالصلاح فى دنياه أو دينه ، وإنمـا يسمع منه ما يملأ القلب بغضاً لكل من لم يكن على شاكلته فى الاعتقاد حتى من بني ملته ، ويطبق على الذهن غفلته ، ويستفزه الطيش لتصديق كل مايسمع، اذا كان موافقاً لمبدأ التعصب الجاهلي، فأغلب الأوقات تمر على أهل الجد منهم في فهـم مباحثات لبعض المتأخرين لا فائدة فيها . ولا يتعلمون من الدين الا بعض المسائل الفقهية ، وطرفا من العقائد على نهج يبعـد عن حقيقته أكثر مما يقرب منها . وجل معلوماتهـم تلك الزوائد التي عرضت على الدين ، ويخشى ضررها ولا يرجى نفعها

ثم ان المعروفين بالعلماء ، وهم الذين يتممون دروسهم فى هذه المدرسة ، ويؤذن لهم بالتدريس فيها ، هم قدوة الناس وأئمتهم ، مع أنهم أقرب الى التأثر بالأوهام والانقياد الى الوساوس من العامة ، وأسرع الى مشايعتها منهـم ،

وذلك بما ينشأون عليه من التعليم الردي، والتربية المختلفة التي لا ترجع الى أصل صحيح ، فبقاؤهم فيما هم عليه اليوم مما يؤخر الرعية عن تقدير السلطة الصالحة قدرها

إصلاح مدرسة الازهر لا بد أن يكون بالتدريج في تغيير نظام الدروس وجعلها في الابتداء تحت قواعد ساذجة قريبة من الحالة الحاضرة فيها، بحيث يقرر فيها أن كل من أدرج اسمه في جدول الطلبة يلزم بالحضور في الدروس والا حرم الامتياز ، وكل أستاذ يسأل عن طلبته ، ثم يجعل ماينالونه من المنافع الطفيفة منوطا بالفهم لا بالكتب ، وتغيير بروغرام الدروس، ويزاد عليه أصناف من الكتب بحيث يدخل فيه تدريس الآداب الدينية المفقود الآن بالكلية ، ويكلف الاستاذ بتعهد أخلاق تلميذه لتكون منطبقة على تلك الآداب بقدر الامكان ، ويجعل شيخ الجامع رقيباً على الأساتذة والتلامذة في ذلك ، ثم يعدل نظام الامتحان النهائي وشروطه ، وكل ذلك يكون على طرق بسيطة لا توجه الأذهان الى شيء خلاف المصلحة ،وتفصيلها يكون في لائحة مخصوصة .ولا بأس أن يجعل نظام هذه المدرسة مرتبطا بالمعارف العمومية أو بادارة الأوقاف على قواعد تفصل في اللائحة المختصة به .

وقد يظن بعض من لم يتفكر في حالة البلاد ومرتبتها الأدبية والدينية أن إصلاح الأزهر لا يمكن، لأنه يترتب على مجرد الشروع فيه تشويش أذهان العلماء والعامة على أثرهم ، فهذا ظن فاسد لا يؤيده دليل ولم تقض به تجربة، إلا ما كان من بعض الرؤساء من مدة نحو عشرين سنة عند ما أراد إدخال بعض العلوم الصناعية فيه، فقاومه بعض من كان موجوداً من العلماء ، فيئس من الاصلاح وترك الأمر الى اليوم، فقد كان ذلك قبل أن تتغلب الحوادث على مصر ، ولم يكن بالتدريج اللائق . أما الآن فقد تغيرت الأحوال وأصبح الاصلاح فيه أهون منه في جميع المصالح، وكل رئيس للنظار يمكنه أن يأتي هذا الاصلاح بمجرد التوجه اليه ، وما يعجز عنه من ذلك . فصاحب هذا الفكر هو الكفيل بتنفيذه اذا فوّض ذلك اليه على أن العناء في ذلك لا يطول اذا صلحت المدارس الاميرية . فان الناس لا يختارون

الازهر الا لسوء ظنهم بالمدارس ، أو لاعتقادهم أن الازهر أحفظ للدين منها . فاذا حصل الاصلاح فيها وجدوها أدنى الى المنفعة منه ، فعند ذلك تنفرد بكونها معاهد التعليم ، ويصبح الناس كلهم في طريق واحدة

الكتاتيب الاهلية

المدارس الاميرية يتعلق النظر فيها بنظارة المعارف ، ولا يتم لهـا إحسان النظر من وجه التربية الا بتوجيه العناية أولا الى الكتاتيب الصغيرة المنتشرة في القرى والمدن ، فانها هي المغذية للمكاتب المنتظمة التابعة للمعارف وللمدارس الاميرية وللأزهر ، فان كان الغـذاء فاسداً كان المزاج المتغذي أشد فساداً . وقد خطر ببال أحد نظار المعارف أن ينظر فيها ، ولكن من الوجـه التعليمي واصلاح الامكنة بحيث تكون أوفق للصحة لا من الوجه التهذيبي . والثاني هو اهم مطلوب دون الاول فانما ينظر اليه من حيث هو وسيلة للثاني . فالمعلمون في تلك الكتاتيب يسمون الفقهاء وهم لا يعرفون شيئاً سوى حفظ القرآن لفظا بغير معنى ، وإذا كان في أذهانهم شيء باسم الدين فما هو إلا الزائد الضار دون الأصل النافع ، وقد عرفوا بأنهم أفسد حالا من العامة . على أن الكتاتيب يرد عليها أبناء الأهالي جميعاً إلا القليل ، ثم يرجع الغالب الى ما كان عليه آباؤهم ، فهي منابت للعامة أيضا ولكنها لا تنبت الا ن إلا جهلا

ولا يمكن إصلاح تلك الكتاتيب إلا باصلاحهم (أي الفقهاء) وإصلاحهم مرة واحدة أو ابدالهم بخير منهم متعسر ، ولكن اذا وجهت العناية اليهم أمكن اصلاحهم واصلاح طرق تعليمهم بالتدريج في بضع سنين . ثم ان ذلك الاصلاح يستدعي عملا يتعلق بعضه بالمعارف وبعضه بالأوقاف من حيث إن أولئك المعلمين خطباء المساجد في الأغلب ، فلا بدَّ أن ينظر في انتخابهم من المستعدين للفهم وقبول الاصلاح بقـدر الامكان ، وهو يقتضي سـعياً حثيثاً ، وتدقيقاً شديداً ، وسيراً في أرض مصر أجمعها ، ونظراً في كل قرية من قراها، وهو ليس بعسير على الشخص الواحد فضلا عن أشخاص كثيرين، متى وجهت العناية لذلك

ثم يلزم لذلك تقرير بعض المعلومات التي لا يستغني عنها مصري مما زاد على تعليمه القرآن في تلك الكتاتيب ، حتى اذا خرج التلميذ من الكتاب كان شاعراً بأنه في أي جمعية محكومة بأي طريقة . فاذا دخل المدرسة أو الازهر كان نماء معلوماته على ذلك الأساس ، وذلك يستدعي تقرير بعض الكتب الصغيرة ، وتعيين ما يدرج فيها على نمط سهل يفهمه الصغير والكبير ، بأن تبين لهم فيه نسبتهم الى المأمور والمدير والناظر والمهندس والطبيب والعالم والى المقام الخديوي وغير ذلك . وتحدد الطريقة التي يتعلم بها الفقهاء هذه الامور القريبة من الأذهان والمكان الذي يتعلمون فيه ، والوقت الذي يخصص لذلك ، والمعلم الذي يعلمه ثم تقرير العلاقة بين أولئك الفقهاء وبين ادارة الأوقاف ونظارة المعارف

المكاتب الرسمية الابتدائية

تلامذة هذه المكاتب لايزالون الى الآن من الأطفال الذين يقصد كفلاؤهم بتعليمهم التوصل بهم الى خدمة الحكومة ، سواء نالوا ماقصدوا أم لا ، الا أنهم في الغالب لا يستطيعون أن يذهبوا بهم الى نهاية التعليم المعدّ لذلك ، فيرجع الولد الى أبيه أو من يقوم مقامه بعد نهاية المكتب ، عارفا ببعض مبادىء العلوم التي لايجد لها موضعاً تستعمل فيه ، فلا يلبث أن ينساها ، فيضيع الزمن الذي شغله بالتحصيل بلا فائدة ، ثم إنه يعود بأخلاق أشد فساداً من أخلاق الذين بقوا على الفطرة لم يمسهم التعليم ، ويجد في نفسه نفرة وعجزاً عن العمل فيما كان يعمل والده وأهله من قبله ، فيقضي عمره في البطالة ، أو ما يقرب منها ، فتزداد أخلاقه فساداً ، وأفكاره اختلالا ، ويقف نفسه على عبادة الاوهام ، وخدمة الدسائس التي تنبهه الى طلب مايغير الحالة التي عليها الناس طمعا في تغيير حالة نفسه بلا تعقل ، فيكون زيادة في أمراض البلاد بدل أن يكون عضواً نافعا لها .

فأول مايجب لاصلاح هذه المكاتب ، ووضعها على أساس يفيد العامة أن يراعى فى البروجرام ادخال مبادىء العلوم من وجهها العملي الذي ينطبق على

المعاملات الجارية في البلاد . فقواعد الحساب مثلا تؤخذ من وجهها العملي مطبقة على المعروف فى المعاملات التجارية ، وحساب الصيارفة الاميريين وغيرهم ، فيتعلمون طريقة وضع المدفوع من الأموال فى الأوراق والدفاتر ، وطرق التحصيل لأموال الحكومة ونحو ذلك . ويدخل فيها فن الاوزان والمكاييل ، وان كانت مبادىء هندسية فليدخل فيها شيء من المساحة على الطريقة المعروفة فى البلاد أو على أفضل منها ، وما يؤخذ من قواعد العربيـة يكون مصحوبا بالعمل في المكاتبات العادية ، والمشارطات المتداولة بين الاهالي ، حتى اذا انفصل التلميذ من المكتب يكون عنده ما يحتاج اليه شخصه أو عائلته وأقاربه وأهل بلده فلا ينقطع عن العمل به لكثرة مايرد عليه منه

ثم يضم الى ذلك تعويده بعض الاعمال الزراعية أو الصناعية في أوقات الرياضة ، أو يخصص لذلك يوم في الاسبوع ليعلم كفلاء التلامذة أن للتعليم غاية سوى خـدمة الحكومة ، وأنهم اذا لم ينالوا الخدمة فان لهم شأنا سوى البطالة والتفرغ للاوهام الرديئة . ثم يضاف الى البروجرام مبادىء العقائد الدينية على الاصل الصالح ، وأصول الآداب الدينيـة على مايجمع الألفـة ويعرف وجه المصلحة في المعاملة والمخالطة ، وشيء من تاريخ البلاد ، وما كانت تعانيـه في سابق زمنها ، وما صارت اليه من الراحة فى هذه الأوقات ، وشيء من القواعد العامة للنظام الذي هم فيه ، ليعـلم التلميذ أنه من أي جنس وفى أي شكل من أشكال الحكومة ، فيتعلم الخضوع والانقياد لكل مسند فيما يصدر منه . ثم يكون أهم العناية بحمل التلامذة على العمل بمـا يعلمونه من الآداب ، وتشديد المراقبة عليهم في ذلك ، وتوضع لهذا لائحة مخصوصة يحدد فيها البروغرام اللازم للمكاتب الابتدائية وطريق التعليم ، ويبين فيها المسلك الذي يتخذه المربي المفوّض اليه مراقبـة أخلاق التلامذة ، وملاحظة أعمالهـم . فاذا أتم التلميذ مدة المكتب الابتدائي ، ولم يتيسر له أن ينتهي الى غاية التعلم رجع اليه بشيء نافع ، ونمت فيه الأخلاق الصالحة والأفـكار الحسنة ، وانطبع قلبـه على الخير والسلامة ، وكانت له بصيرة في وجوه المعاملة مع من يشترك معهم في المصلحة ، ونبت في

قلبه احترام النظام الذي يضبط مصلحته ومصلحة بني وطنه ، ونشأ على محبة العمل والرغبة فيه ، فلا يكون الى فؤاده سبيل للوساوس ، ولا منفذ للدسائس

المدارس التجهيزية والمدارس العالية

لا أتكلم في بروغرامات دروس الفنون التي تقرأ فيها لأن النظر في ذلك يتعلق بالغرض الذي جعلته الحكومة غاية لاقامة تلك المدارس ، وانما كلامي فيها منحصر فيما يتعلق بالتربية وتهذيب الفكر ، وغرس مبدأ الصلاح في نفوس التلامذة ليحسنوا في استعمال ماتعلموا

قلنا فيما سبق إن التربية مفقودة في تلك المدارس لا يخطر ببال أحد أن يعتني بها عناية حقيقية ، وانما الموجود فيها صور ورسوم تغر الناظر فيها وهي بمعزل عن الحقيقة ، فالذي يجب لتأسيس التربية فيها تعليم العقائد الدينية على الأصل الصحيح — تعليم الآداب الدينية على الطريق الصالحة — إلزام التلامذة في تصرفهم بموافقة ماتعلموا ـ كل ذلك على نمط أرقى مما كان في المكاتب الابتدائية — تعليمهم الاجادة في الكتابة كلٌّ في فنه الذي يريد الوصول إلى غاية التعليم فيه — تعليمهم أصول النظام العام ، ثم زيادة التوسع فيما يتعلق بفنه من النظام فالقانونيون يتوسع لهم في أصول النظام المتعلق بالقضاء والادارة وهو شيء غير نفس القانون ، والمهندسون في أصول النظام المتعلق بالري وتدبير النيل وهو شيء غير الهندسة — وعلى هذا القياس

والمربي في كل ذلك يودع في أفكارهم أن القيام بهذه الأعمال مما يطالب به الدين ، وأن فوائدها ليست قاصرة على خدمة الحكومة ، بل هي من لوازم الحياة الطيبة ويورد الأدلة على ذلك وهي كثيرة لا تعد ، حتى اذا بلغ التلميذ نهاية التعليم أمكنت الثقة به ، وائتمن على عمل يفوض اليه ، وكانت الأنفس مطمئنة من جهته لعلمه أن للنظام علاقة بحياته الروحانية ، كماله علاقة بحياته الجسدانية ، فان لم يكن له نصيب في خدمة الحكومة وجد سبيلا آخر للعمل وهو في رضى عن النظام المحيط بأعمال وطنه ، فيكون بذلك عضواً صالحاً ويقوم بينه وبين الدسائس

حجاب منيع من الاستقامة الفكرية والخلقية، حتى لو أن التلميذ بعد ذلك حمله الشطط في الفكر على خلع العقيدة الدينية بقيت فيه ملكات الأخلاق الفاضلة طبيعة ثابتة لا تتبدل بتبدل العقيدة

المعلمون والمربون ومدرسة دار العلوم

وجود مثل هؤلاء المعلمين عسير كما يقوله كثير ممن له تعب في البلاد ولم يتفكر في حالتها ، ولم يدقق البحث في مصالحها ، اما أنا فلا أرى في ذلك صعوبة بقدر مايتصورونها كما أن كثيرا مثلي لايرون ذلك

أما اولا فلأن بلاد واسعة مثل مصر لا تعدم أفرادا متفرقين في أنحائها يعرفون من الدين حقيقته ، وللزمان مايلزم له ، وإنما يجمعهم البحث والتنقيب . وكما ساح ناظر المدرسة الزراعية ليختبر الأرض ويعرف الطرق المسلوكة في البلاد لخدمتها واستنباتها ، كذلك يجب أن يسيح مدير التربية في الأطراف ليعرف الصالحين لتوليها ، على أن المعروف منهم ليس دون الكفاية للابتداء في العمل ، فان لم يكن الموجود بالغاً الغاية في المقصود فلا أقل من أن يكون قريباً منها — وأما ثانياً فلأنه يمكن تكوين جماعة كثيرة ممن يحتاج اليهم في الغرض بطريقة هي مرسومة الآن ولكن لم يطبق العمل منها على الرسم الحقيقي ، على أن في الرسم نقصاً يجب تتميمه ، وتلك الطريقة قد رسمت في المدرسة المسماة بدار العلوم

دار العلوم مدرسة ابتدعها سعادة علي باشا مبارك من نحو خمس عشرة سنة وشرط أن يكون تلامذتها من طلبة الأزهر وأن يكونوا حصلوا من العلوم المقررة فيه مبلغاً يكاد يؤهلهم للتدريس ، ثم جعل في دروس تلك المدرسة دروسا لجميع ماكانوا يقرأونه في الأزهر من العلوم الدينية ليتمموه على وجه أجلى وأنفع وأضاف الى ذلك أطرافاً من الفنون الصناعية كالطبيعة والكيمياء والحساب والهندسة وشيئاً من الجغرافية والتاريخ ، وقدر غاية الدراسة أن يكون التلميذ المتمم لدروسه فيها صالحا لأن يكون أستاذاً في العلوم العربية والدينية في المكاتب والمدارس الرسمية ، ولكن جاءت على تلك المدرسة أدوار كثيرة أسقطتها عن مرتبتها التي

كانت تنبغى لها ، ثم لم يوضع فيها أساس للتربية التى كان يجب أن تكون أهم شيء يقصد من الانتظام فيها ، ولهذا كان يخرج تلامذتها على مايخرج عليه تلامذة غيرها من الأخلاق والافكار لايمتازون عنهم الا قليلا ، وان كانت مع ذلك أنشأت أفراداً من أهل العلم والأدب هم الآن معروفون تشهد لهم حالهم بأنهم أفضل من جميع الناشئين في غير تلك المدرسة ، ولكنهم أقل عدداً مما كان ينتظر

ثم من غريب التصرف أن هذه المدرسة مع أنه لم يكن الغرض منها إلا تكوين أساتذة قادرين على التربية عارفين بالعلوم الدينية والعربية حق المعرفة لايقيمون عليها من النظار إلا جاهلا بالدين واللغة العربية ، بل غير معتقد بالدين بالكلية، كما فعلوا سابقاً، ويريدون أن يفعلوا في هذه الأيام ، ولا يعينون فيها من المعلمين للدروس الدينية إلا من يقصد تعيشهم بمرتباتهم ، وفيهم من لاتجوز معاشرة التلامذة له فضلا عن أخذهم العلم عنه ، وفيهم من لايحسن أداء ماكاف به ، وليس فيهم أهل بوظيفته الاشخصان فقط والكل لاعناية له بأمر التربية ولا يهمه فساد أخلاق التلامذة أو صلاحها ، ولا استقامة عقولهم وأفهامهم أو اعوجاجها ، وتعليمهم الدين على ماهو المعروف في الأزهر لايغيرون منه فاسداً، ولا يزيدون عليه صالحاً ، وسائر المعلمين للفنون يؤدونها نقلا من الكتب، لايبينون للتلامذة الغاية من تعلمها . وليس العيب في ذلك راجعاً اليهم ، ولكن الى من لم يضع أصلا لسيرهم في تعليمهم ، ولم يؤسس قاعدة ترجع اليها جميع الأعمال صادرة من المعلمين أو المتعلمين ، ولم يقم على تلك القاعدة خبيراً بالبناء عليها ، عارفا بالغاية التي توجه المدرسة اليها ، حكيما في تصرفه بأذهان التلامذة والاساتذة حتى يقيم للتربية بناء معنوياً حقيقياً يأوي اليه كل معلم ومتعلم يأتي من بعده .

هذه المدرسة تصلح أن تكون ينبوعاً للتهذيب النفسي والفكري ، والديني والخلقي ، ويمكن أن ينتهي أمرها إلى أن تحل محل الأزهر ، وعند ذلك يتم توحيد التربية في مصر ، ولكن يلزم لذلك أمور

(الأول) إصلاح البروجرام وحذف بعض العلوم التي اشتغل بها التلامذة

في الأزهر والاكتفاء بتمرينهم على العمل بها وتقدير مايلزم من الفنون الباقية وزيادة بعض علوم ليست فيها الآن منها علوم الآداب الدينية وفنّ أصول النظام مع تعلقه بالدين

(الثاني) تغيير طريقة تدريس تفسير القرآن وتعلم الاحاديث النبوية

(الثالث) اختيار معلمين صالحين للقيام بالعمل الموصل إلى الغاية المطلوبة للمدرسة

(الرابع) تعيين ناظر للمدرسة قد ملأ قلبه وغمر فكره الميل إلى المقصد الذي وصفت له المدرسة عالماً بالدين ولغته موثوقا به عند العامة

(الخامس) إعطاء تلامذتها بعد نهاية التعلم حق التدريس في الأزهر

(السادس) توسيعها إلى مايسع مائة تلميذ

(السابع) أن يزاد في مدتها سنة بعد الدراسة للتمرين على التعليم في نفس المدرسة

(الثامن) وهو أهم مايجب — أن يكونوا تحت نظام شديد في التهذيب وملازمة العمل بما يعلمون

(التاسع) أن تكون وظائف التدريس في المدارس والمكاتب منحصرة فيهم

(العاشر) أن تكون درجتهم في الوظائف على حسب أدبهم واقتدارهم على التأديب

(الحادي عشر) أن يكون للموظف منها في مدرسة ماسلطة تامة على تهذيب التلامذة وتربية نفوسهم ، وتقويم أخلاقهم وطباعهم ، وأرقاهم وظيفة في تلك المدرسة يكون رئيساً لمن دونه

(الثاني عشر) أن يبقوا بلباسهم الذي هو لباس أهل الدين مهما ترقوا في الوظائف

ثم إنه يلزم لهذا المشروع كتب تؤلف جديداً ولوائح تنظم العمل على مقتضاها وذلك كله يمكن بعد العزم علي الاجراء

نفقات الاصلاح

يمكن أن يظن أنه يلزم للاصلاح زيادة نفقات ولكن اذا دبرت مصاريف المعارف على الوجه اللائق فلا أظن أنه يحتاج إلى زيادة على أنه لو احتيج اليها لايثقل احتمالها بعد اليقين بأن هذا الاصلاح يؤول إلى تمكن السلطة وجعل الرعية صالحة لأن تكون بدنا لرأس ، او آلة لعامل ، وأظن أن بذل النفقات في هذا السبيل — وهو سبيل حياة السلطة وحياة الرعية — أفضل منه فى جميع السبل ، فان كانوا يصرفون آلافاً من الجنيهات على بعض المباني الخربة بدعوى أنه أحفظ للآثار القديمة فأولى أن يصرف بعض تلك المبالغ على حفظ الذين تبقى لأجلهم تلك الآثار . فان التربية هي الحصن الحقيقي للبلاد ، الذي يصونها من جيش الفساد ، وهي آلة صاحب السلطة في الانتفاع بالمحكومين له ، ولا وسيلة للمحكومين سواها في تعريفهم حدودهم التي يجب أن يقفوا عندها بالنسبة إلى مقام صاحب السلطة عليهم . وإني أجد هذا الاصلاح فى مدارس الحكومة يأتي بفائدة أعم من الفوائد التي جاء بها مشروع السيد أحمد خان فى الهند وهو أبعد من ذلك المشروع عن سوء الظن

شبهة من يعارض المشروع ومكانته فى نفسه

ربما يوجد أشخاص خصوصاً من الرؤساء يقولون إن هذه الطريق بعيدة النهاية لاتوصل إلى الغاية — كما قالوا ذلك من قبل — فنقول لهم إن الطريق التي سلكوها وسلكها أسلافهم من محمد علي إلى الآن قد جربت فلم تعد بخير على البلاد ، فليسلكوا الآن هذه الطريق على سبيل التجربة بعض سنوات فليس هناك ضرر ينتظر ، فان لم تكن فائدة فلا خوف من المضرة

إن من يزعم العجز إنما يلجأ اليه لأنه لم يتصور مايرد من الأمر عليه فان كانت له أدلة فليوردها ، ولا نعدم لها من الحقيقة دافعاً ، فان أبى إلا العجز فربما يوجد من لو وكل اليه الأمر قام به ، ولم يعجز عنه ، والتجربة مشرق الحقيقة

إن شاء الله تعالى . على أنه يمكنني أن أضمن كل ضرر يتصور في هذا المشروع، وأكفل أن يكون له من النفع ماهو أوفر من الفائدة المطلوبة في السير الحاضر

واني لاأزال أكرر أن غارس هذا الغرس يجني ثمرته الطيبة ، وأن فوائده ربما نقلت الى أقطار أخر فعادت بجزيل الخير على من نماه، وفي الزمن القريب يبدو صلاحه لصاحب السلطة وللمحكومين له ، ويسهل له تقرير أمره فيمن صلحوا باصلاحه على قاعدة المحبة والالفة ، لاعلى طائشة الاخافة والرهبة ، ويكون بذلك قد كون لنفسه شعباً جديداً يعينه في الشدة، وينصره في الفتنة ، ويعضده في ساعة المحنة ، ويمحو من نفسه خيال التعلق بغيره ، ويزول من طريقه عقبات تعصب الجاهلية ، وحمية الحماقة اللابسة ثوب الحمية الدينية ، وفي ظني أن من عارض هذا المشروع فقد عادى سلطته ، وعرض نفسه لغير الزمان، وسياسته لنفوذ شياطين الفتن من مقاوميه والله ولي الأمر وبيده كل شيء يهدي من يشاء الى صراط مستقيم اهـ

***

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ نقلت هذه اللائحة عن مسودة للامام غير منقحة ولامعروضة للنشر كما سبقت الاشارة، بل كتبت لأجل أن تترجم وهي مع ذلك آية في البلاغة وحسن العبارة وان كنت اجزم بأنه لو بيضها ، لغير وبدل بعض كلمها . ومن كان حديد الفهم بعيد الغوص في أسرار الكلام يعلم أنها لامست سماء الاعجاز أو كادت ، على عدم العناية فيها بزينة اللفظ وزخرف القول . ذلك أنه لايرى لعقله مذهباً آخر أرجى من مذهب الامام فيها باقناع السلطة في مثل هذه البلاد بالتربية الاسلامية التي كانت قصده في أمته ، مع الصدق في القول والاخلاص في النية . واذا قارن هذه اللائحة باللائحتين قبلها تجلى له معنى « لكل مقام مقال » فغرض إمامنا في الاصلاح الديني الذي يحيي امته حتى في دنياها واحد ولكنه كان يتوسل اليه في كل بلاد باقرب الوسائل التي يرجى أن ترضى بها السلطة وهو مايجعله موافقاً لمصلحتها ولو في الجملة ، وتلك هي الحكمة البالغة، والبلاغة السابغة

ناهيك بما تومئ اليه مقدمة هذه اللائحة من الرسوخ في علوم العمران كطبائع الامم وأخلاقها ونظام التربية والتعليم والسياسة . فياليت الاستاذ

الامام فرغ للتأليف لم يشغله عنه الاصلاح العملي ومحاولة تربية الأزهر واصلاح الشورى والمحاكم ، اذاً لكان لنا منه مصنفات تفعل في النفوس بعد وفاته ، مالم يتم له مما كان يريد أن يعمله في حياته، رحمه الله تعالى على نيته وحسناته

على أنه لو فاز بما كان يريد من كتابة هذه اللائحة ـ وهو جعله ناظراً لمدرسة دار العلوم مستقلا في تربية تلاميذها ـ ، لربّي لمصر فيها من الرجال من تصلح بهم جميع المدارس الاميرية وغيرها ، ومتى صلح هؤلاء صلح الشعب المصري كله وصلح به الشرق الاسلامي كله، ولكن لم يكن في الحكومة المصرية من الوزراء من يسمو به عقله لفقه هذه اللائحة ، ويسمو عزمه لانفاذها ، واما أصحاب النفوذ الفعلي في هذه الحكومة من الأجانب فهم أجدر بفقهها ، وأجدر بمعارضة العمل بها لو طلبته وزارة المعارف وهي قد ترجمت للسر أفلن بارنج يومئذ (لورد كرومر) فنبذها وراء ظهره طبعا . ولم تستمله تلك العبارات التي قصد به استمالة.

وأما الخديو توفيق باشا فقد أبى صاحبها مديرا ومعلما في مدرسة دار العلوم، وعلل ذلك بأنه يربي الطلاب فيها التربية التي يخشى سموه عاقبتهما على بلاده (؟؟) وأمر وزير الحقانية بأن يجعل الأستاذ قاضيا في احدى محاكم الأرياف ليكون بعيداً عن القاهرة مركز الحركة الفكرية والتعلم (؟؟) فهو قد بقي على رأيه الذي وسوس به اليه قنصل انكلترة الجنرال عقب توليته من أن السيد جمال الدين وحزبه الوطني يريدون سلب سلطته الشخصية بحكومة نيابية . فنفى السيد من القطر المصري ، والشيخ محمد عبده من القاهرة كما بيناه في الترجمة . وقد سلب الاحتلال سلطته وسلطة الامة معاً ، وظل هو خائفاً من التربية الملية الاسلامية التي كان يريدها الشيخ رحمه الله تعالى (فاعتبروا يا أولي الأبصار)

الباب الخامس

كتب ورسائل

الفصل الاول

في طائفة من كتبه الاصلاحية والدينية الى العلماء والفضلاء من أعضاء العقد الرابع من جمعية (العروة الوثقى) وغيرهم

(١)

لله الحمد على هبته من الاخلاص ومنحته من الانابة اليه ، واشكر الله اليك على ماوفر لك الحظ منهما ، ماأبطأ بي عن مواصلتك غفلة عن ذكرك ، أواهمال في الواجب عليّ لحقك ، فلي من همتك منبه لايغفل ، ولديّ من مروءتك جميل لايهمل ، لكن صرّفني القدر الالهي فيما أراد الله ، وصرفني الى حيث سبقت مشيئته ، تعاظمت حوادث الشرق ، خصوصا مامال منها نحو الجنوب ، فشغل الاهتمام بها مواضع الفكر ، وأخذت صور عقباها بمواقع النظر ، فتلقيت من الامر الجديد أن أكون على مقربة من الضوضاء ، ومسمع من النداء ، ولعل الله ينهض بالقول هما أو يكشف بالبيان جهالات ، فتعرف أنفس ما ادُّخر لها العمل ، وتلحظ أبصارمادنا من الأمل ، وتنبعث عزائم لتناول ماحضر لديها ، وابراز ماكمن فيها ، فعناية الله باسطة أكفها اليهم ، رافعة صوتها عليهم ، وهم في غشية من الجهل لا يصاخونها ، وغطيط من الغفلة لا يسمعونها . هذا ما اندفع بي الى بلاد استعين الله فيها على تجديد عهوده ، والتوقيف على حدوده ، عسى أن يتواصل المتقاطعون ، ويتناصر المتخاذلون ، وماتوفيقي إلا بالله وما اعتمادي إلا عليه ، فكانت أوقاتي من فراقك في أسفار ، واليوم سكن بي قرار ، و إني بعد طوافي ببلاد أكتب اليك اليوم من

بلاد بها عق الشباب تمائمي وأول أرض مس جسمي ترابها

(١) المحفوظ من المصراع الاول * بلاد بها نيطت علي تمائمي

غير انه لايراني من أهلها الا المخلصون،ولا يعرفني فيها الا العارفون ، وان لك بينهم ذكراً يليق بهمتك ، ومكانة تجددها عزيمتك ، ولقد أبلغت السيد من خبر صنيعك ماوفر لك شكره.وأخلص لك سعيه،ورجائي ان يوافيني من لدنك مايطمئن به القلب على صحتك ، ومايتروح به الفؤاد من أنباء مساعيك بين الاخيار من قومك ، أحيا الله بك موات الهمم ، وأقرّ بك نواظر الفضل ، وسلامي عليك وعلى أنجالك وآل ودك ، والله يديم رعايته عليك والسلام

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٢

طال العهد على فراقك ، ولم يجر القلم بمراسلتك ، حتى خيل مكان للظنة ومثار للريب . أستغفر الله ، لي من شمائلك روح بروحي ، ومن همتك قلب بقلبي ، فلست أنساك حتى أكون بمعزل عن نفسي ، ولكن حولتني مهمات الشرق عن الغرب بما رآه المولى السيد من فرصة العمل في هذه الحوادث المتتالية ، فخليته عونا لنا حيث هو ، وتحولت الى مقربة من معاقد العروة ، ومكامن القوة . فكانت المدة من يوم فراقك متبددة في أسفار ، متلاشية في هواجس أخطار ، واليوم أكتب اليك من وراء ستار ، فلا تهملوني من التذكار ، ورجائي أن يرد إليَّ من قلمكم ، مايرجوه القلب من ودكم ، وسيدي السيد يهديكم أتم التحية ، والوسيلة تصل اليكم ، وسلام الله عليكم، وعلى كل مخلص ، والله يحفظكم

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٣

فارقتك ولم يفارقني مثال من كمالك ، وضياء من عرفانك ، واني على البعد عنك،لم أنس ما أفادني القرب منك ، ولي في كل لحظة شوق اليك ، وفي كل بقعة حللتها ثناء عليك ، ورجائي أن أنال حظا من الاطمئنان على صحتك ، وسلامي على حضرة السيد أخيكم ، ومن سعد بمحبتكم، والله يتولى رعايتكم والسلام

٧ جمادي الاولى سنة ١٣٠٢

٤

أشد ما أجد من فراقك، حرماني من محاضرة آدابك ، والاقتباس من أنوار فضلك ، وتعرُّف الصواب من صائب رأيك ، وإنما يخفف ألم البعد عنك أن أكون بمكان من فكرك ، وأصيب حظا من مراسلتك . وجدير بكرمك أن تصل واصلا ، وتجيب سائلا . وسلامي عليك وعلى أنجالك الصالحين ، والله ينفع المسلمين بسعيك وخالص نيتك والسلام

٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠٢

٥

أيد الله بك الحق ، وأعانك على العمل بما وهبك ، عرفان تنير به أفئدة السذج من قومك ، وترد به جماح الغاوين من عشائرك ، ويقين في الدين ينهضك اذا قعد المرتابون ، ويشدّ عضدك إذا ضعف الواهمون ، ومكانة في قلوب أشياعك تمكن الثقة بك ، والاستمساك برأيك ، وسعة في البيان، تقطع بها طريق الشيطان . فوجه عزمك للنصيحة ، وجادل بالتي هي أحسن ، واذا أخذت من أحد بحبل فلا ترسله ، ومن وسوست له نفسه بالقطيعة فلا تقطعه ، وصل حبالك وحبال المهتدين بحبل الله ، وكن على ثقة من الفوز ، ويقين من النجاح ، ما دام هدي النبي هديك ، وسعي الأصحاب سعيك . وإن أشكل عليك أمر أواشتبهت لك المنافذ ، فاخوانك كثيرون، وهم بمعونة الله في عونك، كما أنه لا غنى لهم عن الاستعانة برأيك . ومقامي اليوم في بلد ما كنت أحتسب الذهاب اليه ، وإن كان أوفر لهفي عليه . ولكن مكاتيبك تصل إليّ إن شاء الله بالطريقة التي تراها صحبة هذه الأسطر ، وسلامي على قلبك الطاهر ، وشوقي للاجابة وافر ، والوسيلة تصل اليك والسلام ٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠٢

٦

أكتب اليك والله أعلم بما أثبت فضلك في قلبي من الودّ ، وما يهيج أدبك في فؤادي من الشوق ، وبودّي لو أن عبارة تحمل مافي نفسي اليك ، ولكن حكمة الله فى قصور العبارات أن يكون الفضل لثقة الكريم، وفراسة الحكيم

قد يكون لك ظن فيما أبطأ بي عن مراسلتك هذا الزمن الطويل من فراقك . وحاشا أن يكون تساهلا في الحق ، أو تغافلا عن فريضة الودّ ، وإنما هو أرقط الحوادث وثب على أوقاتي فمزقها ، وغول الكوارث انبسط فيها فضيقها . من يوم فارقتك ما استقرّ بي مكان حتى الآن . ذهبت إلى باريس فما عبّدت أن تلقيت من الرأي الجديد أن أنحو جهة الشرق ، حيث مسيل الحادثات ، ومخرق الذاريات . فمررت على بلاد كثيرة منها مدينة (كذا) عملت في جميعها على احكام العروة وتمكين عقودها . ثم أصعدت بعد ذلك الى

﴿ بلد خلعت به عذار شبيبتي وطرحت في كف الخطوب عناني ﴾

وأنا اليوم فيه أتعرف الوجوه، وأتنكر للعيون . وأسأل الله نجاح العمل، وإقبال الأمل

ان لي في حميتك رجاء عرفه المخلصون ، وهم لتحققه منتظرون . فادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . فان فناء في الحق لهو عين البقاء ، وإن نميا في الباطل لهو الشقاء . فاستكثر من الاخوان ، وتفهم من الخوان ، واثبت بهم على أصول الشريعة ، وارجع بهم الى سيرة صاحبها عليه الصلاة وأتم التسليم، وليكن القول من مولاي الصادق تأسيساً لاتدريساً ، ولا تكونن كلمة الا وغايتها عقد يبرم ، ورباط يحكم . أستغفر الله أن أنبه يقظان ، أو أهدي البيان لمعدن العرفان ، ولكن ذلك حديث نفسي لنفسي ، وخطاب قلبي لقلبي ، ومنّ عليّ بأنبائك ، وما يكون من آثارك . ألهاني مشهدي منك عن طلبي لترجمة حياتك، فلو تفضلت بارسالها من قلم أحد تلامذتك، لتثبت في صحائفي، ذخيرة لي وللخلائق.

واذا رأيت ... فنبئه أن قوّة الاتحاد في الجنوب ، أفزعت قوة النيران في الشمال ، وأن نيران القلوب أذابت مدافع الكروب . وما النصر الا من عند الله يؤتيه الصادقين ، ويوليه المخلصين (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) أما والله ان غلب المسلمون عن تفرق وتخاذل ، فلن يغلبوا عن ضعف وقلة ، ولكن (من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً)

السيد يهديكم السلام ، وقد أخذت في ترجمة رسالته في نقض مذهب الطبيعيين ، وعند تمامها أبعث اليك بها ، فان حسن لديك طبعها في حاضرتكم

فذلك لكم ، والوسيلة تصل ان شاء الله اليكم ،وسلامي على روحكم الزكية ، وعلى كل نفس صادقة ، ورجائي سرعة الاجابة والسلام

٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠٢

٧

تهيبي من جلالك، يمنعني الدنوّ من كمالك ، وكل ماعددت من فضائلك ، فهو دون الحقيقة من حالك ، وغاية ماأعددت لك من نفسي مقامالم يحله سواك، ومنزلة لم يسم اليها غيرك ، وما أنا بالمختار في ذلك ، وانما فضلك أنزلك حيث شئت ، وصرفني فيما اخترت ، لا أذكرك بما افترقنا عليه ، ووجهنا وجوهنا اليه . فذلك الدين وما افترض ، والحق وما اقترض ، (ان تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم ، والله شكور حليم * قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين * عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودّة والله قدير والله غفور رحيم) إن الزمن من يوم فراقك كان في سفر لم تسنح لي فيه فرصة لأداء حق المواصلة ، ورجائي في عفو هو أقرب اليك من الظنة ، وأجدر بك من التهمة ، وإن كتابي هذا يصلك من خلوة يستضاء فيها بهديك ، وتتلى فيها آيات ذكرك . وإن هذا الداعي والخاصين في السير على طريقك يؤملون ورود الخبر من جانبك . وأرجو أن يكون فيما تكتب إليّ شيء من حال الشيخ . . . والشيخ . . . ومن وصل اليه سعيك ، وكتبي سرّ لديك ، وسيدي الاستاذ حيث تركته بهديك أزكى السلام ، والله يحفظكم برعايته

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٨

ماقتر حبّ أثارته صنائعك ، ولا خمد شوق هاجه ذكرى شمائلك ، ولكن تعس زمان شغل يدي ، وأخذ بأصغري وأكبري ، حتى أبطأ بي عن مواصلتك ، وقصر بي عن مراسلتك . هذه مدة من فراقك نهبتها الأسفار ، وغالتها مقارفة الأخطار ، حوّلتني صروف الحوادث عن الغرب الى الشرق، حيث يقصد احكام العروة ، وتأييد القوّة بالقوة ، ولي في ذكر حضرة الوالد

شان ، وفي تعديد أوصافه كما سمعت بيان ، وسيدي الاستاذ يهديكم أزكى السلام ، وأنا في انتظار لنبأ منك عن صحتك وصحة السادات أشقائك ، والوسيلة واصلة اليك إن شاء الله ، وسلامي عليك وعلى سيدي . . . . . . وسيدي الشريف ومن تودون ، والله يتولى رعايتكم والسلام

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٩

لله ما أودعت نفسي من الودّ لك ، وما ملأ قلبي من الاجلال لقدرك ، ذلك أثر من كمال روحك ، وجمال صفاتك ، زادك الله قربا اليه ، وتعويلا عليه. لم أكاتبك من يوم فراقك ، لأن المدة تقضت في سفر وانتقال ، وهذه أول فرصة سنحت لأداء حق المودّة ، وفريضة الاخوّة . ورجائي أنه لايزايل فكرك ماتفارقنا عليه ، وسبق الكلام فيه مراراً ، وأن يرد لي من سيادتك مايبشرني بسلامة حالك ، ومجمل الحاصل من سعيك ، قدم سلامي الى حضرات الاميرين الجليلين ، وسأكتب اليهما واليك على وجه آخر عند ورود خبر من جانبك ان شاء الله ، حوّلتني الحوادث من الغرب الى الشرق ، لتكون المواجهة أشد أثراً من المكاتبة ، وهذا ماعاقني عن مباشرة ذلك العمل المعهود في هذه الأيام ، ولكن الحمد لله على وحدة القصد ، وسلامة الغاية ، والله يسمعني عنك أفضل ما أحب لك ، والسلام

١٠

وكتب الى صاحب الكتاب رقم (٢) من الكتب السابقة جوابا

لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، وبه الحول والقوّة

السلام عليكم ، تحية أخ يهزه الشوق اليكم ، وبعد فقد تلقيت اليوم كتابك ، فشممت منه ريح الحمية ، والنعرة الدينية . وأرجو أن تصل بك بدايتك إلى ما يختار الله لك من حسن النهاية ، ولم يكن ظني في همتك ، دون ماتبينت من عبارتك ، فليكن سرورك بنفسك ، على قدر شفقتك على دينك ، وحركة ميلك للاخذ بيده وتقويم أوده . فانما هو الدين المتين الذي اطلق العقل من قيده ،

وأخذ على الوهم في كيده ، وهزّ النفوس إلى نيـل الفضائل ، ونكب بها عن مشايعة الرذائل ، حتى ساد به الضعفاء ، وذلت لسلطانه الأقوياء ، وسبق وعد الله بأن يظهره على الدين كله ، والله منجز وعده لأهله ، وانما خلقنا الله وكلفنا بصرف همومنا اليه ، وتعويلنا في شؤوننا عليه ، وليس لنا من الحق في أنفسنا وأموالنا، الا مانبذله في تأييد ديننا ،ولاحاجةلله فيمن لم يكن له من نفسه وماله نصيب

داوم قراءة القرآن وتفهم أوامره ونواهيه ومواعظه وعبره، كما كان يتلى على المؤمنين والكافرين أيام الوحي ، وحاذر النظر إلى وجوه التفاسير إلا لفهم لفظ مفرد غاب عنك مراد العرب منه ، أو ارتباط مفرد بآخر خفي عليك متصله، ثم اذهب إلى مايشخصك القرآن اليه ، واحمل بنفسك على مايحمل عليـه ، وضم إلى ذلك مطالعة السيرة النبوية واقفاً عنـد الصحيح المعقول ، حاجزاً عينيك عن الضعيف والمبذول ، واعتبر بما قاسى النبي وأصحابه من الجهد والعناء لنصر دين الله، وما ركبوا من المتاعب ، وما احتملوا من المصاعب ، على ماتعلم من درجة قربهم إلى الله ، وغفرانه لهم ماتقدم من ذنبهم وما تأخر . واجعل عيشك للآخرة، واستعد لما وعد الله، فان سعادة أبدية، لاتنال إلا بسيرة محمدية ، ولن تنال بنوم موسد ، على فراش ممهد ، واعلم انك محاسب على الدقيقة من أوقاتك ، واللحظة من لحظاتك ، إن صرفتها لاعزاز دينك كانت لك ، وإلا كانت عليك،وأرجو أن يكون كل سعيك خيراً ، يجعله الله نوراً يسعى بين يديك ان شاء الله .

أما ماذكرت من مسألة الشيخ الصغير فبودي لو توجه إلى الله كل مسلم واعتصم بحبله كل مؤمن ، فما بالك بشيخ من جمال الوصف على ماذكرت ، ومن علو المنزلة على مابينت ، فان تيسر لك السبيل فتقدم لدعوته ، وادخل اليه ابتداء من طريق لايعرفه ، وتلطف له في القول ، وإن شئت أطلعته على شيء من مقالات العروة الوثقى ، فاذا انتهيت به إلى مايعرف ، وآنست منه الميل والرضاء ، فاما أن يكتب إليّ ، وإما أن يستعـدّ لتلقي كتاب مني ، ثم سراع إليّ بالخبر ، ثم نبئني عن الشيخ ... واسأله أن يكتب إليّ بالعنوان الذي به تصل اليه كتبي ، فانني قد أذنت أن أبعث اليه ببعض المواد الأصولية،التي يجب اعتبارها أساساً للبناء ، كما

اعتبرها المستمسكون بالعروة في كل قطر، ليتحد المسير، وإلى الله المصير، ثم أنني الآن في بيروت وأقيم بها زمناً، فاذا كتبت فليكن العنوان ... ولا حاجة لما نزيد عن ذلك، فانه يصل إليّ بمجرد هذا العنوان، وبادر للكتابة والسلام

١٥ ذي الحجة — سنة ١٣٠٢

١١

(وكتب الى صاحب الكتاب (٥) من الكتب السابقة جوابا)

لا إله الا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة

السلام عليكم، وعين الله ناظرة اليكم، وبعد فقد وصلني اليوم كتابك يحمد منك اخلاصاً طويته، واختصاصاً بالله حويته، ويشكر منك استعداداً لموالاة الله على أمره، ومظاهرة لاقامة الحق ونصره، ويثني على معرفتك ما آتاك الله من الحول، وما رزقك من الطول، ونزوعك لشكرك إياه على ما آتاك بالعمل فيه لآخرتك ودنياك، ولم يفتك الاعتبار بقوله تعالى « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » : الآية : ولا بقوله « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار، ولا ينالون من عدو نيلا، إلا كتب لهم به عمل صالح، ان الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » ولن يعجز مؤمن وإن ضعف حاله وقل ماله أن يأتي واحدة مما ذكر الله، فكيف بك وقد آتاك الله بسطة جاه في قومك تستطيع بها تقويم طباعهم، وتهذيب عقولهم، وردهم إلى ما انحرفوا عنه من طريق الشرع القويم، وتنبيههم لما غفلوا عن رعايته من طلب الشهادة، وعدها أفضل ذخائر السعادة، وإن لله يدا عندك بما آتاك، ولست تأمن مكره في حفظ نعمته عليك لعقبك، ان أمنت ذلك لنفسك، إلا أن تؤدي حق الله فيها، ولا تؤدي حقه حتى يكون معظمها منصرفا لاعزاز دينه وإعلاء كلمته، والجهاد للحق حتى يظهر، وفي الباطل حتى يدحر، فأوصيك وما أنت بمحتاج للوصية أن تجعل كتاب الله أمامك وأن تأتمر له كما كان نبينا وأصحابه يأتمرون له، فلم يكلفهم الله دوننا، ولم يسامحنا

الله دونهم ، وليس بين الله وبين أحـد من خلقه هوادة في فريضة فرضها ، أو سنة سنها ، وإياك وتعلات النفوس وأهاويل الأوهام ، فانهامن مضلات العقول، ومداحض الهلكة ، وجنـد الشيطان ، وليس بينك وبين الحق إلا أن تهم وتخلص لله همك ، فتكون يد الله على يدك ، يؤيدك ويأخـذ للحق بك ، والله لايعين خاذله ، ولا يضيع عملا أخلص له .

ألا أيها الشيخ الجليل! إن الله قد اشترى منا حياة دنيئة لو طلبت من عاقل لجاد بها بلا عوض، لقيامها على قواعد الاتعاب، وقوائم الأوصاب، بدايتها ضعف، ونهايتها عجز ، وما بينهما خروج من أحدهما دخول في الآخر، مافات من لذاتها يولد الأسف على فواته ، وما حضر مشوب بالجزع على ذهابه ، واللهف الدائم على تحصيل مايؤمل منها ، فليس فيها حال تخلو من آلام ، وقد وعدنا دينا حقا أن يعوضنا عنها سعادة أبدية في حياة أبدية لايشوب لذتها ألم ، ولا يمازج صفوها كدر ، وذلك عند ماتسلم له السلعة تامة في نهاية الأجل ، فان لم نقبل بيعة الله في ذلك كنا المغبونين ، وإن لم ندفع له سلعته خالصة كنا الخاسرين ، حياتنا ذاهبة إلى الفناء رغما عنا ، وليس لنا من امكان للخلود فيها ، فانظر إلى رحمة الله في شرائها منا، وأجزال العوض وتعظيمه حتى كأنه يساومنا ملكا لنا، وفي سعتنا أن نستبد به عليه ، ونمنعه مراده منـه ، جلت عظمته ، ووسعت رحمته ، ألا فلنتق الله ولا نبخل عليه بما هو له ، ولا نغر باملائه لنا ومطاولتنا عليه . فشمر عن ساقك ، واحسر عن ذراعك ، واذهب إلى الله بخير الذخائر وهو تأليف عباده على الحق واستجاشة قلوبهم للدين ، وتأليبهم على تلبية داعي الايمان ، والله يتولى ارشادك في جميع الاحوال .

أما حادثة الشيخ فقد مسنا منها مامسه ، ولم يكن ماوجدنا منه أقل ماوجده ولم يغب عنا شيء من أطرافها، وقد جهدنا فيها مااستطعنا ، وربما رأيتم أو سمعتم بما أطالت به جرائد باريز في المدافعة عن الشيخين وتعنيف الحكومة على مافعلت وذلك بمحاورة من تعلمون هناك، ولقد تنازعني في هـذه الحادثة مسرة وحزن أما المسرة فلأن الشيخ قام على طريق الصديقين يتلقى من الاختبار الالهي ماتلقوه

لينال من رضاء الله اذا احتسب ما نالوه ، وأما الحزن فلما عسى أن يكون قد خالط قلبه من ألم المحنة والأسف على المصيبة، والحمد لله على رجعة من غيبة، وأسأله وقايتكم جميعاً من كيد الغادرين ، وعدوان الظالمين ، وأن ينزع بخواطركم اليه ، ويؤلف قلوبكم عليه . وبعد هـذا فنبئني عن العنوان الذي به أكتب اليك ، وأخبر الشيخ أن يكتب لي بعنوانه ، فقد أذنت بأن أبعث اليه ببعض القواعد التي ينبغي أن يرفع البناء عليها ، واذا كتبتم إليَّ فليكن بعنوان ... وعجـل بالاجابة ما استطعت والسلام ١٥ الحجة سنة ١٣٠٢

١٢

وكتب إلى ش.ي صاحب الكتاب (عدد ٢)

لا اله إلا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة

حضرة الاخ العزيز

ورد إليَّ كتابكم والحمد لله على صحتكم ، وكنت أود المبادرة باجابتكم من يوم وروده، لولا أن رقيمكم صادفني على علة في عيني، كانت تمنعني النظر في الكتابة والكتب ، ولله الحمد على ماخف منها . اشتد أسفي على فقد الشيخ الصالح أوسع الله له من رحمته ، ونفعنا بطيب نيته. أسفاً على فقد حيٍّ لدينه، مخلص في يقينه، وإن كان لا أسف على من يلاقي ربه بمثـل مالاقى الشيخ ، انتهت دنياه بغضب الشيطان ، وافتتحت أخراه برضى الرحمن ، ولولا رجاؤنا في مثل ما أقبل عليه الصالحون ، لضاقت بنا منازل الحياة ، وغصصنا باهنأ لذاتها ، وشرقنا باعذب كؤوسها . أما ماذكرت عن الشيخ الصغير فقـد كان كتابك السابق يشير إلى رغبة منك، في تعليق الأمر بك على أنه لو لم يكن فيه مثل ذلك لما اخطأت الظنّ فيما كلفتك ، ولم أستسمن ذاورم ، بل على المليء به سقطت ، وإن ظني بك لفوق ماتروي عن نفسك ، ولكن دع عنك ما استصعبت من الأمر ، وأخبرني عن اسم الشيخ المشهور به ، واسم بلده ، والقطر الذي تغلب إقامته فيه ، واكتب ذلك بالحرف الفرنساوي الواضح ، وأستعين الله في مخابرته بنفسي بأسلة قلم لو لسان رسول ، ولا تبطئوا عليَّ في الافادة، والسلام عليك وعلى اخوانك الابرار، والله يتولى اعانتكم والسلام ٢٢ ربيع الاول سنة ١٣٠٣

١٣

وكتب إلى س . س صاحب الكتاب (رقم ٦)

لا إلـه إلا الله وحده لاشريك له ، وبه الحول والقوة

بسم الله الرحمن الرحيم

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون* وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون)

كتبتم إليّ بأنكم اجتمعتم جملة من الصادقين وأهل الحمية للنظر في تقويم ديننا ، والأخذ بما يرضي إلهنا ، ويقر عين نبينا ، ثم حدثت بعد ذلك الأحداث ، وتلك سنة الله في الأولين والآخرين عند بداية كل عمل صالح مقبول لديه ، محفوف بالعناية منه ، ولم يمنعني حدوث ماحدث عن مخابرة من أنوب عنهم بما كان من اجتماعكم ، ثقة مني بهمتك ، وصدق عزيمتك ، فورد لي الاذن بتسمية مجتمعكم وإرسال بعض القواعد التي يبتدأ بها العمل . واليوم أبعث بها اليكم ، وأملي أن تكون في حرز الصيانة ، وأن تكون مرجع الأعمال ان شاء الله ، فاذا وصل اليكم ذلك فخذوا عهدكم على القسم المذكور ، وانتخبوا رئيسكم وعجلوا الخبر بما انتهيتم اليه، وفصلوا أسماء من معكم وألقابهم ومواضع اقامتهم وسموا لنا رئيسكم. وكتمان السر أول وصيتي اليك وهو نهايتها والسلام على أهل العقد الرابع من عقود العروة الوثقى والله يتولى اعانتكم ــ رسالة الرد على الدهريين أشرفت على نهايتها من الترجمة وستطبع في بيروت ان شاء الله ومتى تمت ارسلنا اليكم منها

١٤

وكتب الى (ش) صاحب الكتاب (عدد ٢)

أيها المؤمن حقا

لا أدري هل أخاطبك بالأخ الصالح أو بالابن البار ، ولكني أعلم انك مؤمن بلادك ، هيأك الله لرشادك ، تلقيت بيميني يمينك ، وضممت إلى يقيني يقينك ، بارك الله في عزيمتك ، وحاطك باليمن في نيتك ، ولقد أتيت في عملك

هذا سنة المؤمنين من قبلك ، سارعت إلى مغفرة من ربك . ممتثلا أمر كتابك المنزل على نبيك ، وسابقت إلى جنة من الله ورضوان .

رويت لي عن صاحبك دون ما أملت فيه ، ولكني أرى رأيك في استبقائه ، والارجاء باليأس منه ، فلعل بارقة من العناية الالهية تنزع به الى ماهو خير له ان شاء الله

(ومنه) والله انا لنتصفح قلوب المؤمنين في هذا الامر تصفح الناشد مواضع الضالة ، لعلنا نصيب من قلب حكمة ، أو نستفيد من عقل بصيرة ، وانا لنتبع في ذلك أثر النبي صلى الله عليه وسلم وأثر أصحابه والآخذين بسنته ألحقنا الله بهم . فما باله يرحمه الله يضن بما يراه ان كان للحق طالباً ، ولكن لا تحزن ان الله معنا (ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون)

ان أخلد مغرور الى حضيض الجبن فانما رضي لنفسه درك العدم ، وانحدر عن أدنى درجات الوجود ، ولم يزد في حاله أن يكون كأشباه جبناء ، يفوقون عدد الحصباء ، عاشوا في أغلفة من الخمول لا يهتدي اليهم الذاكر ، ولا ينصرف نحوهم شكر الشاكر ، هذا بعد أن يكون قد أصاب حظه من المقت الالهي الكامن في قوله (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم) واني لأشح بمثله عن هذه المنزلة هداه الله

ذكرت اسم الشيخ القاضي نحبه فلم تذكر ناسياً ، ولم تنبه لاهياً ، زاد بذلك أسفي ، واشتد على مثله لهفي ، وهمل دمعي ، وغشي على بصري وسمعي ، أمطره الله غيوث الرحمة ، وتوفانا على مثل نيته ، فذلك كان من الصابرين (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وانا اليه راجعون * اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) قم على مذهبك (وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) وذكر بآيات الله ، فلأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم .

١٥

وكتب اليه أيضا هذا الكتاب المطول وهو من أجل كتبه الدينية الاصلاحية ، بل من أبلغ ما قال أو كتب أئمة الدين، وعرفاء الصديقين، من المواعظ والنذر، والآيات والعبر ، التي تنير البصائر، وتطهر السرائر، وتزيل بين المؤمن والكافر ، وتفرق بين البر والفاجر ، فهي ميزان الايمان ، ومسبار العرفان ،

لااله الا الله وحده لاشريك له وبه الحول والقوة

سرني ما نقل الي كتابك أنك استجبت لربك فيما دعا اليه عموم خلقه بقوله(قل سيروا في الارض) وانما يستجيب اليه أهل الرغبة فيه ، ولقدحمدت الله أنك لم تجعل سيرك سير الغافلين ، ولم تمر على ما لاقاك مرور الذاهلين ، بل استعملت بصيرتك ونظرت فيما قام لك من أحوال الناس، لتعلم ماذا أبقت الحوادث فيهم من الاستعداد لقبول الحق، والميل للرجوع اليه ، وما أظنه ذهب عليك أيام كنت تقلب عين اعتبارك في أطوار أولئك المحجوبين ، ان ماهم فيه لا تختلف عن عواقب المكذبين ، الذين يأمرنا الله بالنظر كيف كان عاقبة أمرهم ، وما أحل الله بدارهم من بوار ، وما ألحق بعمرانهم من دمار ، وما ألصق بذكرهم من عار وشنار، وكيف يختلف الخال عن الحال ، وانما التكذيب أثر غين يغشي عين القلب ، فيواري عنها وجه الحقيقة ، فتعمه ظلمة أشبه بظلمة الخسوف تعلو وجه القمر ، فاذا أظلم القلب وهو مستودع السر الذي به كان الانسان إنسانا فقد أظلم الانسان كله ، وذهبت قواه تخبط في أفاعيلها على غير هدي ، وتعسر عليها أن تلزم طريق الحق والصراط المستقيم ، وهذه الحال كما تراها فيمن ينكر الحق بلسانه ، ويكذب الداعي اليه بانكار بيانه . تراها بعينها في هؤلاء المخدوعين الذين يزعمون انهم آمنوا بالله وبرسوله وبكتابه ، ثم هم في أعمالهم وآمالهم أبعد الناس عن سننه وسننه ، وأشدهم التواء على أمره ونهيه ، وقد علمت أن الله لم

ينظر إلى قوم يقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم ، وإن اليهود لم ينفعهم أن آمنوا بموسى وخلفائه من الانبياء ، وبما جاؤا به من الوحي الالهي إيمانا يحاكي مايدعيه المسلمون في هذه الأوقات : كان اليهود يعرفون موسى نبياً لهم ، والتوراة وكتب الأنبياء هدايات من الله اعقولهم ، كما يعرف المسلمون ذلك في كتاب الله تعالى ، ولكن الله نعى الينا أحوالهم في مزاعمهم فقال (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لايهدي القوم الظالمين) فقد جعل تأويلهم التوراة وصرفهم لألفاظها إلى غير ما أراد الله بها وحيدانهم عن العمل بما دعت اليه تكذيباً بآيات الله ، وجعل نقضهم لما حملوا من أحكامها مروقا منها حيث قال (لم يحملوها) وجعل تصديقهم بها على هذا الوجه بمنزلة احتمال حمار لأسفار ، فهو في عناء من ثقلها ، على بعد من فائدة ما أودع فيها . أفليس هذا النبأ بعينه يحدث عن احوال المنتحلين اسم الاسلام في هذه الايام ، وأنهم حملوا القرآن ثم لم يحملوه ، إلى آخر الآية ؟ ألم يكن في غالب أهل هذا العنوان وجمودهم عن حدود الله ما يستحقون به تسجيل الضلالة عليهم كما سجلت على اليهود في قوله « والله لايهدي القوم الظالمين » ؟ وأشدّ الظلم ظلم النفس ، بعدولها عن سنن الحق . ألا يصدق عليهم أنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون ؟ الاينعى حالهم (بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) ؟ ألا يحكي جهلهم (ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانيّ وإن هم إلا يظنون) ؟ أي أنهم لايعلمون منه الا أن يتلوه تلاوة بغير فهم ، فان طلبوا شيئاً من المعنى لم يكونوا فيه على بصيرة إن يظنون الا ظناً

اني أستلفتك الى أولئك الذين يتناولون مصاحف القرآن الكريم بأيديهم خصوصا في شهر رمضان ، ثم يطفقون يلوكونه بألسنتهم ، ويزعمون أنهم يتقربون الى الله بترنمهم ، ويصعدون إلى منازل القرب عنده بنغماتهم ورنين أصواتهم ، ويجعلون كل همهم في هز رءوسهم ، والتوفيق بين الهزات ، وتموج النغمات وماشاكل ذلك من لواحق الصور والهيئات ، مما قد يعجب له عرفاء الدين ، ويستغرب حدوثه في المسلمين أهل اليقين لبعد النسبة بينه وبين دينهم ، والمنافرة الثابتة بينه وبين مقتضى

ايمانهم، حتى اذا انصرف أولئك القارئون، والتمسوا من قلوبهم عبرة مما قرأوا، أو عظة مما سمعوا، لم يجدوا من ذلك قليلا ولا كثيرا، بل رجع كل منهم الى هواه، وأوى الى قعيدة نواه، وما كان قد انصرف عن وساوسه، ولا انقطع عما استحكم سلطانه في نفسه من شياطين أهوائه، الا في ظاهر مايرى الناظر. واذا سئل أحدهم عن شيء من معنى ماقرأه التجأ الى الجهل، أو خبط في مضلة من الوهم، واذا قيس عمله الى أحكام مايقرأه، وجدت تباينا كما بين الاسلام والكفر، فبالله الاما اجبتني هل تجد فرقا بينهم وبين اليهود فيما قص الله عنهم في قوله (ومنهم أميون) الخ ؟ الا تجد الوصول الى الفرق نزر الوسائل، متعذر الذرائع ؟ ولو سردت من أحوال اليهود والنصارى والمشركين التي قص الله علينا تحذيراً لنا من التدنس بمثلها ووضعتها مع أحوال المسلمين في كفتي ميزان الا ترجح أحوال المسلمين سوءاً على أحوال أولئك الضالين ؟

أصبح المسلم في هذه الأيام حجة للكافر على كفره، وفتنة له يضل بها عما أقام الحق من أعلامه، فاذا قيل ان الاسلام خير الأديان بل هو دين الله الذي أخذ به الأمم السابقة فضلوا فضربهم بأنواع من عذابه في الدنيا، واستبقى لهم مالا نهاية له من الشقاء في الآخرة، ظهر فيهم بصور مختلفة، ثم جاء في أكمل صورة ببعثة خاتم الأنبياء، مستتما لنوره، مكملا لأمره، لتقوم به الحجة، وتتضح به المحجة، وأصحب هذا القول بألف دليل كلها أوضح من الشمس، وأنفى للشك من ضوء البدر لظلام الليل - رأيت علة واحدة تهدم كل مابنى من الأدلة وهي: لو كان الاسلام دينا صحيحا ماوجدنا أهله المستمسكين به (في زعمهم) على مانرى من فساد الاخلاق وسقوط الهمم وضلال العقول. هكذا أيها الحبيب أصبحنا فتنة للذين كفروا والله ينبهنا على ماصرنا اليه بتعليمه ايانا كيف ندعوه اذ يقول (ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا) وما كان تعليمه الدعاء الا لنتوسل بالعمل الى ما نطلب منه، ثم ندعوه المعونة على مانقصد من موافقة رضاه. فلو فقه المسلم لابتعد جهده عما يجعله فتنة للكافر، وجعل ورده ليله ونهاره (ربنا لاتجعلنا فتنة للذين

كفروا) ولكن همه في أن يكون بكماله قذى في عين أعدائه ، لا أن يكون حقيراً في أعينهم ، ضحكة لهم في محافلهم .

ولقد حدث في هذه الأيام الأخيرة أن قسيسا انكليزيا[1] هداه البحث الى شيء من محاسن دين الاسلام فأخذ يبث ماعلم في الجرائد الانكليزية وفي المحافل الدينية في انكلترا ، الا انه يصعب عليه أن يعلن اسلامه ، ويصرح بحقيقة إيمانه لأنه يخاف ان تطول اليه أيدي الاعتداء من قومه وهو يدعو الى الاسلام تحت حجاب انه لايخالف المسيحية الحقيقية بل هو متمم لها ، وله فيما يدعو اليه شيعة تنمو في لندرا ، وبيننا وبينه مخاطبات لتشجيعه وتقريبه من حقيقة الايمان ، ولا نعلم اليوم ماذا يكون من نهاية أمره ، وله معارضون كثيرون من الانكليز وغيرهم ، واذا تقصيت البحث في جميع حججهم لاتجد في مقدماتها الا مايكون راجعاً الى ماعليه المسلمون الآن من الاخلاق والعوائد والافكار ، وكلما جاء الرجل لهم بشيء من أحكام كتاب الله أو بأثر من آثار المسلمين الاولين ، رأيت أولئك الجاحدين يقابلونه بأحكام يعدها المسلمون من حدود دينهم ، ويعولون عليها في أعمالهم ، وهي مقصية لهم عن الكمال ، ساقطة بهم عن أدنى مراتب الرجال ، فكلما ردهم الى الله ورسوله ردوه الى أحوال المنتسبين الى هذا الدين القويم ، وهم عاره ، وبهم يهدم مناره ، وتخفى آثاره ، لو بقي في أيديهم أمره ، غير اني أرى الله سيحول أمر دينه عن هؤلاء الذين لبسوا على أنفسهم ، وانقلبوا فتنة لغيرهم ، ثم ينتقم منهم بأيدي الظالمين والصالحين (فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين – وان تتولوا يستبدل قوماغيركم * ثم لايكونوا أمثالكم) فهنيئا لمن أعد نفسه ، وسبق تعسه ، فشحذ همته ، وطهر نيته وقوَّم ارادته واستجمع عزيمته ، للقاء ركب الله الذي سيفد عليه ، فيكون اما راجلا في مشاته ، أو فارساً من كماته ، أو خادما في حاجاته ، أو سيدا في رياساته ، ولا يكون شيئاً من ذلك حتى يكون الله ورسوله أحب اليه من نفسه ، وحتى يكون كتاب الله أصدق الشاهدين له لا عليه ، وحاشا كتاب الله أن يشهد الا لمن لبى دعوته ، وقبل شهادته ، ونصبه اماما في محراب الوجود يتبعه بصره ، ويحذوه في سيره ، يقوم اذا قام ويقعد اذا قعد يعظم ماعظم ويحقر ماحقر ويطلق

(١) هو اسحق طيلر الذي سيأتي في هذا الفصل بعض مكتوبات الاستاذ له

ماأطلق ويقيد ماقيد ، ثم أقام له من زواجره خطيباً على قلبه ، وواعظاً يصدع بأمر ربه،على منبر لبه ،يعلمهاذا جهل ،ويوقظه اذا غفل ،ويذكرهاذاذهل ،ويحثه اذاكسل،ويسرع بهاذا أبطأ ،وينهضهاذ تلكأ ،ويستلفتهالى الصواب اذا أخطأ ، يهديه اذاتحير ،ولا يعدو به الخير اذا تخير ،يرد جماحهاذا جمح ،ويكف من غربه اذاطمح،حتى يقيمه على الصراط السوي ويصعد بهالى المقام العلي، وكيف يستعمر القرآن قلبا تشغله الاهواء الباطلة؟ وتستوكره الرغائب الزائلة . ان القرآن طاهر لايجاور الاطاهرا ،وقويم يأبي أن يساكن جائرا ،زكي لايأنس للأرجاس علي يأنف من مقاربة الادناس .فلا عجب اذا استوبل المقام في هذه القلوب المحتشية بالعيوب وتركها وشياطين الوساوس تخبط بها في مخازي الدنيا ومهالك الآخرة .

ياعجبا لمن يدعي الاسلام وهو يعرف من نفسه ان أمراً لوجاءه من أصغر الحكام عليه بلغة غير لغته لما قرت له راحة ، ولا اطمأنت به نفس ، حتى يقف على ترجمته ولا يكتفي بمترجم واحد حتى تكون ثقته به كثقته بنفسه والا راجع ثانيا وثالثا طلباً لدقائق المعاني لايفوته شيء مما حواه امر آمره فيقع في مخالفته الى غير هواه وكلما عظم مكان الآمر اشتد الحرص على استجلاء مراده ، خشية الوقوع في حداده ،أو مايبعث الظن الى التحرش بعناده ،وقد يكون الامر ممايضره ولاينفعه، ويخفضه ولايرفعه، كل ذلك للبعد عن مساخطه والارتياح الى مراضيه — هذا وهو يزعم الاعتقاد بان القابض على ناصية أمره هو الله سبحانه وتعالى وهو المقلب لقلبه والآخذ بعنان إرداته . ثم هذا أمر سام ورد له من علي متعال ،رب الارباب ومخضع الرقاب،قهار السموات والارض ، الذي لاترد مشيئته ، ولاتخالف إرادته،

الكتاب المجيد يتجلى به في منازل الرحمة،ويستفيض من ديم النعمة،ويقيم به على السعادة أعلاما ، ويضع لاجتناء ثمر الكرامة أحكاما ، ويعد المستجيبين لأمره هذا — وهو القادر على كل شيء — أن يمكن لهم في الأرض ، ويخدمهم أهلها ، ويجعلهم الأعلين فيها ، وأن تكون عزتهم مقرونة بعزة الله ورسوله ، وأن لايبيد سلطانهم ، ماثبت إيمانهم ، ولم يَشُبْه كفرانهم ، كماقال (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ،

وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)

وليس في المواعيد السماوية أصرح مما وعد الله في كتابه المبين ، ولا أقطع للشبهة منـه . ثم زادهم على ذلك نعيما أبديا ، وأوعدهم في المخالفة خزيا دنيويا ، وشـقاء سرمديا ، والذين يكفرون ، وسجل عليهم أنهم الفاسقون ، هم الذين تبطرهم النعم فتستنزلهم عن مقامات الشكر . ثم تنتابهم الغفلة فيعدلون عن سبيل الذكر الحكيم ، ومن فسق عن أمره ، أحلّ به غضبه ، وأنفذ فيه عامل انتقامه ، وسلبه ملابس إنعامه ، اما بشقي مثله ، أو وليّ من أهله . ثم ضاعف له العذاب يوم القيامة ، وأخلده فيها مهانا ، إلا أن يتوب فيغفر له ما قد سلف . ويعلم المخدوع أن صاحب هذا الأمر العليّ مطلع على السرائر ، بادية لعلمه صفحات الضمائر . ومع هذا وذاك لا يتفهم أحكامه ، ولا يتبع اعلامه ، وينبذه وراء ظهره ، كأن لا علم له بنهيه وأمره ، ويمني نفسه أن ينال ما ادّخر الله لأوليائه إذ قصرت همته عن نيل سـعادة الدنيا ليتنعم به في الآخرة ، شـهوة تحول دونها أعماله ، وأحلاماً تنافي صدقها أحواله . وما أعجب حال من يزعم الايمان بالله ولا تفني أهواؤه في إرادته ، ولا تضمحل نشزات طبعه لمهابته ، ولا تتضاءل عزائم نفسه لعظمته ، ولا يجعل القسم الأعظم من حياته للسعي في مرضاته ، ولا يبذل من نفسه وماله ما لا يخسره في مآله

حدثتني عن اليائسين من علية (ق) [١] — وأشباههم فهؤلاء لم ييأسوا من الله ، حتى ساء به ظنهم ، وما ساء ظنهم حتى انتقض ايمانهم ، فحالهم حال القائلين (ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) ورويت لي عن أهـل النفرة سكنة (س) [١] فهؤلاء بقيت فيهم بقية لا بدّ أن يؤيدوها بالعمل ، ولا مكمل لما بقي فيهم الا رجوعهم الى الله ورسوله ، ولن يرجعوا اليه حتى يكون مزاج وحدتهم وحبل اعتصامهم كتاب الله ، يهزون به هممهم ، ويلمون به شعثهم ، ويشهدون الله أنهـم نصروه في الأحوال والأعمال ، فينصرهم في مواطن الجلاد ومواقع الجدال

(١) اقتطعت القاف والسين من اسم بلدين من قطر المخاطب . (جامع الكتاب)

إن كنت وثقت بشيخ الاسلام الذي ذكرته فخذ العهد عليه ، وسق اليه بعض كتابي هذا أو بكله إن رأيت ذلك ملائما لحاله ، والا فزدني فيه بصيرة فاكتب اليه بما يلهمه الله

وافني بكتبك بما أمكن من السرعة ، ولا تبطئ عليَّ بعد الآن والسلام

(يقول جامع الكتاب) أجدر بهذا الكتاب أن يسمى ميزان الايمان . وتجعل نصائحه عنوان الاسلام وان يكون تدبره المرقاة إلى مقام الاحسان والله المستعان

١٦

وكتب اليه أيضاً

لا إله الا الله وحده لاشريك له وبه الحول والقوّة

أيها الأخ الصادق أيده الله

طال عهدنا بك ، لم نر منك كتابا ، ولم نتلقَّ عن لسان اخلاصك خطابا ، وإبطاؤك عنا ، مما يقلق الخواطر منا ، لاخوفا على ايمانك ، ولا ريبة في درجة إحسانك (نعوذ بالله) ولكن خشية أن يكون عرض لك من العوارض الجسدانية، أو خالطك في الأحوال المعاشية ، ماقبض من يدك ، أو فت في عضدك (حماك الله) فرجاؤنا أن لاتفوت فرصة تمكنك من سوق خطابك الينا حتى تنتهزها ، فان لسكون القلب بالاطمئنان على سلامتك قيمة علية في نفوسنا ، فقد لايخفاك أنكم في مكان مخافة ، ومحل مضيعة ، تضطرب عليكم منه القلوب ، وتذهب وراءكم فيه النفوس ، وأن صادقا مثلك لجدير أن يحرص عليه ، وأن تعنى الأرواح بالتطواف حواليه

كان لكتابك المفصل وقع جميل ، ولك على القيام بتحرير مثله الشكر الجزيل ، فليكن العمل على ذلك المذهب ، حتى يصفو المشرب ، ويتضح المطلب، ان شاء الله . أما وصيتي اليك فأقتصر منها اليوم على ما اوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً رضي الله عنه ، اذ قال له « أوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجوار، ورحمة

اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل، وقصر الأمل (في الدنيا) وقصد العمل، ولزوم الايمان، والتفقه في القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح. وإياك إن تسب حليما، أو تكذب صادقا، أو تطيع آثما، أو تعصي إماما عادلا، أو تفسد أرضا. أوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر. وأن تحدث لكل ذنب توبة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية » اه

هذا جماع من مكارم الأخلاق يعم مانحن فيه وما وراءه، والخير في جمعه. فالدين بناء وهذه اعراقه، ولا يتم أعلاه حتى يتم أدناه. ثم لاتنس قول عائشة الصديقة رضي الله عنها: كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن. فقد أبقى الله سبحانه في نبيه صلى الله عليه وسلم مظاهر من صفات البشرية تبدو لها آثار، تلحظها البصائر والأبصار. ثم حددها في كتابه، وهذبها في محكم خطابه، تعليما لأمته، وإرشاداً لتبعة ملته. فكان في ذلك أعظم فخره صلى الله عليه وسلم حيث قال « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ولا بركة لنا في شيء من أعمالنا الا باتباع سنته، والسير على المأثور من سيرته، والتحقق بأخلاقه، والتماس خلاقه، واقتفاء أعلاقه. هذا صلاحنا، وهو سلاحنا (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وعلى هذا فليكن دأبك حتى يظهر الله أمره، ويعلن سره. وإياك والملل فالخطب جلل، وقضاء الله أجل. ومع هذا كتاب من الأمير أوصله الى صاحبه حسب رأيك. والسلام عليك وعلى كل صادق الايمان ثابت الجنان ٦ صفر سنة ١٣٠٥

١٧

وكتب الى أحد شيوخ التصوف المرشدين م. ت

بسم الله الرحمن الرحيم

(ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم)

الحمد لله وبه الهداية في البداية، وهو الغاية في النهاية، والصلاة والسلام

على سر العناية ، وحقيقة كنه الولاية ، وآله حماة الدين، وأصحابه الهداة الراشدين

أما بعد فان من نعم الله عليَّ ، ولطف احسانه اليَّ ، ما أودعه في فطرتي ، من الميل الى الخيرة من أهل ملتي ، فلا أزال لهم طالباً ، وفي الصلة بهم راغباً ، خصوصاً من تجمعني بهم وحدة التربة ، وتضمني اليهم جامعة النسبة ، وقد بلغت الي شهرة عرفانكم ، وما رفع الله في مقامات القرب من مكانكم ، فألهمت أن أفتتح اليكم باب التعارف ، وشنشنة المؤمنين التراحم والتعاطف . قال صلى الله عليه وسلم « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » وأما الاخوة التي عقدها الله بين المؤمنين ، وان أهملت عند كثير من الغافلين ، الا أنها لم تزل والحمد لله تلحظها بصائر العارفين ، وتصبو للاعتصاب بها قلوب الصادقين . فانما الاخوة مظهر سر المحبة ، والمحبة تجلي سر الجذب الالهي الذي يجمع الله به أرواح الصديقين الى حضرته القدسية — هذا الى ماناط الله بها من قوة التعاون . قال صلى الله عليه وسلم « من أراد الله به خيراً رزقه خليلا صالحا ، ان نسي ذكره ، وان ذكر أعانه » وكما يكون التعاون والأماكن دانية ، يكون والأقطار نائية ، وخير المعونة ماعاد على الأرواح بتزكية وصلاح ، ولا أعود على الروح من علم تستفيده أو نصح تستجيده . أو صلة بين متحابين تأنس اليها ووحدة بين متواصلين تعوّل عليها . وأرجو أن يجعل الله في مكاتبتنا بركة ذلك كله ان شاء الله. فسركم ظاهر ، وضياؤكم باهر ، وميلي اليكم غير معلول ، واهتمامكم بالاجابة مأمول . واذا كتبتم الينا فليكن عنوان ظرف الكتاب . . . . والله ينفعنا بالتواد ، ويبلغنا به غايات المراد ، والسلام عليك وعلى من يرتبط بعهدك ورحمة الله

١٨

(وكتب الى أحد العلماء جوابا عن كتاب له يقول فيه أنه فهم من قسم الجمعية (١) أنها تدعو الى مذهب الظاهرية)

لا إله الا الله وحده لاشريك له وبيده الحول والقوة

ثم وصلني كتابكم وكتاب أخي الفاضل (م . ش . ف) وقد آسفني والله يعلم مابلغ الأسف مني خبر وفاة سيدي الشيخ والدكم إلا أن ذلك مصير لابدّ من الانتهاء اليه ، وإن عظم الاسف عليه ، وفيما عندالله سلوة الابرار . أما ماذكرت في كتابك من اسم الظاهرية ، فلم يكن ليخطر على بالي توجه فكركم اليه ، فان المذكور في القسم تحكيم كتاب الله في الاخلاق والاعمال بلا تأويل ولا تعليل (٢) ومن الظاهر البين أن المراد من الاعمال عزائمها من الجهاد في الله حق جهاده ، وبيع النفس في مرضاته ، والسعي لاعزاز دينه ، والقيام بحفظ أوامره ونواهيه ، التي يكفر جاحدها ، ويفسق الحائد عنها ، ويشهد بذلك اقتران الاعمال بالاخلاق ، فكيف ذهب خاطر سيدي إلى العقائد أو أعمال الفروع ، وليعلم سيدي اننا سنيون أشعريون أو ماتريديون (٣) واننا في أعمال العبادات دائرون بين المذاهب الأربعة ، فمنا المالكي ، والشافعي ، والحنبلي ، والحنفي . وفي المعاملات على مذهب حاكم البلاد إن وافق واحداً منها ، فان كان على غيرها توقينا المرافعة اليه ما أمكننا ، وانما ذلك القيد ليخرج الداخل معنا من حكم قوله تعالى (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) وليمتاز المؤمنون بالكتاب عن الذين يزعمون الايمان به ، ولا يأخذون بشيء من أحكامه ، إلا صوراً من الاعمال لاينظر الله اليها ، وأولئك

---

(١) يعني جمعية العروة الوثقى (٢) العبارة المرادة من القسم هنا هي « اقسم بالله العالم بالكلي والجزئي والجلي والخفي ، القائم على كل نفس بما كسبت ، الآخذ لكل جارحة بما اجترحت ، لا حكمن كتاب الله في اعمالي واخلاقي بلا تأويل ولا تعليل الخ (٣) كان اكثر أعضاء الجمعية من المالكية والشافعية وهم من الاشعرية ومن الحنفية وهم ماتريدية ، والاستاذ نفسه كان اشعريا صوفيا ، ثم صار بالتدريج سلفيا

قوم عرفناهم وعرفتموهم: يهونون على أنفسهم ضيم الدين لا يحزنون لذله، ولا يعملون لحمايته ، ويتعللون باليأس ، يفرون من الله فيما ألزمهم عمله ، ويسألون المعونة على مانهاهم عنه ، ويركنون في ذلك إلى التأويل والتفسير ، ولو أن شيئاً من المكروه أصابهم لرأيتهم يطيلون الأحزان ، ويحشدون الاشجان ، ولو عنّ لهم حطام من الدنيا رأيتهم يشدون المآزر ، ويشمرون عن السواعد ، كأنهم للدنيا خلقوا وكأنهم فيها يخلدون

لعلّ في بياني هذا كفاية ، ولو وسع الوقت أطول منه لأتيت بما تملك تلاوته، وأما ماذكرته في أمر المواد من أنها لاتوافق بلادكم فلم أعرف له سبباً ، فانها مواد عمومية جرّب العمل بها في أقطار مختلفة والحمد لله صادفت نجاحا . فان كان ذلك كما ذكرتم فابعثوا بها إليّ في أول بوسطة ، وأقسم عليك بالله الآخذ بناصيتي وناصيتكم الا تنقلوا لها صورة ، ولا تنسخوا من موادها مادة ، لأردّها من حيث جاءت، ثم ابعثوا إليّ بما تجدونه موافقاً لكم لنطلع عليه ، فان رأيناه موافقاً سألنا السكم اقراره. والسلام عليكم وعلى من يتصل بكم

١٩

(وكتب الى بعض اعضاء الجمعية في بعض الاقطار الاسلامية)

بسم الله الرحمن الرحيم

(ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) ذلك الذي وفد اليكم من القسم الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم المنافق العليم اللسان ،وهو جاسوس للحكومة القائمة في دياركم فاحذروه ، ولكن ليكن حذركم حذر الحكماء لايتبين منه علمكم بحاله ، وتحفظوا منه كل التحفظ وإياكم ومكاشفته بشيء مما أنتم عليه ، فلقد وجدته يدنو من السيد أيام إقامته بباريس ويسعه من السيد لين جانبه ، وحاجته الى ترجمان في بعض شؤونه، فلما كثر اجتماعي به تبينت فساده ، فأقصيته من السيد ، وباعدته عنه ، وبعد أن كان يترجم لنا بعض الأخبار في بداية اشتغالنا بنشر آراء العروة طردته استعاذة

من خبث سريرته فتعوذوا منه تعوذكم من الشيطان حتى يفرق الله بينكم وبينه

أما قولكم في كتابكم اني كاتبت الشيخ بتوبيخ فقد راجعت له نسخة الكتاب التي كتبت من صفحة كتابي فلم أجدني الا عزيت الشيخ أولا ، ثم كشفت له عن وجه الشبهة فيما استفهم عنه ثم قلت — واني اصادق — انه ماكان يخطر ببالي توجه فكره الى الرأي الذي يسأل عنه ، وما قصدت بذلك والله توبيخاً ولالوماً ولكن نبهت على ماأعلم وليس وراء ذلك غاية ، وفي الحق أني لو كنت اعلم أن العبارة توهم مااستفهم عنه ، لكنت وضحت المراد في كتابي الاسبق ولم أحوجه الى الاستفهام،هذا ماأردت ، ولعلّ تطويلي في بيان المراد أوهم شيئاً مما قلتم ولست منه في شيء . نعم انني طلبت منكم نسخة المبادي ان لم تريدوا اعتمادها وهذا مايوجبه عليّ عهدي الذي أنا فيه

وأما عدم ثقة الشيخ بهمة من ذكرتم فما له الحق فيه ، وهكذا أمر هذه الامة في جميع أقطارها ، ولهذا احتجنا الى معاناة الاضمار،ومقاساة الاسرار،والاستخفاء بما أمر الله أن يعلن ويظهر ، غير أن القليل ممن يكون على الشرط كثير ، وقد صرحت تلك المبادي، بان الرشد والنصيحة العامة من الواجبات على القائمين بأمر الحق ،لتستعد النفوس ، وتتهيأ العقول . وليس في هذا حرج على المتعاطي، ولكن أهل العقد وهم بمنزلة القوة العاقلة في البدن لا بدّ أن يكونوا على الشروط المعروفة عند أصحاب الرابطة .فسلموا على الشيخ سلاماً طيباً، وأكدوا له انني لم أقصد في بياني السابق شيئاً مما أوهمته العبارة ، وأنني أعيذ نفسي من توجيه اللائمة على من دون منزلة الشيخ من أهل الايمان الصحيح ، وأعود الى تحذيركم من الجاسوس الجديد ،فلا يتسقطكم بظاهره الى علم شيء من سرائركم والله يتولى رعايتكم والسلام

٢٠
(وكتب الى (ش) وهو من أجل كتبه وأحاسن مواعظه)

لا إله الا الله وحده وبه الحول والقوة

تلقيت رقيمك على قلق من تباطىء أخبارك ، فقر خاطري بالاطمئنان على صحتك ، تأكد الثقة من خلوص ارادتك، وما كنت لأرتاب في عهدك بعدما أعطيت ميثاقي بيمينك وأنت مؤمن قد جعلت الله عليك وكيلا . لو عرض لي الشك في وفائك لكان غمزاً مني على ايمانك ، وأعوذ بالله أن أغمز على مؤمن وهو مخلص في ايمانه . أما حنوي عليك ، واحفائي السؤال عنك ، فهو مما توجبه علي صلتي بك والارتباط بميثاقك، بل ذلك أيسر الحقوق عندنا، وأوجبها في ذمتنا، وما أنا بالمتفضل في أدائه ، وما انا بمنجاة من اللوم ان قصرت في ايفائه ، ستعلم الحقيقة من هذا اذا سنَّي الله لعصابته أن تظهر ، وأذن لها أن تسفر

بعد هذا هل أنت على ما أوصيتك سابقاً من مداومة النظر في كتاب الله ووعده ووعيده وقصصه وعبره ؟ هل ذهبت بنفسك الى ماقبل ألف وثلاثمئة سنة ووقفت بين يدي سيد النبيين ، وهو يتلو كتاب الله على خلص المؤمنين . فسمعت كما سمعوا . وفهمت على مثال مافهموا ، وزججت بروحك في مجامع تلك الارواح الطاهرة التي آزرته وآوته ونصرته ؟ هل خرقت حجاب المحدثات ومزقت ستائر البدع ، وخالطت أهل النور ، وصافحت قوماً صدقوا ماعاهدوا الله عليه؟ إن لم تكن فعلت فاليك أن تفعل والوسائل متوافرة لديك ـ عقل وحسن يقين، وكتاب الله فيه تبيان كل شيء ، وفيه سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم والذين معه (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم * انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون)

لا يميل بك عن طريق الحق قلة السالكين فيه ، فوالله اني لأرى المؤمن في جيش من يقينه ، وحصن من ثقته بربه ، يثبت بهما في المزالق ، ويدرأ بمنعتهما غائلات المهالك ، وانه لفرح به اذا حزن الناس ، ومبتهج فيه اذا اشتد البأس ، واستحكم

اليأس ، واني لأرى المنافق في مزعجات من وساوسه ، وموحشات من خدائسه

كريشة في مهب الريح ساقطة   لا يستقر لها حال من القلق

وانه لسريع الهزيمة، قليل الغنيمة ، وما كنت لآتي في وصفه شيئا بعد ماقص الله عنه في كتابه ،وكتاب الله حي لا يموت،شاهد على الأحياء كشهد على الاموات، وما كان المنافقون زمن نزول القرآن ليختلفوا في الحقائق والصفات ، عن أشباههم من أهل هذه الاوقات ، فتوخ من نفسك ماأثنى الله عليه ، وتنح بها عما وجه اللائمة اليه، واياك والاعاليل ،وفاسد التأويل ،فانها حبائل الشيطان ، ومذهبة الايمان . نعوذ بالله

كنت سألتني عن العمل في العقد المالي ، فأشرت اليك ان تبعث به الينا في بيروت ، ثم لم يكن له ذكر في كتبك من بعد ، واني أعيذك من الضن بيسير مثله في سبيل ربك ، ترجو ثوابه ، وتكتفي حسابه ، وأبعدك عن مرامي النداء الالهي في خطاب قوم (ها أنتم أولاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله ، فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغني وأنتم الفقراء ، وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم) ولكني ألتمس لك من نفسي أعذاراً تخيلها الثقة ، وتمثلها المحبة ، فلو علمت الحق فيما أبطأ بك، أفهمت القوم عذرك

أما ذلك الشيخ فان نكث فانما ينكث على نفسه ، غرته الحياة الدنيا ، وغره بالله الغرور ، فقطع ما أمر الله به أن يوصل ، ووادّ من حادّ الله ورسوله ، وباع نفساً شريفة بثمن بخس ، وأضاع سعادة أبدية بمتاع قليل (ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ، الشيطان سوّل لهم وأملى لهم * ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله سنطيعكم في بعض الامر ، والله يعلم إسرارهم * فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) بشره بأن سيؤخذ من مأمنه ، ويزلزل من مسكنه ، ومن أعان ظالما سلط عليه ، ومن يخذله الله فلا ناصر له ، ولئن أمهل أياما فوالله ما أهمل ، ولقد كان خيراً له لو ابتعد ولم

يعد ، وباعد قبل أن يعاهد ، ولكنه أقبل ثم ولى ، وأمسك ثم خلى ، فلصق به عار النادرين ، وحقت عليه جريمة الناكثين (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) وما ضره لو سالم القوم بظاهره ، وبقي مع الله بباطنه ، فأخذ حظا من دنياه ، وحظا من آخرته ؟ هل ظن أنهم أشد سلطانا عليه من قهار السموات والأرض ؟ أم أنهم أنفذ إلى باطنه علما من عالم الغيب والشهادة ، فأعطى للقوم قلبه ، وجعل لله سلبه

لحت من آخر كتابك بروق الأمل من جمعية أهلك هيأ الله لهم الخير فيما ولوا وجوههم شطره

ان لنا صلة تامة بآل البيت الذي أشرت اليه . وأحكم الصلة بيننا وبين أرشدهم رأيا . وأسماهم همة . وأقومهم هديا صاحب عهد أبيه ... وهو الذي تفرد بينهم بالثبات على عهود دينه بعد انتقال أبيه الى الدار الآخرة . وأبى الخضوع لشريعة المتغلبين عليه . الزاعمين القيام بحمايته . وقد قامت بينه وبينهم مخاصمات شديدة كانت نهايتها قطع العلاقة بهم . ووصل الحبل بينه وبين الدولة العثمانية أيدها الله . فأحنت الدولة عليه . وانعطفت اليه . وعدته في مقدمة الرجال الصادقين . ولم ينضم اليه إلا اثنان من اخوته . والتصق الباقون باعداء دينهم . رغبة في حطام يسوقونه اليهم من فضلات مالهم . فليس في أحدهم أمل . ولا يليق أن يناط بواحد منهم عمل . إلا ذلك الشهم الذي نظر ماأعده الله في غيبه فلم يبع يقينه بريبه . وقد كان له فكر يسمو إلى ما أشرت اليه . وهو على مرقب الحوادث يرصد الفرص للعمل فيها بما يرشد اليه الدين . وتبعث عليه الحمية له

وأما صلته مع مشايخ الطرق والزوايا فكانت قاصرة على آل بيت السنوسي ولم يتوجه خاطره إلى ابن التيجاني . وقد شكرنا لك التنبيه عليه . وتوجيه الفكر اليه الخ

٢١

(وكتب عن السيد المشار اليه في آخر الكتاب السابق الى الشيخ (م. ت) يجذبه إلى الاصلاح الديني المؤسس على تحكيم الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح في الاعمال والاخلاق ـ الكتاب التالي) ثم كتب اليه باسم الكتاب رقم ٢١٧ الذي تقدم في ص)

مولانا مهبط أنوار العرفان . وحجة الله على أهل الزمان . السيد الشيخ .... حماه الله . وأيد به أهل تقواه

أحمد الله على ما ألهمني في مخاطبتكم . ووفقني للمبادرة الى مكاتبتكم . وهي أحق نعمة بحمد . وأولاها بتقديم شكر . فلم يبق في الزمان لأهل هذا الدين إلا عمل يتزوّدونه . أو عرفان بالله بالمعاونه يستزيدونه . وقد كنت بعثت إلى مقامكم الطاهر بكتاب قبل هـذا رجوت أن يكون وصول جوابه إليّ على إثر اطلاع سيادتكم عليه . لعلمي أن الاخلاص كان يرجى من سطوره . وسرّ المحبة يجلل أحرفه بنوره . وما بعث على خطبـة مودتكم إلا طلب الفوائد من ارشادكم . والرغبة في الاستعانة بمعارفكم، لتعود علينا بركة (وتعاونوا على البر والتقوى) ويحفنا لطف (واعتصموا بحبل الله جميعاً) فيزداد لله شكرنا على الألفة، ويزداد احسانه الينا في نعمة المحبة .

وما كنت لأذكر السيد الجليل بان هذه حال المؤمنين الموصوفة على لسان سيد المرسلين يعلم عالمهم جاهلهم ويذكر عارفهم غافلهم ولا حدّ ينتهي اليه العلم، ولا موقف يقف دونه الرشاد، فعباد الله في كل لحظة يتوسلون الى مرضاته بعلم يستفيدونه، أو عرفان الى القلوب المفتقرة يسوقونه، أو عمل من أعمال الخير يسترشدونه . وقوام كل ذلك المعاونة ، وحياته روح المعاضدة والمساعدة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .

وليس بخاف على السيد الكريم أننا في بلاد أقفرت من العلماء، وأمحلت من

الصلحاء ، فنحن على بعد الدار . وتنائي المزار . نتوجه اليكم بالخطاب لعلنا نشفي بموافاة الحق صدراً . ونزكي بمجاذبة أحاديث العرفان سراً . واني أعلم أن سيادتكم أجلّ من أن تأبى إجابة طالب رشاد . أو تقصر عن امداد لمبتغي سداد . فشأنكم عندنا بما سمعنا أرفع من أن يتوهم فيه مثل ذلك . لهذا عوّلت في سبب تأخير الاجابة على عدم وصول كتابي الى جنابكم . وان شاء الله أنال بهذه الاسطر ماطلبت . وأحقق ماأملت . والسلام .

٢٢

وكتب إلى أحد أمراء المسلمين في بعض الأقطار ، عند تأسيس جمعية العروة الوثقى

لوندرا في ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٤ — ٢٨ رمضان سنة ١٣٠١

سيدي الامير الخطير سعادتلو أفندم حضرتلري

السلام على نفسك الزاكية ، وهمتك العالية ، وأفكارك السامية ، انني عهدت فيك مالا أتوسمه في سواك ، لهذا وجهت اليك روحي في هذه الأسطر تندب همتك ، لما هو من أحكام ذمتك ، لا أنبئك بما فرض الدين ففي علمك به أصدق الأنباء ، ولا أنبهك لما غفلت عنه عين سواك فاني أجلّ نظرك عن الاغفاء ، ولا أعرفك بما أوجب الوطن في صراحة نسبك ، وعلو حسبك ، مايلهمك الاحاطة بحقوقه ، ولا أذكرك بما نسي غيرك ففي شهامتك أنفع الذكرى

ساق اليقين جماعة من المسلمين إلى السعي في خير هذه الملة المغلوبة ، واعتصموا بالله ، وليس على الله بعزيز أن ينجح سعيهم ، يسعون في إرجاع الوحدة الملية ، وتنبيه الحاسة الدينية ، ليمكن للملة أن تتقي الضيم وتخلص من الذل ، ولهم في هذا السعي طرق عديدة منها ماندبونا اليه وقد علمت خبره ولله الحمد على ظهور ثمرته في أقطار كثيرة ، أفلا ترى من الواجب أن يكون لهمتك نفحة في مساعدتهم وتعضيدهم في سعيهم ؟ أنت تعلم أن الأعمال العظيمة في هذا الزمان وفي كل زمان تحتاج إلى التضافر في الافكار والتعاون في النفقات كل بما يقدره الله عليه ، ولست أخشى أن أقول لك انك سيد القادرين على الامرين ، لا يخطر

على بالي أن يمنعك من الدخول فيما دخلوا فيه يأس ، كيف وأنت مؤمن ، والمؤمن لا ييأس ، وقد رأيت العالم وقرأت التاريخ وشهدت مساعي الاوربيين ووقفت على حقيقة لا يكابر فيها أحد .. ان الكثير من القليل والكبير من الصغير وان النجاح مقرون بالأمل والثبات في العمل ، فان لم يكن يقيننا بالله كافياً في حياة آمالنا انه يكفينا النظر في شؤون أعدائنا وهم لا يمتازون عنا في شيء من خواص الخلقة وغاية ماعندهم انهم لا يحقرون عملا ولا يقطعون املا ولا يأخذ أحدهم رهبة في أداء مايوجبه عليه دينه أو وطنه

لا أتوهم خيبة في سعيي إلى همتك ، ولا تقصيراً منك في القيام بخدمة ملتك ، بعدما رأيت منازل بهاء واستطلعت ماسيطر أعاليها ، والله لا يضيع أجر العاملين ، انني اليوم في لندرا ، دعيت اليها مراراً فتمنعت ، وبعد الالحاح أتيت والمأمول أن يكون في الامر خير

الرجل الذي نالت مصر في عهده مانالها ، يحاول الآن أن يعود اليها ، ولا أظن ان هذا يوافق مصلحة مصر ، وأحب أن أقف على رأيكم فيه ، فان جزءاً من عملي في لوندرا متعلق بالسؤال عنه والمخابرة تكون بالعنوان الآتي : الى باريس ومنها يصل الي . سيدي الاستاذ يهديكم أزكى السلام ، وسلامي عليكم وعلى من تحبون والله يحفظكم

٢٣

وكتب من بيروت الى القس الانكليزي الذي خطب فى لوندره مبينا محاسن الدين الاسلامي وكان الاستاذ الامام كلف مرزاً باقر ترجمة خطابته وصححها هو ونشرت في جريدة ثمرات الفنون وقد نشر خطبته منها في مجلد المنار الرابع (ص ٩٤٦ منه)

كتابي الى الملهم بالحق الناطق بالصدق ، حضرة القس المحترم اسحاق طيلر أيده الله في مقصده ، ووفاه المذخور من موعده

وصل الينا من خطابتك ماألقيته في المحفل الديني بمدينة لوندرا متعلقا بالدين الاسلامي فاذا للحق نور يلمع من خلال كلامك تعرفه البصائر الباصرة

وتشيمه أعين للعقول النيرة رفعتك هداية الله الى مقام الانصاف فرأيت الاسلام في طبيعته السليمة ووقفت عليه في مزاجه الصحيح فأدركت أثره في النفوس البشرية وعلمت انه أفضل مابعد الروح الانسانية الى بلوغ ذروة الكمال الأعلى من الايمان ودافعت عنه دفاع العارف به وجليته للغافلين في أجمل صورة يمكن ان يلمحوها بأبصارهم ويتصفحوا دقائقها بانظارهم ثم دعوت ابناء ملتك الى كلمة السواء بينهم وبين المسلمون وصدقتهم النصيحة أن لايحنقوا المسلمين بتكذيب نبيهم ولاتكفيرهم في الاعتقاد بدينهم ووعدتهم ان قبلوا نصحك باصابة المسيحية في الاسلام ووجود محمد صلى الله عليه وسلم آخذاً بعضد المسيح باعلاء كلمة دينه الصحيح فهذه أشعة نور أفاضه الله على قلبك وآيات حق ساقه الله اليك وانا لنهنئك على هذه البركة العظمى التي اختصك الله بها من بين قومك و نستبشر بقرب الوقت الذي يسطع فيه نور العرفان الكامل فتنهزم له ظلمات الغفلة فيصبح الملتان العظيمتان المسيحية والاسلام وقد تعرفت كل منهما الى الأخرى وتصافحتا مصافحة الوداد وتعانقتا معانقة الألفة فتغمد عند ذلك سيوف الحرب التي طالما انزعجت لها أرواح الملتين

أنت أول رئيس ديني صدع بالحق في أهل ملته وانك لتجد لك مؤيدين وان كثيرا من ذوي الألباب ليجدون في قولك مواقع للصواب وان هذا الامر الذي قمت به لعظيم الفوائد جم العوائد نحس منه تحرك نفوس أهل الملتين الى الملاقاة على صراط الوحدة الحقيقية وانك ان كنت واحداً فكل شيء مبدوه الواحد ثم يكثر حتى لايحصر ، وان كان هذا الغرس الطيب قد أخرج اليوم شطأه فسيؤازره السعي حتى يغلظ ويستوي على سوقه فيعجب الزراع ، وانا نرى التوراة والانجيل والقرآن ستصبح كتبا متوافقة وصحفا متصادقة يدرسها أبناء الملتين ويوقرها أرباب الدينين فيتم نور الله فى ارضه ويظهر دينه الحق على الدين كله واني لاأشك فى أن لك الرغبة التامة فى نشر مذهبك هذا وترويجه بين الامم الشرقية والغربية وقد سعينا فى ترجمة خطابك ونشره فى الجرائد العربية فان كان عندك مقالات أخرى فنرجو إرسالها لنعمل على ترجمتها ونشرها بين

أهل المشرق من العرب والترك وغيرهم ولكن تمام العمل انما يكون بارسال رجال ممن وافقوك فى المشرب الصحيح لينشؤا مدارس فى البلاد المشرقية خصوصاً بلاد سوريا وليطبعوا هذا الرسم الشريف فى النفوس الصافية من أبناء الطوائف المختلفة فتنمو بركته وتجزل ثمرته واني على عجزي مستعد لمساعدتك فيما تقصد من تقريب مابين الملتين بكل مايمكنني والسلام على من اتبع الهدى

٢٤

وكتب اليه ثانية جوابا عن كتاب أرسله اليه وفيه يدعوه إلى الاسلام والى الدعوة اليه فى انكلترا

عزيزي حضرة خطيب السلام القس اسحق طيلر

كنت في القدس الشريف لزيارة المواطن المقدسة التي أجمع على تعظيمها أهل الأديان الثلاثه وفيها يرى الزائر كأن دوحة واحدة هي الدين الحق تفرعت عنها أغصان متعددة لايضر بوحدة نوعها وشخصها وفردانية منبعها مايرى في اختلاف أوراقها وفرج انشعابها ، ثم يحكم بأن تشابه الثمرة ووحدة لونها وطعمها قد انحصر في الدين الاسلامي الذي يستقي من جميع عروقها وجذورها فهو فذلكتها والغاية التي قد انتهى اليها سيرها لأنه يصدق الكل ويعظم الجميع ويدعو إلى التوحيد المحض ، والفردانية الصرفة التي اليها مرجع الخلائق وإن بلغ اختلافها إلى مايفوت الحصر ، ويتجاوز حدود النهايات

وبعد رجوعي من بيروت رأيت من جنابكم مكتوباً بعث بواسطة صديقي جمال الدين بك ، ووجدتكم تذكرون أموراً كالطلاق ، وتعدد الزوجات والرق وتظنون أنها أهم ماعليه اختلاف أهل الدينين مع أن أمثال هذه المسائل لايعدها المسلمون من أصول الدين ولو اطلعتم على مذاهب المسلمين لوجدتم خير ماتحبون من ذلك بدون حاجة الى فتوى شيخ الاسلام ، وللمسلمين فيما دوّن في كتبهم ماليس لهم في فتوى شيخ الاسلام فهذا أمر لامقام له في موضوع بحثنا وبحثكم

أما أصول الدين الاسلامي فهي الايمان بالله وأن محمداً رسول الله وان القرآن كلام الله ، فأعظم شيء تتشوق اليه نفوس المسلمين الصادقين ان يسمعوا التصريح

من حضرتكم بقبول ذلك ، والتصديق به كما أشرتم اليه في خطابكم المتعلق بمسلمي أفريقية ، وأن يروا علامات التصديق في الاقوال والافعال (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) وكل ماتظنه من المصاعب يذلل ، وما تتصوره من الموانع يزول ، ولا أظن يوماً مر أو يمر على الانكليز يكون أسعد من ذلك اليوم الذي يؤمنون فيه بدين محمد ، إذ يصبح العالم خادماً لهم ، وجند الله الاعظم ناصرا لأهله منهم ، ويتم لهم ما أرادوا من إقرار عين العبيد ، وإرضاء قلوب النساء ، وهما مما يدعو اليهما الدين الاسلامي على أتم الوجوه وأكملها . فهلم بنا ياعزيزي الى الاتفاق على الاصول ، ليتيسر لنا الوفاق على الفروع ، والاتحاد في الأب ، ليتسنى لنا الاتحاد في الابن ، فانما تؤتى النتائج من مقدماتها ، ولا تؤتى المقدمات من نتائجها . وقد سرني كل السرور مابلغني من أنكم استحسنتم ما وصل اليكم من صديقنا ميرزا باقر ان شاء الله تجدون مايسركم اذا داومتم مكاتبته إن شاء الله ، والسلام على أهل السلام

٢٤

وكتب الى بعض العلماء جوابا عن كتاب سأله فيه عن انكاره على من قال إن لفظ الرحيم في البسملة توكيد للفظ الرحمن وانكاره ان يكون في القرآن ألفاظ زائدة للتأكيد وفيه وصف علماء السوء

حضرة الاستاذ الفاضل

أثابك الله على صدق مودتك ، ونفعني باخلاص الصادقين من أمثالك ، ووفقني الله وإياك للعمل فيما يفيد الأمة ، التي نهكتها البدع ، وقتلها الزيغ عن الطريق المتبع ، واني أحمد الله على هذه البقية في المسلمين ، بقية صالحة في نفوس مستعدة ، تنشد الحق وتلمسه ، فاذا عثرت عليه ، حنت اليه ، أمدها الله بالسعي الدائب ، والغذاء الصالح ، حتى تنمو وتكون شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها

في السماء ، تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ، لا أزيدك وصية بمزاولة البحث فيما ينقي العقائد من شبه الاشراك ، وغرور اليأس والأمل ، وجراثيم التواكل ، ثم نشر ذلك بكل وسيلة تمكن منه ثم بالصبر على ما يقول المقلدون ، ويهذي به المتكبرون ، ممن يلقبون بالعلماء وهم لايعلمون ، ففي مثلهم يقول الله : (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا ، وان يروا سبيل الغيّ يتخذوه سبيلا) ولا يكون كبر في الارض بغير الحق مثل هذا الكبر الذي ترتديه هذه النصب ، وتظهر في سرابيله هذه التماثيل التي ينحلها الناس ما ليس لها ، ويسمونها بأسماء لم ينزل الله بها من سلطان ، وما هؤلاء القوم الا أولئك السادات الذين سيقول المغترون بهم (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) أسأل الله أن يعينك على من يليك ، ويوفقك لتأييد كتاب الله الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

وأما احتمال التوكيد والوجه الذي ذكرته فاني لا أراه ، لأنه لاعلاقة بين التوحيد ومعنى الرحمة ، ولو ذكر جميع الالفاظ المترادفة في هذا المعنى لم يفد شيئاً فى نفي التعدد ، ولم يسبق في التاريخ أن أحداً ذهب الى أن الرحمن معبود والرحيم معبود آخر ، حتى يرد عليه بأنهما شيء واحد . ولكن الذي عرف هو قول النصارى في ابتداء شؤونهم باسم الآب والابن والروح القدس ، وهو في زعمهم ثلاثة مختلفة الآحاد ، مع أنها واحد . فأراد الله أن يجعل للمسلمين فاتحة أعمال تحتوي على ثلاثة معان ، الاول ذات ، والآخران صفتان . فلفظ الجلالة هو الذات ، وهو يقابل الآب عندهم ، والرحمن وصف الفعل المتجدد الصادر من فيض الكرم ، وهو يقابل الابن لزعمهم أنه منبثق من الذات . والرحيم يدل على الصفة الثابتة للذات الاقدس ، وهي التي يرجع اليها الفعل المتجدد ، وباعتبارها يصدر ويتجدد ، وهو يقابل روح القدس ، فانه عندهم الصلة بين الآب والابن ، وان حاولوا ستر ذلك بضروب من العبارات . فأراد الكتاب أن يعلمنا كيف

نضع التوحيد مكان التثليث ، ونستبدل بألفاظ التشبيه خيراً منها من ألفاظ التنزيه ، ولا يفوتنا المعنى الذي يحتج بقصده من الآب والابن والروح القدس ، وهو معنى الرحمة ، وافاضة النعمة ، وهذا هو وجه تكرير هذه الفاتحة الكريمة في كل سورة ، والندب الى الافتتاح بها في كل عمل ذي بال ، ولكن غفل كثير من المسلمين عن مرامي اشارات الكتاب ، فأتوا من عند أنفسهم بما ليس من معناه في شيء

لاأجد وقتاً لاطالة البحث فيما ذكرت عن السعد وغيره . وأظن أن فيما كتبته كفاية لذكر مثلك وأرجو أن لاتنقطع عن مراسلتي والسلام

(أما مسئلة التأكيد) فالامر فيها سهل ، وتعلم أنني ممن يكتب ، ويقال ان لي حظا من معرفة دقائق البلاغة ، وان كنت لا أحسب لنفسي في ذلك حسابا ، ولا ازال أستعمل التوكيد في كلامي وأذوق لذته ، وأعرف موقعه من كلام غيري ، وأنكر العبارة تخلو منه وهي محتاجة اليه ، وهو معنى من المعاني المقصودة التي وضعت لها في اللغة ألفاظ خاصة كلفظ إن واللام ونحوهما

ثم من الالفاظ ما يكون فيه شيء من معنى الآخر ، فيؤتى باللفظين ليؤكد أحدهما الآخر بما فيه من المعنى المشترك ثم يزيد بما انفرد به كالسيف والصارم ، كل هذا لا أنكر شيئاً منه ، ولكني أنكر الذي يلجؤن اليه بدون بيان صحيح ، فيقال كلمة كذا توكيد ،بدون بيان وجه التوكيد ، أو لفظ كذا زائد كما يقول الجلال في قوله تعالى (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) ان لفظ مثل زائد — تعالى الكتاب عن ذلك — فالجلال والصبان قالا : ان الرحيم توكيد، لظنهما أن لا معنى في الرحيم سوى ما في الرحمن ، واني أنزه القرآن عما ظنا ، حتى لو قصد التوكيد ، فانه يكون بمنزلة الرحمن الرحمن ، وانما غاير اللفظ للتحلية ، وهذا ما أبرىء القرآن منه . والذي صرحت به في هذا المعنى سبقني اليه ابن جرير الطبري ، فقد صرح بأنه لايوجد في القرآن كلمة زائدة لغير معنى مقصود ، وهو الذي عنيته

٢٥

وكتب الى من سأله عن القدر والاختيار واختلاف العقل والوجدان في ذلك

حضرة الفاضل الأديب

وصل إليَّ رقيمك ، ان كنت لم أعرفك فقد عرّفك كتابك ، ودلت عليك آدابك ، والحمد لله على أن في المسلمين من يميل الى منهج الحق من دينه مثلك ، كثر الله من أمثالك ، ووفقك الى العمل بما تعلم ، والدعوة الى ماتفهم

لم يتخالف العقل والوجدان في مسألة القدر ، فان كليهما يتفقان على صحة الاختيار ، ونفي الاضطرار ، فيما هو من الأعمال البشرية المعروفة ، ولا يتنازعان في حكم من أحكام هذا الاختيار . ثم هما يتفقان كذلك في الحكم بأن صانع هذا الكون محيط بدقائقه علماً ، وهاتان العقيدتان هما ركنا الايمان بالله ورسله وشرائعه ، ولم يبق الا نزعة من نزعات الوهم ، تستفز العقل الى اكتناه حقيقة العلم الالهي ، وليست مما يصل اليه من طريق الفكر ، فاذا كبح العقل جماح الوهم ، وقف عند حدّه ، وذاق حلاوة الايمان الصحيح ، والا وقع فيما لامخلص منه من الريب والشكوك

أما اختلاف الامم بل الاشخاص في الآراء ووجوه العلم ، فذلك لازم لطبيعة البشر ، تلك الطبيعة التي بها الانسان انسان ، طبيعة العلم من طريق التعلم والفكر ، مع اختلاف الانفعال بما يرد من الكون على الحس والوجدان ، وما يستقر منه في العقل ، ولكن ذلك لايرفع التبعة عمن كان خلافه الى باطل ، لمكان الاختيار والهداية الى النجدين بمقتضى تلك الفطرة نفسها . وقد يعرض للطبيعة عوارض تخرجها عن أحكامها فترى الاختيار في عجز عن ترجيح جانب الخير على جانب الشر . كتوارث الاخلاق السيئة . وليس الوارث مختاراً فيما يرث ، ولكنه ما دام شاعراً بفعله ، وأنه يريد أن يفعله ، فاختياره هو صاحب السلطة عليه ، وتبعته لازمة له ، ولو أنه طلب الأدب لتأدب . والكلام يطول في تفصيل ذلك ، ولكن يكفي أن العقل والوجدان لا يختلفان في الحكم بصحة الاختيار وشمول

العلم الالهي ، ونفوذ قدرة الله فيما لا اختيار لنا فيه ، وفي هيبة قوة الاختيار نفسها ولعل ذلك يكفيك ، ولو كان عندي سعة في الوقت لكتبت رسالة في هذه المسألة خاصة ، ولكن الاجمال فيها خير من التفصيل على كل حال والسلام

١٥ شعبان سنة ١٣٢٠ ١٨ نوفمبر سنة ١٩٠٢

٢٦

وكتب من بيروت الى مولوي محمد واصل أحد علماء حيدرأباد الدكن (الهند) الذي سأل السيد جمال الدين عن النيشرية في الهند فأجابه برسالة الرد على الدهريين

حضرة الهمام الفاضل ، بقية الافاضل ، وتذكرة الاوائل ، العالم العامل ، مولوي محمد واصل

لم يسبق لي شرف معرفتك ، ولا فضل مكاتبتك ، ولكن تجلت لي أوصافك العلية ، وفضائلك القدسية ، في قول أصدق الناس لسانا ، وأثبتهم بيانا ، حضرة أستاذي السيد جمال الدين أيده الله بعنايته ، فكنت بذلك أشد الناس تعلقا بمزاياك ، وأشوقهم لنيل الحظ من مرآك ، وقد كنت حفظك الله كتبت إلى عارف افندى ابي تراب تسأله عن اختياري في زيارة البلاد الهندية ، وأظنه كتب اليك بميلي الى ذلك وترقب الفرصة للمسير اليه ، ورجائي أن يسعدني التوفيق الالهي ببلوغ الغاية لما أرتقب ، ولو لم يكن لى في بلاد الهند سوي رؤية مثلك ، والآخذ بالنصيب من معرفتك لكان ذلك أقوى باعث على السعي اليها وأحث داع للاقبال عليها ، وقد يلوح بخاطري ان أهيء نفسي لذلك في الخريف الآتي من هذه السنة ، فتى عقدت العزيمة بعثت اليك بالخبر ان شاء الله

أن مادعوتني اليه في كتابك لعارف افندي من كتابة رسائل في تنبيه الأمة الاسلامية الى تلافي امرها ، ومبادرتها الى جمع كلمتها صونا لنفسها عن التهلكة وحفظا لما بقي لها من غول الفناء فذلك علي إن شاء الله ، وقد رأيت ان أتقدم

لك برسالة تبين حال العرب في الجاهلية على وجه الاجمال ، ثم ماساق الله اليها زمن فيض الخير ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أتقدم بعد ذلك الى ذكر سيرة النبي وخلفائه الأربعة ثم أختم الكلام . وبعد هذا نأخذ في نشر رسائل ندعو بها الى الألفة ، ونزعج بها عن الخلفة ، ورجاؤنا في كل ذلك نجاح أعمالنا ، وصلاح أحوالنا إن شاء الله

ورسالة النيشرية قد نقلناها الى اللغة العربية ، وبدأنا في طبعها ، وقد ترجمنا كتابكم الى السيد وكتاب السيد اليكم ، وقدمناهما في صدر الرسالة ، ومتى تمت نبعث بها اليكم إن شاء الله

ونهج البلاغة قد تم والحمد لله طبعه وسيرسل اليكم مائة نسخة على حسب طلبكم . نبعث بها الى بومباي ، ثم ترسل من بومباي الى حيدر آباد ، وثمنها يرسل الينا مائتان وخمسون روبية ورق بنك نوط هندي ، حيث إنه لا يتيسر الارسال بطريقة أخرى ، ثم ليكن في علم حضرتكم ان أثمان هذا الكتاب مخصصة للانفاق في طريق خيري ، والاعانة على أمر عام اسلامي ، لا نريد منها ربحاً ، ولا نطلب كسباً ، والله الموفق ، ونرجو من حضرتكم دوام المواصلة ، بتواتر المراسلة والله يتولى رعايتكم والسلام

٢٧

وكتب الى عالم من الهند كان يطلب منه أن يجيزه بمارواه وماتلقاه وفيه بيان رأيه في الاجازة بالكتب وتناقل الاسانيد

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ احمد ابي الخير حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد فقد سرني ان أعرف لي أخا جديداً في بلاد الهند يقدر العلم قدره ، ويحب بثه بين الناس ونشره ، يسألني الأخ أن أجيزه بجميع ماتلقيت وما رويت ، ويطلب مني ان أرسل اليه سندي في رواياتي

واني أقول لحضرتكم انني أستحي أن أجيز شخصاً لم أره بشيء، لم يكن لي فيه أثر بالنسبة اليه ، كيف أجيزك بشيء تقول أنك ترويه عني ولم تروه في الحقيقة عني ، ثم ماقيمة سند لاأعرف بنفسي رجاله ، ولا أحوالهم ، ولا مكانهم من الثقة والضبط . وانما هي أسماء تتلقفها المشايخ بأوصاف تقلدهم فيها ، ولا سبيل لنا الى البحث فيما يقولون

أحب ان أكشف لك رأيي في هذه الشؤون : هذه كلها صور شغل بها المسلمون عن الحقائق ، ولا قيمة لها في خلاصهم مما هم فيه من شقاء الدنيا ، ولا فائدة لها فيما يوعدون به من شقاء الآخرة على مافرطوا في جنب الله . وانما شأني الذي كلفت به هو ان أعلم وأقول وأبين وأكتب مااستطعت ، ومن تلقى عني شيئاً أو فهمه مما كتبته فله أن يرويه عني وأن يؤديه على مافهمه بعد دقة البحث والتحري ، والاخذ بالاحتياط في فهم القول وتحرير الرواية ، فاذ وصل اليك شيء مما أقول او أكتب وفهمته كما أحب ان يفهم فاليك الاخذ به وروايته عني بعد التحقق من صحة النسبة وأكون لك من الشاكرين ، اسأل الله أن يوفقنا جميعاً الي خدمة دينه الحق انه ولي العاملين والسلام عليكم ورحمة الله

١٩ ربيع الاول سنة ١٣٢٢ مفتي الديار المصرية

محمد عبده

(يقول جامع الكتاب) ان الاستاذ الامام رحمه تعالى اقترض هذا الطلب ليبين للمشتغلين بالعلوم الشرعية هذه الحقيقة :عنايتهم بالوسائل الصورية وتركهم لمقاصد الشريعة الموصلة لغايتها ، أعني فهم الكتاب والسنة والعمل بهما الموصل لسعادة الدارين والنجاة من شقائهما . كانت الآثار والكتب تتلقى بالرواية عن الثقات للاطمئنان على صحة نسبة مافيها إلى أصحابها وذلك من وسائل حفظها ، ولم يبق في الاجازة شيء من هذه الفائدة ، وإنما صارت من قبيل حفظ سلسلة النسب لمن يحرص على صحة انتسابه إلى أصل عظيم وان لم يكن له أدنى حظ من عظمته في علم ولا هدى ، ولا ملك ولا غنى

الفصل الثاني

طائفة من كتبه ورسائله الودادية

كتب وهو في سجن القاهرة متهماً بالاشتراك في الحوادث العرابية إلى أحد أصحابه في تاسع المحرم سنة ١٣٢٠ (٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٢) وهو من أصدق الآيات على علو أخلاقه وسلامة صدره، وسعة حلمه، وحسن نيته، وأسلوب هذا فلسفي تاريخي شعري، وهو يشبه إنشاء بلغاء الافرنج ولا يتسع غير هذا الاسلوب لتصوير ذلك الكرب الذي أثاره في قلبه ظلم الحكام وخيانة الاصحاب اللئام، وتجهم الايام، قال:

١

عزيزي

تقلدتني الليالي وهي مدبرة كأنني صارم في كف منهزم

هذه حالتي !! اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر، فأخذت صخوره من مركز الارض الى المحيط الاعلى، واعترضت ما بين المشرق والمغرب، وامتدت الى القطبين فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس اذ تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانية أو الانسانية، فأصبحت قلوب الثقلين كالحجارة أو أشد قسوة، فتبارك الله أقدر الخالقين *

انتثرت نجوم الهدى، وتدهورت الشموس والاقمار، وتغيبت الثوابت النيرة، وفر كل مضيء منهزماً من عالم الظلام، ودارت الافلاك دورة العكس، ذاهبة بنيراتها الى عوالم غير عالمنا هذا، فولى معها آلهة الخير أجمعين * وتمحضت السلطة لآلهة الشر فقلبوا الطباع، وبدلوا الخلق، وغيروا خلق الله، وكانوا

على ذلك قادرين * (١)

رأيت نفسي اليوم في مهمه لا يأتي البصر على أطرافه ، في ليلة داجية ، غطى فيها وجه السماء بغمام سوء ، فتكاثف ركاما ركاما ، لا أرى انسانا ، ولا أسمع ناطقا ، ولا أتوهم مجيبا ، أسمع ذئابا تعوي ، وسباعا تزأر ، وكلابا تابح كلها ، يطلب فريسة واحدة ، هي ذات الكاتب ، والتف على رجلي تنينان عظيمان ، وقد خويت بطون الكل ، وتحكم فيها سلطان الجوع . ومن كانت هذه حاله ، فهو لا ريب من الهالكين *

تقطع حبل الأمل ، وانفصمت عروة الرجاء ، وانحلت الثقة بالأولياء ، وضل الاعتقاد بالاصفياء ، وبطل القول باجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء ، وحقت على أهل الارض لعنه الله والملائكة والانبياء وجميع العالمين

سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، وحرفت الشرائع ، وبدلت القوانين ، ولم يبق الا هوى يتحكم ، وشهوات تقضي ، وغيظ يحتدم ، وخشونة تنفذ ، تلك سنة الغدر ، والله لا يهدي كيد الخائنين *

ذهب ذوو السلطة في بحور الحوادث الماضية ، يغوصون لطلب أصداف من الشبه ، ومقذوفات من التهم ، وسواقط من اللمم ، ليموهوها بماء السفسطة ، ويغشوها بأغشية من معادن القوة ، ليبرزوها في معرض السطوة ، ويغشوا بها أعين الناظرين *

لا يطلبون ذلك لغامض يبينونه ، أو لمستور يكشفونه ، أو لحق خفي فيظهرونه ، أو خرق بدا فيرقعونه ، أو نظام فسد فيصلحونه ، كلا بل ليثبتوا أنهم في حبس من حبسوه غير مخطئين *

وقد وجدوا لذلك أعوانا من حلفاء الدناءة وأعداء المروءة ، وفاسدي

(١) قوله آلهة الخير وآلهة الشر يراد بهما عوامل الخير والشر وأسبابهما وخرج على الحكاية لخرافات اليونانيين كما يقال اغتالتهم الغيلان فيمن هلكوا باسباب مادية تجوزاً مبينا على المعروف من خرافات العرب . و يعد بعض المفسرين من هذا القبيل قوله تعالى « يتخبطه الشيطان من المس » — راجع البيضاوي وغيره وتوهم بعض أدعياء العلم باللغة وفنونها وبالشريعة ان ذكر الآلهة ولو باسلوب الحكاية اثبات لها كانه لم يقرا في كتاب الله تعالى ذكرها حكاية واستقلالا ومن الثاني قوله تعالى (فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله)

الاخلاق ، وخبثاء الاعراق ، رضوا لأنفسهم قول الزور ،وافتراء البهتان ، واختلاق الافك ، وقد تقدموا الى مجلس التحقيق ، بتقارير محشوة من الاباطيل ، ليكونوا بها علينا من الشاهدين *

كل ذلك لم تأخذني فيه دهشة ، ولم تحل قلبي منه وحشة ، بل أنا على أتم أوصافي التي تعلمها ، غير مبال بما يصدر به الحكم أو يبرمه القضاء ، عالماً بأن كل مايسوقه القدر وما ساقه من البلاء ، فهو نتيجة ظلم لاشبهة للحق فيه ، لأن الله يعلم — كما أنت تعلم — أنني بريء من كل مارموني به ، ولو اطلعت عليه لوليت منه رعباً أو كنت من الضاحكين

نعم خنقني الغم ، وأصمى فؤادي الهم ، وفارقني النوم ليلة كاملة ، عند مارأيت اسمك الكريم ، واسم بقية الابناء والاخوان الساكين ، تنسب اليهم أعمال لم تكن ، وأقوال لم تصدر عنهم ، قصد زجهم في المسجونين * لكن اطمأن قلبي ، وسكن جأشي عند مارأيت تواريخ التقارير متقادمة ، ومع ذلك لم يصلكم شرر الشر ، فرجوت أن الحكومة لم ترد أن تفتح بابا لايذر الاحياء ولا الميتين *

قدم فلان وفلان [1] تقريرين جعل فيهما تبعات الحوادث الماضية على عنقي ، ولم يتركا شيئاً من التخريف إلا قالاه ، وذكرا أسماءكم في أمور أنتم جميعاً أبعد الناس عنها ، لكن لا حرج عليهما ، فاني أراهما من المجانين * ولم أتعجب من هذين الشخصين ، إذ يعملان مثل هذا العمل القبيح ، ويرتكبان هذا الجرم الشنيع ، ولكن أخذني العجب كل العجب غاية العجب ، بالغ ماشئت في عجبي ، إذ أخبرني المدافع عني بتقرير قدمه سعيد البستاني الذي أرسلت اليه السلام ، وابلغته سروري عند ما سمعت باستخدامه وأنا في هذا الحبس رهين *

إلى هذا الوقت لم يصلني التقرير ، ولكن سيصل إليّ ، انما فيما بلغني انه شهادة بأقبح شيء ، لا يشهد به إلا عدو مبين * هذا الاثيم الذي كنت أظن انه يألم لألمي ، ويأخذه الأسف لحالي ، ويبذل وسعه ان أمكنه في المدافعة عني ، فكم قدمت له نفعاً ، ورفعت له ذكراً ، وجعلت له منزلة في قلوب الساكين * كم

(١) هما : رضوان : و — ه

سمعني أقاوم هجاء الجرائد ، وأوسع محرريها لوما وتقريعاً ، وأهزأ بتلك الحركات الجنونية ، وكان هو عليّ في بعض أفكاري هذه من اللائمين * كان ينسب فلانا لسوء القصد اتباعاً لرأي فلان ، وأعارضه أشد المعارضة ، ثم لم أنقض له عهداً ، ولم أبخس له وداً ، وحقيقة كنت مسروراً لوجوده موظفا، فما باله أصبح من الناكثين ؟

آه ما أطيب هذا القلب الذي يملي هذه الأحرف ! ما أشد حفظه للولاء ، ما أغيره على حقوق الأولياء ، ما أثبته على الوفاء ، ما أرقه على الضعفاء ، ما أشد اهتمامه بشؤون الأصدقاء ، ما أعظم أسفه لمصائب من بينهم وبينه أدنى مودة ، وان كانوا فيها غير صادقين *

ما أبعد هذا القلب عن الايذاء ، ولو للأعداء ، ما أشد رعايته للود ، ما أشده محافظة على العهد ، ما أعظم حذره من كل ما توبخ عليه الذمم الطاهرة ، ما أقواه إقداماً على العمل الحق والقول الحق لا يطلب عليه جزاء ، وكم اهتم بمصالح قوم وكانوا عنها غافلين *

هذا القلب الذي يؤلمونه بأكاذيبهم ، هو الذي سر قلوبهم بالترقية ، وملأها فرحا بالتقدم ، ولطف خواطرهم بحسن المعاملة ، وشرح صدورهم بلطيف المجاملة ، ودافع عنهم أزمانا ـ خصوصاً هذا اللئيم ـ أفنشرح الصدور وهم يحرجون !! ونشفي القلوب وهم يؤلمون !! ونفرحها وهم يحزنون !! تالله قد ضلوا وما كانوا مهتدين *

هذا القلب ذاب معظمه من الأسف على ما يلم بالهيئة العمومية من مصائب هذه التقلبات ، وما ينشأ عنها من فساد الطباع ، الذي يجعل العموم في قلق مستديم ، وما بقي من هذا القلب فهو في خوف على من يعرفهم على عهد مودته ، فان نسلوا جميعاً بمثل هذه الأعمال وأصبحوا من مودته خالين ، واتخذوه وقاية لهم من المضرة ، وجعلوه ترساً يعرضونه لتلقي سهام النوائب التي يتوهمون تفويقها اليهم ، كما اتخذوه قبل ذلك سهماً يصيبون به أغراضهم ، فينالون منها حظوظهم ، فقد أراحوا تلك البقية من الفكر فيهم ، والله يتولى حسابهم ، وهو أسرع الحاسبين *

آه ما أظن ان تلك البقية تستريح من شاغل الفكر في شؤون الأحبة ، وان جاروا في تصرفهم ، ان طبيعة هذا القلب لطبيعة ناعم الخز ، إذا اتصل بذي الود وان كان خشنا فصعب أن ينفصل ، ولو مزقته خشونته ، وان هذا

القلب في علاقته مع الأوداء، كالضياء مع الحرارة ، أيما حادث يحدث ، وأيما كيماوي يدقق، لايجد للتحليل بينهما سبيلا ، وأظنك في العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المحققين *

أي عزيزي

الا ن وصلني تقرير اللئيم ، فقرأته بأول نظارة ووجدته كما بلغني ، وسأرد عليه في بضع دقائق بما يسود وجهه ويخجله ان كان إنسانا ، ولكن تصادف فراغ الحبر من الدواة، فسأنتظر بالرد عليه وتتميم رقيمي اليك بعض ساعات فكن معي من المنتظرين *

* * *

رددت على التقرير، وكان كل مافيه الغش والتغرير ، وذكر فيه فلانا بأشنع مايؤاخذ به انسان في هذه المسألة كما ذكره الخبيثان قبله ولكن دفعت ماقاله في جانبه ايضاء وأخذت على نفسي كل مسئولية تنسب اليه أو اليكم ، فماعليكم ان سئلتم إلا أن تكونوا منكرين *

ربما يسألكم (القومسيون) عن معلوماتكم في شؤوني أيام الحوادث ، فلا يدخل عليكم غش السؤال والارهاب ، ولكن عبروا عما كنتم تشهدون وتعلمون من أفكاري وأقوالي التي كانت تهزأ بالحكومة الفلانية،ومن كانوا لها من الطالبين * إلى هذا الحد قفوا، فان سئلتم فقولوا مانحن بتأويل الأحلام بعالمين *

في هذا الوقت وصلني الرقيم مبشراً ببقائكم في مركزكم ، فقمت ورفعت يدي ورجلي وناديت: الحمد لله رب العالمين * وأخذني الأسف على حبس فلان لكن دل إطلاقه على حسن حالة الباقين * يا عزيزي أعود إلى ذكر ما لأولئك القوم، كأنما قذف بهم من شاهق جبل فسقطوا على رؤوسهم،فغشيهم من شدة الصدمة ماغشيهم ، فقاموا ينطقون بما لا يعون ،ويتكلمون ولا يفهمون . ما بالهم يقذفون من أفواههم أخلاطا أقذر من البلغم ، وأمرّ من الصفراء ، وكأنما جرعوا جرعةمن السم فقلبت أمعاءهم فاستفرغت من حلاقيمهم أخبث مايحملون*

مابال دنان قلوبهم تفيض من اللؤم أشدمن فيضان بئر برهوت؟ تقذف بسيالات

بشعة الطعم خبيثة المنظر كريهة الرائحة تضطر معانيها للفرار منها، لكن اعضاء التحقيق من زكام الحوادث الأخيرة لا يشمون ولا يذوقون، ومن ظلماتها لا يبصرون *

هل بطل يا عزيزي ما جاء على لسان النبوات: الانسان أسير الاحسان؟ هل نقض ما جاء من ذلك: المعروف بذر المحبة يغرسها في أعماق القلوب؟ هل هدمت قاعدة: ان الحيوان يقاد بالزمام، والانسان يقاد بالصنيعة؟ هل كان خرافا ما قرره الحكماء من الفصول الطويلة تقسيما للمحبة وبيانا لفضائلها ومنافعها في الاجتماع الانساني الخبيث؟ هل كان خرافا ما حوته الكتب متعلقا بموجبات روابط النوع البشري؟ أم صح كله لكن الناس به جاهلون؟*

هل أتأسف أن كنت سباقا الى الخيرات؟ هل أتأسف أن كنت مقداما في المكرمات؟ هل أتأسف ان كنت شجاعا في الدفاع عن ذوي مودتي؟ هل أتأسف ان كنت أبيا أغار أن ينسب مكروه أو ذل لأولي صلتي؟ هل أستحق العقاب على حبي لبلادي والناس لها كارهون*

كلا والله لن يكون ذلك ولم أزدد في سبيل الفضيلة الا بصيرة، ولم أزدد في المحافظة عليها الا ثباتا، ولئن عشت لأصنعن المعروف، ولأغيثن الملهوف، ولأنقذن الهاوي في حفرة الغدر، ولآخذن بيد المتضرع من ضغط الظلم، ولأتجاوزن عن السيئات، ولأتناسين جميع المضرات، ولأبينن لقومي أنهم كانوا في ظلمات يعمهون *ولأظهرن الصديق في أجمل صوره، ولأجلونه للناس أبهج حلاه، ولأثبتن لهم ببرهان العمل أنه فكرك الثاني في روحك الواحدة، وأنه جسمك الآخر في حياتك المتحدة، وأنه صاحبك اذا طال ليل الكدر، ومصباحك اذا أغسق دجى الهموم تستضيء به في حل ما انعقد، وتستعين بقوته في تيسير ما عسر، وتذهب به الى أوج المعالي، والناس من معجزات الصديق يتعجبون *

إنني اليوم أعجز من المقعد عن طلوع النخل؛ ومن المفلس عن حرية التصرف، وقد صار سقوط الجاه كمرض يصيب الجيل الفاتن، فينحف الجسم، ويغير اللون، ويقلص الشفاه، ويضعف القوى، ويقعد عن الحركة، ويبعد

عن نيل المطلوب ، ويثقل على الاهل والعشائر في التمريض ، ويسئمهم ان طال من معاناة العلاج فيصبح المريض منهم في أدنى المنازل ، وقد كان ربا لهم وهم له ساجدون *

يذهب عنه البهاء ، وينكسف من وجهه الضياء ، وتنكره عند الرؤية أعين العشاق ، وتمجه طباع ذوي الاذواق ، وتمحى من جبينه تلك الاسطر الجلية العبارة ، الصادقة النسبة ، الناطقة بالحق ، القائلة : ههنا كنز الرغبات ، ههنا منار الحاجات ، ههنا ما يروح الروح ، ههنا ما يقضي وطراً في الانفس ، ههنا ما يخشى منه على الارواح والافئدة ، فينحرف عنه السالكون اليه ، وقد كانوا قبل على آثار غباره يتدافعون * وقيسوا على مرض الجميل مرض صاحب جاه ، ولا أظنكم بالقياس تجهلون *

لكن أقول لكم : ان الحوادث المريعة سوف تنسى ، وأن هذا الشرف سوف يُرَدّ ، ولئن أبت طبيعة هذه الارض بخستها أن يكون لها من عوده نصيب فليعودن في بلاد خير منها . ولأجذبن الى المجد أحبتي ، ومن الى المجد ينجذبون *

كل ذلك إن عشت وساعدتني صحة الجسم ، ولا أطلب شيئاً فوق هذين سوى معونة الله الذي عرفه بعض الناس ، وبعضهم له منكرون *

أطلت عليك الكلام فلا تسأم ، وأظنه آخر كتاب مني اليك في السجن الا أن يحدث حادث يسمح بالكتابة مرة أخرى . فان تلاقينا بعد اليوم كانت المشافهة أزكى والا كانت المراسلة أجل وأعلى ، ولا تجزع ، فليس في الامر ما يفزع ، وهو أهون مما يتوهمون * وأسأل الله أن يغض عنكم أبصار الظالمين ، ويحفظكم من نكاية الخائنين ، ويسر قلبي بالطمأنينة عليكم وعلى سائر الاخوان والابناء أجمعين

٢

ومن كتاب له الى السيد جمال الدين عقب النفي من مصر الى بيروت وهو أغرب كتبه بل هو الشاذ فيما يصف به استاذه السيد مما يشبه كلام صوفية الحقائق والقائلين بوحدة الوجود التي كان ينكرها عليهم بالمعنى المشهور عنهم ، وفيه من الاغراق والغلو في السيد ما يستغرب صدوره عنه وان كان من قبيل الشعريات ، وكذا ما يصف به نفسه بالتبع لاستاذه من الدعوى التي لم تعهد منه البتة ـ قال :

ليتني كنت أعلم ماذا أكتب اليك — وأنت تعلم ما في نفسي كما أعلم ما في نفسك ، صنعتنا بيديك ، وأفضت على موادنا صورها الكمالية ... فبك عرفنا أنفسنا وبك عرفناك ، وبك عرفنا العالم أجمعين ...

أوتيت من لدنك حكمة أقلب بها القلوب ، وأعقل العقول ، وأذل بها شوامخ المصاعب ، وأتصرف بها في خواطر النفوس ، ومنحت من لدنك عزمة أتعتم بها الثوابت ، وأصدع بها شم المشاكل ، وأثبت بها في الحق حتى يرضى الحق . وكنت أظن أن قدرتي غير محدودة ، ومكنتي لا مبتوتة ولا مقدودة ، فاذا أنا من الايام كل يوم في شأن جديد ، تناولت العلم لأقدم اليك من روحي ما أنت به أعلم ، فلم أجد من نفسي سوى الأفكل ، والقلب الاشل ، واليد المرتعشة ، والفرائص المرتعدة ، والفكر الذاهب ، والعقل الغالب ، كأنك يامولاي منحتني نوع القدرة الدلالة على قوة سلطانك حصرته في الافراد [1] فاستثنيت منه ما يتعلق بالخطاب معك والتقدم إلى مقامك الجليل ، هذا مع اني منك في ثلاث أرواح لو حلت إحداها في العالم بأسره وكان جماداً لأحال إنساناً كاملا ، فصورتك الظاهرة التي تجلت في قوتي الخيالية ، وامتد سلطانها على حسي المشترك

(١) العبارة غير مستقيمة لحفاء كان في الاصل صوبه الناسخ بما تخيله

— وهي رسم الشهامة ، وشبح الحكمة ، وهيكل الكمال — ردت اليها جميع محسوساتي ، وفنيت فيها مجامع مشهوداتي ، وروح حكمتك التي أحييت بها مواتنا ، وأنرت بها عقولنا ، وألطفت بها نفوسنا ، بل التي بطنت بها فينا فظهرت في أشخاصنا ، فكنا أعدادك وأنت الواحد ، وغيبك وأنت الشاهد ، ورسمك الفوتغرافي الذي أقمته رقيبا على ما أقدم من أعمالي ، ومسيطراً علي في أحوالي [1] وما تحركت حركة ، ولا تكلمت كلمة ، ولا مضيت إلى غاية ، ولا انثنيت عن نهاية ، حتى تتطابق فيه أحكام أرواحك — وهي ثلاثة — فمضيت على حكمها سعياً في الخير ، واعلاء لكلمة الحق ، وتأييداً لشوكة الحكمة وسلطان الفضيلة ، ولست في ذلك إلا آلة لتنفيذ ذلك الرأي المثلث ، وما لي من ذاتي إرادة حتى ينقلب مربعًا ، غير ان قواي العالية تمثلت عني في مكاتبتي اليك ، وخلت بيني وبين نفسي التزاماً لحكم ان المعلول لا يعود على علته بالتأثير ، على ان ما يكون إلى المولى من رقائم عبده ليس إلا نوعا من التضرع والابتهال ، ولا أحسب فيه ما يكشف خفاء ، أو يزيد جلاء ، ومع ذلك فاني لا أتوسل اليك في العفو عما تجد من قلق العبارة ، وما ترى مما يخالف سنن البلاغة ، بشفيع أقوى من عجز العقل عن احداق نظره اليك ، واطراق الفكر خشية منك بين يديك وأي شفيع أقوى من رحمتك بالضعفاء وحنوك لأرحام الحياء

اني يا مولاي لا أحدثك عن شيء مما أصابنا بعد فراقك ، فقد تكفل ببيانه أخي العزيز ابراهيم افندي اللقاني سوى ما تركه في كتابه من انقلاب بعض القلوب من خاصتك ، وتحول أحوالهم بعد نزول ما نزل بك ، فقد تغلب أعوان الشر وأنصار السوء بقوة جاههم ، وشدة بأسهم ، فأرغموا

---

(١) قد أخذ هذا الرسم شرطة الحكومة عند تفتيش بيت الكاتب في تهمة الثورة كما سيأتي ثم اننا كنا نرى رسما آخر للسيد في خزانة كتبه من داره التي يجلس فيها على الارض للمطالعة والكتابة كانت على منضدة يوضع عليها بعض الكتب في الجهة الشمالية فكانت تكون قبالته حيث يجلس فكان يتذكر تلك الروح العاليه التي ربته تلك التربيه الجديدة الممتازة التي دفعته الى الجهاد طول حياته في سبيل الله تعالى

العقول على الاعتقاد بالمحال ، وألجؤها بالتصديق بما لايقال ، حتى إنهم غيروا قلب دولتلو رياض باشا عليك وعلى تلامذتك الصادقين أياماً معدودة ، وركن فيها للعمل بالشدة ، والاخذ ببادرة الحدة ، لكن لم يلبث أن وصلنا اليه ، وجلوت الامر عليه ، وكشفت له ما أغمض من الحقيقة ، حتى زال مالبس المبطلون ، وبطل كيدهم ، وما كانوا يعملون ، ونزلت عنده منزلة حسدني عليها الكافة من العلماء والامراء ورجال الحكومة ، وقعدت من كل أمير مصعد النفس ، فلا ينطق الا بما تريد حكمتك ، ولا يعمل الا ماتشاء إرادتك ، فكأنك وحقك كنت بين أظهر المصريين ، ساعياً فيهم الى مقاصدك العالية ، طالباً بهم أوج السعادة ، وذروة المجد والفخار . وهكذا ضممت اليّ كل من كان ينتسب اليك . صادقا في الانتساب أو كاذبا ، حتى اني لم أتأخر عن مساعدة أولئك الاشقياء الادنياء[1] . . . . وأمثالهم من اللئام ، تحسيناً للظن ، وايثاراً لجانب العفو . فأصلحت لهم القلوب ، وفسحت لهم من الصدور ، وفتحت لهم أبواب التقدم إلى المنافع الغزيرة ، لكنهم لم يرعوا وداً ، ولم يحفظوا عهداً ، ولا حاجة الآن الى ايضاح ما صدر عنهم خيانة ولؤما[2] . . . . . وألفت لحبك ممن حرم التشرف بلقائك قبيلا ليس بالقليل ، يجلون قدرك ، ويعرفون لك فضلك، وكنا واخواننا كما شرح لك ابراهيم افندي (اللقاني)

ولكن هذا لم يلهني عن طلب الانتصار لك ، وكدت أصل الى ذلك من طريق مألوف ، ومذهب معروف ، ولكن غلبنا على الامر قطاع طريق الخير ، اللابسين ثياب الانبياء ، السالكين مذاهب الجبارين : انتحلوا طريقتنا في في الدعوة الى الحرية ، وتمكنوا بقوة السيف وضعف الحكومة من اقناع العامة بكونهم دعاة الحق ، وحماة القانون ، وكانوا في بداية أمرهم أشد الناس تعصباً عليك وعلى تلامذتك ، واشتدَّ معهم في التعصب أولئك الاشرار الذين قدمنا ذكرهم عند ما رأوا بعض رجال الحكومة يميل الى أهوائهم ، ويمدهم في بعض

(١) هم : أ . إ ـ س و ن ـ س . ب و : ـ ه

(٢) حذفنا سطراً فيه كلمة شديدة في نصارى الشوام وفي المصريين منهما

غيهم ، ولم يدم ذلك الا قليلا ، حتى محصنا من قلوبهم ، وجلونا عن بصائرهم ، فكادوا يشيمون ضياء الحق لولا أن أدركتهم ظلمة الغي والغرور ، ومع هذا فكنا نستعملهم لما نريد ولغاية ما نحب بقدر الامكان والاستطاعة ، الى أن غلبت عناصر الفساد ، وعم الاختلال . فطلبنا بأولئك الثائرين أن تخلص البلاد من الشقاء ، وينقذ العباد من طول العناء ، ورجونا تأييدهم على ذلك من سكان الارض والسماء ، وكدنا ندرك به خلاصاً حسناً ، وانتصاراً شريفاً ، لكن لسوء البخت كان احمد عرابي على ما وصف الصابي أبا تغلب بن حمدان عند ما قاتله عز الدولة بن معز الدولة وهزمه حيث قال فيه « انه لم يلق لقاء الباضع بالطاعة ، المعتذر من سالف التفريط والاضاعة . ولا لقاء المصدق في دعواه في الاستقلال بالمقارعة . المحقق لزعمه في الثبات للمدافعة . ولا كان في هذين الامرين بالبر التقي . ولا الفاجر القوي . بل جمع بين نقيصة شقاقه وغدره . وفضيحة جبنه وخوره . قد ذهب عنه الرشاد ، وضربت بينه وبينه الأسداد » اه

وأزيد على ذلك مع توفر الاسباب، وتفتح الابواب ، وظهور الامر للعيان ، وانجلائه لأذهان الصبيان ، واجماع جميع القلوب عليه ، ونزوع الاهواء على اختلافها اليه ، فكان ما كان من العاقبة السوءى ، ولسيرنا في تلك الحوادث نبأ طويل اذا أردت يامولاي أن أقدم اليك به تاريخاً ربما يكون مفيداً فأنا رهين الاشارة . ونحن الآن في مدينة بيروت نقضي بها مدة ثلاث سنوات لا لذنب جنيناه ، ولا جرم اقترفناه ، فقد قضت حكمتك القائمة منا مقام الالهام في قلوب الصديقين أن ننال الحق ولنا الحجة الباهرة ، ونصيب الغرض ولنا البراءة الظاهرة ، والذمة الطاهرة ، وانما ذلك أثر الحق القديم ، ونتيجة الرأي العقيم ، ووالله ياسيدي لو فصلناله من جلودنا ثيابا ، وصنعنا لهمن لحومنا كبابا ، وصببنا له من دمنا شرابا ، لما كان لنا مفرٌّ من غدرته عند قدرته ، قاتله الله . فها نحن سالكون في سُننك وعلى سَننك ، وكنا كذلك ولا نزال ، الى انقضاء الآجال ، ولولا أطفال لنا رُضّع ، ونساء لنا طوّع ، أبينا لهم الذل ، وأنفنا لهم الضيم ، فأتينا بهم هنا ، الى حيث أقمنا ، لكنت أول من تلقاك في مدينة باريس ، لأسعد بالاقامة في خدمتك ، وأفخر بذلك على العالمين

ولما اعلم من نفسي ، وما أتيقن من يقينك ، وما أبدته أعمالي وأعمالك ، واقوالي وأقوالك ، لاأتكدر مما أشرت اليه في كتابك الى ابي تراب ، حيث طعنت في ثقتك بالناس اجمعين ، وبالغت حتى سحبت الطعن إليّ والى ابراهيم افندي ، وزدت في الطعن ، فأنفذت طعنك بالداهية الزرقاء ، والبلية الحمراء

أما اختلال ثقتك بالدواهي والبلايا فقد صادف محلا ، فقد نقضوا عهدك ، وحالفوا عدوك ، فاستبقوه الموجود وأنت موجود ، أرغم الله أنفها ، وجعلها طوع يدك ، ترمي بها من تشاء من أعدائك

وما حكم به سيدي على المصريين من سلب الوفاء فذلك قد تتضافر عليه الأدلة ، وتشهد لك ولنا به الحوادث ، غير أنا لسنا أولئك ، فقد اخرجتنا عن طباعنا ، وحوّلتنا نبتاً غريباً لا يتغذى بغذاء تلك الأرض ولا ينمو بهوائها ، وانما ينضر حيث يتيح له القدر من مثل عناصره مايقوي به قوامه ، ويزهر زهره ، ويحلو ثمره . والا ذبل ومات ، أو استأصلت جذوره ونفي الي خارج البلاد

واني اعلم أن كلامي لايزيد في يقين مولاي شيئاً ، وعدمه لاينقصه ، فلنعد عن هذا ونستميح كرمه الواسع أن يمن علينا بنسخة من رسمه الفوتوغرافي جديدة ، فقد كان عندي نسختان احداهما كانت في بيتي على الوضع الذي قدمت ، والأخرى استجدانيها سعد افندي زغلول ، فأما الاولى فقد اخذها أعوان الضبطية عند ماأودعت السجن ، وفتشوا بيتي وعد وجود صورتك عندي من سيئاتي التي ارادوا وضعها في مجلس التحقيق ، والأخرى تركتها عند محسوبكم سعد افندي زغلول

ثم يتفضل مولانا بأن يتابع إلينا ارسال ماينشر من الفصول السياسية والادبية في الجرائد أيا كانت ، فقد اعددنا دفاتر كثيرة لنقل مايوجد منها في أي جريدة ، وكتبنا مانشر في النحلة ، وأول مانشر في البصير ، وانا نبحث بغاية الدقة عن مقالة « الشرق والشرقيون » ولم نجدها الى الآن ، ثم نرجو أن تمنّ علينا بأسطر من قلمك الشريف نحفظها حيث نحفظ سرك ، ونودعها حيث أودعنا محبتك ، والله يحفظك ويتمم مقاصدك ، والسلام

٣

وكتب بعد استقراره ببيروت الى بعض الشيوخ ولعله الشيخ علي الليثي، وفيه من التكلف ما كدت أشك في انه له، وقد وجد بين مسودات اكثرها له

سيدي الاستاذ الأجل

لله حالي مع الشيخ !! وجد به مستحر، وشغف بحبه مستمر، وعهد هوى اليه مستقر، وهو بي لايستقر، شغفت من الشيخ بأخلاق زهر، ومكارم غر، ومروآت حدر، وفضائل غزر، ذلك الحسن الذي لايكسف، والجلال الذي لايكشف، فاذا عشقته (بقلبي) فلست بالغالط، وإن لحته(١) بحبي فما أنا بالخابط، تعلقت بهاء الأنفس، وهو لدي الأعز الانفس، ومشربي في ذلك أصفى المشارب، وللناس فيما يعشقون مذاهب، أنآني عنك تباين الديار، وأدناني منك دوام التذكار، كلما خلوت بنفسي، تمثلت لباطن حسي، فروحي اليك آنسة، ومن قرب اللقاء غير آيسة، فان فاءت من غيبة الفكر، وأفاقت من سكرة الذكر، عاودتها وحشة الفراق، وانتابها قلق إلى التلاق، فان تحفتها عنايتك، وثقفتها رعايتك، بكتاب تلحظه، أو خطاب تحفظه، كان ذلك أشفى لدائها، وانجع في دوائها. وبعد فانا اليوم ببيروت في فضل من الله أشكره، وجميل احسان اذكره ولا أنكره... لكن لايسوى بقومي قوم، ولا كيوم وطني يوم، ذلك الوطن الذي أنبتك، وغذت عناصره نبعتك، لاريب أنه منبت الكرم، ومخيم لأطهار الشيم، الموت فيه بقاء، والحياة في غيره فناء، ولكن كان حالي كما قال الأموي

أعز الممات وذل الحياة وكلا أراه طعاماً وبيلا

فان لم يكن غير احداهما فسيرا الى الموت سيراً جميلا

هذا الى أن ينجح الله سعيكم، ويؤيد في أمري رأيكم، فيماط الاذى، ويلقى القذى، وتمحص الصدور، ويبر أبرقياكم المصدور، هنالك يعرف النخيل أهله، ويصل الفرع أصله

(١) الكلمة خفية في الاصل

٤

وكتب من بيروت أيضاً الى بعض الكبراء جواباً عن كتاب منه يذكره فيه بالصبر في تلك النكبة

ما أفضل الفضل من مبادئه ، وما أكرم الكرم من مناشئه ، وما أكبر التواضع من الكبراء ، وما أعلى التنازل من الأعلياء ، جلت مكارم مولانا عن التقدير ، وفاتت فواضله حيطة التحرير ، توجهت عنايته الى ضعيف في وجده ، عارف بقدره ، واقف عند حده ، فأحسن اليه بأمر كريم من رفده ، يكسوه من الوصف حلة بهاؤها بسديها ، ويوليه كرامة سناؤها بمهديها ، وما هي إلا كمالاته تبدو مظاهرها ، وكرائم سجاياه تظهر على المخلصين مفاخرها ، والا فليس لهذا الداعي مايستلفت نظر دولته ، ويستقبل وجه كرامته ، اللهم الا الاخلاص في ولائه ، والاحتساب على آلائه ، وما استواء مولانا على منصة تشرف به على النظر فيما يؤكد نسبتي اليه ، ويقوي استنادي عليه ، فأرجو الله أن ترتقي بي الى أعلى مايؤمل لمثله ، بمثل فضله ، حتى يعم فضله المتعرفين الى جنابه ، والعاجزين عن التقرب من رحابه ، وقد أرشدني كرم مولانا الى الاعتصام بالصبر ، وانني فيما أرشدني اليه على نحو مايقول سابقي الى مثل حالتي

تعودت مرّ الصبر حتى ألفته   فأسلمني حسن العزاء الى الصبر

فالحمد لله على توفيقي للأخذ بارشاده . ووقوفي عند حدّ مراده . فلا زال يحيي القلوب بحكمته . كما يحيي نظام الأمة بعدالته ، والله يتولى مثوبته على احسانه ، كما يكفل له في العالمين اعلاء شأنه ورفعة مكانه

٥

وكتب وهو في بيروت جوابا عن كتاب لصديق

لك في قلوبنا من الود ما يذكيه سناؤك . وفي مناطقنا من الحمد ما يوحيه كمالك ، وفي صدورنا من الاجلال ما يرفعه بهاؤك . ما بيننا من المودة ، لا تحده مدة . ولا تخلق له جدة . نعيذه من حاجة للتجديد . واستدعاء للمزيد . فلا المواصلة تربيه ، ولا المماهلة توهيه . نعم ان ما نحفظ لك في الانفس هو تجلي فضلك . ومثال علائك ونبلك ، وذلك الخالد بخلود الأرواح ، الباقي في تفاني الاشباح

تلقيت منك كتابا يبوح بسر المحبة . وينشر طيّ الصداقة ، فيه تبيان وجدانك مما وجدنا . وتأثرك على ما فقدنا . فكان نبأ عما نعلم . وقضاء بما نحكم ولكن شكرنا لك فضل المراسلة . وأريحية المجاملة . والله يتولى ايفاءك ، مثوبة تكافئ وفاءك

٦

وكتب من بيروت الى صديق له من رجال الدولة العظام الذين كان يرجو منهم الخير للدين والملة

وصل الله بالتقوى حبلكم ، وأعلى بصدق الايمان محلكم ، يعلم الله اني وان فارقت عطوفتكم ، لم يفصلني البعد الجثماني عنكم ، وان بانت بي الاماكن ، ونبت بي الأقطار لم أبن منكم . فلقد يسمو الايمان الصادق بأهله عن مضاجعة الطبيعة فلن تصل اليهم آثارها . وينفر بهم عنها فلا تخالطهم أوضارها . فتأخذ الارواح حكمها ، وهي اذا تعارفت جواهرها ، تواصلت سرائرها . ولم تبال بالاجسام ومصايرها .

لم يزل يلمع لي بارق من سرّ ذاتكم الطاهر ، ويذرّ آنا بعد آن شارق من مطلع يقينكم الزاهر ، ويتمثل لي كلما نزع في القلب اليكم مثال من مزايا سعادتكم ،

ويبدو لي عند الوحشة مؤنس من خصائص عطوفتكم ، فأنا من معاني حقيقتكم في بقعة من عالم المثال ، ألهو بها عن هـذا العالم عالم الخيال ، اراكم بين من رأيت من حكام الزمان، كوكباً بين أجرام اكوان ، ان كان لها ضياء تضاءل اضياته ، أو كان لها سناء تساقط دون سنائه . فالله يحقق نسبتكم اليه ، ويمتعكم باخلاص الاقبال عليه . فتلك السعادة ، لاتفضلها زيادة . ولا أتقدم الى سعادتكم بالرجاء بشيء، مثل ماأرجوكم في النظر لاصلاح قلوب الاهالي بالتربية الزكية ، على أصول المعارف الصافية . فلا بقاء للدين الا بها . ولا وقاية له الا بنفوس أربابها . ولا سعي عند الله أفضل منزلة من السعي الى مثل هذه الغاية . ولا أجل عاقبة لديه مثل الانتهاء الى مثل هذه النهاية

ثم أرجو العفو عن تقصيري في عرض عريضتي على أنظار عطوفتكم في المدة الماضية ، فقد كنت بعد مفارقة القدس في أمراض لم أزل الى اليوم في معالجتها ، وأنتم أكرم من قبل العذر ، واستقبل بالعفو جزيل الأجر ، والله يمدكم بامداد توفيقه ، ويحفظكم على المحجة من طريقه

٧

وكتب الى من أكرم وفادته ، وخطب مودته

لو كان في الثناء وملازمة الدعاء ، وحفظ الجميل، والقيام بالخدمة جهد المستطيع ، مايفي بشكر من يفتتح باب المحبة ، ويبدأ بصنائع المعروف ، لكنت والحمد لله من أقدر الناس عليه ، ولكن أنى يكون في ذلك وفاء ، والمحبة سر نظام الاكوان ، والاحسان قوام عالم الامكان ، والقائم على كنه جميعه قيوم السموات والأرض ، والمفتتحون لأبواب العرف على هذه النسبة الجليلة منه، فليس لي إلا أن ألجأ الى الله في مكافأة فضيلتكم ، على ما كان منكم أيام الاقامة بينكم ، ثم أسلي نفسي عن عجزي بما أخيل ان كرمكم سيروي

سيكفي الكريم اخاء الكريم ويقنع بالود منه نوالا

وبعد هذا أرجو عفوكم عن التقصير في المبادرة الى المكاتبة لأني شغلت

بما شغلني عن نفسي ولكن زالت العوارض والحمد لله وفاتني لهذا العذر تهنئتكم بالعيد، وانما المؤمن كل يوم بربه عيد، فنهنئكم برضاء الله عنكم، وتقبل صالح الاعمال منكم، وسلامي على نجالكم، ومن ينتمي اليكم، والله يحفظكم

٨

وكتب من بيروت الى بعض الكبراء في الاستانة جواباً عن كتاب منه

ان خدمت الملة في هذه فما هي أول خدمة، وان وفقك الله للنجاح فيها فليست بأول نعمة وان شحذت عزمك لاصابة الغرض منها فما هو ببدع منك، وإن طالت يدك لبلوغ المأمول فيها فما هو ببعيد عنك، فالله آخذ بعضدك، وممدك الى مقصدك، خصوصا وأنت مخلص النية، مشرق الطية، صادق العزيمة، شهم الفؤاد، اليف السداد، أيد الله رأيا أفردك في علوه، وبارك لك في عزم ميزك بسموه وحقق الرجاء فيك، وبلغ الامل منك!! حار قلمي، لا أدري بأي بيان يذكرك، وعلى أي فضل يشكرك، على صدق في خدمتك، أو اخلاص لدولتك، أو حمية لدينك، أو ثبات في يقينك أو بعد في همتك، أو علو في مروءتك، أو تنازل لاجابة هذا الداعي فيما رجاه، وتقريب أمله فيما تمناه، كيف يوافي شكر ذلك بيان، أو تصيب الغرض منه أسلة لسان

وافاني كتابك يفوق الغيث في بركته، والربيع في نضرته كيف لا والحق في طيه والفضل في ثنيه. وأين ما تربو به الاشباح مما تنعش به الارواح وابن نضرة الحقول، من بهاء العقول، هز مني بعد السكون وأظهر مني بعد الكمون وفتح لي الى الامل بابا، وكشف عني من الارتياب حجابا، فلا زلت يقوى بك العزم ويؤسى بفضلك الكلم أما ما سبق اليه رأيك من تقديم رسالتي [١] الى حضرة علم العلماء وتاج الفضلاء صاحب الدولة ناظر العدلية الافخم فكأنما رددت غريباً الى وطنه وأرجعت نازحا الى عطنه ولئن وقع ما عرضت موقع القبول عنده فانما ذلك تجلي فضله في مرآة علمه، والافعلام القصور ظاهرة فيما كتبت

(١) هي لائحه اصلاح التعليم التي سبقت في فصل اللوائح

ولوائح الارتباك بادية مما حررت وانما هي نفثات رسمت في صفحات على استعجال خيفة الفوات ، ومادفعني اليها ـ والله أعلم ـ الا يقيني بأن نجاح هذه الامة انما يكون بحسن التربية ولا سبيل الى التربية فيها الا باصلاح معتقداتها ، وتصحيح ملكاتها، حتى تستقيم بذلك اعمالها ، وتصلح أحوالها، وان سعي في هذا من فرائض الذمة، بل مندفع مني بباعث "عتيدة، آتيه مجبوراً في صورة مختار، أو مختاراً في صورة مجبور

وانني أحمد الله على قوة لا أجدلها مادة، وهداية لا أرى لتسيير الناس فيها جادة، فان وفقني الله الى مادة عمل وجادة خير بسعيك الناجح، ورأيك الراجح كانت أعمالي كلها شكراً لصنيعك، وكان الله من وراء ذلك خير مكافيء لك على جميل سعيك ، وأما استشهادك بفلان وفلان فاني أعده تفضلا منك في التأكيد وإلا فمجرد قولك عندي هو الدليل على الواقع والله ماأقول شهيد ، وليكن مني لك الاحترام الدائم والشكر الذي لاينقضي والله يتولى رعايتكم والسلام

٩

وكتب منها الى بعض الاصدقاء جوابا عن كتاب

سيدي العزيز

وافاني كتاب سيد الأحباب، وصفوة الأنجاب ، مبتسما عن الدر النظيم ، روايا عن الذوق السليم، متهللا بسناء منشيه، معجباً ببهاء مليه ، جاء بعدما حل منازل الجلال، ودار دورة الاقبال، ولولا رسل من شوقي اليه، تزاحمت أقدامها لديه ، فساقته يد الاقدار، وقاته قود الاوطار، لطال به التسيار « وبرح بي » الانتظار، وصل الي بعد اثني عشر يوما من تاريخ كتابته ، واني اقسم به لوزاد في غيبته، وجاء زاهياً بحليته . تائها في جلالته ، متقلداً حسام حجته ، مستشهداً بعدول من حاشيته، على مانسبت من المطل الى مودته، لما اقنعني دليله ، ولا الزمني تعليله ، ولقابلته بحسابه ، وسكنت من ضبابه، ولحاكمته محاكمة الود ، بين يدي حبي المستبد ، ولجازيته جزاء نافر اتعب في الطلب ، وشارد أوغل في الهرب ، ثم عفي

بحكم الغلب ، . أو معشوق بديع الجمال ، بالغ في الدلال ، حتى أعيا المحتال ، ثم ابتلي بغرام العشاق ، فابتغى وهو البغية وعمل المشتاق ، واعملت له من اشعة البصر حبالا ، أو سعيه بها احتبالا ، فيعز عليه الخلاص ، ويمتنع المناص ، فلا يبرح عن ناظري ، مادام ناظري ، ولا يريد ... مبادئ العقل عقالا أو ثقة به اعتقالا ، وأزيد في قيوده سلاسل من الفكر خفانا وثقالا ، حتى لا غيب عن الذهن انتقالا ، ولا عن الخيال زوالا ، وما أشده من جزاء يكون عبرة لما يليه ، فيخشى من توانيه ،

علمني كتابك كيف تناجي الارواح اشباحها ، والجراثيم أدواحها ، . أو كيف تحادث العقول أفكارها ، والقلوب أسرارها ، تباينت اجسامنا في عالم الكون والفساد ، وتباعد ما بيننا في كون التضارب والعناد ، وترفعت نفوسنا عن معارك الاضداد ، فتعالينا في جوهر الوداد عن الانداد ، فاتحدنا وليس بعد اختلاف ، وامتزجنا ولا عن افتراق ، وكان واحدنا من صاحبه في مكان الشرف من الفتوة ، والكرم من المروّة والقوة من العدل ، والكرامة من الفضل ، والعلم من الرشاد ، والحكمة من السداد ، واستغفر الله ان أكون منك في مقام الاستاذ ، فتفاوت النسب نوع من الجذاذ

لم يزدني كتابك يقينا بما أعلم من كرم طبعك ، وامتيازك بفضيلة الوفاء بين قومك ولم يذكر ناسيا لسابق ودك ، ولم ينبه غافلا عن ذكرك ولكن كان نوراً على نور ، وفضلا من كتاب عملك المبرور ، وسعيك المشكور ، ونعمة تشتهي النفس دوامها ، ونعمة يلذ للسمع تكرارها

سرني مادل عليه كتابك من كل صحة والدك الماجد ، وأخوتك الاماجد ، وأعضاء عائلتك الكريمة وانجالك بضعة كمالك

١٠

ومن رسائله الفكاهية الهزلية ما كتبه من بيروت الى صديقه العالم الاديب الشيخ عبد الحميد الخاني في دمشق . وكان رحمه الله محببا اليه والى جميع المصريين المنفيين في بيروت ، وكان له ألفاظ وسجعات كثيراً ماتدور في كلامه وكتابته ، هجيراه منها لفظ الدهشة وما يشتق منه ، فكان الاستاذ الامام وعبد الله باشا فكري وابراهيم بك للقاني يذكرون ذلك في كتبهم اليه على سبيل الحكاية . وهذا الكتاب جواب من الاستاذ الامام عن كتاب من الشيخ عبد الحميد رحمهما الله تعالى

لك الحمد والشكر

وفد عليّ كتاب السيد الاستاذ ، والمؤمل الملاذ ، ينبيء عن سعادة حاله ، وسعود إقباله ، فحمدت الله أن خطرت بباله ، وان لم أكن من ذوي باله ، ودهشت من مفاجأة هذه النعمة ، لقصر الهمة عن شكر يستزيدها ، وحمد يستعيدها ، وان سروري من السيد بتوجيه عنايته ، الى أخلص الناس في محبته ، بل أثبتهم قدماً على أبواب خدمته ، لأرق من لذة الوصال ، لمحبوب بعيد المنال ، بل من حظ النفس عند بلوغ الآمال ، والظفر بالاقبال

يشير الاستاذ في خطابه ، الى لطيف عتابه . وليس سروري بما أحس به الاستاذ من مكاتبته . أوفر من سروري بما تحققته من كل محبته ، أدام الله سروري بتوارد أخباره ، وشهود آثاره في أنصاره . وشهد الله أن غيبته عن ناظري ، لم تحجب مثاله الشريف عن خاطري . وأن تسلياتي متوالية في خلواتي وجلواتي ، وخواتيم صلواتي . لا يحيط بها لحظ اللاحظ ، ولا حفظ الحافظ . ولا

يأتي على وصفها الشيخ حسين الحافظ[١] وان بلغ في الفصاحة مابلغ الجاحظ . أهديها مع الرائح والغادي ، والحاضر والبادي . وما عليّ أن أقول وعلى الله الوصول

يعلم مولاي أني من تبعة القارئين ، وخدمة الكاتبين وأظن — إن حسن الظن — أني من مواقع احسانه ، ومواضع امتنانه . وما كنت أجحد شيئاً من رعايته . ولا آلو جهداً في شكر منته . ومع هذا لم يتفضل عليّ بلامعة من درره ولا بارقة من غرره . واختص السادة الفضلاء بالمراسلة ، واكتفى لي بسلام المجاملة . فالتمست من حضراتهم أن يحيوه أحسن تحية، أو يردوها على أي كيفية . ولا أدري بعد ما كان منهم رضي الله عنهم . ورأيت من المخاطرة، والجرءة الجائرة، ان ابتدر الاستاذ بالكلام ، وهو الامام ابن الامام . فوقفت عند الحد، وقمت مقام العبد، ان سئل أجاب، أخطأ أو أصاب، أليس لمثلي العذر ، ان يقصر به الفكر ، عن مكاتبة عبد الحميد هذا العصر ، وبديع الزمان في النظم والنثر ؟ بلى . ولولا ثقتي بسعة كرمه ، ما تمكن قلمي من اجابة قلمه . فليعف جناب السيد عما يراه فيما حرر على عجل ، تحت سلطان الخوف والوجل

شكرنا لمولانا سروره بما رأى في جريدة الثمرات . غير أن ما ذكر فيها انما هو كلمات قذفتها بعمر أغراض . فانقضت واستعقبت بالأعراض . على أننا اذا حسن التفاتكم الينا في آل خير من آلنا، وأوطان أرحب من أوطاننا . فلا غربة مع وجود الاحبة . و نسأل الله تخليد بقاكم ودوام رضاكم

توهتم بما حظي به الشيخ أسعد الا . . . من كتاب الصادق الاصدق الناطق بالحق ، فيما رق ودق . ذكر السيد أن الشيخ لم يدر عافاه الله من أين أتي . وأرى له عذراً في هذه الفعلة التي . . . فقد أتي من وراء حجاب . واحتبل بغير احتطاب . ودمر عليه من غير باب . فلا غرو ان غاب عنه الصواب . وخرم وانخرم معه الحساب، ابراهيم افندي جظه بعد الملاحظة ، ودلظه بلا مماكظة .

(١) كان هذا الشيخ المعاصر للاستاذ يحفظ عدة كتب من الحديث والادب وقد يحفظ القصيدة الطويلة من مرة وكان وصافا لا يتلعثم ولكنه لا يلتزم الصدق في الوصف ولا الحكاية

لكن الشيخ جوّاظ ، حجب بكماله عن.... فضلا عن اللحاظ، وإن كان في طبعه لظلاظا ، وفي هداه جلماظا . فتح سر الشيخ على القلم باب الظأظأة . ولولا أن تداركه لطف الله لجذبه للبأبأة والفأفأة . فلا تؤاخذ مجذوبا ، ولا تعنت مغلوبا. ثم إن القصيدة حائية لاجيمية . وكأن غموض معناها أعجم مبناها . سبحان الله العظيم ، وفوق كل ذي علم عليم ، كركركركركر ، إنها لاحدى الكبر

أرجو تقبيل أيدي حضرة والدكم . ثم إن حسن لديكم فبلغوا سلامي الى حضرات أصحاب السعادة محمد باشا ومحيي الدين باشا نجلي سعادة المرحوم الأمير عبد القادر ، أكرم الله جواره ، وقدّس أسراره . ويهدي حضرتكم التحيات المدهشات ، والتسليمات المرعشات ، حضرات الأساتذة الأفاضل ، الشيخ محمد والشيخ احمد عبد الجواد . وحضرة الحاج محيي الدين افندي حماده، وابراهيم افندي اللقاني ، والسيد محمود افندي الخوجه ، ومحمد علي افندي . ومن ظني أني سأحضر الى دمشق يوم الخميس ١٦ شعبان، لأرفع الى الاستاذ ما أستطيع من شكره على مبادأة (عبده) بالاحسان . رفع الله قدركم، وأعلى ذكركم، والسلام

١١

وكتب اليه أيضا

سبحانك اللهم وبحمدك

يا مجيد ، علمني ما أخاطب به عبدك المجيد ، جليته مجدك . وأشعرته ودك . وأغزرت عليه في البيان نعمتك . وأنبعت من جناته حكمتك . فبذّ القائلين بفصاحته . وملك مشاعرنا ببلاغته ، ثم يصفني وصف الأصفياء ، ويومي، إلي باشارة الاولياء ، ولست مما قال في رطب ولا عنب، ولا كعوب ولا رُكب . فاجزه اللهم عن حسن ظنه نورا يواصل السعي بين يديه، وأثبه عن صدق ولائه صفاء يكشف من سبحات وجهك عليه

أخي : الحمد لله ، ماأظن ان اثنين تواصلا على ماتواصلنا ، تواصلنا على لحمة روحانية ، لم تخالطها أهواء حيوانية ، وحكم الأرواح يتبعها في الدوام ، لاتؤثر

(عليه) عوارض الأجسام ، اللهم إلا أن الحواس الظاهرة ، يوحشها البعد عن طلعتكم الزاهرة ، ويدهشها القرب من ذاتكم الطاهرة ، فروحي من روحك في نعيم مقيم ، وسرور بلذة الصفو مستديم ، وحسي من حسك ما بين وحشة تكدره ودهشة ان شاء الله تغمره ، وكل يوم يمر علينا فيه خبر من ناحيتكم فيه والناقي كل سماع عن صحتكم سرور جديد

١٢

وكتب إلى الشيخ ابراهيم اليازجي جوابا عن اعتذار

وصل كتابك يحمل من العذر مقبوله ، ويرتاد من الرضا مبذوله ، ولقد كنت تعلم اني ما أردتك إلا لنفسك فالحمد لله إذ أرجعك اليها وله الشكر على ما عطفك عليها ، وما أنا بالمقصر بك عما سألت ، ولا الذاهب بك إلى خلاف ما طلبت وغاية قولي لا تثريب عليك . اليوم يغفر الله لك وهو أرحم الراحمين

حياتنا شبح روحها المحبة ، والمحبة شبح الاخلاص ، فما أسعد وقتاً نرى فيه حياتك منتعشة بروحها ، زاهرة بسر الاخلاص فيها ، وليس بذاهب عنك انك كما تكون يكون الناس لك ، واسأل الله ان ينفي عنك خواطر السوء ، ويزيح عن روحك الطيبة وساوس الغرور ، ويمن علي برؤيتك عند الغاية التي أحب لك ، وسلامي عليك وحدك من بين أهلك ، ولتكن مواصلتك دائمة والسلام

١٣

وكتب اليه في ١٥ صفر سنة ١٣٠٦ بعد رجوعه من الشام الى مصر

عزيزي صفوة البلغاء ، ونخبة الادباء حفظه الله

تماديت في التقصير حتى عجز العذر عن التعبير ، وخجل القلم من التحرير ، ولكن في علمكم بحال منتقل الى بلاد قد انكره هواؤها ، وتعرفت اليه ادواؤها ، ما لا احتاج معه الى بسط عذر يشفع الي بكم ، ويقبل لديكم ، ليت يوماً بعدت فيه عنكم كان يوماً قربت فيه منكم ، فلولا مثال من أدبكم يؤنسني اذا استوحشت ، ويشفعني اذا انفردت ، لكان سهمي اقصد ما يصيب المحرومين

١٤

وكتب اليه في ٢٣ ربيع الآخر سنة ١٣٠٦

هامة الفضل وجبهة الأدب حفظه الله

اكرمني الشيخ بايفاد كتابه ، يمثل لي ما لم انس من آدابه ، ويبشرني بتوفر النعمة على سلامته ، ويزيدني يقيناً باتصالها في مودته ، وسرني استقرار الشيخ على رخاء البال ، وان كدرني ذكر ما هب لديه من عاصفة البلبال ، لاترك الله لها مهبا ، ولا ادام لها مربا ، وأبلغ الله حضرة الأخ (يعني الشيخ خليلا اليازجي أخا الشيخ ابراهيم وكان مريضا) غاية الشفاء ، ووقاكم الله وآلكم من الاسواء

لاأبرىء نفسي من استبطاء كتاب الشيخ قبل وروده ، واجالة الاقداح فيما عسى أن يكون سبباً في تأخر وفوده ، واستكانتي في ذلك لسلطان الوحشة ، وانهزامي لغارة جيش الدهشة ، حتى كان الكتاب فيصلا وناصراً لحزبنا ، بل منقذاً لحزبنا ولا يوفي حق شكره ، إلا شغل بذكره

عجبت لمصير ذلك العقد ، وانحلاله قبل ان يشتد ، وتغيظ المفسدين عليه ، والتفاتهم بالسوء اليه ، وهو في مهده ، وعلى قرب عهده ، كأنما حم على هذه البلاد أن تكون حطباً لنيران الفساد ، وأن يذل فيها العلم ، ويضل في ابنائها الحلم ، ولا ينجح الفضل في مسعاه ، ولا يخيب الجهل في مبتغاه ، ولا حول ولا قوة الا بالله. ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، ويديل من هذا العسر يسراً

١٥

وكتب اليه من مصر

عزيزي الفاضل أيده الله

لمثل أدب الشيخ الفاضل تغني الاشارة ، عن طويل العبارة . وصلت مصر ومثال الشيخ آخذ بجناني ، وذكره مالك للساني ، ورجائي أن تدوم مواصلاته ، وتحيي النفس مراسلته ، والسلام على من يحب ، من ذوي الالباب

في ١٦ صفر سنة ١٣١٠

١٦

وكتب وهو في بيروت الى من مدحه نثراً ونظما

انت الذي سما بك استعدادك ، وزهابك احتهادك ، فأعدت للنثر سناءه ، ورددت للشعر بهاءه ، فلنا المسرة بمكاتبتك ، ومنا الحمد لمباداتك . أتتني منك فوائد منثورة ، تتبعها لآلىء منظومة ، أعلاها حسن اختراعك ، وأغلاها جودة ابداعك ، وكنت جديراً بحليتها ، مبتهجاً بزينتها لو أديت للحق فرض خدمته ، وطالت يدي في تأييد كامته ، ولكني على ميلي الى الحق لم تساعدني القدرة على اسعاده ، ولم يسعفني الحول والقوة على انجاده ، فأين انا منه ، وهذه حالي من جليل ماوصفت ، بل من قليل ماأغزرت ، وأرجو الله أن يرشد العقول الصافية ، ويجمع القلوب الحازمة ، ويصرفها الى فضل ماأعدلها ، فتجود أعمال ، وتثبت آمال وتبدو آثار يحمدها الحامدون ، ويعرف قدرها العارفون ، فهنالك تحقيق ماظننت ، وتصديق ماحدثت ، إن شاء الله ، والسلام

١٧

وكتب وهو فى مصر الى صديق جوابا على تنصل من هفوة بعد عتاب شديد

لو عرضت عليَّ نعم الله وفيها عزة الامراء ، وبزة الأغنياء ، ووفاء الاولياء ، لما اخترت منها غير الوفاء ، ولعددت نفسي به أسعد السعداء ، هذه خلتي ـ تقبلها الله ـ وفيها لمهجتي احياء . بهذا تعلم ماادخلت من السرور عليَّ ، فيما كتبت اليّ ، ولو جعل الله المحبة شكراً أوفى بحقها منها لبذلته ، ولو قدر لها أجراً أجزل عائدة منها نفسها لالتمسته وقدمته . نعم كنت وجهت كتابي الى شيطانك ، فلاقى الكتاب أكرم نفس فيك ، فانصرف والحمد لله عنك الى حيث لاأراه ، فاهنأ بكرم محتدك وزكاء منماك . والسلام

١٨

وكتب من بلرم الى أحد علماء الجزائر المصلحين

حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ عبد الحليم سمايا حفظه الله

لا يزال يؤنسني مثال من علمك وفضلك ، ويعجبني رفيق من كمالك ونبلك . وما كان ذلك ليفارقني بعد أن صار بضعة مني ، ولو كشفت لك من نفسك ما كشف لي، منها لعلمت مقدار ما آتاك الله من نعمة العقل والأدب ، ولعرفت أنك ستكون إمام قومك ، تهديهم إن شاء الله سبل الرشاد ، وتبصرهم بما يوفر عليهم الحظين : حظ المعاش وحظ المعاد . هذا هو أملي الذي أسأل الله تحقيقه . فخذ من الوسائل ما يبلغك بفضل الله غاية ما يرمي اليه استعدادك ، وأفضل ذلك فيما أرى استمرارك على مزاولة كلام البلغاء من أهل اللسان العربي . وإتمام ماسبقت لك البداءة فيه من اللسان الفرنسي ، ثم دراسة أخلاق البشر ، وما يكون له أثر في تحويلها بتدقيق يجدر به لقب التحقيق . ومن ذلك النظر في تاريخ الأمة الاسلامية ، وتنقل الدين في أطواره ، وعلل ذلك وأسبابه ، حتى يتيسر الحكم في أمراض النفوس ، وحسن اختيار الدواء الذي يناسبها . ثم التقدم إلى كل سريرة بما لا تشمئز منه ، ولا تبادر بالنفرة عنه ، وبذل الجهد في حمل الهمم على طلب العلم لتستنير به البصائر في العمل ، وشحذ العزائم على الجد في السعي والكد في كسب الرزق من وجوه الحل ، والانفاق منه في سبل المنافع وطرق الخير ، وأن يكون ذلك كله ديدنا للداعي لا يفتر عنه حتى يكثر في الناس من هو جدير بالنسبة الى رب الناس ، ولك في ذكاء ولدنا الفاضل الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة ، وإخلاص حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ مفتي الحنفية ما يساعدك على ما تقصد من نفع العامة ونصح الخاصة . وإني وإن كنت على ثقة من كمال عقلك ، ومعرفتك بما اليه حاجة المسلمين اليوم . فاني لا أجد مندوحة عن التصريح بالتحذير من النظر في سياسة الحكومة أو غيرها من الحكومات ومن الكلام في ذلك فان هذا الموضوع كبير الخطر ، قريب الضرر ، وإنما

الناس محتاجون إلى نور العلم ، والصدق في العمل ، والجد في السعي ،حتى يعيشوا في سلام وراحة مع من يجاورهم من أهل الأمم الأخرى ، ولا يتعلقوا من الوهم بحبال تتقطع في أيديهم متى جذبوها ، فيسقطوا والعياذ بالله فيما لامنجاة منه

بلرم ٣٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٢١ محمد عبده

١٩

وكتب الى بعض علماء الشام (١) جوابا عن كتاب هنأه فيه بمنصب الافتاء وهو من ألطف كتبه وفيه من الشكوى من سوء حال قومه ولا سيما الجامدين الرسميين ومن التحدث بالنعمة ماليس في غيره

انصفني قومك اذ سروا بتناولي منصب الافتاء ، ولعل ذلك لشعورهم بأنني أغير الناس على دين الله ،وأضراهم بالدفاع عن حماه ، وأدراهم بوجوه الفرص عند سنوحها ، وأحذقهم في انتهازها ،لابلاغ الحق أمله ، أو يبلغ الكتاب أجله، على أنهم مني بحيث لايفسد نفوسهم الحسد ، ولا يتقاذف بأهوائهم اللدد، وكل ذي دين يشتهي أن يرى لدينه مثل ماأحث اليه عزيمتي ، واخلاص في العمل لتحقيقه نيتي ؛خصوصاً ان كفي فيه القتال ،ولم يكاف بشدر حال ،ولا بذل أموال

أما قومي فابعدهم عني، أشدهم قربا مني، وما أبعد الانصاف منهم ، يظنون بي الظنون ، بل يتربصون بي ريب المنون ، تسرعا منهم في الأحكام، وذهاباً مع الاوهام ؛وولعاً بكثرة الكلام ،وتلذذاً بلوك الملام، أقول فلا يسمعون ،وأدعو فلا يستجيبون واعمل فلا يهتدون وأريهم مصالحهم فلا يبصرون ، واضع أيديهم عليها فلا يحسون ، بل يفرون الى حيث يهلكون ، شأنهم الصياح والعويل ، والصخب والتهويل حتى اذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل في مثلهم

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

واقول: ولا من الخير

وانما مثلي فيهم مثل أخ جهله اخوته ، او أب عقته ذريته ، أوابن لم يحن عليه

(١) هو أرجح انه الشيخ جمال الدين القاسمي رحمهما الله تعالى

اواه وعمومته مع حاجة الجميع اليه ، وقيام عمدهم عليه ، يهدمون منافعهم بايذائه ولو شاؤا لاستبقوها باستبقائه وهو يسعى ويدأب ليطعم من يلهو ويلعب على أني أحمد الله على الصبر وسعة الصدر اذا ضاق الأمر وقوة العزم وثبات الحلم وإن كنت في خوف من حلول الاجل ، قبل بلوغ الامل ، خصوصاً عند ماأرى أن العمل في أرض ميتة لوذابت عليها السماء مطراً لماانبتت زرعا ، ولا أطلعت شجراً أفزع لذكرى ذلك وأجزع ويكاد قلبي يتقطع ، ثم ارجع الى الله فاعلم انه مع الصابرين ، وأنه لايضيع أجر العاملين ، فيثلج صدري ، وأمضي في جهادي الدائم ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً

ممن اشتكي ؟ لو أن ماألقى كان من لغط العامة ولقلقة الجاهلين لهان الامر وتيسر المخرج . ولكن البلاء كل البلاء أن اشد الناس عداوة لا نفسهم هم أولئك المعلمون الذين يبعدون عن الدين مدعين انهم دعاته ، ويمزقون احشاءه زاعمين انهم حماته ، وما منهم إلا أحد شخصين : شخص ركب هواه فاعماه ، فهو يرى الحق باطلا ، والصواب خطأ ، وآخر غرته دنياه ، وأضله جشعه ، فران على قلبه مايكسب ، وامتنع عليه معرفة الصدق من كثرة مايكذب ، ولم يعد للحق الى قلبه سبيل

ليتني كنت أشكو الى الله جهل العالمين ، وحمق المعلمين ، في مثل الجاهلية التي بعث النبي صلى الله عليه وسلم لمحو أحكامها ، وإزالة أيامها ، تلك جاهلية كان الضلال فيها بعيداً ، ولكن كان فهم القوم حديداً ، لذلك عند مالاح لهم ضوء الهدى ابصروه ، وعند ماقرع اسماعهم صوت الداعي اجابوه ، كان القرآن يصدع أفئدتهم ، فيلين من شدتهم ، ويفل من شرتهم ، ويفجر من صخر القسوة ينابيع الحنان والرحمة ، وما كان أهل المناد فيهم إلا قليلا ، عرفوا الحق فانكروه ، وطائفة كانوا يفرون منه خوف أن يعرفوه ، ولو سمعوا ، لفهموا ثم لم يجدوا بداً من أن ينصروه ، وإن الجحود مع الفهم ، كاليقين في العلم ، كلاهما قليل في بني آدم .

أما اليوم فانما أشكو من قلة الفهم ، وضعف العقل ، واختلال نظام الادراك ، وفساد الشعور عند الخاصة فلا تجذبهم فصاحة ، ولا تبلغ منهم بلاغة ، وغاية مايطلبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، وأن يوصفوا بالعلم وإن لم يعقلوا ، وأن تقضى حاجاتهم

اذا سألوا ، وان ترفع مكاناتهم وان تنزلوا ، وان استعداد السامع للفهم يستدر المقال ، ويسدد الفكر للنضال في الجدال أما عيشك فيمن لايفهم ، فانه ينضب منك ينبوع الكلام ، ويطمس عين الفكر ، ويزهق روح العقل

جعلني الشيخ عبد الرزاق البيطار ثالث الرجلين (١) وما أنا في شيء من أمرهما ، الا نزر من الهمة ، وكثير من معرفة قدرهما

الحمد لله لا أحصي ثناء عليه ، وأشكره وأشكر نعمة مرجعها اليه ، وأذكر من نعمه أكبر نعمة أمدني بها ، وأكرمني بأسبابها ، إحسانه إليّ ، بعطف قلب الاستاذ عليّ ، وتقريبي من فؤاده ، وإحلالي مكانا من وداده ، كرمت نفس الاستاذ فكرم فيه مثالي ، وكلت سجاياه فتخيل منها كمالي . نسب إليّ الشيخ الجليل شؤوناً كلها من سرائره ، وألبسني من الاوصاف ثوبا نسجته يد مظاهره . جعل لي السيد من حسن ظنه معيناً . وأفادني بثقته ركناً ركيناً ، وسنداً أميناً . فأسأل الله تحقيق ظنونه ، وأن يمدني دائمـا بدقائق فنونه ، وأن ينصرني بولائه ، وأن يسلكني في عقد أوليائه ، والسلام

٢٠

وكتب من مصر الى مولاي عبد العزيز سلطان المغرب الأقصى ما يأتي

وصل إلى أسماعنا ، ونحن في ديارنا ، أنباء ماوجه اليه همه ، وشحذ لبلوغه عزمه ، من النهوض ببلاده الى الاصلاح ، والسير بها في منهج الفوز والفلاح ، وتلونا ما نشر من أوامره الكريمة ، ووعينا ماتضمنته من القواعد القويمة . فتجددت في سلامة تلك البلاد آمالنا . واشتغلت بأحاديثها أفكارنا وأقوالنا ، ولما كان الاصلاح الذى يقصده المولى ، إنمـا يتم برعاية الدين والرجوع اليه في كتابه المبين ، وسنة صاحبه الأمين . ثم النظر في أقوال وأعمال السلف الصالحين لتعرض على ذلك كله أعمال الخلف المحدثين . تعلقت الآمال بأن يكون لمولانا لفتة الى العلوم الدينية وإحياء مامات منها ، ونشر ما طوي من كتبها لتتأدب

(١) يريد شيخي الاسلام ابن تيميه وابن القيم

النفوس بأدبها ، وتحيي القلوب اذا اتصلت أسبابها بسببها . فثقة بهذه المقاصد الجليلة ألهمني الله أن أعرض على حضرتكم العلية . أنه قد تألفت في مصر جمعية لاحياء العلوم العربية وخاصة عملها أن تبحث عما كاد يفقد من كتب السلف فتصحح نسخه وتطبعه حتى يحيا بذلك ما اندرس من علوم الاولين واحتجب عنا بمحدثات المتأخرين ، وقد عنيت هذه الجمعية بطبع كتاب علي ابن سيده الاندلسي في اللغة المسمى بالمخصص ، وسيتم عن قريب ، وهي الآن تبحث عن نسخ مدونة الامام مالك ، حتى تحصل لها نسخة صحيحة ، ثم تطبع هذا الكتاب الجليل ، وقد وجدت من هذا الكتاب قطع في مصر ، وقطع أخرى في تونس ، وصارت هذه القطع في أيدي الجمعية ، ولكن لم توجد الى الآن نسخة كاملة يوثق بصحتها وقد تأكد للفقير ان نسخة كاملة للكتاب توجد في جامع القرويين . ويسهل على فضل مولانا السلطان أيده الله وأيد به الدين ، أن يمدنا في عملنا ، ويعيننا على ما نبتغي من الخير ، باصدار أمره الكريم أن ترسل الينا هذه النسخة ، إما بتمامها لنقابل عليها ما عندنا ونتم منها ما ينقص نسخنا ، ونعيدها اليه ، ونهدي الجامع عشر نسخ من الكتاب عند نهاية طبعه إن شاء الله تعالى . وإما مفرقة جزءاً بعد جزء ، فكلما انتهى الغرض من جزء أرسل الى مقره . وفي كلا الحالين سنقوم لمقامكم السلطاني بما يجب من الشكر على هذا الالتفات السامي الذي سنراه كأن الله حققه . ونسأل الله أن يؤيد بكم ملته ، وينصر بعزمكم شريعته

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ ليتأمل الناظر كيف أن الامام لم ينسب الى نفسه عملا ما في الجمعية وهو رئيسها وأكبر مؤسسيها ، وذلك دأبه في كل عمل للامة ، وخدمة للملة

٢١

وكتب بذلك أيضا الى مولاي إدريس بن مولاي عبد الهادي قاضي القضاة والمدرس بجامع القرويين بفاس

بسم الله والحمد لله وحده

حضرة الاستاذ الفاضل، العلامة العالم الكامل ، مولاي إدريس ابن مولاي عبد الهادي قاضي القضاة حفظه الله

بلغنا من كمالكم ، وكرم أخلاقكم ، وميلكم الى نفع العامة من المسلمين ، وإيصال الفوائد إلى خاصتهم ، ما جرأنا على مراسلتكم على غير معرفة سابقة ، والتوسل بكم في الوصول الى مايرجى ثواب السعي فيه إن شاء الله

نبشركم أن في مصر من أهل الفضل من وفقهم الله لنشر ما أماته الاهمال من آثار سلف الأمة ، ودواوين علومهم . وقد كانت باكورة أعمالهم طبع كتاب المخصص في اللغة للامام الجليل عليّ ابن سيده النحوي ، لشدة الحاجة اليه ، ولاشراف نسخه على العدم ، والامحاء من الوجود . وبعد أن بلغ الطبع معظم الكتاب ، رأى أولئك الفضلاء أن يبحثوا عن كتاب آخر من أمهات العلوم . فرأوا من أفضل الامهات ،وأحقها بالعناية ، وأشدها تعرضاً للضياع ، والاختفاء من الديار الاسلامية (مدوّنة الامام مالك) فأخذوا يبحثون عن نسخها فتحقق ظنهم في تعرضها للضياع ، لأنهم لم يجدوا نسخة كاملة في الديار المصرية ، ولا في الديار التونسية وحملهم ذلك على الجد في الطلب والبحث في زوايا المساجد لعلهم يعثرون على مايتمم لهم نسخة صحيحة فهم كذلك إذ بلغهم أن في مسجد القرويين بمدينة فاس نسخة من الكتاب كاملة . فحملني الحرص على الوصول الى تلك النسخة على أن رفعت عريضة رجاء الى مولانا السلطان المعظم مولاي عبد العزيز ليأمر بارسال النسخة إما جملة وإما جزءاً جزءاً وعلينا بعد طبع الكتاب أن نرسل منه عشر نسخ الى جامع القرويين

بعد أن ارسلت العريضة حضر عندي من تفضل علي بذكر صفاتكم

الجميلة ، وسجاياكم الفاضلة . وأكد لي أن حضرتكم تكون عونا على ما أطلب ، لهذا بادرت بتحرير هذا الرقيم اليكم ، راجياً من همتكم أن تساعدوني في الوصول إلى تلك النسخة ، أوغيرها من نسخ المدونة ، ولك علينا أن نعيدها كما أخذناها ثم نرسل عشر نسخ مطبوعة ، إما لجامع القرويين ، أو لمن يتفضل بارسال نسخة الينا مع الشكر الخالص والدعاء الدائم إن شاء الله

٢٢

وكتب من مصر الى الفيلسوف تولستوي الروسي عندما حرم من الكنيسة الروسية

أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوي

لم نحظ بمعرفة شخصك ، ولكنا لم نحرم التعارف مع روحك ، سطع علينا نور من أفكارك ، وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك ، ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك . هداك الله إلى معرفة سرّ الفطرة ، التي فطر الناس عليها ، ووقفك على الغاية التي هدى البشر اليها . فأدركت أن الانسان جاء إلى هـذا الوجود لينبت بالعلم ، ويثمر بالعمل . ولأن تكون ثمرته تعباً ترتاح به نفسه ، وسعياً يبقى به ويرقى جنسه ، وشعرت بالشقا الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة ، وبما استعملوا قواهم ـ التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها ـ فيما كدر راحتهم ، وزعزع طمأنينتهم

ونظرت نظرة في الدين مزقت حجب التقاليد ، ووصلت بها الى حقيقة التوحيد ورفعت صوتك تدعو الناس الى ماهداك الله اليه وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه فكما كنت بقولك هاديا للعقول كنت بعملك حاثا للعزائم والهمم ، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدي بها الضالون ، كان مثالك في العمل إماما يقتدي به المسترشدون وكما كان وجودك توبيخاً من الله للأغنياء كان مدداً من عنايته للضعفاء والفقراء وان أرفع مجد بلغته وأكبر جزاء نلته على متاعبك في النصح والارشاد هو هذا الذي سماه الغافلون بالحرمان والابعاد فليس ماحصل

لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس انك لست من القوم الضالين فاحمد الله على ان فارقوك في أقوالهم كما كنت فارقتهم في عقائدهم وأعمالهم

هذا وإن نفوسنا لشيقة الى مايتجدد من آثار قلمك فيما تستقبل من أيام عمرك وانا نسأل الله أن يمد في حياتك ويحفظ عليك قواك ويفتح أبواب القلوب لفهم قولك ويسوق النفوس الى التأسي بك في عملك والسلام

٢٣

وكتب اليه أيضا

أيها الروح الزكي ، صدرت من المقام العلي ، إلى العالم الأرضي ، وتجسدت فيما سموه بتولستوي ، قوي فيك اتصال روحك بمبدئه ، فلم تشغلك حاجات جسدك ، عما تسمو اليه نفسك ، ولم تصب بما أصيب به الجمهور الأعظم من الناس من نسيان ما فصلوا عنه من عالم النور ، فكنت لاتزال تنظر اليه النظرة بعد النظرة ، وترجع اليه البصر الكرة بعد الكرة ، فوقفت بذلك على سر الفطرة ، وأدركت ان الانسان خلق ليتعلم فيعلم فيعمل ولم يخلق ليجهل ويكسل ويهمل

٢٤

وكتب الى محمد بك صالح (١) لما رقي الى قاض من الدرجة الثالثة

ولدي النجيب

أنت تعلم ما مازج قلبي من السرور بترقيتك وليس عندي من عبارة تفي بما تعلم من ذلك وهذا إن شاء الله أول سلم ترقى به الى غاية مايسري اليه استعدادك والسلام سنة ١٨٩٣

(١) هو المرحوم محمد باشا صالح المشهور الذي توفي من عهد قريب ، وقد ارتقي في سلم القضاء الاهلي الى أعلى درجاته كما بشره فصار مستشاراً في محكمة الاستئناف وهو من تلاميذه في الرعيل الاول من طلبة دار العلوم وقد سألته مراراً عن آمالي الاستاذ التي أملاها عليهم عند قراءته لهم مقدمة ابن خلدون في فلسفة التاريخ وسنن الاجتماع والعمران فقال انه كان يحفظ مسوداتها ووعدني بالبحث عنها في أوراقه في البلد عند المامه بها والظاهر انه كان ينسى

٢٥

وكتب من مصر إلى بعض الاصدقاء الفضلاء

تناولت كتابك ولم يذكر مني ناسياً، ولم ينبه لذكرك لاهياً، فأني من يوم عرفتك لم يغب عني مثالك ، ولا تزال تتمثل لى خلالك

ولو كشف لك من نفسك ما كشف منها لفتنت بها ولحق لك ان تتيه بها على الناس أجمعين، ولكن ستر الله عنك منها، خير ما أودعك فيها، لتزينها بالتواضع وتجملها بالوداعة ، ولتسعى الى مالم يبلغه ساع، فتكون قدوة لاخوانك في علو الهمة، وبذل مايعز على النفس في نفع الامة، زادك الله من نعمه، وأوسع لك من فضله وكرمه ، ومتعني بصدق ولائك، وجعلك لى عونا على الحق الذي ادعو اليه، ولا أحيا الا به وله ، والسلام

٢٦

وكتب أخيراً من مصر الى الشيخ عبد الرزاق البيطار ،أوحد علماء سورية الابرار، جوابا

مولانا الاستاذ العلامة نفعنا الله بحبه

وصل الي كتابك ، تسطع فيه آدابك ، ويفيض منه العقل ، ويضيء منه الاخلاص والصدق ، وما أعظم فضل الله علي في توجه عنايتك الي تعين (على) إظهار الحق بعد خفائه ، وهدم الباطل بعد شموخ بنائه، ولقد أوسع مولانا في التفضل على العاجز عن شكره، المقيم على نشر فضله وإعلاء ذكره ،وأسأل الله أن يتكفل باثابة مولانا الاستاذ على مايغمرنا نه من نعمة الخطور بباله ، وجريان ذكرنا فيما يخط قلمه أو ينطق لسانه

٢٧

وكتب منها الى عالم الشام العامل المصلح الشيخ جمال الدين القاسمي

حضرة الاستاذ

كأن القدر يريد أن يكون مابيني وبينك سراً مكتوماً ،ومضمراً يأبى أن يكون مرقوماً ، فقد حاولت مثين من المرات أن أكتب اليك ،وكانت تأتي العوائق فتحول دون ذلك، كانني كنت أحاول فتح قلعة، أو محو بدعة،وهاأنااليوم (الجمعة) عقدت العزم على أن لاأقوم من مجلسي هذا حتى أكتب اليك أشكر لك صنيعك على ماتدخله علي من السرور بايفاد كتبك علي بما تكتب الي من وقت الى آخر ،واعتذراليك في الابطاء عن الجواب بما تعلم من كثرة الشواغل، وأرجوك أن لاتحرمني من ذلك الفضل الذي بدأت به،وان لاتجعل لفضلك في ذلك نهاية ،والسلام

٢٨

وكتب منها الى النابغة الشهير الاستاذ السيد عبد الحميد الزهراوي بحمص جوابا

والدنا الفاضل

تمنيت لو تمتعت بقربك، كما قدر لي المتاع بأدبك، ولكن أحمد الله الذي يرينا مانختار ، في غير مايقع عليه الاختيار ، فأنت حيث أنت أنفع ماتكون لقومك، تجعل لهم حظامن عمل يومك، تزحزح عن أبصارهم حجب الغفلة،وتعظهم بما أوتيت من الحكمة،وتهيء نفوسهم لقبول الحق اذا أقبل،وتعدها لمدافعة الباطل اذا أظل، واسأل الله أن يشد أزرك،ويخفف من ذلك وزرك،ويرفع بعملك قدرك، وأماصلتنا بك فصلة آمال وأعمال، وهي خير صلة وأوفقها عند الرجال، بارك الله لك في أيامك، ورزقك الخير والسعادة في أعوامك ، والسلام

٢٩

وكتب من مصر إلي فرح افندي أنطون صاحب مجلة الجامعة جوابا عن كتاب منه يقول فيه انه احتقره (*

لو احتقرتك ما كتبت إليك كلمة وانك سيء الظن بنفسك ، أكثر مما يسيئه بك غيرك، وكنت أود لو كنت لنفسك أفضل مما أنت لها اليوم ولكن: اللهم عرفنا بأقدار أنفسنا فذلك اللهم أنفس ماتعطي وأفضل ماتهب ، والسلام

١٧ أكتوبر سنة ١٩٠٣

٣٠

وكتب الى الشيخ مصطفى نجل صديقه حسن باشا عبد الرازق ما يأتى ومنه يعلم سببه

ولدنا الاديب

خير الكلام ماوافق حالا، وحوى من النفس مثالا، تلك أبياتك العشرة رأيتني والحمد لله متربعاً في سبعة منها كأنها الكواكب تسكنها الملائكة ومابقي كانه الشهب، نور للاحباء، رجوم للاشقياء، ماسرت بشيء سروري بانك شعرت من علم حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك، فلله أنت ولله أبوك، ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت اليك من الثناء ما يملأ عليك الفضاء، ولكني اكتفى بالاخلاص في الدعاء ان يمتعني الله من نهايتك بما تفرسته في بدايتك وأن يخلص للحق سرك ويقدرك على الهداية اليه، وينشط بنفسك لجمع قومك عليه ، والسلام

---

*) كان فرح أفندي عصبيا سيء الظن يظن السوء فيخال ظنه واقعا واسوء ظنه بالاستاذ وبي قصة غريبة تطلب من الجزء الاول من هذا التاريخ

٣١

وكتب من مصر الى محمد بك نجيب بكار جوابا

ولدنا الفاضل

أشكرك لما كتبت الي أولا ولما كتبت وأهديت ثانيا وأحمد الله على نعمته الجديدة في معرفتك، وفضله العظيم في إخلاص مودتك. وأسأله أن يجعل ذلك كله في سبيله وأن يجعل ثمرته خيراً للاسلام والمسلمين والسلام .

نموذج من كتبه لواضعي الكتب النافعة ومترجميها

٣٢

كتب الى من ألف كتابا نافعا لا أتذكر من هو ولا ماهو كتابه

حضرة الفاضل المحترم

أبطأت في اجابتك، وقصرت في الاسراع بشكرك، لما أتحفت به أهل لغتك من ذلك الكتاب الذى تجلى فيه ذكاؤك واعتدال رأيك في أحسن صورة ، لم تفتك فيه فضيلة الابداع ، ولم تحرم من حسن الاتباع ، اقتفيت أثر سلفك من تجويد الرأي واحترام مقام العقل ، فلم يهبط بك التقليد إلى مايحط بالعمل ويسقط من قيمة الكد في الجد ، ثم أبدعت في ترتيب كتابك على ما هو أقرب للفهم، وأدنى إلى التقريب من حقيقة العلم ، وكأني بك قد وقفت على ذلك السر الذي خفي عن الجمهور الأعظم ممن سبقك ، وهو أن القرآن قد خط للعرب طرقا للتعبير ، ومهد لهم سبلا جديدة لصوغ الأساليب، ليخرج بهم من ضيق ما كانوا التزموه ، ويبعد بك منهم عن تكلف كانوا رغموه، ولهذا قوي عندك كل ما بني عليه، وضعف لديك كل مالم يستند اليه ، جزاك الله عن نفسك خير ما يجزى به عامل عن عمله، وجزاك عن أهل لغتك خير ما يجزى به محسن عن احسانه ، والسلام .

٣٣

وكتب الى سليمان أفندي البستاني مؤلف دائرة المعارف ومترجم الالياذة كتابا قرىء في الحفلة التي أقامها له فضلاء السوريين في القاهرة

عزيزي الفاضل سليمان افندي البستاني

دعاني أصدقاؤك وأصدقائي الى الانس بك ساعة تهنئك بالنجاح في ذلك العمل الأدبي الذي كلفت بابداعه عدة من السنين ، دعوني الى الاشتراك معهم في شكرك لما دأبت في السعي، وأخذت نفسك بالصبر على مشقة البحث والعناء في اختبار مسالك النظم ، لتهدي الى أبناء لغتك العربية ، من أحاسن الصناعة الأدبية مايعد زينة للناظرين

وكنت أكون أسرع الناس الى إجابة الدعوة لولا مانع ذنبه إليَّ ذنب العاذل الى عاشق الحسان ، منعني الانس بهم وبك ، ولكنه لم يمنعني أن أشاركهم في شكرك

تمت لك ترجمة الالياذة لنابغة شعراء اليونان هميروس المشهور نسجت قريحتك ديباجة ذلك الكتاب كتاب الترجمة ، فاذ هو ميدان غزت فيه لغتنا العربية ضريعتها اليونانية . فسبت خرائدها ، وغنمت فرائدها، وعادت باليناقي حلل من آدابها . تحمل الى الألباب قوتاً من لبابها، وما أجل ذلك الغلب، في زمن ضعف فيه العرب ، حتى عن الرغب في نيل الأدب ، ماينال منه عن كثب فضلا عما يكسب بالتعب . فحق لك الشكر على كل من يعرف قيمة ماوفقت لا كماله من العمل . فقد سددت به ثلمة كانت في بنية العلم العربي من عشرة قرون

أغار قومنا على دفائن الفنون اليونانية في القرن الثالث من الهجرة وما بعده فنثروا منها ما كان مخزونا ، ونشروا بين الناس ما كان مدفونا . ولم يدعوا غامضاً إلا جلوه ، ولا بعيداً إلا قربوه ، ونالت اللغة العربية بصنيعهم ذلك مالم يكن في حسبانها فقد صارت لسان العلم والصنعة ، كما كانت لسان الدين والحكمة

لكن كان أولئك الأساطين الأولين كانوا يرون أن ذلك مايفرضه الحق عليهم في جانب العلم الذي لايختلف فيه مشرق عن مغرب، ولا يتخالف على

حقائقه الأعجم والعرب . وظنوا أن ماوراء العلم من آداب القوم ليس مما يتناسب مع آدابهم ، لبعد مابين أنساب أولئك وأنسابهم . فلم يعدوا نظرهم إلى ما كان في اليونانية من دواوين الشعراء ، وما صاغته قرائح البلغاء ، فلم تنل اليونانية من عنايتهم مانالت الفارسية والهندية . وكان مؤمل اللغة منهم أن لايحرموها نفائس ما اخترع اليونانيون، كمازينوها بزينة ما أبدع الهنديون والفارسيون. وبقي ذلك المؤمل في غيب الدهر، حتى أتيت ترفع عنه الستر . وجئت تقول للناس إنني آتمم في دولة عباس ، مانقص في ملك بني العباس . فما أقرَّ عين العربية بنيل طلبتها ، وظهور ما كان منتظراً لشيعتها . أرجو أن ينال كتابك من الاقبال عليه، والانتفاع به ، ما يكافىء تعبك ، ويبعث همم العاملين على أن تتبعك ، والسلام

٣٤

لما ترجم محمد حافظ بك ابراهيم الجزء الاول من كتاب (البؤساء) بالعربية أهداه اليه بهذا الكتاب

إلى الاستاذ الامام

إنك موئل البائس ، ومرجع اليائس ، وهذا الكتاب — أيدك الله — قد ألم بعيش البائسين ، وحياة اليائسين . وضعه صاحبه تذكرة لولاة الأمور ، وسماه كتاب (البؤساء) وجعله بيتاً لهذه الكلمة الجامعة ، وتلك الحكمة البالغة (الرحمة فوق العدل) وقد عنيت بتعريبه ، لما بين عيشي وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب ، وتصرفت فيه بعض التصرف ، واختصرت بعض الاختصار . ورأيت أن أرفعه إلى مقامك الأسنى ، ورأيك الأعلى ، لأجمع في ذلك بين خلال ثلاث (أولها) التيمن باسمك والتشرف بالانتماء اليك (وثانيها) ارتياح النفس وسرور اليراع برفع ذلك الكتاب الى الرجل الذي يعرف مهر الكلام، ومقدار كدّ الأفهام (وثالثها) امتداد الصلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية باهداء ماوضعه حكيم الغرب الى حكيم المشرق

فليتقدم سيدي إلى فتاه بقبوله والله المسئول أن يحفظه للدنيا والدين . وأن يساعدني على إتمام تعريبه للقارئين . . اهـ

قدم محمد حافظ هذا الكتاب الى الاستاذ الامام ونحن جلوس معه في حديقة داره بعين شمس مساء يوم من الأيام فأخذه منه بعد أن قرأه علينا وعليه ودخل الدار فمكث فيها قليلا ثم عاد الينا وقال : انني عصرت دماغي على ما به من جفاف الكلال فخرج منه هذه الكلمات : ـ وأعطى حافظا ورقه قرأ فيها :

تقريظ كتاب البؤساء

لو كان بي أن أشكرك لظن بالغت في تحسينه ، أو أحمدك لرأي لك فينا أبدعت في تزيينه لكان لقلمي مطمع أن يدنو من الوفاء بما يوجبه حقك ، ويجري في الشكر إلى الغاية مما يطلبه فضلك ، لكنك لم تقف بعرفك عندنا ، بل عممت به من حولنا ، وبسطته على القريب والبعيد من أبناء لغتنا

زففت إلى أهل اللغة العربية ، عذراء من بنات الحكمة الغربية ، سحرت قومها ، وملكت فيهم يومها . ولا تزال تنبه منهم خامداً ، وتهز فيهم جامداً ، بل لا تنفث تحيي من قلوبهم ما أماتته القسوة ، وتقوّم من نفوسهم ما أعوزت فيه الأسوة . حكمة أفاضها الله على رجل منهم . فهدى إلى التقاطها رجلا منا . فجردها من ثوبها الغريب ، وكساها حلة من نسج الأديب ، وجلاها للناظر ، وحلاها للطالب ، بعد ما أصلح من خلقها وزان من معارفها ،[1] حتى ظهرت محببة إلى القلوب ، شيقة الى مؤانسة البصائر ، تهش للفهم ، وتبش للطف الذوق ، وتسابق الفكر إلى مواطن العلم . فلا يكاد يلحظها الوهم ألا وهي في النفس مكان الالهام

حاول قوم من قبلك أن يبلغوا من ترجمة الاعجم مبلغك . فوقف العجز بأغلبهم عند مبتدأ الطريق . ووصل منهم فريق إلى ما يحب من مقصده ولكنه لم يعن بأن يعيد إلى اللغة العربية ما فقدت من أساليبها ، ويرد اليها ما سلبه

(١) معارف من وجه الانسان ما يعرف به ويمتاز من غيره كالعينين والملاغم

المعتدون عليها من متانة التأليف وحسن الصياغة وارتفاع البيان فيها الى أعلى مراتبه، أما أنت فقد وفيت من ذلك مالا غاية لمزيد بعده، ولا مطمع لطالب أن يبلغ حده . ولو كنت ممن يقول بالتناسخ لذهبت إلى أن روح ابن المقفع كانت من طيبات الأرواح . فظهرت لك اليوم في صورة ابدع ، ومعنى أنفع ، ولعلك قد سننت بطريقتك في التعريب سنة يعمل عليها من يحاوله من ظهور كتابك ، ويحملها الزمان الى أبناء ما يستقبل منه ، فتكون قد أحسنت الى الأبناء ، كما أجملت الصنع مع الآباء ، وحكمت للغة العربية أن لا يدخلها بعد من معجمة سوى ماهو في الأسماء ، أسماء الأماكن والأشخاص، لا أسماء المعاني والاجناس، ومثلي من يعرف قدر الاحسان إذا عم ، ويعلي مكان المعروف اذا شمل، ويتمثل في رأيه بقول الحكيم العربي :

ولو أني حبيت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفراداً
فلا هطلت عليَّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

فما أعجز قلمي عن الشكر لك ، وما أحقك بأن ترضى من الوفاء باللفاء (١)

تقول : إن الذي وصل سببك بسبب صاحب الكتاب ، ووقف بك على دقائق من معانيه اشتراكك معه في البؤس ، ونزولك منزلته من سوء الحال ، وربما كان فيما تقول شيء من الحقيقة ، فان كان البؤس قد هبط على صاحبه بتلك الحكمة ، ثم كان سبباً في امتيازك من بين المترفين بتلك النعمة ، سألت الله أن يزيد وفرك من هذا البؤس حتى يتم الكتاب على نحو ما ابتدأ ، وأن يجعلك في بؤسك أغنى من أهل الثراء في نعيمهم، والسلام .

---

(١) اللفاء بالفتح القليل الذي هو دون الحق

٣٥

تقريظ تشطير البردة وقصيدة تقرأ على وجوه كثيرة

رفع إلى الاستاذ الامام تشطير للبردة من شاعر ضعيف وقصيدة تقرأ على وجوه تعد بالمئات أو الالوف وقد قرظها له بعض كبار العلماء ومنهم الشيخ حسن الطويل وسأله أن يقرظها له فامتنع فاستشفع عليه بمن يعز عليه رد شفاعته فكتب له تقريظا عجبنا له كيف نشره وهو ليس عندي بنصه ولكنني أحفظ منه قوله :

اما التشطير فيكاد غير العارف بمكانة الأصل يحسبه مع التشطير من ينبوع واحد! وأما القصيدة التي تفوق أمثالها بكثرة الوجوه التي تتجلى لقارئها فهي من مخترعات القرائح الذكية (أي ليس له هذا الاختراع بل هو مسبوق اليه وهذا صحيح)

(ثم قال الاستاذ) واذا ساق الجد حضرة الاديب المشطر في الاشتغال رأينا من قلمه ما تتغذى به العقول وتستنير به الافئدة ! الخ

نموذج من كتبه في التعازي

١

كتب وهو في سورية الى أحد أصدقائه الكبراء معزيا

ان كان للحادثات غالب من الهمة ودافع من العزيمة ، ففي همتكم مايعرك أذن الدهر ويضرب ناصية الزمان ، وانما انتم بمكان من منعة النفس ، تمر الملمات دون ادناه ، تتهيب النظر اليه، فضلا عن الوثبة عليه ، فلا يفزعكم جائشها ، ولا يستفزكم طائشها ، هذا الذي يعزيني بعض التعزية اذا طاف عليّ طائف الكدر مما ألمّ بكم من فقد صاحبة العصمة عقيلتكم . على أن يقينكم بالله وتسليمكم لقدره هو أعلى واكمل من أن يخالطه جزع من الفراق ، وإن كان مرّ المذاق، فان من سار عنكم اقبل على رحمة من الله ورضوان ، فهو في جوار ربه ، متمتع بلذة قربه ، وإن له لفخراً بين السابقين ، ورفعة بين المقربين ، بما أسستم من مجد شامخ ،

وشرف باذخ ، فضاعف له النعمة في حياته الأبدية : جنة بالصالحات ، وبهجة بالباقيات . ولقد اختار واختار الله له داراً لو خير بين ساعة فيها والتخليد في هذه الدار الفانية ، لفضل ذلك اليسير على هذا الكثير . نعم يأسف لما أسفتم . ويألم بما ألمتم . فعزوا أنفسكم تسروه ، وطيبوا بالقضاء نفساً تفرحوه . واذكروا منزلته في الصديقين تغبطوه

هذا ما أقدمه اليكم ،وهو نزر مما تطويه معارفكم ،غير انه مما اناجي به نفسي تصبراً ،واحدثها به تجلداً ،والله اعلم بما شعر به وجداني عندما بلغ إليّ الخبر،ولقد كان من الفرض، ان أبادر بعرض إحساسي قبل هذا الوقت، الا أن عقابيل العلة كانت تمنعني النظر في الاخبار ،حتى انقشع عني حجابها من مدة قريبة ، وما أنا بالناسي ، وإن أنست الحوادث ذكري ،وما انا بالقاطع وان زينت الأيام هجري، فصبر جميل ، وما العفو عن تقصيري عليكم بعزيز ،ومأمولي عرض تحياتي على مقام دولة الباشا، والله يحفظكم المحبة ويبقيكم للشرف م؟

٢

وكتب منها معزيا عن الامير عبد القادر الجزائري الشهير ، وكانت صلة المودة بينهما محكمة العرى كما أشير اليه في بعض المكتوبات الاصلاحية

أعلام السيادة وأصحاب السعادة حضرة سعادتلو الامير محمد باشا وحضرة سعادتلو الأمير محيي الدين باشا

هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون * ألا الى الله تصير الأمور *« انما الصبر عند الصدمة الأولى » اليوم غشيتني غاشية الغم ، ودهتني داهية الهم ،اليوم بلغنا ماأصابنا وأصاب المسلمين ،ولم يخص الاقربين حتى عم جميع الموحدين ، ولم يمس ذوي الارحام ،حتى زعزع مجد الاسلام ،اليوم شاع على الألسن ،وتحدث الكافة أن جناب الأمير الشهير ،صرف نظره العالي عن مظاهر الحياة الدنيا ،واستقبل بتمام وجهه ملكوت ربه الأعلى، سار بروحه الشريفة عن عالم الفناء ،الى ما أعدّ له من منازل الكرامة في دار البقاء ،قد اختار لنفسه ما اختاره الله له من الاختصاص

بجواره الكريم ، والاتصال بنور وجهه العظيم ، نظر الله الينا بعين الجبروت ، ليصعد بجناب الأمير إلى أعلى الملكوت ، سار الأمير الى ربه ، وترك المؤمنين بلاقيم عليهم ، ولا وصي يعيد مجدهم اليهم ، ولولا اليقين بأنكم اشباله ، ولم تفتكم مزاياه وخلاله ، لماتعزت الأنفس في البقاء بعده ، وللحقنا به اختياراً لما عنده ، كل قول يقال فهو دون محيط الفكر والنظر ، ومقام الأمير أجل من أن تصل الى سرادقاته أشعة البصائر والفكر ، وليس من كلمة أجمع لكلماته ، ولا قول أوفى بفضائله ، سوى أنه ﴿الأمير عبد القادر الجزائري﴾ فهي منتهى وصف الواصفين : وغاية مدح المادحين ، وكفى في مصيبة أهل الايمان ان يقال : أصبحوا بلا أمير ، وحسبهم تعزية عن مصابهم انكم بنوه ، وورثة فضله ومعززوه

٣

وكتب منها الى بعض أصدقائه الكرام معزياً عن كريمته

بسم الله المحمود في السراء والضراء

هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون * كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون *

لاحيلة في القضا ، ولا أنجع في تلطيفه من الرضا ، وإن في قوة ايمانك ، وسطوع يقينك ، وكمال عقلك ، لكفاية في الانابة الى الله تعالى ، والرغبة فيما لديه من عظيم الأجر وجزيل الثواب ، والتطامن لأحكامه بقلب شاكر ، ولسان ذاكر ، وإن مصيبة الفقيد وإن جل خطبها ، وعظم على النفس خطرها ، إلا أن الله تعالى أعد عنده للصابرين أكرم المنازل ، وأرقى مراتب القرب لديه ، وكفى بالصبر فضلا أن يخص صاحبه بما اختص به النبيون والملائكة المقربون ، يقول الله تعالى (وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وانا اليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) والموت سبيل تزاحم عليه السابقون واللاحقون ، ومورد ينهل منه الخلائق أجمعون

وما الدهر والأيام الا كما ترى رزية جر أو فراق حبيب

ولقد كان حضرتكم في غنى عن تعزية الأحباء ، وتسلية الأصدقاء، بما آتاكم الله من عزم يصدع حوادث الأيام ، وثبات يهزم غوائل الزمان ، وكان يمنعنا الحياء ان نذكر سيادتكم بما أنتم به أعلم ،وان نقدم اليكم ماهو لديكم أعلى وارفع، لكن هذه كلمات نسلي بها خواطرنا على ماألم بهامن الاشتراك في هذا القضاء الذي امتحن الله به صبرنا وصبركم ، وابتلى به ايماننا وايمانكم (ليبلوكم أيكم احسن عملا) ونسأل الله تعالى أن يجعل لكم من مثوبته عوضاً عما أخذ منكم ، وأن يفرغ عليكم الصبر ، وأن يدر غيث الرحمة والرضوان على فقيدتكم الكريمة،وأن يرفع مقامها في اعلى عليين ، وان يطيل بقاءكم ، ويديم عزكم ومجدكم ، وعليكم مني مزيد السلام ، وإلى جنابكم الرفيع فائق الاحترام

٤

وكتب الى الشيخ ابراهيم اليازجي معزياً عن أخيه الشيخ خليل

جناب الشيخ الاروع ، والبليغ الابرع، أيده الله

لو كانت بالدهر ثقة لكانت لأبنائه ، ولو حفظ له جوار لصح لألفائه ، ممن درجوا على سَننه ، وأخذوا باحكام ُسننه ، وله فيهم كل يوم غدرة ، وله فيهم عليهم كل آن كرة ، فكيف يرجى لمن نابذته طباعهم ، وخالفت أوضاعه أوضاعهم، فهو يتقلب وأرواحهم في الفضل ثابتة ، ويتغشمر ونفوسهم للحق مخبتة، فالفضلاء - وأنت وسطهم - لا يزالون معه في حرب دائمة ، والعرفاء - وأنت هامتهم - في مقارعات معه متفاقمة ، لكنهم يرون له انكى من نكاياته ، التدرع بالصبر في ملاقاته ،ورد وثباته ،بسكون الجنان وثباته ، ولست أذكر الشيخ بمثل ماقال ارسطو « ماأشد ظلم الناس! يستقبلون القادم الدنيا بالفرح والسرور ، ويتبعون الراحل عنها بدعاء الويل والثبور ، ولو انصفوا في أمرهم ،لعكسوا في حكمهم » وإن مصيبة الراحل عنا عظيمة ،ورزيئة اليأس من لقائه جسيمة ، وحرماننا من آدابه يذهب بالنفس حسرات ، وخلو وطنه من مثله يذيب القلوب الواجدات ، ولكن سئم العناء وداره ، وكره الباطل وجواره ، فاستقبل وجه البقاء، وخلص الى

ماإليه النجاء، فما الحيلة ؟ التصبر ، أجمل من التحسر ، والجلد أجدر بنا من الكمد . وإني وإن وجهت الخطاب اليك، لم اقصر الوصية عليك . فلي نفس تشارك نفسك، وحس يشاطر حسك . وهذا حديث نفسي أنثه . وما يخالج صدري أبثه . وإن العناية بالراحل عنا في تربية ولده خير لديه وأوفى بحقه من مطاوعة الاسف لفقده، وأنتم موضع الرجاء لخلفه . كما كنتم منتهى المجد لسلفه . وأسأل الله لكم حسن العزاء ، وصرف البأساء ، واقبال النعماء

٥

وكتب منها أيضاً جواباً عن تعزية

لم يلاقنا الدهر إلا بما ألفناه ، وما أنكرنا عليه شيئاً عرفناه ، وقد جبل الله هذه الحياة من الشوب ، وأقام حوباءها من الحوب ، فلا تخاص لها منفعة من مضرة ، ولا تخلولها مبرة من معرة ، سيطت فيها الحسنات بالسيئات ، ومزجت الطيبات بالخبيثات ، واني والزمان عركني وعركته ، وضرسني وضرسته ، فلئن ضعفت عن كسر شوكته ،فلا والله مافلني بقوته، ولئن صدّعني ، فما صدعني ، وماذا يصنع بمن ينزل ارزاءه ،حيث ينزل الناس نعماءه ،لا يلاقي الرضا عندي الاما برضيه ، ولا ينال الجزع مني الا مايرديه ، أعطيت من اليقين مذبة أطرد بها ذباب الهموم، ومن العزيمة جنة لاتخرقها الغموم ،هذا اذا لم أجد من المصيبة خلفاً ، ولم أملك لها من العوض طرفاً ،فكيف وقد وفر الله علي النعمة في بنوتك ،وأجزل لي الخلف في اخوتك ،وأسأل الله أن يطمس عين السوء ان تصل اليك

(يقول جامع الكتاب) ان الاستاذ الامام في عهده الأخير تعازي أبلغ من هذه وأحسن بياناً، وأعلى منها غلة وعرفاناً، ولكنا لم نظفر بشيء منها ، ورأينا أن لايخلو الكتاب من شيء من هذا النوع من المنشآت فاكتفينا بما وجدنا.وانا سمعنا منه انه تثمل عليه كتابة المكتوبات الشخصية ولا سيما التعازي منها

شذرات من كتبه الى جامع الكتاب

ان لديّ من شيخنا الاستاذ الامام كتباً كثيرة ، لكن أكثرها في الشؤون الخاصة ، كما يكون عادة في كتب الوالد الى ولده ولأمين سره ، ولكن قلما كان يكتب شيئاً يخلو من الحكم العامة ، أو الطرف الأدبية ، واني أختم هذا الجزء بشذرات من كتبه إلي

١

كلمة له في الاستانة

من ذلك قوله في كتاب أرسله الي من أوربا اذ كان عائداً من الاستانة بعد ذكر شيء من الاستانة منه انه صادف أحد تلاميذه السوريين هناك يطلب عملا ولا يجده ، وانه أوصى به أحد أنجال عزة بك العابد

« لا يمكن لشخص مستقيم السيرة أن يجد عملا أو يصيب خيراً في الاستانة ، وعلى كل ذي دين أن يفر منها بدينه وببقية نفسه . تعلمت في الاستانة مالم يكن يعلم الا بالمشاهدة ، وستسمع منه مايمكن التعبير عنه عند اللقاء ان شاء الله تعالى »

كلمة له من هذا الكتاب في أصحاب الالقاب الرسمية

« ماذكر عن الحموي (هو سليم باشا) ليس ببعيد عن أخلاف مثله ممن ينسون أنفسهم اذا حملوا وزر لقب من الألقاب ، اللقب يثقل عليهم فيزهق أرواحهم من أبدانهم ، ولا يبقى متعلق بأجسامهم الاخيال لا يعرف شيئا من أنفسهم

٢

وكتب في رقيم أرسله الي من رمل الاسكندرية في شأن إرجائه الرد على مجلة الجامعة

« أخذت القلم الآن لأكتب وإذا بداخل يحيي تحية الصباح ويشغلني بما لافائدة فيه . ولا أدري كيف أصيب الوقت الذي أفرغ فيه لما أريد ، وهو يفرّ مني فرار الخير من أيدي المسلمين »

٣

وكتب في رقيم أرسله الي من السنيلاوين أيام كان متنقلا يوزع الاعانات على المصابين بالحريق وكان وعدني بأن يتم مقالات الاسلام والنصرانية في تنقله ذاك

« الى الآن لم أكتب شيئاً في الموضوع لأني في شغل شاغل من هؤلاء المرزوئين في عقولهم أولا ، وفي بيوتهم ثانياً »

٤

وكتب في رقيم من رأس البر :

« ما رأيت مكانا يشغل النفس عن كل شاغل مثل رأس البر لا اشتهي فيه ان أمدّ يدي الى قلم ، وانما أطالع في أوراق متنوعة ، في أوقات متقطعة ، ولذلك أراه أفضل مكان للراحة وتبديل الهواء ، بعد شدة التعب وطول العناء ، « كنت انتظر أن يصل إليّ المنار هنا ليكون مما ألقى عليه نظري اذا أرجعته عن أمواج البحر الأبيض ، ولم أطلقه الى بساط النيل الاحمر ، فأنا جالس طول يومي بين البحرين »

٥

وكتب فى رقيم آخر من رأس البر

« رأس البر لاعقل فيه ولاعمل ، وذلك لايمنع من ارسال ملازم التفسير ، فكلام الله يرد الفارَّ من العقول ويعمر الخرب منها »

٦

ومن كتاب له من الاسكندرية يوصيني فيه بمساعدة صديقه عبد القادر أفندي القباني صاحب جريدة (ثمرات الفنون البيروتية) وكان قد جاء من بيروت الى مصر بأمر من واليها لامر من الامور التي تهم السلطان عبد الحميد نفسه ، ورآه الاستاذ في الاسكندرية - وانما أنشر منه مايدل على شدة عنايته بأصحابه وهو) :

« ثم اني احب ان تساعده في كل مايلزمه فيه مساعدتك بقدر ماتستطيع واعتبر كل خدمة تقوم بها له كأنها منك الى شخصي عند اشد مايكون من حاجتي اليها ، وسلم عليه سلاما كثيراً ، ولعل القدر يأذن برؤيته مرة ثانية اذا رجعت الى القاهرة يوم السبت والا فاني استودعه الله »

٧

ومن هذا القبيل أن شابا سوريا اسمه (كنعان شبلي) جاءه بكتاب من تلميذه ومريده الامير شكيب أرسلان الشهير يوصيه فيه بمساعدته على عمل يريده في مصر ، فأحاله علي ببطاقة مختومة كتب فيها :

« يحمل اليك هذا شاب متنور يريد أن يطلب عملا في التعليم بمصر ، ومعرفة الطلب تتوقف على معرفة كثير من الناس ، ورأيت انك ممن يسهل له ذلك . وقد جاءنا بكتاب من الامير شكيب ارسلان فأعنه على مايريد بما تستطيع والسلام »

أي أعنه بما تستطيع لانه جاء بكتاب من الامير شكيب



كلمة له في المنار



رضي الله عنه

وكتب اليَّ جوابا عن كتاب أرسلته اليه وكان في المنصورة جاء فيه كلمة تشعر بالشكوى من قلة الاقبال على المنار فقال في تعليل ذلك :

الناس في عماية عن النافع ، وفي انكباب على الضار، فلا تعجب اذا لم يسرعوا بالاشتراك في المنار ، فان الرغبة في المنار تقوى بقوة الميل الى تغيير الحاضر ، بما هو أصلح للآجل ، وأعون على الخلاص من شر الغابر ، ولا يزال ذلك الميل في الاغنياء قليلا ، والفقراء لا يستطيعون الى البذل سبيلا ، ولكن ذلك لا يضعف الامل ، في نجاح العمل

قائمة للكتاب في بعض حكمه المنثورة ، وكلمه المأثورة

(١) العلم مايعرفك من أنت ممن معك
(٢) العدل للاسعاد ، كلمة الله للايجاد
(٣) العفة ثوب تمزقه الفاقة
(٤) أشد أعوانك الحاجة اليك
(٥) انما تتم نكاية الاعداء ، بخيانة الاصدقاء
(٦) هلاك العامة فيما ألفت
(٧) جحود الحق مع العلم به كاليقين في العلم كلاهما قليل في الناس
(٨) إنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه
(٩) الرجوع عن الحق بعد العلم به محال
(١٠) من عرف الحق عز عليه أن يراه مهضوما
(١١) لا يكون أحد صادقا ومخلصا حتى يكون شجاعا
(١٢) الشباب يحمل ماحُمّل
(١٣) ماوعظك مثل لائم ، ولا قوّمك مثل مقاوم
(١٤) مادخلت السياسة في شيء إلا أفسدته
(١٥) الذل يميت الارادة
(١٦) من لا صديق له فهو عدوّ نفسه وعدو الناس
(١٧) حسبك من الصديق أن ينصرك بقلبه
(١٨) تغلغل الموت في جسم الأمة حتى أصبحت لا تسمع النداء ولا تنتفع بالدواء
(١٩) إنني لم أهنيء نفسي بوجود رجل في قومي يتجرأ أن يقول لي : أخطأت، فهل أخاف أن يتجرأ أحدهم على قتلي لاعتقاده أنني أخطأت[1]

---

(١) اخبرني أن رجلا كتب اليه كتابا هدده فيه بالقتل فقلت له وانت تمشي كل ليلة منفردا من المحطة الى الدار — اريد أن ينقي ويحترس فقال : انني الخ

(٢٠) من أهم ما يجب التصريح به بيان ما انتشر بين العامة مما يحسبونه ديناً ، وهو عند الله ليس بدين

(٢١) من شؤم بلادي أن لا أجد فيها من أستفيد منه ، وتمنيت لو كان كل الناس أعلم مني

(٢٢) ما رأيت بلداً جعل فيه الدين د كانا مثل هذا البلد (يعني مصر)

(٢٣) ينبغي لأهل العلم أن يعملوا بما يتعلمون حتى لا يصدق عليهم قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون)

(٢٤) القرآن كلام أبدي رقم على صفحات الزمان الى قيام الساعة خطابا لجميع البشر

(٢٥) في تفسير القرآن وفهم الدين لا يتبع إلا الدليل القاطع ، لأن هذا من باب العقائد ، وهو مبني على اليقين الذي لا يمكن الأخذ فيه بالظن والوهم

(٢٦) إن المسلم من أخذ القرآن بجملته من أوله الى آخره ، ولا يكون كمن قال فيهم الله تعالى (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض)

(٢٧) درجات العلم تتفاوت جداً ، والقرآن لم يعدّ منه شيئاً حقيقياً إلا العلم الذي يهدي الى العمل ، وهو المتمكن في النفس ، الذي تصدر عنه الآثار مطابقة له ، وكل من يعتقد شيئا ولم يقف على سره ولم ينفذ الى باطنه فهو عبارة عن خيالات تزول بمجرد الشبهة

(٢٨) إن خطاب القرآن لا يختص بواقعة، بل يصح أن يكون خطابا لكل الناس

(٢٩) فهم القرآن متوقف على فهم العالم ، وقد نزل للناس وهو يعبر عنهم فلا يمكن فهمه إلا بفهمهم أيضا — أي فهم حقيقة احوالهم وسنن الله فيهم

(٣٠) بقاء الاسلام الى اليوم كاف في الدلالة على أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان رسولا حقا ، وبقاء القرآن كذلك محفوظا إلى اليوم أقوى شاهد ودليل

(٣١) لابدّ أن يرفع القرآن فوق كل خلاف

(٣٢) القرآن هو الدوحة والأصل الذي يرجع اليه ، وهو الذي يحمل في الدعوة ويجرى على أحكامه

(٣٣) القرآن لا بدَّ أن يؤخذ من أقرب وجوهه ، وإياك والتعمق في التأويل الذي يجر الى البعد عن معانيه الصحيحة

(٣٤) فهم كتاب الله يأتي بمعرفة ذوق اللغة ، وذلك بممارسة الكلام البليغ منها

(٣٥) لا توجد مرآة يرى فيها عبدة الطاغوت أنفسهم أجلى من هذا القرآن ، فاذا لم يكن في قلب الانسان منفذ لدخول روح الله يخرج من كل نور إلى ظلمة

(٣٦) إني عند ما أسمع القرآن أو أتلوه أحسب أني في زمن الوحي ، وأن الرسول (ص) ينطق به كما أنزله عليه جبريل عليه السلام

(٣٧) ليس وراء القرآن غاية

(٣٨) إنما يصعّب القرآن توهم أنه صعب ، وكلما أدخل الانسان على نفسه الصعوبة صعب عليه ، وكلما مكن نفسه من الفهم مكنه الله منه

(٣٩) إن لكلام الله أسلوبا خاصا يعرفه أهله ومن امتزج بلحمه ودمه ، وأما الذين لا يعرفون منه إلا مفردات الالفاظ وصور الجمل فأولئك عنه مبعدون

(٤٠) يجب على كل شخص له ايمان صحيح أن يعقل عقائده على الوجه الذي في كتاب الله وسنة رسوله

(٤١) لو وقفنا عند حدود الله في كتابه لكنا أعز الناس وأحبهم اليه ، ولكن غلونا فوقعنا فيما وقعنا

(٤٢) معنى عبادة الله بالقرآن عند الجاهلين به أن يقرأ الشخص ولا يخطر المعاني بباله ، ولا يحرك نفسه لاوامره أو نواهيه . وقراءة العتاقات والعديّات من هذا القبيل

(٤٣) لا يمكن لهذه الأمة أن تقوم مادامت هذه الكتب فيها [1] ولن تقوم

(١) يعني كتب التعليم التي تدرس في الازهر وأمثالها

الا بالروح التي كانت في القرن الأول وهي القرآن ، وكل ماعداه فهو حجاب قائم بينه وبين العمل والعلم

(٤٤) وقال في وصف الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا :

(٤٥) هؤلاء قوم كلما رأوا أو سمعوا شيئاً يومىء إلى قوة الدين وعظمته يستنكرون ، ويقومون ويقعدون . وأما الخرافات فهم بها راضون

(٤٦) الاعتماد في تلقي العلم على مجرد الثقة دائماً يكون معه لأخ الشبهة الى ان يقف الشخص على الدليل

(٤٧) كذب الانسان على نفسه وتغريره بها يحمل الانسان كثيراً على الابتعاد عن الحق والأخذ به

(٤٨) البحث في كيفية الخلقة من شهوات العقول ولا يمكن الوصول اليه قال تعالى ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والارض﴾ الخ وكيف يمكن لمن لا يعرف الرابطة بين فكره ولسانه أن يتكلم في كيفية الخلقة

(٤٩) الفل حالة تجعل المرء مهضوم الحق قهرا

(٥٠) وجود قليل من الأمة صالحين لا يدفع عنها نقمة الله التي يعاقب بها الامم عند فسادها

(٥١) الطرق الشكية عرضة لايقاع الانسان في الخطر

(٥٢) كل شخص في العالم يفضل حالة على حالة فما دام على يقين من الوصول اليها لا يبالي بما نال من الاخطار في طريقها

(٥٣) وقال في وصف بعض المغرورين : لم ينفذ اضعف شعاع من العلم في قلبه فيجد له لذة

(٥٤) وقال في وصف أناس استحكم فيهم الجهل والجمود :

هؤلاء قوم يحبون أن يقعدوا في صندوق من الجهل ويقفلوه على أنفسهم من داخله حتى لا يأتي فاتح يفتحه ويفرّج عنهم

(٥٥) اذا انحرف الانسان من الاستقامة لايمكنه أن يصل الى حد مطلقاً

(٥٦) إن الله لم يجعل الراحة في غير العمل

(٥٧) مجاهدة الانسان بطرد الخواطر عنه في الصلاة عبادة

(٥٨) معرفة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أول الواجبات وإن كان لايجب على كل مسلم أن يعرفها بالتفصيل

(٥٩) سنة الله في خلقه ان أتباع الحق يكونون فقراء في أول الامر ، ثم سلاطين وأمراء في آخره ، لأن الحق حليم ، والباطل سفيه ، والحق لايظهر الا اذا بلغ الباطل آخر حده فحينئذ ينهض الحق لمصارعته

(٦٠) التوحيد كمال الانسان ، والوثنية هي الغالبة على الناس وذلك إما بالجهل المحض ، أو بالأخذ والتشكل مع ادعاء التوحيد

(٦١) الحياء أحسن فضيلة في الانسان تمنعه عما لايليق به ونعم الخلق الحياء

(٦٢) كل مايصدر عن الانسان مخالفاً لما يعتقده حسناً فهو ذنب

(٦٣) وقال في وصف كلام بليغ سمعه أشخاص ولم يستعدوا له :

هذا شيء سهل على ارباب العقول الساذجة البسيطة ، ولكن صعب على كل عقل تعلم البناني على السعد

(٦٤) الفكر في المخلوقات طاعة مستقلة

(٦٥) كل ميل له سلطان على الانسان يقوده إلى العمل رغماً عنه فهو معبود له ، وذلك الانسان ممن اتخذ آلهه هواه ، لان الحق لايجد من نفسه مكانا إلا قليلا

(٦٦) وقال في مخاطبة بعض أهل الجود

اذا بقيتم على جهلكم بالتاريخ إلى هذا الحد فلا يمكنكم أن تعرفوا دينكم ولا نجاح لكم في دنياكم .

(٦٧) العلم القيني أن تعلم أن الشيء واقع وان نقيضه غير واقع فمن صدم الدليل وقاومه يقال إنه عالم ولكن يقال إنه أضله الله على علم

(٦٨) المؤمن من عرف الحق من وجهه وطريقه ورجوعه عن ذلك محال

(٦٩) من فروض الكفاية على الامة ان يوجد فيها طائفة يحصلون أحكام الله من كتابه وسنة رسوله ويردون الناس اليهما

(٧٠) من يدعي أنه على حق ولا يعمل به فهو كاذب ويكون من قبيل الذين قال الله فيهم (يفترون على الله الكذب)

(٧١) اذا لم توجه الأعمال لغايتها فالله كفيل بعدم نجاحها

(٧٢) مهما بلغ الانسان في العلم لا يسلم من هاجس في نفسه يثبطه ويقول له « استرح » ولكن العاقل لا يركن اليه

(٧٣) اذا كان الانسان على علم حقيقي فهو حريص على تعليمه خصوصاً اذا كان هذا العلم من الدين ومن العجيب انا لا نرى أزهد من المسلمين في التعليم

(٧٤) من السنن الالهية التي لا تتغير ولا تبدل أن الاتفاق والاعتصام والاتحاد عماد ترقي الأمم وفوزها ، والتخاذل علة انحطاطها وذلتها ، سواء ذلك في الماضي والحاضر والمستقبل (ولن تجد لسنة الله تبديلا)

(٧٥) أكبر شيء يوجب التقوى أن يعلم الشخص أن الله قادر على الانتقام منه واعظم دليل على القدرة الالهية الاشياء التي تأتي على خلاف العادة

(٧٦) ومما قاله في مخاطبة بعض الذين اتخذوا دينهم هزواً ولعباً
استشعروا خشية الله في قلوبكم والا هلكتم

(٧٧) ومما قاله في نصيحة بعض طلاب العلم
على الطالب إذا خلا بنفسه أن يفكر كثيراً في المداني التي يرومها، وفي طريقة تعلمه وتعليمه ، وفي مقصده وغايته

(٧٨) وسئل رضي الله عنه في بعض دروس التفسير عن اختلاف المجتهدين فقال: لو اجتمعوا وتناصفوا لاتفقوا وما اختلفوا

(٧٩) الدليل على صدق الانسان فيما يدعيه من الاخلاص أن يبذل من نفسه في سبيله ، فان لم يبذل فهو كاذب ، ومهما بلغ الانسان ولم يظهر هذا المحك إخلاصه فهو غير مخلص

(٨٠) لا يصدر فعل اختياري عن مختار الا اذا صدق بالغاية

(٨١) إن الله حرم الرشوة لتقرير العدل في الأحكام ، لأن الحاكم اذا لم يكن له هوى في أحد الخصمين لا يبقى عنده سوى الحق

(٨٢) من الناس من يطلب كماله بتنقيص الكامل ، وهذا نهاية الخسران
(٨٣) لاصلاح مع الجهل
(٨٤) الفقه الحقيقي أن تنظر الى شرع الله في جملته ومجموعه (أي لا في كل مسئلة بانفرادها)
(٨٥) ان الذي يعرف الحق يعز عليه أن يرى الحق مهاناً
(٨٦) التعصب فى المذاهب يعمي الشخص حتى عن لغته
(٨٧) من كان مطلبه الحق ، ولم تدخل نفسه بينه وبين الحق ، أمكنه أن يتفق مع من كان مثله ، ولا يتأتى الاختلاف بين طالبي الحق
(٨٨) تعظيم الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يكون باتباع أوامره واجتناب نواهيه
(٨٩) ثفنع بعض الناس بلفظ الاجماع حتى أصبحت لهم ديدناً ، وحتى زعموا أن كل ماعليه العامة فهو إجماع
(٩٠) محاسبة النفس وخلجان القلب ركن كبير من أركان الايمان ،وقد جعلها الصوفية شرطا مهماً في نجاح الانسان
(٩١) أخفى شيء على الانسان نفسه، وليس من السهل عليه أن يعرف دخائلها
(٩٢) لا يمكن لشخص أن يدعي أنه خلص من السخط على الله في قلبه الا اذا تقبل كل مصيبة بغاية الطمأنينة والركون الى الله والصبر بحيث يكون كالجبل لا يتزلزل
(٩٣) الذي ينظر الى الحق ويحرص عليه لا يمكن أن ينخدع بقول من قائل مهما بلغت ثقته به ما لم يعرضه على الحق الذي عنده ويمحصه
(٩٤) أقوى شرط في النجاح قوة العزيمة فيه ، ويصير الانسان على الفوز بغرضه فاذا تضعضعت العزيمة ضاع نجاحه ،وهذا شأن المسلمين الآن
(٩٥) أمر القدوة في الدين أهم شيء في العقائد والأعمال، فلابدّ أن يبحث فيه الانسان بحثاً جيداً ، ويقف عليه وقوفا تاما (أي فلا يتخذ كل من ادعى العلم قدوة له)

(٩٦) لا يمكن الانسان أن يعمل بمصلحة العامة مالم يحس برابطة بينه و بينهم

(٩٧) يجب على علماء الدين في كل زمن أن يعطوه حقه من شرح مسائله على حسب مقتضيات الأحوال

(٩٨) إن الذي يحفظ العلم هو العمل به

(٩٩) انما يأتي بالمبالغة في قوله ، من كان مجازفا في رأيه ، والعقل السليم لا يتعدى الصدق

(١٠٠) الحجاب المانع لكثير من معرفة مايتعلق بالشؤون الالهية على مايقرب من الحقيقة تحكم الشاهد في قلوبهم (أي قياس عالم الغيب على عالم الشهادة)

(١٠١) لا يمكن للانسان أن يكون صادقاً ومخلصاً مع الله حتى يكون شجاعا

(١٠٢) ان قراءة التاريخ واجب من الواجبات الدينية ، وركن من أركان اليقين فلا بدَّ من تحصيله

(١٠٣) الايمان الذي يجتمع معه أدنى خوف من المخلوقات ليس بايمان ومن كان عنده من الثقة بالله مالا يخشى معه أحداً فهو المؤمن ، وهذا الايمان هو الذي يضع رجل صاحبه في عتبة الجنة

(١٠٤) وقال في وصف مدينة القاهرة : مارأيت بلداً جعل فيها الدين دكانا مثل هذه البلد

(١٠٥) وقال في وصف بعض أهل الجمود : هذه الرؤس ماخلقت إلا لتتفكر لالوضع العمائم يتنافس بعضهم بعضا في تضييع الزمن وفي هذا خسران الدنيا والآخرة

(١٠٦) لا تشحذ البصيرة بشيء مثل الفكر

(١٠٧) ماخلق الله في العالم من هو أشأم على نفسه من الحاسد

(١٠٨) إن الانسان تضيق حياته وتتسع على مقدار مايعرف اسمه ويشتهر

(١٠٩) إن الله عالم بكل شيء ولا يتقرب إلى الله بشيء كالعلم

(١١٠) تنقضي الاجيال والاعوام ولا يمكن أن ينقضي النظر في الحقائق الكونية ولا في الحقائق التي في نفس الانسان

(١١١) اذا وجد الحب في قلب أسعده واذهب شقاءه ، وأسعد المحبات محبة الصداقة ، فاذا وجدت المحبة الخالصة الصحيحة بين شخصين أسعدتهما أعظم سعادة ومن الأسف أن كثيراً منا لايمكنهم أن يقدروا المحبة قدرها

(١١٢) من أكبر التقوى علو الهمة ، ومن أكبرها السعي في مصلحة الأمة ونفع الناس

(١١٣) أساس سعادة المسلم ثقته بالله وعمله لرضاه

(١١٤) لاوحشة في النفس كوحشة الجهل وكلما علم الانسان شيئاً أنس به وسر

(١١٥) لايتأتى القطع بشيء إلا بعد إعمال الفكر

(١١٦) وقال في وصف بعض اهل الفساد : هذا صنف مثل ديدان الفساد لاتعيش إلا في القذر

(١١٧) الشعر اذا لم تكن الفاظه آخذة بجزء من روح الشاعر فليس بشعر

(١١٨) لايشتهر الانسان في شيء إلا اذا وصل فيه الى حد يعجز عنه الكثيرون

(١١٩) وقال في حالة من الاحوال : نعوذ بالله من الجهل الذي تفقد به القلوب حتى اذا بحث الانسان عن قلبه بين جنبيه لايجده

(١٢٠) العبادة تحديد مابين العباد وبين الله فلا يجوز فيها القياس

(١٢١) لايطلق على الله من الاسماء إلا ماجاء في كتابه أو في حديث متواتر لاننا لانعرف من الله إلا ماعلمنا الله

(١٢٢) ترك الاشتغال بدقائق الفصاحة والبلاغة والبراعة موت للحياة العقلية

(١٢٣) من شر الهوى على الانسان أن يتعلق بما سمع ، وطالب الحق لايتعلق بقول غيره إلا اذا عرف أنه يوصله الى الحق

(١٢٤) وقال في وصف بعض أهل الجمود

(١٢٥) وضعوا لانفسهم لغة جديدة غير التي انزل الله بها شرعه ، ولذا تراهم في مثل وقفة الواقف يحارون في الفهم حيرة لاخلاص منها

(١٢٦) أشد التعب أن ترى من حولك مرضى وانت لاتستطيع معالجتهم

(١٢٧) كل ما سمع عن الرسول ينبغي الوقوف عنده بلا زيادة ولا نقصان ومن لم يقف فقد تعدى على الشرع وخرج عن الحق

(١٢٨) وجاءه رجل يشكره على مساعدته له فقال له كلنا نشكر الله

(١٢٩) من كان عنده مريض فهو المريض

(١٣٠) ورأى رضي الله عنه كتابا من كتب الحكم فقال

(١٣١) هذه الكتب تذكر الانسان بنفسه

(١٣٢) الباطل لا يصير حقا بمرور الزمن (هذه الكلمة قالها جوابا للخديوي عند ما سأله عن مسأله الترقية وقال له هذا شيء مضى عليه زمن)

(١٣٣) انما ينهض بالشرق مستبد عادل

﴿ تم الجزء ﴾

هذا وإن له رضي الله عنه حكما أخرى كما أن له رسائل ومنشآت كثيرة منها ما جعلناه في سيرته وهي الجزء الأول من هذا الكتاب وإذا اجتمع عندنا شيء كثير منها بعد فاننا نودعه في جزء رابع نجعله ذيلا لهذا التاريخ وننشر فيه مايضنُّ به ان يضيع مما خوطب به من المنثور والمنظوم وعندنا منه نفائس كثيرة ،

نسأل الله تعالى أن ينفع بهذه الآثار

ويتغمد صاحبها بالرحمة

والرضوان